التفسير الموضوعي
لـلقـرآن الـكـريـم

القرآن
في
القرآن والسنة
وسائر كتابات الوحي

للفقيه المفسر المصلح القرآني
سماحة آية اللهّٰ العظمى
محمد الصادقي الطهراني

المدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيّما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا»

«تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا»

وصلواته التامات الزاكيات على من أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا!

اللهم صل وسلم وزد وبارك على محمد عبدك ورسولك ونبيك ونجيِّك وصفوتك وصفيك وخير خيرتك نبي الأمة وإمام الرحمة، وعلى آله الطاهرين المعصومين الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا.

رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا.

رب وفقني لتقواك واجعل لي من أمري يسرا وكفر عني سيئاتي وأعظم لي أجرا. واجعل لي مخرجا و«فرقانا» انك كنت بنا بصيرا.

رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي وكفى بك هاديا ونصيرا.

إن القرآن «نور وبرهان»: «قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا»[1] و«بيان»: «هذا بيان للنَّاس وهدىً وموعظة للمتَّقين»[2] و«مبين»: «تلك آياتُ الكتابِ المبين»[3].«قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون»[4] وتبيان: «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء»[5].

وهذا النور البرهان ـ المبين البيان التبيان: قرآن عربي لا عوج له في كونه وكيانه، في بيانه وبرهانه، مُفصِحا بليغا بأعلى القمم لأعلى القِيَم في تبيانه، وترى النور بحاجة الى نور، والبرهان يحتاج الى برهان؟! وهو نور الأنوار «نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء...»!.

فـ «إن هذا القرآن هو النور المبين، والحبل المتين، والعروة الوثقى، والدرجة العليا، والشفاء الأشفى، والفضيلة الكبرى، والسعادة العظمى، من استضاء به نوَّره، ومن عقد به أموره عصمه الله، ومن تمسك به أنقذه الله، ومن لم يفارق أحكامه رفعه الله، ومن استشفى به شفاه الله، ومن آثره على سواه هداه الله، ومن طلب الهدى في غيره أضله الله، ومن جعله شعاره ودثاره أسعده الله، ومن جعله إمامه الذي يقتدي به، ومُعوَّله الذي ينتهي اليه أدّاه الله إلى جنات النعيم والعيش السليم».[6]

---

[1]). سورة النساء ٤:١٧٤.

[2]). سورة آل عمران ٣:١٣٨.

[3]). سورة الشعراء ٢٦:٢.

[4]). سورة الزمر ٣٩:٢٨.

[5]). سورة النحل ١٦:٨٩.

[6]). تفسير الامام الحسن العسكري عن أبيه عن آبائه عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله.

ف«إنه هدىً من الضلالة، وتبيان من العَمى، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة، وضياءٌ من الأحداث وعصمة من الهلكة، ورشد من الغواية، وبيان من الفتن، وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة، وفيه كمال دينكم، وما عدل أحد عن القرآن إلاّ إلى النار».[1]

«فاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفَّع، وماحل مصدَّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيلٌ وبيانٌ وتحصيلٌ، وهو الفصل وليس بالهزل... ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له نجوم (تخوم) وعلى نجومه (تخومه) نجوم (تخوم) لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنار الحكمة، ودليل المعرفة لمن عرف الصفة، فليجلُ جالٍ بصرَه، وليبلغ الصفة نظره ينجُ من عَطْب ويتخلص من نَشْب، فإن التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلص وقلة التربص».[2]

«نورٌ لا تطفأ مصابيحه، وسراج لا يخبؤ توقُّده، وبحر لا يدرك قعره، ومنهاج لا يضل نَهْجه، وشعاع لا يظلم ضوءه، وفرقان لا يخمد برهانه، وبنيان لا تهدم أركانه، وشفاءٌ لا تخشى أسقامه، وعز لا تهزم انصاره، وحق لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يفيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريّا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاجا لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده داءٌ، ونورا ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقا عروته، ومعقلاً منيعا ذروته، وعزا لمن تولاه، وسلما لمن دخله، وهدىً لمن ائتم به، وعذرا لمن انتحله، وبرهانا لمن تكلم به، وشاهدا لمن خاصم به، وفلْجا لمن حاجَّ به، وحاملاً لمن حمله، ومطيَّة لمن أعمله، وآية لمن توسم، وجُنَّة لمن استلأم، وعلما لمن وعى، وحديثا لمن روى، وحكما لمن قضى».[3]

وهو «بيان ما قبلكم من خبر، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من وليه من جبار فعمل بغيره قصمه الله، ومن التمس الهدى في غيره اضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. لا تزيغه الأهوية، ولا تلبسه الأقضية، ولا يُخلق على الرد، ولا ينقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، هو الذي لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا: «إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد» من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن اعتصم به فقد هدي إلى صراط مستقيم، هو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.[4]

---

[1]). اصول الكافي ٢: ٦٠٠ ـ أبو علي الاشعري عن بعض أصحابه عن الخشاب رفعه قال قال ابو عبدالله عليه‌السلام: والله لا يرجع الامر والخلافة الى ابي بكر وعمر أبدا ولا إلى بني أمية ابدا ولا في ولد طلحة والزبير ابدا وذلك انهم نبذوا القرآن وابطلوا السنن وعطلوا الاحكام وقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: ...

[2]). اصول الكافي ٢: ٥٩٨ علي بن ابراهيم عن ابيه عن النوفلي عن السكوني عن ابي عبدالله عليه‌السلام عن أبيه عن آباءه عليهم‌السلام قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله...

[3]). مما يروى عن علي أمير المؤمنين من غزير كلامه حول القرآن (نهج البلاغة) الخطبة ١٩٣ ص ٢٢ ـ عبده.

[4]). تفسير العياشي باسناده عن الحارث الاعور قال دخلت على أمير المؤمنين عليه‌السلام فقلت يا أمير المؤمنين! انا اذا كنا عندك سمعنا الذي نسد به ديننا واذا خرجنا من عندك سمعنا اشياء مختلفة مغموسة ولا ندري ما هي ـ قال: أو قد فعلوها؟ قال: قلت: نعم

إنه «بقية استخلفها عليكم كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبط به أشياعه، قائد إلى الرضوان اتباعه مؤدّ الى النجاة استماعه، بـه تُنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المخدرة وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرايعه المكتوبة».[١]

وقد سئل علي عليه‌السلام هل عندكم من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله شيء من الوحي؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرءَ النسمة، إلا أن يعطي عبدا فهما في كتابه»[٢] تدليلاً على أن القرآن هو الوحي الاصيل، والضابطة بلا بديل، ووحي السنة هامشي ليس يؤصِّل إلا فهما لوحي القرآن وتفصيلاً لرموزٍ من القرآن، ليس لها دلالة قرآنية الا للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.

فلنخضع للقرآن كما لله فانه خير كلام لله، وقد روي عن الإمام الصادق عليه‌السلام انه قال: «من قرأ القرآن ولم يخضع له ولم يرقَّ عليه ولم يغشَ حزنا او وجلاً في سرّه فقد استهان بعظم شأن الله وخسر خسرانا مبينا، فقاريء القرآن يحتاج الى ثلاثة اشياء: قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خال، فاذا خشع لله قلبه فرّ منـه الشـيطان الـرجيم، وإذا تفـرغ نفسه من الاسباب تجرد قلبه للقراءة فلا يعترضه عارض فيحرمه نور القرآن وفوائده، واذا اتخذ مجلسا خاليا واعتزل من الخلق بعد ان أتى بالخصلتين الأوليين استأنس روحه وسره بالله، ووجد حلاوة مخاطبات الله عبـاده الصـالحين، وعلم لطفه بهم، ومقام اختصاصه لهم، بقبول كراماته، وبدائع اشاراته، فاذا شرب كأسا من هذا المشرب فحينئذ لا يختار على ذلك الحال حالاً وعلى ذلك الوقت وقتا بل يؤثره على كل طاعة وعبادة لأن فيه المناجاة مع الـرب بـلا واسطة فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك، وكيف تجيب اوامره ونواهيه، وكيف تمتثل حدوده فانه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فرتله ترتيلاً، وقف عنـد وعـده ووعيـده، وتفكر في أمثاله ومواعظه واحذر ان تقع من اقامتك حروفه في اضاعة حدوده».[٣]

فالاصل في كل شارد ووارد هو القرآن، يُرَّد اليه غير الضروري من الدين، ليعرف به المارد عن الوارد، ويميز به الغث عن السمين والخائن عن الأمين.

واذا كان القرآن هو المعوَّل والمرجع لسواه، فبأن يكون مرجعا لنفسـه أحـرى، حيـث التمسـك بـالقرآن في الأمـور المشتبهة إصلاح لها، ووصول للرشد فيها، فهو احق ان يمسَّك في تفسيره بنفسه: «والذين يمسّكون بالكتاب وأقـاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين»[٤] فالذين لا يمسكون بالكتاب او يمسِّكون في تفسير الكتاب بغير الكتاب هم مـن المفسدين، حيث المرجع الوحيد في المختلف فيه هو الله، ولا يمثل الحكم فيه إلا كتاب الله: «وما اختلفتم فيـه مـن شيءٍ فحكمه الى الله»[٥] ثم وموقف السنة المحمدية هو موقف الهامش الشارح لكتاب الله،[١] ما ثبت أنها من سنته، و

قال سمعت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول أتاني جبرئيل فقال يا محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله! ستكون في أمتك فتنة ـ قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب اللّه فيه...

[١]). من خطبة الصديقة الطاهرة الزهراء بنت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله حينما غصب حقها.

[٢]). عن مصباح الشريعة المنسوب الى الامام الصادق عليه‌السلام.

[٣]). عن مصباح الشريعة المنسوب الى الامام الصادق عليه‌السلام.

[٤]). سورة الاعراف ٧: ١٧.

[٥]). سورة الشورى ٤٢: ١٧.

لا يعرف إلا بموافقته لكتاب الله: «يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيءٍ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً»[٢] فـ «اردد الى الله ورسوله ما يُضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور، والرد الى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد الى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة».[٣]

ثم و«اولو الأمر منكم» هم حملة السنة المحمدية السليمة، كما امر الله بطاعتهم المطلقة بعده وبعد رسوله: فطاعة اولي الأمر هي طاعة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث لا يصدرون الا عن الرسول، فمثنى الذيل في الآية «فردوه الى الله والرسول» هو مثلث الصدر فيها «.. واولي الأمر منكم» فانهم لا يحملون إلا سنة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.

ففي هذا المثلث البارع من الطاعة المطلقة طاعة الله هي القاعدة الرصينة وطاعة الرسول بعدها هي الزاوية الأولى حيث يصدر عن الله، و«اولى الامر منكم» هم الزاوية الأخيرة حيث يصدرون عن رسول الله، ولا سبيل للتعرف الى وا قع السنة التي ترويها الرواة الا موافقتها لكتاب الله و«ذلك خير وأحسن تأويلاً»: مأخذا ومآلاً.

فـ «القرآن يفسر بعضه بعضا وينطق بعضه على بعض»[٤] وآيات العرض واحاديثه المتواترة تفرض على المستفسرين عن آي الذكر الحكيم ان يبدءوا بالتدبر في القرآن نفسه كما يجب، ثم عرض الاحاديث المفسرة للقرآن على القرآن فيستفسر الموافق له ويرفض المخالف، لكي يحصل على معاني متلائمة، غير متضاربة: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختِلَـفاً كَثِيراً»[٥]

ولا يعني تفسير القرآن بالقرآن ضرب بعضه ببعض دون رعاية لمناسبات الآيات، وأن تُنثَر آياته نثر الدقل دون تأمل في رباطاتها «وقد رأى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قوما يتدارئون فقال: «هلك من كان قبلكم، بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وانما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه الى عالمه».[٦]

«وخرج على قوم يتراجعون القرآن وهو مغضب فقال: «بهذا ضلت الأمم باختلافهم على أنبيائهم وضرب الكتاب بعضه ببعض».[٧]

فعلى المفسر التدبُّر التام في آي الذكر الحكيم، متحللاً عما أثبته هو او أثبتته الطرق العلمية أو العقلية ـ غير

---

[١]). شرحا تفسيريا للقرآن بالقرآن نفسه، إلا الحروف الرمزية المشروحة بوحي القرآن خاصا للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[٢]). سورة النساء ٤: ٥٩.

[٣]). نهج البلاغة عن الامام علي امير المؤمنين عليه‌السلام.

[٤]). نهج البلاغة عن الامام علي امير المؤمنين عليه‌السلام.

[٥]). سورة النساء ٤: ١٨.

[٦]). الدر المنثور ـ اخرج احمد عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[٧]). الدر المنثور ـ اخرج ابن سعد وابن الضريس في فضائله وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

المطلقة ـ أمّاهيه، مستنطقا كل آية بنظائرها في المغزى، فيستفسر عنها اشباهها ونظائرها، متثبتا عن الاحاديث الموافقة الملائمة لها.

فاختلاف الروايات في تفسير الآيات، واختلاف المفسرين من جراءه، ومن إختلاف أفهامهم وأساليبهم، هذه الاختلافات ترد إلى القرآن نفسه، فلا يصدَّق عليه إلاّ ما يصدقه.

إذا فمسالك التفسير كلّها هباءٌ وخواءٌ إلاّ تفسير القرآن بالقرآن، كما وان الرسول والائمة من آل الرسول سلكوا هذا المسلك القويم في تفسير آي الذكر الحكيم، وعلى المفسرين ان يتعلموا هذه الطريقة المثلى من هؤلآء المعلمين المعصومين. رجوعا الى أساليبهم السليمة في تمسكهم بالكتاب، تفسيرا للآيات بالآيات، ثم سلوكا في صراطهم المستقيم على طول الخط ومرّ الزمن.

فالتفسير بين حق وباطل، تفسير بالقرآن وتفسير بالرأي «ومن فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار» «اخطأ أو اصاب كان مصيره الى النار» ولا يعني التفسير بالرأي إلا ان تحمل معك رأيا لك او لغيرك من قولة أو رواية غير ثابتة، ثم تحمِّله على آية لا تتحمَّله، او لا توافقه او تُخالفه، وليس الكثير من اختلافات المفسرين في تفسير الآيات إلاّ لتفرقهم أيادي سبا عن تفسيره بنفسه، او عدم المؤهلات لمن حاول تفسيره بنفسه، فان له شروطا جمّة.[1]

فالمحدث يفسره بما يجده من أحاديث تناقلتها الرواة، ناظرا الى أسانيدها، غضا عن متونها، فاذا قيل: إسناده صحيح، صحّح به تفسير القرآن وافقه ام خالفه، رغم وجود الكثير من وثنيات واسرائيليات ومسيحيات وأضرابها من خرافات تسرَّبت الى أحاديث الإسلام فترسّبت في كتب الحديث، مهما صحت أسنادٌ منها او ضعفت.

كما يروى من طريق السنة «ان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله سُحِرَ» مسا من كرامة النبوة، والقرآن يقول عن هؤلآء المختلقين إنهم ظالمون: «إذ يقول الظالمون ان تتبعون إلاّ رجلاً مسحورا».[2][3]

---

[1]). روى ابو عبد اللّه محمد بن ابراهيم بن جعفر النعماني في تفسيره باسناده عن اسماعيل بن جابر قال: سمعت ابا عبد اللّه عليه‌السلام يقول: ان اللّه تبارك وتعالى بعث محمدا صلى‌الله‌عليه‌وآله فختم به الانبياء فلا نبي بعده وأنزل عليه كتابا فختم به الكتب فلا كتاب بعده احّل فيه حلالاً وحرم فيه حراما فحلاله حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة فيه شرعكم وخبر من قبلكم وبعدكم وجعله النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله علما باقيا في اوصياءه فتركهم الناس وهم الشهداء على اهل كل زمان وعدلوا عنهم ثم قتلوهم واتبعوا غيرهم واخلصوا لهم الطاعة حتى عاندوا من اظهر ولاية ولاة الامر وطلب علومهم قال اللّه سبحانه: «فنسوا حظا ما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم» وذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض واحتجوا بالمنسوخ وهم يظنون انه الناسخ واحتجوا بالمتشابه وهم يرون انه المحكم واحتجوا بالخاص وهم يقدِّرون انه العام واحتجوا باوّل الآية وتركوا السبب في تأويلها ولم ينظروا الى ما يفتح الكلام والى ما يختمه ولم يعرفوا موارده ومصادره إذ لم يأخذوا عن اهله فضلوا واضلوا واعلموا رحمكم اللّه من لم يعرف من كتاب اللّه عز وجل الناسخ من المنسوخ والخاص من العام والمحكم من المتشابه والرخص من العزائم والمكي والمدني واسباب التنزيل والمبهم من القرآن في الفاظه المنقطعة والمؤلفة وما فيه من علم القضاء والقدر والتقديم والتاخير والمبين والعميق والباطن والابتداء من الانتهاء والسؤال والجواب والقطع والوصل والمستثنى منه والجار فيه والصفة لما قبل مما يدل على ما بعد والمؤكد منه والمفصل وعزائمه ورخصه ومواضع فرائضه واحكامه ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحدون والموصول من الالفاظ والمحمول على ما قبله وعلى ما بعده فليس بعالم بالقرآن ولا هو من اهله ومتى ادعى معرفة هذه الاقسام بغير دليل فهو كاذب مرتاب مفتر على اللّه الكذب ورسوله ومأواه جهنم وبئس المصير».

[2]). سورة فاطر ٣٥: ٩.

[3]). راجع ج ٣٠، ص ٥٣٩ حول آية النفاثات في العقد، وج ١٥ حول آيته وكذلك الفرقان الآية ٨.

ويروى من طريق الشيعة في تفسير دابة الأرض أنها علي عليه‌السلام! مسّا جاهلاً او متجاهلاً من كرامة الخلافة الإسلامية المنصوصة المنصوبة المعصومة.
وكثير أمثال هذه الخرافات الزور التي تناقلتها الرواة والمفسرون من الفريقين دون رعاية لصريح القرآن او ظاهره حيث يمجّه وينافيه.
فهذا ليس تفسيرا للقرآن بالسنة، وانما بالرواية التي يعتبرهارواتها سنة ويتقبلها المفسر بالسنة كسنة، وما هي سنة، فانها ليست إلاّ قول الرسول او فعله أو تقريره، ولا سبيل إليها قويما إلاّ موافقتها للقرآن حيث لا يتبع الرسول في كل ما يفعل او يقول إلا وحي القرآن: «إن أتبع الا ما يوحى الي»[1] فلا يصدَّق الرسول ما يكذِّبه القرآن وان صحت أسناده، وقد يصدق عليه ما يصدقه القرآن وان ضعفت أسناده، فلا يُسنِد الحديث صحيحا إلا متنه الموافق للقرآن دون سنده، ولا نحتاج الى صحة السند في متن صحيح إلا لإتقان النسبة الى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فان المتن الصحيح لا يختص بالرسول، ثم لا تفيدنا صحة السند في متن لا يلائم القرآن، فان الباطل لا يصدر عن الرسول.[2]
وقد تواتر عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله قوله: «لقد كثرت عليَّ الكذّابة وستكثر فمن كذب عليّ متعمدا فليتبوء مقعده من النار فإذا أتاكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله وسنتي فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به».[3]
او «ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم اقله»[4] حيث السنة ـ وهي الشارحة الموافقة لكتاب الله ـ تندغم في كتاب الله، دون ان تكون فيها محادة لكتاب الله، وانما هي كظل وهامش يوضح منه ما خفي منه على القاصرين.
ثم لا يفرق في هذا العرض حديث البرّ عن الفاجر، كما في الصادقي عليه‌السلام: «ما جاءك في رواية من برٍّ او فاجر يوافق

---

[1]). سورة الانعام ٦: ٥٠.

[2]). حالات الحديث اربع: ١ ـ صحيح السند والمتن ٢ ـ ضعيف السند والمتن ٣ ـ صحيح السند ضعيف المتن ٤ ـ ضعيف السند صحيح المتن ـ فالاول يسند الى الرسول والأئمة من آل الرسول والثاني يضرب عرض الحائط وكذلك الثالث اذا لم يتحمل التأويل، والرابع يصدق ولكن لا يسند الى الرسول ـ والاصل في صحة المتن موافقته لكتاب اللّه او سنة رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله الثابتة، ولا دور للسند الا صحة الإسناد الى المسند اليه إذا كان المتن صحيحا، فصحة السند لا تصحح المتن، وانما هي من اسباب صحة النسبة على هامش صحة المتن.

[3]). رواه الطبرسي في الاحتجاج بالاسناد الى ابي جعفر الجواد عليه‌السلام عند احتجاجه على يحيى بن اكثم ـ ورواه مثله الكافي ١: ٦٩ عن محمد بن اسماعيل عن الفضل بن الشاذان عن ابن ابي عمير عن هشام بن الحكم وغيره عن ابي عبد اللّه وفي المحاسن ٢٢١ البرقي عن ابي ايوب المدائني عن ابن ابي عمير عن الهشامين جميعا وغيرهما عنه عليه‌السلام وفي المستدرك (٣: ١٨٦) محمد بن مسعود العياشي فى تفسيره عن هشام بن الحكم عن ابي عبد اللّه، الا أنها بحذف سنتي، وانما «كتاب اللّه».

[4]). رواه الطبرسي في الاحتجاج بالاسناد الى ابي جعفر الجواد عليه‌السلام عند احتجاجه على يحيى بن اكثم، ورواه مثله الكافي ١: ٦٩ عن محمد بن اسماعيل عن الفضل بن الشاذان عن ابن ابي عمير عن هشام بن الحكم وغيره عن ابي عبد اللّه وفي المحاسن (٢٢١) البرقي عن ابي ايوب المدائني عن ابن ابي عمير عن الهشامين جميعا وغيرهما عنه عليه‌السلام وفي المستدرك (٣: ١٨٦) محمد بن مسعود العياشي فى تفسيره عن هشام بن الحكم عن ابي عبد اللّه، الا أنها بحذف سنتي، وانما «كتاب اللّه».

القرآن فخذوا به، وما جاءك في رواية من بر او فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به».[1]
«.. فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا وسنة نبينا صلى‌الله‌عليه‌وآله فإنا اذا حدثنا قلنا قال الله عز وجل وقال رسول الله»[2] كما رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ليس له قالٌ إلا قال الله، بلفظ القرآن ام سواه ـ فـ «ما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحي يوحى» وكيف يناقض او يضاد وحيُ الله وحيَه!.
فالقرآن هو النور الذي يصوِّب الصواب ويخطِّيء الخطأ، وكما يروى عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قوله: «إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورٌ فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه».[3]
وفي الباقري عليه‌السلام «انظروا أمرنا وما جاءكم عنا فان وجدتموه للقرآن موافقا فخذوا به وان لم تجدوه موافقا فردوه وان اشتبه الأمر عليكم فقفوا عنده وردوه إلينا حتى نشرح لكم ما شرح لنا».[4]
وفي الصادقي عليه‌السلام: «ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف»[5] وهكذا نجد مستفيضا من الاحاديث ان ما لا

---

[1]). المستدرك (٣: ١٨٣) عن محمد بن مسلم قال: قال ابو عبد اللّه عليه‌السلام: يا محمد، ومثله ما في الصادقي عليه‌السلام ايضا سئل عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به قال اذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهدا من كتاب اللّه او من قول رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله والا فالذي جاءكم به اولى» وفي الكافي ١: ٦٩ محمد بن يحيى عن عبد اللّه بن محمد عن علي بن الحكم عن ابان بن عثمان عن عبد اللّه بن ابي يعفور قال وحدثني الحسين بن ابي العلاء أنه حضر ابن ابي يعفور في هذا المجلس قال سألت ابا عبد اللّه عليه‌السلام ورواه في المحاسن (٢٢٥) مثله.

[2]). رجال الكشى (١٤٦) حدثني محمد بن قولويه والحسين بن الحسن البندار القمي قالا حدثنا سعد بن عبد اللّه قال حدثني محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس بن عبد الرحمن ان بعض اصحابه سأله وانا حاضر فقال له: يا محمد! ما اشدك في الحديث واكثر انكارك لما يرويه اصحابنا فما الذي يحملك على رد الاحاديث فقال حدثني هشام بن الحكم انه سمع ابا عبد اللّه عليه‌السلام يقول: لا تقبلوا علينا حديثا الا ما وافق القرآن والسنة او تجدون معه شاهدا من احاديثنا المتقدمة فان المغيرة بن شعبة لعنه اللّه دسّ في كتب اصحابي احاديث لم يحدث بها ابي فاتقوا اللّه..

[3]). اصول الكافي ١: ٦٩ علي بن ابراهيم عن ابيه عن السكوني عن ابي عبد اللّه عليه‌السلام عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله
وفي امالي الصدوق (٢٢١) قال: حدثنا احمد بن علي عن ابراهيم بن هاشم قال: حدثنا ابي عن ابيه ابراهيم بن هاشم عن الحسين بن يزيد النوفلي عن اسماعيل بن مسلم الكوفي عن الصادق جعفر بن محمد عليهما‌السلام عن ابيه عن جده قال قال علي عليه‌السلام قال صلى‌الله‌عليه‌وآله وذكر مثله، وفي المحاسن (٢٢٦) البرقي عن النوفلي عن السكوني عن ابي عبد اللّه عليه‌السلام عن آبائه عن علي عليه‌السلام مثله عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله الا انه قال: فخذوا به، وفي الوسائل ٣: ٣٨٢ سعيد بن هبة اللّه الراوندي عن محمد وعلي ابني علي بن عبد الصمد عن ابيهما عن ابي البركات علي بن الحسين عن ابي جعفر بن بابوية عن ابيه عن سعد بن عبد اللّه عن يعقوب بن يزيد عن محمد بن ابي عمير عن جميل بن دراج عن ابي عبد اللّه عليه‌السلام قال: الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، وذكر مثله، وفي المستدرك ٣: ١٨٦ محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن اسماعيل بن ابي زياد عن جعفر عن ابيه عن علي عليه‌السلام انه قال في حديث وذكر مثل ما في المحاسن.

[4]). الوسائل ٣: ٣٨٣ الحسن بن محمد الطوسي في الامالي عن ابيه عن المفيد عن جعفر بن محمد عن محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس عن عمرو بن شمر عن جابر عن ابي جعفر عليه‌السلام.

[5]). فهناك كثير من الاحاديث هي ظنية بين مشكوكة الصدور وظنيته، ومتحملة التقية ام تغيير النص الى غيره، ام منسوخة أماهيه ولكن القرآن لا يتطرق فيه شيء منها.

يوافق كتاب الله او يخالفه فهو زخرف او فاضربوه عرض الحائط، وكفى بما اوردناه نماذج وان كان يكفينا كتاب الله: «اولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون»[١] «وما اختلفتم فيه من شيءٍ فحكمه الى الله» وما اجمله توافقا بين الكتاب: المتن، والسنة: الهامش في وجوب عرض الحديث على القرآن!.

وهنا فوائد هامة:

١ ـ آيات العرض واحاديثه شاهدة على أن ظهور الكتاب ـ فضلاً عن صريحه ـ حجة، وإلاّ فكيف يقاس الحديث على كتاب غير مفهوم، ام لا حجة في دلالاته؟ وما قولة القائل: «القرآن قطعي السند ظني الدلالة والحديث ظني السند قطعي الدلالة» إلا خرافة جارفة ومسا من كرامة القرآن الذي بيانه افصح بيان وابلغ تبيان[٢] وما تفسير السنة للكتاب الا ايضاحا لما أجمل على القاصرين، لا لقصور في دلالات الكتاب، فانها بينات حتى في المتشابهات، وانما الغامض هو المعاني العالية المطلّة على الافهام، دون الألفاظ التي هي في أعلى قمم الفصاحة والبلاغة، والرواية القائلة ان القرآن لا يفسِّر الا بالاثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله او عن الائمة عليهم السلام تؤوَّل الى الحظر عن تفسيره بالرأي، ويا ترى إن تفسير القرآن بالقرآن محظور، ثم واذا فسرته بالحديث فلا محظور! رغم ان القرآن تبيان لكل شيءٍ وبيان للناس بلسان عربي مبين. فكيف يكون بيانا للناس ولا يفهم من ظاهره شيءٌ، ان ذلك وصف له باللغز والمعمّى! وقد مدح الله الممسكين به: «والذين يمسكون بالكتاب واقاموا الصلاة إنا لا نضيع اجر المصلحين»[٣] انّهم هم مصلحون، ومدح المستنبطين: «لَعَلِمَه الذين يستنبطونه منهم»[٤] وذم غير المتدبرين في القرآن: «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها»[٥] ثم واحاديث العرض والثقلين تحملنا على الرجوع اليه كأصل، وكيف نراجع ما لا حجة في ظاهره، وكيف نعرض على ما لا يُفهم شيءٌ من ظاهره، إن هذا الا هُراء جارفة تمس من كرامة هذا الكتاب المبين الذي فيه تبيان كل شيءٍ!

٢ ـ ادلة العرض تحثنا على التدبر في القرآن كما يصح ويجب، قدر ما يمكن ان يعرض عليه الحديث، فيعرف الغث عن السمين والخائن عن الأمين، وما الاحاديث المروية إلا كهوامش مختلفة على متن الكتاب، ما تلائم منها المتن تُقبل له شارحة، وما لا تلائم تُضرب عرض الحائط، وما يشك فيه يرد الى قائله او راويه.

فليس للمفسر ان يعتمد على حديث ما لم يعرضه على القرآن، ولا له ان يعرضه عليه ما لم يتدبر حقه في آيته، تأملاً في جملاتها ولغاتها، مستفسرا للحصول على معناها من الآيات النظيرة لها، لا ان يفسر آية بتفسير آية اخرى بضرب القرآن بعضه ببعض ونثره نثر الدقل، وإنما بسرد الآيات المتماثلة المغزى، المتشابهة المعنى، ونضدها تدبرا: ان يجعل

---

[١]). سورة العنكبوت ٢٩: ٥١.

[٢]). فهناك كثير من الاحاديث هي ظنية بين مشكوكة الصدور وظنيته، ومحتملة التقية ام تغيير النص الى غيره، ام منسوخة أما هيه، ولكن القرآن لا يتطرق فيه شيء منها.

[٣]). سورة الأعراف ٧: ١٧٠.

[٤]). سورة النساء ٤: ٨٣.

[٥]). سورة محمد ٤٧: ٢٤.

كلاً دَبر الأخرى كما يقتضيه ترتيب المعنى.. ناظرا الى الآية نفسها، ثم ما تحتفُّ بها، ومن ثمَ نظائرها في سائر القرآن، ثم يراجع الاحاديث الواردة في تفسيرها ناظرا اليها من زاويتين: نظرة التثبت من صدورها بموافقتها للآية، ثم نظرة الإستيضاح لما استخفي منها من اشاراتها ولطائفها وحقائقها ان لم يكن هو من أهلها، او يستزيد منها عن أهليها الذين هم من اهل بيت القرآن، فاهل البيت ادرى بما في البيت.

فاقل ما يجب التحرى فيه هو فهم العبارة من الآية، وهي المعنى المطابَق الظاهر، ثم يتبناه لسائر الزوايا في مربع التفسير حيث هو على العبارة والاشارة واللطائف والحقائق،[1] كما يتبناه في عرض الحديث على القرآن اذا كان يعني تفسير العبارة، كما يتبنى الثلاثة الاخرى فيما الحديث يعني تفسيرها.

٣ ـ مما تدل عليه آيات العرض واحاديثه أن هذا القرآن المعروض عليه هو النازل على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله كلمات وآيات وترتيبات دون نقائص او مزيدات، وإلا فكيف يحتل المركز الأصيل الوحيد المعروض عليه للاحاديث كل الاحاديث، اذا فكل ما ورد في تحريف القرآن بزيادة او نقصان هي مما اختلقته ايدي الزور والبهتان فانها مخالفة للقرآن، وان كان الخلاف في نقطة او اعراب او ترتيب او تركيب تخالف القرآن المتواجد عند المسلمين، المتواتر مرَّ الزمن، ومن لطيف الأمر ان الاحاديث الحاملة لكلمات او آيات يدّعى انها محرفة بزيادة او نقصان، هي بذواتها تشهد انها اكاذيب زور اختلقتها ايادي أثيمة اسرائيلية او مسيحية، وتسرَّبت الى جهال يحسبونهم علماء![2]

والقرآن جملة وتفصيلاً دليل على براءته من زيادة او نقصان، فما هي هذه الزيادة التي اختلطت بآي القرآن وما تميزت حتى الآن عند الخبراء باللسان، ونرى كلام الرسول وعلي عليهما‌السلام ـ وهما أبلغ البلغاء ـ لا يخلطان بالقرآن، إلا وهو لائح حتى عند السوقيين العرب وغيرهم.

وكيف يجرىء أحد ان ينال من القرآن بزيادة او نقصان حتى في حرف منه او إعراب قد ضمن اللّٰه حفظه: «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون»[3] «.. وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد».[4]

إن مدعي التحريف انما يهرف بما لا يعرف جهلاً، او ما يعرف تجاهلاً، ولا نجد لهم حجة إلاّ عليهم، وسوف يمرّ عليكم قول فصل حول صيانة القرآن عن التحريف على ضوء آية الحفظ والعزة واضرابهما واللّٰه من وراء القصد.

٤ ـ ومما تشهد عليه ادلة العرض أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والائمة من آل الرسول عليهم‌السلام لا يفسرون القرآن إلا بحجة الدلالات القرآنية، دون خلاف على معاني اللغات او سرد الجملات ادبيا ام ماذا؟ وانما القرآن والقرآن فقط هو حجتهم على ما يقولون، وكما كانوا يامرون أصحابهم ان يتساءلوهم فيما يفتون، اين ذلك من كتاب اللّٰه؟ حتى يروضوا في حياتهم العلمية على دلالات القرآن، دون أن تأخذهم الآراء والأهواء ايادي سبا!.

واذا كان تفسير القرآن بالحديث ـ دون نظر في متنه وعرضه على القرآن ـ تفسيرا بالرأي، فتفسيره بآراء المفسرين، متفردين او مكثرين او مجمعين، او تفسيره بالآراء العلمية في مختلف الحقول، ان ذلك لأحرى ان يسمى تفسيرا بالرأي، فانه يجمعه تفسيره بغير حجة من كتاب او سنة قطعية، تفسيرا فيه تحميل على القرآن ما لا يتحمله او لا

---

[1]). الامام الحسين عليه‌السلام عن ابيه علي امير المؤمنين عليه‌السلام كما يأتي بكامله (سفينة البحار تحت الحرف ك).

[2]). لقد جمع الميرزا حسين النوري في فصل خطابة ستة عشر موضعا ـ بعد كدّ مديد ـ مما يحتج به على وجود التحريف بالنقيصة، اكثرها تنحوا نحو حذف اسم الامام علي عليه‌السلام وهو هو المحذوف لم يشر ابدا الى هذا الحذف! المظلوم اليتيم!

[3]). سورة الحجر ١٥: ٩.

[4]). سورة فصلت ٤١: ٤٢.

يلائمه.
فعطف القرآن على الرأي كعطف الهدى على الهوى يعطفان بالانسان الى الهاوية والردى، وقد يروى عن الإمام علي امير المؤمنين عليه‌السلام في اصلاحات المهدي القائم عليه‌السلام انه «يعطف الهوى على الهدى اذا عطفوا الهدى على الهوى ويعطف الرأي على القرآن اذا عطفوا القرآن على الرأي».[1]
فالذي يفسر القرآن جاهلاً بموازينه، او تجاهلاً عما يجب في تفسيره، انه في ضلال مبين، مهما أتى بعبارات براقة، فلسفية او عرفانية أمّاهيه؟ فان هذا الاسلوب الجاهل او المتجاهل او المبتدع المغرض يجعل من النور ظلاما، ومن الهدى ضلالاً: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا».[2]
مثل ما يهرأه الهارعون المفرطون أن العبادة انما هي لغرض اليقين والوصول الى المعبود. فاذا اتاك اليقين فلا عبادة، مستندين الى الآية: «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»[3] رغم ان اليقين درجات يتنقل العابد دوما بين هذه الدرجات، كما وان المعرفة درجات، ولا نهاية لهذه او تلك وحتى لرسول الله وهو اوّل العابدين فضلاً عن هؤلاء المدعين، ف«حتى» هنا لا موقف له منتهى حتى تنتهي عنده العبادة، وقد عبد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌ربه وقام في عبادته حتى تورمت قدماه فنزلت: «طه*ما انزلنا عليك القرآن لتشقى»فهل إنه بعدُ لم يكن اوّل العابدين واصلاً الى درجة من اليقين التي وصلها هؤلاء المدعون! وهو هو المخاطب «فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين»؟ دون هؤلاء الاغباش الذين هم لم يصلوا بعد الى درجة من الإيمان فضلاً عن اليقين!.
او ما يتقوله بعض الفلاسفة ان لله عالمين: عالم الامر وهو إحداث المجردات، وعالم الخلق وهو إحداث الماديات، مستندين الى الآية: «قل الروح من امر ربي»[4] والآية: «ألا له الخلق والامر».[5] فالروح من عالم الأمر المجرد عن المادة دون الخلق المادة!
رغم ان الأمر في الأولى هو مجموع الخلق والتقدير، وفي الثانية الخلق هو الخلق والأمر هو التدبير، اذ ليس «الا له الخلق والأمر» الا بعد عرض الكون خلقا وتقديرا: «إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة ايام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين»[6] ف«ألا له الخلق والأمر» تنبيهة أن له أمر التدبير والتسخير في السماوات والأرض كما له خلقهما، دون ان يكون هو الخالق، والمدبر سواه، او هو المدبر والخالق سواه، بل انه «لا اله إلا الله» في الخلق والتدبير سواء، ثم وخلق السماوات والأرض يعني خلق الكون اجمع فلا وجود لمخلوق مجرد عن المادة حتى يختص به الأمر، بل الأمر

---

[1]). نهج البلاغة في كلام له عليه‌السلام حول الإمام المهدي عليه‌السلام.

[2]). سورة الاسراء ١٧: ٨٢.

[3]). سورة الحجر ١٥: ٩٩.

[4]). سورة الاسراء ١٧: ٨٥.

[5]). سورة الأعراف ٧: ٥٤.

[6]). سورة الاعراف ٧: ٥٤.

يشمل كلَّ الخلق، ومن المستحيل قرآنيا وعقليا ان يكون كائن مجرد عن المادة او الطاقة المادية سوى اللهّ.[1]
او ما يحمله على القرآن بعض من يتسمى فقيها، من رأي اتخذه تقليديا، كحرمة حلائل الابناء من الرضاعة التي تنفيها الآية: «وحلائل ابناءكم الذين من أصلابكم»[2] متقولاً ان قيد الاصلاب انما هو لاخراج الأدعياء، رغم ان أبناء الاصلاب نص في حرمة حلائلهم فقط وفي حلية حلائل الأبناء من الرضاعة مع الادعياء، ولو كان المقصود ما يهرفونه لكان النص «غير ادعيائكم» ومن ذلك كثير نأتي عليه في طيات آياتها.
ومن متفرنج أدهشته العلوم العصرية لحدًّ كأنها هي الأصل والقرآن من فروعها، كالشيخ الطنطاوي في جواهره! حيث يعتبر فرضية انفصال الأرض عن الشمس لمفترضيها الأوروبيين قانونا علميا، ثم يختلق لها تفسيرا لبعض الآيات كالتي في سورة الانبياء: «أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما..»[3] متقولاً عليها أن السماوات هنا تعني الشمس والأرض هي هذه الأرض، حيث فتقهما الله عن الشمس بعد رتقهما و«اولم ير» الماضي تعني هذا المستقبل الزاهر أن العلماء الكفار الغربيين يرون انفصال الأرض من الشمس!.
وفي ذلك تحميل على الآية ما لا تتحمله من تحويل ماضيها الى مستقبلها، وتفسير سماواتها إلى شمسها التي هي ذرة صغيرة من ادنى الجزر السماوية الاولى الينا، ومن ثم ففتقهما، لا فتق الأرض من السماوات: الشمس!.
ثم الآيات في فصلت تفصل ان خرافة هكذا فصل باطلة حيث تقول بعد عرض خلق الأرض وكمالها: «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها.. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح»وشمسنا هذه هي من مصابيح السماء الدنيا المخلوقة في السبع بعد دخان السماء، اذا فالشمس متأخرة عن الأرض بمرحلتين!.
ومن ذلك كثير عند المتفرنجين من المفسرين الذين غرقوا في العلوم والنظريات الجديدة، ونسوا ان القرآن هو علم اللهّ فلن يتبدل، والعلم دوما في تبدل وتحوّل من خطأٍ الى صواب ومن صواب الى أصوب!..
فتفسير القرآن بفرضية العلم او رأيه، او برأي العقل غير الضروري منك أمَّن سواك من مفسرين او علماء آخرين، أو أحاديث غير ثابتة ولا ملائمة للآيات أو أيا كان من تفسير للقرآن بغير القرآن وما يصدقه، كل ذلك تفسير له بالرأي، دون علم او أثارة من علم او كتاب منير.
فلا تغتر بالتحقيقات الفلسفية والتلطيفات العرفانية، والتدقيقات العلمية! التي تحول دون استنباط القرآن كقرآن، تحميلاً عليه ما لا يتحمله.
وتحلّل ـ حين ما تروم تفسير القرآن ـ عن كل شارد ووارد، حتى وعن مذهبك فضلاً عن رأيك او آراء الآخرين، تحلل عن كل ذلك وعش الآية التي تعني تفسيرها، بمفرداتها وجملها، بموقفها مما قبلها وما بعدها، وبنظائرها التي تعني معناها، عشها كذلك محقِّقا صافي القلب خالي الذهن إلا عما تستمد به في تفهمها بمفهومها او مصاديقها، سنادا الى عقل رائع وعلم بارع دون تحميل على الآية ما لا تتحمله نصا أو ظاهرا، او لا تخالفه ولا توافقه حيث لا تمتُّ بصلة دلالية او معنوية بما تحمله عليها، واللهّ من وراء القصد.
فالذي يفسر القرآن برأيه او برأي مذهبه او تقليده أو ايا كان من آراء، انما يفسر نفسه او مذهبه عَبْر القرآن بهواه، دون ان يهتدي بهداه، تفسيرا لنفسه دون تفسير القرآن نفسه، فلذلك «كان مصيره الى النار» «وليتبوء مقعده من النار».

---

[1]). راجع كتابنا «حوار بين الإلهيين والماديين» وكذلك بطيّات آيات الخلق والامر في الفرقان.

[2]). سورة النساء ٤: ٢٣.

[3]). سورة الانبياء ٢١: ٢٩.

ولأن الأهوية والآراء تختلف، والمذاهب تتخالف، والنظريات تتضارب، فمعاني الآيات لمن يحمل هذه وتلك تتهافت، ويصبح القرآن مجال القيل والقال ومعترك الآراء والأقوال.

وأما إذا صدر المفسرون عن مصدر واحد، وساروا في مسير واحد، مفسرين للقرآن بالقرآن، على ضوء السنة القطعية الملائمة للقرآن، اغتربت خلافاتهم، واقتربت أفكارهم، واذا جعلوا أمرهم شورى بينهم قلَّ قليلهم وصح عليلهم، واستشرفوا الى ينبوع الوحي وإن كانوا في ذلك درجات.

صحيح أن القرآن بيان للناس، إلاّ ان بيانه درجات كما الناس درجات، وكما يروي الامام الحسين عن ابيه علي امير المؤمنين عليهماالسلام: «إن كتاب الله على اربعة اشياء، على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للاولياء والحقائق للانبياء» وهذه الاشياء المراحل هي متلائمة رغم درجاتها.

فالعبارة ـ وهي ما يعبَّر عنه اللفظ ـ هي التفسير الظاهر، والإشارة هي التحقيق على هامش الظاهر، واللطائف هي البطون، والحقايق هي التاويل[١] فالذي لا يعرف التفسير الظاهر هو أدنى من العوام.[٢]

ويُروى عن ابن عباس «إنّ للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن».[٣]

والمتشابه على حدّ قول الامام الرضا عليهالسلام: «ما اشتبه علمه على جاهله» فالتشابه في آياته ليس من مقولة الدلالة اللفظية، أن تكون الآية قاصرة الدلالة، وانما هو لعلو المدلول على وضوح الدلالة، وكما الافهام درجات في مفاهيم الآيات، كذلك الآيات درجات في محكمات ومتشابهات، رب محكمة من جهة متشابهة من أخرى، ورب محكمة عندك متشابهة عند الآخر، فلا توجد اذا آيات معدودات هي بعينها متشابهات وأخر محكمات، وانما هيحسب درجات الأفهام، فالتشابه والإحكام امران نسبيان، وإن كانت بعض الآيات محكمات لكل من يعرف اللغة[٤] وبعضعها متشابهات كالحروف المقطعة في اوائل بعض السور.

فليس للمفسر الخوض في آيات اللّه، قائلاً بغير علم او أثارة من علم، فليعلم أنها نازلة بعلم الله، قدر ما يحتاجه العقلاء طول الزمن إلى انقراض العالم، فلياخذ كلٌّ نصيبه من الفهم، متثبتا متدبرا في تفهمه، فتقدُّم العقول والعلوم يكشف جديدات وجديدات من معارف القرآن، متشابهات عقلية او علمية تصبح محكمات على ضوء تقدم العقل والعلم، فلا يستعجلوا فيما يخفى عليهم زاعمين ان لهم تفسير كل آية، او كل زاوية من زواياها.

وعلى المفسر العارف ان يفسر الآيات ـ كما تهديه ـ بعضها ببعض، دون اتكالية على آراء المفسرين، فليسبر في كل آية غورها، دون تحويل الى كتب أو مقالات أخرى، فلا يحوِّل البحث والتنقير عن آيات الأحكام الى الفقه او الى ما الف في آيات الاحكام، حيث الفقه كما نراه لا يعتمد كما يجب على الآيات في الأحكام، اللهم إلاّ احيانا وهامشيا محولاً الى التفسير او الكتب المؤلفة في آيات الاحكام، فتصبح آياتها غير مفسرة لا في التفسير ولا في الفقه، ولذلك

---

[١]). سوف نبحث عن التأويل والمعاني الباطنية على ضوء آية التأويل (.. ولا يعلم تأويله إلا والراسخون في العلم) انشاء اللّه تعالى.

[٢]). بما ان الاشارة بعد المعنى الظاهر فليست العبارة هنا إلاّ التعبير عن الظاهر، وكثير هؤلاء الذين يدرسون عشرات من السنين في الحوزات العلمية ولم يصلوا بعد الى درجة العوام في تقسيم الامام عليهالسلام.

[٣]). والمقصود تقدم العلم والعقل على مرّ الزمن فليس هناك آيات متشابهات لإبهام دلالي، وانما لعلوِّ مدلولي عقليا او علميا فالتقدم العقلي والعلمي يفسر هذه التشابهات على قدره.

[٤]). سوف نسبر غور البحث عن المحكم والمتشابه في آية التقسيم من آل عمران.

نرى فتاوى تخالف كتاب الله من فقهاء الاسلام شيعة وسنة[1] ولا قيمة لفتوى لا تعتمد على القرآن وان اعتمدت على احاديث او شهرات ام واجماعات. حيث القرآن هو المصدر الأصيل.
ولعمر الله لقد كانت تنحية القرآن عن القيادة المستقيمة، واخراجه عن الحوزات العلمية حدثا هائلاً في تأريخ الإسلام، ونكبة قاصمة في حوزات الإسلام، لم يعرف لها التأريخ مثيلاً في كل ما المّ المسلمين من نكبات، فلا نجد كتابا ظُلم ولا نبيا اكثر من القرآن ونبي القرآن!
لقد كان القرآن يقود المسلمين بعدما فسدت الأرض وتعفنت الحياة والقيادات، وذاقت البشرية الويلات من القيادات العفنة، ولكنّما الاستعمار من ناحية، وجهل بعض المسلمين من أخرى، تعاونا في تنحية القرآن عن المجتمع الإسلامي وعن الحوزات العلمية بوجه خاص، لحد لا يعتبر مدرس التفسير ومتعلمه من طلاب الحوزات وعلمائها، بل ويعتبر احيانا من مخربيها وناقضي سنتها!
نرى الطالب في حوزة علمية يدرس عشرات من السنين، ثم يتخرج وليست له معرفة بمعارف القرآن، والمسلمون بحاجة ماسة اليها وقد «ضعف الطالب والمطلوب»!.
نرى القيل والقال في كل مجال من بحوث ادبية، اصولية، منطقية ام ماذا؟ نراها متأصلة متعرقة في متون الحوزات، في حين أن القرآن لا مجال له ولا هامشيا، وهذا ما يريده الإستعمار ويغتنمه إذ يرى بُغيته ـ وهي تنحية القرآن عن أهله ـ حاصلة دونما صعوبة او محاولة مستمرة.
ذلك! ورغم ان الاحتكام الى الله، المتمثل في كتاب الله ليس نافلة وتطوعا، نراه نافلة ضئيلة في حياتنا وكقرائة فقط، رغم ان هذه البشرية ـ وهي من صنع الله ـ لا تفتح مغاليق عقليتها وفطرتها إلا بمفاتيح اخرى من صنع الله، وهي هي القرآن لا سواه! «ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم»[2] فلا أقوم منه ولا قيِّم ولا أقيم، ثم ولا يسامى او يوازى بكتاب سواه، ولا ما بين يديه من وحي الكتاب فضلاً عن سائر الكتاب.
لقد تسلم القرآن القيادة الخالدة روحيا وزمنيا منذ بزوغه حتى يوم القيام، ولكنما المسلمون قبل مَن سواهم تحللوا عن قيادته الزمنية الى الطواغيت، وعن قيادته الروحية الى اجتهادات متخلفة مختلفة، ولو انهم تبنّوا فيها القرآن كرأس الزاوية، وهندسوا بنيان الاسلام على هذه الزاوية لقلت خلافاتهم، وذلت اعدائهم.
ومن المضحك المبكي ان المسلمين ككل او جُل لا يبالون بالقرآن مبالاتهم بروايات ونظرات، وهم مصدقون كمبدءٍ ايماني أنه هو أصل الإسلام وأثافيّه، وحجة رسوله في رسالته ودعوته، فاصبح مَثَله عندهم كمثل الموت على حد تعبير الامام الرضا عليه‌السلام «ما خلق الله تعالى يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت».
فالقرآن ـ وهو يقين لا شك فيه ـ اصبح شكا لا يقين فيه، لحدٍّ لا يقتنع طالب العلم بآيته قبل روايته، وهو مقتنع بروايته قبل آيته! «أفمن يهدي الى الحق احق ان يتبع امن لا يهدّي إلا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون»![3]
فحيّا الى القرآن، علم الله النازل، كتاب الزمن، الوحي الاخير الذي يجمع مجامع الوحي في تأريخ الرسلات وزيادات. ولسوف ترون لو ان القرآن دخل في الميدان في حوزاتنا العلمية كركيزة متينة اصلية، ومن جراءها دخل المجتمع

---

[1]). تجد هذه الخلافات في طيات آيات الأحكام، وقد ساعدني التوفيق لاكمال الفقه على ضوء القرآن تجد فيه مجموعة من الفتاوى المخالفة للقرآن او غير الموافقة للقرآن وحرمة وحي اللّه احرى بالرعاية من حرمات الفقهاء. كما ولقد ساعدني التوفيق في سرد الاحكام حسب القرآن في «تبصرة الفقهاء» وفي هذا التفسير الموضوعي: مقارنات فقهية على ضوء الكتاب والسنة، وسائر الكتب السماوية.

[2]). سورة الاسراء ١٧: ٩.

[3]). سورة يونس ١٠: ٣٥.

الانساني، لشملت علومه ومعارفه العالم، وحلّقت على كافة العقول وفي كافة الحقول: «او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون».[1]
ولا يعني الحديث عن الامام المهدي عليه‌السلام: «ياتي بكتاب جديد...» إلا أن اهل القرآن قبله تركوه ورائهم ظهريا فنسوا او تناسوا معارفه واحكامه، ولقد جربت مرارا هذه التجربة المرة في بعض الحوزات العلمية، انني لما أستشهد بآية قرآنية في مسألة خلافية فقهية ام سواها، تقوم قيامتهم عليّ، وباي حديث تستدل، واي قائل من العلماء يصدقك، لا تكفي الآية بمفردها..! في حين يستندون ـ احيانا ـ باحاديث أحاد لا توافق القرآن ام تخالفه، ام الى فتاوى لا شاهد لها من كتاب او سنة.
فهل ان حوزة كهذه اسلامية وقرآنيه بعد:؟! «او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم»؟!.
وهكذا ابتلي جمع من اخواننا السنة أنهم يفتون بما في مسانيدهم دون رعاية للعرض على القرآن، وهذا الذي كان يزعج جمعا منهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة، اذ أنا اقول قال الله وهم يقولون: قال فلان وفلان، وانهم يفضلون صحيح البخاري ـ عمليا ـ على كتاب الله، وقليل هؤلاء الذين يعتمدون على القرآن، رفضا لما لا يلائم القرآن، من شيعة او سنة، وكثير هؤلاء الذين يفضلون الحديث على القرآن من سنة[2] وشيعة،[3] وان كان اخواننا السنة اكثر خلافا على القرآن، كما تعرفه في هذا التفسير، وانما الطريقة المثلى هو اتباع القرآن كاصل، واتباع الحديث على ضوء القرآن. دون إفراط من يقول: حسبنا كتاب الله ويترك السنة، او تفريط من يقول: حسبنا السنة او الحديث ولا يُفهم كتاب الله إلاّ بدلالة الحديث، كأنما القرآن لُغَز غير مفهوم! فكيف أصبح حجة على الأولين والآخرين لإثبات رسالة الرسول، وقبل ان يصدقوه واهليه المعصومين.
وحقيق على حوزة تريد ان تتسم بسمة اسلامية ان تؤصِّل القرآن في كافة حقولها، وتفرّع عليه كافة علومها وعقولها، تعوُّدا على مراجعة القرآن كاصل لا ريب فيه. في كل اصل او فرع عقائدي او فقهي او فلسفي ام ماذا، نابع من ينابيع سوى القرآن أيّا كان ومن اي كان وأيّان، لكي تكون الحوزة صادرة عن القرآن، واردة موارده، وإلا فهي ماردة غادرة، ضالة ناكبة شاردة.
ولقد ضاع القرآن بين حالة منعزلة عن الحياة، بهالة قدسية لا تنالها الأفهام عند من يبررون موقفهم السلبي وجاه

---

[1]). سورة العنكبوت ٢٩: ٥١.

[2]). كما يفتون بحرمة المتعتين خلاف الآيتين (فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن فريضة) (فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى) ويفرضون الشاهدين في النكاح دون الطلاق معاكسين نصوص القرآن حيث الطلاق بحاجة الى شاهدين: (واشهدوا ذوي عدل منكم) دون نكاح حيث لا دلالة عليه في القرآن، ويجوزون الطلقات الثلاث دون رجعات خلافا للنص: (الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان... فان طلقها فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره) (٢: ٢٣٠) ومحللين ذبائح اهل الكتاب وان لم يذكروا عليها اسم اللّه، وآيات تنص عليه (ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم اللّه عليه وانه لفسق) ورادِّين نصف الميراث الى غير البنت الواحدة من عم او خال او ابن لهما والنص: (واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب اللّه) وترى انهم اولى من البنت التي هي اقرب الى المورث منهم.

[3]). كما نرى الكثير من فقهاء الشيعة يفتون بحلية نكاح الزانيات وإنكاح الزنات على مرجوحيته والنص يحصر الحلية بالمحصنات: (والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اتو الكتاب) ويحرم مناكحة الزانيات: (الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) ويحرمون حلائل الابناء من الرضاعة كما من الاصلاب والنص يخص التحريم بالاصلاب: (فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا البائس الفقير) وامثالها غير قليل.

القرآن، قدسية خيالية خاوية تعزلها عن الحياة الإسلامية، وكانه كتاب وِرْد ودعاء تكفينا قراءته في حل المشاكل، ويكفي شفاءً للمرضى وشفاعة ورحمة للموتى! رغم انه حياة مستقيمة لمن شاءها «ان هو الا ذكر للعالمين. لمن شاء منكم ان يستقيم» «لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين»!

وبين حالة بسيطة يناله كل من يعرف من لغته شيئا، ثم وليس وراء ما يفهمه البسطاء اشارات ولطائف وحقائق، فلذلك لا حاجة الى دراسته ومدارسته!

والقرآن بيان للناس وفيه تبيان كل شيء: «أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها»!.

ولسوف ترون ان القرآن برهان قاطع وبيان ساطع لا مرد له لإثبات المبدءِ والمعاد وما بينهما، ولإثبات كل ما يحويه ويبديه من احكام عقلية ام ماذا؟ فانه برهان بنفسه لمن انزله وعلى من انزل ولماذا انزل؟. كتاب تدوين يحلِّق على التشريع والتكوين ببرهان يقين!

في هذا المدخل نقدم تنبيهات على امور كثرت فيها الاقاويل فخلقت القال والقيل في الوسط الاسلامي وسواه من اوساط، كالنسخ والتحريف والتفسير بالمأثور وشأن النزول وبطون معاني القرآن.

كلام حول النسخ:

القرآن ـ في جملة واحدة ـ ناسخ لسواه وليس منسوخا بسواه، قبله او معه او بعده، وان كان فيه بعض التناسخ لنفسه في احكام مؤقتة امتحانية كحكم النجوى والزنا وعدد الكفاح في قتال الكفار: «ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد».

ولان الحكم الناسخ يبطل الحكم المنسوخ، فعزة القرآن وغلبته تجعله بحيث لا يبطَل ولا يُنسخ جملة او تفصيلاً، كلاً او بعضا «من بين يديه» من كتابات السماء حيث تؤيده ولا تبطله، «ولا من خلفه» حاضرا لديه كوحي السنة، او آتيا بعده كفتاوى الخلفاء والائمة، فلو أن حكما من الأحكام زمن الوحي أو بعده ينسخ حكما من أحكامه فقد أتاه الباطل، الذي يبطله ويحوِّله. والقرآن هو نفسه يُحيل للرسول ملتحدا سواه: «اتل ما اوحي اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا»[1] [2] فانه الوحي الخالد الأم الذي يتبنى شريعة الإسلام طول الزمن، ومهما كان وحي السنة ايضا وحيا ولكنه شارح له، هامشي لا يمكن أن يختلف عنه وينسخه، وقد أمر الرسول ان يتبعه، فيعيش متابعة وحي القرآن طوال الرسالة: «واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم اللهّ وهو خير الحاكمين»[3].«انا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما».[4]

وقد حصر الرسول حياته الرسالية باتباع ما يوحى اليه: «قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي..»[5] «إن اتبع إلا ما يوحى

---

[1]). سورة الكهف ١٨: ٢٧.

[2]). فلا ملتحد ومرجع رسوليا لرسول الهدى الاّ القرآن فحسب، وما لا يوافق ولا يخالف من سنة القرآن فهو مستفاد له من حروف رمزية اوحى اليه صلى‌الله‌عليه‌وآله معانيها كما اوحي الفاظها.

[3]). سورة يونس ١٠: ١٠٩.

[4]). سورة النساء ٤: ١٠٥.

[5]). سورة الأعراف ٧: ٢٠٣.

إلي وما أنا إلاّ نذير مبين».[1]
وما مرت على الرسول ولا مرة يتيمة أن يخالف وحي القرآن ولو نسخا لحكم من احكامه. إلاّ ما اختلقته ايدي الزور والغرور أنه نسخ حكم المتعتين. وليبرّروا بدعة فلان التي يسمونها بدعة حسنة!.
ولأن القرآن هو الوحي الاصيل الخالد حجةً على العالمين. لم يكن الله ليوحي الى رسوله وحيا في سنة تنسخ وحي القرآن، فالاحاديث التي تتحدث عن نسخ الكتاب بالسنة تضرب عرض الحائط، لانها تخالف الكتاب جملة وتفصيلاً، كما وأن آيات العرض واحاديثه المتواترة تضربها عرض الجدار، مهما كثر محدثوها ومفتوها.
واذا الرسول «لن تجد من دونه ملتحدا» فما لغير الرسول يسمح لنفسه أن ينسخ القرآن «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون... هم الظالمون.. هم الفاسقون».[2]
فنسخ القرآن بغيره كفر وظلم وفسق بل واظلم منها وانكى، فان ثالوث الكفر والظلم والفسق هو لمن لم يحكم بما أنزل الله، فما هي حال من حكم بخلاف ما أنزل الله؟
فالسنة إذا لا تنسخ القرآن، كما ولا تنسخ نفسها، حيث السنة المنسوخة إن كانت خلاف القرآن فهي باطلة منذ كونها وليست سنة حتى تنسخ، وان كانت وفاق القرآن فنسخها اذا نسخ للقرآن ولن يكون!، اللهم إلا في سنة لا توافق القرآن ولا تخالفه إذ لم يأت وحيها بعدُ في القرآن فقد يكون تناسخ بينها قبل قرآنها.
واما نسخ القرآن للسنة فقد يكون، حيث الرسول كان ـ قبل ان يوحى اليه القرآن ـ مستنا بسنة من قبله من رسول، او سنته الخاصة الناسخة لما قبله، ووحي القرآن يتدرج طوال الرسالة، فقد كان ينسخ ما عنده وقد كان يقرّه.
إذا ففي مثلث النسخ المدعى لا نجد إلاّ نسخ القرآن للسنة في نجومه النازلة هنا وهناك. او تناسخ السنة احيانا.
ثم النسخ ـ خلاف ما قد يزعم ـ ليس إلا في الاحكام التكليفية او الوضعية، واما الأحكام العقلية، والإخبارات الكونية، فليس التنناسخ فيها إلاّ تكاذبا، كذبا فيهما او أحدهما، وحاشا عن ذلك وحي القرآن والسنة.
وكما ان نسخ القرآن بالسنة لا يصدق في ازالة حكم من احكامه، كذلك في تقييد اطلاقاته او عموماته التي هي نص في الإطلاق او العموم او في حمل ظاهر مستقر الى غير ظاهره، فانه اظهر من ظاهر الحديث او نصه، او في اطلاق آية مقيدة او تعميم آية خاصة او تخصيص آية عامة، او تقييد أية مطلقة، اللّهم إلا في عام او خاص قرآني ليسا في مقام البيان فيصح تخصيص عامه وتقييد مطلقة بما ثبت من السنة، وسوف تجد تفاصيلها في هذا التفسير.

صيانة القرآن عن التحريف:
لو لم تكن شنشنة اعرفها من جاهل او متجاهلين، الذين يخرفون فيهرفون بما لا يعرفون عن القرآن، هرفا في التحريف، لما كتبت عنه شيئا، لأن القرآن فوق هذه الأقاويل الزور، والتي تسربت الى أحاديث الإسلام فترسبت عند من غرب عقله، فلذلك اجمل البحث عنه كما اجمله شيخ الطائفة واضرابه.[3]

---

[1]). سورة الأحقاف ٤٦: ٩.

[2]). سورة المائدة ٥: ٤٤، ٤٥، ٤٧.

[3]). قال في مقدمة تفسيره: واما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به ايضا لان الزيادة مجمع على بطلانها والنقصان منه فالظاهر ايضا من مذهب المسلمين خلافه وهو الاليق بالصحيح من مذهبنا وهو الذي نصره المرتضى وهو الظاهر في الروايات غير انه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثيرا من آي القرآن ونقل شيء منه من موضع الى موضع طريقها الآحاد التي لا توجب علما ولا عملاً والاولى الاعراض عنها وترك التشاغل بها لانه يمكن تاويلها ولو صحت لما كان ذلك طعنا على ما هو موجود بين الدفتين فان ذلك معلوم صحته فلا يعترضه احد من الامة ولا يدفعه.
وروایاتنا متناصرة بالحث على قراءته والتمسك بما فيه وردّ ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع اليه وقد روي عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله رواية

وجملة القول ممن تقوَّل في هذا المضمار: أن القرآن محرف بنقصان فقط وفي التأليف[1] واما الزيادة فمجمع على بطلانها. ولا ريب ان الآيات الموجودة كلَّها قرآن، ومنها ما تصرح بعدم التحريف أيا كان، فقولة التحريف إذا تناقض القرآن: «إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون»[2] والذكر هنا هو القرآن، فانه منزَّل، وليس الرسولَ وهو الذكر المُنْزَل: «فاتقوا الله يا اولي الالباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا*رسولاً يتلوا عليكم آيات الله بينات..»[3] فالرسالة دفعية مُنْزلة، وليست تدريجية منزَّلة، ثم الذكر قبل آيته هو القرآن: «وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون»[4] وحفظُ قرآنه حفظا لبرهانه الرسالي الخالد يخفِّف عنه وطأةَ تهمة الجنون، فليس إلاّ حفظا له ككلٍّ وفي أيَّة ناحية كقرآن، طوال الرسالة الإسلامية، وبمتناول أيدي الناس، لا حفظا في صدره هو وصدور المعصومين من خلفائه ـ فحسب، فانه لا يحافظ على كيان الرسالة إلاّ عند أهليها، والآية في مقام الإمتنان، وماذا يُجديه حفظه عنده إذا كان ضايعا عند الأمة، فهل نزل هذا الذكر إلاّ للأمة: «أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون».

ولا نجد آية كآية الحفظ ـ في أية مهمة إسلامية ـ فيها هذه التأكيدات العديدة: ١ ـ إنّ. ٢ ـ نا ـ ٣ ـ نحن. ٤ ـ نزَّل. ٥ ـ نا ـ ٦ ـ إنّ. ٧ ـ نا. ٨ ـ له. ٩ ـ ل. ١٠ ـ حافظون.

فهل نسي الله أم عجز أو بخل عن حفظه وصيانته في تأليفه؟ أو عن زيادته أو نقصانه إذ غُلب على أمره؟ والله غالب على أمره! وهو القائل العزيز: «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[5]: لا يأتيه الباطل من أي تهريف او تحريف، رغم ما ياتيه المبطلون، لا يأتيه من بين يديه من وحي سابق يكذبه ويبطله، او لا حق او معاصر كذلك، فضلاً عن غير الوحي من دس المبطلين، لانه «تنزيل من حكيم حميد»!: «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ».

انه محفوظ جملة وتفصيلاً، نزولاً وتنزيلاً، تأليفا وترتيبا، حتى في حروفه ونُقَطه وإعرابه، فضلاً عن جمله وآياته، وكما يشهد بذلك القرآن نفسه «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» وقد يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله عدد كلمات القرآن وحروفه.

ثم وحديث الثقلين، وآيات العرض وأحاديثه، شهود صدق على صيانته عن التحريف، فكيف يكون القرآن المحرف معروضا عليه لكل حادث وحديث؟ او يكون الثقلَ الأكبرَ بعد الرسول صلى الله عليه وآله مع أصغره حتى يردا عليه الحوض؟.

لا يدفعها احد انه قال: اني مخلف فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا ابدا كتاب الله وعترتي اهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، وهذا يدل على انه موجود في كل عصر لانه لا يجوز ان يامر بالتمسك بما لا نقدر على التمسك به.. واذا كان الموجود بيننا مجمعا على صحته فينبغي ان نتشاغل بتفسيره وبيان معانيه ونترك ما سواه».

[1]). راجع ج ٢٩، ص ٢٨١ ـ ٢٨٤ على ضوء الآية: ان علينا جمعه وقرآنه.

[2]). سورة الحجر ١٥: ٩.

[3]). سورة الطلاق ٦٥: ١٠.

[4]). سورة الحجر ١٥: ٦.

[5]). سورة فُصلت ٤١: ٤٢.

وما خرافة تحريف القرآن إلاّ اختلافا اسرائيليا وجد له سبيلاً الى غَفلَة جاهلين، او طائفيين مـن سـنة وشـيعة، كـلٌّ يصدّق اختلافا حول التحريف ليثبت مذهبه تغافلاً عن كيان القرآن وهو أساس الإسلام.

فالسني يهرف بنقصان آية الرجم: (الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة) ما يعرفه كل سوقي عربي انه لا يشبه الوحي القرآني.

والشيعي يخرف بنقصان إسم الامام علي وآله في مواضع هي غاية الكدّ والكدح في باطله من أخبار آحاد.[١]

---

[١]). كما فعله ميرزا حسين النوري في «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الارباب» كالتالي:

١ ـ ١ ـ «فبدل الذي ظلموا آل محمد حقهم قولاً غير الذي قيل لهم فانزلنا على الذين ظلموا آل محمد حقهم رجزا من السماء»! ـ والذين ظلموا هنا هم جماعة من اليهود حيث ظلموا انفسهم ونبيهم فبدلوا قول الحق «حطة» بقولهم «حنطة»، استهزاءً، فاين ظلمهم بآل محمد او محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌نفسه في حنطتهم؟

١ ـ ٢ ـ «بئسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل اللّه في علي» وهم انما كفروا بما عرفوه من النبوة المحمدية ولما يصل الأمر بعد إلى علي!

١ ـ ٣ ـ «ولتكن منكم أئمة كنتم خير أئمة» والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يختصان بالائمة وانما هما واجب الامة على شروطهما.

١ ـ ٤ ـ «يا ايها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم في ولاية علي وان تكفروا بولايته فان له ما في السماوات والارض» وكأنما الرسول جاء بالحق فقط في ولاية علي قبل ان تثبت ولايته صلى‌الله‌عليه‌وآله‌ام ماذا؟.

١ ـ ٥ ـ «يا ايها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما انزلنا في علي نورا مبينا» والآية «بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل ان نطمس وجوها فنردها على ادبارها او نلعنهم كما لعنا اصحاب السبت وكان امر اللّه مفعولاً» (٤ : ٤٧).

والكتابي المنكر للرسالة الإسلامية ـ وهي الاصل ـ كيف يوجَّه الى فرعها وهو ولاية علي عليه‌السلام؟ ثم لا أدري كيف يتصل قوله: «نورا مبينا». ب«مصدقا لما معكم...»؟

١ ـ ٦ ـ «اوفوا بالعقود التي عقدت عليكم لامير المؤمنين علي بن ابى طالب» ويا ليت شعري ما هي المناسبة بين عقد الولاية وبعدها: «احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم» اللهم الا ان مختلق هذا الحديث هو من بهيمة الانعام!.

١ ـ ٧ ـ «بلغ ما انزل اليك في علي» وقد وردت في روايات ان «في علي» تفسير لمورد الآية وليست من الآية.

١ ـ ٨ ـ «واللّه ربنا ما كنا مشركين بولاية علي بن ابي طالب» وناكر الولاية وحتى النبوة لا يسمى مشركا، وانما هو المشرك باللّه، ثم وهذه مقالة اصاب الجحيم وناكر ولاية علي عليه‌السلام لا يستحق بذلك النار.

١ ـ ٩ ـ «إنما انت منذر وعلي لكل قوم هاد» وليس علي هاديا للاقوام السابقين كما محمد لم يكن، وانما هو هاد منذ خلافته، كما محمد منذر منذ رسالته.

١ ـ ١٠ ـ «رب اغفر لي ولو لدي اسماعيل واسحاق ـ او ـ اسحاق ويعقوب ـ او ـ الحسن والحسين» وليت شعري كيف أقحم إسحاق مع اسماعيل ولمّا يولد، فضلاً عن: اسحاق ويعقوب، واخيرا: الحسن والحسين! وأبوهما وجدهما أحرى بالدعاء لو أن ابراهيم يريد الدعاء لمن يأتي.

١ ـ ١١ ـ «ان هذا صراطُ عليٍّ مستقيم» وهنا غفل المفتري عن ان «مستقيم» وصفا ل «صراط» المعرف بالاضافة الى علي ـ كما زعم ـ يجب تعريفه «المستقيم».

١ ـ ١٢ ـ «ان تكون ائمة هي ازكى من ائمتكم»!...

١ ـ ١٣ ـ «ولقد عهدنا الى آدم من قبل في محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم» ولم يكن العهد المنسي الا الطاعة المطلقة للّه وعدم طاعة الشيطان، واما في محمد وآله عليهم‌السلام فالايات تلمح والروايات تصرح انه كان عارفا بهم مؤمنا.

١ ـ ١٤ ـ «يا ليتني اتخذت مع الرسول عليا وليا».

١ ـ ١٥ ـ «يا محمد يا علي القيا في جهنم كل كفار عنيد» وليساهما من الزبانية!.

ولكنما القرآن يقول كلُّه تلميحا، وتقول بعض آياته تصريحا، انه لم يحرف ولـن، ولكـنما الحرفـة الطائفيـة ليسـت لتسمح الرجوع في ذلك الى القرآن نفسه، لحدّ يستدل قائله بآية مشوهة حيث لم يجد فرصة للرجوع الى القرآن، اذ كان يسبر اغوار الأحاديث من عشرات وعشرات مؤلفات تضمها.[1]

وقد يعني البعض من احاديث التحريف ـ غير الصريحة في نقص او زيادة لفظية ـ تعني تحريف المعنى، إمالة لمعاني آيات الى غير معانيها، وهذا مما نعانيه منذ نزول القرآن «يحرفون الكلم من بعد مواضعه ـ عن مواضعه..»[2] وكما تشهد له رسالة الإمام الباقر عليه‌السلام الى سعد الخير: «وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية»[3] كما وان التأويل المصطلح للآيات ـ وهو تفسيرها بخلاف ظواهرها المستقرة ـ هو ايضا تحريف وتفسير بالرأي.

فالتحريف لغويا هو الإمالة للشيء عن وجهه الى غير وجهه، فيشمل وجه اللفظ الى لفظ آخر، ووجه المعنى ـ وهو ظاهره ـ الى معنى آخر، ووجه التركيب الى تركيبآخر وما الى ذلك من وجوه التحريف في الآيات، ونحن لا نصدق إلاّ واقع التحريف في وجوه المعاني الصريحة او الظاهرة الى غيرها، المندد به في القرآن والحديث، دون غيره حيث

---

١ ـ ١٦ ـ «واذا المودّة سئلت بأي ذنب قتلت» والمودَّة لا تُقتل وإنما الموءودة هي التي كانت تقتل!

١ ـ ١٧ ـ «واتبعوا ما تتلوا الشياطين بولاية الشياطين على مُلك سليمان» وهنا يبدو الاختلاق الاسرائيلي واضحا حيث يفتري على سليمان ـ وفقا لما في التورات ـ ان ملكه كان بولاية الشياطين ـ وقد غفل المفترى عن ذيل الآية «وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا» ومن هؤلاء الشياطين مختلقوا هذه الفرية على سليمان في التورات وفي الآية المزعومة القرآنية!.

١ ـ ١٨ ـ «متاعا الى الحول غير اخراج مخرجات» وليته يشعر ماذا تفيده «مخرجات» الا تناقضا في الحكم ـ حيث المعنى: متعوا المتوفى عنهن ازواجهن الى الحول دون اخراج لهن حالكونهن مخرجات!

١ ـ ١٩ ـ «لقد جاءكم رسول من انفسنا عزيز عليه ما عنتنا حريص علينا بالمؤمنين رؤوف رحيم»ومعلوم ان «كم» هم المرسل إليهم و«نا» هو المرسل، فهل هناك جمع من الآلهة بعثوا واحدا منهم رسولاً الى الناس؟ او ان اللّه عبر عن نفسه بصيغة الجمع عناية الى جمعية الصفات، ثم الرسول هو من ذاته تعالى!

هذه زبانيتهم التسعة عشر اضرموها ليحرقوا بها القرآن، ولكنهم مفضوحون! واكثرها من هرطقات بعض المتظاهرين انهم شيعة، وليسوا إلا شنيعة، يروون او يصدقون روايات اسرائيلية تنوِّه كانما القرآن نزل ـ فقط ـ ليثبت فضل آل محمد، واما محمد فليس إلاّ رسولاً ليبلغ الى الناس هامة الولاية، لآله فقط!

ان المحاولة الاسرائيلية المسيحية وجدت بين جهال من المسلمين من يستجيب لهم، كخدمات مذهبية: شيعية او سنية، ليشوهوا سمعة القرآن كما كانت كتبهم ولكن «انا نحن انزلنا الذكر وانا له لحافظون» «وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد».

[1]). ينقل المحدث حسين النوري آية الذكر في كتابه المخطوط بيده: «انا انزلنا الذكر وانا له حافظون» ثم يقول: الانزال لا يدل على انه الكتاب بل استعمل الانزال للرسول في قوله:
«انزلنا اليكم ذكرا رسولاً» هذا! رغم ان آية الحفظ تقول «نزلنا» وهو ينقلها «انزلنا اليكم» فلم ينظر الى آية الذكر حتى يعرف انه ذكر منزّل وليس منزلاً، ولا الى ما قبلها ليعرف انه القرآن! فيا له مراما ما ابعده وذكرا ما اغفله!

[2]). سورة المائدة ٥: ٤١، وسورة النساء ٤: ٤٦.

[3]). اصول الكافي.

يكذبه القرآن والحديث.
ثم وفي صيانة القرآن عن التحريف صيانة للسنة المحمدية عن التجديف وصيانة لسائر كتب السماء عما تدخّل فيها من وحي الأرض، حيث يهيمن على ما قبله من كتاب، وعلي حدٍّ ما يروى عن رسول القرآن واهل بيته الكرام عليهم‌السلام فانه الثقل الاكبر قبل الرسول، حيث يستمر به الثقل الأصغر، إذ تعرض رواياتهم عليه فيعرف الخائن المفترى من الأمين والغث من السمين.
وفي تحريف القرآن وهو كتاب الزمن، ضياع لكافة الرسالات الإلهية ورسالة القرآن، وزوال للحجة البالغة الإلهية عن العالمين.
«وما انزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون»[1] «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام».[2]
وهذا القرآن فيه من التواتر العام طوال القرون الإسلامية لحد أصبح كالشمس في رابعة النهار، وما تهريف التحريف الا كذَباب أو ذُباب تحاول كسف الشمس بجناحها وذبها.
فكل امر يُرجع الى القرآن لفظا ومعنىً وترتيبا وقراءة، إذ لا نصدق أيّة قراءة لا توافقها المتواترة المتداولة، المخطوطة والمطبوعة، فذة او في التفاسير، ولا سيما القراءآت التي تغير المعاني.
وسوف ترى في هذا التفسير ان وصمة التحريف تهريف هُراءٌ من بعض الجهال او المعاندين، وتجديف في احاديثنا من اسرائيليات ومسيحيات تعني تشويه القرآن كما شُوِّهت سائر كتابات السماء، وأن القرآن بنفسه يذود عن نفسه هذه الوصمة الجاهلة، بالفاظه ومعانيه، كما هو يثبت كونه وكيانه أنه إلهي واصب كالشمس في رابعة النهار، فهو هو دليل لكل دليل ومدلول، ولا يحتاج بنفسه الى دليل، اللهم لمن لم يعش القرآن قلبه، او يعشوا قلبه عن نوره المبين وتبيانه المتين، فليتنبَّه لذكراه، ليهتدي الى هداه.
ومن آياته أن تسمت جملاته بالآيات، حيث اتسمت بانها دالات على كونها بذواتها إلهيات، فكما ان معجزات الرسالات آيات كذلك القرآن كله آيات ولكنها خالدات.

التفسير المأثور:
نجد الكثير من احاديث التفسير لا تعني تفسير المفاهيم، وانما المصاديق الجلية او الخفية او المختلف فيها، دون أن تحصر الآيات بنفسها إذ لا تتحملها.
فتفسير النباءِ العظيم والصراط المستقيم بعلي امير المؤمنين عليه‌السلام هو من قبيل الجرى والتطبيق، وبيان مصداق مختلف فيه، ولو كان هو ـ فقط ـ الصراط المستقيم لأصبح النبي طالبا في صلواته ليل نهار صراط علي كانه عليه‌السلام أعلى منه صلى‌الله‌عليه‌وآله!
وتفسير الرزق في «ومما رزقناهم ينفقون» بـ «مما علمناهم يبثون» بيان لمصداق خفي من مفهوم الرزق ـ الواسع ـ وأحرى ان يشمل علم الدين الذي هو رزق الروح.
فهذه تنبيهات ممن نزل في بيوتهم القرآن، أن الاقتصار على المفاهيم المحدودة عند الناس خلاف ما يعنيه القرآن، وهذه المحدودية الفكرية تجعل آيات متشابهات، ولكن كلما اتسع الفهم زال على مداه تشابه الآيات، ولنكرر قول الامام الرضا عليه‌السلام في معنى المتشابه: «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله».

[1]). سورة النحل ١٦: ٦٤.

[2]). سورة المائدة ٥: ١٦.

شؤون النزول:

ان شؤون نزول الآيات وإن كانت تساعد على تفهم معانيها أحيانا ولكنها ليست شرطا في التعرف الى معاني آيها، ولا أنها تحدِّد معاني الآيات بمواردها، فلو أن الآية ماتت بموت الشأن الذي نزلت فيه، إذا لماتت الآيات كلها، وانما شؤون النزول مبررات وقتية لنزولها، تماشيا مع كل حادث وحديث في نزولها، فالآيات مستقلة في دلالاتها على معانيها، عُرِفت شؤونها أم لا، وانما تكمل دلالاتها رعايةُ قرائنها القرينة لها قبل او بعد او مع، ام البعيدة عنها من نظائرها، واما شؤون نزولها فلا شأن لها اصيلاً في تفسيرها، وإنما الشأن الاصيل هو شأن الآيات أنفسها دون شؤون سواها.

«ولو ان الآية اذا نزلت في قوم ثم مات اولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء ولكن القرآن يجري اوّله على آخره ما دامت السماوات والارض ولكل قوم آية يتلونها هم منها من خير او شر».[1]

الظاهر والباطن:

ظاهر القرآن هو اللائح من المعنى المطابقي حسب قانون الأدب اللفظي، نصّا أو ظاهرا مستقرا، والباطن هو الإشارة واللطيفة والحقيقة، وهذه مراحل اربع وكما يرويه الامام الحسين عن ابيه علي امير المؤمنين عليه‌السلام: «كتاب اللّه على اربعة اشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء» والحقائق هي التأويلات: المآخذ والنتائج كما يأتي حول آية التأويل.

فالعبارة هي المعبّرة عن المعنى الظاهر دون مجرد اللفظ بلا تعبير له عن المعنى، ولو كانت هي اللفظ لكان ثانيه المعنى دون الاشارة، وقد ثَناه بالاشارة التي هي بَعد المعنى، ثم هذه العبارة المعنى تشير للخواص الى لطائف، وهذه اللطائف قد تشير الى الحقايق وهي خاصة باهل الوحي: اهل بيت الرسالة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله.

اذا فالمعاني الباطنية هي سلسلة اشارات فلطائف ثم حقائق تنبع من المعاني الظاهرية لمن شرح اللّه صدره بالقرآن، عاش قلبُه القرآن فعاش القرآن قلبَه، فاصبح عشيرا للوحي القرآني.[2]

فليست الإشارات إلا من مشيرات المعاني الواسعة لمن شرح اللّه صدره، ولا اللطائف إلاّ من هذه الإشارات، درجات تلو بعض لمن يتدرج اليها بمدارج التدبير ولطيف التفكير وواسع الصدر، دون فوضى ادّعاءً لكل من يهوى ما يهواه فيسميه إشارة او لطيفة او حقيقة!.

فليتجنب المفسر عن استعمال القياس في القرآن ـ فـ «من نصب نفسه للقياس لم يزل دهره في التباس ومن دان اللّه

---

[1]). تفسير البرهان ١: ٢١ عن محمد بن خالد الحجاج الكرخي عن بعض اصحابه رفعه الى خثيمة قال قال ابو جعفر عليه‌السلام: . . .

[2]). قال المغور له الفيض الكاشاني في المقدمة الخامسة من تفسيره: «ان من زعم ان لا معنى للقرآن الا ما يترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حدّ نفسه ولكنه مخطىءٌ في الحكم برد الخلق كافة الى درجته التي هي حده ومقامه، بل القرآن والاخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن لارباب الفهم متسعا بالغا ومجالاً رحبا قال اللّه تعالى: «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها» وقال: «لعلمه الذين يستنبطونه منهم» وقال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على احسن الوجوه».

ثم قال: «فالصواب ان يقال: من اخلص الانقياد للّه ولرسوله وأهل البيت عليهم‌السلام واخذ علمه منهم وتتبع آثارهم واطلع على جملة من اسرارهم بحيث حصل له الرسوخ في العلم والطمأنينة في المعرفة وانفتح عينا قلبه وهجم به العلم على حقائق الامور وباشر روح اليقين واستلان ما استوعره المترفون، وانس بما استوحش منه الجاهلون وصحب الدنيا ببدن روحه معلقة بالمحل الاعلى، فله ان يستفيد من القرآن بعض غرائبه ويستنبط منه نبذا من عجائبه، ليس ذلك من كرم اللّه تعالى بغريب ولا من وجوده بعجيب، فليست السعادة وقفا على قوم دون آخرين وقد عدوا جماعة من اصحابهم المتصفين بهذه الصفات من انفسهم قالوا: سلمان منا اهل البيت.

بالرأى لم يزل دهره في ارتماس»[1] ـ «مائلاً عن المنهاج، طاعنا في الإعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل».[2]
وفي الصادقي عليه‌السلام: «إن للقرآن بطنا وللبطن ظهرا وليس شيءٌ ابعد من عقول الرجال منه، إن الآية لتنزل اولها في شيءٍ واوسطها في شيءٍ وآخرها في شيءٍ وهو كلام متصل ينصرف على وجوه».[3]
وفي النبوي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «ان للقرآن ظهرا وبطنا ولبطنه بطنا إلى سبعة ابطن» وهذه السبعة كما في الصادقي عليه‌السلام هي ادنى ما للإمام ان يفتي على سبعة وجوه، ثم قال: «هذا عطاءنا فامنن أو امسك بغير حساب».[4]
وفي الباقري عليه‌السلام: «إن للقرآن بطنا وللبطن بطنا وظهرا وللظهر ظهرا».[5]
وهكذا يشار الى مراتب البطون، ان الظهر الاول ظهر لأولى البطون، وهذا البطن ظهر للبطن الثاني، والثاني ظهر للثالث، فكل بطن ظهر لما بعده وبطن لما قبله، سلسلة تنبوآت وخواطر متدرجة تنبع من منبع النص والظاهر القرآني.
وفي العلوي عليه‌السلام: «ان الله جل ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبطلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلاثة أقسام، فجعل قسما منه يعرفه العالم والجاهل، وقسما لا يعرفه إلاّ من صفى ذهنه ولطف حسُّه وصحَّ تمييزه ممن شرح الله صدره للاسلام، وقسما لا يعرفه إلاّ الله وأنبياءه والراسخون في العلم، وانما فعل ذلك لئلا يدعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله من علم الكتاب ما لم يجعله الله لهم، ويقودهم الإضطرار إلى الايتمار لمن ولاه امرهم...[6]
فتجريد الآية عن مضيقٍ من شأن نزولها من البطن الاوّل[7] فاذ يقول الله تعالى: «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا»لا يحمل الآية فقط على «الذين حملو التوراة» بل نجريها وباحرى ـ على «الذين حملو القرآن ثم لم يحملوه» فمثلهم اذا ليس فقط ـ كمثل الحمار، بل أضل سبيلاً، كما أن حمل القرآن اثقل فانه اقوم قيلاً.
إذا فنحن المسلمين المحمَّلين القرآن كلٌّ على حدِّه المستطاع، كثير منا مَثَله كأضل سبيلاً من الحمار، من تارك حِمله

[1]). قرب الاسناد حدثني هارون بن مسلم قال وحدثني مسعدة بن صدقة قال حدثني جعفر بن محمد عن ابيه ان عليا عليه‌السلام قال: ...

[2]). المستدرك عن الامام الحسين عليه‌السلام.

[3]). العياشي عن جابر قال قال ابو عبدالله عليه‌السلام يا جابر: ...

[4]). العياشي عن حماد بن عثمان قال قلت لابي عبدالله عليه‌السلام ان الاحاديث تختلف عنكم؟ قال فقال عليه‌السلام: ان القرآن نزل على سبعة احرف....

[5]). تفسير البرهان ونور الثقلين.

[6]). تفسير البرهان ونور الثقلين.

[7]). ومن البطن الاوّل هم الذين عملوا بمثل اعمال من نزلت الآية فيهم كما يروى عن الامام الباقر عليه‌السلام «ظهر القرآن الذين نزل فيهم وبطنه الذي عملوا بمثل اعمالهم» (البرهان ١: ٢٠ عن حمران بن اعين عنه عليه‌السلام).

في علومه ومعارفه، ومن تارك تطبيقه بعد معرفته ومِن...!.
ثم وتحريرها عما تستأنسه الافهام العامة من معاني محدودة هو من البطن الثاني، وتزويدها سعة وعمقا وايضاحا بنظائرها من آيات هو من البطن الثالث، وتحريرها عما قبلها وما بعدها من قرائن ومتعلقات غير اصلية من البطن الرابع، وهكذا الى بطون اخرى، رعاية لأصل الدلالة اللفظية كمنطلَق، وحجج ودلالات قرآنية اخرى كوسائل للتحرير والتوسعة، معتمدين في كل ذلك على حجة من علم الكتاب أو أثارة من علم، متجنبين عما نهواه من أهواء علمية امّاهيه، لكي نبتعد عن تفسير القرآن بالرأي، وانما القرآن بالقرآن، وعلى ضوءه السنة والله هو الموفق لهداه.
والقول ان القرآن هدى للناس وهو بيِّن لهم كلهم ومبين فلا حاجة الى التامل الزائد في تفهم معانيه او بطون له؟ إنه غير متين، كما مضت في هذه الروايات وصرحت به آيات التفقه[١] والتدبر[٢] والتفكر[٣] والتعقل[٤] والتذكر[٥] والعلم[٦] والشعور[٧].
أجل إن القرآن بيان وتبيان وهدى للناس إذا تفقهوا وتدبروا وتفكروا وعقلوا وتذكروا وعلموا وشعروا، وأما أن يتقنوا فقط اللغة ثم لم يحيطوا علماً بكل معاني القرآن فلا! لمكان الفرق بين الترجمة والتفسير أم ماذا؟

الترجمة والتفسير والتأويل

---

١). «انظر كيف نصرف الآيات لعلم يفقهون» (٦: ٦٥) «قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون»(٦: ٩٨).

٢). افلا يتدبرون القرآن على قلوب اقفالها (٢٤: ٤٧) افلم يدبروا القول ام جاءهم ما لم يأت آبائهم الاولين (٦٨: ٢٣) كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليذكر اولوا الاباب (٢٩: ٣٨).

٣). «كذلك يبين اللّه لكم الآيات لقوم يتفكرون»(٢:٢١٩ و٢٢٦» «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون» (٧: ١٧٦) «كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون» (١٠: ٢٤) «وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (١٣: ٣) «فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون»(١٦:٦٩) «وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون»(٥٩: ٢١).

٤). «كذلك يبين اللّه لكم آياته لعلكم تعقلون» (٢:٢٤٢) «قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون» (٣:١١٨) «إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» (١٢:٢) «كذلك يبين اللّه لكم الآيات لعلكم تعقلون»(٢٤:٦١).

٥). «أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون»(١٧: ١٦) «سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون»(٢: ٢٤) «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»٤٩: ٥١ «ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون»(٦٣: ٥٦).

٦). «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون»(٢٩:٤٣) «أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى أنما يتذكر أولوا الألباب»(١٣:١٩) «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب»(٣٨:٢٩).

٧). آيات تحمل تنديدات كثيرة بالذين لا يشعرون «إلا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»(١٢: ٢)«وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون»(٦٩: ٣) «وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون»(٢٦: ٦) «وما يمكرون إلا أنفسهم وما يشعرون»(١٣٢: ٦).

فقد يترجم القرآن من لغته الى اخرى تحويلاً للمعنى المفهوم منه كما يفهمه العربي الساذج الى لغات اخرى.
او يفسر كشفا للقناع عن المفهوم منه حيث المفاهيم القرآنية درجات فوق بعض ولا يفهمها كل عارف باللغة العربية، ام كشفا للقناع عن الإجمال المقصود حيث لا يراد التفصيل، فلتفسر الآية بآية او آيات أخرى تعني تفصيل ما اجمل فيها.[1]
واما ان يفسر كشفا عن قناع في المعنى الذي لا سبيل الى تفهمه، ام قناع في اللفظ قصورا[2] او تقصيرا،[3] فساحة القرآن بريئة عن هذا المثلث فانه بيان للناس، لا قصور في دلالته ولا تقصير، ولا غموض في معانيه لحد لا يمكن تفهمه.
والتاويل راجع الى المعنى المفهوم من القرآن ارجاعا الى مأخذه او نتيجته، ولم يات التأويل في سائر القرآن إلا بهما، خلاف ما يُهرف أنه تفسير بخلاف النص او الظاهر لدلالة عقلية او علمية او حسية ام ماذا!.
فالترجمة راجعة الى اللفظ والتأويل يخص المعنى والتفسير يشملهما، معنىً عاليا بعيدا عن تفهم الناس إلا من كان عاليا في التفهم، أم لفظا لا يعني فيما يعني هنا ما تطلبه من تفصيل، ففي خماسية المحتملات للمعني من التفسير لا يصح إلا هذان دون الثلاثة الاخرى.

القرآن
نازل في شهر رمضان

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»[4]
«...كتب عليكم الصيام.. أياما معدودات» هي «شهر رمضان...» بيانا متدرجا لأصل الصيام ووقته ومن فُرض عليه أم

[1]). فمثل قوله تعالى: «اقيموا الصلاة» لا يدل على تعدادها واوقاتها، وانما المتكفل لهذا البيان آياتها المفصلة حيث تفسِّر اعداد الصلاة واوقاتها.

[2]). قصور الدلالة فيما يقصر المتكلم عن بيان مراده ولا قصور في ساحة الألوهية.

[3]). التقصير في الدلالة فيما يقصر المتكلم في بيان مراده على امكانية البيان كما في بعض العبارات المغلقة الغامضة رغم وضوح المفهوم لو كانت الدلالة ظاهرة.

[4]). سورة البقرة ٢: ١٨٥.

منع عنه أو خيِّر فيه، فإنه عبادة صعبة ولا سيما في رمضاء الحجاز[1].
«شهر رمضان» شهر يسمَّى في القرآن بين سائر الشهور تفضيلاً له عليها لأنه مَنزِلُ القرآن دونها، وفيه فرض الصيام دونها.[2]
وعلّه «إنما سمي رمضان لأن رمضان يرمض الذنوب»[3] ويطهرها بصومه إسلامياً، ولرمض الفصل وحرّه الذي وضع له فيه هذا الإسم قبل الإسلام، فإنه من الأسماء العربية للشهور، فالرمض هو حر الحجارة، والرمضاء مطر يأتي قبل الخريف يطهر وجه الأرض من الغبار، فهو يغسل الذنوب ويحرقها، أم ومن رمضت الفصل إذا دفعته بين حجرين ليرقَّ، وهو كذلك يرق القلوب برمض الإمساك عن المشتهيات! وقد يعني مثلث المعنى.
وكونه إسماً من أسماء اللّٰه تعالى[4] غريب في نوعه، إذ لم يذكر في عدادها حيثما ذكرت كتاباً وسنة، ولا أن معناه يناسب ساحته سبحانه، ولا سيما الرمضاء، وأنه يثنَّى ويجمع وليس كذلك أسماء اللّٰه، ثم ويأتي كثيراً دون إضافة شهر في مختلف الأحاديث الحاملة فضله وأحكام صومه، مما يحيل كونه من أسماء اللّٰه تعالى.[5]

---

[1]). الدر المنثور: ١: ١٨٤ قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أظلكم شهركم هذا ـ يعني شهر رمضان ـ بمخلوف رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ما مر على المسلمين شهر خير لهم منه ولا يأتي على المنافقين شهر شرٌ لهم منه بمخلوف رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أن اللّه يكتب أجره وثوابه من قبل أن يدخل ويكتب وزره وشقاءه قبل أن يدخل وذلك أن المؤمن يعد فيه النفقة للقوة في العبادة ويعد فيه المنافق اغتياب المؤمنين واتباع عوراتهم فهو غنم للمؤمنين وغُرم على الفاجر.

[2]). الدر المنثور ١: ٨٤ قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله اظلكم شهركم هذا ـ يعني شهر رمضان ـ بمخلوف رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ما مر على المسلمين شهر خير لهم منه ولا يأتي على المنافقين شهر شرٌ لهم منه بمخلوف الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ان اللّه يكتب أجره و ثوابه من قبل ان يدخل ويكتب وزره وشقاءه قبل ان يدخل وذلك ان المؤمن يعد فيه النفقة للقوة في العبادة ويعد فيه المنافق اغتياب المؤمنين واتباع عوراتهم فهو غنم للمؤمنين وغُرم على الفاجر.

[3]). الدر المنثور ١: ١٨٣ ـ أخرج أبن مردويه والإصبهاني في الترغيب عن أنس قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله إنما.... وفيه عن عائشة قالت قيل لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ما رمضان؟ قال: «أرمض اللّه فيه ذنوب المؤمنين وغفر لهم..» أقول: وهو من الرمضاء: مطر يأتي قبل الخريف يطهر وجه الأرض من الغبار.

[4]). نور الثقلين ١: ١٦٦ عن الكافي عن أمير المؤمنين عليه‌السلام لا تقولوا رمضان ولكن قولوا شهر رمضان فانكم ما تدرون ما رمضان، وفيه عن الكافي عن أبي جعفر عليهما‌السلام قال: كنا عنده ثمانية رجال فذكرنا رمضان فقال: لا تقولوا هذا رمضان ولا ذهب رمضان ولا جاء رمضان فإن رمضان اسم من أسماء اللّه عز وجل ولا يجيىء ولا يذهب وإنما يجيىء ويذهب الزائل ولكن قولوا شهر رمضان فالشهر مضاف إلى اسم اللّه عز ذكره وهو الشهر الذي أنزل فيه القرآن جعله مثلاً وعيداً. وفي تفسير الرازي ٥: ٨٣ وروي عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وأورد مثله.

[5]). الدر المنثور ١: ١٨٤ ـ اخرج ابن أبي شيبة والنسائي عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال لأصحابه: نبشركم قد جاء رمضان شهر مبارك.... أقول: ولو كان اسماً من أسماء اللّه لبطل «جاء رمضان»! وفيه عن أبي مسعود الأنصاري سمعت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ذات يوم وأهل رمضان فقال: لو يعلم العباد ما رمضان لتمنت أمتي أن يكون السنة كلها فقال رجل يا نبي اللّه حدثنا فقال: إن الجنة لتزين لرمضان من رأس الحول إلى الحول فإذا كان أوّل يوم من رمضان هبت ريح...
وفيه عن أبي سعيد الخدري قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله إذ كان أوّل ليلة من رمضان، وفيه عن عمر بن الخطاب سمعت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: ذاكر اللّه في رمضان مغفور وسائل اللّه فيه لا يخيب.

ومن فضله أن «كان رسول اللهّ صلى‌الله‌عليه‌وآله إذا دخل شهر رمضان شد مئزره ثم لم يأت فراشه حتى ينسلخ»[1] و«تغير لونه وكثرت صلاته وابتهل في الدعاء وأشفق منه»[2] و«أطلق كل أسير وأعطى كل سائل»[3].

وقد سمي لفضله شهر اللهّ لاختصاصه باللهّ أكثر من سائر الشهور، وكما يروى عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «فاتقوا شهر رمضان فإنه شهر اللهّ جعل اللهّ لكم أحد عشر شهراً تأكلون فيها وتشربون وتتلذذون وجعل لنفسه شهراً فاتقوا شهر رمضان فإنه شهر اللهّ»[4].

ثم وصف «شهر رمضان» بأفضل مواصفة تميّزه عن كافة الشهور: «الذي أنزل فيه القرآن ويا لِصومه وإنزال القرآن فيه من صلة ومواصلة عريقة، فإن مَنزِل القرآن لا بد له من طهارة كاملة عن كلّ الأقذار، فكما طهر قلب محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله حتى نزل عليه القرآن كذلك قلوب الأمة لما تطهر بصيامه، تستعد لإنزال أنوار وحي القرآن.

وترى كيف «أنزل فيه القرآن» وقد أنزل طيلة الرسالة القدسية في ثلاثة وعشرين سنة نجوماً متفرقة، ومنها رمضاناتها كسائر شهورها؟

ألأنه أنزل فيه آي من القرآن أول ما نزل؟ وبازغ الوحي كان قريناً لبازغ الرسالة وهو السابع والعشرين من رجب وبينه وبين رمضان أكثر من شهر!.

ثم القرآن معرفاً لا يطلق على بعضه، وإنما قرآنٌ، لو أنه أنزل في رمضان في بازغه!.

أم لأنه أنزل في شأنه قرآن؟ فقد أنزل في شأن غيره من زمان أو مكان أم أياً كان قرآن! ولا نجد نازل القرآن بشأن رمضان إلاّ هذه الآية، فهل إنها تخبر عن نفسها دورا مصرحا! وآية كتابة الصيام من قبل ليست آية تعريف برمضان، فلم تنزل فيه ولا سيما قبل التصريح بشأن رمضان.

أم إن القرآن المفصل أنزل في رمضان من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور في السماء الدنيا[5]، ثم أنزل على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله طوال البعثة؟ ولا ينزل القرآن على مكان، ولا مَنزِل للقرآن إلا قلب النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله دون أي مكان من سماء أو أرض، ولا أي قلب آخر في سماءٍ أو أرض، وأى بيت أعمر من قلب محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وأجدر لأن ينزل فيه القرآن، فهو البيت المعمور بعامر الروحية الرسالية اللابقة اللائقة لنزول القرآن.

أقول: ذكر رمضان دون إضافة، ثم وتثنية وجمعاً كثير في أحاديثنا مما يؤكد أنه ليس من أسماء اللّه، فإنما هو شهر اللّه.

[1]). الدر المنثور ١: ١٨٥ ـ أخرج البيهقي عن عائشة قالت كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله....

[2]). المصدر أخرج البيهقي والإصبهاني عن عائشة قالت كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله إذا دخل شهر رمضان....

[3]). المصدر أخرج البزاز والبيهقي عن ابن عباس قال كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله إذا دخل شهر رمضان أطلق.....

[4]). المصدر أخرج البيهقي عن ابن عباس ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: إن الجنة لتزين من الحول إلى الحول لشهر رمضان وإن الحور العين لتزين من الحول إلى الحول لصوّام رمضان فإذا دخل رمضان قالت الجنة: اللهم أجعل لي في هذا الشهر من عبادك، ويقلن الحور اللهم إجعل لنا من عبادك في هذا الشهر ازواجاً، فمن لم يقذف مسلماً فيه ببهتان ولم يشرب مسكراً كفر اللّه عنه ذنوبه ومن قذف فيه مسلماً أو شرب فيه مسكراً أحبط اللّه عمله لسنة، فاتقوا شهر رمضان...

[5]). فيه رواية يتيمة رواها في الكافي عن الإمام الصادق عليه‌السلام أنه قال: نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور ثم نزل في طول عشرين سنة (نور الثقلين ٥: ٦٢٤ ح٥٣).

ثم «هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان» لا تصلح لنازل القرآن في غير قلب الرسول، حيث الهدى القرآنية للناس هي كيانه منذ بعث.
ومن ثم لا يصح نزول القرآن المفصل جملة واحدة وإنْ في قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله لأنه يحمل ناسخا ومنسوخا، ويشمل أنباءً مستجدة طول الزمن الرسالي، فكيف يخبر عنها بصيغة الماضي كـ«قد سمع اللّٰه...» وما أشبه؟ ولو نزل تفصيله جملة واحدة لما «قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً».[1]
إذا فهو القرآن المحكم النازل عليه في ليلة مباركة هي ليلة القدر،كما وأن صيغة الإنزال تلمح لدفعية النزول لا التنزيل التدريجي: «كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير».[2] فلقد أنزل على قلبه المنير محكم القرآن ومجمله بعد مبعثه بزهاء خمسين ليلة، فكان يعرفه جملةً، ثم عرّفه ربه تفصيلاً كما تدل عليه آية القيامة «لا تحرك به لسانك لتعجل به»[3] وآية طه «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً»[4] ولا يليق بأي عاقل ـ فضلاً عن أعقل العالمين ـ أن يحرك لسانه بالقرآن ويعجل به وماله أية معرفة به لا جملة ولا تفصيلاً، ثم آيتا حم والقدر تتجاوبان في نزول القرآن ـ هكذا ـ في ليلة القدر، فالمعني من «شهر رمضان» كمنزل القرآن، هنا هو ليلة القدر المتراوحة بين ١٩ ـ ٢١ ـ ٢٣ لأظهر تقدير وأكثره.
ولتفصيل أكثر يراجع تفسير حم والقدر، ثم «رمضان» ليس فقط منزل القرآن، بل هو حسب الأثر الثابت عن نبي القرآن ـ كذلك ـ مَنزل لصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وانجيل المسيح عليهم‌السلام[5].
ثم «هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان» كما هي مواصفات ثلاث للقرآن، كذلك وعلى هامشه قد تعني رمضانَ بصيامه، فقد يتكفل صيامُه الجانب السلبي لكلمة التوحيد، والقرآن هو الجانب الإيجابي، فيتجاوبان نازلاً ومنزلاً، لمحة صارحة أن هدي القرآن وبيناته وفرقانه إنما تلمع وتتبلور في قلوب الصائمين، فإن ذلك النازل النور يتطلب المنزل النور، ليصبح نوراً على نور، قرآناً في قلوب الصائمين، وكما أنزل في قلب الرسول الطاهر الأمين، حيث كان صائماً عما سوى اللّٰه، فأصبح جديراً أن ينزل فيه أفضل وحي اللّٰه.

---

[1]). سورة الفرقان ٢٥: ٣٢.

[2]). سورة هود ١١:١.

[3]). سورة القيامة ٧٥: ١٦.

[4]). سورة الروم ٣٠: ١٤.

[5]). الدر المنثورا: ١٨٩ عن وائلة بن الاسقع ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: أنزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان وأنزل الزبور لثمان عشر خلت من رمضان وأنزل اللّه القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان.
أقول: أربع عشرين خطأ من الراوي فإن ليلة القدر بين (١٩ ـ ٢١ ـ ٢٣) لأشهر تقدير في أحاديثنا ففي نور الثقلين ١: ١٦٦ عن الكافي عن الصادق عليه‌السلام في حديث نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور ثم نزل في طول عشرين سنة ثم قال قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله نزلت صحف إبراهيم ـ وساق الحديث السابق قائلاً في آخره ـ: وأنزل القرآن في ثلاثة وعشرين من شهر رمضان.
أقول: وأحاديثنا مختلفة في تعيين ليلة القدر وثلاث وعشرين أكثرها ثم هى بين ١٩ و ٢١ وسواها.

القرآن طبيعته «هدىً للناس» الذين يفحصون عن هدى، دون النسناس الهائمين في الردى: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً».
ثم «وبينات من الهدى» لمن اهتدى حيث الهدى درجات تتدرج إلى أهدى فأهدى: «الذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم».
ومن ثم بينات من «الفرقان» لمن إتقى بعد ما اهتدى: «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا اللّه يجعل لكم فرقاناً»[1] وهي هداية على ضوء القرآن علماً به وعملاً «يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم»[2].
إذاً ف«هدىً للناس» هي أولى المراحل لهدي القرآن، حيث الناس يعم كل الناس، ثم «وبينات من الهدى» وهي الهدى البينة ببراهينها، إنها لمن اهتدى، وأخيراً بينات من «الفرقان» لمن إتقى، درجات ثلاث تلوَ بعض ولِصقَ بعضٍ لمن ارتقى ذلك المرقى، وهنا «هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان» مواصفات فعلية لرمضان، وشأنية بحق الناس للقرآن، فإنه يحمل هذه المواصفات بعد تفصيله للناس كما في إجماله لرسول الناس.

القرآن
نازل في ليلة مباركة

«بسم اللّه الرحمن الرحيم * حم»
سورة الدخان هي خامسة الحواميم السبع،[3] بازغة بذكر الكتاب المبين المنزل في ليلة مباركة، و«حم» هذه قد تعني فيما تعني الرسول محمدا صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث يقسم بالكتاب المبين أنه انزله في ليلة مباركة، ولا منزل له إلا قلبه المنير، كما و«رحمة من ربك» لمحة لامعة أنه المخاطب في «حم» ولا يناسب النزول المحكم للكتاب المبين إلا الرسول الأمين، والست الأخرى من السبع الحواميم يعقبها تنزيل الكتاب وهنا ـ فقط ـ إنزاله.
ولأن «الحواميم تاج القرآن»[4] ومحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله تاج النبيين[1] فلتكن خاصةً به صلى‌الله‌عليه‌وآله في خطابها كما هي وأضرابها

---

[1]). سورة الأنفال ٨: ٢٩.

[2]). سورة المائدة ٥: ١٨.

[3]). راجع سورة الاحقاف ج ٢٦ من الفرقان ص ٧ ـ ٨ وسورة الشورى ج ٢٥.

[4]). المجمع عن انس بن مالك عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: ...

تخصه في معانيها، وكما في الكاظمي عليه‌السلام «أما حم فهو محمد» صلى‌الله‌عليه‌وآله[2] وقد تعني «ح» أحمد و«م» محمد، وإذا لم تكن «حم» خطابا لصاحب الكتاب المبين، لم يكن لها موقع أدبي كمبتدءٍ أم ماذا، «والكتاب المبين» القسم، لا يصلح خبرا ولا فعلاً ولا أيا كان بالنسبة لـ«حم» إلاّ أن تعني جملة مستقلة عن: «والكتاب المبين» اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا!

«وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ»

إن للقرآن مراحل ثلاث أعلاها أم الكتاب، وأوسطها محكم الكتاب، وادناها تفصيل الكتاب: «وإنه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم» وقد أنزل من أم الكتاب حكيما في ليلة مباركة هي ليلة القدر «إنا أنزلناه في ليلة مباركة». «في ليلة القدر» ثم نزل طول البعثة قرآنا عربيا: «والكتاب المبين. إنا جعلناه قرآناً عربياً»ومهما تشترك الحواميم السبع في نزول القرآن تِلوها، فالدخان تختص من بينها بنزول الإنزال ـ المحكم ـ في ليلة مباركة، والست الأخرى بنزول التنزيل طول البعثة:

وترى إن هذه الليلة المباركة هي غير ليلة القدر، كالنصف من شعبان كما يقولها رعيل من اهل السنة؟ ومحكم القرآن لم ينزل إلاّ مرة في ليلة واحدة هي ليلة القدر: ليلة مباركة!

فليلة مباركة هنا هي ليلة القدر هناك من رمضان، كما المواصفات المذكورة هنا وهناك توحّدها في قدر رمضان.

١ - ليلة القدر هناك واحدة، وليلة مباركة هنا واحدة، ولم ينزل محكم القرآن إلا مرة واحدة، إذاً فهما هذه الواحدة هي من رمضان، حيث هو منزل محكم القرآن!

٢ - ليلة القدر هي الوحيدة بين ليالي السنة قدراً، وليلة مباركة هي الوحيدة بينها بركة، والقدر القمة والبركة القمة هما واحدة، وإلاّ فلا قمة في كل منهما على حِدة، فهما ـ إذاً ـ واحدة من رمضان!

٣ - هناك في وصفها «تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام»وهنا «فيها يفرق كل أمر حكيم» و«كل أمر سلام» و«كل أمر حكيم»هما واحد، فهما واحدة من رمضان!:

٤ - هناك «بإذن ربهم» وهنا «أمراً من عندنا» وهما واحد، فهما واحدة من رمضان!:

٥ - هناك«سلام هي» وهنا «رحمة من ربك» وهما واحدة فهما واحدة من رمضان!

ومن ثم الروايات المتواترة عن الفريقين أن ليلة القدر هي من رمضان، فلتكن هي ليلة مباركة من رمضان، مهما وردت روايات أخرى بشأن النصف من شعبان[3] وعلّها تبجيلات بشأنها لأنها مولد المهدي من آل محمد عليهم‌السلام: فإنها

---

[1]). في : نِبوئت هيِّلد: وحى الطفل: لُحمان حَطُوفاهْ الموجود باللغة الأنقلوسية وهي عبرانية رمزية، يصفه صلى‌الله‌عليه‌وآله بـ«محمد كايا بايا إعا دِ يُطمَع هوُيا وِيهيِ كليليا» يعمر بيت اللّه بملك عظيم اسمه «محمد هو كبير قدير، الشجرة الطيبة الرفيعة، مأمول لإفناء ما كان واطفاء النائرة هو الكل والتاج وحِمْل على الاكتاف.

[2]). نور الثقلين ٤:٦٢٣ ج ١٤ عن اصول الكافي، باسناده الى يعقوب بن جعفر بن ابراهيم قال: كنت عند ابي الحسن موسى بن جعفر عليه‌السلام إذ اتاه رجل نصراني فقال: إني أسألك اصلحك اللّه فقال سل، فقال:اخبرني عن كتاب اللّه الذي انزل على محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ونطق به ثم وصفه بما وصفه فقال: «حم...ما تفسيرها في الباطن فقال: اما حم فهو محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله...

[3]). في الدر المنثور ٦: ٢٦ - ٢٧ يروي أحاديث نزول اللّه إلى السماء الدنيا في ليلة النصف من شعبان ولا ريب أنها مختلقة، وروايات أخرى خالية عن النزول مادحة لهذه الليلة ولا ريب فيها ولا تثبت أنها ليلة القدر، ومنها ما أخرجه البيهقي عن عائشة عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في حديث قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: يا عائشة او يا حميراء.. هذه ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد كما هم» من ثلاث بين روايات عدة تذكر فضيلة ليلة النصف من شعبان أكثرها عن عائشة وفيها خرافة نزول اللّه إلى السماء الدنيا!.

مولد النور الذي يشع الكون بأسره، ويخلص العالم عن أسره في عصره صلى‌الله‌عليه‌وآله.
لا دليل للقائلين بأن ليلة مباركة هي النصف من شعبان من كتاب أو سنة[1] وهو منهما برهان قاطع لا مرد له أنها هي ليلة القدر من رمضان.
وإنها ليلة مباركة بنازلها القرآن ومنزلها قلب نبي القرآن، كما أنه كتاب ذو قدر وهو صلى‌الله‌عليه‌وآله‌نبي ذو قدر، فلا قدر ولا بركة لزمان أو مكان إلاَّ بما ينزل فيهما أو يصدر منهما من بركة وقدر.
وليلة مباركة مستمرة في بركتها وقدرها مرَّ الأعوام إلى يوم قيام القائم عليه‌السلام، حيث تتكرر بكل قدر اللّهم إلا نزول القرآن، حيث كان لأول ليلة قدر من أولى سنيِّ الرسالة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله‌ومن ثم «فيها يفرق كل أمر حكيم» «تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر» فرقاً وتنزّلاً مستقبلاً منذ نزول القرآن المحكم حتى يوم القيام، ومطلع الفجر المحمدي صلى‌الله‌عليه‌وآله.
وما دام النزولان ـ للقرآن المحكم ولكل أمر ـ كانا في اختصاص الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌للمرحلة الأولى من ليلة القدر، فتَنزُّل الملائكة والروح فيها من كل أمر يعمه والمحمديين المعصومين من عترته، حيث يفرق فيها كل أمر حكيم بنازل الملائكة والروح في منزل قلب الإمام في كل عصر، فكان هو الرسول في اثنين وعشرين سنة، حيث الأولى جمع إليه إنزال القرآن، ثم من بعده المعصومون من عترته.
«... إنا كنا منذرين» طول كتابات الوحي والرسالات الإلهية، طالما الإنذار بالقرآن هو أمُّ الإنذار، كما وأن رسالته هي أمُّ الرسالات.
وعلّ «كنا منذرين» تعني ـ فيما تعني ـ سابق الإنذارات الإلهية في كتابات الوحي بنزول القرآن، بِطيَّات البشارات، وقد أوردناها في «رسول الإسلام في الكتب السماوية».
وإنها حقا ليلة مباركة منقطعة النظير عن كل نذير ولهذا البشير النذير، إذ فتح فيها ذلك الفتح المبين للعالمين، بادئا فيها استقرار خاتمة المناهج الإلهية على المكلفين من الجنة والناس أجمعين، يعيشون الكتاب المبين ويحيون به في كل حين.
ثم لا تقف هذه الليلة لمرة واحدة ذات قدر ومباركة، ثم القدر في كل سنة ليس ذكرى لما مضى، بل وتتكرر في كل سنة:

---

[1]). كما يعترف الرازي في تفسيره ٢٧:٢٣٨ في قوله: وأما القائلون بأن المراد من الليلة المباركة المذكورة في هذه الآية هي ليلة النصف من شعبان فما رأيت لهم فيه دليلاً يعول عليه وإنما قنعوا بأن نقلوه عن بعض الناس، فإن صح عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فيه كلام فلا تزيد عليه وإلا فالحق هو الأول - يعني أنها ليلة القدر وهي من رمضان، أقول: ولن يصح عن رسول اللّه ما يكذبه القرآن والسنة المتواترة! وقد أخرج عبد بن حميد عن أبي الجلد قال: نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان وأنزل الإنجيل لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان وأنزل الفرقان الرابع وعشرين - وقد تظافرت في رواياتنا إضافة إلى نزول التوراة لثلاث عشرة والزبور لثمان عشرة، وإن القرآن نزل في التاسع عشر او الواحد والعشرين أو الثالث والعشرين.

وأخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال: كنت عند الحسن فقال له رجل يا أبا سعيد ليلة القدر في كل رمضان ما هي؟ قال: أي واللّه أنها لفي كل رمضان وإنها لليلة يفرق فيها كل أمر حكيم فيها يقضي اللّه كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها، وفي نور الثقلين ٤ : ٦٢٤ ج ١٦ عن الكافي باسناده عن إسحاق بن عمار قال: سمعته يقول وانس يسألونه يقولون: الارزاق تقسم ليلة النصف من شعبان؟ قال: فقال: لا واللّه وما ذلك إلا في ليلة تسع عشر من شهر رمضان وإحدى وعشرون وثلاث وعشرين، فإن في تسعة وعشرين يلتقي الجمعان وفي ليلة إحدى وعشرين يفرق كل أمر حكيم وفي ليلة ثلاث وعشرين يمضي ما أراد اللّه تعالى من ذلك وهي ليلة القدر التي قال اللّه تعالى «خير من ألف شهر» قال: قلت: ما معنى قوله يلتقي الجمعان؟ قال: يجمع اللّه فيها ما أراد من تقديمه وتأخيره وإرادته وقضائه، قال قلت: فما معنى يمضيه في ثلاث وعشرين؟ قال: أن يفرق في ليلة إحدى وعشرين ما أمضاه ويكون له فيه البداء فإذا كانت ليلة ثلاث وعشرين أمضاه فيكون من المحتوم الذي لا يبدو له فيه تبارك وتعالى.

«فيها يفرق كل أمر حكيم» وقد فُرق القرآن المحكم في أولاها عن أم الكتاب «لدينا لعلي حكيم» فرقاً من تلك الحكمة العليا، ثم فَرَق فرقاً آخر هو تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين: «كتاب أحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير»[1] فرق التفصيل الأخير طول البعثة.

ومن ثم يستمر فرقُ كل أمر حكيم سوى أم الكتاب على مرِّ الزمن منذ القدر الأول، والفرق هو التبيين لكل أمر غير مبين في هذه الليلة، حتى يصبح كفرق الصبح في بيانه، أو مفرق الطريق في اتضاحه، ومنه فرق الشعر إذا خلَّصتَ بعضه من بعض، وبُيِّنت مخطُّ وسطه بالمدرى أو الإصبع.

هكذا يفرق فيها كل أمر حكيم، للرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله فرق للقرآن المحكم عن أم الكتاب، وفرق لكل محكم يحتاجه الرسول في ولايته الرسالية، وللائمة من آل الرسول فرق واحد هو الثاني.

فيها يتضح لولي الأمر كلما أحكم له وأجمل قبلها، كما فُرِق القرآن ولم يكن الرسول يعلمه قبل إنزاله من أم الكتاب.ترى لمن يفرق فيها كل أمر حكيم بما تنزل الملائكة والروح فيها من كل أمر، إلا لولي الأمر؟ وهل ترى إنه كل من تولى أمر الأمة أياً كان؟ ومَنزِلُ الملائكة والروح ليس إلاّ قلب محمد أو قلبٌ محمديٌ! وكما في حوار لباقر العلوم عليه‌السلام[2] «وكل أمر حكيم» هنا هو «من كل أمر» في القدر، فبعض الأمر مفروق عند ولي الأمر وهو الأصل الرسالي الذي تحتاجه الأمة ويحتاجه ولي الأمر في أمره، وبعضٌ غير مفروق وهو حكيم يحتاجه ولي الأمر في الأمة في كل سنة، وبعضه حكيم عند الله لن يفرق لأحد، ولا يعني كل أمر إلا الأوسط من حكيم الأمر، كما عبر عنه في القدر بالبعض: «من كل أمر»تنزل الملائكة والروح به لفرقه بإذن ربهم «أنه لينزل في ليلة القدر إلى ولي الأمر تفسير الأمور سنةً سنة يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا او كذا وفي امر الناس بكذا وكذا وإنه ليحدث لولي الأمر سوى ذلك كل يوم علم الله الخاص والمكنون العجيب المخزون مثل ما ينزل في تلك الليلة من الأمر»[3]

و«أمر» هنا كما في القدر يعم أمر الفعل وأمر الحكم مقابل النهي، وأمر الشيء «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما

---

[1]). سورة هود ١١:١.

[2]). نور الثقلين ٤: ٦٢١ ج١٠ في أصول الكافي باسناده إلى أبي جعفر الباقر عليه‌السلام حديث طويل يقول فيه عليه‌السلام فإن قالوا: من الراسخون في العلم؟ فقل: من لا يختلف في علمه، فإن قالوا: فمن هو ذاك؟ فقل: كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله صاحب ذلك فهل بلغ أو لا؟ فإن قالوا: قد بلغ فقل: فهل مات صلى‌الله‌عليه‌وآله والخليفة من بعده يعلم علما ليس فيه اختلاف؟ فإن قالوا: لا - فقل إن خليفة رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله مؤيد ولا يستخلف رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله إلا من يحكم بحكمه وإلا من يكون مثله إلا النبوة، وإن كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لم يستخلف في علمه أحداً فقد ضيع في أصلاب الرجال ممن يكون بعده، فإن قالوا: فإن علم رسول اللّه كان من القرآن، فقل: «حم والكتاب المبين ـ الى قوله ـ إنا كنا مرسلين»فإن قالوا لك: لا يرسل اللّه عز وجل إلاَّ إلى نبي فقل: أهذا الأمر الحكيم الذي يفرق فيه هو من الملائكة والروح التي تنزل من سماء إلى سماء أو من سماء إلى أرض؟ فإن قالوا: من سماء إلى سماء فليس في السماء أحد يرجع من طاعة إلى معصية، فإن قالوا: من سماء إلى أرض وأهل الأرض أحوج إلى ذلك فقل: فهل لهم بد من سيد يتحاكمون إليه؟ فإن قالوا: فإن الخليفة هو حكمهم، فقل: اللّه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور...»

[3]). عن الباقر عليه‌السلام قال قال اللّه عز وجل في ليلة القدر «فيها يفرق كل أمر حكيم» قال: ينزل فيها كل أمر حكيم والمحكم ليس بشيئين إنما هو شيء واحد فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم اللّه ومن حكم بأمر فيه اختلاف فرأى أنه مصيب فقد حكم بحكم الطاغوت، إنه لينزل... ثم قرأ «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام....»نور الثقلين ٤: ٤٢٢ ح١١ عن أصول الكافي.

نزله إلا بقدر معلوم»[1] ينزل مثلث الأمر الحكيم فيفرقه لولي الأمر عن حكمته إلى تفصيله، فلكل سنة من سنِّي الأمة أمور وأوامر حكيمة ليست من صلب الشرع وأصله، يفرقها الله لولي الأمر، نبياً في زمنه، وإماماً في زمنه، مما يدل على تقاسم الأمر لدى ولي الأمر، من دائب هو لزام ولايته وإمرته على المسلمين رسالةً وإمامةً، ومن غيره وهو لزامه المتجدد في كل عام، «لو كان للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله دون غيره لكان الخطاب يدل على فعل ماض غير دائم ولا مستقبل، ولقال: نزلت الملائكة وفرق كل أمر حكيم، ولم يقل: تنزل الملائكة ويفرق كل امر حكيم».[2]

ولقد أمِرنا ان نحاجج ناكري ولاية الأمر الدائبة بسورة القدر والدخان «فإنها لولاة الأمر خاصة».[3]

وعلّ «حكيم» هنا تعني الحكمتين ١ ـ صاحب الحكمة والمصلحة، ٢ ـ وغير المفروق، ففرقه هو عن حكمته الثانية ليتضح الأمر لولي الأمر.

إن كل أمر حكيم أمرٌ وفوقه امرٌ، وهما ليسا من عند ولي الأمر ولا الملائكة والروح ولا أي من الخلق، وإنما «أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين»: أمر الإذن في تنزُّلهم على ولي الأمر، وأمر الفرق لكلِّ أمر حكيم، أمر التشريع لفَرق شِرعة حكيمة، وأمر التكوين لِشرعة تكوينية حكيمة، أم اي أمر يحتاجه في الأمر في إمرته على الأمة، فكما أن شرعة التكوين والتشريع التي تتبنى ولاية الأمر رسالةً وإمامةً ليست إلاّ من عند الله، كذلك الأمر فيهما سَنَويا ليس إلاّ من عند الله، ولاية دائبة، وعلى هامشها ولاية سنوية!.

وعلّ «إنا كنا مرسلين» تدل على دوامة ليلة القدر منذ بزوغ الرسالات الإلهية حتى آخر زمن التكليف، حيث تضرب إلى اعماق الماضي الرسالي، رسالة ذات بعدين: نزول كتاب الشرعة، ومن ثم فرق كل أمر حكيم في كل سنة: «إنا كنا

---

[1]). سورة الحجر ١٥: ٢١.

[2]). نور الثقلين ع: ٦٢٦ ج ٤٢ في كتاب الاحتجاج عن امير المؤمنين عليه‌السلام في حديث طويل بعد ذكر الحجج قال السائل: من هؤلاء الحجج؟ قال: هم رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ومن حلّ محله من اصفياء اللّه الذين قرنهم اللّه بنفسه ورسوله وفرض على العباد من طاعتهم مثل الذي فرض عليهم ميثاقا لفسه وهم ولاة الامر الذين قال اللّه فيهم: [اطيعوا اللّه واطيعوا الرسول واولي الامر منكم] وقال فيهم: «ولو ردوه إلى الرسول وإلى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» قال السائل: ما ذاك الامر؟ قال عليه‌السلام الذي تنزل به الملائكة في الليلة التي يفرق كل امر حكيم من رزق واجل وعمل وحياة وموت وعلم غيب السماوات والارض والمعجزات التي لا تنبغي الا للّه واصفيائه والسفرة بينه وبين خلقه وهم وجه اللّه الذي قال «فاينما تولوا فثم وجه اللّه» هم بقية اللّه يعني المهدي عج اللّه فرجه الذي يأتي عند انقضاء هذه لنظرة فيملأ الارض قسطا وعدلاً كما ملأت ظلما وجورا ومن آياته الغيبة والاكتتام عند عموم الطغيان وحلول الانتقام، ولو كان هذا الامر الذي عرفتك بيانه للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله دون غيره لكان الخطاب يدل...

[3]). نور الثقلين ٤: ٦٢٢ ح ١٢ ـ في اصول الكافي باسناده الى ابي جعفر عليه‌السلام قال: يا معشر الشيعة خاصموا بسورة «انا انزلناه» تفلحوا فواللّه إنها لحجة اللّه تبارك وتعالى على الخلق بعد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وأنها لسيدة دينكم وإنها لغاية علمنا، يا معشر الشيعة خاصموا بحمُ الكتاب المبين. «انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين» فانها لولاة الأمر خاصة بعد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يا معشر الشيعة يقول اللّه تبارك وتعالى «وان من امة الا خلا فيها نذير» قيل: يا ابا جعفر، نذيرها محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: صدقت ـ فهل كان نذير وهو حي من البعثة في اقطار الارض؟ فقال السائل: لا ـ قال ابو جعفر عليه‌السلام أرأيت بعيثه اليس نذيره كما ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في بعثته من اللّه عز وجل نذير؟ فقال: بلى ـ قال: فكذلك لم يمت محمد الا وله بعيث نذير، قال: فان قلت: لا ـ فقد ضيع رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله من في اصلاب الرجال من امته، قال: وما يكفيهم القرآن؟ قال: بلى ان وجدوا له مفسرا، قال: وما فسره رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله؟ قال: بلي قد فسره لرجل واحد وفسّر للامة شأن ذلك الرجل وهو علي بن ابي طالب عليه‌السلام والحديث طويل اخذنا منه موضع الحاجة.

مرسلين» رسل الوحي، ورسل القدر لفرق الأمر! وقد تعني «انا كنا منذرين» الرسالة الأولى وهي الدائبة الأصلية، ثم «انا كنا مرسلين» الرسالة الثانية السنوية، فالأولى خاصة بالرسل والثانية تعم أولي الأمر، طالما الرسل يجمعونهما.

ف «إنا كنا» ـ هنا وهناك ـ تضم دوامة أمر الولاية إلى أمر الرسالة منذ بزغت الرسالة، فلتكن ليلة القدر دائبة عبر الرسالات والولايات منذ البداية حتى النهاية.

أو أن الأولى تخص الرسالة والثانية تعمها والولاية، ولكنما الرسالة في الولاية ليست في أصل الشرعة وبوحي، وإنما في فَرْق كلِّ أمر حكيم بإلهام على هامش الرسالة.

ومهما يكن من أمر فليلة القدر المحمدية تختلف عن القدر لسائر الرسل وولاة أمرهم، في قدر الأمر المفروق لهم، والكتاب النازل عليهم، والملائكة المتنزلة إليهم: فإن «كنا منذرين وكنا مرسلين» إنما تثبت أصل القدر، لا قدر القدر وكيفيته، إذا فالملائكة والروح خاصة بهذه الرسالة السامية، كما أن مادة الوحي وكيفيته هنا تختلف اختلافا شاسعا عما هناك رغم الإشتراك في أصل الوحي.

وكما الرسالة المحمدية وولايتها هي المركز الرئيسي لسائر الرسالات والولايات، كذلك قدرها والملائكة والروح فيها وأمرها بفرقها، ولذلك ترى خماسية الرحمة تربط بالنازلة على محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله: «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» ١ ـ إنا أنزلنا.. ٢ ـ إنا كنا منذرين ٣ ـ فيها يفرق كل أمر حكيم ٤ ـ أمرا من عندنا ٥ ـ إنا كنا مرسلين!. «رحمة من ربك».

فكما أن ١ ـ نزول القرآن. ٢ ـ وفرق كل أمر حكيم في قدرك ٣ ـ من عند الله، هي «رحمة من ربك» كذلك الإنذار في الرسالات مع رسالتك، ورسالات القدر فيها مع قدرك، هما ايضا «رحمة من ربك»!

فهما إذا نابعتان من كوثرك، جاريتان طول التأريخ الرسالي في سواقي الرسالات وولايات الأمر حيث «فِعلُهم فعلُه وأمرهم أمره».[1]

«انه هو السميع» دعوات المرسلين قبلك بشأنك، كإبراهيم الخليل وأضرابه، سميع كل الدعوات الصالحة ليالي القدر وطول السنة، سميع ألسنة القال والإستعداد والحال في صالح الأقوال والأحوال.. «العليم» حاجيَّات ومتطلبات الأمم فرادى وجماعات.

«... رَبِّكَ رَبِّ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ».

---

[1]). تفسير البرهان ٤: ١٥٩ ح ٢ ـ الكافي عن علي بن ابراهيم عن عمر بن اذينة عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن حمران انه سأل أبا جعفر عليه‌السلام عن قول اللّه عز وجل «إنا انزلناه في ليلة مباركة» قال: نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الاواخر فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر قال اللّه عز وجل: «فيها يفرق كل امر حكيم» قال: يقدر في ليلة القدر كل شيءٍ يكون في تلك السنة الى مثلها من قابل من خير وشر وطاعة ومعصية ومولود واجل ورزق، فما قدِّر في تلك السنة وقضي فهو المحتوم وللّه عز وجل فيه المشية قال: قلت: «ليلة القدر خير من الف شهر» أي شيء عنى بذلك؟ قال: العمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة وانواع الخير من العمل في الف شهر ليس فيها ليلة القدر ولو لا ما يضاعف اللّه تبارك وتعالى للمؤمنين ما بلغوا ولكن اللّه يضاعف لهم الحسنات، والطبرسي في الاحتجاج عن امير المؤمنين عليه‌السلام في حديث طويل قال عليه‌السلام فيه: وانما اراد اللّه بالحق اظهار قدرته وابداء سلطانه وتبيين براهين حكمته فخلق ما شاء كما شاء واجرى فعل بعض الاشياء على ايدي من اصطفى من امنائه فكان فعلهم فعله وامرهم امره كما قال: «من يطع الرسول فقد اطاع اللّه» وجعل السماء والأرض وعاءً لمن يشاء من خلقه ليميز الخبيث من الطيب مع سابق علمه بالفريقين من اهلهما وليجعل ذلك مثالاً لأوليائه وامنائه وعرَّف الخليقةَ فضل منزلة اوليائه وفرض عليهم من طاعتهم مثل الذي فرضه منه لنفسه والزمهم الحجة بان خاطبهم خطابا يدل على انفراده وتوحيده وابان لهم اولياء اجرى افعالهم واحكامهم مجرى فعله فهم العباد المكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون هم الذين ايدهم بروح منه وعرَّف الخلق اقتدارهم بقوله «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا إلاّ من ارتضى من رسول» وهم النعيم الذي يسأل عنه ان اللّه تبارك وتعالى انعم بهم على من اتبعهم من اوليائهم.

ذلك وكأنما الرحمات الربانية لرب السماوات والأرض وما بينهما مجموعة في الرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله فناشئة عنه بإذن الله إلى الكائنات، فالرب الإله هو أولاً ربك، ومن ثم هو «رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين»!. وإشارة ثانية في هذا الإنتقال ـ تهدم صرح مختلف الربوبيات المزعومات ـ أن ربه هو رب الأرض والسماوات «إن كنتم موقنين» بالرب الإله، حيث الشرك في الربوبيات مع العلم أن ربك هو خالق الكون.

القرآن
نازل في ليلة القدر
(سورة القدر ـ مكية ـ وآياتها خمس)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ

* * *

... آيات خمس تبرز أهمية وحي القرآن، والقلب الذي أنزل عليه، والليلة التي أنزل فيها، وأستمرارية واقع القدر بإلهامات مستمرة على قلوب الطاهرين من آل الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله المكرمين، تضم الحقائق من كل أمر.

لذلك تقول الروايات إنها نسبة أهل بيت العصمة المحمدية، إلى يوم القيامة، كما عن الرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله قوله عن الله تعالى إنه قال: إقرأ «إنا أنزلناه» فإنها نسبتك ونسبة أهل بيتك إلى يوم القيامة[1].

نسبة روحية قدسية، كما وأن سورة الإخلاص نسبة رب العالمين.

في هذه السورة ندرس: ما هو النازل في ليلة القدر؟ وما هي ليلة القدر؟ ومتى هي؟ وما هي خيرتيها من ألف شهر؟ ومن هو الروح المتنزل مع الملائكة فيها؟ وعلى من تتنزل؟ وبماذا تتنزل؟ وما هو السلام فيها حتى مطلع الفجر؟.

«إنا أنزلناه»:

هل هو نزول روح النبوة ـ القدسية ـ على الرسول الأقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله؟ أم وحي القرآن النازل عليه بتمامه طوال الدعوة؟ أم بعض القرآن وعلّه هذه السورة نفسها؟ أم القرآن كله بصورة محكمة غير مفصلة، متحللاً عن هذه التعابير اللفظية والأمثال، والتكررات والإخبارات عن المستقبل؟

لا نحتمل أنه بعض القرآن المفصّل، ولا بعض المحكم، لمكان «ه» لا «بعضه»: وعلى كونه بعضه لا نحتمل أنه نفس السورة، لمكان «ه» لا «ها» ولأنه إخبار عما سبق: «أنزلناه» لا عن الحال: «ننزّله» ف «أنزلناه» يحيل أن يكون النازل هو سورة القدر نفسها، لذكورة الضمير ومضيّ الفعل.

إضافة إلى أن نزول البعض من القرآن ـ أيا كان ـ في ليلة القدر، أنه من توضيح الواضحات، إذ إن أبعاض القران منتشرة نزولاً على أبعاض زمن الرسالة، ومن أحراها ليلة القدر، وأن نزول البعض منه فيها لا تكسبها فضيلة خاصة،

---

[1]). نور الثقلين ج ٥، ص ٦١٦ ح ٢١ ومسئله الأحاديث في نفس المصدر كالتالي:
ح ٩٥ - ٩٧ و٩٩ و١٠١ - ١٠٣ و١٠٨ و١١٠.

إذ الأبعاض كلها قرآن، وكلها تكسب زمنها فضلاً دون اختصاص ببعض دون بعض.

ولا نحتمل أيضا أنه القرآن المفصل، النازل طوال الرسالة نجوما متفرقة، فكثيرٌ من آياته لا تتحمل نزولها دفعة واحدة، بداية البعثة، كالمخبرة عما تحقق متأخرا عن ليلة القدر بصيغة الماضي: «قد سمع اللّٰه قول التي تجادلك في زوجها»[1] وأمثالها.

والآيات الناهية عن استعجاله بالقرآن قبل أن يُقضى إليه وحيه: «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه وقل ربِّ زدني علما»[2] «لا تحرِّك به لسانك لتعجل به».[3]

ولو كان القرآن المفصل نازلاً عليه جملة واحدة ليلة القدر، لم يكن في قراءته قبل نزوله التدريجي استعجال، وإنما حكاية عما أوحي إليه، ونفس ما أوحي إليه، إضافة إلى تصريحات أخرى: «وقال الذين كفروا لو لا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً».[4]

وأخيرا لا نحتمل أنه روح النبوة القدسية، لأنها نزلت عليه منذ بداية الوحي، فهل ياترى إن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله لم تكن له روح النبوة، بينه وبين الليلة القدر الأولى من سني رسالته، زهاء خمسين يوما أو يزيد؟[5]

فنحن هنا بين واقعين: واقع نزول القرآن في ليلة مباركة: «حم. والكتاب المبين. إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمر حكيم»[6] وهي ليلة القدر: «إنا أنزلناه في ليلة القدر» وهي من رمضان: «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن».[7]

وواقع نزوله نجوما متفرقة طول البعثة خلال ٢٣ سنة كما هو الواضح.

ولابد أن يختلف النزولان مع بعض، فهل هو نزوله المفصل مرتين؟ كلا! للدليل المسبق، سواء أكان نزولاً على قلب الرسول في هاتين المرتين، أم في المرة الأولى إلى بيت المعمور في السماء الدنيا دفعة واحدة! وفي الثانية على قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله نجوما متفرقة،[8] وهذه أسطورة لا يقبلها العقل والدين ولا آي القرآن المبين، إضافة إلى الدليل

---

[1]). سوەر المجادلة ٥٨: ١.

[2]). سورة طه ٢٠: ١١٤.

[3]). سورة القيامة ٧٥: ١٦.

[4]). سورة الفرقان ٢٥: ٣٢.

[5]). من ٢٧ رجب إلى ليلة القدر المردة بين ما يأتي.

[6]). سورة الدخان ٤٤: ٣٦.

[7]). سورة البقرة ٢: ١٨٥.

[8]). في الكافي عن أبي عبد اللّه الصدق عليه‌السلام قال: نزل القرآن جملة احدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثم نزل في طول عشرين سنة (نور الثقلين ج ٥، ص ٦٢٤، ج ٥٣). وهذه الرواية واحدة شاذة لا سبيل فيها إلا التأويل المسبق في المتن، وسندها: حفص بن غياث، عامي لم يوثق وكذلك الراوي عنه محمد بن سليمان.

المسبق من لزوم الكذب، إلا أن يعنى منه قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، فأي بيت هو أعمر من قلبه المنير، وهو أيضا في السماء الدنيا، مع الخلق المكلفين ضرورة كونه في المرسل إليهم، وإن كان كيانه فوق العالمين: «بالأفق الأعلى».
ثم القرآن ليس طيرا يصعد أو ينزل إلى البيت في السماء! فليكن الرسول هو المعني بالبيت المعمور، إذ عمر قلبه المنير بوحي اللطيف الخبير.
أقول: لا سبيل إلى شيء من ذلك، وإنما هو نزوله جملة واحدة بصورة محكمة دون تفاصيل، في ليلة القدر على قلبه المنير، ثم نجوما متفرقة طوال البعثة.
والقرآن يشير إلى هاتين المرتين في آيات ويصرح في أخرى: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»[١] ف«ثم» هنا، تفصل بين القرآن المفصل والمحكم غير المفصل، أن المفصل يتطلب نزوله زمنا بعيدا، وهو مجموعة زمن الدعوة، ولكن المحكم لا يتطلب إلا وقتا قصيرا يناسب أن يكون ليلة القدر.
ولقد كان الرسول خبيرا بالآيات قبل أن يقضى إليه وحيها: «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما» ومن المحال الاستعجال فيما لم يسبق منه للرسول بال، ولقد كان يحرك به لسانه ليعجل به، أتحريكا دون أن يعلم منه شيئا!: «لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه. فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه»[٢] فقد نهي عن الاستعجال في لفظ القرآن لينضم وحي اللفظ إلى وحي المعنى فيصبح القرآن وحيا مزدوجا، وليكون تفصيل وحي المعنى أيضا بالوحي، كما نرى في آيات تصرح: أن تفصيل الكتاب كمحكمه، من الله «ثم فصلت من لدن حكيم خبير».[٣]
ولقد سبق محكمَ القرآن أمُ الكتاب، وفي هذه المرحلة المسبقة لم يكن كتابا ولا قرآنا، وإنما علم الله المحكم دون أن يعلمه أحد: «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»[٤]: أصل الكتاب، وعند ذاك لم يكن قرآنا يُقرء: ولا عربيا: واضحا، وإنما الله جعله قرآنا عربيا: «إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون. وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم»[٥] عليٌّ من أن تناله الأفهام، حكيم من أن تتطرق اليه الأوهام.
وبعد هذه الحكمة البعيدة المدى قبل نزوله، أنزله الله بصورة محكمة هي تفصيل ام الكتاب، أنزله على رسوله ليلة القدر جملة واحدة، ثم فصله له طوال البعثة نجوما متفرقة، ولم يكن الرسول ليعلم قبله لا مفصله ولا محكمه: «ما كنت تعلمها أنت ولا قومك»[٦] «ما كنت تدري ماالكتاب..»[١] «وأنزل الله عليك الكتاب وعلمّك ما لم تكن تعلم».[٢]

ولو كانت صحيحة مستفيضة أيضا لم تكن تثبت بيتا جسمانيا من حجر ومدر نزل فيه القرآن ليلة القدر إذ المعنى لا ينزل على الجسم، إلا جسما فيه معنى ـ بحسابه ـ كقلب النبي الأقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[١]). سورة هود ١١: ١.

[٢]). سورة القيامة ٧٥: ١٦: ١٩.

[٣]). سورة فصلت ٤١: ٢.

[٤]). سورة الرعد ١٣: ٣٩.

[٥]). سورة الزخرف ٤٣: ٣،٢.

[٦]). سورة هود ١١: ٤٩.

وهذه مراحل ثلاث للقرآن: ١ ـ القران المحكم لدى الله، ٢ ـ القرآن المحكم لدى الرسول، ٣ ـ القرآن المفصل لدى الرسول فلدى الناس: «هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان».[1]

«إنا أنزلناه»:

نستوحي من هذه التأكيدات الثلاث منزلة القرآن العالية، ف«إن» يؤكد النزول، إذ لو لم يكن يتنزل القرآن عما عند الله من العلو والحكمة العالية، لم يكن الرسول ليفهمه فضلاً عمن سواه، فليس النزول هنا من مكان عال، وإنما من مكانة عالية هي مرحلة ام الكتاب.

وضمير الجمع «نا» يؤكد لنا: أن هذا القرآن مجموعة الرحمات الإلهية الممكن نزولها على الإنسان، فجمعية الصفات هنا ـ لا الذات ـ تدلنا على أن نزول القرآن تصاحبه كافة الإفاضات من كافة الصفات الإلهية في أمرين:

حمل القرآن لما يمكن حمله من العلوم والتوجيهات الإلهيـة أولاً وأخـيرا، ووضـوح آياتـه ونصـوعها لآخـر درجـات الإمكان، فلا أوضح منه بيانا، كما لا أعمق منه برهانا وتبيانا، ولا يماثله اي وحي رباني.

وأخيرا ـ إضافة إلى الأدلة المسبقة ـ نستوحي من إنزال القران هنا نزوله الدفعي، كما التنزيل هو التدريجي ـ تتبع موارد استعمالها.

ثم لماذا أشير هنا بالضمير «أنزلناه» دون تصريح بالقرآن؟ اعتبارا بأن القرآن المحكم ضمير مستتر، وأنه لا يحق أن يعنى بالضمير المجهول، إلا الوحي الأخير، فكما ان «هو» في الأشخاص لا يعني إلا الهوية المطلقة الإلهية، لأنه «هو» على الاطلاق، كذلك «هو» في النازل من وحي السماء لا يحق إلا للهوية المطلقة الكتابية، فكتاب الله إله الكتب لأنه أنزله بعلمه.

واستنتاج ثان وهو أن النازل ليلة القدر لم يكن هذا القرآن المفصل حتى يصح القول: إنا أنزلنا هذا القـرآن، وإنمـا روحه المجمل، ومحكمه المجهول عنا، الغائب عن عقولنا، ولذلك كله يستحق ضمير الغائب المطلق «هو» تأمل.

«في ليلة القدر»:

فما هو القدر؟ وكم هي ليلة القدر؟ وما هي؟ وهل هي تتكرر طوال الزمن؟ أم إنهـا ليلـة مضـت دون تكـرار؟ أم تكررت زمن الرسول ثم انقطعت؟.

بحوث قيمة ذات قدر حول ليلة القدر، علنا ندرسها معمقة، على أسهل تعبير وكما هي دأبنا في هذا التفسير:

ف«القدر»: علّها المنزلة والمقام، إعتبارا بما حصل في ليلته وما يحصل، فليس الزمان ذا قدر ومنزلة ذاتيا، اللهم إلا بما يحل فيه من عظائم الأحداث الجليلة، ولهذا الحدث العظيم: حدث نزول القرآن الكريم، حدث الـوحي والرسـالة الأخيرة، إن له منزلة لا أعظم منها ولا يساويها أيٍّ من أحداث التاريخ، ... إن منزلتها تفوق كل المنزلات طوال الزمن، إذ لم يأت بما أتته كل الزمن.

إن هذه الليلة المباركة تفوق عظمتها الإدراك البشري، وإدراك الرسول أيضا كبشر، وإنما هو يـدركها كرسـول: «ومـا أدراك ما ليلة القدر؟ ليلة القدر خير من ألف شهر»: ألف شهر يقام فيها في سـبيل الله، وألـف شـهر يعـارض فيهـا شريعة الله، خير من التأريخ بأسره، من شرّه إذ تكافحه، ومن خيره إذ تفوقه.

و«القدر» عله ـ أيضا ـ التقدير: تقدير قيم الإنسان، وتدبير حياة الانسان لأعمق أبعاد التأريخ، تقديرٌ ما أشمله، من تفريق كل أمر حكيم: «.. فيها يفرق كل أمر حكيم. أمرا من عندنا إنا كنا منذرين»[3] وهذا مما يستمر طوال الرسالات

---

[1]). سورة الشورى ٤٢: ٥٢.

[2]). سورة النساء ٤: ١٣.

[3]). سورة الدخان ٤٤: ٣.

والرسالة الإسلامية حتى أواخر زمن التكليف، وتقديرٌ يخص زمن الرسول، بنزول القرآن الحاوي لكل الأقدار وكل ما تتطلبه الحياة كل الحياة.

ونجد تفاسير أخرى لمعنى القدر في المروي عن أهل بيت الرسالة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله، من: أنها ليلة قدرت فيها السماوات والارض، وقدرت ولاية أمير المؤمنين عليه‌السلام فيها[1] إيحاءً إلى نوعي التقدير تكوينا وتشريعا، باعتبار أن ولاية علي عليه‌السلام تضم كافة الولايات التشريعية لأنها تمثل الولاية القدسية المحمدية التي هي خاتمة الولايات وجامعة النبوات.

وأنها ليلة تقدير الأرزاق والآجال كما عن جعفر بن محمد عليه‌السلام[2] وهي من فروع تقدير السماوات والأرض، وقد يعم تقديرهما تقدير ما هو كائن إلى يوم القيامة كل ليلة قدر بسنتها بما فيه المقامات الروحية كما عن الرسول الأقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله[3] والإمام الرضا عليه‌السلام.[4]

«ليلة القدر»:

إنها ليلة واحدة في السنة لمكان تاء الوحدة «ليلة» لا «ليل» حتى يفيد الجنس الملائم لأكثر من ليلة، ولا «ليال» حتى ينص على العدد.. إنما «ليلة».

هذا ـ ولكننا ماذا نصنع بواقع اختلاف الآفاق، وعله حوالي يوم أو يومين في الكرة الأرضية، إضافة إلى اختلاف الليل والنهار في وقتيهما أيضا حسب اختلاف الآفاق، فنهار النصف من الكرة ليلٌ في النصف الآخر، وحسب طول الليل أو النهار إلى قرابة ستة أشهر، فما هو المناط في ليلة القدر من هذه الآفاق؟

قد يقال: إن لكل أفق ليلةُ قدر يخصه، فهي ليالٍ حسب مجموعة الآفاق رغم كونها ليلة حسب كل أفق، ويشكل أن الآية لا تتحدث عن كل أفق قبال الآفاق، وإنما عن كافة الآفاق، حيث المعنيين بالآيات كافة سكنة الأرض.

ومن جهة أخرى، إن تنزل الملائكة والروح فيها ليس إلا مرة في ليلة واحدة فما هي بين ليالي الآفاق؟.

نقول: بما أن ليلة القدر واحدة، وتنزل الملائكة والروح ليس إلا فيها على قلب الرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله أو على قلب محمدي للإمام المعصوم، من هنا وهناك نستوحي أن المناط في القدر هو الأفق الذي فيه الإمام، ثم يقاس عليه

---

[1]). كما في معاني الأخبار عن المفضل قال ذكر أبو عبدالله عليه‌السلام «إنا انزلناه في ليلة القدر» قال: ما أبين فضلها على الشهور قال قلت: وأي شيء فضلها؟ قال: نزلت ولاية أمير المؤمنين عليه‌السلام فيها، قلت: في ليلة القدر التي نرتجيها في شهر رمضان؟ قال نعم هي ليلة قدرت فيها السماوات والأرض، وقدرت ولاية أمير المؤمنين عليه‌السلام فيها (نور الثقلين، ح ٥، ص ٦١٧، ح ٢٣).

[2]). المصدر، ص ٦١٨، ح ٢٩.

[3]). المصدر عن معاني الأخبار عن أمير المؤمنين علي عليه‌السلام قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يا علي أتدري ما معنى ليلة القدر؟ فقلت: لا يا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله! فقال إن الله تبارك وتعالى قدر فيها ما هو كائن إلى يوم القيامة فكان فيما قدر عز وجل ولايتك وولاية الأئمة من ولدك إلى يوم القيامة (المصدر ص ٢٩٦، ح ٨٠ عن معاني الأخبار).

[4]). نور الثقلين عن عيون الأخبار في مجلس الرضا عليه‌السلام مع سليمان المروزي ـ قال سلمان للرضا عليه‌السلام: ألا تخبرني عن «إنا أنزلناه في ليلة القدر» في أي شيء نزلت؟ قال يا سليمان ليلة القدر يقدر الله عز وجل فيها ما يكون من السنة إلى السنة، من حياة أو موت أو خير أو شر أو رزق. وفي ح ٨٤، عن الباقر عليه‌السلام مثله.

سائر الآفاق ليلاً أو نهارا، ولا تبقى إذا إلا مشكلة اختصاص ليلة القدر ببعض الآفاق وحرمان الأخَر منها، والحلّ أن التردد فيها بين ليالٍ عدة كما يأتي، هذا التردد يُكسب كل أهالي المعمورة، ليلة القدر.
لنفرض أن ليلة القدر هي التاسعة عشرة من رمضان، وهي في أفق الإمام ليلة الإحدى والعشرين منه، أو بالعكس، فهي واحدة رغم اختلاف الأفق: تسعة عشرة وإحدى وعشرين.
وفيما إذا كانت لا تقارن ليلةُ القدر في أُفق الإمام ليلةً في أفق آخر، كأن يكون نهارا قران ليلة القدر، فلأهالى أفـق النهار أجرهم إذا كانوا في طاعة الله، رغم جهلهم بها، وبالإمكان أن الإمام يتنقَّل كل سنة إلى مختلف الآفاق ليُكسب الكلَّ فضيلة القدر.
وأخيرا لا دليل على استيعاب ليلة القدر كل سكنة الأرض.
«وما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خير من ألف شهر»:
إن لهذه الليلة المباركة فضلاً سابقا: هو نزول القرآن فيها، ويكفيها قدرا أن تفوق ليالي التأريخ، ولها فضل لاحق، هو تنزُّل الملائكة، والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر، وأخيرا:
«سلام هي حتى مطلع الفجر».
فيا لها من كرامة منقطعة النظير لم تسبق في التأريخ ولا تلحقه أيضا.
هنا ندرس ألف شهر، التي ليلة القدر خير منها: إن ليلة القدر هي ليلة واحدة من السنة، لا مـن شـهر، فلـماذا لا تقول: خير من أربع وثمانين سنة؟
الجواب: لزوم التهافت حينذاك، لأن لكل سنة من هذه السنين ليلة قدرٍ، فكيف تفضّـل ليلـة القـدر عـلى نفسـها بمضاعفات، ولما قال: خير من ألف شهر، عرفنا أنها الشهور التي ليست فيها ليلة القدر، فلا يعني من المفضل عليه ألف شهر على التوالي، إنما مقداره على حساب الأيام وهي ثلاثون ألف يوم، أو ستون ألفاً بانضمام النهـار، وهنـاك روايات متضافرة عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وأهل بيته الكرام تصرح بما توحيه الآية.
وهل إن الألف هنا حدٌّ لا يزيد ولا ينقص، أم إنه رمزٌ للكثرة اللانهائية، بما أن حدث هذه الليلة العظيمة يربوا على كافة الأحداث العظيمة في الأزمان كلها، من خيرها ومن شرها؟
قد لا نستطيع أن نتأكد من أحدهما، إذ إن رمز هذه الكثرة الكثيرة لا بد أن يكون أكثر من الألـف بكثـير، فلـتكن الألف حداً ثابتاً.
وإن ليلة القدر لا تقف خيريتها على ألف شهر، فما هو الألف بين آلاف السنين من تأريخ الرسالات الإلهية، وما هو بين آلاف السنين من الدعايات المضادة.
والحل أن الألف هنا ألف عام وخاص يكافح التأريخ بأكمله، بخيره وشره، فهي الألف: الكثرة الكثيرة من الزمن التي حدثت فيها خيرات التأريخ بأجمعها، فحدث هذه الليلة المباركة يربوا عليها بأسرها.
وهي أيضاً الألف التي حكم فهيا بنو أمية ضد الإسلام بكل الطاقات والإمكانيات، فما استطاعوا أن يزيلوا الأثر الهام الثابت في ليلة القدر: شريعة القرآن ودعوته.
إن زمن الحكم الأموي هو أشرّ الأزمنة التي مرت على التأريخ الإسلامى، والتى تستقبل الإسلام إلى يوم القيامة، وإذا كانت الطغمة الحاكمة الأموية لا تستطيع القضاء على ليلة القدر، على القرآن النازل فيه، وعلى نبي القرآن ودعوته، فأحرى ألا تستطيع الطُغَم الحاكمة الأخرى أن تمس من كرامتها، إلا جـولات دعائيـة وإدعائيـة، فـإن للحـق دولـة وللباطل جولة «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».
إن قوة الدعوة القرآنية، أكثر بكثير من القوات المضادة، طالما الكفر يكرس كافة طاقاته وإمكانياته، لكنـه لا يملـك شيئاً مما يملكه الحق من براهين ومن دوافع الخلود وسناد الخلود.
وروایاتنا متضافرة بين الفريقين في خيرية هذه الليلة بالمعنين عن النبي الأقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله وأئمـة أهـل بيتـه الكـرام

عليهم‌السلام.[1]

«تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر»

...الملائكة ـ كل الملائكة ـ دون استثناء، لمكان «ال» الإستغراق، فإن الجمع المحلى باللام يفيد الإستغراق.

والروح هو عظيم الملائكة وزعيمهم وليس منهم بدليل المقابلة، وتخصيصه بالذكر من بين العموم بحاجة إلى دليل، وقد يتأيد ويؤيده نظرات أهل الوحي والعصمة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله.[2]

وهذا هو الروح القائم مع الملائكة يوم القيامة أيضاً: «يوم يقوم الروح والملائكة لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا»[3] «تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»[4].

واعتبار أن الروح هو ما به الحياة، نستوحي أن الروح هذا من به حياة ملائكية الملائكة على أنهم أيضاً أرواح، وفيهم من سُمي روحاً ـ لا مطلقاً ـ وإنما: «روح القدس»[5] و«روح منه»[1] و«الروح من أمره»[2] و«الروح الأمين»[3] و«روحاً من

---

[1]). ففي المعنى الأول: أخرج أبن أبي حاتم عن علي بن عروة قال ذكر رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يوماً أربعة من بني إسرائيل عبدوا اللّه ثمانين عاماً لم يعصوه طرفة عين فذكر أيوب وزكريا وحزقل بن العجوز ويوشع بن نون فعجب رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله من ذلك فأتاه جبريل فقال يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة فقد أنزل اللّه خيراً من ذلك فقرء عليه سورة القدر قائلاً: هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك فسر بذلك رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله والناس معه (الدر المنثور ج٦ ص٣٨١) ومن طريق أصحابنا مثله كما في نور الثقلين ح١٦ و٤٥ عنه (ص) أقول: وهكذا كل أحداث التاريخ - الجليلة الخيرة - فليلة القدر خير منها، والألف هنا إشارة إلى حده لبيان بعض المصاديق كما في الحديث، وإشارة إلى زمن الخير كله دون حد.

وفي المعنى الثاني أخرج الخطيب في تايخه عن ابن عباس قال رأى رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله بني أمية على منبره فساءه ذلك فأوحى اللّه إليه: إنما هو ملك يصيبونه ونزلت: إنا أنزلناه... وأخرجه أيضاً عن ابن المسيب مثله، وأخرجه الترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن يوسف بن مازن الرواسي عن الإمام الحسين عليه‌السلام مثله بزيادات منها: من ألف شهر يملكها بنو أمية يا محمد! قال القاسم فعددناها فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً (المصدر) وفي المستفيض من طريق أصحابنا مع تفاصيل أخرى كما في ح٤٢ و٤٣ عن الإمام الصادق عليه‌السلام عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله وح٤٤ عن علي عليه‌السلام عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله وح٤٥ وعنه صلى‌الله‌عليه‌وآله وح ٤٦ عن الإمام الحسن المجتبى عليه‌السلام عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[2]). أبو بصير قال قلت للإمام جعفر الصادق عليه‌السلام: جعلت فداك الروح ليس هو جبرائيل؟ قال: الروح أعظم من جبرائيل، إن جبرائيل من الملائكة. وإن الروح هو خلق أعظم من الملائكة، أليس يقول اللّه تبارك وتعالى: تنزل الملائكة والروح؟ نور الثقلين ج٥ ص٦٣٨ ح١٠٤.

وعن الإمام الباقر عليه‌السلام مثله كما في ح١١٠ ـ المصدر، وعن الصادق عليه‌السلام مثله كما في تفسير البرهان ح٤ ص٤٨١ ح١ ويلمح إليه ح١٠٨ ج٥ ونور الثقلين ص٦٣٩. وفيه يستوجب الإمام زيادة الروح ليلة القدر، ويلوح أن الروح هذه روح قدسية منفصلة عن الملائكة وسائر المعصومين، وهي تفاض عليهم بإذن ربهم ليالي القدر.

[3]). سورة النبأ ٧٨: ٣٨.

[4]). سورة المعارج ٧٠: ٤.

[5]). سورة البقرة ٢: ٨٧ و٢٥٣ و سورة المائدة ٥: ١١٠.

أمرنا».[4]

هذه هي الأرواح المذكورة في القرآن، بين ما هو روح القدس النازل على النبيين، وما هو الوحي النازل عليهم، ومن هو ملك الوحي: جبرائيل أم أعوانه.

ولم يُذكر الروح دون قيد في القرآن إلا ثلاثاً فيمن قوبل به الملائكة، وهو روح الملائكة وزعيمهم، وإلا مرة واحدة كذلك في الروح القدسية المحمدية القرآن: «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً».[5]

من هنا وهناك نستوحي الوفاق بين الروحين، النازل والمنزل عليه، فالروح النازل هو روح الملائكة، والمنزل عليه هو روح النبيين، الروح القدسية المحمدية، روح محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله في وحي القرآن ليله، وفي نزول كل أمر طوال البعثة، وأرواح محمدية بعد ارتحاله إلى جوار رحمة ربه، أرواح المعصومين من عترته، الحاملين روحه القدسية وعصمته الإلهية.

ونستوحي استمرارية ليلة القدر من قوله تعالى: «تنزَّل الملائكة والروح» دون «تَنَزَّلَ» فالفعل مضارع يدل على استمرارية نزول الملائكة والروح، إذاً فليلة القدر بهذا الاعتبار مستمرة طوال الزمن ومنذ البعثة، وإن كانت باعتبار نزول القرآن ليلة واحدة بداية البعثة، أو كانت ثلاثة وعشرين ليلة طوال البعثة بالإعتبارين، لكنها مستمرة بنزول الملائكة والروح، وعلى حد تعبير الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: هي إلى يوم القيامة[6] وهي قيام القائم المهدي عليه‌السلام اذ لا يتنزل الملائكة الا على معصوم محمدي صلى‌الله‌عليه‌وآله.

---

[1]). سورة الجاثية ٤٥: ١٧١.

[2]). سورة غافر ٤٠: ١٥ و سورة النحل ١٦: ٢.

[3]). سورة الانعام ٦: ١٩٣.

[4]). سورة الشورى ٤٢: ٥٢.

[5]). سورة الشورى ٤٢: ٥٢.

[6]). في مجمع البيان: جاءت الرواية عن أبي ذر قلت يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله؟ ليلة القدر هي شيء على عهد الأنبياء ينزل فيها فإذا قبضوا رفعت؟ قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: لا بل هي إلى يوم القيامة (نور الثقلين ج٥ ص٦٢٠).

وأخرج أبو داود والطبراني عن ابن عمر قال سئل رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وأنا أسمع عن ليلة القدر فقال: هي في كل رمضان، ومثله ما أخرجه محمد بن نصر عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن ليلة القدر أهي شيء كان فذهب أم هي في كل عام فقال: بل هي لأمة محمد ما بقي منهم اثنان (الدر المنثور ج٦ ص٣٧١).

وما رواه أبو جعفر الجواد عليه‌السلام «أن أمير المؤمنين عليه‌السلام قال لابن عباس إن ليلة القدر في كل سنة وإنه ينزل في تلك الليلة امر السنة ولذلك الأمر ولاة بعد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال ابن عباس: من هم؟ قال وأحد عشر من صلبي» وعن أبي جعفر الباقر عليه‌السلام مثله ٤٠ وعن الإمام الصادق عليه‌السلام في استنكار رفعها: لو رفعت ليلة القدر لرفع القرآن (ح٤١).

أقول: لأن الأمور النازلة ليلة القدر هي شروح لما أجمل في القرآن.

وفي أحاديث عدة أنها منذ بداية الخلق إلى يوم القيامة، وتعني بداية خلقة المكلفين أو لعله أعم - تأمل.

فهل تتنزل الملائكة والروح من كلِّ أمر على بقاع الأرض، كَلاّ، إنما على قلب واع، قلبِ محمدٍ صلى‌الله‌عليه‌وآله أو قلبٍ محمديٍّ عليه‌السلام لا سواه، قلب واعٍ مَّا يتنزل عليه من كل أمر، لا القلوب المقلوبة، أو غير المستعدة لهكذا نزول هامٍّ في كل سنة.

إنها القلوب الطاهرة من أهل بيت العصمة المحمدية، محمدٍ أم سواه، ممن رعاهم وربّاهم بالوحي، من علي امير المؤمنين عليه‌السلام إلى المهدي محمد بن الحسن العسكري عليهم‌السلام.[1]

وبهذه المنزلة السامية تصبح سورة القدر حاكية عن منزل أهل بيت العصمة المحمدية، وهي نسبتهم الروحانية ما اعلاها.

«... بإذن ربهم من كل أمر»:

من كل أمر: بعضاً من كل الأوامر والأمور، لا كلِّها، فمن الأمور والأوامر ما هي مختصة باللّٰه تعالى، ومنها ما يتنزل على الناس أجمع، ومنها ما لا يتنزّل إلا على المعصومين الطاهرين، قادة العباد وسادة البلاد وأركان الإيمان وأمناء الرحمن.

فالنازل على العباد ليس إلا من بعض أمر، لا من كل أمرٍ، واللّٰه تعالى عنده وله كل أمر، تكوينياً وتشريعياً، علمياً وتنفيذياً.

ثم ينزل على أمنائه المصطفين المخلَصين، من كل أمر، فما هو الأمر؟ وما هو كل أمر؟.

هنا ندرس الأمر بكيانه ونزوله من «حم»:«حم* والكتاب المبين* إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين* فيها يفرق كل أمر حكيم* أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين* رحمة من ربك إنه هو السميع العليم* رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين* لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين».[2]

فليلة القدر هي ليلة الفرق والفصل لكل أمر حكيم، حكيم عند اللّٰه العزيز الحكيم، وكما كان القرآن في أم الكتاب لدى اللّٰه علياً حكيماً: «وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعلي حكيم» ثم فصله ليلة القدر، وأنزله على قلب الرسول البشير النذير، أنزله من علوه الإلهي، وفصله من حكمته الإلهية، ولكي يدركه الرسول، ثم فصَّله تفصيلاً ثانياً طوال البعثة كما شرحناه مسبقاً.

هذا تفريق أول للرسول، ثم تفريق ثان بالنسبة للأقدار والأقضية الإلهية طوال السنة، يفرقها اللّٰه تعالى لرسوله: «رحمة من ربك إنه هو السميع العليم».

ويشاركه في التفريق الثاني الأئمة من أهل بيته المعصومين، كلٌّ في زمنه، لمكان الاستمرارية المستفادة لهذه الليلة المباركة من «تَنَزَّلُ» «فيها يُفرقُ» لا «تَنَزَّل» أو «فُرِقَ».

ثم «من كل امر» لا يخص أمور وأوامر الكرة الأرضية، وإنما الكونية تماماً: «رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين» فهذه الربوبية الشاملة توحي أن هذه الرحمة أيضاً شاملة: «رحمة من ربك» تشمل الكون أجمع، فإن

---

[1]). الكافي عن الإمام الصادق عليه‌السلام قال: كان علي عليه‌السلام ما يقول: اجتمع التيمي والعدي عند رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو يقرأ «إنا أنزلناه» بتخشع وبكاء، فيقولان: ما أشد دقتك لهذه السورة؟ فيقول رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله لما رأت عيني ووعى قلبي، ولما يرى قلب هذا من بعدي، فيقولان: ما الذي رأيت؟ قال فيكتب لهما في التراب: تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر - قال: ثم يقول: هل بقى شيء بعد قوله عز وجل «كل أمر» فيقولان: لا ـ فيقول: هل تعلمان من المنزل إليه بذلك؟ فيقولان: أنت يا رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله فيقول: نعم، هل تكون ليلة القدر من بعدي؟ فيقولان: نعم قال: فيقول: فهل ينزل ذلك الأمر فيها؟ فيقولان نعم - قال: فيقول: إلى من؟ فيقولان: لا ندري ـ فيأخذ براسي ويقول: إن لم تدريا فادريا، هو هذا من بعدي ـ قال: فإن كانا ليعرفان تلك الليلة بعد رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله من شدة ما يداخلهما من الرعب» (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٣٣ ح ٩٠).

[2]). سورة الدخان ٤٤: ١ ـ ٨.

محمداً والخلفاء المعصومين المحمديين هم خلفاء من جانب الله في الكون أجمع، والكرة الأرضية على صغرها هي المركز الرئيسي للتشريعات والأحكام ومعرفة الأقضية والأقدار الإلهية[١].

وليس معنى القضاء والقدر والإنشاء ليلة القدر، خروج الأمور عن خيرة الإنسان، وإنما قدر وقضاء وإبرام على ضوء المساعي التى يقدمها الإنسان، فرب خير يؤخرَّ، أو يبدَّل إلى شر، لتأخر الإنسان عن معداته أو تركه لها إلى أضداده.

«سلام هي حتى مطلع الفجر»:

ومما توحيه سورة القدر أن الأمور المقدرة فيها ليست إلا الخيِّرة لا الشرّيرة، وإنما حوادث الشر هي حصائل فشل الإنسان في التماسه الخير ومزيد الخير ليلة القدر، ثم توانيه في السعي نحو الخير، أو تركه إياه: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى».

هنا نعرف مدى علوم المعصومين من أهل بيت الرسالة المحمدية عليهم‌السلام وأنهم يعرفون من الغيب كما يعلمهم الله تعالى، لا كل الغيب: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحداً* إلا من ارتضى من رسول»[٢]: من رسول وممن يحذوا حذو الرسول في الإرتضاء الإلهي، وهم الذين يحملون العصمة الرسالية وإن لم يكونوا رسلاً.

وعلَّ «مطلع الفجر» تعني مطلع فجر الرسالة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو خروج المهدي القائم عليه‌السلام حيث يظهر به الدين كله.

متى هي ليلة القدر؟

إنها مجهولة في القرآن والحديث، وإنما المعلوم أنها من رمضان، فأين هي من رمضان؟

قد وردت روايات تفوق المئة من طرق أصحابنا حول سورة القدر، وتحاول عشرات منها تعيين موقع ليلة القدر بين ليال عشر[٣]: وأغلب الظن حسب أغلب الروايات أنها بين الثلاث «١٩ و ٢١ و ٢٣» والأغلب بينها الأخيرتان، ثم

---

[١]). عن الإمام الصادق عليه‌السلام قال: قال علي عليه‌السلام في صبيحة أول ليلة القدر التي كانت بعد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: سلوني فو اللّه لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم بما يكون إلى ثلاثمائة وستين يوماً من الذر فما دونها وما فوقها، ثم لاخبرتكم بشيء من ذلك لا بتكلف ولا برأي ولا بإدعاء في علم إلا من علم اللّه تبارك وتعالى وتعليمه، واللّه لا يسألني أهل التوراة ولا أهل الإنجيل ولا أهل الزبور ولا أهل الفرقان إلا فرقت بين أهل كل كتاب حكم ما في كتابهم»

وعنه عليه‌السلام أنه سئل: أرأيت ما تعلمونه في ليلة لاقدر هل تمضي السنة وبقي منه شيء لم تتكلموا به؟ قال: لا والذي نفسي بيده لو أنه فيما علمنا في تلك الليلة أن إنصتوا لأعدائكم فنصتنا فالنصت أشد من الكلام.

ومن حديث له عليه‌السلام قال فيه: ينزل فيها ما يكون من السنة إلى السنة من موت أو مولود. قيل له: إلى من؟ قال: إلى من عسى أن يكون؟ إن الناس في تلك الليلة في صلاة ودعاء ومسألة وصاحب هذا الأمر في شغل نزول الملائكة إليه بأمور السنة من غروب الشمس إلى طلوعها، من كل أمر سلام هي له إلى أن يطلع الفجر» (نور الثقلين ج ٥ ص ٦٤١ ح ١١١ - ١١٣).

[٢]). سورة الجن ٧٢: ٢٧.

[٣]). في تفسير نور الثقلين روايتان أنها الليلة الأولى وهي ح٢٨ و٥٤ وثلاثة عشر أنها ٢٣ وهي ح٢٢ و ٣٢ و ٤٩ و٥٣ و ٦١ و ٦٥ و ٦٩ و ٧٩ و ٧١ و ٧٩ و وواحدة أنها «٢١» هي ٧٧ وأثنتان أنها ٢٧ وهي ٧٣ و ٧٤ هذه هي المعينة، ثم هنا روايات مشككة بين ليال، فبين ٢١ و ٢٣ ست روايات هي ٣٣ و ٥٧ و ٥٨ و ٨٨ و٦٠ وبين ١٩ و ٢١ و ٢٣ سبع روايات هي ٧٦ و ٨٧ و ٨٤ وهنا روايات ثلاث أنها بين ٢١ و ٢٣ و ٢٥ و ٢٧ وهي ٧٦ و ٧٨ و ٨٤ وهنا روايات أنها في العشر الأواخر وهي ٤٠ و ٥١ و٥٢ و ٥٦ (نور الثقلين ج٥).

وفي الدر المنثور عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله إضافة الليلة ٩ و ١١ و ٢٩ و٣٠ أيضاً (ج٦ ص٣٧٢) فالليالي المعدودة من القدر هي «١ - ٩ -

الأغلب بينهما ٢٣.
ومن البديهي أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله والأئمة من عترته كانوا على علم واضح منها، فكيف يجهل ليلة القدر من تتنزل الملائكة والروح فيها على قلبه المنير؟ إلا أنهم كانوا يجملون عن تعيينها لمصالح عدة كما تجدها في الروايات.
وهنا روايات مختلقة أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله نسيها فأمر أن يطلبوها في العشر الأواخر، وليضرب بها عرض الحائط لاختلافها عن واقع علم الرسول، وعن الأحاديث المستفيضة المصرحة أنه صلى‌الله‌عليه‌وآله والأئمة من عترته كانوا يعلمونها[١].
وقد نستوحيها متى هي؟ من علائمها على حد تعبير الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله[٢].
«سلام هي حتى مطلع الفجر»:
إنها لا تنفي السلام عن سائر الليالي، لواقع السلام فيها بعضا، وإنما تخص السلام التام بهذه الليلة المباركة، كرامة تخصها بين ليالي السنة ـ فما هي؟
إنها ـ على حد تعبير زين العابدين علي بن الحسين عليهما‌السلام: «سلام دائم البركة إلى طلوع الفجر على ما يشاء من عباده بما أحكم من قضائه»[٣]، وعلى حد تعبير جده الرسول الأقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله: «إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء، فجرها، ولا يستطيع فيها أن ينال أحداً بخبل أو داء أو ضرب من ضروب الفساد ولا ينفذ فيه سحر ساحر»[٤].
ويتأيد هكذا سلام شامل بما نستوحيه من آية السلام: سلام هي، لا: هي سلام، فإن تقديم الخبر «سلام» يفيد حصر المبتدإ «هي حتى ليلة القدر» في السلام، فهذه الليلة محصورة بالسلام دون سواها التي فيها سلام ولا سلام.
فليلة القدر سلام إذ أنزل فيها القرآن الحامل للإسلام التام الكافل للسلام الأبد، وسلام إذ تتنزل فيه الملائكة والروح

---

١١ - ١٩ - ٢١ - ٢٣ - ٢٩ - ٣٠» وهي ثلث ليالي الشهر.

[١]). أخرج ابن أبي شيبة عن الفلتان بن عاصم قال: قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله إني رأيت ليلة القدر ثم نسيته فأطلبوها في العشر الأواخر وتراً.
وأفضح منها ما أخرجه ابن مردويه عن ابان بن مسعود قال سئل رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله عن ليلة القدر قال قد كنت علمتها ثم اختلست مني (الدر المنثور ج٦).
وهذا الأخير يتنافى والآيات التي تدل على عصمته وأنه ليس للشيطان عليه سبيل، فمن هذا الذي أختلس ليلة القدر عن النبي الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله، أهو اللّه؟ وحاشاه! أم هو الشيطان! و«إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» فكيف بالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.
وكما عن أبي جعفر عليه‌السلام يا أبا هذيل، إنا لا يخفى علينا ليلة القدر، إن الملائكة يطوفون بنا فيها. (نور الثقلين ج٥ ص٦٣٩ ح١٠٥).

[٢]). كما عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله عن ليلة القدر، فقال: في رمضان في العشر الأواخر فإنها في ليلة وتر: إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين أو آخر ليلة من رمضان، من قامها إيماناً وإحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن إماراتها أنها ليلة بلجة صافية ساكنة ساجية لا حارة ولا باردة كأن فيها قمراً ساطعاً، ولا يحل لنجم أن يرمى به تلك الليلة حتى الصباح، ونم إمارتها أن الشمس تطلع صبيحتها لا شعاع لها، مستوية كأنها القمر ليلة البدر، وحرم اللّه على الشيطان أن يخرج معها يومئذ (الدر المنثور ٦: ٣٧٢).

[٣]). نور الثقلين ج٥ ص٦٤١ ح١١٤ عن الصحيفة السجادية في دعائه عليه‌السلام إذا دخل شهر رمضان.

[٤]). المصدر ص٦١٥ ح١٥.

من السماء إلى الأرض فتندحر الشياطين بوفود الملائكة، وسلامٌ إذ تتنزل ملائكة السلام بكل أمر، بكل خير عاجل وآجل، وسلام لكل دعاءٍ فيها إذ يسلم من الرد لو لا أنه تأتي بالبوار والدمار، وسلام لكل من في الأرض عفوياً، وإن لم يكونوا من أهل السلام والإسلام.. وإلى أن يطلع الفجر.

والفجر ـ كما نبهنا عليه ـ هو فجر الرسالة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله بتمامها، سيطرة على عوالم التكليف كلها، لان الملائكة والروح لا تتنزل على غير المعصومين المحمديين، المرتحلين قبل القيامة الكبرى.

القرآن
احكمت آياته ثم فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

«الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»[1]

هنا «كتاب أحكمت» علّه من نفس (الر) حيث أحكمت آياته في مثل هذه الحروف الرمزية، ثم فصّلت في مفصلات الآيات للناس، وفصلت بوحي خاص لرسول الناس.

كما وأنه كل القرآن حيث أحكمت آياته «في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم»[2] ثم فصلت ليلة القدر للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ومن ثم فصلت في القرآن المفصل كله، وكل ذلك «من لدن حكيم خبير» إحكاما وتفصيلاً، دون تدخُّل حتى للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله في أي إحكام أو تفصيل، كما وأحكمت في متشابهات ثم فصلت بمحكمات، فقد أحكمت آياته في نبرات، ثم فصلت بآيات أخرى، وأحكمت معرفيا ثم فصلت علميا وعقليا على مر الزمن، فإن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن، إذا فلا إحكام في القرآن إلا وهو مفصل من قبل الرحيم الرحمان «فبأي آلاء ربكما تكذبان».

ولقد فصلنا القول حول مرحلتي إحكام القرآن وتفصيله في سورة القدر والدخان، والقيامة (١٦) وطه (١١٤) وسواها فلا نعيد هنا إلاّ ما فصلت في «ثم فصلت».

«ثم» هنا تُراخي تفصيل الكتاب عن إحكامه فتراخٍ أول هو منذ الأزل حتى ليلة القدر، وتراخ ثان هو طيلة رسالة الوحي منذ ليلة القدر وهي ثلاث وعشرون سنة، ثم هناك تفصيل آخر على مدار الزمن وتقدُّمه حيث تتجدد معارف من الذكر الحكيم لم تكن تعرف من محكم الكتاب على تفصيله، ومن ثم تفصيل آي بآي أخرى حيث القرآن يفسر بعضه بعضا وينطق بعضه على بعض، ثم تفصيل القرآن بالسنة لمكان «لتحكم بين الناس بما أراك الله».

فلا تفصيل حقيقيا للقرآن إلاّ «من لدن حكيم خبير» مما يحصر تفسير القرآن بنفسه، ومنه تفسيره بالسنة حيث أمرنا باتباعها، ولكنها لا تُعرف إلاّ بموافقة القرآن، دون أية حاجة إلى تفسير وتفصيل من عند غير الله، فكما أن أصل كتاب القانون الرباني منه، كذلك التبصرات له فصلاً، فقد يفسر الوحي نفسه كتابا وسنة.

فكما أن الحكيم الخبير يفصِّل محكم القرآن تدوينيا، وحيا وما أشبه، كذلك يفصله تكوينيا على مدار تقدم

---

[1]). سورة هود ١١: ١.

[2]). سورة الزخرف ٤٣: ٤.

الكشوفات والإختراعات، وتقدم العقليات التي توضِّح ما أحكم من الذكر الحكيم.
فحركات الأرض ودورانها، وإنعكاسات الأعمال بأصواتها وصورها، والجاذبية العامة بملابساتها، وتقدم هـذه الكـرة الأرضية على سائر الكرات بسماواتها، ووجود دواب في السماوات كما في الأرض وما أشبهها من عشرات ومئآت، هي من التفصيلات التكوينية لما أُحكم في الذكر الحكيم.
ذلك، ومن أحكم الإحكام في القرآن الذي يليه التفصيل هو التوحيد الذي يحلِّق على كافة موضـوعاته ومواضـعه، فإنه الموضوع الوحيد الذي يحول حوله كل تفصيل، بارزا في أصوله وفروعه، عقيدية وأحكامية وقصصية وسـواها من تفاصيل الكتاب.
فقد «أحكمت آياته» في حكيم التوحيد الحق وحق التوحيد، «ثم فصلت» في تفصيله مهما اختلفت المظاهر التوحيدية فيها، فكلمة «لا إله إلا الله» المحكمة الحكيمة هي مفصَّلة في كافة محتوياته دون إبقاء، مما يربط بينهـا بربـاط حكيم عميم، دون إنفلات عنها وإن بآية من آيِه.
فـ «ثم» إذا لا تعني التراخي في ذلك التفصيل، مهما عنته فيما سبق من تفصيل، فهي تعنيهما كـما يعنـي الإحكـام والتفصيل كل هذه الإحكامات والتفاصيل.
أجل، فلقد «أحكمت آياته» بكل معاني الإحكام الحكيمة المناسبة للتفصيل الفضـيل، فجـاءت قويـة البنـاء، دقيقـة الدلالة، ظاهرة المدلول، كل كلمة فيها، وكل إعرابة ونقطة، وكل ترتيبة وتركيبة، هـي فيهـا مقصـودة، وكـل إيمـاءة وإشارة لمَّاعة ذات هدف، متناسقة منسَّقة بإحكام التوحيد الذي يربط بين تفاصيلها، والتفصـيل الوحيـد الـذي لا يمكن إلاّ «من لدن حكيم خبير» وذلك الإحكام بذلك التفصيل يعنيان: «ألا تعبدوا إلا الله....».
ذلك، وإذا عني من «كتاب» هنا كتاب التوحيد ـ بوجهه الخاص أم والعام المحلِّق على القرآن كله ـ فقد أحكمـت آياته في أم الكتاب قبل كل كتاب، ثم في الفِطَر والعقول، ثم في كتابات الوحي وسائر الآيات الآفاقية، وكـل مرحلـة تالية تفصيلة لما قبلها، وكل هذه التفاصيل والإحكامات هي «من لدن حكيم خبير» فبحكمته وخبرته كتـب كتـاب التوحيد بيده القدرة والرحمة الشاملة في الفِطر وفي العقول، وفي سائر الآفاق سواء أكانت كتابات الوحي أم سواها، والأول والأخير كتابان معصومان، وعلى العقول التي هي وسيطة بين كتاب الفطرة والشرعة وسائر الكتب الآفاقية، أن تتدبر وتجيد النظر لتأخذه من الكتابين المعصومين خير أخذة.
هذا، وخالص التوحيد ينعكس على كافة العقائد والأعمال دون إبقاء، فإن صالح الإنسـان في كـل أقوالـه وأحوالـه وأعماله، يتوحد في التوحيد الحق المطلق، دون إنزواءٍ في زاوية العقيدة، ثم لا خبر عنه في سائر الحالات والمجالات والجلوات.
إذا فكتابات الوحي، ولا سيما القرآن العظيم، هي بصورة محكمة حكيمة ليست إلا كتابـات التوحيـد، المـتجلي في كافة الخلوات والجلوات، بحيث تصنع من تاليها حقا كلمة «لا إله إلا الله».
ذلك، ومن حصائل التوحيد الحق حق العقيدة لليوم الآخر كما تتكفلها: «إليه مرجعكم جميعا وهو على كـل شيء قدير» وكذلك الأمر بين المبدء والمعاد لقوله «إنني لكم منه نذير وبشير» بأصل الرسالة وهي ثالثة الأصول الدينية، وكذلك الفروع الدينية لمكان «أن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه» حيث الإستغفار ـ وهو طلب الغفر ـ ينحوا منحى معرفة شرعة الله وتطبيقها، فإنها غافرة ساترة للأخطار دفعا ورفعا، دفعا لما تهجم من أخطار، ورفعا لما حصلت من ذي قبل، فإن صالح العقيدة وصالح العمل هما مكفران لما يحصل من لمـم وفوقـه حسـب الشرـوط المسرـودة في القرآن.
فقد شمل «كتاب» هنا كلتي مرحلتي الإحكام والتفصيل لأصول الدين وفروعه، منذ «أم الكتاب لدينا لعلي حكيم» حتى التفصيل الأخير للكتاب وبهامشه السنة، سواءٌ أكان كتاب التكوين الأم بالنسبة لما كتبه الله في الفِطَر، وكتاب التشريع الأم بالنسبة لما كتبه في ليلة القدر على قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.
ولأن القرآن مقصود في هيكل التفصيل التأليف، كما هو مقصود في التفصيل التنزيل، لذلك لا يصح غيار في تفصيله التأليفي، فإنه مقصود في هذه الدعوة الأخيرة العالمية.
إذا فتأليفه حسب ترتيب التنزيل، أم موضوعيا، أما أشبه من غيار عن الهيكل الموجود، إنه معارضة لما أراده الله في

كتابه من ترتيب رتيب.
وهكذا تفسيره خلاف التسلسل الموجود، اللهم إلاّ خاصة المواضيع المقصودة بخاصة الدعوة القرآنية لخاصة الظروف والمتطلَّبات قضية مؤاتية البيئات.
«ألا تعبدوا إلاّ اللهّ إنني لكم منه نذير وبشير».
فلقد توارد كلا الإحكام والتفصيل في ذلك الكتاب على توحيد العبودية الذي يتلوا توحيد المعرفة، وبينهما كل توحيد يحق في ساحة الدعوة الرسالية القرآنية.

القرآن المفصل
آيات للقرآن المحكم الحكيم

سورة يونس

«سورة يونس» تستحق هذه التسمية، لا ـ فقط ـ لذكره فيها: «فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين»[1] فإنه مذكور بسمة الرسالة وخلفيات لها في: «وإن يونس لمن المرسلين»[2] وباسم صاحب الحوت في (١٨: ٦٣) وباسم «ذا النون» في (٢١: ٨٧) وهذه هي جماع الآيات التي تذكره برسالته وذهابه عن قومه مغاضبا وسجنه في بطن الحوت بما ذهب، وآية «إلا قوم يونس» لا تذكر إلا نجاتهم بصورة استثنائية بين كافة هؤلاء الذين آمنوا عند رؤية البأس.
فقد إختصت هذه السورة باسم يونس إيناسا لحالة منقطعة النظير بين الكفار، وليُعلم أن الأصل في النجاة هو التوبة الصالحة وإن كانت عند رؤية البأس وقليل ما هي، وتحريضا على محاولة صالح التوبة لهؤلآء الذين لم يؤمنوا حتى أشرف عليهم البأس واليأس.
وهذه السورة هي من عداد السور التي أعطيها الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله مكان الإنجيل وكما يروى عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله «إن الله أعطاني الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل».[3]
و«الرائيات» هي خمس أو ست، هذه وهود ويوسف وإبراهيم والحجر تتخللها «المر» الرعد، وقد تكون منها، وهي متشابهة مع بعضها البعض في هذه الإفتتاحية الرائية، وكذلك ما تتلوها من ذكر آيات الكتاب، مما قد يدل على أن هذه السور الخمس أو الست هي نموذجة عن القرآن كله، ومن الرائع اختتام السورة كما بدء بذكر الكتاب، بدءً بالإعلام وختما بواجب اتباع قرآن الوحي: «واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم اللهّ وهو خير الحاكمين» مما يدل على بالغ الإهتمام الرباني بشأن القرآن، وليعلم العالمون انه هو المحور الأصيل لشرعة اللهّ حيث يجمع في دفتيه كافة

[1]). الآية ٩٨.

[2]). سورة الصافات ٣٧: ١٣٩.

[3]). الدر المنثور ٣: ٢٩٩ ـ أخرج ابن مردويه عن أنس سمعت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول:...

الأصول العقيدية والفروع الأحكامية.
بسم اللهّٰ الرحمن الرحيم
«الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ»:

«كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»[1] ـ «تلك آيات الكتاب المبين»[2] ـ «المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون»[3] «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد»[4] «تلك آيات الكتاب وقرآن مبين».[5]

وهنا «تلك آيات الكتاب الحكيم» قد تشير إلى «الر» انها وأضرابها هي اجماليات عن القرآن الحكيم تفصلها تفاصيل آياته في تفاصيل السور، وقد تؤيده آية «هود»: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» فقد احكمت بين ما أحكمت في هذه الإفتتاحيات والبرقيات الرمزية، كما احكمت في أم الكتاب أولاً «وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم»[6] ثم أحكمت فيما نزلت على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ليلة القدر، ثم أحكمت في الكتاب المفصل بصورة هذه الإفتتاحيات، كما وأحكمت في محكماته التي هي المراجع للمتشابهات فـ: «إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون»[7] «بل هو قرآن مجيد* في لوحٍ محفوظ»[8] كما وأحكمت في كل آياته وهي تفصِّل بعضها البعض.

ذلك، ولكن الحروف المقطعة ليست هي كل الآيات مهما كانت حكيمة من آيات الكتاب بل هي برقيات رمزية تختص صاحب الوحي الرسولي، مفاتيح له خاصة لكنوز القرآن.

وإحتمال ثان أن «تلك» إشارة إلى آيات السورة نفسها، أم هذه السور الخمس أو الست المصدرة بها، أم كل الآيات التي تحملها كل السور.

وقد يعني «الكتاب الحكيم» كتاب الدين الذي منه تنشعب الشرائع كلها، فـ«تلك» الآيات القرآنية هي «آيات الكتاب الحكيم» بأسره، فقد جمع القرآن كل ما كتبه اللهّٰ على عباده في كل الشرائع الخمس.

وتلك البعيدة في إشارتها ـ على قرب هذه الآيات ـ بيان عن المحتد البعيد القرآني السامي لنزوله عن منزل الوحي الرباني إلى مهبطه الأمين محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله.

---

[1]). سورة هود ١١: ١.

[2]). سورة يوسف ١٢: ١.

[3]). سورة الرعد ١٣: ١.

[4]). سورة ابراهيم ١٤: ١.

[5]). سورة الحجر ١٥: ١.

[6]). سورة الزخرف ٤٣: ٤.

[7]). سورة الواقعة ٥٦: ٧٨.

[8]). سورة البروج ٨٥: ٢٢.

فـ«الكتاب الحكيم» عند الله قبل تنزيله، والحكيم النازل على رسوله قبل تفصيله، هذه الآيات المفصلات هي آياته دون زيادة ولا نقصان.

ثم هنا «الكتاب الحكيم» حيث تحلق الحكمة الصالحة الربانية على كل ما فيها وفي يوسف والحجر «مبين» فـإن الكتاب الحكيم يبين بمحكمه كل تفاصيل القرآن المفصل كما وهو كتفسير يبين الكتاب الحكيم.

ولأن «الآية» هي العلامة الممثلة المفصلة للأصل، فطالما لا يُنال محكم الكتاب عند الله ولا محكمه عنـد رسـول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فقد تنال آياته، كما وأن الله لا يُعرف بذاته، إنما يُعرف بآياته: وفي كل شيء له آية.

فالآيات القرآنية كلها دلالات مستقلات على أصلها الأصيل وهو علم الله الممكن إنزاله على الخلق، واحتمال ثالث أن «الكتاب الحكيم» هو هذا الكتاب المفصل فـ«تلك» المسرودة هنا بين الدفتين هي آياته، كما يقال: تلك بيوت مكة المكرمة وما هي إلا مجموعة بيوت.

ولا نعرف عن المعني من «الر» وأضرابها من الحروف المقطعة إلا ما يُعرِّفنا مهبط الوحي فإنها برقيات رمزية بـين الله ونبيه صلى‌الله‌عليه‌وآله تختص به كما يختص به التأويل، ولسنا لنصدق الروايات في تأويلها دون حساب، فقد نطرح ما هو خلاف الضرورة[1] أم ليس له شاهد من علم أو أثارة من علم.

ذلك، وفي التعبير عن مقاطع السور بالآيات آية قاطعة أنها ذوات الدلالات البينة في حدود ذواتها المقـررة بـين الله والمعنيين بها، وما فرية إجمال القرآن وإعضاله في دلالة فإعزاله عن صالح الإستدلال، إلا شيطنة مدروسة تعني جعل القرآن في زاوية منعزلة عن أهليه، في حين أن الروايات والإجتهادات التي لا تتبنى القرآن هي داخلة في الميدان.

فقد قيل فيما غيل على القرآن أنه غاية علم الله النازل على خلقه فكيف بالإمكان أن نفهمه؟ كما قال المشركون إنه تعالى أعلى من أن نعبده نحن الأدنون فلنعبد الرعيل الأعلى من عابديه!.

وليس غريبا من هؤلآء الذين غربت عقولهم وعزبت أن ينحُّوا القرآن عن الوسط الإسلامي، حيث يرونه حياةً طيبة مستقلة وليست مستغلة لهؤلاء الأوغاد الأنكاد، ويليهم من تابعهم عارفين أم غافلين في الوسط الإسلامي، مختلقين حواجز بين القرآن وبين أمته وشعبه، مرتكنين على روايات متناقضة متعارضة، ويكأن الأصل عندهم هو غير الأصيل، والفرع عندهم هو الأصيل، تقديما للمفضول على الفاضل.

وهذا القرآن هو بصيغة واحدة يحث المكلفين على التدبر فيه دون حث على وسيط، اللهـم إلا للبسـيط في تفهـم غامراته، وأما الحجة القرآنية للتكاليف العامة فهي حجة بالغة تعم العالي إلى الوسيط وإلى البسيط.

أو إن كلام الله على محتد الألوهية لا يفهمه إلا إله آخر ولن يكون، أمن أوحي إليه بما يفهمه دون من سواه؟.

وذلك ينافي المحتد الرباني أنه كلم عباده بلسان الألوهية فلا يفهمه عباده، نقضا للهدف الأسمى من إنزال الكتـب وهو تفهم المكلفين أجمعين! بل ولا يفهم الرسول لغة الألوهية!.

أو إن ظواهره، بل ونصوصه، ظنية لا تفهم إلا بالسنة! وقضية الفصاحة والبلاغة القمة أن يكون هو البيان للسنة وسواها من منقولات سواه، وقد سمى نفسه نورا وتبيانا ومِمسَّكا وحيدا غير وهيد.

أم إن الدروس الحوزوية هي تقدمات ضرورية لتفهُّم القرآن كما يرام!.

ولا صلة بها لتفهُّم القرآن إلا إجادة اللغة العربية وأدبها البارع، ثم القرآن ليس فقط حيازة للحوزات لا يعدوهم إلى سائر المكلفين، وهل أنزل القرآن على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو يعيش حوزة؟ ثم هذه العلوم الحوزوية أكثرها تصدّ عن

---

[1]). مثل ما رواه العياشي عن أبي عبدالله عليه‌السلام في حديث طويل: وليس من حروف مقطعة حرف ينقضي أيامه إلا وقام من بني هاشم عند انقضاءه ـ إلى قوله ـ ثم كان بدء خروج الحسين بن علي عليهماالسلام «ألم» فلما بلغت مدته قام قائم ولد العباس عند «المص» ويقوم قائمنا عنه انقضاءها بـ«المر» فافهم ذلك وعه واكتمه» أقول أولاً أن تحسب عناية الحروف المقطعة معانيها بحساب الأعداد هو خلاف الصحيح من تفسيرها الثابت عند الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وإن كانت تعني أحيانا هذه الأعداد، ثم قيام قائمنا عنه انقضاء «المر» خلاف الضرورة القائلة: «كذب الوقاتون».

القرآن علميا وزمنيا، وكما نرى أن الأكثرية المطلقة من خريجي الحوزات لا يصلون إلى القرآن حتى أخريات الأنفاس العلمية ولحد الإفتاء.

ولو أن هذه العلوم كانت ضرورية أو راجحة لتفهُّم القرآن كما يرام، فكيف لم يشر إليها القرآن ولا رسول القرآن وأئمة القرآن، فهل هي خيانة مثلثة منهم على المكلفين، أم هم الذين ظلموا أنفسهم وخانوها باختلاق صُدود عن حوزة القرآن.

«أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ».

فعجب من هؤلآء الناس النسناس عجابهم من الإيحاء إلى رجلٍ منهم كرامة لهم مرتين، مرة أن لم يتحول عنهم إلى غير الناس تدليلاً على جدارة الناس أنفسهم أن يوحى إلى رجل منهم، وأخرى أن ذلك الوحي يحمل الإنذار والتبشير اللذين يبلغان بهم إلى مدارج من الكمال المقصود للإنسان، المخلوق له الإنسان، حيث «الرحمن* علم القرآن* خلق الانسان* علمه البيان* ...* فبأي آلاء ربكما تكذبان».

ولقد كان السؤال المتواتر الذي قوبل به كل رسول ما يعنيه: «أبعث الله بشرا رسولاً»إذ لم يدركوا قيمة الإنسان وهم منهم، إلا أن يتنازلوا عن درجة الإنسانية إلى دركة الحيوانية كما تنزلوا.

فبديلاً عن أن يعجبوا فرحين من هذه الكرامة الغالية، عجبوا معترضين: «قال الكافرون إن هذا لساحر مبين» تحسُّبا للحق المبين الذي يحافظ على كرامتهم أنه ساحر مبين.

ذلك، وكما عجبوا من أصل الوحي توحيدا لله: «أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيءٌ عجاب* وانطلق الملأ منهم أن إمشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيءٌ يراد».[1]

ولقد كان أهل مكة يقولون: إن الله ما وجد رسولاً إلى خلقه إلا يتيم أبي طالب! ثم بصورة عامة «أبعث الله بشرا رسولاً».[2]

وهنا تقدم «أنذر الناس» على «بشر الذين آمنوا» لتقدم الإنذار على التبشير، فمن أثر فيه الإنذار يبشَّر ومن لم يؤثر فيه لا يبشَّر، فالمنذرون هم أعم من المبشرين، فهناك «الناس» وهنا «الذين آمنوا» وبشراهم «أن لهم قدم صدق عند ربهم» فهم «في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر»[3] فهو المنزلة عند الله وقد تشمل المنازل التالية وما أشبه:

فـ«قدم صدق عند ربهم» قد تعني قدم الرحيم الرحمن وقدم الإنسان، فمن الإنسان قدم الصدق في مثلث الإيمان قالاً وحالاً وأعمالاً النابع من قدم الفطرة والعقلية السليمة الصادقة، ومن الرحمن قدم الجزاء عليه منذ الدنيا إلى البرزخ وإلى الآخرة، قدما ربانيا يناسب فضله ورحمته[4] ولأن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وسيط في الإقدام على قدم الصدق في

---

[1]. سورة ص ٣٨: ٦.

[2]. سورة الاسراء ١٧: ٩٤.

[3]. سورة القمر ٥٤: ٥٥.

[4]. الدر المنثور ٣: ٣٠٠ عن الربيع في الآية قال: ثواب صدق.

الأولى رسالة وفي الأخرى شفاعة[1] فقد يصدق عليه «قدم صدق عند ربهم» وهكذا عترته المعصومون عليهم‌السلام.[2]
وقدم التوفيق والتأييد والمزيد على أقدامهم رحمة من اللّه، وقدم رضوان من اللّه وهو أكبر حيث هو أطول الأقدام وسائرها تقدمة له.
ولأن المصداق المذكور هنا، لـ «قدم صدق» هو الإيمان، وهو نقطة الإنطلاق الأولى لسائر الخطوات عملاً صالحا وتسليما بمراتبهما ومراتبه للسالك إلى اللّه، فـ «قدم صدق» لا تعني فقط ظاهرة القدم، بل كجنس يشمل كافة الأقدام الأنفسية والآفاقية على ضوء شرعة اللّه في سبيل اللّه، ابتداء من الإيمان باللّه إلى التسليم للّه، قدما منهم، وابتداءً من مزيد التوفيق والإيمان من اللّه إلى رضوان من اللّه.
وقدم آخر في «قدم صدق» أنه القدم المقدَّم في علم اللّه[3] أنهم سوف يؤمنون، وسابع هو «قدم صدق» في انعكاس أعمالهم لا يغيَّر ولا يبدَّل إلاَّ أن يبدلوها من عند أنفسهم.[4]
فمن قَدَم رباني للذين كفروا: «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا»[5] ويعاكسه «قدم صدق» هذا، كما صدقوا، وإقدام صدق كما أقدموا، فـ«من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلو تبديلاً».[6]
ذلك، فأول أقدام الصدق عند اللّه هو الإيمان باللّه، ثم عمل الصالحات، ثم التسليم السليم لرب العالمين: «ولكلٍّ درجات مما عملوا».

---

[1]). المصدر أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب عليه‌السلام في قوله: إن لهم قدم صدق عند ربهم، قال: «محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله شفيع لهم يوم القيامة» وفيه عن غيره بطرق عدة مثله، وفي نور الثقلين ٢: ٢٩٢ عن تفسير القمي عن أبي عبداللّه عليه‌السلام في روضة الكافي، وفيه عن المجمع عن أبي عبداللّه عليه‌السلام في الآية قال: هو شفاعة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[2]). نور الثقلين ٢: ٢٩٢ في أصول الكافي عن ابي عبداللّه عليه‌السلام في الآية قال: ولاية أمير المؤمنين عليه‌السلام.

[3]). المصدر عن ابن عباس في الآية قال: ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأول.

[4]). المصدر عن ابن مسعود في الآية قال: القدم هو العمل الذي قدموا قال اللّه «سنكتب ما قدموا وآثارهم» والآثار ممشاهم قال: مشى رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله بين اسطوانتين من مسجدهم ثم قال: هذا أثر مكتوب.

[5]). سورة الفرقان ٢٥: ٢٣.

[6]). سورة الاحزاب ٣٣: ٢٣.

وحكمة نزوله تدريجيا
بلسان عربي
و
هو في زُبُر الأولين

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً»[١]
قالة ضالة مضللة من الذين كفروا عداءً وإجراما بحق القرآن ونبيه، تأتي مرة واحدة يتيمة باجابتين اثنتين: و«الذين كفروا» هنا هم بين كتابيين ومشركين، المتعودين على كتابات سماوية تنزل جملة واحدة، فالقبيلان قد يعتبران وحي القرآن بدعا من الوحي «لولا نزل القرآن جملة واحدة» كما نزلت سائر كتابات السماء جملة واحدة؟
ومختصر الجواب وعلّه محتصرة: «لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً».
والفؤاد هو القلب المتفئد بنور تشتعل فيه فتتصاعد كما القلوب الطاهرة، ام بنار عاتمة تتسعَّر فيه: «نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة»[٢] نارا على نار، كما هناك نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.
اترى ان فؤاد الرسول ما كان مثبتا ليحتاج الى تثبيت بتنزيل القرآن مفرقا؟ ولولاه لما نزل اليه وحي القرآن!.
كما أن الأفئدة النيرة درجات كذلك لتثبيتها درجات: «وقل رب زدني علما»وكما تثبت فؤاده المنير بوحي القرآن المحكم جملة واحدة في ليلة القدر، كذلك يتثبت بوحي القرآن المفصل نجوما عدة معرفيا وعمليا.
وفي ذلك المكث من تنزيله يتثبت قلبه المنير على مُكث، وبأحوج الى ذلك افئدة المؤمنين: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً».[٣]
هنا تثبيت لفوآد الرسول كما يناسبه الى قمم الكمال، ولتثبت رسالته إلى المرسل اليهم كافة، حيث هنالك تثبيت لأفئدة المؤمنين ايمانا ومزيد ايمان، ولكيلا يُخيَّل الى بسطائهم ان الرسول إنما يحدثهم عن نفسه وعقليته: «وإذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل اكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدىً وبشرى للمسلمين».[٤]
فإنزال القرآن دفعيا ليلة القدر كان بلا وسيط، وتنزيله تدريجيا بذلك الوسيط تثبيتا للذين آمنوا، واصل التدريج في التنزيل «لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً» لتحور قلوب مؤمنة حول محور فؤاده المنير، إذاعة قرآنية تذيع ما تستذيع، دون ظِنَّة ولا تضييع، ودون فارق في الاستذاعة بينه وبين المرسل إليهم!
فلكل من الرسول والمرسل اليهم فائدة وعائدة في تنزيله مفرقا على نجومه، كل كما يناسب حاجيته وحاله.
فكما في قصص الانبياء تثبيت لفؤاده، وعلى ضوئه افئدة المؤمنين في حمل أعباء هذه الرسالة السامية: «وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نُثبِّت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين».[٥]

---

١). سورة الفرقان ٢٥: ٣٢.

٢). سورة الهمزة ١٠٤: ٧.

٣). سورة الاسراء ١٧: ١٠٦.

٤). سورة النحل ١٦: ١٠٢.

٥). سورة هود ١١: ١٢.

كذلك في تدرج نزوله ككل، أحكاما وأنباءً غيبية أما هيه، تثبيت لفؤاده المنير، رسولية ورسالية.
فترى قصص الماضين تقص طول العهدين: المكي والمدني، حسب الحالات والمناسبات الرسالية والرسولية، تثبيتا لفؤآد الرسول والمؤمنين العائشين عبء هذه الرسالة، تخفيفا عن كواهلهم هنا وهناك، فتراها تتكرر في مختلف الصور، وفي الطوال والقُصَّر، اللهم إلاّ قصة يوسف حيث الحكمة اقتضت إفرادها في مجالها المناسب.
«ورتلناه ترتيلاً» لفظيا كمفتاح لترتيل معنوي، تدرجا لنزول أمطار الوحي الغزير على افئدة المؤمنين، وكما يروى عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «اذا قرأت القرآن فرتله ترتيلاً وبينه تبيينا، لا تنثره نثر الدقل ولا تهذّه هزَّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكونن هم احدكم آخر السورة».[1]
فلتكون القلوب داعية الحركة بدوام البركة، فتتفأد بانوار المعرفة دائبة، فلا تقف عَجَلة السير فيها، لذلك «رتلناه ترتيلاً» ونزلناه نجوما.
لقد نزل القرآن لانشاء امة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، وليقيم نظاما دائما قويما، والتربية بحاجة الى تدرج في موادها، والى حركة تترجم التأثر والانفعال الى واقع المُرام، وليست النفس البشرية لتتحول قفزة من اللاّ شيء الى كل شيءٍ.
لذلك ينزل القرآن منجما وفق الحاجات الحية للعالمين، وهي في طريق نشأتها ونموها، حسب الإستعدادات الموهوبة في ظلال المنهج التربوي الرباني الدقيق العميق.
أوامر ونواهي يومية، وإنباءات تلوَ بعض تتجدد فتُجدِّد الجانب المعرفي والحالة العملية، يتلقاها المسلمون في أحيانها المطلوبة فيها، المحتاج إليها، ليعملوا بها فور تلقيها، كما يتلقى الجندي في ثكنته او في خط النار ليطبق واجبه ساعة فساعة، ويوما فيوما.
لقد عاش ذلك القرآن العظيم والمعجز العميم طول زمن الرسول، وليكون على حجة وبينة دائبة على طول الخط، ويعلم الناس انه ليس من عنده، ولو كان لما انتظر في اجابات عن سؤالات نزول الوحي، وليزداد هو والمؤمنون علما بعد علم، فيعيشوا نظِرَة الرحمة الإلهية دائبين ودونما انقطاع.
وأما أن كتابات الوحيِ السالفة إنما نزلت جملة واحدة لأنها نزلت على انبياء يقرؤون ويكتبون، ولكن محمدا ما كان يكتب او يقرأ فقد ينساه! فيطارده قوله تعالى: «سنقرئك فلا تنسى».[2]
ولئن سألت فما هو الفارق بينها وبين القرآن في فرق التنزيل وجمعه؟ أوَ لم يكن النبيون من قبل بحاجة الى تثبيت فؤادهم في ترتيل وحيهم، وهم أحوج منه بكثير؟
فالجواب: أن الفارق الاصل هو أن القرآن آية معجزة بنفسه دون سائر الوحي، فليحشر زمن الرسول على طول، ليعيش آية رسالته مادام حيا دونما انقطاع، وكما يعيشها المكلفون بعده حتى القيامة الكبرى. وأنه كتاب معرفة خالدة زائدة على سائر الوحي، فليثبت فؤاد الرسول وافئدة المؤمنين بترتيله، وسائر الوحي أحكام لا تحمل إنباءات غيبية إلا نذرا قليلاً، وليس فيها نسخ وهو كائن في القرآن، فهو بميزته في منازل عدة يمتاز بنجومه... في تنزيله.
وان سائر الوحي تحمل احكاما تعبدية بسيطة، تعبِّد الطريق للشرعة الاخيرة الخالدة القرآنية.
وعلى الجملة فـ«لنثبت به فؤادك» على سند الرسالة في كل سنيّها، وتثبيت المزيد من العلم والمعرفة له، وتثبيت فؤاده على الدعوة به ترتيلاً، وتثبيت وحيه انه ليس منه، ولو كان لما كان ينتظر الوحي دائبا، «ورتلناه ترتيلاً» لك

---

[1]). الدر المنثور ٦: ٢٧٧ ـ اخرجه الديملي عن ابن عباس مرفوعا عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله واخرجه العسكري في المواعظ عن علي عليه‌السلام عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[2]). سورة الاعلى ٨٧: ٦.

وللمرسل اليهم «ورتل القرآن ترتيلاً».
لذلك فعلينا نحن العائشين بعد زمن الرسول ان نترتل في القرآن رويدا رويدا، ونرتله على الناس ترتيلاً، دون ان نترسل في آياته كغزير الهاطل فنغرق في خضمِّها، او نرسل لطلابها فاذا هم غارقون فيها.
ولقد كان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يشارط من يتعلمون القرآن ان يتقنوه علما وعملاً شيئا فشيئا، دون تسرُّع لا في قرائتهِ ولا في تعلُّمه، وإنما ترتلاً وترتيلاً ليأخذ مواضعه من العقول والقلوب والأفئدة، فتثبت عليه الافئدة، وتتحرك به القلوب، فيصبح امة القرآن في حركة دائبة بترتيله.
«وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرا»[1]
لهم امثال الباطل، ولنا تفسير الحق، «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».
فحجة القرآن البالغة محلِّقة على امثالهم الباطلة، دارجة لها ادراج الرياح دونما ابقاء لها إلاّ في ارتتاج.
«الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَانا وَأَضَلُّ سَبِيلاً».[2]
ذلك لانهم بكل اتجاهاتهم ووجوههم حشروا يوم الدنيا تأجيل نيران الضلال والإضلال، فيوم القيامة يُحشرون على وجوههم بنفس الوجوه جزاءً وفاقا فـ «من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا * ذلك جزاءهم بما كفروا».
«وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ».[3]
فقد يعني الضمير الغائب «الكتاب المبين»: القرآن، أم ويعني فيما يعني رسولَ القرآن، و«تنزيل» بديلاً عن «المنزل» علّه للتدليل على انه كله منزل منه تعالى كأنه هو التنزيل، تنزيلاً من عليا الربوبية إلى دنيا العبودية، ومن عالي الغيب إلى ظاهرة الشهود للمربوبين، فليس تنزيلاً من مكان عالٍ إلى مكان دان، وانما من مكانة عالية إلى اخرى دانية، دنوًّا للخلق عن الخالق مهما كان قلبَ الرسول العظيم صلى‌الله‌عليه‌وآله، والناس كلهم فقراء إلى الله وهو الغني الحميد الكبير المتعال العلى العظيم والقاهر فوق عباده، فرحماته رحمانية ورحيميةً ليست إلاّ تنزيلاً من علوِّ الربوبية إلى دنو العبودية. والتنزيل هنا يشمل مرحلتي: الإحكام في انزاله دفعيا، والتفصيل في تنزيله تدريجيا، وهو فيهما إحداث حديث الذكر «ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث...»وليس ابرازَ العلم الأزلي حتى يكون قديما كما الذات وصفات الذات.
وإضافة التنزيل إلى رب العالمين للتأشير إلى أنه يحمل ربوبيتة العالمية الكافلة لتربية العالمين إلى يوم الدين، دونما نَظِرَةِ وحي آخر يكمِّله أو ينسخه خلافَ سائر الوحي.
ليس القرآن تنزيل الروح القدسي الرسالي، ولا الروح القدس على قلبه، فهذا وسيط الوحي وذلك مهبطه، وليس تنزيله إلاّ من رب العالمين كما يراه صالحا للعالمين.
«نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَبِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ».[4]
نزل بالوحي الأمين الروح الأمين إلى الرسول الأمين «على قلبك» دون ـ سمعك ـ فقط ـ فمنْزِل القرآن هو قلبه المكين:

[1]). سورة الفرقان ٢٥: ٣٣.

[2]). سورة الفرقان ٢٥: ٣٤.

[3]). سورة الشعراء ٢٦: ١٩٢.

[4]). سورة الشعراء ٢٦: ١٩٣ ـ ١٩٥.

«من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك بإذن الله».[1] و«به» هنا هو القرآن المفصل المنـزل نجوما، دون المحكم النازل عليه ليلة القدر، والسر النازل عليه ليلة المعراج، إذ لم يكن هنا وهنـاك لوحيـه أي وسـيط: «قل نزلـه روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين»[2] ولا صلة لتثبيت المؤمنين إلاّ بما يسمعونه منه من الوحي المفصل دون الأسرار المستسرة الخاصة بساحة الرسالة.

ودلالة اخرى «بلسان عربي مبين» وليس القرآن المحكم بلسان عربي أو سواه، فضلاً عن «مبين».

فجبريل الروح الأمين القدس نزل بالروح القرآن المفصل على قلبه صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو ايضا الروح القدس الأمين، فالنـازل والمَنزِل المُنزَل روحٌ قُدس أمين، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، وتـراه كيـف «نـزل... عـلى قلبـك» والقـرآن المفصل بما يحمل من ألفاظ تُسمع لابد لمنزله من أذن أو سمع؟ فهل انه نزول المعنى دون لفـظ كـيلا يحتـاج إلى أذن؟ والقرآن يعني كلا اللفظ والمعنى، فالمعنى دون لفظ لا يُقرء وإنما يُلهم، وليس الملهم قرآنا ينزل حيث القراءَة تخص اللفظ!: «فاذا قرأناه فاتبع قرآنه».

فنازل الوحي إلى قلبه اعم من القرآن حيث يعم محكمه الذي لا يُقرء ومفصَّله الذي يُقرء.

أجل وللقلب سمع هو أسمع من سمع الأذن كما له بصر، وليس سمع الأذن إلاّ ذريعة لسمع القلب كما بصر العين ذريعة لبصر القلب، وللقلب ان يسمع أو يبصر دون وسيط كما «نزل به الروح الأمين على قلبك» دونما وسيط.

وكيف لا و«القلوب ائمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضـاء» فالقلـب إمـام الأئمة فكيف لا يؤم به الحس وهو ـ فقط ـ مأموم غير إمام! وكيف لا؟ ومن لزامات الوحي ألاّ يسمعه إلاّ من يوحى إليه، فلو كان يحمل الفاظا صوتية ـ وبطبيعة الحال جاهرة حتى يُسمع ـ لكان يسمعه غير النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وقد كان يوحى إليه بمرأى ومسمع من الناس، فهو يسمع وهم لا يسمعون، وإنما يرون كأنه يغشى عليه من وطأة الـوحي! وكان ينفث في روعه قرآنا وسواه من وحي.[3]

فلا يُسمع إلى قول القائل إن النازل إلى قلبه هو المعنى ـ فقط ـ والألفاظ هي من صياغته فـ «لا تحرك به لسـانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه...»![4] واسخف منه أن القرآن بلفظه ومعناه من منشآت النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله الملقاة من روحه الأمين إلى قلبه المكين، إذ «ما كنت تعلمها انت ولا قومك»[5] فانما «نزل به الـروح الأمـين عـلى قلبـك...» وهـو «تنزيل رب العالمين» فهل أصبحت روحه الأمين ربَّ العالمين حتى ينزِّل القرآن على قلبه؟!.

ليس النص «قرءه الروح الأمين عليك» ام «نزل به عليك» حتى يحتمل قراءته على سمعه وانما «على قلبـك» وهـو عمق الروح حيث تتفأد بنور الوحي، ولابد للقلب من نورانية تامة طامة استعدادا لنزول الوحي القمة الأخيرة «من رب العالمين» «لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين»:

«نزل... لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين» فالمُنْزَل هو القرآن العربي المبين «على قلبك» والغاية من ذلك الإنزال

---

[1]). سورة البقرة ٢: ٩٧.

[2]). سورة النحل ١٦: ١٠٢.

[3]). الدر المنثور ٥: ٩٤. أخرج ابن ابي شيبة عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[4]). سورة القيامة ٧٥: ١٨.

[5]). سورة هود ١١: ٤٩.

أن تكون من المنذرين، ولك اختصاص أن إنذارك «بلسان عربي مبين» أبين من سائر كتابات الوحي عربية وسواها، لو كان هناك قبل القرآن كتاب وحي عربي!، و«عربي» هو الواضح المعرِب عن معناه، و«مبين»: يبيِّن الألسن ولا تبينه الألسن».[1]

«وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ».[2]

هل «إنه»: القرآن «في زبر الأولين»؟ كما و«ان هذا لفي صحف الأولى*صحف ابراهيم وموسى»؟[3] إذا فالقرآن نسخة عربية عن العهدين، وليس وحيا يستقل عن زبر الأولين «نزل به الروح الأمين».[4]

ولا يعقل ان محمدا صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ وهو اعقل العقلاء ـ يدعي كذبا انه يستقل في وحي القرآن ليستغله في شرعة مبتدعة جديدة يدعيها افضل مما قبلها، ثم يصرح أن القرآن نسخة عربية عن العهدين، هدما لما بناه وهدرا لما تبناه، لتطول ألسنة علماء العهدين الناقمين عليه، ودون أن يأتي بشيءٍ جديد للمشركين!

ثم واقع الحال في العهدين، المتوفرة فيهما التناقضات والمضادات للواقع وبين آياتهما، دون القرآن الذي لا اختلاف فيه، ثم اختلاف المواضيع بينه وبينهما تكميلاً لنقص أو نقضا لباطل، وحتى في العرض القصصي ذلك الواقع المتهافت بينهما وبين القرآن يبطل فرية أنه نسخة عربية عن العهدين.

ثم المشركون الموجهة اليهم ـ في الأصل ـ هذه التوجيهات، لم يكونوا ليؤمنوا بالأصل المزعوم للقرآن فضلاً عن الفرع القرآن! فكيف يقول لهم ولماذا؟ إنه نسخة عربية عن العهدين.

وكذلك الكتابيون حيث يعترضون: فإذا لست على شيءٍ جديد، فلتكن لنا تبعا وكيف ترجوا أن نتبعك؟.

ثم وكيف يصرح اولاً: «وانه لتنزيل رب العالمين* نزل به الروح الأمين * على قلبك....» ثم يناقضه بـ«انه لفي زبر الأولين» إذا فلم يوح اليه، إلاّ إلى الأولين وهو راسمٌ رسمهم في هذا القرآن.

ثم «أو لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل»[5] عطفا على «إنه لفي زبر الاولين» يعني دليلاً ثانيا على استقلال وحي القرآن عما أوحي إلى الأولين، ولو كان علما لهم انه نسخة عربية لزبر الأولين لكان هدما لبرهان القرآن أمام الكتابيين والمشركين بما «يعلمه علماء بني اسرائيل»!

أم «انه»: القرآن، ببشارة له بوحيه بلسان عربي مبين، «لفي زبر الأولين» وكذلك رسول القرآن؟ وهذان واقعان لا مرد

---

[1]). نور الثقلين ٤: ٦٥ في اصول الكافي علي بن محمد عن صالح بن ابي حماد عن الجمال عمن ذكره عن احدهما عليهما‌السلام قال سألته عن قول اللّه عز وجل «بلسان عربي مبين» قال:....

[2]). سورة الشعراء ٢٦: ١٩٦.

[3]). سورة الأعلى ٨٧: ١٩.

[4]). كتاب الهداية المطبوع بمعرفة المرسلين الأمر يكن بمصر سنة ١٨٩٨ ص ٤ ج ٢ وكتاب «القرآن والكتاب» للاستاذ حداد بيروتي تحت عنوان: هل بين القرآن والعهدين اتصال ونسب؟ قائلاً: هنالك تصاريح من القرآن ان بينه وبين العهدين اتصال ونسب حيث: التوراة إمامه وهو في زبر الأولين وهو تفصيل وتعريب للكتاب المقدس وهو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وهم علماء أهل الكتاب ويجب ان يقتدي محمد في قرآنه بالكتاب وأهله وإذا شك فيه فليسأل أهل الكتاب ليعلموه! ثم يحتج للكل بآية أو آيات على حدِّ زعمه نأتي عليها بجواباتها بطيات آياتها وكما فصلناها في كتابنا «المقارنات».

[5]). سورة الشعراء ٢٦: ١٩٧.

لهما مهما حرفت عن جهات اشراعها.
فبالنسبة لبشرى القرآن: «... وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ * ءإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى... الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم»[١] وكما جاء في كتاب اشعياء نبأ هذا الوحي العربي واليكم الأصل العبراني نصا:
«اتْ مِىْ يُورِهْ دِعاهْ واِتْ مِىْ يا بِيِنْ شِمُوعاهْ غِگْمُولِيْ مِحالابْ عِتّيمّى مِشّادايِمْ كِي صَوَلا صاوْ صَوْلا صَاوْ قَوْلا قَاوْ قَوْلا قَاوْ زِعِير شَامْ زِعِير شَامْ*كِي بِلَعَجِي شَافاهْ وِبلاشُونْ أحِرِتْ يدَّبِرْ إلْ هاعامْ هَذِّهْ* آشِرْ آمَرْ إليهِمْ زِتُتْ هَمْنُّوحاهْ هانِيحُو لعايِف وِزِتُت هَمِّرْجَعاهْ ولا آبُو شِمُوعْ*وهاياهْ لاهِمْ دِبَرْ يِهُواهْ صَوْلا صاوْ صَولا صاوْ قَوْلا قاوْ قَولا قَاوْ زِعِيرْ شامْ زِعِيرْ شامْ لَمِعَنْ يلْخُوا وِخاشْلُوا آحُورْ وِنِشْبارو وِنُقِشُوا وِنِلْكادُوا*لاخِنْ شِمعُوا دِبَرْ يِهُواهْ أنِشِيْ لاصُون مِشْلِيْ هَاعامْ هَذِّهْ أشِرْ بِيروشالامْ»:
«لمن ترى يعلِّم العلم ولمن يفقِّه في الخطاب أللمفطومين عن اللبن للمفصولين عن الثدي*لأنه أمرٌ على أمرٍ أمرٌ على أمرٍ فرضٌ على فرضٍ فرضٌ عل فرضٍ هنا قليلٌ وهناك قليل*لأنه بلهجة لكناء بشفاه أعجمية وبلسان غير لسانهم «العبراني» يعني «العربي» يكلم هذا الشعب*الذين قال لهم هذه هي الراحة فأريحوا الرازح وهذه هي الرفاهية فابوا ان يسمعوا*لذلك سيكون كلام الرب لهم امرا على امرٍ أمرا على أمر. فرضا على فرض ثم فرضا على فرض هنا قليلاً وهناك قليلاً. لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء فيُحطَّموا ويُصطادوا فيُؤخذوا*لذلك اسمعوا كلام الرب يا رجال الهُزءِ ولاة هذا الشعب الذي في اورشليم».[٢]
فهذه الآيات البينات بشارة جميلة للقرآن ونبيه أنه يكلم هذا الشعب الإسرائيلي بغير لغتهم «كي بلعجي شافاه» بلسان أعجمي ـ غير لسانهم...، ثم وبالنسبة للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله عشرات من البشارات سجلناها في «رسول الاسلام في الكتب السماوية» ويقول عنه القرآن: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون».[٣]
فالقرآن بنبيه والمواصفات القرآنية والرسالية المحمدية «لفي زبر الأولين» على تحرُّفها:[٤] «يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل...».[٥]

---

[١]). سورة الأنعام ٦: ٢٠.

[٢]). الدر المنثور ٥: ٩٤ ـ اخرج ابن مردويه عن عبداللّه بن سلام قال: كان نفر من قريش من أهل مكة قدموا على قوم من يهود بني قريظة حوائجهم فوجدوهم يقرؤون التوراة فقال القرشيون ماذا نلقى ممن يقرأ توراتكم هذه لهؤلاء اشد علينا من محمد واصحابه فقال اليهود: نحن من اولئك براء أولئك يكذبون على التوراة وما انزل اللّه في الكتب إنما أرادوا عرض الدنيا فقال القرشيون فإذا لقيتموهم فسوِّدوا وجوههم وقال المنافقون ما يعلِّمه إلاّ بشر مثله وأنزل اللّه: وانه لتنزيل رب العالمين ـ الى قوله ـ : وانه لفي زبر الأولين يعني النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وصفته ونعته.

[٣]). سورة البقرة ٢: ١٤٦.

[٤]). راجع كتابنا «رسول الاسلام في الكتب السماوية» ص ١٠٨ ـ ١١٠.

[٥]). سورة الأعراف ٧: ١٥٧.

«أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ».[1]
الواو هنا عطف على آية القرآن نفسه وفيه الكفاية عن أيّة آية، ثم آية «إنه لفي زبر الاولين» لا فحسب للكتابين بل وكذلك لغيرهما، حيث البشارة به فيها مَلحمة غيبية تدل على انه من غيب الوحي على الرسول الأمين.
فان لم يكن لهم ـ كتابيين ـ آية بنفسه وببشاراته في زبر الأولين «او لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل» الأحرار، غير المحرفين الكَلِم عن مواضعه، إذ لم ينسوا حظا عما ذكروا به.
أم وكل علماء بني اسرائيل قبل نزول القرآن مهما كفر به بعضهم إذ «نسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم» «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا»:[2] بنبإ القرآن ورسوله الآتي، فقد كان علماء بني اسرائيل يتوقعون هذه الرسالة وينتظرون هذا الرسول، ويحسون أن زمانه قد أظلهم، وأيامه قد أطلتهم، يحدِّث بعضهم به بعضا ويتحدثون على المشركين مستفتحين بذلك الفتح المبين!
إنه «بلسان عربي مبين» لا يثير قوميتهم، و«انه في زبر الأولين...» يعلمه علماء بني إسرائيل، فقد تمت عليهم الحجة وطمت المحجة.
«وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ».[3]
«لو» هنا تُحيل تنزيله على بعض الأعجمين، أعربيا ينزل على اعجمي «وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبين لهم»[4] واختلاف لغة النازل عن لغة الرسول عرقلة في الدعوة، ونقص في الدعاية، ومثار للنكاية، فعذر للمعنيين بالدعوة الرسالية.
أم أعجميا على أعجمي؟ وهو نقص في اللغة حيث العربية قمة بين اللغات والوحي الأخير قمة بين سائر الوحي، فليكن بلسان عربي مبين.
ثم والعرب الألداء وهم مبتدَءُ الدعوة ومنطلَقها ما كانوا ليؤمنوا به، فليكن عربيا منزلاً على عربي.
«ولو نزلناه» عربيا أو أعجميا «على بعض الأعجمين فقرأه عليهم» أصلاً أو ترجمانا «ما كانوا به مؤمنين» حيث النخوة العربية وقوميتها المتعرقة فيهم كانت تصدهم عن ان يؤمنوا به: «ولو جعلناه قرآنا اعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ءَأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاءٌ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى اولئك ينادَون من مكان بعيد».[5]
اجل و«لو نزلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب وقد نزل على العرب فآمنت به العجم فهذه فضيلة العجم».[6]
«كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ».[1]

---

[1]). سورة الشعراء ٢٦: ١٩٧.

[2]). سورة البقرة ٢: ٨٩.

[3]). سورة الشعراء ٢٦: ١٩٨ ـ ١٩٩.

[4]). سورة ابراهيم ١٤: ٤.

[5]). سورة فصلت ٤١: ٤٤. راجع تفصيل البحث عن الآية إلى سورتها في تفسير الفرقان.

[6]). نور الثقلين ٤: ٦٥ في تفسير القمي في الآية قال الصادق عليه‌السلام:...

«ولقد ارسلنا في شيع الأولين* وما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا بـه يسـتهزؤن* كـذلك نسـلكه في قلـوب المجـرمين* لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين* ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون* لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون».[2] «كذلك» القويم القويم «نسلكه»: القـرآن ـ إنفـاذا «في قلـوب المجـرمين» قطعـا لكافـة الأعذار القومية والإقليمية واختلاف اللغة أماهيه، وسردا لكافة البراهين القاطعة لوحي القرآن داخليـة وخارجيـة، ولكنه ليس لينسلك في هذه القلوب المقلوبة فـ«لا يؤمنون به» تخيُّرا منهم رغم بارعة الحجج إلاّ عند رؤية الباس: «حتى يرووا العذاب الأليم».

و«كذلك» البعيد البعيد «نسلكه»: عدم الايمان بالقرآن رغم ناصع البرهان «في قلوب المجرمين» طبعا عليها وختما: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم».[3]

وهذا السلك هو من مخلفات السلك الأوّل المواجَه بالتكذيب جزاءً وفاقا، ومن مخلفات السلك الثاني: «لا يؤمنون به حتى يرووا العذاب الأليم» هنا في الرجعة أو قبلها، ام في البرزخ والأخرى: «فلما رأوا بأسنا قالو آمنا... فلـم يـك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك المبطلون».[4] فلا تعني «كذلك نسـلكه» سِلكَ الايمان فإن الله ليس ليحمل المكذبين على الإيمان، ولو حَمَل على ايمان فكيف «لا يؤمنون به..»؟: «ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعا».[5]

«فيأتيهم» ذلك العذاب الأليم «بغتة» دون إخبار ولا إمهال «وهم لا يشعرون» به و«لا يشعرون» الايمان بالقرآن. «فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ».[6]

إنظارا لكي نؤمن به، ولات حين مناص، وقد فات زمن الخلاص.

«أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ».[7]

فلقد كانوا يستعجلون بعذاب الله الموعود للمكذبين تحدِّيا على النبيين، استهتارا واغترارا بما لهم مـن مُتَـع الحيـاة الدنيا، وهم بذلك الإستعجال العِضال يكدِّرون خاطر النبي الأقدس محمدٍ صلى‌الله‌عليه‌وآله.

«أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ».[8]

---

[1]). سورة الشعراء ٢٦: ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

[2]). سورة الحجر ١٥: ١٠ ـ ١٤.

[3]). فهنا مراجع لضمير الغائب في نسلكه: قرأنا وتكذيبا به وايمانا به، والأولان صالحان معنويا والأخير لا يصلح كما بيناه.

[4]). سورة غافر ٤٠: ٨٥.

[5]). سورة يونس ١٠: ٩٩.

[6]). سورة الشعراء ٢٦: ٢٠٣.

[7]). سورة الشعراء ٢٦: ٢٠٤.

[8]). سورة الشعراء ٢٦: ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

فقد «رؤي النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله كأنّه متحيّر فسألوه عن ذلك فقال: ولم؟ ورأيت عدوي يلُون أمر أمتي من بعدي فنزلت: «أفرأيت...».[1]

عربية القرآن

تعرب انه الأفصح الابلغ

(١)

«مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ».[2]

قيلات على الرسالات وحملتها طول التأريخ الرسالي هي كلها ويلات متناسقة مع بعض ومتشابكة، وشريطات مكرورة تُدار من حماقى الطغيان والجهالات على أصحاب الرسالات، كلما كانت الرسالة أقوى، ودعايتها أعرض وأنبى، كانت القيلات عليها أوسع وأشجى، ولأن هذه الرسالة السامية تجمع الرسالات كلها وزيادة، فالقيلات عليها تجمع تلكم القيلات كلها «ما يقال لك» يا حامل الرسالة الأخيرة «إلا ما قد قيل للرسل من قبلك» وقد قيل عليهم كل قيل، فلتُصبِّر نفسك على كل قيل «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك» «فإنك بأعيننا» مهما كان مرساهم «ولتُصنع على عيني» فـ«بأعيننا» تجمع جماع الرقابات حفاظا على رسالتك، لأنها محطة القيلات.

«إن ربك لذو مغفرة» يغفر قيلات عليك سترا لها وسدا عليها فلا يأتيها الباطل بما يبطلون، وكما «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» كذلك ليغفر لك كل باطل يأتيك من بين يديك ومن خلفك، إذ لا يسطع على إبطال حجتك، وإغراقك في لُجتك.

ثم هو «لذو مغفرة» لمن تاب أو يتوب و«ذو عقاب أليم» لمن يصر في إبطال امرك.

«وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنا أَعْجَمِيًا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ».[3]

«ولو نزلناه على بعض الأعجمين*فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين*كذلك سلكناه في قلوب المجرمين*لا يؤمنون به حتى يرووا العذاب الأليم».[4]

آيتان في سائر القرآن تفصحان عن النخوة العربية وجاه وحي القرآن أن لو كان أعجميا لزادوا في النكران، مما يدل على مدى شقوتهم وتصلُّبهم في قوميتهم لحد يجعلونها أصلاً وحتى لصرح الإيمان، فأولئك ينادَون من مكان بعيد، لتباعدهم عن طريق الرشد، وإعراضهم عن دعاء الحق، كأنهم ـ من شدة إلتوائهم والذهاب بأسماعهم والإنصراف

[1]). الدر المنثور ٥: ٩٥ ـ اخرج ابن ابي حاتم عن ابي جهضم قال رؤي...

[2]). سورة فصلت ٤١: ٤٣.

[3]). سورة فصلت ٤١: ٤٤.

[4]). سورة الشعراء ٢٦: ٢٠١.

بقلوبهم ـ ينادون من مكان بعيد، فالنداء غير مسمع لهم ولا واصل إليهم، ولو سمعوه لضلَّ عنهم فهمه للصد المنفرج بينهم وبينه، إذ فَصلَت قوميتهم بينهم وبين سماع الحق والخضوع لديه، وحتى حين نـزِّل عليهم القرآن عربيا فضلاً عن جعله أعجميا إذ قالوا: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون»! فما هم بصاغين اللّه لا عربيا ولا أعجميا.

والأعجمي من العُجمة خلاف الإبانة، والإعجام هو الإبهام، والأعجم مَن في لسانه عُجمة عربيا كان أم سواه، ومنه قيل للبهيمة عجماء، ولصلاة النهار عجماء، إذ لا يجهر فيها بالقراءة، وسميت الحروف المفردة معجمة لأنها لا تدل على ما تدل عليه الحروف الموصولة.

فالأعجمي بصورة عامة هو اللغة التي لا تفهمها، من بهيمة فهي أعجمية، أم فارسية اماذا من لغات لست تفهمها، أم وعربية لا تعرفها، فكل لغة بالنسبة لمن لا يعرفها أعجمية، فاللغات كلها أعجمية لغير أصحابها، عربية لأصحابها، وكما يعبر التوراة عن القرآن العربي بين العبرانيين أنه بلغة لكناء أعجمية.

عربية القرآن
(٢)

بسم اللّه الرحمن الرحيم

«الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنا عَرَبِيّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

«الكتاب المبين» هو القرآن المفصل، وهو المجمل المنزل ليلة القدر، وهو أم الكتاب لدى اللّه علي حكيم.[١]

فان كان هو القرآن المفصل، فـ«تلك» المفصلات كهذه السورة وسواها آياته، وإن كان هو المجمل فكذلك الأمر ولكنها تفصيل آياته، أم إن «تلك» اشارة الى «الر» أنها أيات الكتاب المبين النازل على الرسول في ليلة القدر، قرآنا على شخص الرسول كبرقية رمزية، لا عربيا في لغته حيث الحروف المقطعة لا تخص لغة دون أخرى، ولا عربيا في تعقله حيث لا يعقلها غير الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ ولكنها منها وليست كلها، إلاّ أن ضمنيتها في هذه الثلاث تحل مشكلة التبعيض، وقد تكون هذه الأحرف حاملة غير الذي أنزل عليه ليلة القدر، ام تعمهما، ومهما يكن من شيءٍ فانها مفاتيح كنوز القرآن الخاصة بصاحب الوحي، وهي الكنوز التي لا تفتح بآياته المفصلات، مهما كانت مفاتيح لكنوز أخرى للمرسل اليهم.

فـ«إنا جعلناه»: الكتاب المبين للرسول، المجمل عن غير الرسول «قرآنا عربيا» لغة عربية ولسانا عربيا: واضحا لا خفاء فيه في أي حقل من الحقول ولكل العقول.

فـ «لعلكم تعقلون» لا تعني ـ فقط ـ العرب، فانه «هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان» بل تعني كافة العقلاء.

فالقرآن المبين، المنزل على قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله في هذه الحروف الرمزية أم سواها من رموز، ليس عربيا يعقله غير الرسول، وقد جعله اللّه بتنزيله للعالمين «قرآنا عربيا» واضحا مكشوفا لا تعقيد فيه «لعلكم تعقلون».

فهو عربي اللفظ والمعنى، عربي الدلالة والمدلول، عربي في التفهم والتطبيق، لا تعقيد فيه دعوة وداعية، وقد يروى

---

[١]). راجع تفسير الكتاب المبين الى سورة الزخرف تجد تفصيله الثلاث.

عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بشأن العربي قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله: احب العرب لثلاث، لأني عـربي والقـرآن عـربي وكـلام اهـل الجنـة عربي».[1] وليس هذا من حب الذات، وانما حب النبوة السامية، وحب القرآن وحب الجنة، فـالقرآن ونبيّـه عربيـان واضحان دون خفاءٍ، والجنة عربية واضحة لأهلها!

«لعلكم» أيها العقلاء «تعقلون» فالعاقل قد يعقل اذا تعقَّل وشاء الهدى، وقد لا يعقل إذا لم يتعقل أو شاءَ الردى، فـ«لعل» الترجي هنا وفي سائر القرآن، لا تعني شكا في ترجٍ لساحة الربوبيـة! وانمـا هـما فـيمن خوطـب بـالقرآن، فالهدى محتومة في دعوة القرآن لأنه غير ذي عوج، وهي غير محتومة في المدعوين بالقرآن بما فيهم من عوج.

قرآئة القرآن
على مكث

«وَقُرْآنا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً».[2]

هنالك قرآن غير مفروق هو النازل عليه ليلة القدر، وقرآن آخر مفروق هو النازل عليه طوال البعثة: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير».

فهذا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله يعيه محكما دونما فرق ولا مكث، ولكن الناس ليسـوا ليعـوه ويفهمـوه إلاّ عـلى مُكـث، بـل وليثبت قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله على آياته البينات تطورا وتنورا: «قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً».[3]

فهنالك فرق بين فرق القرآن للرسول تثبيتا لفؤاده ما وعاه محكما، وفرقه للمرسل اليهم ليعوه ومن ثم تثبت عليه افئدتهم!

ثم ان فرق القرآن له بعدان، بُعد الألفاظ حيث فرقت في نجوم عدة عَبر الرسالة، فصلاً له في سـور وآيـات، وذلـك بمنزلة فرق الشعر وهو تمييز بعضه عن بعض حتى يزول إلتباسه ويتخلص إلتفافه.

وفرق المعاني اي بيناه للناس بنصوع مصباحه وشدوخ أوضاحه حتى صار كمفرق الفرس في وضوح مخطِّه، او كفرق الصبح في بيان مُنبَلَجه.

فمن واجب القراءة للقرآن أن يقرء على مكث ويرتل ترتيلاً دونما اسـتعجال، ولقـد كـان اصـحاب النبـي صلى‌الله‌عليه‌وآله

---

[1]). الدر المنثور ٤ : ٣ ـ اخرج الطبراني وابو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس، قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله . . .

واخرج الحاكم عن جابر ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله تلا قرآنا عربيا ثم قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: الهم اسماعيل هذا اللسان العربي الهاما وفي تفسير الالوسي ١٢: ١٧٢ عن الشيرازي في كتاب الالقاب بسند عن محمد بن علي بن الحسين عن آبائه عليهم‌السلام عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: اوّل من فتق لسانه بالعربية المبينة اسماعيل وهو ابن اربع عشرة سنة.

[2]). سورة الاسراء ١٧: ١٠٦.

[3]). سورة فاطر ٣٥: ٣٢.

يتعلمون القرآن على مهل خمسا خمسا امّا زاد او نقصَ دون أن ينثروه نثر الدقل أو يركموه رَكم الركام!
ثم من فرق اللفظ في القرآن كما أشرنا فرقه الصغير بالآيات ثم الكبير بالسور كما يذكر ان في عديد من الآيات، وأما الفرق بالركوعات والسجودات والأجزاء امّاذا مما اصطلح عليه القراء فلا اثر عنهما في القرآن.
صيغة السورة والسور نجدها في عشر، منزَّلة[1] تدريجيا، او مُنْزَلة[2] دفعيا، والسور القرآنية لا تخلو عن انزال او تنزيل وإن كان تنزيلها أكثر.[3]
ولأن السورة والآية من صنيع الوحي فعديدهما كذلك وحدودهما أيضا من الوحي، ومهما اختلفت القراء في عدد السور والآيات فلا اختلاف في الفاظ القرآن الموجودة بين الدفتين، والسور حسب الرسم المتواتر مائة واربعة عشر، ومهما اعتبرت سورتا الضحى والم نشرح وسورتا الفيل ولايلاف سورة واحدة، فهذه الوحدة حكمية وليست واقعية.
ثم عديد الآيات، رغم الاختلافات الستة فيها.[4] لا تضر بالحفاظ على كلمات القرآن وحروفه وهي محدودة دونما اختلاف.
ومن اهم الخلافات بين الشيعة والسنة تحسُّب البسملات من السور وعدم تحسُّبها حيث البون بينهما يصبح في ١١٣ آية، وليس حسب الكَتب القرآني إلاّ اختلافا صوريا، وكون البسملة آية في النمل يحتم كونها آية أينما كانت من السور!
ومما لا يريبه شك أن ترتيب الآيات والسور كما الآن مثل تركيب السور والآيات كل ذلك من الوحي دون تدخّل من غير الوحي، فإن الكل من فرق القرآن «قرآنا فرقناه»!

صيانة القرآن عن التحريف
(١)

«وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ».[5]

---

[1]). سورة التوبة ٩: ٦٤.

[2]). سورة التوبة ٩: ٨٦.

[3]). فالتنزيل في موردين ثانيهما «لولا نزلت سورة» (٤٧: ٢٠) والانزال في خمسة، والثلاثة الباقية اتيان لها «قل فأتوا بسورة مثله» (١٠: ٣٨).

[4]). اختلفوا ان آياته ستة آلاف ومئاتان واربع ام واربع عشرة، ام وتسع عشرة، ام وخمس وعشرون ام وست وثلاثون.

[5]). سورة الرعد ١٣: ٦.

ناكروا الوحي والرسالة والذكر المنزَّل يخاطبون صاحب الرسالة بهذه القالة الساخرة، مسا من كرامته ونيلاً من ساحته «إنك لمجنون» وما فريته بالجنون إلاّ لانه يذكِّر عقولهم المدخولة، وهم لا يحبون الناصحين، فليفتكوا به ويلطِّخوه بسوء الحالات المزرية حتى يفل عنه مَن حوله، ويقلَّ قولُه من هذا الذكر العظيم.

فيا لوحي القرآن وحامله من قمة عليا، وروحية منقطعة النظير، يُتهم بأرذل التهم وهي الجنون، جِنة في صاحب الوحي، وبطبيعة الحال جنة في الوحي يسقِّطه عن أعين الناظرين واسماعهم ليفلوا عنه ولا يدنوه، دعاية عارمة على هذه الرسالة السامية لتموت في بدايتها، كبرهان على كذبها:

«لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ».[1]

ويكأن الملائكة تُرى بالصورة الملائكية؟ وهم لا يُرون! «ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون»[2] فهم ـ إذا ـ لا يأتون في دنيا التكليف.

«مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذا مُنْظَرِينَ».[3]

نزولاً لإنزال العذاب «بالحق» ترى وما هو «بالحق»؟ علّه لأن نزولهم معه تأييدا لرسالته باطل، حيث يبطلونه كما ابطلوا الرسالات المزودة بالبينات: «ولو أننا نزّلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيءٍ قُبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون»[4]

ولأن نزول الملائكة يوم التكليف ليس إلا على من يشاء من عباده: «ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاءُ من عباده أن انذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون»[5] حيث تشترط في نزول الملائكة المسانخة وليست إلا لمن يشاء من عباده: «قل لو كان في الارض ملائكة مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولاً»[6] أجل «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً»[7] لا وحيا إليهم، بل عذابا عليهم وثوابا لسواهم، وكما ينزل الملائكة أيام عذابهم، «يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا».[8]

---

[1]). سورة الرعد ١٣: ٧.

[2]). سورة الانعام ٦: ٩.

[3]). سورة الرعد ١٣: ٨.

[4]). سورة الانعام ٦: ١١١.

[5]). سورة النحل ١٦: ٢.

[6]). سورة الاسراء ١٧: ٩٥.

[7]). سورة الفرقان ٢٥: ٢٥.

[8]). سورة الفرقان ٢٥: ٢٣.

وحتى «لو جعلناه ملكا لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون».[1] فترجع مشكلتهم كما كانت.
فـ«ما ننزل الملائكة إلاّ» نزولاً «بالحق» بحق التكليف كملائكة الوحي، أم حق الموت كملائكة التوفي، أم حق التكوين كعماله فيما يأمر الله، أم حق التعذيب، ثم في نزول الملائكة بحق التوفي او العذاب، «ما كانوا إذا منظرين». فليس ليفيدهم فيما يبغون ويتطلبون إذ كانوا قبل ذلك منذَرين، ولكنهم سخروا من المنذِرين وتلاعبوا بآيات الله البينات، ولو أنهم يبغون بهذه القالات السوء مسا من كرامة الذكر الحكيم فـ :
«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».[2]
تأكيدات عشر، خمس لنزول الذكر وخمس أخرى للحفاظ عليه، ففي الأولى جمعيات ثلاث «نا ـ نحن ـ نا» اضافة الى «إنّ ـ و ـ نزّل» حيث التفعيل تأكيد، وفي الأخرى «نا ـ و ـ حافظون» إضافة إلى «ان ـ له ـ لـ ».
فالذكر منزَّل على ضوء جمعية الصفات، ومحفوظ كذلك بجمعية الصفات، مما يُحيل تنزله ممن سوى الله، وتحريفه أو تجديفه بعد حفظ الله، فما هو ذلك الذكر؟
أهو الرسول وكما الله يقول: «...فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله اليكم ذكرا*رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور...»؟.[3]
ولكنه هنا ليس الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله مهما كان ذكرا من الذكر، فانه الذكر المُنزَل دفعيا والقرآن ذكر منزَّل تدريجيا! وليس الرسول ذكرا في هذه الآية واضرابها إلاّ لأنه «يتلو عليكم آيات الله» فهو ذكر على هامش الآيات،[4] ثم القرآن ذكر في سائر الذكر.[5]
ولأنهم ذكروا قبله ذكر القرآن: «يا أيها الذي نزل عليه الذكر» فلأن فرية الجنون بصاحب هذا الذكر تسري إلى الذكر نفسه، إنه ليس صراح الوحي وصارمه، لذلك فهو ـ هنا ـ بحاجة الى تأكيدات الصيانة والحفاظ، فبحفظ القرآن يُحفظ الرسول، لأنه رسالته الاصيلة الخالدة، وهو سنده الأصيل في رسالته، ثم ليس في حفظ محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله حفظ القرآن، اللهم إلا كرسول، وحفظ الرسول تماما هو حفظ القرآن تماما عن أي تحريف وتجديف.
ثم نرى محمدا صلى‌الله‌عليه‌وآله كبشر لم يُحفظ من أي هتك وجرح وتشريد، ثم اخيرا مات وهذا خلاف الحفظ، ولكنه سلمت دعوته وصَرمت وخلِّدت بقرآنه المجيد، وفي ذلك حفظ الرسول خالدا الى يوم الدين.
وحتى اذا ترددنا هنا في المعنى من الذكر المضمون حفظه، فالقدر المتيقن هو اصل الذكر: القرآن، الذي أصبح

---

[1]). سورة الانعام ٦: ٩.

[2]). سورة الرعد ١٣: ٩.

[3]). سورة الطلاق ٦٥: ١٠ ـ ١١.

[4]). كما «ان هو الا ذكر للعالمين» ١٢: ١٠٤ و«ان هو الا ذكر وقرآن مبين» (٣٦: ٦٩) «وما هو الا ذكر للعالمين» (٦٨: ٥٢) ثم سائر الذكر هو القرآن اللهم إلاّ بقرينة تدل على سائر كتابات السماء.

[5]). كقوله تعالى: «وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون» (٤٣: ٤٤) «ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم» (٣: ٥٨) و«وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم» (١٦: ٤٤) و«هذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون» (٢١: ٥٠) و«ءانزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري» ٣٨: ٨ وكذلك الآيات ٣٨: ٤٩و ٧٨و ٤١: ٤١ و ٥٤: ٢٥ وغيرها.

الرسول بحمله والدعوة به ذكرا «وانه لذكر لك ولقومك»[1] فهو إذا ذكر للرسول الذكر، وبحفظه تحفظ رسالته التي تتبنّى ذلك الذكر!. ثم ولا امتنان في حفظ الرسول سليما في جسمه، خالدا في عمره، ماضيا في أمره، لو لم يُحفظ القرآن مصونا، وهو ممنون عليه بأمته حين يُصان القرآن، مهما ظُلم ـ هو ـ ما ظُلم، وهُتك ما هُتك، وشرِّد وهاجر ثم مات أو قُتل، ما دامت دعوته الرسالية سليمة خالدة في القرآن المجيد، على أن الرسول ليس ذكرا إلاّ برسالته القرآنية فحفظها ـ إذا ـ حفظه.

ثم وليس يخص ذلك الحفظ بالكتاب المكنون واللوح المحفوظ قبل نزوله على الرسول، إذ لا مدخل إلى صياغة هناك حتى يحتاج الى هذه الصيانة المؤكدة، على أنه بعدُ لم ينزل فكيف «نزلنا»؟ ولا بالمحكم النازل عليه ليلة القدر، فإنه مُنزَل دفعة، وليس منزّلاً تدريجيا! ولا منة فيه على الامة، ولا بالمفصل المنزل عليه طيلة البعثة، أن يحفظ ـ فقط ـ عنده، ثم يضيع في امته، فلا منة فيه ـ إذا ـ على الأمة، ولا عليه لمّا تضيع رسالته القرآنية التي ارسل بها ولها إلى الأمة، ولا حفظه ـ فقط ـ عند الائمة ثم عند القائم المهدي عليه‌السلام فكذلك الأمر، فليس المراد حفظ نسخة منه أم نسخ معيّنة، وإنما حفظ المنزَّل من عند الله في أي مَنزِل من منازل نُسخه، المنشور بين الأمة وسواهم، لأنه لعامة المكلفين: «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب»[2] «كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور»[3] ولا حفظه عن القدح فيه، إبطالاً لحجته، وتضليلاً عن محجته، حيث القدح فيه كثير، والإضلال عنه وفير، مهما كانت حجتهم بجنبه داحضة فـ «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» مهما أتاه المبطلون.

«الذكر» هنا هو القرآن المُنْزَل من عند الله العزيز الحكيم، فكما انه نزَّله محكما ومفصلاً ورتّبه، كذلك حفظه بكل مراحل الحفظ التي تتطلب صيانته ذكرا خالدا للعالمين، ثم وأي ضياع في ذلك الذكر المنزل يتنافى وحفظه، سواءٌ في نقيصته عما نزل، أم زيادته على ما نزل، إن نقضا لترتيبه كما رتب بالوحي، أو انتقاضا لصرحه بيانا وتبيانا معجزا خالدا عبر الزمن، فـ«انه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد».[4]

كتاب عزيز، تنزيل من عزيز حميد، مصون عن كل ضياع بحفظ العزيز الحميد، فمن هذا الذي يقدر على النيل من ساحته، والمس من كرامته؟! ولو أنه لم يحفظ وحيه الاخير لم يكن حكيما ولا حميدا قضية انقطاع الحجة البالغة عن العالمين أجمعين.

ولئن قلت فكيف يكون حكيما حميدا ولم يحفظ سائر كتابات الوحي عن التحريف؟ فالجواب أن في صيانة القرآن صيانة سائر كتابات الوحي فانه مهيمن عليها ومبين كل شارد عنها وكل دخيل فيها.

ومن الحكمة في عدم صيانتها دون القرآن اضطرار معتنقيها للرجوع الى القرآن قضية ضرورة حجةٍ مّا بالغة بين العالمين، فاذ لم تكن هي تلك الكتب فليفتشوا عن كتاب بعدها هو الحجة البالغة على العالمين.

ثم الكتابات المتواصلة السماوية كل لاحقة منها تبين مواضع التحريف في كل سابقة، فلم يخل عصور الرسالات الآلهية ـ على تحرُّف كتاباتها ـ عن بيان لمواضع تحرُّفها، اللهم إلاّ الفترة الرسالية بين عيسى ومحمد عليهما السلام وهي فترة المحنة والإبتلاء، مع ما فيها من بُقية انجيلية صالحة هي انجيل المسيح وانجيل برنابا الحوراي، مهما لم

---

[1]). سورة الزخرف ٤٣: ٤٤.

[2]). سورة آل عمران ٣: ١٥٩.

[3]). سورة ابراهيم ١٤: ١.

[4]). سورة فصلت ٤١: ٤٣.

تكن هذه البُقية البُغية بمتناول كلٍّ من يبتغيها.

ثم الذكر المنزَّل هنا قد يعني كلا الذكرين، نازلاً ومُنزَلاً عليه، ولكنه ذكر على هامش النازل وانه يتلوه ويـذكِّر بـه ويبيِّنه، وقد حفظ تحت ظلال حفظ القرآن برعاية الملك المنّان كما في ليلة المبيت والحروب الطاحنة وكل الدوائر المتربصة به، حتى قضى أمره ومضى دوره الرسالي اكمالاً لتنزُّل الذكر، وبيانا له بسنته الجامعة المانعة، ثم قضى نحبه عند اكتمال الدعوة الخالدة في القرآن الحكيم.

فلولا اكتمال الدعوة القرآنية، في العهدين: المكي والمدني، لم يكن اللّه ليقبض نبيه ما قبض، ولكن دور الرسالة القرآنية لا ينقضي الا بانقضاء دور التكليف وهو عمر العالم حتى القيامة الكبرى، فليظل محفوظا في كل حقوله ومراحله تحت رعاية اللّه وحفظه، مصونا عن أية إصابة سيئة، بتمام أمره وطوال عمره، حيث «الذكر» هنا معنيٌّ في حفظه بكل كيانه وزمانه ومكانه، فلان كيانه الخلود، فهو ـ اذا ـ مخلَّد في حفظه، دون الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث يعني حفظُه طولَ عمره المفروض لتحقيق الدعوة القرآنية، ولولاه لم يُحفظ القرآن، كما انه لولا حفظ القرآن في عمره الخالد طولَ الزمن لم يحفظ الرسول في رسالته الخالدة.

فما قالة التحريف في القرآن بزيادة او نقصان ام ايا كان إلا تجديفا خارفا وتهريفا جارفا من البعيدين عن الذكر الحكيم، مهما تناقلوا روايات بهذا الصدد هرفت بها رواتها، من اسرائيليات ام كنسيات تسربت الى احاديث الاسلام فترسبت فيها وخُيِّل الى الجاهلين كأنها صادرة من مصادر الوحي والتنزيل!.

وهل تجد في سائر القرآن تأكيدات كهذه التي أكدت بها صيانة القرآن عن التحريف؟ ام تجد اللّه جاهلاً ام غافلاً عما يحتاله المحرفون، ام عاجزا عن الإحالة دون تحريفه؟!

فما قيلة التحريف إلاّ حيلة وغيلة رذيلة من المجرمين، تسربت ـ وعوذا باللّه ـ إلى جماعة من المسلمين، تناقلوها دون تثبُّت، مهما اشتهر البعض منهم بالعلم الجامع في التحديث.

فالقرآن يشهد جملة وتفصيلاً بصيانته عن اي تحريف، جملة بآية الذكر والعزيز واضرابهما، وتفصيلاً بكل آياته، فان جمال الوحي القمة فيها باهر، وواقع التحدي فيها ظاهر.

ففي رزانة الألفاظ والمعاني، ورصانة المباني، تَلْمع حصانته بكل المعاني، ولو ان آية زيدت فيها أو آيات، ثم اختلطت بآياته البينات، لم يصدق التحدي الصارم في تلكم البينات، حين تختلط وتتشابه بمقحمات دخيلة «ولن تفعلوا» تُحيل هذه الفعلة الخائنة، ان يأتوا بمثله ولو بآية منه، فكيف أتوا بها ثم اختلطت دون تمييز! ثم ومن المستحيل اجتماع المسلمين في كل عصر ومصر على ما حرِّف وإنْ في حرفٍ منه، فكيف اجمعوا بمن فيهم من الائمة المعصومين على محرَّف حُرِّف عن جهاتٍ من أشراعه، واعتمدوه عمادا وحيدا غير وهيد في كل شارد ووارد، وأصلاً على مدار الزمن لقياس كل صادر وسادر!.

وهنالك أخبار متواترة، كحديث الثقلين واحاديث العرض واضرابهما، تجعل هذا القرآن اصلاً يُرجع اليه، وفصلاً في كل خلاف على مدار الزمن، فلا تصدَّق اخبار التحريف، ام تؤوّل الى تفسيرات لفظية ام تحريفات معنوية امّا هيه، وكما في الباقري عليه‌السلام: «وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده فهم يروونه ولا يرعونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية».[1]

وتضارب النقل حول جمع القرآن يكفي نقضا لكون جمعه تأليفا من عند غير اللّه، و«إن علينا جمعه وقرآنه» تجرفها جرفا سحيقا، لا تبقي ولا تذر احتمالة من احتمالات جمع التأليف لمن سوى اللّه، مهما كان عليا عليه‌السلام فضلاً عن سواه.

---

[1]). الوافي للفيض الكاشاني آخر كتاب الصلاة ٥: ٢٧٤.

وقد ذكرنا شطرا من البراهين على صيانة القرآن عن التحريف في المقدمة، وعلى ضوء آية العزيز وآيات أخرى كما في القيامة «لا تحرك به لسانك» وآية الاسرى «اتل ما اوحي اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته» واضرابها.

ونموذجا ضاحكا مما ادعي روايات من طرق السنة انه كان من القرآن ثم اسقط: سورتا الخلع والحفد، فالخلع «بسم الله الرحمن الرحيم اللهم انا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك» والحفد: «بسم الله الرحمن الرحيم اللهم اياك نعبد ولك نصلي ونسجد واليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخشى نقمتك ان عذابك بالكافرين ملحق»! في حين يدعي ان سورة ابي لهب مقحمة لانها تنديدة شديدة بعم الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله! ومن المضحك المبكي ان تحسب هذه الأغلوطات الخارفة، والمقحمات الهارفة من السور القرآنية الساقطة عنه، وفي الحق هي ساقطة عن كونها كلام الله ام اي اديب ام واي عربي لاهٍ.

ومثله القيلة الجاهلة القاحلة ان ثلثا من القرآن سقط بين «وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى» و«فانكحوا ما طاب لكم من النساء» لان القائل لم يفهم الرباط بين جزئي الآية فأسقط ثلث القرآن بينهما، وقد ـ والله ـ ما سقط هناك إلاّ كل عقله!

فكيف يعقل ان اكثر من ألفي آية تسقط في موضع واحد، ولا يتنبه له إلاّ هذا العبقري! فلم يعرفه الحُفّاظ الأولون، ولا الائمة المعصومون، ولا الجامعون للقرآن!

وكما تقوّلوا: ان البراءة كانت مُبَسملة تعدل البقرة، فسقطت البسملة وسائر آيها إلاّ الموجودة، وأن الاحزاب كانت كالبقرة فسقطت منها مئتا آية!!!

إنها مزيفة، بان الحفاظ على هذا الذكر الاخير حفاظٌ على سائر الذكر، والتحريف فيه كما فيها هدرٌ لكل ذكر، فاين هو الحفظ المؤكد الممنون به على المسلمين اذا كان القرآن محرفا؟ وكيف يُعرف الغث من السمين والخائن من الأمين إن كان القرآن مزيفا؟ والى مَ يرجع المسلمون وسائر اهل الكتاب اذا انقطعت الحجة عن القرآن كما عن سائر كتب السماء!

ولعمر الهي الحق ان هذا القرآن هو النور المبين، والحق المتين، وهو ـ فقط ـ مقياس للرد والقبول، حتى في نُقَطه وإعرابه وترتيبه وتركيبه، فضلاً عن جمله وآياته وسوره، وكما يستفاد من اطلاقات احاديث العرض وعموماتها، ونصوص منها، أن هذا القرآن هو المدار لكلما دار على الألسن وبين الكتب.

ولقد كان القرآن مؤلفا كما الآن، مجموعا قبل ان يقبض الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بإشارات الوحي،[1] كما تدل عليه آية

---

[1]). وكما في صحيح النسائي عن ابن عمر قال جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة فبلغ النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال: اقرأه في شهر (الاتقان النوع ٢٠ ج ١ ص ١٢٤). وفي الاتقان عن ابن ابي داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي قال: جمع القرآن على عهد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله خمسة من الانصار: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبي بن كعب وابو الدرداء وابو ايوب الانصاري، وفيه عن البيهقي في المدخل عن ابن سيرين قال: جمع القرآن على عهد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله اربعة لا يختلف فيهم: معاذ بن جبل وابي بن كعب وابو زيد واختلفوا في رجلين من ثلاثة: ابي الدرداء وعثمان وقيل عثمان وتميم الداري.

وفيه عنه وعن ابن داود عن الشعبي قال: جمع القرآن في عهد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ستة: أبي بن زيد ومعاذ، وابو الدرداء وسعيد بن عبيد وابو زيد ومجمع بن حارثة وقد اخذه الا سورتين او ثلاث وفيه ايضا عن ابن اشتة في كتاب المصاحف من طريق كهمس عن ابن بريدة قال: اول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى ابي حذيفة اقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه فجمعه.

أقول: هذا هو جمعه في كتاب واما جمعه في الحفظ عن ظهر الغيب فاول جامعيه هكذا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ثم علي عليه‌السلام وثم... وما جمع علي عليه‌السلام بعد ارتحال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله الا جمعا في كتاب بهوامش تفسير آياته كما سمع رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وما رفضوه الا لهذه الهوامش التي كانت تفضح المنافقين والبعض من هؤلاء الذين سيطروا على عرش الحكم واغتصبوا حق خلافته.

وفي الاتقان للسيوطي عن احمد وابي داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال قلت لعثمان... فقال عثمان: كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله تنزل عليه السورة ذات العدد فكان اذا أنزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا... (منتخب كنز العمال ٢: ٤٨) وفي رواية عثمان بن ابي العاص قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله ان جبرئيل اتاني بهذه الآية «ان اللّه يأمركم بالعدل والاحسان...» وامرني ان اضعها في موضعها من سورة (النحل)، وكما كان صلى‌الله‌عليه‌وآله يقرء بعض السور النازلة نجوما كآل عمران والنساء وغيرها، وكان يسمي هذه السور باسمائها التي نسميها بها.

القيامة «ان علينا جمعه وقرآنه» وتقديم جمعه هنا على قرآنه قد يلمح انه مع قرآنه، فقد كان يُقرء عليه القرآن المفصل آية او آيات ام سورا بمختلف النجوم والحاجيات والمتطلَّبات، ومعها اشارة الوحي كيف تجمع واين توضع في آيات ام سور، فأصبح القرآن كما هو الآن بعد نزول آيته الأخيرة.[١]

ومتواترة الروايات عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والائمة من آل الرسول مؤيدة هي الأخرى أن هذا القرآن هو الذي جمعه الرسول والفه بامر الله تعالى دون أن تَفْلت منه نقطة او حركة أمّا هيه، ثم الشذاذ القائلة بالتحريف تهريف شاذ ممن كانوا يتربصون بالقرآن دوائر السوء، وهي مخالفة للقرآن ولمتواتر الروايات واحاديث العرض والثقلين فلا موضع فيها من القبول، والقرآن الآن هو بنفسه اغنى برهان على انه الآن كما كان زمن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» سواءٌ في ذلك آياته وترتيبه الخاص في تأليفه، فان للتأليف دخلاً عريقا في التعرُّف الى معانيه وكما في اصله، تأليف قاصد كما الأصل قاصد، قصدا بالوحي فقط، دون الآراء المختلفة المختلَقة المتخلِّفة عن صراح الوحي.

ومن طبيعة الحال في ترتيب التأليف بعد النزول نجوما ان كل آية او آيات كانت تحمل معها اشارة الوحي اين مكانها من سورة وآية نزلت من ذي قبل، فكان كتّاب الوحي يكتبونها كما يأمر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بالوحي، فلذلك اصبحت سورا مرتبة كما هي الآن في زمن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وقد ختمها نفرٌ من اصحابه عنده فصدقهم عليه وامرهم فيه بما امر.[٢]

صيانة القرآن عن التحريف

(٢)

---

[١]). كما في منتخب كنز العمال ٣: ٤٨ عن عثمان عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله انه كان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا.

[٢]). قال الشريف المرتضى علم الهدى في جواب المسائل الطرابلسيات... ان القرآن كان على عهد رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله مجموعا مؤلفا على ما هو عليه الآن لانه كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمن حتى عين على جمع من الصحابة في حفظهم له وانه كان يعرض على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ويتلى عليه وان جماعة من الصحابة مثل عبداللّه بن مسعود وابي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عدة ختمات، وكل ذلك يدل بادنى تأمل على انه كان مجموعا مرتبا غير مبتور ولا مبثوث وان من خالف في ذلك من الامامية والحشوية لا يفيد خلافهم فان الخلاف في ذلك مضاف الى قوم من اصحاب الحديث نقلوا اخبارا ضعيفة ظنوا صحتها لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته، وقال البلخي في جامع علوم القرآن فيما نقله عنه السيد ابن طاووس في سعد السعود ما لفظه:

وإني لأعجب من ان يقبل المؤمنون قول من زعم ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ترك القرآن الذي هو حجته على امته والذي تقوم به دعوته والفرائض التي جاء بها من عند ربه ويصح به دينه الذي بعثه اللّه اليه داعيا اليه معرفا في قطع الحرف، ولم يجمعه و يرتبه كما أوحي اليه: «ان علينا جمعه وقرآنه * فاذا قرأناه فاتبع قرآنه».

«إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».[1]

اللحد حفرة مائلة عن الوسط فالإلحاد هو الإمالة عن الوسط الحق إلى حفرة إفراط أو تفريط، و«آياتنا» تعم التكوينية كسائر الآيات الدالات على الله بما فيها آيات النبوات وحملتها، والتدوينية كسائر كتابات الوحي بما فيها القرآن، فالإلحاد في تكوينية الآيات السائرة هو إمالتها عن كونها آيات كأنها لا تدل على الله تفريطا فيها، أم إشراكها بالله كأنها له أنداد إفراطاً في شأنها، وفي التكوينية الخاصة كما الإفراط في أسماء الله تحويراً لها وتحريفاً عن معانيها المعنية، أم اختلاقاً لأسماء لم يسم بها نفسه «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون»[2]. والتفريط في «لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين»[3] والإفراط فيه منه دون الله! وفي كيان الرسل وآياتهم المعجزات إفراطاً كما في عيسى وعزير من بعضهم وتفريطاً كما في سائر المرسلين من آخرين، وقد يكون إفراط الإلحاد في آيات الله من حصائل التفريط فيها وكثيرٌ ما هو، فمن أبصر إلى آيات الله مستقلات دون اعتبار بها تفريطاً فيها، فقد أفرط فيها أن يجعلها أنداداً لله تعالى، ومن أبصر بها بصَّرته لمعرفة هي أسمى، فلا تفريط إذاً ولا إفراط، فإنهما من حصائل الإبصار إليها دون الإبصار بها وكما يروى عن الإمام علي عليه‌السلام في شأن الدنيا، «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته».

ثم الإلحاد في كتابات الوحي منه لفظي كالتحريف بزيادة هي الإفراط أم نقيصة هي التفريط وقد فعلوهما في التوراة والانجيل، ولم يستثن عن الإلحاد فيه هكذا إلا القرآن كما تستثنيه الآية التالية، ومنه معنوي يعمه حيث التحريفات المعنوية في القرآن سائرة في كل زمان ومكان.

هنا «لا يخفون علينا» تهديدٌ لهم أول أنه عليهم رقيب عتيد، بجزاءهم «يلقى في النار» ثم تهديد ثان نهيا شديدا بصيغة الأمر «إعملوا ما شئتم إني بما تعملون بصير»فقد بدء التهديد ملفوفاً يخيف «لا يخفون علينا» فهم مكشوفون لعلم الله، فمأخوذون بما يلحدون في الله مهما غالطوا والتووا وحسبوا أنهم مفلتون من يد الله كما قد يتفلتون من حساب الناس!

وثم صراح التهديد«أفمن يلقى في النار...» وفي النهاية لفتة أخرى علّها أقوى منها«إعملوا ما شئتم...»! أتراهم يغلبون آيات الله في هذه الإلحادات ولكيلا تبقى حجة بالغة على الناس؟ كلا! مهما فعلوا ما افتعلوا، فإن الله يحافظ على آيته الأخيرة الخالدة: «القرآن» تداوماً لحجة الله البالغة على الناس وتدليلاً على ما فعلوه في الزبر:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ».[4]

«إن الذين كفروا بالذكر» الأخير، كل الذكر وهو القرآن العظيم، كفراً في مختلف دركات الإلحاد في آياته «لما جاءهم» وقد خيل إليهم أنه كسائر الذكر، فبإمكانهم كل تحريف فيه وتجديف، «وإنه لكتاب عزيز» غالب على كل إلحاد فيه أياً كان «لا يأتيه الباطل» من أي مبطل «من بين يديه ولا من خلفه» لأنه «تنزيل من حكيم حميد»!

أترى ما هو الخبر عن هذا المبتدء؟ علّه محذوف مستفاد من «يلقى في النار»للذين يحلدون في آياتنا حيث الإلحاد في

---

[1]). فصلت ٤١: ٤٠.

[2]). سورة الاعراف ٧: ١٧.

[3]). سورة النحل ١٦: ١٠٣.

[4]). فصلت ٤١: ٤٢.

القرآن هو من أبرز مصاديقه وأحقها إلقاءً فيالنار، ف«إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم» إلحاداً فيه «يلقون في النار»فإنهم كفروا به حال «وإنه لكتاب عزيز..»

ذكر عزيز، هو تنزيل من حكيم حميد، كيف يُغلب بمن يريد فيه إلحاداً، فلو تطرَّق إليه التحريف بزيادة أو نقصان لقضي على الذكر في تأريخ الرسالات، ولكان ذكر الله مغلوباً لا يُنتصر له، ولم يكن الله حكيماً في تنزيله ولا حميداً، فإن في الحفاظ على الذكر الأخير حفاظاً على سائر الذكر، وفي تحريفه ـ وقد حرف قبله سائر الذكر ـ تحريف لشرعة الله ككلٍّ، وقضاءٌ على حجة الله البالغة بأسرها.

إن في صيانة القرآن عن التحريف صيانة لسائر كتب السماء، وحجة بالغة دامغة على المتمسكين بها على تحرُّفها عن جهات أشراعها، ودافع لهم إلى التفتيش عن شرعة غير محرفة يلجئون اليها[1].

إنه «الذكر» الذي يحمل معه كل ذكر في كتابات السماء، فبحفظه تحفظ وبضياعه تُضاع «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»[2] تأكيدات عشر لا مثيل لها في سائر الذكر ولا أيٍّ من حقايق الدين الحق بأصوله وفروعه، ولأنه ضمان له بأصوله وفروعه.

«وإنه لكتاب عزيز» تأكيدان لعزة الكتاب كما الله منزِّله عزيز، عزيز من عزيز يغلب ولا يُغلب! إنه عزيز في لفظه ومعناه، عزيز في حكمه ومغزاه، عزيز في مبتدءه ومنتهاه، لا يذل ولا يغلب مهما تربصوا عليه الدوائر، عزةً في مثلث الزمان بطوله وعرض المكان، «لا يأتيه الباطل» مهما هاجمه المبطلون «من بين يديه» وهي كل كتابات الوحي فضلاً عن سواها، وكل رجالات الوحي فضلاً عن سواهم، بل هي مصدقة له كما هم، وهو مصدق لما بين يديه، وهذا تعبير دائب في سائر القرآن عما نزل قبله من كتابات بما بين يديه[3] وعلَّه لأنه ينظر إليها نظرة تصديق، إذ ليس بدعاً من الكتب، كما أن رسوله ما كان بدعاً من الرسل! «مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه»[4] إذاً فالأصل في«ما بين يديه» ما نزل قبله.

ومما بين يديه ما كان حال نزوله من كتب وأشخاص، فهو يشمل الماضي والحال ف«من خلفه» إذاً يخص الاستقبال، فهو في صيانة إلهية، في مثلث الزمان عن أية دائرة سوء من الإنس والجان.

أترى لماذا «لا يأتيه الباطل» دون «المبطل» والآتي إياه إبطالاً له وإعطالاً مبطلٌ له وليس فقط الباطل؟

لأن المبطل، المحاول لإبطاله، قد أتاه ويأتيه على أية حال، ولكنه لم يسطع ولن أن يبطل، ف«لا يأتيه الباطل» مهما أتاه المبطل أو يأتيه، إبطالاً لمعجزته بما يفوقه أو يوازيه، أو فصماً لحجته بما يناوئه ويعاديه، أو تحريفاً وتجديفاً بنقيصة عنه أو زيادة فيه، أماذا من باطل في ألفاظه ومعانيه، في تأليفه وتركيبه، فلا تعلق به الشبهة من طريق

---

[1]). راجع كتابنا «المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية».

[2]). سورة الحجر ١٥: ٩.

[3]). كما في ٢: ٩٧ - ٣: ٣ - ٥: ٤٨ - ٦: ٩٢ - ١٠: ٣٧ - ١٢: ١١ - ٣٤: ٣١ - ٣٥: ٣١ - ٤٦: ٣٠ وفي نور الثقلين: ٤: ٥٥٣ ح ٦٧ - القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله تعالى: «إن الذين كفروا بالذكر..» يعني القرآن: «لا يأتيه الباطل من بين يديه» قال لا يأتيه الباطل من قبل التوراة والانجيل والزبور ولا من خلفه أي لا يأتيه من بعده كتاب يبطله، وفيه عن المجمع روى عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه عليه‌السلام في معنى الآية ليس في إخباره عما مضى باطل ولا في إخباره عما يكون في المستقبل باطل بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها.

[4]). سورة المائدة ٥: ٤٨.

المشاكلة، ولا الحقيقة من جهة المناقضة، فهو الحق الخالص الواجب الذي لا يشوبه شائب ولا يلحقه طالب، فلا يأتيه الباطل مهما أتاه المبطلون! فالشيطان والإنسان لا يقدران على أن ينقصا منه حقاً أو ينتقضاه، ولا يزيدان فيه باطلاً ويفتعلاه.

فأي كتاب في مثلث الزمان وأي إنسان أو جان وأي تقدم في علم في مستقبل الأزمان، ليس ليبطل حجته أو ينقضها أو ينقصها، والكتابان في كل زمان تدويناً وتكويناً يجاوبانه ويؤيدان، لأنه الإمام وسواه المأموم، وهو العزيز وسواه تعزيز له أم لا يوازيه، لأنه الذكر العزيز «... تنزيل من حكيم حميد» والمتدبر في القرآن يلمس منه هـذه الحقيقـة الخالصة، من نصه وظاهره وإشارته، يجدها في كل بساطة ويسر حقاً ناصعاً فطرياً يخاطب أعماق الفطرة ويطبعها ويؤثر فيها عجيب التأثير.

أترى هذا «لا يأتيه الباطل من خلفه» فما هو إتيان الباطل من بين يديه وليس المبطل لا في حال او استقبال؟ مـن إتيانه الباطل مما بين يديه تفوقه على القرآن في لفظه أو معناه أو مغزاه وليس، ومنه إخباره بكذبـه كـما القـرآن يكذب كل ما يأتيه معه أو من بعده لأنه خاتمة الوحي، ولا مبطل لـه في كتابـات السـماء فضـلاً عـن سـواها، بـل تصدقه[1] كما يصدقها، تصادقاً فائقاً كالتصادق في من جاء بها.

فالقرآن في صيانة ذاتية وخارج الذات من كافة الجهات والجنبات، حق ناصع ناصـح، خـالص لائـح، فهـو المرجـع الوحيد في كل شارد ووارد، لا ينوبه نائب ولا يشوبه شائب، «لا مبدل لكماته ولن تجد من دونه ملتحداً».

كتاب الله العزيز هو المخرج عند الهرج والمرج لا سواه[2] و (مَثَل القرآن ومَثَـل النـاس كمثـل الأرض والغيـث بيـنما الأرض ميتة هامدة ثم لا يزال ترسل الأودية حتى تبذر وتنبت ويتم شأنها ويخرج الله ما فيها من زينتها ومعـايش الناس، وكذلك فعل الله بهذا القرآن والناس)[3] و(وإنكم لن ترجعوا إلى الله بشيءٍ أحب إليه من شيءٍ خـرج منـه)[4] و (وإنه المهيمن على الكتب كلها وإنه حق من فاتحته إلى خاتمته...)[5].

---

[1]). راجع كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» تجد فيه نصوصاً من تصديق الكتب السماوية للقرآن ونبيه.

[2]). الدر المنثور ٥: ٣٦٦ أخرج ابن مردوية عن علي عليه‌السلام قال قيل لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أوسئل ما المخرج منها فقال كتاب اللّه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

[3]). الدر المنثور ٥: ٣٦٦ أخرج ابن مردويه عن ابن سعد لا احسبه إلا اسنده أن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: مثل القرآن...

[4]). المصدر - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في أسماء والصفات عن عقبة بن عامر ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله تلا هـذه الآيـة فقال: وفيه أخرج البيهقي عن أبي ذر قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله... بشيء أفضـل... وفيه أخـرج عـن عطيـة بـن قيـس عـن النبـى صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: ما تكلم العباد بكلام أحب إلى اللّه من كلامـه ومـا أنـاب العبـاد إلى اللّـه بكـلام أحـب إليـه مـن كلامـه بالـذكر قـال بالقرآن.

[5]). عيون أخبار الرضا في باب ما كتبه الرضا عليه‌السلام للمأمون في محض الإسلام وشرايع الدين فيـه: والتصـديق بكتابـه الصـادق العزيز الذي «الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» وإنه المهيمن.. نؤمن بمحكمه ومتشابهه وخاصة وعامة ووعده ووعيده وناسخه ومنسوخه وقصصه وإخباره لا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله.
وفيه بسنده عن محمد بن موسى الرازى قال حدثني إبي قال ذكر الرضا عليه‌السلام يوماً القرآن فعظم الحجة فيه والآية المعجزة في نظمه قال: هو حبل اللّه المتين وعروته الوثقى وطريقته المثلى المؤدي إلى الجنة والمنجي من النار لا يُخلق على الازمنة ولا يغث على......

القرآن

كريم لا يمسه إلا المطهرون

«فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»[1]

تحدثنا عن اللاقسم في مواضعها، وأنه حقاً نفي للقسم لا قسمٌ، إيحاءً بالاستغناء عنه لما له يُقسم. وإن كان القسم عظيماً فإن المقسم له أعظم وأغنى، فكرم القرآن وسعته، الزاهر المتظاهر اللامح، أظهر من مواقع النجوم وألمع، لمن كان له بصر، فما هي هذه النجوم بمواقعها، التي يستعظم الله أن يقسم بها، وإن كان لما هو أعظم منها؟.

ترى أنها نجوم السماء: الكواكب الطالعة فيها، الآخذة مواقعها، رصداً لراصدين، وهداية للمهتدين[2]: «وهو الذي جعل النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر»[3]؟ ونجوم القرآن أهدى، وهدايتها أعمَّ وأبقى! فلماذا يقسم بها كمثال لإثبات كرم القرآن وسعته في هداه، وزهرته في علاه؟

أم هي هي النجوم يوم قيامتها، الساقطة الواقعة في مواقعها[4]، المطموسة عن كيانها: «فإذا النجوم طُمست»[5]. ولماذا يقسم بها لنجوم لا تسقط ولا تطمس؟ فيوم القيامة يوم تظهر نجوم القرآن بحقائقها مهما كذبوا بها من قبل: «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله»[6]!.

أم هي نجوم من السماء، هي رجوم لمسترقي السمع بالملإ الأعلى، آخذة من أهدافها، من مواقع الشياطين، ثاقبة

---

[1]). سورة الواقعة ٥٦: ٧٩.

[2]). اصول الكافي باسناد القمي عن مسعدة بن صدقة قال قال أبو عبد اللّه عليه‌السلام في قول اللّه عز وجل: «فلا أقسم بمواقع النجوم» قال: كان أهل الجاهلية يحلفون بها فقال اللّه عز وجيل: «فلا أقسم بمواقع النجوم» قال: عظم أمر من يحلف بها.
أقول: يشهد على ما في المتن إذا كان المقصود كل النجوم، والحديثان كما ترى صريحان أنه نفي للقسم، خلافاً لمن يحاول تحويله إلى القسم تحميلاً لا يتحمله القرآن.

[3]). سورة الانعام ٦: ٩٧.

[4]). من موقع اسم زمان واسم مكان، زمن وقوعها ومكانها.

[5]). سورة المرسلات ٧٧: ٧.

[6]). سورة يونس ١٠: ٣٩.

لهم وداحرة[1]: «لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب* دحوراً ولهم عذاب واصب»[2]؟
ولماذا يقسم بها لنجوم القرآن وهي أدحر وأثقب للشياطين، كما هي أهدى وأنور للمؤمنين: «وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً»[3].
أم هي آيات القرآن النازلة نجوماً، بعد أن نزلت ليلة واحدة، على قلب الرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله أعلى موقع لنزولها، ثم تتحول الى مواقع أخرى من قلوب السابقين إلى دعوته، ثم أصحاب اليمين، ثم إلى الناس أجمعين؟ فنجوم القرآن نجوم هداية للجنة والناس، ورجوم على النسناس[4].
وهل يقسم بنجوم القرآن لإثبات كرم القرآن؟ قد يجوز وهو أحرى! فإنه من برهنة الشيء على نفسه، فكما الشمس تدل على نفسها، وهي أحرى شاهد لها، كذلك نجوم القرآن بمواقعها، القلوب الواقعة هي فيها، الواعية لها، أنها تدل على «إنه لقرآن كريم».
«فلا أقسم» هنا، لا قسمٌ ضمِّن فيها القسم[5] لا بمواقع النجوم كلها، وإنما بنجوم القرآن، «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم»: عظيم في دلالته، عظيم في جلالته، عظيم في معناه، عظيم في هداه.
إنه تصريح باللاقسم وتلويح بالقسم بمواقع نجوم القرآن، وما أحلاه تعبيراً، عن لماعة نجوم القرآن وبلاغتها، وكما يروى عن أفضل مواقعها: الرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله: «له نجوم وعلى نجومه نجوم... فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل المعرفة لمن عرف الصفة، فليجلِ جال بصره، وليبلغ الصفة نظره، ينج من عطب، ويتخلص من نشبٍ، فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور...»[6].
فمهما كان القسم بسائر النجوم عظيماً، لأنها دلالات ظاهرة، وشهادات على عظمة القدرة، وسعة الحكمة لمن يوقعها في مواقعها، فيهتدي بها راصدوها، ويندحر مسترقوا السمع للملإ الأعلى، وهي إضافة إلى ذلك ظاهرة في أنفسها في طلوعها وغروبها وانفضاضها وانقضاضها، ولكنما حق العظمة وعظمة الحق في الدلالة على كرم القرآن، ليس إلا في نجوم القرآن، وقليل هؤلآء الذين يعلمون، وكثيرون يجهلون، أن القرآن نور ينير لنفسه، فلا يستنير

---

[1]). مجمع البيان روي عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه عليهما‌السلام أن مواقع النجوم رجومها للشياطين فكان المشركون يقسمون بها فقال سبحانه: «فلا أقسم بها». أقول هنا المواقع جمع موقع اسم مكان وكما هو كذلك في الاحتمال الأخير، ولعله جمع موقع اسم مصدر ولكي يشمل معنى اسم المكان والزمان.

[2]). سورة الصافات ٣٧: ٩.

[3]). سورة الاسراء ١٧: ٨٢.

[4]). الدر المنثور٦: ١٦١ أخرجه جماعة عن ابن عباس في قوله «فلا أقسم بماقع النجوم» قال: القرآن «وأنه لقسم لو تعلمون عظيم» قال: القرن، وفيه أخرج الفرياني بسند صحيح عن المنهال بن عمرو عنه قال قرع عبد اللّه بن مسعود «فلا أقسم بمواقع النجوم» قال: بمحكم القرآن، فكان ينزل على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله نجوماً، وفيه مثله عن مجاهد، وعن ابن عباس في إخراج آخر في الآية قال: مستقر الكتاب أوله وآخره، وأقول إنه فسر الموقع بمعنى المستقر وهو قريب كما قلناه.

[5]). راجع ص ١٥٩ ج٣٠ الفرقان وكذلك الآيات ٦٩: ٣٨ - ٤٣ و٩٠: ١ و ٨٤: ١٦ و ٧٥: ١ - ٣ و ٧٠: ٤٠ - ٤١ - فإنها آيات سبع تحدثنا عن اللا قسم فيها.

[6]). أصول الكافي ج٢ ص٦٠٠ - الطبعة الجديدة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله...

بسواه، وحتى الرسول لرسالته لا يستدل بسواه، فهو نور لمن أرسل به، ونور لمن أرسل إليه، وعلى حدّ تعبير الموقع الثاني من مواقعه: علي عليه‌السلام: ونور لا تطفأ مصابيحه، وسراج لا يخبؤ توقده، وشعاع لا يظلم ضوءه، وفرقان لا يخمد برهانه، وتبيان لا تهدم أركانه.. فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يفيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله رياً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجاً لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده داءٌ، ونوراً ليس معه ظلمة، وهدى لمن إئتم به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاج به، وحاملاً لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسَّم، وجُنة لمن استألم، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى»[1].

إن القرآن قبل نزوله كان كوكباً لم يطلع بعدُ على المطالع غير الإلهية، وإنما كان في أم الكتاب لدى الله:«وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم»[2]:

عليٌ عن الطلوع لأحد، وحكيم عن أن يطلع عليه أحد، وإنما بزغ نجما: كوكباً طالعاً لأول مرة، إذ أشرق على قلب الرسول الأمين في ليلة مباركة، ومن ثم بزغ نجوماً إذ تنزلت آياته المفصلات، مفسرات للنجم الأول، ثم انتقل منه صلى‌الله‌عليه‌وآله الى حفاظ سره وخزنه علمه الأئمة المعصومين، ثم منه ومنهم إلى سائر المؤمنين كنجوم الشفاء والرحمة، وعلى الشياطين رجوم البلاء والنقمة، نجوم أربعة للقرآن الكريم! «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم».

«إنه لقرآن كريم»: كيف لا وهو من لدن رب كريم: «فإن ربي لغني كريم»[3] متحولاً الى رسول كريم: «إنه لقول رسول كريم»[4] كريم في آياته، كريم في معطياته، غير ضنين ولا لئيم، فالكرم هو التوسع في المحاسن الكبيرة، فلا يُنقص عن كرمه، ولا يُمس من كرامته فإنه:

«فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ»:

ترى ما هو الكتاب المكنون، الكائن فيه القرآن الكريم، ليكنه عما يمسّ منه إلا المطهرون؟ وما هو المسّ ومن هم المطهرون؟.

علّ «كتاب مكنون» هو لوح محفوظ «بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ»[5][6]، وليس في كتاب ثابت عند الله غير لائح لأحد، ولا عند رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لائحا له وخلفاءي المعصومين غير لائح للآخرين، أو لائحا لجمع الأولين غير لائح للآخرين، إنما «في لوحٍ»: صفحة لائحة ظاهرة لمن يتمجد به من المكلفين، من الجنة والناس أجمعين وإلى يوم

---

[1]). نهج البلاغة الخطبة ١٩٣ ص٢٠٢.

[2]). سورة الزخرف ٤٣: ٤.

[3]). سورة النمل ٢٧: ٤٠.

[4]). سورة التكوير ٨١: ١٩.

[5]). سورة البروج ٨٥: ٢١.

[6]). راجع تفسير الآية في ج٣٠ ص٢٧٠، والآية «لا تحرك به لسانك» ج٢٩ ص٢٨٠.

الدين، آياته لائحة، بيناته واضحة، ورغم أنه في لوح، وبمتناول الكل، فهو «محفوظ» و«مكنون» عن لعبة اللاعبين، وتحريف المحرفين، فكيان القرآن أيا كان هو أنه في حفاظ اللّه وكنانه: «إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون»[1].
وترى أهو محفوظ كذلك عند من يقرأه عن ظهر الغيب غالطاً أو عامدا، أو يكتبه كذلك وينشره بغية تحريفه؟..
كلا، إنما في «كتاب مكنون» و«كتاب» هو الثابت فليس إلا الحق، فهو قرآن كريم في ثابت بإذن اللّه، مكنون بكنان اللّه، آخذاً من أم الكتاب، وإلى كتاب قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وقلوب ممثليه المعصومين، وكتب ألسنتهم، ثم وكتب صدور الحفاظ، فالغالط يرجع لما يظهر غلطه، والعامد يفضح إذ يرى خلاف ما يراه الحفاظ والمؤمنون، والكاتب غلطاً، جاهلاً أو عامداً، لا يبقى كتابه سنداً، فريثما ينشر يُدحر، وكما دحر المسلمون القرآن المحرَّف الذي نشره الإسرائيليون، وكيف ينجح قرآن محرف بين بلايين البلايين من القرائين طول العالم الإسلامي وعرضه، وخلال التفاسير وسواها، وفي صدور الحفاظ وسواهم، حتى ولا كلمة واحدة، او حرف أو نقطة واحدة، وكما الواقع المجمع عليه من هذا القرآن طوال القرون الإسلامية خير شاهد إيجابي لذلك الكن والحفظ، وواقع الإندحار عن المجموعة الإسلامية لما قد يحاول دسه ونشره وبثه، شاهد سلبي على غيره، فمهما سمي قرآناً فليس في كتاب، وإن سمي كتاباً فليس مكنوناً.
«لا يمسه إلا المطهرون» فما هو «ه» وما هو المس؟ ومَن هم المطهرون؟ الضمير الغائب: «ه» راجع إلى القرآن أياً كان من محاله ومدارجه: حين ينزل من عند اللّه، وإذ يصل إلى منزل القلب المحمدي، حين يسمع أو يُفهم أو يُمس خطه بلمس، أو ببصر، أم ماذا؟ فلا يمسه في أيّ من هذه إلا المطهرون وكما يناسب هذه وهذه.
فقد حمله إذ نزل، المطهرون «المقربون»[2]: «وما نزلت به الشياطين* وما ينبغي لهم وما يستطيعون* إنهم عن السمع لمعزولون»[3] وكما لا يحمل علمه صافياً دون كدر إلا المطهرون، الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وهم أهل بيت الرسالة المحمدية، فهم أولاء الذين يمسون حقائقه وينفذون أحكامه كاملة، يمسونه كما يحق دون أن يمسوا منه بباطل.
ومن ثم لا يدركه بعدهم إلا المنورة قلوبهم، المطهرة نفوسهم، كلٌ على قدره، وكما يعيه قلبه و«القلوب أوعية فخيرها أوعاها» كما ولا يسمع إليه ولا يبصره إلا المطهرون في أسماعهم وأبصارهم، دون الملتهين بالأغاني الملهية، والصور المغرية، فهم لا يتلذذون من القرآن فلا يمسونه سمعاً ولا بصراً، كما لا يتفهمونه معنىً وبصيرة، ولا يتذوقونه واقعاً... وإلى هنا «لا» نافية تنفي واقع المسّ هكذا في مختلف المس، كلٌ على حسبه.
ومن ثم تكون «لا» ناهية تنحو نحو النهي عن مسه، خطه ورسمه، إلا المطهرون عن الكفر، فلا يمسه كافر، اللهم الا من يحاول التطهر به، لا مسّه أو المس منه، وإلا المطهرون عن أحداث وأخباث (فلا يمس القرآن الا طاهر)[4].

[1]). سورة الحجر ١٥: ٩.

[2]). الدر المنثور ٦:١٦٢ - أخرج أبن مردويه بسند رواه عن ابن عباس عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله «إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون» قال: عند اللّه في صحف مطهرة لا يمسه إلا المطهرون المقربون.

[3]). سورة الشعراء ٢٦: ٢١٢.

[4]). الدر المنثور ٦:١٦٢ - أخرج الطبراني وإبن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله:... وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل مثله، وعن ابن حزم الأنصاري عن أبيه عن جده عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله لعمرو بن حزم: «لا تمس القرآن إلا على طهور».
وفي الاستبصار بإسناده عن أبي الحسن عليه‌السلام قال: المصحف لا تمسه على غير طهر ولا جنباً ولا تمس خطه ولا تعلقه، إن اللّه تعالى يقول: «لا يمسه إلا المطهرون».

ولا غريب من القرآن أن يجمع بين النفي والنهي في حرف واحد، أو أنها نافية تعني في موارد النهي مبالغة النهي[١].
فالطهارة المشروطة في حلية مس القرآن خطا، تعمُّ الطهارة عن الكفر وطهارة الحدثين، وضوءاً وغسلاً، والطهارة عن أية نجاسة او خباثة في المحل الماسّ، دون اختصاص بالحدثية، خلافاً لبعض الفقهاء، وفاقاً لإطلاق المس والطهارة. تأمل.
ف«لا يمسه إلا المطهرون» مسّ النور والخير، ولا مس السوءِ والشر، فالمطهرون داخلون في مسِّه، وغيرهم خارجون عن مسِّه وعن المسّ من كرامته[٢].
كيف وهو مكنون بكنان الله أينما كان!.
«تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ»... إنه كتعليل لعدم مسِّه إلا من المطهرين، فما نزل من رب العالمين كيف يحمله إلى رسله الشياطين؟ أم كيف يمسه إلا من طهرهم رب العالمين، أو كيف يجوز مسّه من غير المطهرين عن أدناس وأحداث وأخباث؟!

نكات وتنبيهات:
«إنه لقرآن»ترى هل من نكران لأحد أنه قرآن، حتى يقسم أو لا يقسم تلميحا بالقسم «إنه لقرآن»: مقروء!.
عله لأن الناكر كان ينكر كونه مقروءاً له من ربه، على سمعه وقلبه، إذ قالوا «بل افتراه»: اختلقه من نفسه، ثم نسبه إلى ربه، فإنكاراً عليه يؤكد «إنه لقرآن» جواباً عن هكذا قيل.
ومن قيلٍ إنه قرآن قرأه عليه الشياطين، قرآن لئيم، فيرد عليه «إنه لقرآن كريم»: «وما تنزلت به الشياطين»[٣].
ومن قيلٍ «إنه لقرآن كريم» ولكن دسَّ فيه ومسَّ منه الشياطين، فأصبح محرَّفا كما فعلوا بالكتب من قبل، فيرد بقوله «في كتاب مكنون* لا يمسّه إلا المطهرون* تنزيل من رب العالمين».
ثم على ضوء «كريم» إنه كريم كما الله كريم، لأنه أنعم نعم الله وأدومه. ومن كرمه عدم هوانه بكثرة التلاوة والمراجعة، بل هو دائباً غضّ طريّ، لا تزيد كثرة تلاوته إلا طلاوة وطراوة، خلاف سائر الكلام أياً كان، فإنه لا يحلوا على التكرار والترداد، وقد يرجع مُرّا إذا استمر، بخلاف القرآن الكريم: طاهر الأصل، ظاهر الفضل، لفظه فصيح ومعناه صحيح «ظاهره أنيق وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم»[٤].
وترى والقرآن هو الكتاب كيف يكون في كتاب، فما هو كتاب وكتاب؟
الجواب: أن الكتاب المكنون هو المكتوب فيه الكتاب، والقرآن الكتاب هو المكتوب، ففرق بين مكتوب ومكتوب فيه، وسواء أكان المكتوب القرآن المسجل بقلم النور على البيت المعمور: القلب المحمدي أم ماذا، أو كان القرآن المفصل بألفاظه أو معانيه أم ماذا، وإذا كان المكتوب فيه مكنوناً فالمكتوب أكنّ وآمن.
ثم «المطهرون» يعمّ من طهَّروا أنفسهم ونفوسهم فطهرهم الله تطهيراً، كمن تشملهم آية التطهير.

---

[١]). والإتيان بالخبر وقصد الإنشاء عادة جارية فيما يراد تأكيد الإنشاء، فلما يخبر بالنفي هنا فيما ينهى، يعني أنه من المنع لدرجة كأنه لا يقع أصلاً.

[٢]). الاستثناء على الأول متصل إذ يمسونه، وعلى الثاني منفصل إذ لا يمسونه.

[٣]). سورة الشعراء ٢٦: ٢١٠.

[٤]). أصول الكافي ج٢ ص٥٩٨ عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله.

ومن طهروا نفوسهم فأيدهم اللّه فيما طهروا، كمن يحذون حذوهم ويتلون تلوهم من الأولياء المكرمين.
ومن تطهروا - أخيراً - عن الأحداث والأخباث، فلو قال «إلا المتطهرون» لم يشمل إلا الآخرين، وأما «المطهرون» فهو يشمل الأولين والآخرين، لأن الطهارة فيها تعم الثلاث[1].
ثم «تنزيل من رب العالمين»: يخص القرآن المفصل النازل نجوماً، بعد المحكم النازل ليلة القدر[2] مما يدل على عدم اختصاص الكتاب المكنون بالقرآن المحكم، بعد نزوله عند النبي، أو قبله عند اللّه، أنه مكنون عند اللّه وعند نبي اللّه فقط، لا بل! هو محفوظ أينما حلّ وارتحل، وإلى القرآن المفصل، عند النبي وعند المؤمنين وإلى يوم الدين[3].
وبما أن مسّ القرآن باللسان من أخفى المسِّ وأخفه، فالنهي عن هكذا مسٍّ للمحدث، ألا يقرءه على حدث، منع خفي ينحوا منحى المرجوحية، وهو إيحاءٌ لطيف استوحاه المطهرون المعصومون كما هو دأبهم في فقه القرآن.
والمرجوحية هنا هي قلة الثواب، تحريضاً على التطهر فالقراءة، ليدرك كامل الثواب.
ومن ثم، وبعد ذلك كله في نجوم القرآن، أفتستقبلون رجومه؟
«أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ».
«أفبهذا الحديث»[4]: حديث اللّه وآياته «انتم تدهنون»: تتهاونون «ومن اصدق من اللّه حديثا».[5] «فبأي حديث بعد اللّه وآياته يؤمنون»[6] «فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون»[7].
ورغم أن حديث القرآن رزق رزقتموه «وتجعلون رزقكم» منه «أنكم تكذبون»تبديلاً بنعمة اللّه نقمة وكفراً: «ومن يبدل نعمة اللّه من بعد ما جاءته فإن اللّه شديد العقاب»[8] أتهرباً من نعمة اللّه وحرباً مع اللّه.
إنكم لا تدهنون بالكفر والفسق وأي باطل، ثم تدهنون بحديث اللّه وآياته التي هى رزقكم في المثل العليا، فأفٍّ لكم كيف تحكمون!.
أفتكذبون اللّه أنه يقدّر الموت، وليس بمسبوق فيه، ولا في أن يبدلكم أمثالكم وينشأكم فيما لا تعلمون فيدينكم بما كنتم تعملون، فلو لا تدرءون عن أنفسكم الموت او ترجعون الأرواح إذا بلغت الحلقوم.

---

[1]). التطهير الإلهي والتطهير البشري، وما بينهما من تطهير إلهي وبشري.

[2]). لأن التنزيل هو النزول التدريجي بخلاف الإنزال فإنه دفعي.

[3]). راجع سورة القدر ج٣ ص٣٧١ - ٣٨١ من الفرقان.

[4]). سورة النساء ٤: ٨٧.

[5]). سورة النساء ٤: ٨٧.

[6]). سورة الجاثية ٤٥: ٦.

[7]). سورة القلم ٦٨: ٤٤.

[8]). سورة البقرة ٢: ٢١١.

تعليم القرآن
غاية قصوى لخلق الإنسان

«بسم الله الرحمن الرحيم*الرحمن* خلق الانسان* علم البيان»:
إنها أولى الأسماء والصفات الإلهية بعد «الله» لا يسمى بها إلا الله إلا زوراً وغرورا، فهي تشمل كافة الصفات والأسماء الإلهية الفائضة على الخلق عامة، إذ هي أعم من الرحيم، فإنها لبعض الخلق خاصة، فقد ذكرت الرحيم فيما ذكرت، قرينة برحمات خاصة، ولم تذكر الرحمان إلا عامة أو قرينة برحمات عامة، مما يؤكد تفسيرها في السنة واللغة بالرحمة العامة، وفيما تذكر برحمة خاصة، لا تعني إلا شمولها لها، وكما تشمل سائر الرحمات لاختصاصها بها، فهي على أية حال أشمل من الرحيم[1]. ومن الرحمة العامة: الرحمانية، رحمة الخلق وهداية الخالق: «الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»ومن الهداية ما ترجع إليهما من صالح ذاتي أو وصفي وعارضي، وقد تستعرض «الرَّحْمَن»قسماً كبيراً من أقسام الرحمتين الرحمانية و الرحيمية، ومن أعظمها:

«عَلَّمَ الْقُرْآنَ» تتقدم على خلق الإنسان وتعليمه البيان وخلق الأرض للأنام أم ماذا؟ رمزاً إلى أن القرآن هو الرحمة التى تعادل سائر الرحمات وتتقدمها، فكتب الوحي كلها تقدمات للقرآن، وخلق الكون كله بما فيه الإنس والجان خلقٌ لمن يتوجب عليه فهم القرآن، متذرعاً كتاب التكوين آفاقياً وأنفسياً للوصول إلى كتاب التدوين: القرآن.
وإنها لنعمة كبرى ورحمة عظمى تتجلى فيها رحمة الرحمان لمن يمكنه تعلم القرآن من ملك أو جن وإنسان.
وترى أن «علّم» من تعليم العلامة[2] حتى يكون القرآن مفعوله الوحيد: أن جعل القرآن علامة لرسالة الرسول، وكرامة لمن يتعلم القرآن؟ أم من تعليم العلم، فمفعوله الأول مقدر هو كل من حمل تعلّم القرآن، من حامل رسالته الأصلية[3]، إلى حملته الفروع، وإلى عامة المرسل إليهم.
ومن لطيف الأمر أن كلا التعليمين من أعظم الرحمات الإلهية، رحمة الإعجاز: القمة، ورحمة التعليم والتزكية: القمة، والأوفق بأسلوب القرآن أن تعني «علم» كلتا القمتين.
وكما أن القرآن بين الكتب رحمة تشريعية قمة، كذلك خلق الإنسان بين الخلق رحمة تكوينية قمة:
«خَلَقَ الأْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ»

---

[1]). لقد ذكرت الرحمان ٧ مرات والرحيم ٩٥ مرة، وفي أحاديثنا: الرحمن بجميع خلقه والرحيم بالمؤمنين خاصة، وكذلك في اللغة - وتجد تفصيل البحث عن الوصفين في بسملة الحمد - علنا نوفق للوصول إليها، بتوفيق اللّه تعالى.

[2]). قد يكون علم تفعيل عَلِم فهو تعليم العلم، أو يكون من عَلَم فهو تعليم العَلَم والعلامة.

[3]). تفسير القمي عن أبي الحسن الرضا عليه‌السلام في الآية: اللّه علم محمداً القرآن، وهو من باب التفسير بأفضل المصاديق، ويناسب كذلك تعليم العلامة كما قلناه.

فالإنسان مخلوق في أحسن تقويم، مفضل على كثير من الخلق مهما ساواه آخرون: «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً»[1] فتخصيصه بالذكر هنا وعن الجان المشاركين إياه في تعليم القرآن، ليس إلا لأنه موجّه إليه أصالة، ثم إلى الجان كفرع من فروع الإنسان، لا لأنه فقط المكلف بذلك، أو هو المفضل على الخلق كله.

من ثم - وبعد تعليم القرآن وخلق الإنسان - يأتي دور تعليم البيان، وهو الزاوية الثالثة في مثلث كيان الإنسان، بما يتطلبه من الفطرة والعقل والفكرة، ولكي تكون مادة للبيان، وإلا فممّ وعمّا البيان؟!

وترى ما هو البيان؟ لكي يحتل من ميزات الإنسان قمتها! هل إنه إظهار ما في الضمير من الواقع ومن الطلبات؟ فقد يشاركه الحيوان، كلٌ مع ذوي نوعه وبحسبه، كما الإنسان مع سائر الإنسان!أو أنه بيانٌ باللسان، وبيان بالإشارة، وبيان بالقلم، وإلى سائر البيان: كافة الوسائل التي يتذرع بها ل«بيان كل ما يحتاج إليه الناس»[2] ما يحتاجه صاحب البيان أو غيره من إنسان، بيان الإفادة والاستفادة، بيان الاحتجاج او طلب الحجة على ما يرام، وترى أن للحيوان هكذا بيان؟ مهما كان له إظهارٌ لما يتطلبه بإشارة أو لسان! كلا وأنه الإنسان الذي زود بكل بيان وتبيان، بأصولها ووسائلها وفصائلها وحصائلها، فكما القرآن فيه تبيان كل شيءٍ، كذلك الإنسان فله أن يتبين من القرآن كل شيءٍ، ثم يبين على ضوئه كل شيءٍ، تجاوب كتابي التكوين والتدوين: الإنسان والقرآن! فإنسان القرآن هو مجمع الكتابين ومرج البحرين، فيا له من إنسان عالي الكيان!

فقد مُنح من الوسائل بما لم يزوَّد به سائر الحيوان، إضافة إلى أن ضميره يفوق سائر الضمائر! فبيانه - إذاً يفوق سائر البيان! وهكذا بيان عن هكذا ضمير هو الذي يميزه عن سواه فيمتاز على سائر الحيوان.

ترى لو لم يكن للإنسان بيان أكان إنساناً كما الآن؟ فدور البيان ـ إذاً ـ دور أعظم كيان، به يتعلم وبه يعلِّم، به يحتج وبه يحتج له أو عليه، به يتكامل وبه يكتمل، ثم وكل وسيلة من وسائل البيان، قلما ولساناً وسواه، يتطلب كتاباً ضخماً بدراسة فخمة، علّها توضِّح طرفاً من أطرافه «فبأي آلاء ربكما تكذبان»!.

ترى لولا أن «الرحمن... علمه البيان» من أين كان له هذه النعمة القمة السابغة، السابقة سائر النعم، الحاوية كافة القيم؟

لنأخذ مثالاً ساذجاً من وسائل البيان: اللسان وما معه من جهازات الصوت، عضلانياً وشعورياً: ينتقل شعور ضرورة أو رجحان الإفادة أو الإستفادة من القلب وزملاءه إلى الجهازات الصوتية، فتطرد الرئة، ما تحتاجه الكلمة من الهواء المخزنة فيها، ليمر من الشعب الى القصبة الهوائية إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة المحيرة للعقول، فيصوت الهواء في الحنجرة صوتا تشكله حسبما قرره الإنسان وكيفما قرر: سرعة وبطوا أم ماذا؟ ومع الحنجرة اللسان والشفتان والفك والأسنان، يمر بها الصوت، فيتشكل بضغوط خاصة في مخارج الحروف المختلفة، وفي اللسان خاصة يمرّ كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع خاص، يتم فيه ضغطه، ليصوت الحرف بجرس خاص... وذلك كله كلمة واحدة وراءها ومعها جنود الأفكار والمشاعر والضمائر والإحساسات، عوالم غريبة وكلها من فضل الرحمن الذي «علمه البيان»!

إذاً فكافة اللغات الإنسانية المبينة لما في ضمير الإنسان ـ مع سائر البيان ـ هي مما علمه الله دونما استثناء، وإن كان غيارها بما كونه اللهّ في الإنسان «فبأي آلاء ربكما تكذبان».

---

[1]). سورة الاسراء ١٧: ٧٠.

[2]). تفسير القمي عن أبي الحسن الرضا عليه‌السلام في تفسير «علمه البيان».

السبع المثاني

و القرآن العظيم

لكنهم

جعلوا القرآن عضين

«وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»[1]

فقد يُختصر الحق كله ويُحتصر في «سبعاً من المثاني والقرآن العظيم» ففي صلة ذلك الإيتاء بخلق «السماوات والأرض وما بينهما بالحق وإن الساعة آتية...»إن فيها إعلاناً صارخاً، أن القرآن هو العنصر الأصيل، وهو رأس الزاوية في الخلق كله، كما «الرحمن* علّم القرآن* خلق الإنسان* علمه البيان» خير بيان لذلك الإعلان «فبأي آلاء ربكما تكذبان»؟!.

فهنالك السماوات السبع والأرضون السبع، وهنا «سبعاً من المثاني والقرآن العظيم» وأين سبع من سبع؟

فكما أنه لو لا الساعة لبطل الخلق كله، كذلك لو لا القرآن لبطل الخلق كله، لأنه هو الذي يعرِّف لنا المبدء والمعاد، وما بين المبدء والمعاد نسخة كاملة تدوينية عن كتاب التكوين تحلّق عليه، وتوجّه اليه، الى آيات آفاقية وأنفسية، استجاشة للقلوب لادراكها.

وترى ما هي «سبعا» وما هي «المثاني» معطوفا عليها «القرآن العظيم»؟.

فهل إن «سبعا» هي السبع الطوال؟[2] والآية مكية وهي كلها مدنيات، و«آتيناك» دليل نزولها بمكة قبل آية المثاني! ثم ولا فضل لها على سائر القرآن يقتضي إفرادها بالذكر مقدما على القرآن العظيم!.

أم هي القرآن كله لأنه «كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم...»؟[3] وليس القرآن سبعا مهما كان مثاني! ثم هذه السبع من المثاني وليست هي المثاني ككل! والقرآن هو المثاني كلها! واخيرا هو عطف للشيء على نفسه أن تكون «سبعا» هي «القرآن العظيم»!.

ام هي البطون السبعة في القرآن، الخاصة بالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وذويه المعصومين عليهم‌السلام؟ وهو غير صحيح ولا فصيح، فهنا «سبعا» والبطون «سبعة»! ومع الغض عن الغلطة الأدبية فالفصيح ـ إذا ـ «القرآن العظيم وسبعةً منه»!.

لا ريب أن «سبعا» هي الآيات، حيث «المثاني» هي القرآن كله بدليل آية الزمر: «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني...» (٢٢) ولا مثاني في القرآن إلاّ هذه التي تعني القرآن كله.

فـ«سبعا من المثاني» هي آيات سبع من القرآن المثاني، ولا سبع في القرآن منضَّدة تليق بهذه المكرمة البارعة إلاّ فاتحة الكتاب[4] كما تواتر بها الحديث من طريق الفريقين، وكما أن لهذه السبع منزلتها بين سائر القرآن، كذلك

---

[1]). سورة الحجر ١٥: ٨٧.

[2]). كما يروي عن ابن عمر وسعيد بن جبير في بعض الروايات ومجاهد وهي: البقرة ـ آل عمران ـ النساء ـ المائدة ـ الانعام ـ الأعراف ـ الانفال والتوبة معا، قالوا: وسميت هذه السورة مثاني ولان الفرائض والحدود والامثال والعبر ثنيت فيها!..

[3]). سورة الزمر ٣٩: ٢٣.

[4]). هو قول علي وعمر وابن مسعود وابي هريرة والحسن وابي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة، وائمة اهل البيت اجمع.

مثانيها، وقد ذكرنا سبعا من مثانيها في تفسير السبع المثاني: فاتحة الكتاب.[1]
ولان مثانيها تفوق سائر المثاني نراها تتسمى في الروايات بـ«السبع المثاني» والنص هنا «سبعا من المثاني» وان كانت «المثاني» علّها تعم القرآن وسواه مما يثنى، وهذه السبع خير ما يثنى قرآنا وسواه، فلا تعني «سبعا من المثاني» إلاّ سبع الفاتحة وكما تواتر عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله «فاتحة الكتاب هي السبع المثاني».[2]
فـ«القرآن العظيم» قرينا وقسيما لما آتاه الله يلمح أن السبع اعظم القرآن واقواه مثانيَ، وهو الحق يقال إنها تجمع القرآن كله محكمة مختصرة، والقرآن العظيم تفسير وتفصيل لها عظيم.
و«آتيناك» في جمعية الصفات، وبَعد تاكيدي: لقد، تجمع في السبع والقرآن العظيم كافة العطيات الربانية لأعلى قممها وأعلى قيمها!.
ولو كانت للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله عطية مثلها لردفت بها، ام لو كانت فوقها لفضلت عليها، لكنها عطية منقطعة النظير في كيان البشير النذير، وعلى حد قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «ومن أوتي القرآن فظن أن أحدا من الناس أوتي أفضل مما أوتي فقد عظم ما حقر الله، وحقر ما عظم الله»[3] وايتاءُه ليس فقط نزوله، بل وقراءةً وتفهما وايمانا وتطبيقا ونشرا، وفي كل ذلك يربوا القرآن على ما سواه على مرّ الزمن، ولان فيه تبيان كل شيء، وليس في سواه إلاّ تبيان لبعض الشيء مهما كان وحيا او سواه.
و«المثاني» جمعٌ علّها لمَثنى: المَعطف، فهي المعاطف، يعطف بعضه الى بعض، وينطق بعضه على بعض، وكما يعطف الفِطَر والعقول الى نفسه، وهو متعاطف مع الكون كله، وأثناء الوادي معاطِفه وأجراعُه، وكل شيءٍ عطفته فقد ثنيته.
ام لمثنى الاثنين لما يثنى ويتجدد حالاً بعد حال من فوائده «لا يعوجُّ فيقام ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه» وكما تتكرر عجائبه لفظيا ومعنويا بقمة الاعجاز فيهما، وكما هو مثنى النزول محكما ومفصلاً.
ام من الثناء، فان القرآن ثناء على الله، وثناء على اهل الله، وثناءٌ ممن يتلوه حق تلاوته، ومثلث المثاني صادق في تلك المثاني.
و«سبعا من المثاني» وهي أُم الكتاب لها رئوس الزوايا من معاني المثاني، عطفا وثناءً وتكرارا، في نفسها وبالنسبة للقرآن العظيم، ثم ومثاني أخرى ليست فيما سواها من القرآن.
فالسبع المثاني آيات سبع تغلق ابواب الجحيم السبع، ولأنها تقضي على الرذائل السبع، ويا للسبع من مكرمات في التكوين والتدوين، سماوات سبع وأرضون سبع، وايام الأسبوع السبع كآيات آفاقية سبع، ومعها آيات انفسية سبع[4] ثم الطواف بالبيت سبع والسعي سبع ورمى الجمرات سبع.

---

[1]). راجع تفسير الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة.

[2]). منها ما في الدر المنثور ٤: ١٠٥ ـ اخرج الدارمي وابن مردويه عن ابي بن كعب قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: اقول: وقد فصلنا البحث حول المثاني واخرجنا شطرا من احاديثها في سورة الحمد فراجع.

[3]). نور الثقلين ٣: ٢٩ عن اصول الكافي بسند عن ابي عبداللّه عليه‌السلام قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: ...

[4]). هي: الفطرة ـ العقل ـ اللب ـ الصدر ـ القلب ـ اللب ـ الفؤآد، ومع الكل الروح، وهذه هي وجوه الانسانية الباطنة، ثم الوجوه الظاهرة هي الحواس الخمس، واقامة الوجه للدين حنيفا في آيتها تعني هذه الوجوه كلها بكل الوجوه.

والسبع الثاني تحلق على المثاني الآفاقية والأنفسية والأحكامية، نسخة اجمالية عن كتابي التكوين والتدوين، منقطعة النظير بين المثاني كلها.

فلمّا أوتيت يا حامل لواء الحمد «سبعا من المثاني والقرآن العظيم» فـ :

«لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ».[١]

«لا تمدن... منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى*وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى».[٢]

ترى الرسول قد يمد عينيه الى ما مُتِّعوا به رغبة فيه وطلبا له وهو اعبد العابدين وازهد الزاهدين؟ كلا! ومد العينين هنا قد يعني استعجابا من متاعهم او استعظاما لما أوتوا وهم كـافرون، لا! «أيحسـبون انمـا نمـدهم بـه مـن مـال وبنين*نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون».[٣] والرسول لم يكن ليمد عينيه باي مدٍّ، رغبة او استعظاما، والنهـي لا يدل على اقتراف سابق، فقد يكون تأكيدا لاستمرار الترك وليعلم الناس انه تركٌ مفروض فيتبعوه في تركه.

إقصر نظرك على ما آتيناك «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهـه ولا تعـدُ عينـاك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا»[٤] فـ «ما عند الله خير وابقى»... «والعاقبة للتقوى»، فلا يمدن نظرك اليهم والى متاعهم نظِرَة اهتمام، او نظرة استجمال او تمنٍّ على أية حال، فانه شيء زائل باطل، وهو معه الحق الباقي «سبعا من المثاني والقرآن العظيم»!.

وليس القصد هنا اقتناع المحرومين بحرمانهم دون تعرض للمتميعين، حين تختل الموازين الجماعية وينقسم المجتمع الى حارمين ومحرومين! وانما القصد الى معنى خاص في ذلك السياق بمكة التقية للحفاظ على كيان الدعوة والداعية والمؤمنين، والموازنة بين الحق الكبير والعطاء العظيم الذي أوتيه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والمتعـة الصـغيرة الحقـيرة التـي أوتوها! ومن ثم في المدينة القوة يتصدى لهم كما يجب، ودون طمع في مال او منال على أية حال!.

وهنا «ازواجا منهم» تقصر متاع الحياة على بعض الكفار دون بعض، والأزواج المُمَتَّعون أعم من ازواج الجنس ذكرا وانثى، ام ازواج الاقتصاد، او العقيدة كسائر الكفار فانهم ازواج، فالكفر ملة واحدة، و«ما متعنا به» هـي «زهـرة الحياة الدنيا» من اعوان وبنين، ام دُولة المال او دَولة الحال، ام اية زهرة دنيويـة فانيـة، وذلـك عـزاء اللّه لرسـوله العظيم وعلى حد قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «من لم يتعز بعزاء اللّه تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن رمى ببصره الى ما في يدي غيره كثر همه ولم يشف غيظه، ومن لم يعلم ان للّه عليه نعمة إلاّ في مطعم او ملبس فقد قصر علمه ودنا عذابه، ومن اصبح على الدنيا حزينا اصبح على اللّه ساخطا...»[٥] «وكان صلى‌الله‌عليه‌وآله لا ينظر الى ما يستحسن من الدنيا».[٦]

---

[١]). سورة الحجر الآية ٨٨.

[٢]). سورة طه ٢٠: ١٣٢.

[٣]). سورة المؤمنون ٢٣: ٥٦.

[٤]). سورة الكهف ١٨: ٢٨.

[٥]). نور الثقلين ٣: ٣٠ عن تفسير القمي بسند عن ابي عبداللّه عليه‌السلام قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله من لم يتعز... من شكى مصيبة نزلت به فانما يشكو ربه، ومن دخل النار من هذه الامة ممن قرأ القرآن فهو ممن يتخذ آيات اللّه هزوا، ومن اتى ميسرة فتخشع له طلب ما في يديه ذهب ثلثا دينه، وفيه عن تفسير العياشي عن حماد عن بعض اصحابه عن احدهما عليهما‌السلام في الآية قال: ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله نزل به ضيقة فاستسلف من يهودي فقال اليهودي واللّه ما لمحمد ثاغية ولا راغية

«ولا تحزن عليهم» لماذا ظلوا كافرين «واخفض جناحك للمؤمنين» هؤلاء القلة القليلة المؤمنة في مكة، الصابرة على كل أذى، المحاطة بكل لظى وشذى.

«لا تحزن عليهم» فهم الذين يحق عليهم ان يحزنوا لحالتهم الرديئة، ومسيرهم ومصيرهم الرديء، وانت تعلم انه قضية عدل الله لكل مسيء، وان حق الساعة يقتضيه، فدعهم ومصيرهم، فذلك هو الحزن الممنوع، وهنالك حزن ممنوح هو ان يحزن على ان الله مولاه يُعصى، وهو قضية الإيمان، وليس هو حزنا عليهم حتى يدخل في نطاق النهي.

«واخفض جناحك للمؤمنين» هنا، وفي الشعراء: «... لمن اتبعك من المؤمنين»[2]، وطبعا قضيةُ الايمان هي الإتباع ولا سيما في ذلك الظرف الحرج المرج.

والطائر يخفض جناحه لأفراخه تلطفا بها وتعطفا، فلا يطير عنها وإن في أحرج الحالات وأهرج المجالات، فمعناه هنا: ألِن كنفك لهم، ودُم على لطفك بهم ما دمت وداموا، تعبير عبير يمثل لطف الدعاية والرعاية، وحسن المعاملة ورقة الجانب في صورة محسوسة وسيرة مدروسة، لا تلفُّت منها، ولا تفلُّت عنها لانها قضية الرسالة السامية الحانية.

«واخفض جناحك» أيَّ جناحٍ، وبأي خفض يُطمئِن إليك المؤمنين، الخائفين من بأس الكافرين. فلا يَطير طيرُك، ولا يهفوا حلمك، ولا يطيش وقارك وقرارك، بل كن بهم لطيفا رؤوفا رحيما كما كان «بالمؤمنين رؤوف رحيم»[3] مع ما كان يرى من بعضهم من جفاوة، فلم يكن يجابههم إلاّ بكل حفاوة، «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر...».[4]

وهكذا كان معهم طيلة الحياة الرسالية دون أية فظاظة وغلظة وحتى بالنسبة لمن يستحقها! فضلاً عن «من اتبعك من المؤمنين»!.

«وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ».[5]

و«اني انا» تأكيد في بعدين، و«النذير المبين» محلاً باللام كحصر النذارة فيه ام حصره في النذارة، تاكيد ثالث، كأن لا شأن له إلاّ النذارة وهو شأن الداعية أمام الكل، ثم هو بشير للمؤمنين.

وقد يعني «المبين» هنا اضافة الى إبانة الحق كما يحق، إبانته لنذارته بدعوة جاهرة باهرة دون تقية وستار، وكما تلمح له «فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين»انه كان في تضييق وتقية في اصل الدعوة بداية الرسالة.

«كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».[6]

(هما الشاة والناقة» فعلى ما اسلفه؟ فقال رسول اللّه صلىاللهعليهوآله اني لامين اللّه في سمائه وارضه ولو ائتمنتني على شيء لاديته اليك، قال: فبعث بدَرَقَة (الرّس من الجلود) فرهنها عنده وانزلت عليه هذه الآية».

[1]). المصدر عن المجمع.

[2]). سورة الشعراء: ٢١٥.

[3]). سورة التوبة ٩: ١٢٨.

[4]). سورة آل عمران ٣: ١٥٩.

[5]). سورة الحجر آية ٨٩.

[6]). سورة الحجر الآيات ٩٠ - ٩٣.

«كما انزلنا» كأنها تشبيه ايتاء السبع المثاني والقرآن العظيم بما انزل «على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين»: «كما انزلنا على المقتسمين..» انزلنا عليك بما آتيناك، واين إنزال من إنزال واين مَنزل من مَنزل؟ ففي منزل القلب المحمدي خالصة النور، مشعة على العالمين، وفي منازل قلوب المقتسمين نارٌ!

وترى «المقتسمين» هم ـ فقط ـ المشركون دون الكتابيين، لان مكية السورة لا تناسب والتنديد بهم ولمّا يُبتلَى بهم المسلمون اذ لم يكونوا في مكة حاضرين؟ وذلك بيان لواقع مرير مضى منذ بداية الرسالات، ويستقبل حتى القيامة الكبرى! والقرآن يواجه عامة المكلفين في خطابات على نحو القضايا الحقيقية لمثلث الزمان! فقد يعرض اهل الكتاب في ذلك العرض العريض، ومعهم المشركون وجماعة من المسلمين، فكلٌ من المقتسمين!.

فمن المشركين «رهط من قريش عضهوا كتاب الله فزعم بعضهم انه سحر وزعم بعضهم انه كهانة وزعم بعضهم انه اساطير الاولين».[1]

وكيف انزل القرآن عليهم كما انزل على الرسول والمؤمنين؟ لانه كتاب المكلفين كافة، مهما اختلف النزول «على» في درجات، فعلى الرسول وحيا دون حجاب برسالة، وعلى المرسل اليهم بواسطة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.

ومن اهل الكتاب هودا او نصارى مقتسمون «آمنوا ببعض وكفروا ببعض».[2]

ومن المسلمين مقتسمون رغم اسلامهم، عاملين ببعض وتاركين بعضا، ام معتقدين ببعض، ومؤولين بعضا يخالف آرائهم ام اهوائهم، امّاذا من اقتسامات للقرآن.

واما «عضين» فقد تكون جمعا من اصل العُضو والعِضو بمعنى الجزء من الكل، والتعضية هي تجزئة الاجزاء، او من العَضة واصلها عضهة وهي شجرة، إذا فهي التشجير أن يجعل بعضه يشاجر وينافر بعضا، ام هي الاكذوبات: نميمة وسحرا وكهانة واساطير، وقد جُعل القرآن عضين بكل معانيها من الفرق الثلاث.

فالمشركون اقتسموا القرآن ـ على حد زعمهم ـ فيما بينهم بافترائات عدة كلها عضين: اكاذيب.[3]

---

[1]). الدر المنثور ٤: ١٠٦ ـ اخرج ابن ابي حاتم وابن المنذر عن مجاهد قال في الآية: وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن ابي جعفر وابي عبداللّه عليهما‌السلام عن قوله: «الذين جعلوا القرآن عضين» قالا: هم قريش.

[2]). وفيه اخرج ابن اسحاق وابن ابي حاتم والبيقهي وابو نعيم معا في الدلائل عن ابن عباس ان الوليد بن مغيرة اجتمع اليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم يا معشر قريش انه قد حضر هذا الموسم وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بامر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا فقالوا انت فقل واتم لنا به رأيا نقول به، قال: لا ـ بل انتم قولوا لأسمع قالوا نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمة الكهان ولا بسجعهم، قالوا: فنقول: مجنون قال: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقة ولا بحائحة ولا وسوسته، قال: فنقول شاعر قال: ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا فنقول: ساحر ـ قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا بعقده ـ قالوا: فماذا نقول؟ قال: واللّه ان لقوله حلاوة وان عليه طلاوة وان اصله لعذق وأن فرعه لجناء فما انتم بقائلين من هذا شيئا الا اعرف انه باطل وان اقرب القول ان تقولوا هو ساحر يفرق بين المرء وابيه وبين المرء واخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك فانزل اللّه في الوليد وذلك من قوله: ذرني ومن خلقت وحيدا ـ الى قوله سأصليه سقر ـ وأنزل اللّه في أولئك النفر الذين كانوا معه: الذين جعلوا القرآن عضين ـ أي: اصنافا ـ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون.

[3]). الدر المنثور ٤: ١٠٦ ـ اخرج الطبراني في الاوسط عن ابن عباس قال سأل رجل رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: أرأيت قول اللّه «كما انزلنا على المقتسمين»؟ قال: اليهود والنصارى ـ قال: الذين جعلوا القرآن عضين؟ قال: امنوا ببعض وكفروا ببعض.

واهل الكتاب آمنوا ببعض وكفروا ببعض وكما تهواه انفسهم، فما وافق كتاباتهم صدقوه زعما انه منها، وما خالفهم كذبوه زعم الافتعال، فقد جعلوا القرآن اجزاءً مجزأة كالأعضاء المعضاة المتفرقة.
وفريق من المسلمين اقتسموا القرآن عضين، فمنهم من آمن ببعض واوّل بعضا كما يهواه، ومنهم من آمن به عقائديا وكفر ببعضه عمليا، ومنهم من آمن به كهالة قدسية تُقدَّس ـ فقط ـ ظاهريا، واما في الدراسة والتدبر فلا، كما الحوزات العلمية هكذا جعلوا القرآن عضين.
ومن المقتسمين المسلمين الذين جعلوا القرآن عضين من يقول بتحريفه لفظيا بزيادة او نقصان ام في تأليفه وترتيبه، جعلاً خاطئا مسنودا الى نفس آية العضين، خلافا لنصوصٍ من القرآن الحكيم.
ومنهم من يحرفه معنويا بغيةَ الوصول الى آراءه وأهواءه، ومنهم... كل من يقتسم القرآن خلاف تقسيمه لفظيا او معنويا، ويبعضه ويشجره ضربا للقرآن بعضه ببعض ونثره نثر الدقل فتصبح آياته المتلائمة كانها متناقضة!.
«فوربك» الذي رباك بـ«سبعا من المثاني والقرآن العظيم» «لنسألنهم اجمعين» دون إبقاء على احد منهم مهما اختلفت دركاتهم في عضهاتهم للقرآن «لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون».
وترى كيف «لنسألنهم أجمعين»؟ «ويومئذ لا يُسئل عن ذنبه انس ولا جان» إن السؤال المنفي هنا غير المثبت هناك، فهنا ليس سؤال الاستعلام اذ «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام» فلماذا ـ اذا ـ الاستعلام، وهناك سؤال التوبيخ والتبكيت وهو موجَّه إلى كل المذنبين إلاّ من رحم الله.
فهنالك مسؤولية كبرى على كل هؤلآء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين، ايا كان اقتسامهم له وعضهم اياه، فانه اكبر ناموسٍ رباني عبر الرسالات طول الزمان وعرض المكان، فاي مس من كرامته مسٌ من كافة الكرامات الربانية.
وكما «المقتسمين» يُقتسمون الى ثالوث المشركين والكتابيين وجماعة من المسلمين، كذلك «عضين» بين تفرقة وتشجرة للقرآن كله كما كان في نادي المشركين.
ام تبعيضا لآياته كالكتابيين، وهما عضين عقائدي فضلاً عن العلمي والعملي.
ام تبعيضا علميا او عمليا ام هما معا كما في كثير من المسلمين، فالحوزات العلمية ـ في الأكثرية الساحقة ـ جعلوا القرآن عضين علميا، حيث يختصون البحوث الحوزوية بغير القرآن جاعلين اياه وراءهم ظهريا، ام يختصون آيات فقهية شذرا بالبحث دون سواها! ام آيات توافق نظرياتهم العلمية في بحوثهم الحوزوية دون سواها إلاّ تأويلاً لها عطفا للقرآن على الرأي.

القرآن

لا ريب فيه

(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم*ألم»
وترى ماذا تعني أمثال هذه الحروف المقطعة المتصدرة بها البعض من سور القرآن؟
فهل هي اسماءٌ لها؟ وليست إلاّ في (٢٩) سورة، وهي اقل من ربعها فلماذا لم تسم بها ثلاثة ارباعها؟، ثم للمصدَّرة

بها أسماءٌ غيرها إلاّ قليلاً منها،[1] ثم الاسماء لابد وان تُعرِب عن مسمياتها بما تحمل من معاني ولا معاني معروفة لهذه الحروف إلاّ عند أهليها!

٢ ـ ام هي تنبيهات أن آياتها البالغة ذروة معارج الإعجاز هي مركبة عنها؟ إذا فلماذا لم تتصدر بها اوائلها نزولاً كالحمد والعلق والمزمل والمدثر؟ وهي أحرى بالتنبيه لها؟ ولماذا لم تستغرق المكيّة الـ (٨٦) إلاّ في ٢٦ منها دون الـ (٦٠) الأخرى، ونراها في ثلاث من المدنيات الـ (٢٨) دون (٢٦) الاخرى منها، فمجموع المصدرة بها بين (١١٤) سورة ليست إلاّ (٢٩)!.[2]

ثم وهذه لعبة إذ توضح الواضح عند ايّ سامع لها، وهي لا تستحق ان تكون آيات كسائر الآيات ثابتة في صدروها!.

ثم وهذه الحروف لا تستغرق حروف الهجاء الـ (٢٨) وإنما هي نصفها[3] وقد تكررت مرات ومرات[4] فليست هي اذا ـ فقط ـ لهذه الإشارة المنبهة.

٣ ـ أو أنها فصول بين السور؟ وقد تحققت بالبسملات! اللهم إلاّ البراءة وهي يتيمة عنها، وهي متحققة بأسماءها إلاّ قليلاً منها! ثم ولا يجوز الفصل بما هو أجنبي عن القرآن!.

٤ ـ او أنها للإسكات؟ فلتصدَّر المكية ولا سيما أولياتها بها، وكذلك مهامُّ الآيات وإن في أوساط السور دون اختصاص بأوائلها، وأن الإسكات لا يناسب حروفا لا يفهمونها!

٥ ـ او هي مجمل معاني السور المتصدرة بها؟ فلماذا حرمت عنها أربعة أخماسها؟ ولماذا كررت في عديد منها وحرمت عنها أكثرها.

٦ ـ او هي المعاني النازلة ليلة القدر؟ فكذلك الأمر، ولماذا تحرم عنها سورة الحمد التي هي صورة باهرة عنها.

٧ ـ او أنها تعني ما يعنيه حساب الأعداد؟ ولا حجة فيها إلاّ خيالات إسرائيليات وكما زيفت بروايات إسلاميات!.[5]

---

[1]). وهي خمس: طه ـ يس ـ ص ـ ق ـ ن، ثم الباقية الـ : ٢٣ لها اسماء غيرها.

[2]). فالمكية الـ ٢٦ هي: ١ ـ الاعراف: المص، ٢ ـ يونس: الر، ٣ ـ هود: الر، ٤ ـ يوسف: الر، ٥ ـ ابراهيم: الر، ٦ ـ الحجر: الر، ٧ ـ العنكبوت: الم، ٨ ـ مريم: كهيعص، ٩ ـ طه، ١٠ ـ الشعراء: طسم، ١١ ـ القصص: ١٢ ـ النمل: ١٣ ـ الروم: الم، ١٤ ـ لقمان: الم، ١٥ ـ السجدة: الم، ١٦ ـ يس، ١٧ ـ ص، ١٨ ـ المؤمن: حم، ١٩ ـ فصلت: حم، ٢٠ ـ الدخان: حم، ٢١ ـ الزخرف: حم، ٢٢ ـ الاحقاف: حم، ٢٣ ـ الجاثية: حم، ٢٤ ـ ق، ٢٥ ـ ن، والمدنية الـ ٣ هي: البقرة: الم، آل عمران: الم، الرعد: المر فالجموع ٢٩ سورة.

[3]). وهي ا ـ ل ـ م ـ ر ـ هـ ـ ي ـ ع ـ ص ـ ط ـ س ـ ح ـ ق ـ ن ـ ك ـ ولم تذكر ١٤ ـ الاخرى: ب ـ ت ـ ث ـ ج ـ خ ـ د ـ ذ ـ ز ـ ش ـ ض ـ ظ ـ غ ـ ف ـ و.

[4]). وقد كررت الم خمس مرات، والر: ٥، وحم: ٦، وطسم: ٢، ثم في التسع الباقية مرة مرة ك: المر والمص وكهيعص و طه و يس و ص و ق و ن و طس!

[5]). في معاني الاخبار للصدوق باسناده الى محمد بن قيس قال: سمعت ابا جعفر عليه‌السلام يحدث ان حييا وابا ياسر ابني اخطب ونفرا من يهود اهل نجران أتوا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقالوا: أليس فيما تذكر فيما أنزل اللّه عليك «الم» قال: بلى ـ قالوا أتاك بها جبرئيل من عند اللّه؟ قال: نعم ـ قالوا: لقد بعث انبياء قبلك وما نعلم نبيا منهم اخبر ما مدة ملكه وما اجل امته غيرك! قال: فاقبل حي بن اخطب على اصحابه فقال لهم: الالف واحد واللام ثلاثون والميم اربعون فهذه احدى وسبعون سنة، فعجبٌ أن يدْخل في دين مدة ملكه واجل امته احدى وسبعون سنة؟ قال: ثم اقبل على رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال له يا محمد! هل مع هذا غيره؟ قال: نعم ـ

٨ ـ أو هي إسم الله الأعظم مقطَّعة في القرآن؟ ولا أعظم من «الله»: الأعظم الظاهر، ولا من «هو»: الأعظم الباطن! وأن المركب منها سلسلة حروف لا تؤلف اسما عربيّا ولا سواه! ثم ولا حجة تثبتها!

٩ ـ أو هي أقسام أقسم الله بها؟ فلمن يُقسم وهم لا يفهمونها، ولو عني بها خصوص الرسول بما يعرف من هذه الرموز فهو لا يحتاج الى أقسام إذ يصدِّق وحي ربه دونما إقسام.

١٠ ـ ثم ولا يحتمل ألاّ تحمل أية معاني أو فوائد فإنه لغو وكلام الله كله معاني وفوائد!

١١ ـ من المؤكد أن لها معاني لم توضع هي لها في أية لغة فلا يعرفها أصحاب اللغات بأسرها، فانما هي رموز خاصة بين الله ورسوله[1] اختص الله بها رسوله بعد عموم سائر القرآن لسائر المكلفين، فهي إذا صفوة القرآن كما عن الامام علي عليه‌السلام: «إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي» و«إنها مفاتيح كنوز القرآن» وإن كانت لها هامشيا بعضُ الفوائد المذكورة في العشرة السالفة.

فليس لغير صاحب السرّ التنقُّب عن معانيها، او التخرُّس بالغيب فيها، اللهم إلاّ ما ثبت منها عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، او الائمة من آل الرسول عليهم‌السلام او ما يُعرف بالتأمل أحيانا في محالِّها بقرائنِها، كالبعض مما عني منها أن يعرفها ـ تأنُّقا وتعمقا ـ أهلوها، غير المتطاولين فيها ما لم يعرفوها.

وقد تحمل هذه الرموز أنباءً غيبية في مثلث الزمان: ماضيا وحالاً واستقبالاً، مما يهمّ الرسول والأئمة الإسلامية، أو حقائق علمية معرفية واحكامية مما تختص بالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وأهليه المعصومين، وقد يبرزون منها ما نستأهلها دون جميعها، فإن منها ما لا يتحمله غيرهم وهم في ذلك درجات.

ومما يؤكد أنها تعني معاني سرية أن كلاً منها آية فذَّة في سورتها[2] او آيتين[3] إلاّ قلة قليلة منها هي ضمن آيتها.[1]

قال: فهاته ـ قال: «المص» قال: هذه اثقل واطول: الالف واحد واللام ثلاثون والميم اربعون والصاد تسعون فهذه مائة واحدى وستون سنة! ثم قال لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم ـ قال: هاته، قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: «الر» قال: هذه اثقل واطول: الالف واحد واللام ثلاثون والراء مأتان! ثم قال لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هاته، قال صلى‌الله‌عليه‌وآله «المر» قال هذه اثقل واطول: الالف واحد واللام ثلاثون والميم اربعون والراء مائتان! ثم قال: وهل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قالوا: قد التبس علينا امرك فما ندري ما اعطيت ثم قاموا عنه، ثم قال ابو ياسر لحي اخيه: ما يدريك لعل محمدا قد جمع له هذا كله واكثر منه، قال: فذكر ابو جعفر عليه‌السلام ان هذه الآيات أنزلت فيهم «منه آيات محكمات هن ام الكتاب وأخر متشابهات».

اقول: ما احسن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ترتيبا لذكر هذه الحروف مترتبا متصاعدا حسب الأعداد، ولكي يحتاروا في أمره ويندحروا عما هم يزعمون انها بحساب الأعداد في حساب اجل الامة الاسلامية رجما مضاعفا بالغيب!

[1]). في تفسير الفخر الرازي ٢:٣ روي في الخبر: للعلماء سر وللخلفاء سر وللأنبيا سر وللملائكة سر وللّه من بعد ذلك كله سر، فلو اطلع الجهال على سر العلماء لأبادوهم ولو اطلع العلماء على سر الخلفاء لنابذوهم ولو اطلع الخلفاء على سر الانبياء لخالفوهم ولو اطلع الانبياء على سر الملائكة لاتهموهم ولو اطلع الملائكة على سر اللّه تعالى لتاهوا حائرين وبادوا بائرين.

اقول: الخلفاء هنا خلفاء الانبياء المنصوصون، ثم وكما للملائكة سر خاص قد لا يعرفه الانبياء كذلك لهم سر لا تعرفه الملائكة، ولا سيما محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث لا يعرف أسراره المحمدية الخاصة غير اللّه إذ لا يتحملونها!.

وفيه روي انه عليه‌السلام قال: «ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء باللّه فاذا نطقوا به أنكره اهل الغرَّة باللّه».

[2]). كما في ٢٤ منها.

[3]). كما في حم عسق.

وكيف تكون آية او بعض آية لا تعني ايَّ معنىً، إن هي إلاّ قولة فارغة هُراءٌ وكتاب الله تعالى منها براء.

وقد نتنبأ من بعضها أن هذه الحروف التلغرافية الرمزية تعم النبيين أجمع وإن لم تذكر في كتاباتهم السماوية: «حم ١ ـ عسق ٢ ـ كذلك يوحي إليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم» فالمشار اليه ب«كذلك» البعيد البعيد في محتد الوحي ليس إلاّ حم * عسق: كذلك: الرمز المستسر «يوحي إليك وإلى الذين من قبلك» وحيا خاصا لا يعدو أصحاب الرسالات إلى المرسل إليهم!

وقد يكون بينها وبين السور المتصدرة بها ارتباطات، وإلاّ لماذا اختصت هي بها دون سواها، ولماذا لم تجتمع في سورة فذة بحيالها، اللهم إلاّ أن تحمل بعض ما مضى من وجوه سلفت من إسكاتات وتنبيهات أم ماذا؟ مما لا نتاكدها إلاّ ان يؤكدها أهلوها[2] ولتُطلب في محالها بطيّات سورها.

ومهما يكن من شيء فلا تعني أهمية خاصة للمتصدرة بها إذ خلت عنها مهامّها كالحمد والإخلاص، اللّهم إلاّ أن تكون هذه بآياتها تكفي معونةَ رموزها، فإن الحمد ـ مثلاً ـ وهي السبع المثاني: سورة هي صورة محكمة عن القرآن كله.

وقد تعني الأخبار القائلة أنها أسماء لله مقطَّعة في القرآن[3] العلامات الرمزية الخاصة بالله التي يختص بها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فهي تعني ما تعنيه الأخرى أنها رموز بين الله ورسوله، أم ماذا.

فمهما يكن من شيء فإنها من أفضل القرآن، ولها معاني «من قرءَ حرفا منها فله حسنة»[4] والحرف لفظيا كلمة جانبية، ومعنويا معنىً جانبيٌّ، فانه طرف الكلام، فان قرأت: الف ـ او ـ لام ـ او ميم، قاصدا التي في «آلم» أم ماذا، فقد قرأت حرفا لها حسنتها، كما إذا قصدتها حرفا من غيرها في سائر القرآن كما يروى عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله[5] مما يدل على أن لمفردات حروف الكلمات في الآيات معاني كما لجملاتها، فهي إذا تنحو منحى رموز القرآن، وللبحث عنها مجالات أخرى علّنا نأتي عليها.

---

[1]). كما في ست منها: يوسف ـ الحجر ـ النمل ـ ص ـ ق ـ ن.

[2]). كما في بعض احاديثنا مثل ما رواه الصدوق باسناده عن الإمام الحسن بن علي العسكري في حديث طويل قال فيه: «الم ذلك الكتاب لا ريب فيه» اي: يا محمد! هذا الكتاب الذي انزلته إليك هو الحروف المقطعة التي منها الف ولام وميم وهو بلغتكم وحروف هجاءكم فأتوا بمثله ان كنتم صادقين (البرهان ج١: ٥٤ ح ٩).

[3]). الدر المنثور ١: ٢٢ عن ابن مسعود قال: الم حروف اشتقت من حروف هجاء اسماء اللّه، ومثله عن ابن عباس وعامر والسدي وقتادة، ولا نجده مسندا عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ولا عن أئمة أهل بيته عليهم‌السلام فلا حجة فيه.

[4]). الدر المنثور ١: ٢٢ ـ اخرج البخاري تاريخه والترمذي وصححه وابن الضريس ومحمد بن نصر وابن الانباري في المصاحف والحاكم وصححه وابن مردويه وابو ذر الهروي في فضائله والبيهقي في شعب الايمان عن عبداللّه بن مسعود قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: من قرء حرفا من كتاب اللّه فله به حسنة والحسنة بعشر امثالها، لا تقول: آلم حرف، ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف.

[5]). الدر المنثور ١: ٢٢ ـ اخرج محمد بن نصر والبيهقي في شعب الايمان والسنجري عن عوف بن مالك قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: من قرءَ حرفا من القرآن كتب اللّه به حسنة. لا اقول بسم اللّه ولكن باء وسين وميم، ولا اقول: الم ولكن الالف واللام والميم.

ثم وهي قد تعتبر آيات،[1] إذا فحروفها كلمات دالات على ما تعني كبرقيات رمزية بين الله وأهل الله الخصوص كالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وأهليه عليهم‌السلام وإن كانت حرفا واحدا ك: ن ـ ق ـ ص، فضلاً عن كثراتها.[2]
وليس لنا أن نتمسك في معانيها إلاّ بُعرىً وثيقة من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله الثابتة اللائحة، دون ما يرويها أرباب السنن في روايات آحاد لا تغني في تفسير آيات مفصلات فضلاً عن تلكم المحكمات وهي مفاتيح كنوز القرآن وصفوة القرآن!
وكون هذه رموزا كسائر التأويل في القرآن لا يناحر الأوامر المؤكدة للتدبر في القرآن، حيث التدبر خاص بالممكن تفهمه، دون سواه الخاص بالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله كبعض التأويل لآيات مفصلات، وكعامة التأويل لسائر الحروف المقطعة التي لا دلالة فيها وضعيا حتى تتحمل التدبر والتأويل، فمن القرآن ما له تأويل وتنزيل، مما يتحمل تأويلاً على ضوء التنزيل، كسائر القرآن، ومنه ما ليس له تأويل ولا تنزيل لغير المعصومين عليهم‌السلام كالحروف المقطعة، والآيات الآمرة بالتدبر تعني الميسرة: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر»[3] والعربية: اللائحة: «إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون»[4] «وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا»[5] ولا عربية دلالةً ولا إنذارا بهذه الحروف فانها ليست عربية ولا أعجمية ولا أية لغة موضوعة، إنما هي حروف كأسرها، مفردة او مجموعة تتألف منها كافة اللغات، مهما اختلفت في شكلياتها، فانها متشابهة في مخارجها الصوتية على سواء.
فمهما كان التدبر في سائر القرآن راجحا او واجبا، فهو في هذه الحروف غير ممكنة اذ لا مجال فيها، اللّهم إلاّ ما ثبت في تأويلها عن اهليها، ام تخرسا بالغيب او تخرصا: «قتل الخراصون* الذين هم في غمرة ساهون»[6]: «إن يتبعون إلاّ الظن وإن هم إلاّ يخرصون»![7]
ومما يدل عليه القرآن ان هذه الحروف تحمل اشارات رمزية الى احكام ليست في سائر الآيات كما ان قوله تعالى: «واتل ما اوحي اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا»[8] فلا ملتحد للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله الا القرآن، فملتحده في احكام لا يدل عليها بيان القرآن يوجد في هذه الحروف ام وسواها، وكون القرآن بيانا للناس لا

---

[1]). ولسوف نعرف على ضوء تاملات اكثر ان لحروف القرآن وكلماتها وآياتها وسورها واسماءها ـ بترتيباتها وتركيباتها ومحالّها الخاصة، لكل ذلك إشارات كامنة يمكن استنباطها واستبطانها لحدٍّ ما.

[2]). كما نرى في كتُب القرآن وتؤيده روايات.

[3]). سورة القمر ٥٤: ١٦.

[4]). سورة يوسف ١٢: ٢.

[5]). سورة الاحقاف ٤٦: ١٢.

[6]). سورة الذاريات ٥١: ١٠.

[7]). سورة الأنعام ٦: ١١٦.

[8]). سورة الكهف ١٨: ٢٧.

ينافي عدم بيانه لهم في هذه الحروف فانها بيان بتفسير الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله كما يدل عليه مثل «اطيعوا الله واطيعوا الرسول».

«ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ»[1]

وترى لماذا «ذلك» اشارة إلى البعيد، وهذا الكتاب بين ايدينا قريب قريب؟ ثم وما هو «الكتاب»؟ وكيف «لا ريب فيه» وفيه مرتابون كثير؟ وكيف هو فقط «هدى للمتقين»؟ فما بال غير المتقين يعذبون وليس ـ القرآن لهم هدىً؟!.

ذلك لأن «ذلك» إشارة تلميحة الى علوِّ المحتد وبُعد المنزلة لربانية الكتاب ككلٍّ: معنويا ولفظيا، على كونه قريبا منّا كتابة وسماعا وتلفظا، ثم وقريبا إن تدبرنا فيه معنويا حسب الإمكانيات والقابليات، فهو اذا غريب عنا، قريب منا، جماع الغربة والقربة، التي تستحق «ذلك» مرة أخرى.

و«الكتاب» علّه أُم الكتاب لدى الله: «وإنه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم»[2] فهذا الذي تفصيله بين يديك «لا ريب فيه».

او والذي أنزل على الرسول ليلة القدر: «إنا انزلناه في ليلة القدر» نزولاً محكما: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»[3] وهذا تفصيله «لا ريب فيه».

او الذي أجمل في أم الكتاب: «سورة الحمد» هو «ذلك الكتاب لا ريب فيه».

او الذي بشر به النبيون من قبل كما نجد في كتاباتهم، فـ«ذلك» هو «الكتاب» المعهود ذكره عنهم من ذي قبل «لا ريب فيه».

ام هو كل «الكتاب» ففيه كل ما أنزل من كتاب وزيادة، فهو هو كل ما كتبه الله وأوحاه إلى أنبياءه طوال الزمان الرسالي «لا ريب فيه»... فـ «الكتاب» خبر لـ «ذلك» في هذه الخمس، و«لا ريب فيه هدى...» خبران بعد خبر.[4]

او «ذلك الكتاب لا ريب فيه»: الكتاب الخماسي المعنى لا ريب فيه! فـ «ذلك الكتاب» مشارا ومشارا اليه مبتدءٌ: و«لا ريب فيه» خبره، أو وصفه و«هدى للمتقين» خبره.[5]

فالمعنى على الترتيب: «ذلك» أمُّ الكتاب ٢ ـ المنزل ليلة القدر ٣ ـ النازل جملاً في سورة الحمد ۴ ـ الذي بشر به من قبل ۵ ـ كل الكتاب: «لا ريب» في شيء من ذلك «لا ريب فيه هدىً للمتقين» يهديهم دون ريب كما أنه لا ريب فيه.

۶ ـ «ذلك الكتاب لا ريب فيه» ۷ ـ «ذلك الكتاب» دون ريب «هدى للمتقين»!..

فسباعية الوجوه تعني سباعية المعنى دون تناحر واختلاف، والقرآن حمّال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه، وهذه كلها حسنة يساعدها أدب اللفظ ويراعة المعنى:

---

[1]). سورة البقرة ٢: ٢.

[2]). سورة الزخرف ٤٣: ٤.

[3]). سورة فصلت ٤١: ٣.

[4]). هذه الوجوه تشترك في كون «ذلك» مبتدأ و«الكتاب» خبره ثم «لا ريب فيه هدى للمتقين»خبر ان بعد خبر ام وصفان.

[5]). هذا على كون «ذلك الكتاب» مبتدأ كله. ف «لا ريب فيه» اما خبر، و«هدى للمتقين» وصفه او خبره الثاني، ام حال و«هدى للمتقين» خبره، وكل هذه صحيحة تتحملها الفاظ الآية.

وترى لماذا لم يفتتح الكتاب بـ «ذلك الكتاب» وإنما بفاتحة الكتاب، فهل إنه خارج عن الكتاب؟
الجواب انها السبع المثاني عِدلاً للكتاب، فهي هي كتاب والقرآن العظيم كتاب، واين كتاب من كتاب؟ من إحكام في فاتحة الكتاب، وتفصيلٍ في سائر الكتاب، ولتكن الحمد مشارا اليها في «ذلك الكتاب» ضمن كل مشار اليه بـ «ذلك».
ثم ترى «ذلك الكتاب» كيف يشير الى كل الكتاب ولما يكمل تفصيله مهما كمل محكمه، وليس محكمه ـ فقط ـ النازل على الرسول ليلة القدر ـ ليس هو هدىً للمتقين، انما للرسول والرسول فقط، ثم وتفصيله هدىً؟
اقول: «ذلك» نزلت حين نزلت، تعني الكتاب المفصل ما نزل منه وقتها وما لم ينزل، فانه كله في علم اللّٰه، وهو كله هدىً للمتقين بطبعه، في دوره ووقته، ثم تعني الكتاب الحاضر كله بعد تنزيله كله وتأليفه كما هو الآن، كما تعنيه «ذلك» و«القرآن» وسواهما من اسماء تعني القرآن كلّه، في القرآن كلِّه.
أو أنها تعني بالفعل ما نزل قبلها من المكيات عنايةَ الواقع الماضي والحاضر، ومن ثم تعني ما سوف ينزل الى آخر العهد المدني عنايةَ المستقبل الأكيد الذي هو بمنزلة الحاضر.
وكما القرآن والكتاب كله قرآن وكتاب، كذلك بعضه، وحتى سورة قصيرة منه كالكوثر، المتحدى بها الناكرون، فلا غروَ أن يكون «ذلك» اضافة إلى ذلك ـ تعني البعض الحاضر منه، فانه نورٌ وهدىً بأبعاضه كما يهدي بمجموعه!، كما وأن من «ذلك» سورة الحمد النازلة قبلها بأعوام، والنازلة قبل القرآن المفصل كله.
وللقرآن اسماء تعني مواصفاته بكيانه المتين ـ فانه: كتاب ـ قرآن ـ فرقان ـ مبين ـ بيان ـ تبيان ـ برهان ـ عظيم ـ عزيز ـ كريم ـ صراط مستقيم ـ حكم ـ ذكر ـ موعظة ـ نور ـ روح ـ مبارك ـ نعمة ـ بصائر ـ رحمة ـ حق ـ فصل ـ هاد ـ شفاء ـ مهيمن ـ تنزيل ـ هدىً ـ قيم ـ بشير ـ نذير ـ حديث ـ فصل ـ نجوم ـ حبل ـ مثاني ـ حجة بالغة و... فالقرآن كله يحمل هذه المواصفات وسواها كلها جملة وتفصيلاً.[1]
«لا ريب فيه» لا في كونه تفصيل ام الكتاب وما أنزل ليلة القدر، فانه: «تفصيل الكتاب لا ريب فيه».[2]
ولا في كونه كل كتاب فانه «تفصيل كلِّ شيء وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون».[3]
ولا في أنه الحمد تفصيلاً كما أن الحمد هو الكتاب اجمالاً.
ولا في أنه المبشر به من قبل حيث التصادق واقع بينه وما بين يديه من كتاب: «ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب».[4] ومثالاً عليه ما في كتاب اشعياء النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله كما مضى.
ولا في انه كله وحي السمآء حيث يشهد بآياته وبيناته: «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير اللّٰه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا».[5] «تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين».[6] كذلك ويشهد به من أوتوا الكتاب: «الذين آتيناهم

[1]). هذه الاسماء وسواها تجدها في آياتها حسب مناسباتها.

[2]). سورة يونس ١٠: ٣٧.

[3]). سورة يوسف ١٢: ١١١.

[4]). سورة يوسف ١٢: ١١١.

[5]). سورة النساء ٨: ٨٢.

[6]). سورة السجدة ٣٢: ٢.

الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به»[1] «ان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم».[2]
ولا في كونه «هدى للمتقين» كما هو لامح في النابهين غير المتعصبين. فلم يقل: لا شك فيه حيث الشاكون فيه كثير، وإنما «لا ريب فيه» حيث الريب هو شك مسنود الى حجة: «أن تتوهم بالشيء امرا فيكشف عما تتوهمه[3] فالشك منه مريب ومنه غير مريب: «ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه... وانهم لفي شك منه مريب».[4]«قالوا يا صالح... واننا لفي شكٍ مما تدعونا إليه مريب»[5] مهما كانوا كاذبين في ريبتهم: «قال يا قوم أرءيتم ان كنت على بينة من ربي... فما تزيدونني غير تخسير».[6]
فقد تكون الريبة في الدعوة أو في كتاب الدعوة، ولا ريبة في كتاب اللّه ودعاته، وقد تكون في المدعوين المرسل اليهم وهم الذين: «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون».[7]
والقرآن لا ينفي الريبة عن قلوبهم: «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا به يكسبون»«وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون»[8] «لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم»[9] «كذلك يضل اللّه من هو مسرف مرتاب»[10] وإنما ينفي الريبة عن نفسه متحديا كل مفتر مرتاب «لا ريب فيه» «تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين»[11] «وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله...».[12]

---

[1]). سورة البقرة ٢: ١٢١.

[2]). سورة البقرة ٢: ١٤٤.

[3]). مفردات القرآن للراغب الاصبهاني.

[4]). سورة هود ١١: ١١٠.

[5]). سورة هود ١١: ٦٢.

[6]). سورة هود ١١: ٦٣.

[7]). سورة البقرة ٢: ١٠.

[8]). سورة التوبة٩: ٤٢.

[9]). سورة التوبة ٩: ١١٠.

[10]). سورة غافر ٤٠: ٣٤.

[11]). سورة السجدة ٣٢: ٢.

[12]). سورة البقرة ٢: ٢٣.

فليأت من يرتاب فيه بسلطان مبين، ولا نراه منذ بزوغة حجة إلاّ داحضة تبوء بالفشل والفضيحة على المفترين، فمن اين يكون فيه ريب ودلالة الصدق واليقين كامنة في مطلعه، ظاهرة في عجزهم عن الإتيان بمثله «ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»!
«هدىً للمتقين»[1]
القرآن هدى للناس اجمعين دلالة وبيانا: «هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان» وهدىً للمتقين موعظة وتبيانا: «هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين»[2] «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» «وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا» «فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا»[3] «وانه لتذكرة للمتقين».[4]
وكما التقوى ـ وهي قبول الوقاية إذا وُقِيَ ـ درجات، كذلك الهُدى التي هي على ضوءها درجات، فمن لا يتقي، فيعاند الهدى تعنتا ورفضا لا تحصل له أية هدى بالقرآن، بل ولا يزيده إلاّ خسارا، ومن يتقي فهو يقيه كما يتقي درجات بدرجات، وكما تزيد هداه تقوى فهما تتعاملان: «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم».[5]
فمن تقوى هي تقوى فطرية وفكرية، إذا وُقي صاحبها عما يناحرهما يزيدهما وضاءَة وقوة يقبلها، والقرآن يحمل ببيناته هذه الوقاية فهو إذا هدىً للمتقين، فإن الهدى حقيقته وطبيعته، كيانه وماهيته، ولكن لمن؟ «للمتقين» الذين يفتحون مغاليق قلوبهم ويواجهونه بفطرهم التي فطرهم الله عليها، متحذّرين استهواء الأهواء والضلالات، ومتحرّين الهدى، فعندئذٍ يتفتَّح القرآن عن هداه، يسكبها في قلبٍ ترك هواه إلى هُداه.
فإذا اهتدى المتقي هكذا هُداه الأولى، ثم اتبع رضوان الله على ضوء القرآن يهديه ثانية سبل السلام: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط مستقيم».[6]
واستقبال افعال المتقين: «يؤمنون.. يقيمون.. ينفقون يوقنون» يلوِّح إلى عامة مراتب التقوى، إبتداءً من تقوى الفطرة قبل الإيمان بالقرآن وصالح الأعمال، وانتهاءً الى الهدى الفعلية إيمانا بالقرآن وعملاً صالحا للإيمان، ثم هناك مزيدٌ للتقوى بعد هذا الإيمان وبينهما متوسطات.
فلو مضت هنا افعال التقوى كـ «آمنوا.. اقامو.. انفقوا.. ايقنوا» لكانت مواصفات للتقوى الحاصلة بعد الايمان، فليست التقوى صفة لقوم خصوص آمنوا ثم اتقوا وإن صدقت لهم أكثر ممن سواهم.

---

[1]). سورة البقرة ٢: ٢.

[2]). سورة آل عمران ٣: ١٣٣.

[3]). سورة مريم ١٩: ٩٧.

[4]). سورة الحاقة ٦٩: ٤٨.

[5]). سورة محمد ٤٧: ١٧.

[6]). سورة المائدة ٥: ١٥.

فيا لاستمرارية أفعال التقوى من دلالة تعم درجات التقوى قبل الايمان جاهزا له، وبعد الايمان متدرجا الى درجاته: «يؤمنون.. يقيمون..» أن حالتهم قبول الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولمّا يؤمنوا ويقيموا إذ لم يَحِن حينه حيث لم تأت داعيته.

إذا فالقرآن «هدىً للمتقين» ولمّا يتقُّوا عقائديا وعمليا، لمّا اتقوا فطريـا وفكريـا، ومـن ثـم هـدىً للمتقـين بكافـة درجاتهم حتى القمة الرسالية لخاتم المرسلين.

كما الهداية المستدعاة في قلب الصلاة تعم هذه الدرجات:

ثم التقوى ـ كما تلوح من آياتها ـ هي على درجاتها تعم التقوى الفردية في صلة العبد باللّه، والتقوى الجماعية في صِلاتِه بعباد الله، في كافة حقولها: العلمية ـ الفكرية ـ العقيدية ـ العملية ـ السياسية ـ الاقتصادية ـ الحربية أم ماذا من مجالاتها وجلواتها، وهي على شتاتها ترتبط بحبل واحد هو تقوى اللّه، فان دين اللّه يضم كافة الحقول الحيوية تنظُّرا وتنضُّرا، سبكا لها بسبائكه المكينة المتينة، ما لا قِبَل لها لأي نظام بشري أم ماذا؟

فالقائد السياسي في دولة الاسلام بحاجة إلى تقوى سياسية بعد ما سواها وأكثر منها، كما قائد الجيش يجب أن يكون الأتقى في الدفاع عن بيضة الإسلام، ووزير الثقافة أتقى ثقافيا، أم من ذا من المتقين في النظـام الإسـلامي السـامي، حيث لا تختص التقوى بِصلات العبادات الخاصة كالصوم والصلاة، بل وكافة الصِلات والحركات والسكنات للمسلم تشملها حقيقة التقوى، التي هي الوقاية وقبولها عما لا يحمد أولاه أو عقباه في أية مجالة من مجالات، أو حالة من حالات، كما تعم وقاية الغيب والشهادة، وقايةَ كل حق وعن كل باطل، معنويا وماديا، فرديّا وجماعيا ام ماذا.

فالمتقي من شُرَط الحق يدافع ويذود عنه ما لا يحق قَدَر المستطاع، فإن استطاعها وطبّقها دون تقصير أو قصـور فهي التقوى المطلقة ولا تحصل إلاّ في دولة الحق خارجا عن صراعات الباطل وقليلٌ ما هي.

وإن استطاعها على قصور في مختلف الصراعات، تاركا للأدنى لتطبيق الأفضل الأعلى حيث لا يسطَع الجمع بينهما في مصطَلمات الحياة، فهي ـ إذا ـ التقية، فليست التقية هي الخوف والترك، وإنما هي تقوىً جانبيّة حفظـا للأهـم في ترك المهم، مما يجعل قيام الحسين عليه‌السلام تقية كما قعود الحسن تقية، ويجعل قيامات الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله في العهـد المدني، وقيامات علي عليه‌السلام في خلافته تقية، كما قعود الرسول في العهد المكي وقعود الإمام زمن الخلفاء تقية، حيث يترك المهم وقاية وإقامة للأهم في دين الله، قياما كان أو قعودا.

فالمؤمن باللّه من شُرَط اللّه مهما اختلفت الظروف والإمكانيات فاختلفت صور التقوى في مختلف الميادين.

والتقوى بصيغة مجملة نابعة من الغيب، غيب الفطرة والعقل والقلب، نابغة الى غيب الحقائق: غيب اللّه ـ غيب الآخرة ـ غيب الوحي، فالصلاة الناتجة عن الايمان بهذه الغيوب، ثم الانفاق في سبيل الله، وهي الخمس المذكورة هنا من صفات المتقين، ثلاث هي الغيب واثنان هما الشهادة الناتجة عن مثلث الغيب.

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِـنْ قَبْلِـكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».[1]

فالغيب الاوّل هو مطلق الغيب الذي يجب الإيمان به، وهو يشمل غيب الألوهية الذي لزامه غيب الآخرة، اللذان لزامهما غيب الوحي: ما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله، ومثلث الغيب هذا لزامه عبـادة اللّه: الصـلاة، ورعايـة عيال اللّه: الإنفاق!

ثم الإيمان بالملائكة من فروع الإيمان بغيب الوحي، والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، والإتيان بالصدق والتصديق به هي كلها من نتائج الإيمان بمثلث الغيب، كما الإيمان بضلعي الوحي والآخرة مربوط بقاعدة الإيمان بغيب الألوهية!

وهذه جماع أوصاف المتقين هنا وفي سائر القرآن، التي تجمعها الخمس هنا، كما يجمع الخمس أيضا مطلق الغيب.

---

[1]). سورة البقرة ٢: ٣ ـ ٤.

فالايمان بالغيب كلما كان أعمق وأعرق يضرب الى ايمان الشهود أوفق وأليق، لحدّ يجعل حياة المؤمن حياة التقوى إذ يصبح من شُرط الحق الذائدين عنه، المضحِّين في سبيله بالنفس والنفيس.
ولأن الإيمان بغيب الألوهية واليوم الآخر هما الأصل لسائر الغيوب، حتى وغيب الوحي، تراهما كحجري الأساس للتقوى، فهنا يتوسطهما سائر الغيب والشهادة، وقد تترك الأوساط: «ولقد آتينا موس وهارون الفرقان وضياءً وذكرا للمتقين*الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون».[1]
ولأن إقام الصلاة أقوم عماد في الشهادة للايمان بغيب الألوهية تراه يُقرن به ظرفا لتأثير الإنذار، وكأنه فقط من نتائجه: «.. إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكّى فإنما يتزكّى لنفسه وإلى الله المصير».[2]
ولأن اتباع الذكر الذي يحمله وحي الرسالات والكتب هو من أهم لزامات الايمان بغيب الألوهية، تراه قرينا له لتأثير الإنذار: «إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمان بالغيب...».[3]
ولأن الأصل الأهم في الغيب هو غيب الألوهية لمن جاء بقلب منيب نراه مفردا دون قرين: «وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد*هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ*من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب».[4]
إذا فالتقوى تنبع من الإيمان بغيب الألوهية، ثم غيب الآخرة، ثم غيب الوحي، ثم تضرب بها إلى مظاهر الشهود، في الصلاة كأهم الرباطات بالخالق، والزكاة كاهمها بالخلق.

القرآن
لا ريب فيه
(٢)

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».[5]
كل فرية لها سمة أو سمات، فهل هنا سمة في القرآن أم وصمة تدل على أنه ليس رباني المصدر والصدور؟ «فأتوا بعشر سورٍ مثله»: القرآن، مفتريات، والخطاب المتحدي هنا يعم كافة المكلفين من الجنة والناس أجمعين، حيث إن

---

[1]). سورة الانبياء ٢١: ٤٩.

[2]). سورة فاطر ٣٥: ١٨.

[3]). سورة يس ٣٦: ١١.

[4]). سورة ق ٥٠: ٣٣.

[5]). سورة هود ١١: ١٣ ـ ١٤.

«يقولون» المستمرة بمضارعتها تعم كافة القائلين الغائلين أن يفترى على اللّه: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا».[1]
لا فحسب بمثله أم بعشر سورة مثله، بل وبسورة «قل فأتوا بسورة مثله»[2] أو من مثله: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون اللّه ان كنتم صادقين* وان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين».[3]
والمماثلة المتحدى بها وإن في سورة هي الطليقة الشاملة لأية مماثلة في نسج العبارة ونضد التعبير، في كافة الضروب البيانية بلاغة وفصاحة، وفي كافة الحقول العلمية التي توجد في ذلك المسرح الفصيح القرآني الفسيح.
فكما أن اللّه «ليس كمثله شيء»[4] في ذات وصفة وفعل، كذلك كتاب اللّه ليس كمثله شيء في أي شيء من كتابات الأرض، ولا الكتابات السماوية غير المتحدى بها!.
«فإن لم يستجيبوا لكم» ـ وهم يكرّسون كافة إمكانياتهم وطاقاتهم تثبيتا لكونه مفترى على اللّه ـ إذا «فاعلموا أنما أنزل بعلم اللّه» حيث النازل بعلم غير اللّه له أمثال ونظائر قد تربوه أم تساويه وتوازيه، والقرآن بنفسه شهيد على ربانية مصدره وصدوره: «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...» «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون».[5]
فعلم اللّه الذي لا يتغير ولا يتدرج ولا يُنتقص، ظاهر في آياته، باهر في بيناته، والركب السريع الهريع من العقل والعلم شاهد صدق على أنه علم اللّه و«وانما انزل بعلم اللّه».
أجل، وليس القرآن بحاجة لإثبات ربانية صدوره إلى شاهد سواه، كما اللّه لايحتاج إلى ما سواه، فإنه نور وتبيان وشاهد وبرهان لا يوازيه أو يساميه أي برهان شهادةً لربانيته، ولا بيانا لما يحويه من حاجات المكلفين منذ بزوغه إلى يوم الدين: «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا»[6] ولن تجدوا في هذا القرآن إختلافا كثيرا ولا يسيرا!.
إذا «فاعلموا أنما أنزل بعلم اللّه»: «لكن اللّه يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى باللّه شهيدا»[7] حيث يشهد بعلمه في كتابه على وحيه وعلى توحيده: «وأن لا إله إلاّ هو فهل أنتم مسلمون» للّه بكامل حججه وبيناته في كتابه؟

---

[1]). سورة الإسراء ١٧: ٨٨.

[2]). سورة يونس ١٠: ٣٨.

[3]). سورة البقرة ٢: ٢٤.

[4]). سورة الشورى ٤٢: ١١.

[5]). سورة الانعام ٦: ١٩ ـ ٢٠.

[6]). سورة النساء ٤: ٨٢.

[7]). سورة النساء ٤: ١٦٦.

ذلك، ولماذا يتحدى القرآن بمثلث «بمثل هذا القرآن» و«بعشر سور مثله» و«بسورة مثله ـ أو ـ من مثله»؟
هذا ليحلِّق التحدي على مثلثه، فلا يقال قد لا يؤتى بسورة واحدة مثل سورة واحدة منه ولكن يؤتى بسور قد تماثل القرآن بعضا مّا، أم يؤتى بقرآن يماثله شطرا مّا.
فلكي تسد كافة الثغور على بلدة القرآن يؤتى بمثلث التحدي وأقله سورة مّا وإن مثل سورة الكوثر، وأوسطه عشر سور بين صغيرة وكبيرة ومتوسطة، وأكثره كل القرآن.
ذلك، وليحلِّق التحدي على كافة المواضيع القرآنية ـ العلمية ـ إضافة إلى أدبه البارع القمة، وهنا الله تعالى مصرِّح بإعجازه العلمي: «فاعلموا أنما أنزل بعلم الله»مهما شمل الجانب اللفظي الأدبي فإنه القشر في إعجازه وسائره هو اللب.
والتحديات الثلاث لا تعني الكمية المتحدى بها، بل هو الكيفية والنوعية وإن في آية واحدة، حيث الأسلوب القرآني هو منقطع النظير بين كافة الأساليب لمن سوى الله، مهما كان من عباقرة العلم والتفكير، فالمماثلة في مثلَّثها يعني منها جانب الكيفية لفظيا ومعنويا، دون الكمية إذ لا خارقة فيها.
«فهل أنتم مسلمون»؟
مسلمون كما يصفه القرآن ورسول القرآن: مسلمون للرسالة القرآنية، وهنا يصفه شاهدٌ منه عليٌّ عليه‌السلام قائلاً: «ثم إن هذا الإسلام دين الله الذي إصطفاه لنفسه، وإصطنعه على عينه، وأصفاه خير خلقه، وأقام دعائمه على محبته، أذلّ الأديان بعزته، ووضع الملل برفعه، وأهان أعداءه بكرامته، وخذل محادِّيه بنصره، وهدم أركان الضلالة بركنه، وسقى من عطش بحياضه، وأناق الحياض بمواتحه ـ
ثم جعله لا إنفصام لعروته، ولا فك لحلقته، ولا إنهدام لأساسه، ولا زوال لدعائمه، ولا إنقلاع لشجرته، ولا إنقطاع لمدته، ولا عفاء لشرائعه، ولا جذّ لفروعه، ولا ضنك لطرقه، ولا وُعوثة لسهولته، ولا سواد لوضَحه، ولا عِوَج لإنتصابه، ولا عَضَل في عُوده، ولا وعثَ لفجِّه، ولا انقطاع لمصابيحه، ولا مرارة لحلاوته ـ
فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها، وثبَّت لها أساسها، وينابيعُ غَزُرت عيونها، ومصابيح شبت نيرانها، ومَنارٌ اقتدى بها سُفَّارها، وأعلامٌ قُصِدَ بها فِجاجها، ومناهل رُوِيَ بها وُرَّادُها، جعل الله فيه منتهى رضوانه، وذِروة دعائمه، وسَنام طاعته، فهو عند الله وثيق الأركان، ورفيع البنيان، ومنير البرهان، مضيءُ النيران، عزيز السلطان، مُشرف المَنار، فشرِّفوه واتبِعوه، وأدوا إليه حقه، وضعوه مواضعه».[1]

القرآن
آيةٌ بينة رسالية
(٣)

«وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ

[1]). من الخطبة ١٨٩.

لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ».[1]

.. تحدٍ بالقرآن ـ أنه وحي السمآء ـ الناسَ وغيرهم اجمعين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، جزما بعدم إمكان الإتيان بمثل القرآن ولا بسورة من مثله: القرآن: «ولن تفعلوا»!.

وتحدٍّ بمن أنزل عليه «من مثله»: عبدنا، تحديان يتمازجان، فيضربان في أعماق تاريخ الرسالات وكتابات الأرض والسماء: «فاتُوا بسورة من مثله»: مثل القرآن من كتب الوحي في أنها وحي مهما اختلفت مراتبها، وكذلك فيمن أنزل عليه: رجالات الوحي «فاتوا بسورة من مثله»: مثل عبدنا الذي لم يدرس فأصبح مدرسا للعالمين، أو وحتى مثله في البشرية وإن كان عالما نحريرا!

فقرآن محمد ومحمد القرآن معجزتان متلازمتان فائقتان سائر المعجزات لسائر رجالات الوحي، خالدتان ما طلعت الشمس وغربت!.

التحدي بالقرآن:

نجد آيات التحدي بالقرآن في مثلث التحديات:

١ ـ بالقرآن كله: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على يأتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»[2] وهذا أشمل التحديات حيث يشمل الجِنَّة والناس أجمعين متظاهرين متظافرين أيّا كانوا وأيّان، والقرآن كما هو صادق على كله كذلك على آية منه وبينهما عوان!.

٢ ـ بعشر سور مثله: «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلاّ هو فهل أنتم مسلمون».[3]

٣ ـ بسورة من مثله ـ كما هنا ـ وهو أقوى التحديات من حيث القرآن ومَن أنزل عليه، فالقرآن: «بسورة من مثله»، وإن كانت كالكوثر ـ لا فقط بعشر أو به كله ـ ومَن أنزل عليه وإن كان مَن كان إذا كان مثله:[4] أمّيا لم تسبق له أية

---

[1]). سورة البقرة ٢: ٢٣ ـ ٢٤.

[2]). سورة الاسراء ١٧: ٨٨.

[3]). سورة هود ١١: ١٤.

[4]). الضمير الغائب في «مثله» يرجع الى «عبدنا» كما هو راجع الى «ما نزلنا» وهما معا مقصودان حيث تتحملها الآية لفظا ومغزى.

وكما في تفسير البرهان نقلاً عن تفسير الإمام العسكري عن الإمام الباقر عليه‌السلام: في الآية قوله: «فأتوا»: يا معشر قريش واليهود! يا معشر النواصب المنتحلين بالإسلام الذين هم منه برآء! ويا معشر العرب الفصحاء البلغاء ذوي الألسن «بسورة من مثله» من مثل محمد مثل رجل منكم لا يقرأ ولا يكتب ولم يدرس كتابا ولا اختلف الى عالم ولا تعلم من احد وانتم تعرفونه في اسفاره وحضوره ـ بقي كذلك اربعين سنة ثم اوتي جوامع العلم حتى علم الأولين والآخرين ـ فان كنتم في ريب في هذه الآيات فاتوا من مثل هذا الرجل بمثل هذا الكلام ليتبين انه كاذب كما تزعمون، لأن كل ما كان من عند غير اللّه فسيوجد له نظير في سائر خلق اللّه، وان كنتم معاشر قراء الكتب من اليهود والنصارى في شك مما جاءكم به محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله من شرائعه.. فاتوا بسورة من مثله ـ يعني: من مثل القرآن من التوارة والانجيل والزبور وصحب ابراهيم.. فانكم لا تجدون في سائر كتب اللّه تعالى سورة كسورة من هذا القرآن.

وفيه عن الإمام علي بن الحسين وزيادة هي: «فاتوا بسورة من مثله» من مثل محمد ـ اي: لم يختلف الى أصحاب كتب قط ولا تلمذ لاحد ولا تعلم منه وهو من قد عرفتموه في حضره وسفره ولا يفارقكم قط إلى بلد، ليس معه جماعة منكم يراعون احواله، ويعرفون

دراسة أو كتابة او قراءة: «وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون»[1]«قل لو شاء اللّه ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عُمُرا من قبله أفلا تعقلون»[2] وان تقولوا «إنما يعلمه بشر»: «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين»[3] فحيث لم يجدوا عربيا يفترون أنه علّمه، قالوا: علّمه سلمان الفارسي، خبلاً في فريتهم وخبطا عشوائيا في مريتهم، فجاء الجواب الحاسم: «لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين»! فإذا لم يات به عربي ولم يعلمه فكيف بأعجمي جاءَه في العهد المدني، وقد نزل من القرآن شطر عظيم في العهد المكي!.

۴ ـ ثم وحتى بآية فإنها قرآن ويشمله التحدي الاول وان لم ترد في خصوصها آية، حيث الآية في القرآن تعني الآية الإلهية: الدالة على كونها إلهية المصدر والصياغة بنفسها، وكما الآيات تعبيرة عن المعجزات فالقرآن آية إلهية بمجموعة ـ بعشر سور ـ بسورة ـ بكل آية آية: «تلك آيات اللّه نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين».[4]

ومهما كانت هذه الآيات درجات بالنسبة للمستدلين بها.

ولكنها كلها مصبوغة بصبغة واحدة، مساغة بصيغة واحدة فصاحةً وبلاغةً وحتى في موسيقى التعبير فضلاً عن محتوياتها.

فالقرآن آية إلهية جملةً وتفصيلاً، بآية او سورة او عشر سور أم كله، مهما اختلفت القابليات في الحصول على هذه او تلك بمختلف العقول في مختلف الحقول!.

ومن ثم فحتى لو درس محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله في المدارس كلها، واكتسب العلوم كلها لم يقدر أن يأتي بمثل هذا القرآن ولو بسورة من مثله! كيف ولم تسبق له سابقة دراسة أو تلاوة ثم أتى بالقرآن العظيم الذي يعجز دون سورة منه العالمون، ولقد كان المجال أمامهم مفتوحا، واهتمامهم الشديد بمعارضة القرآن وإبطال حجته مفسوحا، وحتى الآن لم يأتوا ولن يأتوا ولا بسورة من مثله، أفلا يدل كل ذلك على تحليق القرآن على أجواء الفصاحة والبلاغة تعبيرا، وعلى أجواء العقول في كافة الحقول، وعلى أجواء مختلف العلوم معبرا عنه، طوال أربعة عشر قرنا، وحيدا في ميادين السباق، بل لاسباق إذ لا رفاق!.

أفلا يدل كل ذلك أنه نازل بعلم اللّه؟ «فإن لم يستجيبوا فاعلموا أنما أنزل بعلم اللّه».[5]

اخباره، جاءكم بهذا الكتاب المشتمل على هذه العجائب، فان كان متقوِّلاً كما تزعمون وانتم الفصحاء والبلغاء والشعراء والادباء الذين لا نظير لكم في سائر الاديان ومن سائر الامم، فان كان كاذبا فاللغة لغتكم وجنسه جنسكم وطبعه طبعكم وسيتفق لجماعتكم او لبعضكم معارضة كلامه هذا بافضل منه ومثله، لأن ما كان من قبل البشر لا عن اللّه فلا يجوز ألا يكون في البشر من يمكن من مثله فأتوا بذلك لتعرفوه وسائر النظار اليكم في احوالكم انه مبطل كاذب على اللّه تعالى....

[1]). سورة العنكبوت ۲۹: ٤٨.

[2]). سورة يونس ١٠: ١٦.

[3]). سورة النحل ١٦: ١٠٣.

[4]). سورة البقرة ٢: ٢٥٢.

[5]). سورة هود ١١: ١٤.

«من مثله» في دراسة موسعة:
«مِن» فيما يُعني من الضمير «عبدنا» ابتدائية نشوية: فأتوا بسورة من مثل عبدنا الأمي ثم قايسوا بها سورة من القرآن، لتعرفوا البون الشاسع بينهما، فليكن نازلاً بعلم الله، وحتى إذا استويا، إذ لا مساواة ولا مسامات بين وحي الأرض ووحي السماء!.
او «مِن مثل» عبدنا في كونه عبدا وإن كان من عباقرة العلم ـ وهو أمي! ـ فأتوا بسورة من أي جن او انسان او نبيَّ او ايّا كان، ثم قايسوا بها سورة من القرآن الذي جاء به هذا الأمي، لتعرفوا ـ كذلك ـ البون بيِّنا[1] فليكن نازلاً بعلم اللهّ.
وفيما يعني من ضميره «ما نزلنا على عبدنا» ف«مِن» تتحمل الجنسية كما تتحمل النشوية الإبتدائية: فأتوا بسورة من مثل القرآن: من كتابات الوحي أيّا كان، سورة مأخوذة منها وهي مثل القرآن في الوحي، او سورة هي جنس القرآن كذلك: «قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين»:[2] أهدى من التوراة والقرآن اللذين تنكرونهما، فاذ لم يأتوا بكتاب الهي هو أهدى من هذين ـ كانهما غير إلهيين ـ! دل ذلك بيقين أنهما من وحي الله، فوحي الارض ايا كان هو أدنى من وحي السماء دنوَّ الأرض من السماء وأدنى: «فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون اهواءَهم..».[3]
فهل أتى احدٌ من اهل الكتاب بسورة من أي كتاب يقايسها بسورة من القرآن، والمجال فاسح؟ كلاّ! حيث الحاصل من هذا القياس ـ على أبعد تقدير ـ مماثلتها سورة من القرآن، او رجاحة القرآن كما هو حق التقدير، وكيف بالامكان مماثلة كلام العبد كلام الله او رجحانه عليه؟ فليكن نازلاً بعلم الله.
ترى ومن الذي يشهد هكذا؟ أنه كلام اللهّ نفسه! بل وكافة الشهداء من دون اللهّ: «وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين»: أنه ليس من كلام اللهّ! ليشهدوا في كافة مجالات القياس بقرآن محمد او محمد القرآن، أنهما نازلان من عند الله: شاهدا هو كتاب اللهّ، ومشهودا له هو رسول اللهّ، إذا فهما معا معجزة بارعة الهية ما لها من فواق!.
فهنا يصل التحدي الى الغاية أن يُطلب من ناكري وحي القرآن أن يدعوا شهداءهم ـ كلهم ـ من دون الله ان يأتو بسورة من مثل القرآن، او بسورة من مثل محمد كسورة من القرآن، ان يأتوا ويشهدوا لكم، ولكن «لم تفعلوا ولن تفعلوا» لا تأتون بمثله ومحال ان تاتوا، ولئن أتيتم فإنكم وشهداءَكم سوف تشهدون أن القرآن نازل بعلم اللهّ، إذ لا مماثلة بين ما أتاه وتأتون به!.
فكما «اللهّ يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه..»[4] كذلك الشهداء من دون اللهّ عليهم أن يشهدوا عند القياس، أو ـ ولأقل تقدير ـ أن يسكتوا عن الشهادة ضد وحي القرآن، إذ ليس لهم ايّ برهان إلاّ عجزهم عن الإتيان بمثله!.
«فان لم تفعلوا» كما لم يفعلوا «ولن تفعلوا» كما يستحيل أن يفعلوا في مثلث الزمان، ومن اي فاعل او محاول كان «فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة»: الناس النسناس هم كذلك حجارة، إذ غربت عقولهم وتخبطت أحلامهم فصمدوا على نكران القرآن، وحجته باهرة كالشمس في رابعة النهار!

[1]). هنا يجمع بين المماثلة في الامية، والمماثلة في كونه عبدا، وحتى نبيا حيث تحملهما الآية.

[2]). سورة القصص ٢٨: ٤٩.

[3]). ٥٠.

[4]). سورة النساء ٤: ١٦٦.

فكيف بالإمكان أن يدّعي محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو أعقل العقلاء حقا وعندهم ـ أن «لن تفعلوا» وهو ليس على يقين من وحي القرآن؟ أليفضح نفسه ويهدم أساس دعوته لأحيان عاجله أم آجله لو أتوا بمثله أو فوقه! ولكنه يعلن في هذه الإذاعة القرآنية «ولن تفعلوا»: محالٌ أن تفعلوا ـ لا فقط سوف تفعلون ـ حيث «لن» صراحة لاستحالة مدخولها عقليا ام واقعيا، ومن اللائح أن الإتيان بمثل القرآن محال فيهما حتى وإن كان من سائر كتابات السماء!.

وعند العجز «فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين»فحيث تجعلون أنفسكم هنا وَقودا لنار الجحود والنكران لتحرقوا به وحي القرآن، فهناك سوف تصبحون مع الحجارة وقودا للنار التي أضرمتموها من ذي قبل، ف«إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون».[1]

فكل من له دراية وذوق باساليب الكلام، وتصورات البشر عن الكون، وكل ما للبشر من مناهج ونظريات، لا يخالجه شكٌ أنَّ ما جاء به القرآن في هذه المجالات يختلف تماما عما للإنسان ونظراءه، كما يختلف الله عن مخلوقاته، فكلام الله إله الكلام كما عِلْمه إله العلم فإنه نازل بعلم الله!

فالقرآن بذاته «لا ريب فيه هدىً للمتقين» ولكن: إذا لم تكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر!

«وان كنتم في ريب»: شك كأنه مسنود الى دليل، ولا يملك أي دليل، بل الأدلة الذاتية من القرآن نفسه تؤكد أنه نازل بعلم الله.. «فأتوا بسورة من مثله..» ولكي تثبتوا أنه اختلاق خَلقي وليس من الخالق في شيء «فان لم تفعلوا ولن تفعلوا» إذ لا مثيل له وحتى لسورة منه من كتابات السماء، ولا مثيل لمن انزل إليه أن يأتي بمثله، «فاتقوا النار..»!

و«ما نزلنا على عبدنا» تلمح ان العبودية هي الظرف الصالح لنزول الوحي، لا سواها من طرق بشرية، وما أجمله تعبيرا «عبدنا» في مثلث المعنى من «عبد» ـ «نا» وحروفه الثلاثة عند اهل المعرفة «فالعين علمه بالله تعالى والباء بونه عما سوى الله، والدال دنوه من الله بلا كيف ولا حجاب».[2]

«فاتوا» إن كنتم كتابيين فمن كتب السماء، وان كنتم مشركين ناكرين لها «فاتوا بسورة» كسورة منه «من مثل عبدنا» في أميته ام وفي بشريته، او كونه خلقا ايا كان «ان كنتم صادقين»: في ريبكم: فإنه شك مسنود إلى دليل وليس لكم أيُّ دليل!

هنا يتحدى «بسورة من مثله» وأخرى «بسورة مثله» «ام يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين»[3] ومماثلة سورة من غير القرآن لسورة من القرآن مماثلة للقرآن كله، والتحدي قائم في مثلث: سورة ـ عشر سور ـ القرآن كله، أدناه سورة او آية، واعلاه كلُّه، وبينهما متوسطات ذكر منها عشر سور.

وترى ما هي «سورة» ليقف التحدي عندها، ام ماذا؟

اقول: إنها لغويا فُعلة من «سورة»: سور المدينة وحائطها، الذي يفصلها عن غيرها، فالسورة من القرآن آيات محدودة مفصولة عن محدودات أخرى، وبماذا؟ طبعا بالبسملات في بداياتها كآية منها ـ إلاّ البرائة ـ وفي نهاياتها كآية مما يليها كالسور كلها، وانما تعرف البراءة سورة في نهايتها كسائر السور، وفي بدايتها بما تواتر ان «براءَة من الله..» اولى آياتها، فالبسملة بصورة عامة ـ إلاّ التي في النمل ـ سُورٌ بدءَ ختمٍ للسُّوَر كلها، إضافة الى المعروف المتواتر القاطع من بداياتها ونهاياتها.

---

[1]). سورة الأنبياء ٢١: ٩١.

[2]). مصباح الشريعة عن الامام الصادق عليه‌السلام.

[3]). سورة يونس ١٠: ٣٨.

وقد تدل «سورة» و«عشر سور» واضرابها[1] ان القرآن كما هو الآن رتب سورا زمن الوحي، مهما نـزل في قسـم منـه سورا وفي آخر آيات، فلو لم يكن مرتبا حينذاك سورا لم يشمل التحدي القرآن كله.
او أنه يلمح الى ترتيب سابق للعهد المكي، وترتيب لحقه في العهد المدني، فيما لم تنزل سورا، ومهما يكن من شيء فلا ريب ان جمع القرآن وترتيبه لم يكن إلاّ بالوحي كما ان تنزيله وبالوحي: «إن علينا جمعه وقرآنه»[2][3] دون تدخُّل لأحد في تأليفه سورا وآيات إلاّ كما أُمر الرسول وأئتمر فألَّفه كما أُمِر.
فسورة من القرآن وإن كانت أقله كالكوثر، تتحدى الجن والإنس في الدهر كله، لا ردحا من الزمن وجماعة خاصة، فالتحدي يعم الزمن وأهله: «ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» أن يأتوا بمثله بشريّا ام إلهيّا، فان الله لم يكلِّم أنبياءه في سائر كتابات الوحي كما كلَّم محمدا في القرآن، رمزا لخلوده، وهيمنة له على وحي الأرض والسماء كله، وسبقة له في كافة ميادين السباق، بل ولا سباق معه فيها إذ لا رِفاق!.
فإنه ليس عبارات يحاولون محاكاتها، بل هو كسائر ما يبدعه الله من آيات معجزات ـ واعـلى منهـا كلهـا ـ يعجـز المخلوق من صياغته وصنعه، فهو امرٌ من الله كما الروح من أمره، لا يدرك الخلق سره مهما ادركوا من معناه.
انه آية إلهية يدل بنفسه على نفسه دون شهودٍ آخرين: «لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزل بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا»[4] فلا تعني شهادة الله بما أنزل إلاّ شهادة كلام الله أنه منه دون سواه حيث: «أنزله بعلمه»: فمعالم علم الله فيه باهرة: علما في كافة الحقول أدناها صياغة الالفاظ فصاحة وبلاغة، وأعلاها العلـوم الإلهيـة التـي لـن تدرك إلاّ بالوحي وبينهما متوسطات.
فالبشر الذي يعرف كلام البشر بوسمته ووصمته، يعرف الوسمة الإلهية دون أية وصمة في القرآن، لحد لا يستطيع وحيدها في الكلام أن يعبر عنه إلاّ انه «يؤثر»: يبقى مدى الدهر دون معارضة، وإن افترى عليه: «أنه سحر» تناقضا فاضحا واضحا.[5]

القرآن يتحدى في كافة الحقول:
١ ـ فصاحة العبارة وبلاغة التعبير وهي ابسط تحدياته واسهل معجزاته مع القمة العليا في صياغته ونظامه وتركيبه وانسجامه، أما لو صرفت الأنظار من مبانيـه الى أسراره ومعانيـه، فهنالـك تنقطـع الإشـارات وتُحيـا العِـبَر وتمـوت العبارات، حيث تُحار دونها العقول والنفوس، وتخضع الرقاب وتُطأطأ الرؤوس، فانها هبَّة الملكوت، وهيبة الجبروت، هناك الفزّة والهزّة، والعظمة والعزة، والنفائس والبزَّة ـ.
لقد كانت بلدة القرآن أملك البلاد لأساطين الفصحاء البلغاء، وزمنه أبهج الأزمنة بمَهَرة الكلام، وقد شق عليهم ظهور

---

[1]). مجموع ما ذكر فيه «سورة» في القرآن تسعة مواضع: هنا و٩: ٦٤ و٨٦ و١٢٤ و١٢٧ ـ ١٠: ٣٨ ـ ٢٤: ١ ـ ٤٧: ٢٠ ـ ١١: ١٣ ـ وعامة الدلالة فيها أن القرآن أنزل سورا، الا طوائف من آياته.

[2]). سورة القيامة ٧٥: ١٧.

[3]). راجع الى تفسير الآية في سورة القيامة ج ٢٩: ٢٨٠ ـ ٢٨٤.

[4]). سورة النساء ٤: ١٦٦.

[5]). راجع تفسير الآية ج ٢٩، ص ٢٤٦ ـ ٢٥٠.

القمة المتفرقة في الفصاحة والبلاغة غاية الشقوة، حتى تخاوصوا بحماليق الحَنق إليه، واعترفوا بعجزهم في أولى خطوة وأقصرها اعجازا وهي قشرها فضلاً عن لبها، فعاد لبيدهم بنكرانه بليدا، وبليدهم بإيمانه لبيدا، وشيبتهم وليدا، وقائمهم حصيدا، وعالِمهم أبا جهل، وسُهيلهم على السهل، وعتبتهم أعتاهم، وبولهبهم أخمدهم وأخزاهم، وعبد شمسهم آفل، ونابغتهم خامل، وحيُّ أخطبهم ميّتا، وهشامهم مخزوما، ومخزومهم مهشوما، وسراتهم أسارى، وكبَّارهم من الصَغار صِغارا، قد وسموا جباههم بنار العار والعيار ورسموا على محاسنهم وسم السوء بالذل والصغار، وجعلت كلماته في اعناقهم اغلالاً فظلوا لها خاضعين، وطاشت ألبابهم فقالوا: ان هذا الا سحرٌ مبين.[1]
تحداهم القرآن فيما يعرفون من جانب اللفظ دون جانب المعنى، به كله فعجزوا، ثم بعشر سور فعجزوا، ثم بسورة فكذلك الأمر، فضلاً عما تحداهم في سائر الحقول، ولكنهم التجأوا الى مفاوضة الحقوف عن معارضة الحروف، وعقلوا الألسنة والعقول، ورضوا بكَلم الجراج عن الكَلِم الفِصاح».[2]
فمعجزة القرآن في سائر الحقول يفوقها تفوّق المعنى على اللفظ، والعقول على الأجسام، فما اللفظ إلاّ أداةً للتعبير، وهو فيها ايضا بالغ قمة الاعجاز فضلاً عما سواها.
كما وأنَّ معجزة الفصاحة والبلاغة قد تخص أهليها، وفي خصوص العربية، والقرآن يتحدى العالمين دون خصوص العرب العرباء الفصحاء البلغاء، فالتحدي شاملٌ كافة الحقول المتسابقة ألفاظا ومعاني وحقائق.
فرغم ما تجد في كلام غير اللهّ ـ أيا كان ـ: القِمَم والسُفوح ـ التوافق والتعثُّر ـ القوة والضعف ـ التحليق والهبوط ـ الرفرفة والثقلة ـ الإشراق والإنطفاء وأمثالها من سمات الإختلاف والتغير والنقصان والملل والكلل، لا تجد شيئا من ذلك في القرآن، وفيه من صريح الحق، والبعد عن الكذب والخيال، ما يناحر مظاهر الفصاحة والبلاغة المرسومة!
فالفصاحة ركنها في وصف خيالات بعيدة عن الواقع تُجاوب الآمال الشاسعة، والقرآن كله حق وبيان الواقع! ومع ذلك فانه في أعلى قمم الفصاحة!
ومن عواملها الكذب، فاي شاعر تركه الى الصدق نزل شعره كما نزل شعر لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما، والقرآن كله صدق!
وفصاحة الكلام ـ ولا سيما الطويل المتجول في مختلف الحقول ـ لا تتفق إلاّ في بعض دون بعض، والقرآن كله في قمة الفصاحة!
ومن طبيعة الكلام مهما كان فصيحا أنه يبلى على التكرار والترداد، والقرآن لا يُبلى على ترداده، بل يزهر ويبهر اكثر واكثر.
ومنها وحتى في الأشعار مختصة ببعض المجالات دون اخرى، والقرآن زاهر في كافة المجالات!
ومن نضارة الكلام وطراوته أن ينحوا منحى الزهوات والشهوات والوعود الفارغة، والقرآن مقتصر على ايجاب عبادات، وتحريم حرمات، والحث على ترك مشتهيات، وأسر اهواء، وسلب حريات، وهو مع ذلك في أرفع قمم الفصاحة والنضارة.
فالتعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية وحتى في موسيقاه، إنه طريق عاقم غير مسلوك، وحتى ولأنبياء اللهّ، فكيف بسائر الناس مهما بلغوا مبالغ الأدب في التعبير، فهي طريقة خاصة بالقرآن نفسه، لا تضاهيها وحتى سائر كتابات السماء، فان اللهّ ما اراد في سائر كلامه ما اراده في القرآن من صيغة معجزة خالدة، ولكي تتم حجته فيه، وتطمّ ربوبية العبارة والتعبير على مرّ الدهور.
فمن ذا الذي يجرء على محاولة او خيالها واحتيالها لمعارضة القرآن، وحتى في هذه الناحية التعبيرية، اللهم إلاّ من

---

[1]). قسم من هذه العبارات ملتقطات من كتاب الدين والإسلام للإمام محمد حسين آل كاشف الغطاء.

[2])... نفس المصدر السابق.

سامح عن عقله، وغره غروره وفضح نفسه، كمسيلمة الكذاب حيث عارض سورة الفيل بتقوّله الخواء الخيلاء: «الفيل ما الفيل وما ادراك ما الفيل له ذنب وبيل وخرطوم طويل» كما ويخاطب سجاح النبية: «فنولجه فيكن ايلاجا ونخرجه منكن اخراجا» وثالثهما طائش من حزب الثالوث معارضا سورة الحمد: «الحمد للرحمن. رب الأكوان. الملك الديان. لك العبادة وبك المستعان. إهدنا صراط الايمان» وامثالها من تقولات وقفت لحدها دون تكرار، حيث لم تجلب إلاّ الفضاحة والاختجاج! بديل الفصاحة او الاختلاج.

وإن لاسلوب القرآن ميزته الإلهية الخاصة تمتاز آياته عن غيرها في اي كلام، وحتى افصح من نطق بالضاد: النبي محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وصنوه علي عليه‌السلام، حيث يظهر ويزهو كالشمس في رابعة النهار.

وما تصدى لمعارضته لفظيا ـ منذ نزوله حتى الآن ـ الا مأفون الرأي مايق العقل، وإن تعجب فعجب من خطيب مصقع وفارس لا يُقمع، لما تصدى للقرآن أفحم وتبلد، وأبكم وتلدّد.

فهذا مسيلمة وسجاح واضرابهم من الاولين والمتنبي والمعري وامثالهم من الآخرين، كل بزعمه أتى بآيات تضحك منها الثكلاء وتبكي حروف الهجاء.

فيا من فجرّوا اليوم من العربية جداول وأنهارا، وجلوا من خرايدها ثيبات وابكارا، واجروا المحيط باقرب الموارد من قاموس لغاتها، وجاءوا بالوسيط والبسيط في مجمع البحرين من حريري مقاماتها، تعالوا تعالوا بمن يساندكم متسابقين فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين.

القرآن في اقل تحدياته يتحدى بسورة وآية تشملها فيما تشمل «ان يأتوا بمثل هذا القرآن» ولكنهم قد يُتحدون بآية: «وقيل يا ارض ابلعي ماءَك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين» وليست هي عديمة النظائر او قليلتها، حيث الآيات كلها آيات تعني أنها دلالات ربانية في الفاظها ومعانيها، فضع نظرك أنّى شئت من بيناته، وسرِّح فكرك في أية آية من محكماته، تجدها شقيقة لتلك «كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله»!

يا من يخلد بخلده معارضة القرآن مهما كدحت وسعيت واتعبت نفسك واعييت فقد تقحّمت يا خراشة على منيع سور، وتهجمت يا فراشة على بركان نور، فما أجرأك يا هذه على أن تخترق! وما أحراك إذا أن تحترق، وأنى لك التسنُّم لتسنّي صعود تلك المزالق![1]

آية من القرآن ان كانت في رسالة كانت عينها، ام في خطبة كانت وجهها وزينها، ام في قصيدة فقلادة جيدها، مهما كانت حافتُها كلام النبي، او حافَتها كلامٌ نبيٌّ!

وجملة من جمله إن افردتها بهرت، وان ضممتها في عقدها اعجزت وقهرت، فهي على كمال إلفهها بأخواتها، وارتباطها بلِداتها، تامة بنفسها، قائمة بذاتها، فهاك بعض الآية «.. قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعُلِّمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباءكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون».[2]

فهي برمتها كبعض آية جملة مستقلة، ثم قل ـ يلعبون ـ مستقلة، وبلا «يلعبون» ودون «في خوضهم» ودون «ثم ذرهم» كلها مستقلة، استقلالات خمس في آية! ان ضممتها الى اخواتها سطعت وان افردتها لذاتها برعت وشعَّت! متجلية ببهجة القدرة، متحلية بخالص العزة، تجمع السلاسة الى الرصانة، والسلامة الى المتانة، ولا تحسبنها آية او آيات عدة، فانها كلها او جلّها لو فتحت النظر واجليت البصر، ففيها من خمس وما زاد، الى عشر ويزيد، فخذ عشرا من «١ ـ حم. تنزيل الكتاب ٢ ـ من الله ٣ ـ العزيز ٤ ـ الحكيم ٥ ـ غافر الذنب ٦ ـ وقابل التوب ٧ ـ شديد العقاب

---

[1]). هذه منا وملقطات من الإمام كاشف الغطاء.

[2]). سورة الأنعام ٦: ٩١.

٨ ـ ذي الطول ٩ ـ لا إله إلاّ هو ١٠ ـ اليه المصير»! تصلح كل واحدة عنوانا لخطبة، ومدارا للبحث كراسا ذا الطّول بقصر ام طُول!

ثم ترى القرآن في اعلى قمم الفصاحة والبلاغة لا في حقل واحد، رغم احوال البلغاء المختلفة غير المؤتلفة، فامرؤُ القيس بليغ اذا ركب، والنابغة اذا رهب، والأعشى اذا طرب، وزهيرا اذا رغب! والقرآن بليغ حيثما كان!.

أيها المدعي معارضة الفصاحة القرآنية او بلاغته، الذين عارضوا القرآن وهم يعيشون وحيه كانوا اسعد منك في البلاغة، واروي في العربية زندا واكثر مراسا واقوى أمراسا فانهم اصلها الاصيل، ثم هم اشد على القرآن عداوة واعمق نكاية، إذ حادهم وتحداهم، عاب آلتهم وسفّه احلامهم، ونكس اعلامهم، وكسر اصنامهم، وفعل بهم الافاعيل وجاءهم بالاهاويل، وهم على ما هم لما سمعوه طاشت البابهم وتقطعت اسبابهم ومزقوا معلقاتهم، وافتضح من عارضه لحد انكرها وحمّلها على غيره.

٢ ـ عدم الاختلاف فيه:

«أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختِلَـفاً كَثِيراً».[1]

فالتدبر في مجموعة هو جعل بعضه دَبر بعض بُغية إنتاج معاني جمعية وجامعة اضافة الى مفردات، فالتدبر في القرآن حقه باستنطاق بعضه ببعض وتدليل بعضه على بعض يسفر عن كمال التلاءُم والوئام بين آياته البينات دون أيِّ اختلاف، لا في آياته مع بعض، ولا فيه مع الواقع، ولا متطلباتِ الفطرة والحياة، ولا في الفاظه فصاحة وبلاغة ووزنا، فابواب الاختلاف السبعة الجهنمية مغلقة على القرآن! حيث التعبير فيه منقطع النظير لا يتفاوت فصاحة وبلاغة ووزنا ولا معنى، رغم تفاوت الحالات في نزوله نجوما سورا وآيات، في العهد المكي المغلوب المضايَق، والعهد المدني الغالب المضايِق، في الحرب وفي الصلح، وفي متضادة الحالات، نرى آياته البينات في تناسق مطلق شامل كامل، في كافة المجالات التي جالت فيها، وكافة الحقول التي قالت كلمتَها فيها.

فظاهرة عدم الإختلاف، والثبات، هي الطابع الرباني لكلامه المجيد، الذي لا يوجد في اي كلام من اي متكلم، حيث الخلق ايّا كان متحول متكامل دون أي ثبات أو وقفة، نازلاً وصاعدا أم ماذا، فحالة التغير باستمرار، لزام الكائنات غير الإلهية مهما كانت في قمم الكمال كأنبياء الله!

فالإختلاف المستمر الدائم من حال الى حال، من باطل الى صحيح والى أصح، من مستوى الى مستوى، ولا سيما في ردح طائل من الزمن، هذا الاختلاف هو لزام الكائن غير الإلهي أيا كان، حيث لا يحيطون بكل شيء علما، وهو بكل شيءٍ محيط، فترى من عباقرة الفكر في مختلف الحقول العلمية مَن يؤلفون كتبا علمية طوال زمن، فيها اختلافات حسب الحالات والبيآت التي يعيشونها، والتجربيات والتفكيرات المتواصلة التي يعملونها، ثم واخيرا وبعد كافة التدقيقات تجدها وفيها اختلافات او اختلاقات او تكاملات! ولكنما القرآن النازل طوال ثلاث وعشرين سنة في تضاد الحالات وتناقضاتها لا تجد فيه ايَّ اختلاف «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» لا قليلاً، حيث القلة القليلة من العلم ينتج الإختلاف الكثير، وليس في القرآن اي اختلاف، من كثير ولا قليل.

لا اختلافا في فصاحة العبارة وبلاغة التعبير، فان آيَهُ منسقة على نسق واحد لا اختلاف فيه ولا اختلال، ولا فيما يحمله من معاني في مختلف الحقول، مما تراه واضحا عندما تتدبر اعمال اديب او مفكر او فنان او سياسي او اقتصادي او اخلاقي او اجتماعي او عسكري او ايّا كان.

ولكنما القرآن مع ما يحمل من منهج التنظيم للنشاط الإنساني فرادى ومجتمعات، بشتى الملابسات التي تطرأ في الحياة، ومنهج التقويم للإدراك البشري، ومنهج التنسيق بين الإنسان جلمة وتفصيلاً في جميع أجياله ومستوياته واحواله، وبين هذا الكون الذي يعيش فيه، ثم بين دنياه وأخراه وثم وثم... تجد فيها كلها تلائما ووئاما تاما دون ايِّ

---

[1]). سورة النساء ٤: ٨٢.

اختلاف.

فما من مذهب بشري او نظرية إلاّ وهو يحمل الطابع المتفاوت، جزئية النظرية والرؤية، والتاثر الوقتي بالمشاكل الوقتية، وعدم الحيطة بالتناقضات التي تؤدي الى الإصطدام بين مكوناتها، والى مئآت المئآت من التضادات الناشئة من طبيعة الكائن المحدود غير الإلهي «فما أوتيم من العلم إلاّ قليلاً».

إن القرآن منهج حياة، متوفرة فيه نواميس البشرية في كافة أحوالها وأطوارها، يعالج النفس المفردة، والأفراد المتشابكة، والمجتمعات الشائكة المتعاركة، كل ذلك بالقوانين الملائمة للفطرة، والواقع، ومتطلبات الحياة الراقية، يعالجها كلها علاجا عاجلاً او آجلاً، متناسق الخطوات في كافة الجهات، في الوقت الواحد، فلا يغيب عن حسابه احتمالة من الاحتمالات، ولا حالة من الحالات الكثيرة المتشابكة، لأن مشرِّع هذه القوانين هو خالق الفِطَر والكائنات.

وأما النظم غير الإلهية فهي على قصورها الذاتي، متأثرة بملابسات الحياة، وقاصرة على الحيطة بجميع الاحتمالات، فقد تُعالج مشكلة فردية وتخترق مشكلة اجتماعية أم فردية أخرى.

ومهما ادعى المدعون ان في القرآن تناقضات واختلافات فهي تظهر بعد التدبر في آياته أنها ملائمات متوافقات، ولحد الآن ما ثبت اي اختلاف او غلطة لفظية فضلاً عما سواها، رغم ما يوجد في العهدين آلاف الاغلاط والمناقضات، مما تؤكد ان التوارة والانجيل الحاليين تأثرا بكثير من الخرافات والأساطير.[1]

فمن المستحيل عقليا وواقعيا كون القرآن من عند غير الله، وطابع الربانية ظاهر في مظاهر عدم الإختلاف فيه: آياته مع بعض لفظيا ومعنويا، ومع الواقع الكوني والتطلّب الفطري والعقلي والفكري، ومع الحاجيات الحيوية التي يعيشها الإنسان ايًّا كان!

لذلك ترى جملاته تسمَّت بآيات «تلك آيت الله نتلوها عليك بالحق»[2] تدليلاً أنها كلها تحمل سمات إلهية، وبَصَمات ربوبية، مكتوبة بقلم الوحي الأعلى، خارجة عن وصمات غير الله، «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيها اختلافا كثيرا».

٣ ـ بعلم الغيب ومطلق العلم:

نجد بِطيَّات كثير من آياته البينات تحديات بعلم الغيب، ومطلق العلم، الذين لايحصلان بالوسائل غير الإلهية، اللهم إلاّ بالوحي.

إنه يتحدى بالعلم جملة: «ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين»[3]«وانزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء»[4] «ان هذا

---

[1]). يقول المسيحي الفاضل «يا ركز» ان في الكتب المقدسة ثلاثون الف غلط، والقسيس «ميل» و«كريستاج» ينهيانه الى نيف ومائة الف غلط، و«شولز» ان اغلاطها لا تحصى، وفي دائرة المعارف البريطانية والفرنسية أنها زهاء مليون غلط وكما يعترف بهذه الاغلاط والاختلافات في الكتب المقدسة كثيرون مثل: اكهارن ـ كيسر ـ هيس ـ ديوت ـ ويز ـ فرش راجع كتابنا: المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية.

[2]). سورة البقرة ٢: ٢٥٢.

[3]). سورة الأنعام ٦: ٥٩.

[4]). سورة النحل ١٦: ٨٩.

القرآن يهدي للتي هي اقوم».[1]
وكما يتحدى بالعلم تفصيلاً، ونموذجا واحدا من تحدي التفصيل: «ومن آياته خلق السماوات والارض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير»[2] حيث تذكرنا بملاحم علمية غيبية ثلاث:
١ ـ إن في السماوات دوابا كما في الأرض: «وما بث فيهما من دابة» ولم يصل العلم ـ الغازي للفضاء ـ حتى الآن الى التأكد من وجود جوٍّ للحياة او نباتات في بعض الكرات، فضلاً عن دواب هناك كما في الأرض!.
٢ ـ «وهو على جمعهم» مما تبرهن ب«هم» وهي لذوي العقول، ان من دواب السماوات ذوي العقول كما للأرض، مهما لم نعرف اسمائهم وسماتهم، كيف ونحن نجهل وجود أيَّة حياة في الكرات.
٣ ـ ان عقلاء الأرض والسماوات ـ وعلّ سائر دوابهما ايضا ـ سوف يجتمعان، حيث الجمع هنا: «وهو على جمعهم اذا يشاء قدير» لا يعني يوم الجمع وان شمله، فانه الجمع بعد البث، فكما الله بثهما فيهما بعد خلقهما، كذلك هو جامعهما «إذا يشاء»: في مستقبل نجهله! ـ
وهل المواكب العلمية الغازية للفضاء وصلت حتى الآن الى زاوية من هذا المثلث الغيب البارع الذي تحمله آية واحدة من القرآن؟!.
وسوف تمر عليك العشرات من هذه الآيات العلمية، وقتية او زمنية ام ماذا، بطيات أياتها،[3] التي تحمل فيهما تحمل: وحيها ـ ونبوة نبيها ـ وصدق أنباءها واقعيا، كما وسائر الآيات تحمل الأولين دوما، كما وتحمل الثالثة لمن أمعن.
وانا كطالب صغير من طلاب علوم القرآن أتحدى جميع العالمين بما يتحداهم القرآن ان يأتوا بحديث مثله، وإن في سورة او آية كاملة الدلالة، او ان ياتوا منه ما يعارض العقل والفطرة او قانونا علميا ثابتا او ايا من الثابتات آفاقية او أنفسية.. ارضية او سماوية..
وأنا على يقين أنهم «لن يفعلوا» كما «لم يفعلوا» «ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» تظاهرا في اي حقل من حقوله لفظية ومعنوية، ولو كان لَبان ممن يجدّون السير في معارضته، ويتواكبون في مخالفته.
لذلك تجد القرآن يعتبر نفسه المعجزة الوحيدة الخالدة الكافية، محلقا على كافة صنوف المعجزات في كافة النبوات ، فانها كانت كلها وقتية عابرة، والقرآن زمنية شاملة تبقى ما بقي الدهر، زاهرة مشرقة في رحاب تقدم العقل والعلم اكثر واكثر، وعلى حدّ تعبير تلميذ الامام علي امير المؤمنين عليه‌السلام ابن عباس: «إنّ للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن»!
ويا لها من معجزة تمشي مع الزمن إماما أمام العقل والعلم يقودهما الى اعماق الغيب ليهدي أتباعه للتي هي أقوم!
فطالما طالبوا هذا النبي ان يأتي بما أوتي رسل الله، رغم ذلك تجده دوما يوجههم بالقرآن لأنه أدل وافضل مما اوتوا، وفيه الكفاية حجة للعقل والعلم دون الحس والبصر فقط، كما في الآيات المحسوسة من ذي قبل، التي تعودوا بها طوال الرسالات، ثم فوجئوا بآية وحيدة منقطعة النظير هي القرآن: «وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين. أو لم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم يعلم ما في السماوات والارض والذين أمنوا بالباطل وكفروا بالله اولئك

---

[1]). سورة الاسراء ١٧: ٩.

[2]). سورة الشورى ٤٢: ٢٩.

[3]). في كتابنا «العلوم التجريبية بين الكتاب والسنة».

هم الخاسرون»:[1] فشهادة الله في كتابه النازل ويتلى عليهم كافية، وأكفى من شهادته في الآيات الحسية العابرة التي تُحدُّ بحدود رسالاتها، ولكن هذه الرسالة الاخيرة لا حدَّ لها حتى يكتفى بها بآيات محدودة.

ترى لو ان محمدا اوتي ما اوتي رسل الله من آيات وقتية مع رسالته الخالدة، فكيف كان بالإمكان أن يؤمن به العالمون بعد موته وانقضاء معجزاته، وكما لا يمكن عقليا الإيمان بالرسالات الماضية، لا على ضوء كتاباتها إذ معجزة فيها، ولا معجزاتها التي ماتت بموت أنبياءها، وغبرت بما قُبروا، اللّهم إلاّ بما يشهد القرآن المعجز بذاته بآياته وبيناته!.

فعلى المرسَل إليهم أن يطالبوا رسولهم بآية تدل، لا كما يهوون ف«لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض» ولكنما المبطلون كانوا ولا يزالون يطالبون صاحب هذه الرسالة بمثل ما أوتى رسل الله من قبل: «وإذا جاءَتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته..»[2] «فلما جاءَهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما اوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكلٍّ كافرون. قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين».[3]

فالآيات الدالة على النبوات، منها آيات قد تكذَّب بتهمة السحر لأنها بصرية، ولكنما القرآن آيةُ بصيرة: «هذا بصائر للناس» «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاّ أن كذَّب بها الاوَّلون وآتينا ثمود الناقة مبصِرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلاّ تخويفا»[4][5] آيات تخويفية وقتية قد يكذَّب بها، لذلك بدلنا بها آية عقلية علمية زمنية لا تقبل التكذيب إلاّ ممن سامح عن عقله او علمه.

فهل بالامكان تكذيب آية القرآن ومعجزته وهي تعيش الطول التأريخي والعرض الجغرافي دون فناء وبلاء، فانما تزداد على تقدم العلم نورا وبهورا!

لذلك لا ترى لصاحب هذه الرسالة آيات معجزات كمثل التي لرسل الله، اللهم إلاّ هامشية عابرة لم تؤصَّل، ولذلك لم تسجَّل في آية القرآن إلاّ شذر كشق القمر والمعراج، ولهما ما لهما من ميزّات على سائر الآيات البصرية كما نفصلها في طيات آياتها.

---

[1]). سورة العنكبوت ٢٩: ٥٢.

[2]). سورة الأنعام ٦: ١٢٤.

[3]). سورة القصص ٢٨: ٤٩.

[4]). سورة الإسراء ١٧: ٥٩.

[5]). يذكر من الاسباب في عدم نزول آيات تخويفية عينية في الآيات التالية: السورة ٦: ٤ ـ ٢٥ ـ ٣٥ ـ ٣٧ ـ ١٠٩ ـ ١٢٤ و٧: ١٣٢ ـ ١٤٦ ـ ٢٠٣ و١٠: ٢٠ ـ ٩٧ ـ ١٠١ و١٣: ٧ ـ ٢٧ ـ ٣٨ و١٦: ١٠١ و٢٠: ١٣٣ و٢١: ٥ و٢٦: ١٥٤ و٢٩: ٥٠ و٣٠: ٥٨ و٣٦: ٤٦ و٣٧: ١٤ و٤٠: ٧٨ و٤٣: ٤٨ و٥٤: ٢.
ومنها ما تذكر سببا آخر في عدم نزول هذه الآيات وهو فوضى اتباع الناس فيها يهوونه من آيات ثم يكذبونها.
ثم وآيات تثبت نزول آيات النبوة على محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله هي ٣٠: ٥٨ و٦: ١٢٤ و٣٦: ٤٦ و٣٧: ١٤ و٥٤: ٢.
وحاصل جمع الآيات حول آيات النبوة المحمدية أنها تركز على آية القرآن الخالدة كاصل ثم تذكر بصورة عامة او خاصة آيات هامشية لهذه الرسالة، وتنفي أصالةَ الآيات الحسية الوقتية لها ولا سيما التي كذب بها الأولون، والتي يهوونها ولا يصدقون.

واذا كانت سائر الآيات تدل على نبوات اصحابها وما يدعون من وحي السماء، شهادات منفصلة عن تلكم النبوات، فآية القرآن شهادة ذاتية على وحيها ونبوة نبيِّها دون انفصال، اذا فهي ادلّ وأقوى من سائر الآيات، دلالة ذاتية وخلودا ضاربا في اعماق الزمن.

فلم يكن المرسل اليهم في سائر النبوات يطالبون أصحابها بتكلم الآيات إلاّ تدليلاً لاثبات نبواتهم، دلالة النظير على نظيره، حيث الوحي آية غير ملموسة، فلتدل عليه آية نظيرة لها في كونها فعل الله كيفما كانت ـ ولا بد ـ ملموسة.

ولكنما القرآن آية هذه النبوة، وهي نفس الوحي النبوة، آية تُقرء وتُسمع وتُفهم، تدل بنفسها على آية الوحي النبوة، وعلى صدق مدعيها، كما تتوسط بين النبوة والرسالة حجةً تثبتهما: «يس. والقرآن الحكيم. انك لمن المرسلين» حيث يستدل بحكمة القرآن في صيغة القسم ـ التي كلها في القرآن برهان ـ يستدل بها لإثبات دعوى سابقة: «يس»: يا سامعا للوحي! وهو النبوة ـ وأخرى لاحقة: «انك لمن المرسلين»: الرسالة التي هي بعد النبوة النبوئة.[1]

اذا فالقول: إن المعجزات انما هي للعوام الذين عقولهم في عيونهم، دون الخواص المميزين الحق عن الباطل، إنه هراء، حيث المعجزات انما تثبت النبوات، لا الأحكام الرسالية التي ياتي بها رسل الله، اذ لا صلة بينها وبين تلكم الأحكام، وانما هي آيات النبوات: «ورسولاً الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربي أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين».[2]

فتراها تعتبر هذه الآيات المعجزات آية واحدة لوحدة الدلالة والإتجاه، واخيرا أن هذه الآية هي آية الرسالة، وليست أصيلة كالقرآن، وانما هي وسيلة لاثبات نبوة المسيح، فما يقول ـ إذا ـ عن الله حق لا مرية فيه، دون أن تثبت أحكاما مسيحية، إذ لا صلة بينهما.

ثم آية القرآن القاطعة الخالدة، الذاتية، لا تكتفي بنفسها في اثبات ما يحملها من أحكام عقلية ام ماذا ـ اللّهم إلاّ كونها وحيا ـ فتراها إذ تستعرض مواضيع أحكامية أم سواها، هي بحاجة الى براهين، تراها مصحوبة ببراهين ترى كما تناسبها وتثبتها بما لا فواق لها، وكما تراها في طيات آياتها هنا في «الفرقان»!

«فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُها النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ»

انه ليس الكافرون كلهم وقود النار وان كانوا كلُّهم بها يُضرمون وفيها يتّقدون، حيث الوَقود الصِّلاء هو الذي تتقد به النار: «قوا انفسكم واهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد»[3] وهؤلاء الناس كفار خصوص كالمكذبين بالله ورسالاته لا كل مَن يستحقون النار: «ان الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا واولئك هم وقود النار*كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا..»[4] كما وتشهد آيات صلي الجحيم: «فأنذرتكم نارا تلظى*لا يصلاها إلاّ الأشقى*الذي كذب وتولى»[5] اذا فصَلْيُها مخصُوص بالأشقى، طالما الشقي يدخلها،

---

[1]). حيث النبوءة وهي خبر الوحي تتقدم على الرسالة، ولكنما النبوة وهي رفعة الرسالة هي بعد الرسالة كما نبحث عنها في آياتها، ونبحث عن الوحي والنبوة والرسالة مفصلة في مناسباتها.

[2]). سورة آل عمران ٣: ٤٩.

[3]). سورة التحريم ٦٦: ٦.

[4]). سورة آل عمران ٣: ١١.

[5]). سورة الليل ٩٢: ١٥.

ولو كان صليها ـ فقط ـ دخلوها لعمَّ الشقي والأشقى دون اختصاص بالأشقى!
فالصَّلْي هو الإيقاد كما الإصطلاء استيقاد: «أو آتيكم بشهاب قَبَس لعلكم تصطلون»[1] وكما الصِّلاء هي الوقود.
وترى ما هي الحجارة القرينة للناس الوَقود الصِّلاء؟ علّها الأصنام الأحجار التي كانوا يعبدونها: «انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون»ولكنما الأصنام لا تختص بالمصنوعة من الأحجار، فعلَّها هي وحجارة أخرى تصلح للصِّلاء كأقوى الوقود وأبقاها مثل «حجرة الكبريت».[2]
وتُرى إذا كان الناس من وَقود النار وهم بعدُ لم يدخلوها، فكيف إذا «أُعدت للكافرين»؟ علّ الوَقود الحجارة ـ غير أصنامها ـ يكفي الآن لإعداد النار، ام إن الإعداد حالة ترقُّب لا فعلية له، فانما يضرم النار بمختلف وَقودها يوم يدخلونها.

القرآن
يهدي للتي هي أقوم
قياما واقامة وقيمةً

«إنّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّلِحَتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرا كَبِيرا وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالاَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابا أَلِيما».[3]
للقرآن زهاء اربعون اسما[4] هذا أكثرها ذكرا[1] واشتهارا، واغزرها معنى وازدهارا إذ يعني جملة ما تعنيه هي تفصيلاً،

---

[1]). سورة النمل ٢٧: ٧.

[2]). تفسير البرهان ١: ٦٩ عن الإمام الحسن العسكري عليه‌السلام عن جده علي بن الحسين عليه‌السلام في حديث طويل حول تفسير هذه الآيات «وقودها وحطبها الناس والحجارة حجارة الكبريت اشد الاشياء حرا...».
وفي الدر المنثور ١: ٣٦ ـ اخرج ابن ابي شيبة والترمذي وابن مردويه والبهقي في الشعب عن ابي هريرة قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: اوقدت النار الف سنة حتى احمرت ثم اوقد عليها الف سنة حتى ابيضت ثم اوقد عليها الف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة، وفيه ايضا عن انس عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله مثله باضافة «لا يطفأ لهبها».

[3]). سورة الإسراء ١٧: ١٠.

[4]). وهي: القرآن ـ الفرقان ـ الكتاب ـ الذكر ـ الحديث ـ التنزيل ـ الموعظة ـ الشفاء ـ الهدى ـ الحبل ـ الرحمة ـ الصراط المستقيم ـ الحكم ـ الحكمة ـ الحكيم ـ المحكم ـ الروح ـ البيان ـ التبيان ـ المبين ـ الفصل ـ النجوم ـ القصص ـ البصائر ـ المثاني ـ النعمة ـ البرهان ـ البشير ـ النذير ـ القيم ـ المهيمن ـ الهادي ـ النور ـ الحق ـ العزيز ـ الكريم ـ العظيم ـ المبارك ـ بلاغ ـ سبيل ـ حياة.

وهو يعني في مختلف معانيه: الجمع ـ الطهارة ـ التطهير ـ الإبلاغ ـ الرؤية ـ اقتراب ـ المغيب: معانٍ سبعة كالسماوات السبع والارضين السبع وايام الاسبوع السبعة، حيث يشمل بمعانيه جملة وتفصيلاً الازمنة والامكنة ومن فيهما.

فانه طهارة ـ فتطهير ـ وقراءة ـ وابلاغ ـ ورؤية لما يمكن ان يُرى بصرا وبصيرة، وجمع لما لم يجمعه غيره من كتابات واقتراب لاغتراب غيره من كتابات كما انه من آيات اقتراب الساعة ونبيه نبي الساعة.

وترى لماذا هنا وفي عديدٍ غيرها «هذا القرآن» حيث توحي بان هناك قرآنا أو قرائن أخرى، وفي عديد اخرى «القرآن» والقرآن هو القرآن؟

لأن «قرآن» من الله هو جنس المقرو بالوحي كتابا على المكلفين، شاملاً كتابات الوحي كلها، وأفضلها هذا القرآن، فقد يعرف ب«هذا» ليدل على حاضره دون غابره، و«هذا» في موارده كلها يتضمن ميزة او ميزات له عن سائر القرآن[2] وقد تدل على عمومه لسائر الوحي:

«قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله..»[3] «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه..»[4]

إذا فلا بد من تعريف به ليميزه عن غيره ب«هذا» او «العظيم» «ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم»[5] او تعريف اللام عهدا الى حاضره حيث يخاطبهم به: «وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدَلهم..»[6] او بضمير يعرفه: «وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن..»[7] او وصف: «تلك آيات الكتاب وقرآن مبين»[8] ام ماذا من إشارة تميزه عن سواه، ويختص «هذا القرآن» هنا بما يعرفه أنه «يهدي للتي هي أقوم» من قوامات الوحي وقيامات وقيَم صاحب

---

[1]). نجده (٧٠) مرة اثنتان منهما قرآن الفجر: صلاة الفجر ـ واثنتان: قرآنه: قراءته ـ والباقي هذا القرآن.

[2]). ك«اوحي الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ» ٦ ـ ١١٩ «وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون اللّه» ١٠: ٣٧ «نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا هذا القرآن» ١٢: ٣ «ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا» ١٧: ٤١ «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن:» ١٧: ٨٨ «وقال الرسول رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا» ٢٥: ٣٠ «ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل..» ٢٧: ٧٦ «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه» ٣٤: ٣١..

[3]). سورة يونس ١٠: ١٥.

[4]). سورة سبأ ٣٤: ٣١.

[5]). سورة الحجر ١٥: ٨٧.

[6]). سورة المائدة ٥: ١٠١.

[7]). سورة يونس ١٠: ٦١.

[8]). سورة الحجر ١٥: ١.

الوحي والمكلفين به.
و«قرآن» مع كل ذلك علم لهذا القرآن، لم يسم به غيره من قرآن وان كان يشمله جنسه، وهو أفضل واكثر أسماء القرآن.
ثم هنا هادٍ ومهدي ومهدي له وبشارة لمن يهتدي وإنذار على من لا يهتدي بلا حدود من زمان أو مكان أو اقوام وأجيال، فانه هدى الله والهدى الالهية في القرآن كاملة شاملة.
والمهدي له، وترى لماذا «له» دون «إليه» ام دون جارٍ ك«اهدنا الصراط المستقيم»؟.. ثم «التي» بحذف الموصوف المتردد بين عديد ك: الطريقة ـ الشريعة ـ الملة ـ الرسالة ـ الولاية ام ماذا؟ ولا يحذف الموصوف الا المعلوم لحد لا يحسن ذكره بل ويحسن حذفه؟.
نجد الهداية في القرآن في هذا المثلث، وليس «يهدي له» إلا هنا لكتاب الله، وفي أخرى لله: «قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدِّي إلا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون»[1][2] ثم لا ثالث لهما، فإنما الله وكتاب الله يهدي له لا سواه، فلتكن «الهداية له» خاصة بالله وبقرآنه المبين.
ثم الله وإن كان يهدي بالقرآن من اتبع رضوانه سبل السلام ويهديهم الى صراط مستقيم: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط مستقيم»[3] هداية إياه وهداية اليه، إلا ان أيا منهما لا يشمل مطلق الهدى، والهداية له تشمله كله، فالهداية «الى» دلالة الى الهدى الآفاقية البعيدة عن المهدي اذ هي خارج ذاته، او الانفسية البعيدة عنها كالآفاقية لمن احتجب عن نفسه بعيدا،[4] والهداية اياه ايصال الى المقصود آفاقية وانفسية او يقارب الايصال لمكان القرب بين المهدي والمهدي لحد الاتصال.[5] والهداية له تشمل الايصال والدلالة الى الانفسية والآفاقية قريبة وبعيدة، دلالة الى ما في النفس من هدى العقل والفطرة ام ماذا؟ وايصالاً الى حقها وواقعها، ودلالة إلى ما في الآفاق تكوينا وتشريعا وايصالاً إليها، فالهداية له ـ اذا ـ اتم واطم من الهداية إليه وإياه[6] فما الطفه التعبير عن الهداية المطلقة ب «يهدي اياه» وعن الدلالة المؤثرة وسواها ب «يهدي اليه» وعن مجموع الهدايات ب «يهدي له» الشاملة لكافة مراحل الهداية

---

[1]). سورة يونس ١٠: ٣٥.

[2]). ومن الظريف ان «يهدي للحق» الخاصة باللّه تتوسط «يهدي الى الحق» لغير اللّه اولاها «شركائكم» سؤال تعنُّت، واخراها لكافة الهداة الى الحق حيث تجمعهم «يهدي الى الحق» فليس تغيير صيغة الهداية مجرد تفنُّن التعبير وانما لخصوص المعني من «له» و«اليه».

[3]). سورة المائدة ٥: ١١٦.

[4]). لان «الى» توحي لفصل بين المهدي والمهدي اليه، والهدى الانفسية ليست بعيدة عن المهدي.

[5]). حيث الهداية اياه توحي الى وحدة عريقة بين المهدى والمهدى له دون فصل بينهما، اما حقيقا وإما الايصال ويشارفه كالقريب القريب.

[6]). حيث الهداية له، واللام للاختصاص اعم من الدلالة الخاصة والايصال الخاص الى مادة الهدى آفاقية وأنفسية، فالهداية اياه هي «له» والهداية اليه كذلك «له» كما الهداية الآفاقية والأنفسية كلاهما «له» وإن كانت «له» مراتب عدة.

مستغرقة لها كلها!

ولأن هذه الآية هي الفريدة في نوعها للهداية الشاملة فلتشمل الهدى كلها، دلالة وايصالاً للهدى أنفسية في هداية العقل والفطرة، وآفاقية في هداية التكوين والتشريع، فالقرآن نسخة كاملة للهدى كلها حيث يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام.

إنه هدى للكافرين كما للمؤمنين دلالة، وهدى للمتقين في مزيد الدلالة ثم الايصال الى حق الهدى، ثم وهو هدى للإنسان وأضرابه آفاقيا وأنفسيا.

واما «التي» بحذف الموصوف فللإيحاء باطلاق المهدي له، دون خصوص الملة او الطريقة او الرسالة او النبوة او الولاية اماهيه؟.[١]

فانه هدى بكل بنودها ومتطلباتها للإنسان وأضرابه كأفضل ما يمكن وأكمله في عالم الفطرة والعقل، وفي التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه وبينه وبين ربه في علاقة المعرفة والعبودية، وبينه وبين الناس في علاقة العشرة، وفي كافة زوايا الهدى ومتطلباتها وتنسيقاتها ومخلفاتها الحاضرة والمستقبلة.

«للتي هي اقوم» فكتابات الله كلها قويمة قيِّمة لا عوج فيها ولا قصور، ولكنها مؤقتة زمنا، محدودة بالمتطلبات المرسومة لزمنها، والإستعدادت لطالبيها فيها، وأما القرآن فهو يهدي للتي هي اقوم: قيمة وقوامة واستقامة وقياما[٢] منذ بزوغه ما طلعت الشمس وغربت، فشمسه لا تغرب وما يحتاجه المهتدون به لا يعزب، فلا يقعد عن هدايته، ولا يفشل عن استقامته ولا ينقص عن قيمته وقوامته لأنه كتاب الزمن كله.

ف«هي أقوم» من غيرها على الإطلاق قواما وقياما: «قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما..»[٣] فيه كافة القِيم والقوامات والقيامات لحد القيامة الكبرى، لا أفول لشمسه ولا انقطاع لشرعته، لا كتاب بعد كتابه ولا رسالة بعد رسالته، حيث الأقوم يتطلب ختام الوحي بوحيه.

فهذه الآية اجمال عن مثلث الخاتمية: شريعة ورسالة وكتابا، نجد تفاصيلها في آيات اخرى، والتي هي اقوم يشمل هذا المثلث وما معها من ملة وطريقة وولاية، والولاية المطلقة للقرآن ونبيه وأهلبيته هي أقوم الولايات طول الرسالات الالهية، وهي كلها على هامش الولاية الالهية.[٤]

---

[١]). كالسبل والآيات الآفاقية والانفسية (٣) والاخلاق (٤) والحياة (٥) واحكام الفطرة والعقل (٦) والايمان (٧) والاسلام (٨) والتقوى (٩) والزهادة (١٠) والمعرفة(١١) والمعجزة (١٢) ومواد الهداية التي تدعو اليها كتابات الوحي(١٣)، فكل هذه الموصوفات تصلح ان تكون للتي هي اقوم دون ابقاء على مادة من الهدى إلاّ وهي تشملها.

[٢]). فالاقوم تتحمل كونها من القوام والقيام والقيمة، والقرآن يهدي للتي هي اقوم في مثلثه دون اختصاص باحدها.

[٣]). سورة الأنعام ٦: ١٦١.

[٤]). في تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن ابي جعفر عليه‌السلام في تفسير الآية قال: «يهدي الى الولاية» اقول: وهي تشمل الولايات كلها ومنها ولاية الائمة التي هي ثالث مراتبها بعد ولاية اللّه والرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وقد يفسر بولاية الامام بيانا لثالث مصاديقها لانه مختلف فيها حتى يلحق بولاية الرسول، ومن ذلك ما في حديث سلسلة الذهب، يرويه ابن بابويه باسناده عن عياش بن يزيد مولى زيد بن علي، قال حدثني ابي قال حدثني موسى بن جعفر.. وعن علي بن الحسين عليه‌السلام قال: الامام منا لا يكون الا معصوما وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها فلذلك لا يكون الا منصوصا فقيل له يا بن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله! فما معنى المعصوم؟ فقال: هو المعتصم بحبل اللّه وحبل اللّه هو القرآن لا يفترقان الى يوم القيامة فالامام يهدي الى القرآن والقرآن يهدي الامام وذلك قول اللّه عز وجل: «ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم» وروي تفسيره بالامام باسناده عن ابي عبداللّه عليه‌السلام ايضا.

ثم القرآن ليس ليهدي للتي هي اقوم هداية المعرفة والإيصال الى الحق إلا لمن اتخذه دليلاً بحق وكما عن الإمام علي عليه‌السلام: «ايها الناس انه من استنصح الله وفق، ومن اتخذ قوله دليلاً هدي للتي هي اقوم»: دليل المعرفة والعمل الصالح ثم يبشره:

ومراتب الهدى القرآنية آخذة من العلمية الى العقيدية الى العملية التطبيقية. والاخيرة هي المبشر لها «ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم اجرا كبيرا».

ومراحل العلم القرآني «على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء».[1]

ومراتب العقيدة اليقين ثلاث: علم اليقين ـ عين اليقين ـ حق اليقين.

ومراتب العمل تنحو مراتب العلم واليقين. كلما ازداد وكلما نقص نقص.

والدلالة القرآنية ثلاث: دلالة التعبير في مراتبها، ثم دلالة الاهتداء، ثم الإيصال الى المطلوب: الصراط المستقيم.. ومما توحيه آية الأقوم أن هذا القرآن هو المتن الأعلى للإسلام وما سواه من احاديث ليست الا على هامشه إن وافقه فليكن متنا متينا مكينا في الحوزات العلمية الإسلامية وفي كافة الحقول.

ومن التي هي اقوم في هدي القرآن إعجازها، حيث الآية الرسالية فيه أقوم الآيات إذ تعيش الزمن ويعيشها الزمن دون حاجة إلى آية اخرى.

ومنها السياسة القرآنية التي تقود دولة عالمية على طول الزمن كما يقودها القائم المهدي عليه‌السلام في آخر الزمن.

ومنها الحقوق القرآنية التي تحلق على كافة الحقوق طول التاريخ، وتكفي معونة الحياة المتوسعة المتداخلة المتشابكة المتشاكسة.

ومنها الملاحم الغيبية والإنباءات المستقبلة التي توقظ النُوَّم وتنبه النابهين كي يكونوا على أهبة وحذر لبناء المستقبل المجيد للدولة الإسلامية.

ومنها الإقتصاد القرآني وقد تكفي حلاً لمشكلة الإقتصاد العضال آية وحيدة منه «وأن ليس للإنسان الا ما سعى».

ومنها ومنها... وقد تحدى القرآن فيما تحدى الانس والجن «على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»: طول الزمان وعرض المكان.

«ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا».[2]

يبشر من آمن بالله واليوم الآخر وما بينهما على ضوء القرآن، ويعملون الصالحات التي تصلح نتيجة للايمان وتصلح الحياة كل الحياة على ضوء القرآن، ويبشرهم قدر ما اهتدوا به وآمنوا وعملوا الصالحات «ان لهم اجرا كبيرا»: لا ناقصا عما قدموا فانه عجز وبخل، ولا مساويا مواتيا له فانه مثل بمثل، وليس الله مثلاً لنا حتى يواتينا في ثواب اعمالنا، وانما فضلاً واحسانا: «اجرا كبيرا» اكبر مما قدموا وان كان تسمية الثواب أجرا فضلاً عن «كبيرا» هو ايضا اجر كبير ولطف غزير، حيث العبد لا يستحق بايمانه وعمله الصالح اجرا من ربه، إذ لا يعود نفعه الا اليه لا الى ربه، اذا فأصل الثواب فضل وتسميته اجرا فضل وصفته كبيرا فضل، مثلث الفضل في قول فصل.

ثم القرآن لمن لم يتخذه دليلاً لا يزيده إلا خسارا، ولا سيما الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإن كانوا مؤمنين بالله، حيث الايمان بالله دون الآخرة لا يُلزم المؤمن به بما يلتزم به المؤمن بآخرته من عمل الصالحات، ومجرد الايمان بالله دون عمل لا ينفع حتى إذا كان ايمانا بالآخرة ايضا:

---

[1]). سفينة البحار يرويه الامام الحسين عن ابيه علي امير المؤمنين عليه‌السلام.

[2]). سورة الاسراء الآية ٩.

«وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْأخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابا أَلِيما».[1]

لا يؤمنون بالحياة الآخرة ودلائلها في القرآن واضحة وفي الآفاق والانفس لائحة!.

والإعتاد هو التهيئة، والعذاب الأليم يشمل ذوقه يوم الدنيا في المعيشة الضنك وفي البرزخ بوجه آكد، ثم في القيامة واقع لأليم العذاب: «ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى..»:[2] عذابات معتدة في مثلث الحياة بما قدمته أنفسهم.

«وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ»:[3]

إن «كلمت ربك» الدالة على رسالتك العظيمة الغالية، الشاملة لكل ما يحتاجه المكلفون منذ بزوغها إلى يوم الدين، إنها تمت بهذا القرآن العظيم، «تمت.. صدقا» و«تمت.. عدلاً» فكل قضايا الصدق والعدل الرباني مدلولةٌ لكلمات ربك: القرآن ونبيِّه «لا مبدل لكلماته» السالفة على أنبياءه رغم أنها كانت محددة لزمن خاص فضلاً عن هذه الكلمة التامة الخالدة.

وهنا «كلمة ربك» بإفراد تعني محمدا والقرآن فإنهما كلمة واحدة تحملان هذه الشرعة الأخيرة شرعة وداعية.

صحيح أن كلمات الرب رسوليا ورساليا على مدار الزمن تامة صدقا وعدلاً، ولكنها تمامية صالحة لردح من الزمن لكل رسول برسالته، وليست تمامية طليقة، ف «تمت» هنا تعني التمامية الطليقة التي ليس فوقها تمام، فليس معها أو بعدها كلمة رسولية أو رسالية إلى يوم الدين، إذ لا مبدل لهذه الكلمة إلهيا ولا خَلقيا، مهما كان لسائر الكلمات الربانية مبدل إلهي، ف «لا مبدل لكلماته» تستغرق أي تبديل للكلمة الأخيرة، وتختص سلب التبديل الحق في سائر كلماته بغير الإلهية حيث تبدَّلت إلهيا، كما وتبدلت بشريا بغير حق، ولكن هذه الكلمة لا مبدل لها إلهيا، ولا بشريا لا حقّا ولا باطلاً إذ لا تحريف فيها ولا تجديف.

اجل فلا مبدل لها ربانيا فضلاً عن مبدلٍ سواه «وهو السميع» مقالات الممترين «العليم» بحالاتهم، سمعا وعلما بكل مجالاتهم وبما يقوله أهل الحق ويعلمون ويعملون.

فهنا «كلمة» ـ جنسا ـ تعم كافة الدالات والدلالات الرسولية والرسالية أمّاهيه، الدالة على كامل الربوبية تكوينية وتشريعية في هذه الرسالة الأخيرة و«ربك» ـ دون «رب العالمين» وما أشبه ـ تلمح إلى بالغ منها، ف «تمت كلمة ربك» اذا ختمٌ للتربيات الربانية في كل حلقاتها وحقولها، فلا تمام بعدها ولا تبديل، مما يبرهن على خاتمية خاتم النبيين رسوليا وخاتمية القرآن رساليا، وكل ذلك «صدقا وعدلاً» فليس بعد تمام كلمت ربك صدقا وعدلاً إلاّ كلمة الشيطان كذبا وظلما، وهي كافة المختلقات الزور والغرور من كتابات وسواها بعد القرآن مما يدعى كونه وحيا.

أجل «وتمت كلمة ربك» في كل مصاديقها الصادقة لفظية أو عينية، فحين يكون المسيح كلمة من اللّه كما هو رسوله جمعا بين كلمتي الرسالة والآية الرسالية: «إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول اللّه وكلمته»[4] فمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله بقرآنه العظيم أحرى تماما وكمالاً وختما للكلمات الرسولية والرسالية، فلا آية بعد القرآن كما لا رسالة بعد رسول القرآن.

---

[1]). سورة الاسراء الآية ١٠.

[2]). سورة طه ٢٠: ١٢٤.

[3]). سورة الأعراف ٧: ١١٥.

[4]). سورة النساء ٤: ١٧١.

وحين «ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن»[1] فابتلاء محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله بكلمات أنبل وأعلى حيث تمت بها الكلمات.
إذا فالقرآن ـ فقط ـ هو متمم الكلمات في نفسه وفي كتابه، في ابتلاآته وكل كلماته «واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا»[2] وذلك، لأنها «كلمت ربك» فكما أنك «أوَّل العابدين» والعارفين لربك بتربيتك القمة، كذلك «كلمت ربك» لك ولكل العالمين إلى يوم الدين.
فذلك التمام تمام في كل حقوله، زمنا وكمالاً وحالاً ومآلاً وعلى أية حال، والكلمة العليا في هذه الرسالة هي «لا إله إلاَّ الله» حيث تحلّق على جنباتها لأتم درجاتها ومنها كسر الأصنام بكل صنوفها وصفوفها، فقد «دخل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله المسجد الحرام يوم فتح مكة ومعه مخصرة ولكل قوم منهم صنم يعبدونه فجعل يأتيها صنما صنما ويطعن في صدر الصنم بعصا ثم يعقره كلما صرع صنم أتبعه الناس ضربا بالفؤوس حتى يكسرونه ويطرحونه خارجا من المسجد والنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: «وتمت كلمت ربك صدقا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم».[3]
وكان يعوذ نفسه والحسنين عليهماالسلام وغيرهما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة..[4]
فلقد تمت كلمت التوحيد بكلمته على شروطها، وكلمة الرسالة بمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله بنفسه وبكلمة القرآن، وكلمة الخلافة المعصومة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله[5] وهكذا كل كلمة من الله تعالى.
لقد قال الله وفعل وكوَّن كل كلماته التي كان من الصالح أن يقولها ويفعلها ويكوِّنها للعالمين فلم تبق له كلمة إلاَّ

---

[1]). سورة البقرة ٢: ١٢٤.

[2]). سورة الكهف ١٨: ٢٧.

[3]). الدر المنثور ٣: ٤٠ ـ اخرج ابن مردويه عن ابي اليمان جابر بن عبد اللّه قال دخل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله..

[4]). فمن تعويذه الحسنين ما في الدر المنثور ٣: ٤٠ عن ابن عباس قال كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يعوذ الحسن والحسين عليهماالسلام أعيذكما بكلمات اللّه التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ثم يقول كان ابوكم ابراهيم يعوذ بها اسماعيل واسحاق.
ومن تعويذه نفسه ما اخرجه النسائي والبيهقي عن ابن مسعود قال لما كان ليلة الجن اقبل عفريت من الجن في يده شعلة من نار فجعل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يقرأ القرآن فلا يزداد إلاَّ قربا فقال له جبرائيل ألا اعلمك كلمات تقولهن ينكب منها لفيه وتطفأ شعلته قل اعوذ بوجه اللّه الكريم وكلمات اللّه التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر طوارق الليل ومن شر كل طارق إلاَّ طارقا يطرق بخير يا رحمن فقال لها فانكب لفيه وطفئت شعلته، واخرج ابو داود والنسائي وابن ابي الدنيا والبيهقي عن علي عليه‌السلام عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله كان يقول عند مضجعه: اللهم إني اعوذ بوجهك الكريم وكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته انت تكشف المغرم والمأثم اللهم لا يهزم جندك ولا يخلف وعدك ولا ينفع ذا الجد منك سبحانك وبحمدك..
ومن تعويذه صلى‌الله‌عليه‌وآله غيره ما عن خولة بنت حكيم سمعت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: من نزل منزلاً فقال: اعوذ بكلمات اللّه التامات كلها من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك، وعن ابي هريرة قال جاء رجل الى رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة؟ قال: أما إنَّك لو قلت حين امسيت اعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق لم تضرك.

[5]). نور الثقلين ١: ٧٦٠ في احاديث عدة ان هذه الآية مكتوبة على جبين والعضد الأيمن من كل امام من الأثنى عشر حين ولدوا، رواه ابو بصير والحسن بن راشد ويونس بن ظبيان ومحمد بن مروان كلٌّ عن ابي عبد اللّه عليه‌السلام.

وقد قالها في هذه الرسالة السامية دون إبقاء.
صحيح أن آيات الله ورسالاته كلها من كلمات الله، وهي كلمة واحدة تدل على ربوبية واحدة برسالة واحدة، ولكلنها قبل الكلمة الأخيرة القرآنية المحمدية كانت تترى متكاملة في فتراتها الزمنية، رسالة بعد رسالة وشرعة بعد شرعة، ثم تمت كونا وكيانا وزمانا بهذه الكلمة الأخيرة «صدقا وعدلاً لا مبدِّل لكلماته» تبديل النسخ أو التكميل أم أي تبديل بتحريف وتجديف، حيث القرآن هو الوحيد بين كتابات الوحي في ميِّزاتٍ ومنها عدم تحرُّفه كما ضمن الله: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»[1]
وهنا «لا مبدل» نهي إلى نفي، إخبارا بعدم تبدل كلماته ونهيا عنه، تبديلاً عن جهات أشراعه بكل تأويل عليل، أو تبديلاً لمواضعه أن تؤلف نسخة غير ما بأيدينا منذ تأليفه من الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بوحي من الله.
ذلك، ولأنها تمت جملة وتفصيلاً وحصولاً وتحصيلاً في ردح الوحي بكرة وأصيلاً دون أن يتدخل فيها غير الله، سبحانه وتعالى عما يشركون.
وقد تعني ـ فيما عنت ـ «صدقا» كلمة الإخبار، و«عدلاً» كلمة الإنشاء، ولا تخلو كلمة القرآن ونبي القرآن عن إخبار أو إنشاء، أو جمعا بينهما، فقد أَنشأ القرآن إنشاءً كما أُنشأ إنشاءً، وأخبر أخبارا كما أخبر ـ فيما أخبر بكله ـ إخبارا، أنه الآية الوحيدة الخالدة غير الوهيدة على مدار الزمن إلى يوم الدين: «او لم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم..»
«أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ».[2]
إنما الدين كله لله، والشارع من الدين كله هو الله، لا شريك له لا في الدين ولا في شرع الدين، وإنما المرسلون حَمَلة دين الله وشرائعه، ومبلغوا شرعة الله ومؤسسوا دولته تطبيقا لها وذودا عن ساحتها وسماحتها.
ترى ما هو موقف «أم» هنا وهي لعطف الإعراض؟.. قد يكون المعطوف عليه مما يلي: أليسوا هم بحاجة إلى شرعة من دين الله إذ لا يعبدون الله وإنما أوثانهم وطواغيتهم؟ أم هم شرعوا لأنفسهم من الدّين ما أذن الله أو ما لم ياذن به الله؟ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم ياذن به الله؟ وشركائهم هم الذين اتخذوهم شركاء لله فهم إذا شركائهم لا شركاء الله.
ليس من المعقول أن الدين الطاعة لله، ثم يشرع مِن دينه مَن سواه دون إذنه، تدخلاً عارما طاغيا في طاعة الله، ويكأن الله لا يملك شرعة من دينه فشركائهم شرعوا لهم من الدين ما لم ياذن به الله!
فالله وحده هو الشارع لعباده من دينه وطاعته، فإنه مبدئهم ومبدعهم والكون كله، يدبره بالنواميس التكوينية والتشريعية سواء، وليست الحياة البشرية الاّ ترسا صغيرا في عجلة هذا الكون الشاسع الواسع، فليتحكمها شرعة تتمشى مع تلكم النواميس وتمشِّي الإنسان إلى قمم الكمال المعدة له في هديه، فكيف يشرع من دين الله من سوى الله، أوِلاية على الله؟ وهو الولي الحميد! أم حيطة على النواميس ومتطلبات الحياة؟ ولا يحيطون بأنفسهم علما! أم ماذا.
مع وضوح هذه الحقيقة لحد البداهة فمن الحماقة البلاهة المحاولات الطائلة لسَنِّ القوانين لإدارة شؤون الأفراد والجماعات حتى من أعقل العقلاء وأعدل العدول، وحتى المرسلين، فما هم بمشرعين من الدين، إنما هم رسل يحملون شرائع من الدين شرعها الله، ثم لا تدخُّل لهم في أية كبيرة أو صغيرة.
وليس لمن يستنبط إلاّ استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجيات الحياة، على ضوء القرآن والسنة الرسالية

[1]). سورة الحجر ١٥: ٩.

[2]). سورة الشورى ٤٢: ٢١.

والرسولية، دون سنٍّ لاي صغيرة أو كبيرة من عند أنفسهم، وإنما استنباط واجتهاد لأهله على شروطه.
هكذا تدخُّل عارم في شرعة الله مما لم ياذن به الله يحق له القضاء الصارم من اللّه «ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم»: كلمة التأجيل لأجل إلى الساعة، دون تعجيل قبل الساعة.
يوم الدنيا ليس يوم الفصل وإنما هو يوم الأخرى: «هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون»[1] «إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين»[2] «هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين»[3] «إن يوم الفصل كان ميقاتا».[4]
كلمة الفصل تحمل ميقات يوم الفصل، والإمهال والتأجيل ليوم الفصل، كما تحمله آيات الإمهال والتأجيل إلى يوم الفصل، حيث يقضي بينهم ويفصل ففريق في الجنة وفريق في السعير «وإن الظالمين لهم عذاب أليم» وهؤلاء من أظلم الظالمين حيث يتدخلون في وِلاية الله بعد إشراكهم باللّه: أن شرع لهم شركائُهم من الدين ما لم يأذن به اللّه.

القرآن
فرقان ونذير للعالمين

بسم اللّه الرحمن الرحيم
«تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمينَ نَذيرا»[5]
إنها «سورة الفرقان» حيث هي بازغة بتنزيل الفرقان، وكل سور القرآن فرقان مهما اختلفت أسماؤها، فإنها يجمعها أنها كلها فرقان ومن الفرقان «فبأي آلاء ربكما تكذبان».
وإن في «الفرقان» لهذا العبد الفقير ذكريات حملتني على تسمية هذا التفسير بالفرقان، وأن اقيم ردحا من الزمن في منزل وحي الفرقان «ليكون للعامين نذيرا».[6]

---

[1]). سورة الصافات ٣٧: ٢١.

[2]). سورة الدخان ٤٤: ٤٠.

[3]). سورة المرسلات ٧٧: ٣٨.

[4]). سورة النبأ ٧٨: ١٧.

[5]). سورة الفرقان ٢٥: ١.

[6]). اخذت خيرة بالقرآن لهذه التسمية المباركة فطلعت «تبارك الذي نزل الفرقان» واخذت خِيرَة اخرى للمقام في مكة المكرمة في هجرتي الى اللّه من بأس الطاغوت الايراني «شاه» عليه لعنة اللّه، فطلعت ثانية «تبارك الذي نزل الفرقان» ويا له وفقا لهذا التوفيق ما اوفقه، والحمد للّه اولاً واخيرا، وارجو منه ان يوفقني لإكمال الفرقان كافضل ما يحبه ويرضاه ـ آمين.

والفرقان ـ على ما يروى ـ كأنها نزلت سورتها كصورتها الآن وقد نتلمح من قراءة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله لها كما هـي، ألاّ تكفي سورة بعد الفاتحة إلاّ بتمامها، وإن كان نسيان آية منها للرسول خلاف النص: «سـنقرئك فـلا تنسى» فـذلك النسيان ـ إذا ـ نذره في بوتقة النسيان.[1]
ولا تنافي مكية «الفرقان» بتمامها آية تحريم الزنا فيها، فإنها من اوّليات المحرمات في التشريع الإسلامي كما الخمر وأضرابهما.
وهل الفرقان ههو القرآن المفصل كله كما تلمح له «نزل» المؤشرة للتدريج؟ ولم ينزل بعدُ القرآن المدني وقسم من المكي! وتقول الروايات أنه المحكم الواجب العمل به دون المتشابه!.[2]
«نزل» الماضي تشمل المنزّل من المفصل في المستقبل كما مضى، حقيقة فيما نزل، وتحقيقا فيما سوف ينـزّل، حيـث المستقبل المتحقق الوقوع يعبر عنه بالماضي، وهكذا الأمر في سائر التعبير عن تنزله في سائر القرآن.[3]
ثم القرآن كله فرقان محكما ومتشابها، وعلّ اختصاصه في الحديث بالمحكم اختصاص بغير الراسخين في العلم، الذين لا يفهمون متشابهه في نفسه، وإن بإرجاعه إلى محكمه، وأما الراسخون فالقرآن كله لهم فرقان، على درجاتهم في تفهم الفرقان.
ولان الفرقان فُعلان من الفَرق، إسم مصدر مبالغ في الفرق، فهو القرآن البالغ في فرقه بين الحق و الباطل.
ولذلك يعبر عنه ككل بالفرقان: «هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان»[4] «وأنزل التوراة والإنجيل مـن قبـل هـدً للناس وأنزل الفرقان».[5]
كما وهو البالغ في فرقان التنزيل نجوما طائلة: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً».[6]
إذا فالقرآن فرقان كله في البعدين، وأولهما اَولاهما حيث يفرق فرقا واضحا لا ريب فيه بين كل حق وباطل، طـولَ الزمان وعرضَ المكان، ومن فرقه فارق التعبير فصاحة وبلاغة وحتى في موسيقاه عن سـائر التعبـير، وأنـه الفرقـان

---

[1]). الدر المنثور ٥: ٦٤ ـ اخرج ابن الانباري في المصاحف عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله صلى الصبح فقرأ سورة الفرقان فاسقط آية فلما سلم قال هل في القوم ابي فقال أبيها أنا يا رسول اللّه، فقال: الم اسقط آية؟ قال: بلى، قال: فلم لم تفتحها علي؟ قال: حسبتها آية نسخت، قال: لا ولكني أسقطتها، أقول ما لهذا الرسول يحتاج فيما ينساه ـ ولا سمح اللّه ـ الى ابي، وكأنه احفظ منه، رغم انه صلى‌الله‌عليه‌وآله كان احفظ الحفاظ على الإطلاق بما أقرأه اللّه.

[2]). تفسير البرهان ٣: ١٥٥ محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن ابيه عن ابن سنان عمن ذكره قال سألت ابا عبد اللّه عليه‌السلام عن القرآن والفرقان هما شيئان او شيء واحد؟ فقال: القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به.

[3]). المصدر ابن بابويه باسناده عن يزيد بن سلام انه سئل رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال لم سمي القرآن فرقانا؟ قال: لانه متفرق الآيات والسور نزلت في غير الالواح وغيره من الصحف والتورية والانجيل والزبور انزلت كلها جملة في الالواح والورق، أقول: وهذا وجه آخر في كون الفرقان هو القرآن كله.

[4]). سورة البقرة ٢: ١٨٥.

[5]). سورة آل عمران ٣: ٤.

[6]). سورة الإسراء ١٧: ١٠٦.

المعجزة الوافية بنفسه دون سائر الوحي، والفارق بين حق المروي من السنة وباطله، فرقان في منهجه ومبلجه فلا يشبه اي منهج إلهيا وسواه، حيث يمثل عهدا جديدا منقطع النظير عن كل بشير ونذير، جديدا في المشاعر، ينتهي به عهد الطفولة، ويبدأ به عهد الرشد بأشدُه، وينتهي به عهد الخوارق المتعوَّدة، ويبدأ به عهد المعجزة العقلية والعلمية أما هيه، وينتهي به عهود الرسالات الموقوتة.

ولأنه هكذا فرقان ف «ليكون للعالمين نذيرا» فرقان الرسول ورسول الفرقان، فرقانان متجاوبان في كل زمان ومكان. «نزل الفرقان على عبده» دون رسوله، لأنه بعبوديته القمة يستأهل ذلك التنزيل، ثم ويُرسَل للعالمين نذيرا بذلك التنزيل، وما أحلاها صيغة العبودية وصبغتها، بسابقتها للرسالة وسابغتها، فلا تصوغ الرسالة إلاّ بعد صبغها كاملة متكاملة، كافلة متكافلة، فمِن ثم هي آهلة سائغة للرسالة بالفرقان «ليكون للعالمين نذيرا»، هذا، وكما هو عبده في إسرائه «سبحان الذي أسرى بعبده» وفي دعائه «وأنه لما قام عبد الله يدعوه» مثلث من قمة التكريم، في أهم أدواره الرسالية دعاءً وهي مخ العبادة، وعروجا لمقام التدلي، وتنزيلاً للفرقان!

«ليكون للعالمين نذيرا» دون قومه ـ فقط ـ أم والعرب فحسب، أم عالمي زمنه، أم لردح من الزمن، وإنما «للعالمينَ» من الجنة والناس ـ أمّن هم ـ اجمعين، في كل زمان ومكان، ولأن العالمين جمع لعالم ذوي العقول، فلأقل تقدير هناك عالم ثالث لا نعرفهم، وقد تشير إليهم آيات العالمين، وآية الشورى: «ومن آياته خلق المساوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير».

و«للعالمين» حيث تشمل الطول التاريخي والعرض الجغرافي لذويالعقول دونما استثناء، يصبح دليلاً بجنب سائر الأدلة لكون هذه الرسالة السامية هي الشاملة الخاتمة للرسالات الإلهية أجمع، والجمع المحلى باللاّم يستغرق كافة مصاديقه دونما استثناء.

فالعالمين أجمعين سواء أكانوا في السماوات أم في الارضين تشملهم هذه النذارة الأخيرة، وكما تلمح له «الذي له ملك السماوات والأرض..» إذا فسعة هذه النذارة هي ملك السماوات والأرض!. وكما «تبارك الله أحسن الخالقين» في خلق الإنسان في أحسن تقويم، كذلك «تبارك الذي نزل الفرقان» حيث الفرقان في أحسن تقويم، أحسن تقويم في التدوين لأحسن تقويم في التكوين.

وترى «للعالمين نذيرا» بشخصه وجها بوجه في سِنِّي دعوته الثلاث والعشرين؟ وذلك غير واقع ولا ميسور! فإنما الهدف في تبنِّي هذه الرسالة القرآنية هو النذارة لكل العالمين بمن معه من حملة رسالته وبلاغها إلى يوم الدين.

ولقد أدى هو واجبه الرسالي في عهديه المكي والمدني، وصنع ـ بإذن الله ـ على ضوئها حملةً لها على طول الخط، والمحور الركين الأمين على مرّ الزمن هو الفرقان والفرقان فقط.

ولماذا ـ فقط ـ «نذيرا» لا «نذيرا وبشيرا» أو «بشيرا»؟ لأن البشارة ليست إلاّ لمن يتقبل الدعوة، فخاصة بالمؤمنين، والنذارة تعم العالمين أجمعين، ناكرين ومصدقين، ولا تجد البشارة في سائر القرآن إلاّ خاصة دون النذارة.

«الذي نزل الفرقان...»:

«الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأرضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في المُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْديرا».[1]

إذا فلتشمل دعوة القرآن ملك السماوات والأرض، ولتملك السماوات والأرض، كما سوف تتحقق وتطبَّق على العالمين أجمعين زمن القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

«ولم يتخذ ولدا» منذ الأزل، قبل الزمان وبعد الزمان ـ إذا ـ فلن يتخذ ولدا حتى الأبد طول الزمان وبعده، حيث اتخاذ الولد ليس إلاّ لحاجة، فإذا لم تكن قبل فلن تكون بعد.

«ولم يكن له شريك في الملك» لا ذاتا ولا اتخاذا، فلن يكون ـ اذا ـ له شريك في الملك.

وكيف يتخذ ولدا ام له شريك في الملك «وخلق كل شيء» ما زعمتموه ولدا وسواه، شريكا وسواه، ولن يكون

[1]). سورة الفرقان ٢٥: ٢.

المخلوق الفقير الذات إلى خالقه ولدا له أو شريكا، لا في الخلق إذ هو مخلوق، ولا في تقدير الخلق فإنه هو الذي «قدره تقديرا» فهل المخلوق المقدَّر يناحر الخالق المقدِّر!
«له ملك السماوات والارض» تختص به وتحصر حقيقة ملك الكون ككل دونما استثناء، حصرا ومُلكا حقيقيين، فلا ينتقل عنه إلى ولد يتخذه أو شريك يُدَّعى له...
والمُلك الحقيقي يلازم المِلك الحقيقي وهما لزام المَلِك الحق دون زوال ولا انتقال.
وترى «كل شيء» تشمل أفعال العباد بجوانح أم جوارح؟ وهذ جبرٌ رافع للتكليف! قد يقال: لا، حيث الأفعال غير الأشياء، فإنها مواد الخلقة، والأفعال صادرة عنها كمصادر تسييرا او تخييرا وقد يؤيده «خلق».

القرآن الفرقان
في آل عمران

سميت هذه السورة ب «آل عمران» لأنهم من أبرز السمات المستعرَضة فيها بين عرض الرسل والرسالات في مختلف المجالات المعرقلة عجلتها، المكدرة أجواءَها.
تستحضر هذه السورة صورة وضيئة من ردح زمني مدني للحياة الإسلامية قويت فيها شوكة المسلمين، وبطبيعة الحال عارضتها الشائكة ضد الإسلامية من ثالوث الإشراك والتهود والتنصر، فهي تحمل عرضا للشبكات والإشتباكات والملابسات والعقبات التي أحاطت بهذه الحياة لحدٍّ كأن قارئيها يعيشون الحياة نفسها بحذافيرها وأظافيرها.
وقضية الهيمنة القرآنية ـ الكاملة ـ هي مواجهة كل عرقلة وشائكة ليقود المسلمين في خطواتهم بين كل الأشواك والمصائد والأحابيل والعقابيل.
ففي عرض الحالة الحاضرة لنزول القرآن في عهديه وما عرضتها من معارضات ضدها، وحلول ربانية لُمسكتها، عرضٌ لكل الحلول بمعارضاتها في كل مستقبل للحياة الإسلامية، حيث الدعوة القرآنية خالدة على مر الزمن بمدار الضمانات الوقائية للكتلة المسلمة ما تمسكوا بها.
وقد تكون هذه السورة نازلة كترتيبها الآن، حيث الرباط الوطيد بين آياتها ينادي بذلك الواقع، إضافة الى كون الأصل في آي السور كلها نزولها كما رتبت إلا بدليل يدل على خلافه، ولم يرد في الأثر أن آيات عمران نزلت في غير جوها ام غير ما هي الآن من ترتيبها، فقد توافق وتجاوب نتزيلُها وتأليفُها.

«بسم الله الرحمن الرحيم*الم».[1]
هي كما في البقرة وعديدة سواها من المفتتحات بها وبأضرابها، هي من مفاتيح كنوز القرآن، فصلنا طرفا طريفا من فصل القول حولها في البقرة وسواها فلا نعيد.
«اللهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ».[2]

---

[1]). سورة آل عمران الآية ١.

[2]). سورة آل عمران الآية ٢.

تجد تفصيل البحث عنها في آية الكرسي هناك فلا نعيده هنا.
«نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ».[1]

«نزل» بالحق «عليك» بالحق «الكتاب بالحق» «مصدقا» بالحق «لما بين يديه» بالحق، فهو مخمس من الحق تنزيلاً ومَنزلاً ومُنزلاً وتصديقا ومصدَّقا: مصاحبا الحق وبسبب الحق، معان عشرة كلها معنية على درجاتها دونما خليط من باطل، ولا زوالٍ لحقه خلاف سائر الحق قبله، فهو الحق المستمر الخالد دونما نسخ أو تحوير خلافا لكل حق قبله. والكتاب المنزَّل هنا هو القرآن المفصل النازل نجوما قضيةَ مختلف الحالات المقتضية والحاجيات.

و«مصدقا» حالَ أنها حال للكتاب، كذلك هي حال للرسول المخاطَب في «عليك» فكما: «آمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم»[2] كذلك: «ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم».[3]

ف «ما بين يديه» لا تختص ـ فقط ـ بكتب الوحي، بل وتعم رسل الوحي بآياتهم الرسولية والرسالية، فكما القرآن يصدق ما بين يديه من كتابات الوحي بآياتها الرسالية، كذلك رسول القرآن مصدقا لما بين يديه من رسل الوحي بآياتهم الرسولية، كما وكل من الرسول والقرآن يصدقان كلاً من رسل الوحي وكتابات الوحي.

ودور تصديق القرآن لما بين يديه من كتابات الوحي هو واقع التجاوب بين وحيه ووحيها، فلو لم يكن القرآن وحيا لم يكن ليصدق سائر الوحي لواقع الاختلاف بين وحي السماء ووحي الأرض.

وكيف «ما بين يديه» دون «ما خلفه»؟ وكل الرسل والكتب هي خلف القرآن ورسوله!، لأن قرآن محمد ومحمد القرآن هما استمراران لما قبلهما من رسول وكتاب، مكملان لهما ومهيمنان عليهما، فليساهما خَلف القرآن ونبيه في الكيان مهما كانا خلفهما في الزمان، فحق التعبير ـ إذا ـ كما هو: «ما بين يديه» كقارىء لهما وقالٍ ومصدق اياهما، فهما ـ إذا ـ أمامهما في الإتجاه، مهما كان القرآن ورسوله إمامهما في التوجيه.

ثم التصديق لما بين يديه منحصر بما أنزل بوحي الله، منحسر عما سواه لمكان سابق الذكر للكتاب، والنبي ليس ليصدق إلا النبي، ولا كتابُ الوحي إلاّ مثلَه دون ما يناقضه‌ام ليس بمحتواه من حيث الوحي، الا تصديقا لصادق الواقع ولكنه ليس تصديقا رساليا، و«مصدقا» هنا تعني الرسالي والرسولي، ف «ما بين يديه» رسولاً وكتابا ليس إلاّ خالص الوحي مثله، فان في تصديق المختلَق تكذيبا لنفسه وتصديقا للمتضادين!، ولا يعارض تصديقُه لما بين يديه نسخَه لقسم من أحكامه حيث النسخ بيان لأمد الحكم السابق وليس تكذيبا لوحيه، ولا يعني تصديقُ القرآن لما بين يديه إلاّ تصديقَ وحيه دون تطبيقه المطبَق المطلق، قضيةَ ضرورة النسخ لقسم من الأحكام السالفة حتى في شرعة واحدة فضلاً عن شرائع عدة.

وقد بين نطاق التصديق في قسم من آيِه ك «قل آمنت بما أنزل الله من كتاب»[4] و«قولوا آمنا بالذي أنزل الينا وانزل اليكم»[5] كما والقرآن بيان لما اختلف فيه أهل الكتاب من الكتاب دسا وتحريفا وتجديفا: «وما انزلنا عليك الكتاب إلاّ

---

[1]). سورة آل عمران الآية ٣.

[2]). سورة البقرة ٢: ٤١.

[3]). سورة البقرة ٢: ٨٩.

[4]). سورة الشورى ٤٢: ١٥.

[5]). سورة العنكبوت ٢٩: ٤٦.

لتبين لهم الذي اختلفوا فيه»[1] «ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون».[2]
وكما يصرح في عشرات من آياته أن اهل الكتاب حرفوا من كتبهم قسما من جهات أشراعها ومن اهمها البشائر الواردة فيها بحق هذا الرسول صلى الله عليه وآله: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل»[3] فقد حرفوا بشائره لفظيا ومعنويًا كما حرفوا منها أحكاما وقصصا تحمل أحكاما أخرى: «... يحرفون الكلم عن مواضعه...»[4] و«يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير...»[5] «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام اللّٰه ثم يحرِّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون»[6] «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند اللّٰه ليشتروا به ثمنا قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون».[7]
وقد يعني تكرار التصديق لما بين يديه أنه ليس بِدعا من الرسل، ولا أن كتابه بِدعٌ من الكتب، تقريبا وتشويقا لأهل الكتاب ان يصغوا إلى ذلك الجديد الذي هو استمرار للقديم، سلسلة موصولة بين اللّٰه وخلقه على مر الزمن الرسالي. ذلك، ولكي يقارنوا بين الكتابين فيعرفوا ان القرآن وحي ـ وبأحرى مما عندهم ـ او ينظروا الى البشارات المودوعة في كتبهم بحق هذه الرسالة الأخيرة، متحللين عن كل تحريف وتجديف.
ذلك «ما بين يديه» بوجه يعم كافة الرسل بكتبهم، ثم «وانزل التوراة والانجيل» خاص بعد عام لاختصاصهما بينها بأهمية خاصة، وأنهما المعروفان منها في الحقل الكتابي دون ما سواهما من كتاب غابر لم يبق له على أثر إلاّ فيما شذ وندر.
و«الانجيل» مفردا (١٢) مرة في القرآن لمحة لامعة على تحرُّفه إذ أصبح أناجيل لا تنسب الى السيد المسيح عليه السلام اللّهم إلاّ ما لا خبر عنه حيث دفن في مقبرة التاريخ المسيحي.
والقرآن لا يصدق إلا الانجيل على السيد المسيح عليه السلام دون الأناجيل التي ألفها جماعة آخرون وهي متعارضة مع بعضها البعض، وأخرى مع صادق الوحي، وثالثة مع الفطرة والعقلية والواقعية السليمة!.[8]

---

[1]). سورة النحل ١٦: ٦٤.

[2]). سورة النمل ٢٧: ٧٦.

[3]). سورة الأعراف ٧: ١٥٦.

[4]). سورة المائدة ٥: ١٤.

[5]). سورة المائدة الآية ١٥.

[6]). سورة البقرة ٢: ٢٦.

[7]). سورة البقرة ٢: ٧٤.

[8]). للإطلاع على حال الأناجيل راجع كتابنا (المقارنات) وقد جاء شطر من عديد الأناجيل في الفرقان ٢٧: ١٧٦ ـ ١٧٧.

«مصدقا لما بين يديه وانزل التوراة والانجيل» كل ذلك رسولاً ورسالة:
«مِنْ قَبْلُ هَدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَروا بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ».[1]
فكل ما انزل من قبل «مما بين يديه» و«التوراة والانجيل» كيانُه هدىً للناس، كما «وأنزل الفرقان».

والفرقان ـ ككل ـ هو الفارق بين الحق والباطل بواقعه المبرهن وأصدق مصاديقه هو القرآن، فقد ذكر أولاً بلفظ «الكتاب» وأخيرا «الفرقان» مما يدل انه هو الأول والأخير، فكل كتابات السماء تقدمات لذلك الكتاب، كما أن كل رسل السماء تقدمات لذلك الرسول.

ومهما كان كل رسول فرقانا بنفسه وبآيات رسالته، ولكنه لم يكن فرقانا بكتابه، فهذا الرسول فرقان بكتابه كأفضله، فإنه آية خالدة رسالية ورسولية على مدار الزمن الرسالي، وما هكذا اي كتاب بين يديه!.

ومهما شمل «الفرقان» المنْزل هنا كل فرقان مع الرسل دون كتاباتهم، فالمصداق الأعلى والأجلى للفرقان هو القرآن، كما وهو الرسول فانه من المنْزل كما القرآن: «فاتقوا اللّه يا أولي الألباب قد أنزل اللّه اليكم ذكرا. رسولاً يتلو عليكم آيات اللّه مبينات».[2]

وطالما القرآن المفصل منزّل تدريجيا، ولكن المحكم منه ـ النازل ليلة القدر ـ مُنْزل دفعيا فهو: فرقان اول، ثم المفصل منه فرقان ثانٍ منَزّل، لأن كل نازلٍ منه في نجمه فرقان، فهو ـ إذا ـ فرقان جملة وتفصيلاً، انزالاً وتنزيلاً، لا مثيل له في كتابات الوحي عن بكرتها.

فذكر الفرقان هنا بعد القرآن تعظيم للقرآن وتعميم للفرقان لكل رسول انه لا يأتي الا بفرقان، وفرقان القرآن يمتاز عن سائر الفرقان بما يفرّق بين أصيل الوحي ـ فيما بين يديه ـ عن دخيله، وانه برهان لرسوله رسوليا ورساليا، خالدا على مرّ الزمن، بل لا يزداد إلاّ ظهورا وبهورا، وأنه المقياس الأصيل لما يروى عن المعصومين عليهم‌السلام تصديقا لما وافقه وردا لما خالفه.

ذلك! وما أشبه من ميزاته المنقطعة النظير بين كل فرقان لكل بشير ونذير، فانه شرعة بأكملها وآية رسالية ورسولية بأكملها، قضيةَ خلود الشرعة بآيتها «ولا ينبئك مثل خبير».

إذا ف «ان الذين كفروا بآيات اللّه» وهي مجموعة في ذلك الفرقان، ومنجَّمة في سائر الفرقان: انفسية وآفاقية: رسلاً ورسالية ورسولية، كفرا عن تصديقها، وسترا مكذبا او متجاهلاً عن دلالاتها الصادقة «لهم عذاب شديد» وفاقا لشدِّ الكفر وعدِّه وجزره ومدِّه «واللّه عزيز» لا يُغلب «ذو انتقام» ممن يتألب او يتغلب على رسالات اللّه وفرقانه.

القرآن
مهجور بين قومه صلى‌الله‌عليه‌وآله
كافة المكلفين ـ أهل الكتاب اجمعين
وبين المسلمين!!!
(١)

---

[1]). سورة آل عمران ٣: ٤.

[2]). سورة الطلاق ٦٥: ١١.

«وَقال الرَّسُولُ يا رَبِّ إنَّ قَوْمِي اتَّخذُوا هذا القُرْآن مَهْجُورَا».[1]

«وقال» علّها عطفا على «ويوم» حكاية عن قيله يوم العَضِّ، لأن القرآن هو المحور الأصيل من السبيل مع الرسول صلى الله عليه وآله فهجر القرآن هو هجر الرسول وعترة الرسول.

ثم و«قومي» لا يخص الظالم الذي يعض على يديه، فإنهم كل من وجبت عليهم الدعوة الإسلامية في طول الزمان وعرضه، فقليل هؤلاء الذين لم يتخذوا هذا القرآن مهجورا، وكثير هؤلاء الذين اتخذوا هذا القرآن مهجورا، وكما نراه طول التاريخ الإسلامي.

ومهما «قال الرسول» قوله الشاكي عند ربه يوم الأخرى، فهو قائله يوم الأولى، كما نعرفه من طيات شكاواه.

فان الصلة القرآنية درجات، وهجره دركات حسب ترك الدرجات:

فمنهم من هجروا الإيمان به، فلم يفتحوا له أسماعهم، بل وجعلوا أصابعهم في آذانهم، خوفةً منهم أن يجتذبهم فلا يملكون لقلوبهم عنه ردا، ثم وهجروا فيه بما هرفوا وخرفوا وألغوا فيه.

ومنهم من أسلم له نفاقا دون وفاق، إسلاما في صورته، وكفرا بسيرته وهم المنافقون.

ومنهم من آمن به، سامعين لآياته وقارئين، ولكنهم لا يتدبرون معانيه، ولا يستشعرون مبانيه ومغازيه.

ومنهم من يعتمده الأصل الاوّل والأخير من التشريع الإسلامي، وعلى ضوئه السنة المحمدية، ولكنهم هجروا دراسته، وأخلدوا إلى ما يسمونه علوما إسلامية، تخيلاً أنها تُقَدِّمهم لتفهمه، وبالمآل نرى الحوزات الإسلامية تؤصِّل كل دراسة إلاّ القرآن، لحد أصبح طالب علوم القرآن ودارسه ومدرسه ومفسره من البطالين في قياسهم، البعيدين عن العلوم الحوزوية، فأصبح القرآن مهجورا عن حوزاته، لا يدرس إلاّ هامشيا دونما تدبر لائق به «أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها»؟[2] أجل وعلى قلوب أقفالها في إغفالها القرآن وإقفال باب مراسته في دراسته.

فنحن ـ إذا ـ ممن لم يتخذ مع الرسول سبيلاً، حيث هجرنا أعظم السبل معه إلى الله وهو كتاب الله، ومن خلفياته ترك الرسول بترك سنته حيث لا تعرف إلاّ عرضا موافقا لكتاب الله، فقد تركنا ـ إذا ـ كلا الثقلين، فنحن من الظالمين الذين يشكونا الرسول عند ربه يوم يقوم الأشهاد.

وهكذا راح القرآن يهز القلوب المقلوبة بهذه المشاهد المزلزلة المزمجرة.

وهم ينهون وينأون عنه!!!

(٢)

«وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوابِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ».[3]

---

[1]). سورة الفُرقان ٢٥: ٣٠.

[2]). سورة محمد ٤٧: ٢٤.

[3]). سورة الأنعام ٦: ٢٥.

هذه مع «ولو ترى إذ وقفوا على النار» هما صفحتان متقابلتان من صحيفتي الأولى والأخرى، يرتسم في أولاهما العناد والإعراض وفي أخراها الندم والحسرة، يرسمهما القرآن الآن، خطابا لِلفَطر الجاسية هزًّا لها تساقطا للركام الذي ران عليها، علَّ مغاليقها الصَّلِدة تنفتح وتفيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان.
«ومنهم مَن يستمع إليك» دون تدبر وتذكر، فإن «إلى» هنا لامحة إلى ظاهر الإستماع دون واقعه، حيث الإستماع الحق متعد بنفسه ك «فبشّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه»[1] و«إذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن».[2]
فالمستمع القول له أذن واعية صاغية، والمستمع «إلى» هو من الصُّمِّ عن استماع الحق المبين: «ومنهم من يستمعون إليك افأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون»[3] «جعلنا على قلوبهم اكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولو اعلى أدبارهم نفورا. نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلاَّ رجلاً مسحورا».[4]
وهنا أكنة القلوب ألاَّ تعي القرآن، ووقر الآذان ألاَّ تسمع مهما استمعت، هما من الجزاء الوفاق يوم الدنيا «فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم» إستدراجا فيما هم درجوا فيه من ضلال، ضلالاً على ضلال.
فالأكنة هي الأغلفة النفسية التي تحول دون تفتح القلوب المقلوبة بما قلبوها، والوقر هو الصمم الذي يحول دون آذانهم أن تؤدي واجب السمع إنسانيا.
فهذه نماذج شريرة من البشرية المعاندة التي «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون».[5]
فلما ترك هؤلاء الأوغاد المناكيد فقه قلوبهم وإبصار أعينهم وسمع آذانهم «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم».[6]
أترى «قالو قلوبنا غلف» إعتذار صادق بما ختم الله عليها فهم يحتجون؟ كلاَّ وإنَّهم محجوجون بما أجابهم الله «بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون».[7]
فلم تكن غُلف قلوبهم بدايةً من الله حتى يحتجوا، إنما هو لعن من الله بكفرهم أن أزاغ الله قلوبهم لمّا زاغوا.

---

[1]). سورة الزمر ٣٩: ١٨.

[2]). سورة الاحقاف ٤٦: ٢٩.

[3]). سورة يونس ١٠: ٤٢.

[4]). سورة الإسراء ١٧: ٤٧.

[5]). سورة الأعراف ٧: ١٧٩.

[6]). سورة البقرة ٢: ٧.

[7]). سورة البقرة ٢: ٨٨.

ولأن ثالوث وقر الآذان وغشاوة الأعين وأكنة القلوب، سدت عليهم منافذ الدرك إنسانيا مهما أدركوا دركات الحيوانية النحسة، لذلك:
«وإن يروا كل آية» رؤية بالبصر أو بالبصيرة «لا يؤمنوا بها» لمكان مضاعف الوقر والكنِّ والغشاوة «حتى إذا جاءوك يجادلونك» كأبي جهل وأضرابه من آباء الجهالات «يقول الذين كفروا إنْ هذا إلاَّ أساطير الأوَّلين».
فهم لا يجيئونك مفتوحي الأعين والآذان والقلوب ليتدبروا ما تقوله من وحي ربك، ولكن ليجادلوك إلتماسا لأسباب الرد والتكذيب، والتحريف والتجديف، ومنها «إن هذا إلاَّ أساطير الأوَّلين» وأباطيلهم وخرافاتهم التي سطروها «وقالوا أساطير الأولين إكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً*قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما».[1]
فمعالم السِّر في السماوات والأرض التي يحويها القرآن العظيم، فضلاً عن معالم الواقع العلَن، تدل أصحاب السِّر ـ الرباني والعلن أن لن يكون القرآن من منتوجات التعقلات والتفلسفات البشرية، فضلاً عن أساطير الأولين.
فقضية وحي القرآن هي من القضايا التي قياساتها معها، دون حاجة له إلى برهان سوى نفسه: «أولم يكفهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل كفى باللّه شهيدا بيني وبينكم يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا باللّه أولئك هم الخاسرون»[2] ذلك!:
«وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ»:
«وهم» أولاء المفترون على الله الكذب، المكذبون بآياته، الذين على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر، المفترون على القرآن أنه من أساطير الأولين، هؤلاء حين يستمعون إليك «ينهون عنه» مَن سواهم من المستضعفين وسواهم، كما وهم أنفسهم «ينأون عنه» ظلمات بعضها فوق بعض «وإن يهلكون» بالمآل «إلاَّ أنفسهم وما يشعرون» إذ يخيَّل إليهم أنَّهم يهلكون المؤمنين به الصادقين، فهم ـ رغم أنفهم ـ ليسوا لينأوا عنه بنهيهم أو الضعفاء، فإنَّهم هم أنفسهم في ضلال، أو أنهم يهلكون القرآن بدعوته وداعيته، وليس القرآن ليهلك بما هم ينهون عنه وينأون عنه: «يريدون أن يطفئوا نور اللّه بأفواههم ويأبى اللّه إلاَّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».[3]
وترى «ينهون عنه» يحتمل النهي عن أذاه لتصدق الرواية المختلقة أنها نازلة في أبي طالب رحمه اللّه حيث كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ويتباعد عما جاء به.[4]

[1]). سورة الفرقان ٢٥: ٦.

[2]). سورة العنكبوت ٢٩: ٥١.

[3]). سورة التوبة ٩: ٣٣.

[4]). الدر المنثور ٣: ٨ ـ اخرج جماعة عن ابن عباس في الآية قال: «نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين...» وعن القاسم بن مخيمرة في الآية قال مثله.. ولا يصدق به، وعن عطاء بن دينار في الآية قال مثله... وينأى عما جاء به من الهدى.
وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال: ينهون الناس عن محمد أن يؤمنوا به وينأون عنه يتباعدون عنه، ومثله عنه من طريق العوفي وعن محمد بن الحنيفة وعن مجاهد وعن قتادة.
فالروايتان متعارضتان ولا تقبل الآية إلاَّ الثانية، والأولى معروضة عرض الحائط.
ذلك ولقد اجمع أئمة أهل البيت عليهم‌السلام على ايمان ابي طالب رحمه اللّه، وفيه روايات تبلغ حد التواتر ومنها ما رواه ابن عمران أن أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة يوم الفتح إلى رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال: ألا تركت الشيخ فآتيه؟ وكان أعمى، فقال أبو بكر: أردت ان ياجره

«وهم» يعني ـ ككل ـ المشركين المفترين المكذبين الذين كانوا يؤذونه حياتَهم، ويتربصون به كل دوائر السوء.

ثم و«ينهون عنه» كما «ينأون عنه» هما في مصب الذم والتنديد على سواء، كما «إن يهلكون إلاَّ أنفسهم» يهددهم بالهلاك بما «ينهون عنه وينأون عنه».

ومن ثم لم ينه عنه ـ فيما يختلقون من إضافة النأي عنه ـ إلاَّ أبو طالب وعوذا بالله، فكيف يقول «وهم ينهون عنه» ولو أن «ينأون عنه» هم غير من «ينهون عنه» لتساقط النظم إلى أسفل دركات الركاكة، وماهيه إلاَّ قضيةَ بغضهم لأبي طالب رحمه الله، لأنه أبو علي عليه‌السلام.

وترى «ينهون عنه وينأون عنه» تختص بهؤلاء المشركين، ولا تشمل معهم هؤلاء المسلمين! الذين ينهون عن القرآن باعتذار أنه لا يُفهم، وأن التدبر فيه لتفهمه تفسير له بالرأي، وكما هم ينأون عنه، فأصبحت الحوزات العلمية خلوا عن القرآن كأصل حيث يجب أن تتبناه كل الحوزات الإسلامية في كل الإسلاميات عقيدية وفقهية وفلسفية وسياسية أماهيه من حيوياتهم؟!.

وكل نهي عن القرآن ونأيٍ عنه ـ أيا كان ومن أيٍّ كان وأيان ـ قضيَّته هلاك الأنفس الناهية النائية، فالناهي عن القرآن والنائي عنه أيّا كانٍ هالك كما أن علومه حلوم هالكة حالكة.

وهنا المنهي عنه والمنتهى عنه هو القرآن وهو رسول القرآن، ولكن القرآن هو الأصل الخالد طول حياة التكليف منذ بزوغه إلى يوم الدين، فالنهي والنأي عنه، نهي ونأي عن الرسول، كما النهي عن الرسول والنأي عنه، نهي ونأي عن القرآن، والنهي عن القرآن أنحس من النهي عن رسول القرآن.

فقرآن محمد ومحمد القرآن هما اللذان يبنيان صرح الإسلام، فالمفروض أن تتبناهما الحوزات الإسلامية، فالقرآن إمام محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو ـ معه ـ أمامه، هما المحوران الأصيلان للأمة الاسلامية في قرونها دون فصال اللَّهم إلاَّ فصالاً عن أصل الإسلام وأثافيِّه.

«وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»:[1]

ذلك المشهد هناك خزيا واستخذاءً وانتداما يقابل مشهد الإعراض هنا والجدال والنهي والنأي وأين مشهد من مشهد؟!.

اللّه تعالى والذي بعثك بالحق لأني كنت باسلام أبي طالب اشد فرحا مني باسلام أبي التمس بذلك قرة عينك فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌صدقت.

وروى الطبري بإسناده أن رؤساء قريش لما رأوا ذب ابي طالب عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله اجتمعوا عليه وقالوا: جئناك بفتى قريش جمالاً وجودا وشهامة عمارة بن الوليد ندفعه إليك وتدفع إلينا ابن أخيك الذي فرق جماعتنا وسفه احلامنا فنقتله فقال أبو طالب: ما انصفتموني تعطونني ابنكم فأغذوه واعطيكم ابني فتقتلونه بل فليأت كل منكم بولده فأقتله وقال:

منعنا الرسول رسول المليكببيض تلألأ كلمع البروق

أذود وأحمي رسول المليكحماية حام عليه شفيق

وأقواله وأشعاره المصرحة بايمانه كثيرة لا تحصى ومنها:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدانبيا كموسى خط في أوّل الكتب

ومنها:

.لا إن أحمد قد جاءهمبحق ولم يأتهم بالكذب

[1]). سورة الانعام الآية ٢٧.

القرآن
قول ثقيل

«بسم الله الرحمن الرحيم يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً»

يؤمر نبي الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ بعد أمره بقراءة الوحي: «إقرأ باسم ربك» وبعد حمله الرسالة الكبرى ـ يؤمر هنا بالقيام ليلاً وبالسبح الطويل نهارا، ويؤمر في المدثر بقيام الإنذار وتكبير الرب، وعلّ القيام الثاني هو السبح الطويل نهارا، والقيام الأول لتهيؤ الثاني: «إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً* إن لك في النهار سبحا طويلاً» فليعش الرسول الأقدس حياته قياما دون فتور، وسبحا في بحر المجتمع المتلاطم، لينجّي الغرقى فانه سفينة النجاة.

يوحي النص «المزمل» بأنه كان متزملاً حين الأمر، ولماذا؟ وفي رمضاء الحجاز! لابد وأنه من وطأة وفجأة، أوطأة الوحي الثقيل الذي بزغ له قبل قليل؟ كما قيل[1] أم الحملة العنيفة السافرة في وجهه من صناديد قريش؟[2] كما توحي له آيات من السورة: «واصبر على ما يقولون.. ذرني والمكذبين» فتزمل من رعشة الوطئة، فأمر بالقيامين في المزمل والمدثر، قياما لتنفيذ الرسالة ومجابهة عراقيلها، دون أن يتزمل ويتدثر.

«قم» إنه لا يناسبك التزمل والتدثر، فليكن دثارك القيام وزميلك الإقدام ليلَك ونهارك، «قم الليل إلا قليلا» قدر الضرورة الذي يساعدك في قيامك، فليكن مبدؤك القيام حتى في أوقات المنام رغم أن الناس نيام.

أنت تتلفف بثوب لتنام دفعا لهمّ الإيذاء، وغم الاستهزاء، وتخفيفا من وقعة الوحي؟ لا! بل عليك القيام، والإستعانة بالصبر والصلاة ومكافحة الكروب العظام، والنوائب الجسام.

«قم الليل إلا قليلاً» قم للأمر العظيم والقول الثقيل الذي سيلقى عليك، والعبءِ المهيأ لك، قم فقد مضىـ وقت النوم، قم فأنت لست لتعيش لنفسك، ولقد عرف الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله هذا الأمر مسبقا من ملامح الوحي وقدّره، فقال لخديجة رضي‌الله‌عنه ـ وهي تدعوه أن يطمئن وينام ـ: «مضى عهد النوم يا خديجة»!.

أجل ـ إنه مضى وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الشاق والسبح الطويل في بحر المجتمع المتلاطم.

«قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً»:

يخيَّر نبي الله هنا في قيام الليل ونومه بين مقادير أربعة: ١ ـ قيام الليل إلا قليلاً: ثلثيه فما فوق، فأكثر القليل منه ثلثه ثم أقل وأقل[3] ٢ ـ نصفه، وهو ليس قليلا من الليل، وإنما نصفه عدلاً بين قيامه ونومه إذا احتاج اليه، ٣ ـ أقل

---

[1]). أدركته رجفة الوحي حتى جثى هوى الى الارض وانطلق الى اهله يرجف يقول «زملوني. دثروني» ففعلوا وظل يرتجف مما به من الروع واذا جبرائيل يناديه «يا ايها المزمل. يا ايها المدثر».

[2]). الدر المنثور ٦: ٢٧٦ ـ اخرج البزار والطبراني في الاوسط وابو نعيم في دلائل عن جابر قال اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسما تصدر الناس عنه فقالوا: كاهن ـ قالوا ليس بكاهن، قالوا: مجنون ـ قالوا: ليس بمجنون ـ قالوا: ساحر ـ قالوا: ليس بساحر ـ قالوا: يفرق بين الحبيب وحبيبه فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فتزمل في ثيابه وتدثر فيها فأتاه جبرائيل فقال: يا ايها المزمل يا ايها المدثر.

[3]). فما يروى ان القليل المستثنى من الليل هو نصفه خطأ أو جهل من الرواة لا المروي عنه كما رواه في المجمع عن الصادق عليه‌السلام قال: القليل النصف.

من النصف، أن ينقص من نصف القيام قليلاً ۴ ـ أكثر من النصف أن يزيد على نصف القيام، فأكثر الواجب في قيامه من ثلثي الليل وما فوقها، وأقله أقل من النصف قليلاً، وبينهما متوسطات ومنها نصفه.
نرى التركيز هنا وهناك على قيام الليل ـ أيا كان ـ دون تصريح بنومه إلا ايحاء الضمائر: «قم الليل إلا قليلا» ابتداء بقيام ثلثي الليل، ثم «نصفه» أو قم نصفه «أو انقص منه قليلا»: انقص من نصف القيام قليلاً «أو زد عليه»: زد على نصف القيام، فنصيب النقص ليس إلا قليلا، ونصيب الزيادة لا حد له إلا قدر المستطاع.
فطالما الليل سكن ونوم للناس لاستراحة البدن، ولكنه قيام لرسول الله إلى الناس ليشد وطأه ويقيم قيله، تأزيرا لقوة القلب والروح، وتقويما لنطق اللسان.
فعلى رسول الله قيام الليل قدر المستطاع، كله أحيانا وأكثره أخرى ونصفه أحيانا وينقص منه قليلاً أخرى، ولكنما الزيادة على النصف قدر المستطاع هو المرغوب الأصل «أو زد عليه».
فأكثر الواجب إذا قيامه ثلثي الليل «قم الليل إلا قليلاً» كما ويؤيده «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه» فليكن الواجب مخيرا بين ثلثيه ونصفه وثلثه، فأقله ثلث الليل «أو انقص منه قليلا» فنقص القليل من النصف ثلث الليل، فيبقى ثلث الليل.[1]
«أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً» ولماذا ثلثا الليل، ولماذا الزيادة على النصف والنصف أيضا، ألصلاة الليل ولا تشغل إلا سويعات؟ كلا ـ وإنما الزيادة لترتيل القرآن، تخلقا بأخلاق الله في تنزيله: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً»[2] وفي ترتيله: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جمله واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً».[3]
وترتيل القرآن هو ارساله بسهولة واستقامة، سهل التعبير، مستقيم المعنى وكما يروى عن النبي صلىاللهعليهوآله «إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلا وبيّنه تبيينا، لا تنثره نثر الدقل ولا تهذّه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحرّكوا به القلوب، ولا يكونن همّ أحدكم آخر السورة».[4]
أقول: وهذا من مقربات الفهم ومجذبات الإتباع، فقد فرق الله القرآن طوال البعثة دون أن ينزله جملة واحدة، ليثبت به فؤاد الرسول وليقرأه على الناس على مكث، ورتله عليه بتسهيل التعبير والمعنى ليرتله هو أيضا ترتيلا، وهو يعم اللفظ والمعنى تعبيرا وأداءً وسبكا وكيفية،[5] كل ذلك لسهولة الإلقاء والتلقي متحللاً عن كافة الصعوبات هنا وهناك، وهذا هو معنى الإعجاز في فصاحة التعبير وبلاغة المعنى، فليس التشابة في بعض الآيات من قصور

[1]). نفرض أن الليل ١٢ ساعة فنصفه ٦ ساعات فاذا نقص منها ساعتان يبقى اربع ساعات وهي نصف الليل المفروض.

[2]). سورة الإسراء ١٧: ١٠٦.

[3]). سورة الفرقان ٢٥: ٣٢.

[4]). الدر المنثور ٦: ٢٧٧ اخرجه الديلمي عن ابن عباس مرفوعا عنه صلىاللهعليهوآله. واخرجه العسكري في المواعظ عن علي عليهالسلام عنه صلىاللهعليهوآله.

[5]). وعن الامام الصادق عليهالسلام ان الترتيل هو ان تتمكث فيه وتحسن به صوتك، وفي الدر المنثور ٦: ٢٧٧ عن النبي صلىاللهعليهوآله قال: يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرا وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها وفيه سئل صلىاللهعليهوآله اي الناس احسن قراءة؟ قال: الذي اذا سمعته يقرأ رأيت انه يخشى اللّه.

الدلالة، وإنما من قصور المستدل ونبوغ المعنى، وعلى حد تعبير الامام الرضا عليه‌السلام «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله».

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ فما هذا القول الثقيل الذي سيلقى عليه، ولكي يتلقاه عليه أن يقوم لياليه مصليا مرتلا للقرآن؟.

هل هو القرآن ولو بعضا منه؟ وقد نزل عليه بعضه وأمر بترتيله! أم هو البعض الباقي: أكثره؟ فما هو الفرق بين قليله وكثيره، وكله ثقيل بأي معنى قيل! أم هو القرآن المحكم النازل عليه ليلة القدر، بين هذه السورة وبينها أقل من شهرين؟ علَّه هو، إضافة إلى باقي القرآن المفصل، ففي القرآن المحكم النازل عليه دفعة واحدة، الملقى عليه ليلة القدر، ان فيه ثقلا ليس في مفصله النازل عليه نجوما طوال البعثة، ثم يتلوه ثقل الباقي من مفصله وهو أكثره، وفي وحدة القول هنا «قولاً» وانه يلقى «سنلقي» شاهدٌ لفظي على أنه القرآن المحكم، إضافة إلى القرينة المعنوية المسبقة.

ان القرآن قول ثقيل لعظم قدره، ورجاحة فضله، وخلوده، دون أن يمسه نسخ أو تحريف، وقد يثقل الأمة المتمسكة بحبله، المنفذة لأحكامه، ولذلك سماه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله أكبر الثقلين وأعظمهما وأطولهما وأتمهما فيما تواتر عنه، وسمى عترته الثقل الأصغر.

ولقد كان القرآن ثقيلا لدى الله في أم الكتاب ﴿وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾[1] فعُلوّه هناك وحكمته: ثقله، ثم نزل ليلة القدر دفعة، ثم طوال البعثة نجوما، نزل ثقيلا على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث يقول «فما من مرة يوحي إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض»[2] «فانه كان يتغير حاله عند نزوله ويعرق، وإذا كان راكبا تبرك راحلته ولا تستطيع المشي»[3] وهذا ثقله في القرآن المفصل، ثم القرآن المحكم المجمل النازل ليلة القدر يزداده ثقلين ١ ـ نزوله دفعة دون تفاصيل ٢ ـ القاءه عليه دون وساطة ملك الوحي، إذ لم يكن بينه وبين الله أحد، إذا فالقول الثقيل الذي سيلقى عليه هو القرآن المحكم، إضافة إلى باقي المفصل النازل عليه مفصلا: ثقلا على ثقل.

هذا ثقله في وحيه وقبله، ثم هو ثقيل في ميزان الحق ـ فان موازينه ثقيلة لا تخف أبدا ثقيل في تطبيقه، ثقيل على الاخفّاء الناكرين له، فلا بد من ثقله في قلبه هكذا ولحدّ كان يثقل على قالبه، فصاحب هذا القلب بحاجة في تلقي هذا الفيض الثقيل إلى مراس في تزكية قلبه بقيام لياليه بترتيله وذكر الله.

هذا هو القول الثقيل، فإن القرآن ليس في معناه ثقيلاً ولا في تفهمه وتذكره: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر» فقوله ـ إذا ـ ثقيل من حيث المقول، وكيفية إلقائه، وعرقلات تنفيذه.

إنه لابد للرسول إلى الناس كافة ـ وكثير منهم من النسناس ـ أن يحمل هذا القول الثقيل، لأن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى ثقيل، والإستقامة على هذه الرسالة الشاملة الأخيرة وراءَ الهواتف والجواذب والمعوقات والعراقيل، إنها لثقيل ثقيل، فلا بد له في ميادين الكفاح من حمل هذا القول الثقيل، فليتزود من قيام الليل لتلقي هذا الثقيل، ولكي يسبح في نهاره الطويل الطويل سبحا طويلاً.

﴿إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً﴾ ثقيل المصدر والصدور، ثقيل المحتد والدوام، ثقيل المنزل والنزول، ثقيل التنفيذ مستحيل الأفول، على سلاسة تعبيره، ونفاذ أمره وعبيره.

---

[1]). سورة الزخرف ٤٣ : ٤.

[2]). الدر المنثور (٦ : ٢٧٨) عن عائشة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[3]). نور الثقلين (٥ : ٤٤٧) عن عبد الله بن عمر.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾.
فرض عليك ـ كرسول إلى الناس كافة ـ قيام الليل لدوافع ومنافع عدة: ١ ـ ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ فلا بد له من التهيؤ ٢ ـ ﴿إن لك في النهار سبحا طويلاً﴾لا يبقى لك معه مجال القيام بالصلاة وترتيل القرآن ٣ ـ ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً﴾: فناشئة الليل هي العبادة التي تنشأ بعد العشاء، نشوءَ النور في الظلام، فالعبادة التي هي وليدة الليل وناشئته، تفضل على عبادة النهار من حيث الوطء والقيل، ولقد كان قيام الرسول صلى الله عليه وآله بعد العشاء بسويعات منامه القليل، وهو اذ أمر بقيام الليل كان أمرا بقيامه: عن النوم، وبالعبادة، تهجدا في أثنائه ، وترتيلاً للقرآن في آنائه.
«هي أشد وطأ»: مواطاة: يواطيء فيها السمعُ القلبَ، واللسانُ العمل، لقلة الشواغل العارضة، واللوافت الصارفة، ولأن البال فيه أجمع، والقلب أفرغ، فالقراءة فيه أقوم، والصلاة اسلم.
هي أشد مواطأة هكذا، ولأنها أشد وطأة: أوعث مقاما وأصعب مراما، فان مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش، بعد كدّ النهار وسبحه الطويل، لها وطأتها وشدتها التي لا يطيقها إلا المخلصون، فناشئة الليل ووطأته أشد.
«وأقوم قيلاً» لأن قيله ثقيل إلا على الخاشعين، وأنه يصدر من لباب القلب وخالق القلب أعلم بمداخله وأوتاره، وما يتسرب اليه ويوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحا واستعدادا، فللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة شفافيتها ولترتيل القرآن نورانيتها: إذا فوطأتها أشد، وقيلها أقوم، فإعدادها لسبح النهار ـ الطويل ـ أتم.
﴿إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحا طَوِيلاً﴾ ولا يناسب السبح إلا في غمرات المياه المضطربة الواسعة الفسيحة، فان لك اضطرابا في غمرات المجتمع، وتقلبا في جهاته، ومتصرفا ومتسعا، ومذهبا منفسحا، تقضي فيه أوطارك، وتبلغ مآربك، وتنجي الغرقى من ورطات الغمرات العميقة، وتحارب أمواجه الضاربة في الأعماق المضطربة، فهذا السبح الطويل في نهارك، بحاجة إلى تسبيح طويل في ليلك، تسبيح يعدك للسبح، ولكي تنجوا من ورطاته، وتنجي الناس جميعا من غمراته، فانك سفينة النجاة!.
﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾: فقيامه صلى الله عليه وآله يشمل ناشئة الليل، بصلاته وترتيل القرآن، وذكر اسم الرب، والتبتل اليه تبتيلا، وليأخذها زادا في سبحه الطويل.
«واذكر اسم ربك»: ولأنك تحمل في رسالتك بلاغ الربوبية والتربية الإلهية، فعليك أن تذكر اسم ربك بقلبك، فهو مصدر الذكر ومورده أولاً وبقالبك: بلسانك وجوارحك وفي كافة تصرفاتك، ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر، واكمله الصلاة فانها كلها ذكر الله وتحميده وتمجيده وتعظيمه بالأقوال والأفعال والإشارات.
«وتبتل الله تبتيلا».. هكذا ذكرٍ شامل كامل يبتِّلك إلى ربك، فالانقطاع إلى الله على قدر الواقع من ذكر الله، والتبتل إلى الرب هو الانقطاع الكلي عما سواه والاتجاه التام اليه، والإنفلات من كل شاغل وخاطر، لكنما المرجو من تبتلك أن يحمل معه التبتيل «وتبتل اليه تبتيلا» لا «تبتلا» تبتلا لك يحمل تبتيلا لمن أرسلت اليهم، فكما كان قيامك بالليل تهيؤا لتلقي القول الثقيل، ولتسبح نهارك الطويل، كذلك ليكن تبتلك للتبتيل.
فليس الإتيان بالتبتيل هنا لمجرد رعاية الوزن والتجميل «طويلا. تبتيلا» فالقرآن كتاب معنى قبل أن يحمل الوزن في التعبير، وقد يناسب وزنُ المعنى ووزن التعبير كما هنا «وتبتل اليه تبتيلا» تبتلا ينحوا في طياته منحى التبتيل لتنقطع إلى الله، لك كمحمد، وللمرسل اليهم كرسول، فكما على الرسول أن يتبنى شخصه ليصلح لحمل الرسالة ضمن صناعة نفسه كعبد شكور، فعليه ـ كرسول ـ أن يتبنّى المجتمع الذى أرسل اليهم.
ثم هناك نكتة أخرى هي أدق وأرقى: أن المنقطع إلى الله مشغول عما سواه والمنقطع إلى ما سوى الله مشغول عن الله، فالجمع بين التبتل ـ وهو الاشتغال التام بالله ـ وبين التبتيل، وهو الاشتغال بغير الله ليقطعهم عما سوى الله: ان هذا الجمع لصعب مستصعب، لكنما الرسول يؤمر في تبتله بالتبتيل، ففي حين انه مشتغل بالله عما سواه، إنه يشتغل بما سواه لتوجيههم إلى الله، وهذا هو مقام الجمع في الوحدة والوحدة في الجمع، يسبح نهاره طويلا في الدعوة إلى الله، ويلاقي الصعوبات والحرمانات في الله، وهو متبتل إلى الله ومبتِّل سواه عما سوى الله، فذكره ذكر واحد، وعمله واحد، طالما يختلف في صور الصلاة وترتيل القرآن وذكر الله، وفي الجهاد والدعوة إلى الله، فإنه ينحوا في هذا السبح الطويل منحى الله، فتبتُّله تبتيل، وتبتيله تبتُّل!.

ولطيفة ثالثة: هي أن التبتل هو تقبل للبتْل، والتبتيل هو فعله، فقد يعنى بالأول قبوله العصمة الإلهية في انقطاعه إلى الله، وبالثاني محاولته لانقطاعه ومَن سواه إلى الله، والنتيجة أن انقطاعه الخاص إلى الله ليس من فعله هو فحسب، وليس تسييرا إلهيا فحسب، وإنما هو أمر بين أمرين، جذبة إلهية متممة لمحاولة الانجذاب والانقطاع إلى الله، وكما العصمة في كافة مراحلها ليست إلهية خالصة ولا بشرية خالصة، إنما هي سعي حسب المستطاع من المعصوم في البداية، ثم جذبة الهية، ثم سعي ثان ويساير تلك العصمة الخاصة الإلهية.

فهل القرآن سحر يؤثر

«ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدا».[1]

تقول الأحاديث أن المندّد به في هذه الآيات هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب، وكان من المستهزئين برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله حملته قريش على أن يفكر ويقدر لكي يعارض القرآن بما عارض «إنه سحر يؤثر». و«وحيدا» هنا يتحمل كونه حالاً من مفعول «ذرني» ومن فاعل «خلقت» وهما الله وحده، أم من مفعول «خلقت» المحذوف «ه» أو مفعولاً له ثانيا، فالمعني على الترتيب:

ذرني أنا وحيدا مع من خلقته، فالخالق وحده كاف لخلقه أجمع، في خيرهم وشرهم، فلا تحاول لمجابهة كيد الوليد الوحيد وغيره، إلا حول الله وقوته.

ذرني ومن خلقته أنا وحيدا، لم يشاركني في خلقه غيري، فلا يكفي شره غيري.

ذرني ومن خلقته حال وحدته، بلا مال ولا بنين، ثم جعلت له مالاً ممدودا وبنين شهوا، فأنا المعطي وأنا الآخذ، فأنا الكافي شره وبأسه.

ذرني ومن خلقته وحيدا عن مُثُل الإنسانية كلها، وعن الأب أيضا، فقد ولد من زنا ولم يعرف له أب، وكما عن الإمام الصادق عليه‌السلام «الوحيد ولد الزنا».

ومن ألطف ما هنا في «وحيدا» أنه على الاخيرين يلمح إلى إسمه المستعار «وحيد قريش» إذ كان يسمى وحيدهم الفريد، وكما ادعاه هو أيضا[2] فهذا التلميح عما كان يفتخر به هو وقومه، يعكس الأمر إلى التقبيح، أنه الوحيد عن المثل وعن أب يعرف، لا في الفضائل، وإن كان وحيدا في المال الممدود والبنين الشهود، فهو من خلق الله لا منه، فبماذا يفتخر وفيم يغتر؟ هل بما جعل الله له من مال وبنين إملاءً وابتلاءً؟ أم بما تجرد في أصله عن أب يُعرف؟ أو في حاله الجرداء عن كل معروف؟.

وعلى الاولين يلمح إلى صغره وضعفه وجاه خالقه العظيم، ف «ذرني ومن خلقت وحيدا».

هذه المعاني الأربعة متضامنة، قد لا تصلح واحدة دون أخرى، فخلق الوليد وحيدا عن المال والبنين، خلق يعم كل مخلوق، وفيما إذا انضم إليه وحدته عن الأب، فهو صفة ذم، وبانضمام وحدة الخالق في خلقه، يصبح الوليد هزيلاً

---

[1]). سورة المدثر ٧٤: ١١.

[2]). نور الثقلين ٥: ٤٥٧ عن زرارة قال: ذكر لابي جعفر عليه‌السلام عن أحد بني هشام انه قال في خطبته: انا الوليد الوحيد، فقال: ويله! لو علم ما الوحيد ما فخر بها، فقلنا له وما هو؟ قال: من لا يعرف له اب.

ضعيفا على ماله الممدود وبنيه الشهود، وبالنظرة إلى وحدة الخالق في كفايته بأس الوليد، يرتعش الحسّ من بأس الله ارتعاشة الفزع المزلزل، إذ يتصور انطلاق القوة التي لا حدّ لها، ففي هذه الوحدات الأربع، ينسحق المخلوق أيّا كانت قدرته وجبروته، فماذا يصنع إذا الوحيد الضعيف المسكين الهزيل الضئيل!.

ففيما يخيّل إلى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله أن لكيد الوحيد وأضرابه، تأخيرا للدعوة وتأثيرا سيئا على المدعوين، نرى المهيمن الجبار الواحد القهار، كيف يُطمئِنه صلى‌الله‌عليه‌وآله ويريحه: أن الوحيد في خلق الوليد هو الوحيد الكافي عنه بأسه، كيف لا! وقد خلق وحيدا عن كل حول وقوة، مما يدل أنه لا يملك لنفسه شيئا، فما له مع من يملكه ويملك كل شيء!.

وفيما إذا سئلنا عن رابع المعاني المسبقة، هل إن خلق الإنسان من زنا، هو من الله؟ أو إن تجرده عن المثل الأخلاقية من الله؟.

فالجواب أن الله هو الذي يخلق الجنين، من نكاح كان أو من سفاح، فولد الزنا من خلق الله كغيره سواءٌ، وليست عملية الزنا أو النكاح إلا من الإنسان، و«خلقت وحيدا»: عن زنا دون أب يعرف، ليس إلا تنديدا بأصله المتخلف عن شريعة الله، وان لم يكن له هو دخل في هذا الأصل، ولكنه مشى حياته التخلف، واستمر على ولادة الزنا خُلقا، دون أن يرجع إلى فطرته، فاستحق الذم بكيانه ككل.

ثم الإنسان ـ أيّا كان ـ يولد على فطرة سليمة طاهرة، فإذا انطلق منها انطلاقة الخير فهو السعيد بما سعى وهداه الله، وإذا تخلف عنها حجبت فطرته بالشهوات والتخلفات، وتصبح في التزذل إلى أسفل سافلين، يرده الله إليه بعد ما خلقه في أحسن تقويم، فكأنما خُلق هكذا أجرد، عن المثل العليا بمبادئها، إذ لا يُلمس فيه شيء منها ولا ندى، فكأنه ـ إذا ـ خلق وحيدا عنها «ذرني ومن خلقت وحيدا» طالما كانت الوحدة عن تلكم المثل والتجرد عنها، كل ذلك بما سعى وغوى، ولكن الله هو الذي يزيغ القلوب بعد ما زاغت جزاءً وفاقا: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم».

«وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودا وَبَنِينَ شُهُودا».

إن المال الممدود والبنين الشهود هما الأساسان الأصيلان في الحياة الدنيا، وليس الإمداد بهما من الله مسارعة في الخيرات، فقد يكون املاءً وابتلاءً: «أيحسبون أنما نمدُّهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون».[1]

والمال الممدود ما يمدّ الانسان في الحياة ويجره إلى بغيته فيها كما يهواه، وهذا الممدود يقتضي مدّا زمنيا طول الحياة دون انقطاع، ومدّا من حيث المكان، ولكي يستطيع تجوالاً واسعا في ماله وكما يروى: «كان ماله ممدودا ما بين مكة إلى الطائف، من ضرع وزرع وتجارات وبساتين وأشجار وأنهار، وكان له بستان لا ينقطع صيف شتاء» ثم يقتضي مدا فيها بالزيادة دون نقصان، ولقد كان له كل ذلك، لكنه لم يمدّه إلا في طغيان يعمه وبغي وتَرح «ولا تحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خيرا لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين».[2]

والبنون الشهود هم الشاهدون مصالح الأب ماديا ومعنويا ليل نهار، فالبنون الغيَّب عن الأب، المستقلون في مصالحهم، ليسوا قوة وأزارا للأب، وقد يكونون عليه وزرا، كالشهود في مصالحهم أنفسهم، والغُيَّب عن مصالح الأب، فعدمهم خير من وجودهم، وغيابهم خير من شهودهم.

فالوليد الوحيد أعطي بنين شهودا: شهودا لأمواله استزادة لها دون نقصان وشهودا لأحواله في الاتراح والأفراح، وشهودا له لا عليه، فيما يتطلب الشهادة، وشهودا في تلقيهم عن والدهم، وأداء له، يمثلونه كأنهم هو وكأنه هم، لا يفارقهم ولا يفارقونه، وقد كانوا ـ كما يروى ـ ثلاثة عشر، أقوياء جبارين عقلاء.

«وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ» تمهيدا وحيدا في الحياة وجاه قومه وأقرانه، وسهلت له سبل الحياة تسهيلاً «ثم يطمع أن أزيد»: تمهيدا له بالمال الممدود والبنين الشهود، كأنه أعطي ما أعطي استحقاقا أو دونه، ولذلك يطمع

[1]). سورة المؤمنون ٢٣: ٥٥.

[2]). سورة آل عمران ٣: ١٧٨.

أن أزيد!.

«كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدا سَأُرْهِقُهُ صَعُودا».

«كلا» ليس كما يطمع فلن أزيده شيئا، وليس كما يزعم، فلم يعط استحقاقا وإنما ابتلاءً واستخفافا: «إنه كان لآياتنا عنيدا» آيات النبوة والوحي من القرآن العظيم، وآيات الله من ملائكة الوحي والرسل، وآياته الكونية الدالة على ألوهيته إذ لم يكن ليعتبر بها، إنه كان عنيدا: كثير العناد والعتاد لهذه وتلك، لذلك انتخبته قريش لكي يفكر وينظر في أمر هذه الآيات، فانه كان ضليعا في اللغة العربية فاختاروه، محاولة للقضاء على وحي القرآن، وليخيّل إلى الناس أنه قول البشر وسحر يؤثر، لذلك حق عليه أن يرهق صعودا يضطر إلى عذاب صعَد، يغشاه بقهرٍ غليظُ العذاب، في دنياه إذ لم يأت بشيءٍ ضد القرآن، إلا حكما ضد العقل: «إن هذا إلا سحر يؤثر» ومن شأن السحر الزوال دون البقاء! وفي عقباه صليه سقر، وإنما العذاب الصَّعود هنا جزاء الكيد الصَّعود ضد القرآن كما كاد: بما أرهق نفسه بعناء طويل.

فالذي ينحرف عن سبيل الايمان الميسر الودود، ويقطع حياته ضد الحق في شدة واضطراب وقلق، فحياته النفسية والفكرية هنا صَعود، فكذلك هي في الأخرى صَعود جزاء وفاقا.

فإن كانت الأكثرية الساحقة من أصحاب الجحيم إنما يستحقونها بما انجرفوا في تيارات التخلف دون تفكير، فهذا الوليد الوحيد سوف يصلى النار بما اعتمله بتقدير وتفكير، فقد حاول أن يعكس أمر الحقيقة بعدما تجلت له من وحي القرآن، فحق له إذا عذاب السعير:

«إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَفَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ».

لقد اجتمعت اليه قريش ـ بما عرفوا من عناده لرسول الله صلى الله عليه وآله وأنه أعقلهم وأقدرهم على معارضه القران ـ فقالوا: يا أبا عبد شمس، ما هذا الذي يقول محمد؟ أشعر أم كهانة؟ أم خطب؟ فقال: دعوني اسمع كلامه، فدنا من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد أنشدني من شعرك، قال: ما هو شعر، ولكنه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله، فقال: اتل عليّ منه شيئا، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله «حم السجدة» فلما بلغ قوله «فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» اقشعر الوليد وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته ومرَّ إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك، فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم إن أبا عبد شمس صبأ إلى دين محمد، والله ليصبأن قريش، أما ترى لم يرجع إلينا، فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال: يا عم نكست رؤوسنا وفضحتنا وأشمتّ بنا عدونا وصبوت إلى دين محمد، فقال: ما صبوت إلى دينه ولكني سمعت كلاما صعبا منه تقشعر الجلود، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق، وانه يعلوا وما يعلى! فقال له أبو جهل: أخطب هو؟ قال: لا، إن الخطب كلام متصل وهذا كلام منثور لا يشبه بعضه بعضا، قال: أفشعر هو؟ قال: لا، أما إني لقد سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها، ورملها ورجزها وما هو بشعر، وهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط.

ثم قال: تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يحنق؟ وتقولون انه كاهن فهل رأيتموه يحدث بما يتحدث به الكهنة؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهم لا، قالوا له فما هو؟.

ففكر فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه....

إن آخر ما وصل إليه الوليد في تفكيره وتقديره وقياسه القرآن على غيره: أنه سحر لا كسائر السحر، إنما سحر يؤثر، سحر لأنه يفرق بين الأحبة ويؤثر لأن الفراق الناتج عنه لا يزول كسائر السحر، وإنما يؤثر ويبقى. «إنه فكر» في أمر القرآن ليعتبره من كلام الخلق «وقدر» بكافة المقادير التي يمكن أن يقدر ويقاس بها كلام، فلم ير فيه شبها من شعر ولا خطب، «فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر» قدَّره وقاسه بسائر السحر فما قدر أن يقول: هو سحر، لأن السحر لا يبقى ولا يؤثر، فأثر السحر ـ أيُّ سحر ـ داثر يزول بمثله أم بنفسه أم بمعجزة إلهية، ولكن أثر القرآن باق، لا يزداد على طول المكوث إلا إزدهارا، والسحر لا يوافقه العقل والفطرة والذوق السليم، ويمكن إبطاله بالبراهين العقلية، والقرآن يأخذ بأزمة العقول ويجعل الإنسان مختارا بين الرد والقبول، لا محتارا لا حول له ولا قوة، فلا يمكن

القول أنه سحر كسائر السحر. ثم «نظر» في الأمرين: أنه سحر؟ لا! أنه معجزة إلهية؟ لا يوافقها هواي، فخلط بين الأمرين فقال «إن هذا إلا سحر يؤثر» ففرَّع على دعوى السحر «إن هذا إلا قول البشر» ولم يفرع على قوله «يؤثر» شيئا، لأنه يحمله على مصارحة التناقض إذا قال «معجزة» إذ من شأن البقاء والاثر في مثل هذا الكلام ألا يكون من كلام البشر، فخلط حقا بباطل، ثم استنتج من باطله باطلاً وتغمض عن حقه «ثم عبس وبسر» قطب حاجبيه عابسا، يقبض ملامح وجهه باسرا ليستجمع فكره، وعرف بعد ذلك كله أنه وحي، ولكنه «أدبر واستكبر» وعبر عن رأيه بعد هذا المخاض كله، وهذا الحذق كله، وقال: «إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر».

فهناك تفكير وتقدير ونظر وعبس وإدبار واستكبار وانكار، أبواب جهنمية سبع فتحها الوليد ليحرق بنيرانها وحي القرآن، ولكن هذه التقولة الجهنمية لم تفضح إلا إياه لمن فكر وقدر ونظر حقه دون ادبار واستكبار وإنكار.

فكر في القرآن الذي سمعه واحتار في أمره واقشعر، وقدره وقايسه بسائر الكلام من نظم ونثر، ثم نظر فيما قدر فلم يقدر على شيء يبطل به وحي القرآن حالات ثلاث كلها فكرية قلبية، فلما لم يجد حيلة عبس في وجهه وملامحه، ثم أدبر عما حصل بتفكيره وتقديره ونظره، واستكبر عن إظهار الحق، فلم يجد بدا أن يخلطه بالباطل ليستره على الجاهلين وقد ستر وانكر.

إن العَبْس هو قُطوب ما بين العينين، والبَسر هو الاستعجال بالشيء قبل أوانه، فقد عبس حيث احتار بين أمرين ١ ـ نصوع وحى القرآن فكيف يكذبه ٢ ـ عناده لنبي القرآن فكيف يصدقه، ولذلك «بسر»: استعجل في حكمه دون أن يتأمل في مغزاه، أنه سوف يفضحه، فآثر عاجل دنياه على آجل عقباه، واستعجل عذابه النفسي هنا بما أبداه من تناقض «سحر يؤثر» قبل أن يأخذه عذابه الشامل يوم الطامة الكبرى.

«فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ»: إنه قتل نفسه بتقديره مرتين: في الدنيا إذ فضح نفسه بما أنتجه من تناقض: «سحر مؤثر» وفي الآخرة إذ يصلى سقر، وكل ذلك بما قتل ضميره في حكمه الباطل، رغم معرفته بحق الوحي القرآني «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا».

ف «قتل» هنا وهناك إخبار ولا دعاء، وحاش ربنا عن الدعاء، فانه ليس إلا لمن يعجز عن الوصول إلى بغيته، فيدعوا غيره ليوصله اليها، فهل لربنا رب يدعوه؟.. وإنما كيفية تقديره بما فكره قبله ونظره بعده، إنها قتلته وفضحته وعذبته، بما قتل حينذاك ضميره المدرك، تأمل.

«فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ»

فما هو السحر؟ وما الذي يؤثر؟

إن السحر هو اصابة السَحَر: طرف الحلقوم، ما يؤثر في الإنسان دون اختياره ومن حيث يعمى، وهو يبطل بسحر مثله أو أقوى، فأحرى أن يبطل بمعجزة إلهيه، ومن ميزاته أن يرهب ويأخذ العين على غِرَّة: «فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم»[1] وان الله يبطله: «قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون»[2] وانه لا يتخطى الخيال إلى العقل «فإذا حبا لهم وعصيُّهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى»[3] وجماع القول في السحر انه لا يفلح فاعله حيث أتى فلا يبقى: «إنما

[1]). سورة الأعراف ٧: ١١٦.

[2]). سورة يونس ١٠: ٨٢.

[3]). سورة طه ٢٠: ٦٦.

صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى»[1] ومن آثار السحر التفريق بين الأحبة «فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه» ولكنه أيضا غير مفلح إذ يبطل بسحر مثله أو معجزة، فلا يؤثر ويبقى، وآخر ما توصل إليه الوليد في قولته الباردة «إنه سحر»: ما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه وهنا استفاد من جهل الجهال بمجرد تشابه التعبيرين: «ان الساحر يفرق. وترون هذا أيضا يفرق» ويا له من فرق شاسع بين التفريقين، ما يفرق بما يعمى سببه ولا يبقى ولا يعرف لماذا؟ وهو السحر وأشباهه من الباطل، وما يفرق مبصرا بسناد البينات الفطرية والفكرية والعقلية، فإن كان كل مفرق سحرا فليكن العلم والعقل وسائر الكمالات المفرقة بين الناس، ليكن كل ذلك سحرا، ولتكن كافة المبادىء والأديان الحقة المفرقة بين المحقين والمبطلين سحرا.

إن القرآن ورسول القرآن يفرقان بين المتحدين في الحيرة والضلال، ففريق يؤمن وفريق يكفر، كلٌّ على بيّنة مبصرة، وإيمانا لبيناته، وكفرا لشهواته، دون أن يعمى لهما المصدر والمورد والدليل، فهل هذا سحر؟ كلا! وكما اضطر الوحيد أن يتبعه ب «يؤثر» يبقى، ولكنما السحر لا يبقى!.

فمن الفوارق بين السحر والآيات المعجزة أنها مبصرة بينة لا تخفى على العقول ومفلحة تأخذ بأزمه القلوب دون زوال، فهل القرآن إذا سحر؟.

«يؤثر» قد تكون «يؤثر» من الإيثار، أي ـ على كونه سحرا ـ يقدم على غيره، من السحر ومن الآيات المعجزة، فلا تتغلب عليها أية محاولة لمعارضته، إنما «يؤثر».

وقد تكون من الأثر بمعنى البقاء: سحر يبقى! فهو بالمعنيين ليس سحرا، إذ هو يبقى والسحر لا يبقى، ويقدم على غيره من سحر ومعجزة، والسحر يبطل بسحر مثله وبالمعجزة، إذا فلم ينتج تفكير الوحيد وتدبيره ونظره إلا حكما متناقضا في نفسه.

«إن هذا إلا قول البشر» وهذا صحيح إذا كان سحرا، ولكنه يؤثر، فكيف يكون قول البشر، فهل يوجد من قول البشر ما يؤثر؟!.

« سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِعَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ».

فكما أن الوليد الوحيد أصلى نارا ليحرق بها وحي القرآن، ما يزعم أنه يجعله بين الحياة والموت، موتا بالسحر وحياتا بأنه يؤثر، كذلك هو سيصلى سقر، نارا لا تبقي ولا تذر.

وبما أن السقر من سقرته الشمس: لوّحته وأذابته، فهي أصل النار وأشده في الجحيم، يصلاها: يوقدها ـ أمثال الوليد من الالداء الأشداء، رؤوس الكفر والضلالة.

«وما أدراك ما سقر»؟ انك دريت ما هي، لكنه بالوحي، فهي من الشدة لحدّ لا مثيل لها يوم الدنيا حق يقاس بها، فهذا تهويل بتجهيل سقر، ثم يفسرها بمفعولها وبعض ملازماتها:

«لا تبقي ولا تذر»: فهي تكنس اهلها كنسا وتمحوهم محوا، فلا يقف لها شيء على حاله، فلا تبقيهم أحياء ولا تتركهم يموتون: «الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى»[2] حالة وسطى بينهما هي أشد من الموت، وكما لا تبقي لهم أرواحا ولا أجسادا إلا أحرقتها، «نار الله الموقدة*التي تطلع على الأفئدة»[3] دون النار الدنيا الخاصة بالأجساد، وكما لا تبقي لهم جلودا ولا تذر: «كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب»[4] نارا

---

[1]). سورة طه ٢٠: ٦٩.

[2]). سورة الاعلى ٨٧: ١٣.

[3]). سورة الهمزة ١٠٤: ٧.

[4]). سورة النساء ٤: ٥٦.

ساحقة ماحقة فيها أشد العذاب وأبقاه، ومن آثارها:

«لواحة للبشر» البشر جمع البشرة، الظاهر من الجلد، لأي صاحب جلد، واختص الانسان باسم البشر بين سائر ذوي البشر، لظهور جلده دونها، فانها مستورة باشعر والوبر: فهي أيضا بشر في أصل المعنى، والبشر هنا في وجه عام يعم كل ذي بشرة ممن تلوِّحه النار من جن وانسان وحيوان، وإن كان يلمح للبشر الإنسان بوجه خاص، فالبشر هنا عام لكل بشرة وبشر.

واللواحة مبالغة من «لاح»: ظهر ـ فهي لواحة: كثيرة الظهور والبروز، «وبرزت الجحيم لمن يرى»[1] ولائحة كاللوحة، تلوح فيها أعمالهم الشريرة، فان النار ليست إلا ظهورا للتخلف عن الهدى والنور بقدره. وتلوِّح البشرة أيضا من «لاحه» العطش ولوّحه اذا غيَّره، فهي تسوِّد البشرة وتنضجها تغييرا للونها وهيئتها «كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها» فهذه النار هي عذاب مثلث لأهلها، تثير الفزع في النفوس بنظرها المخيف رؤية لها، وللاعمال الناتجة هي عنا، وبأثرها الساحق نضجا وتسويدا للبشرة، فهل ان لأهلها من خلاص؟ ولات حين مناص! فانها تحت الحراس، بملائكة غلاظ شداد:

«عليها تسعة عشر» تسعة عشر ملكا، لا طائفة أو جماعة من الملك، فان معدود المؤنث هنا غير مؤنث، فليست امرأة كذلك، ثم ولا رجلاً، ولأن النار تحرق الإنس والجن، فليس أصحاب النار منهم بل «وما جعلنا اصحاب النار إلا ملائكة» والملك ليس مؤنثا، ولا لفظيا، فليكن هو المعدود لهذا العدد المؤنث، دون المؤنثات اللفظية والمعنوية.

وهؤلاء التسعة عشر ملكا «ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»[2] ويرأسهم واحد منهم «مالك» فانه يملك النار ويحرسها ببقية الزبانية: «ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون»[3] وهو ومن معه هم الزبانية: «فليدع ناديه. سندع الزبانية»[4] من الزبن وهو الدفع، فهم شُرَط النار الدافعون أهل النار إلى النار، وهم خزنتها: «وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم».[5]

القرآن

مجموع من عند الله

---

[1]). سورة النازعات ٧٩: ٣٦.

[2]). سورة التحريم ٦٦: ٦.

[3]). سورة الزخرف ٤٣: ٧٧.

[4]). سورة العلق ٩٦: ١٨.

[5]). سورة الزمر ٣٩: ٧١.

«لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ»[1]
إلى «بيانه»: آيات أربع اعترضت بين آيات القيامة، ناهية رسول الهدى عن عجلة اللسان وحركته بالقرآن قبل قضاء وحيه وقرآنه: «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما»[2] فقد أمر باتباع قراءتَه دون استعجال بها قبلها، ولا تحريك لسانه بها، مما يوحي أنه صلى‌الله‌عليه‌وآله استعجل في قراءة آيات أو حَرّك لسانه بها قبل قضاء وحيها وقراءتها ولماذا وكيف؟.

فهل بالإمكان قراءة القرآن قبل قرآنه: نزوله مقرؤا؟ وإذ لا! وطبعا لا! فكيف ينهى عنها؟ تجد الجواب في آيات القدر وحم، الدالة على نزول القرآن المحكم في ليلة القدر، فلقد كان للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله خبرة واطلاع بالقرآن المحكم قبل وحيه المفصل: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»[3] ويريد اللّه أن يكون القرآن وحيا مزدوجا: لفظا إلى معنى، ولا يكفى العلم بوحي المعنى ولا سيما المحكم منه، عن الوحي المفصل، الذي فيه وحي اللفظ وتفصيل المعنى، ففيه زيادة العلم ورجاحة الاعجاز: «وقل رب زدني علما».[4]

فلم تكن العجلة بالقرآن استعجالاً في ترداده بعد قراءته لحفظه،[5] لمكان النص «فاذا قرأناه فاتبع قرآنه» و«.. قبل أن يقضى إليك وحيه» وقد ضمن اللّه له بداية الوحي المفصل ألا ينساه: «سنقرءك فلا تنسى» وإنما هي لشغفه البالغ في تحلية لسانه بالقرآن المفصل بعد ما تحلى قلبه بالقرآن المجمل، واعتمادا على هذا العلم المسبق، ولكن «لا تعجل..» «لا تحرك..» «وقل رب زدني علما» «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنـزيلاً» فقد كان قرآنا غير مفروق في الوحي المجمل، ثم فرقه اللّٰه بالمفصل.

وآيتا النهى عن الاستعجال والتحريك توحيان أنه صلى‌الله‌عليه‌وآله إنما حرك لسانه ليعجل خلال آيات «القيامة» وانه استعجل بين الآيات من «طه» وهما مكيتان، والنهي هنا وهناك نهي تنزيه وإنباء، لا نهي تحريم، وليجمع اللّٰه وحي اللفظ والمفصل إلى وحي معناه، لا فحسب، فقد كتب على نفسه جمع المفصل أيضا وقرآنه.

فمن ثم توحي الآيات انه ليس على الرسول شيء من الأمر بشأن القرآن، في نزوله عليه نجوما حسب الحاجات والمناسبات، وفي جمعه وتأليفه كما هو الآن «إن علينا جمعه وقرآنه» وليتبع قرآنَه على الناس بعد جمعه وقرآنِه من اللّٰه: «فإذا قرأناه فاتبع قرآنه»، فلا عليه أن يحرك به لسانه ليعجل به سنادا إلى نزوله عليه محكما مسبقا ليلة القدر، فهو الذي يفصله هنا كما أجمله وحيا إلى قلبك هناك «إن علينا جمعه وقرآنه» ولا موقع لجمع الآيات إلا بعد نزولها المفصل، إذا فجمع القرآن كنزوله إنما هو من اللّٰه، لا من النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فضلاً عن خلفاءه وأصحابه! فهناقرآن قبل الجمع هي الآيات النازلة نجوما متفرقة خلوا عن الروابط، وقرآن بعد الجمع هو المقرؤ على الرسول سورا منسقة بآيات مرتبة مرتبطة، وكلاهما من اختصاصات اللّٰه، كان يأمر الرسول أصحابه وكتاب الوحي أن يرتبوها

---

[1]). سورة القيامة ٧٥: ١٦.

[2]). سورة طه ٢٠: ١١٤.

[3]). سورة هود ١١: ١.

[4]). راجع ٣٠: ٢ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٦ من سورة القدر.

[5]). خلاف ما نراه في بعض الروايات.

كما يوحى إليه، ترتيبا وتأليفا بالوحي، كما النزول غير المؤلف كان بالوحي، وقد يوحي هكذا جمع إلهي بنزول القرآن المفصل مرتين، ولو تدريجيا حتى نزلت المائدة آخر ما نزلت من القرآن، فأصبح القرآن مؤلفا مجموعا كما هو الآن، وقد كان يدرس ويحفظ جميعه كجمعه الآن، فجماعة من الصحابة ختموه على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عدة ختامات وكان صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ حين جمْعه ـ يأمر الكتَّاب أن يسجلوا الآيات المتفرقات في مواضيع خاصة من السور التي رتبها بالوحي، وسماها جميعا كما تواتر عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله وتصرح آيات عدة أن القرآن كان سورا زمن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله[1] كما يروى عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله أيضا، أسماء السور وأعدادها وآياتها وحروفها.[2]

وهل يا ترى بالإمكان أن ينزل القرآن نجوما ثم يجعل الله أمر الجمع والتأليف فوضى بعد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وفي مختلف التأليف مختلف المعاني المسرودة فرادى، المقصودة جملاً! ولو صدقنا هذه الفوضى! فمن هذا الذي ألفه بعد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وكيف أجمع المسلمون في جميع القرون على ما جمعه غير الرسول، والمسلمون شتى والآراء شتى، لحدّ لم يجمعوا على جميع ما أتى به الرسول، فضلاً عن سواه!.

وهل يا ترى ان الله ينهى رسوله عن أن يعجل بلفظه وعنده معناه وعن أن يجمعه وهو مهبط تنزيله بآياته، وعن بيانه وهو الرسول! فيختصها الله بنفسه دون رسوله، ثم يسمح لخلفاء غير المعصومين أو المعصومين، أن يجمعوه ويؤلفوه؟ ثالوث الاستحالة بعيدا عن العقل والدين.[3]

ومن ثم فآية الجمع والبيان يغنينا عن القيل والقال في «مَن جمع القرآن وكيف جمع»؟ وما قيمة الأحاديث المتناقضة في كيفية الجمع وشخصية الجامع[4] المعارضة ـ لو دلت ـ لآية الجمع وبرهان العقل؟ وللأحاديث المتواترة

---

[1]). «فأتو بعشر سور مثله مفتريات» «فأتوا بسورة من مثله» فالسورة جماعة من الآيات مرتبة، سواء نزلت سورة ام رتبت بعد النزول سورة، والتحدي لا يخص ببعض القرآن، حتى يقال: عل المعني بسورة وعشر سور هي التي انزلت سورا، فانما يتحدى القرآن بكله «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا».

[2]). كما عن سعيد بن المسيب عن علي بن ابيطالب عليه‌السلام انه قال: سألت النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عن ثواب القرآن فاخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء فاول ما نزل عليه بمكة «فاتحة الكتاب» ثم «اقرء باسم ربك» ثم «ن» الى أن قال واول ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثم الانفال ثم ـ الى قوله ـ ثم هل أتى، ثم قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: جميع سور القرآن مائة واربع عشرة سورة وجميع آيات القرآن ستة الاف آية ومائتا آية وست وثلاثون آية وجميع حروف القرآن ثلاثمائة الف حرف واحد وعشرون الف ومائتان وخمسون حرفا لا يرغب في تعلم القرآن الا السعداء ولا يتعهد قراءته الا اولياء الرحمن. (كتاب الايضاح للاستاذ احمد الزاهد باسناده عن سعيد ابن مسيب عنه عليه‌السلام.

[3]). وهو: ١ ـ عدم امكانية هكذا جمع منسق بغير الوحي ٢ ـ واستحالة اجماع المسلمين على ما جمعه احدهم ٣ ـ واستحالة احالة الجمع الى غير الرسول مع ما نهي الرسول عنه.

[4]). فانها متناقضة في: زمن جمع القرآن، زمن ابي بكر؟ او عمر؟ او عثمان؟ وفي من تصدى لجمعه: زيد بن ثابت؟ ام ابو بكر نفسه؟ ام زيد وعمر؟ وفي: هل بقي من الآيات ما لم يدون الى زمن عثمان: بين نفي واثبات! وفي: هل محى عثمان شيئا مما كان قبله؟ بين نافية ومثبتة! وفي: من اي مصدر جمع عثمان؟ اعتمد على مصحف ابي بكر؟ ام هو جمعه بشهادة شاهدين؟ او باخبار كل من سمع عن رسول الله؟ وفي: من الذي طلب من ابي بكر جمع القرآن؟ هل هو عمر؟ ام زيد؟ وفي: من جمع المصحف الامام ونشره في البلاد؟ هل هو عثمان؟ ام عمر؟ وفي: من عينه عثمان لكتابة القرآن؟ هل هو زيد وابن الزبير وسعد وعبد الرحمان؟ ام زيد للكتابة وسعيد للاملاء؟ ام ثقيف للكتابة وهذيل للاملاء؟ او المملي ابي بن كعب وسعيد كان يعرف ما كتبه زيد؟.

أنه كان مجموعا زمن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.[1]
وما مصحف الإمام علي عليه‌السلام الذي جمعه بعد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله إلا نفس هذا القرآن في متنه، وإنما رفضوه للتفسيرات والتأويلات التي أوردها عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في هوامشه، مما فضحت جموع المنافقين، ولذلك رفضوه.
وما قصة جمع القرآن بعد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله زمن الخلفاء، إلا جمع المجموع زمن النبي، المكتوب مفرقا، فجمعوه في مصحف واحد، لكيلا يضيع جمع النبي كما جمع، وأجمعوا على قراءة واحدة هي المواترة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فرضيها المسلمون أجمع، ولكي يبقى القرآن وحيا خالصا حتى في قراءته، فلا يبقى مجال للإختلاف فيه، لذلك فنحن المسلمين لا نعتمد على سائر القراءات المخالفة للمتواتر المسجل في القرآن، لا سيما إذا خلفت اختلاف المعنى.
وما اختلاق نسبة أصل التأليف والجمع إلى غير النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله إلا توهينا للرسالة المحمدية، ووهنا لكيان القرآن، وترفيعا لشأن من نسبوا إليه هكذا جمع!.
كلا! إن القرآن كما هو الآن، كله إلهي، من معانيه وألفاظه وترتيب آياته وقراءته، وسوره وأسماءها: ازواجية الوحي، دون تدخل لغير اللّٰه في أيٍّ من هذه، ولا من الرسول نفسه إلا بالوحي.
وان قصة الجمع المزيفة، غير الإلهي، مما تذرّعها المتقولون عن التحريف، ضعف الطالب والمطلوب!.
«ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» بيان للقرآن المحكم بالقرآن المفصل، وبيان بجمع الآيات كما الآن، فان الجمع يساعد على تفهم المفردات، وبيان لكل آية بنظيراتها وإن كانت في غير جمعها، وبيان بوحي السنة المفسرة للقرآن، ازدواجية البيان بازدواجية وحي السنة والقرآن وكما تجدها في تفسيرنا «الفرقان»، فقد تكفل اللّٰه تكفلاً مطلقا بشأن القرآن، مجملاً وتفصيلاً وجمعا وحفظا وبيانا، ثم ليس للرسول ولا عليه إلا تلاوته للناس وبيانه كما بين له، وتطبيقه كذلك، وإن لتسجيل هذه المهمة الكبرى في وحي القرآن، قيمته في تعميق إيحاءاته للناس أجمعين.
«كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الأخِرَةَ»: هنا رجعة ـ بعد تحكيم وحي القرآن بهذه الجمل المعترضة ـ رجعة إلى التنديد بالانسان الناكر لرجعته حيا بعد الموت: ان من بواعثه حب الحياة العاجلة، ولا يتجمع حبها والآجلة: فحب كلٍّ منهما ينسي الثانية على قدره.

لا تعجل بالقرآن
من قبل ان يقضى وحيه

«وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنا عَرَبِيّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرا».[2]
«وكذلك» اللائح الواضح وضْحَ النهار لأبعد اغواره في البيان والتبيان «انزلناه» القرآن ـ «قرآنا عربيا» في لفظه ومعناه، في مرماه ومغزاه بمبتدءه ومنتهاه، فلا تجد فيه تعقيدا، ولا لفظا او معنى بعيدا «وصرفنا فيه من الوعيد» لمثلث النشآت، ما يحلُّ حالاً وما هو آت، دون إبقاءٍ لاي الوان الوعيد، من قريب وبعيد، فالتصريف تحويل من

[1]). رواها جماعة كثيرة من محدثي الفريقين وائمة الحديث.
[2]). سورة طه ٢٠: ١١٣.

حال الى حال حتى تتحول الاحوال بهذه الأهوال «لعلهم يتقون» المحاظير، ولا يعتذرون، بمعاذير يتقون عقائديا وعمليا، ام ولاقل تقدير يتقون التكذيب بآيات اللّه والصد عن سبيل اللّه.

«او يحدث» الوعيد «لهم ذكرا» اذا لا يتقون، ذكرا هو حجة عليهم حتى لا يقولوا «ربنا لولا ارسلت الينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى»[1] ومن إحداث الذكر واقع الوعيد المزمجز المدمِّر هنا ولَّما يتَّقوا أو يتذكروا، وهنا يذَّكَّرون و«أنّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول امين»[2] «وما اهلكنا من قرية إلاّ لها منذرون. ذكرى وما كنا ظالمين»[3] «حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت أنه لا إله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وانا من المسلمين.آلئن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين».[4]

«فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْما».[5]

«فتعالى اللّه» عما يصفونه وبه يشركون لانه «الملك» لا سواه «الحق» الثابت الحقيق بالوهيته الوحيدة لا سواه.

«تعالى» في ذاته وصفاته افعاله اذ «ليس كمثله شيء ـ ولا يحيطون به علما»! فكلُّ مَن سواه متدانٍ بجنبه عانٍ، واللّه تعالى هو المتعالي الملك الحق.

انه مَلِك ومالك لكل شيء بالحق من تكوين وتشريع ومنه قضاء وحي القرآن، فلا تملك منه شيئا اذ لا يُملِّك وحيه لغيره مهما كان رسول القرآن.

وترى ما هو استعجال الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بالقرآن حتى نهي عنه من قبل ان يقضى اليه وحيه؟.

فهل استعجل بنزول آية ولما ينزل لمواعدة بينه وبين بعض الكفار ان يجيبهم عن مسائل وقد ضربوا له اجلاً فانقضى ولما ينزل الوحي بالجواب؟[6] والعجلة بآية ليست عجلة بالقرآن ككل! ثم كيف يعجل الرسول بما اللّه يؤجِّله، حيث عجَّله الكفار بما قرروا له أجل الجواب! ويكأنه يعلِّق قضاء وحي اللّه على الآجال المضروبة من قبل الكفار!.

ام كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله اذا انزل عليه جبريل بالقرآن اتعب نفسه في حفظه حتى يشق على نفسه، يتخوف ان يصعد جبريل ولم يحفظه فينسى ما علمه فقال اللّه: ولا تعجل بالقرآن؟...[7]

وقد ضمن اللّه له من قبل ألا ينساه: «سنقرءك فلا تنسى»! وليس حفظ القرآن عجلة به بعد نزوله! وليس من

---

[1]). سورة طه ٢٠: ١٣٤.

[2]). سورة الدخان ٤٤: ١٣.

[3]). سورة الشعراء ٢٦: ٢٠٩.

[4]). سورة يونس ١٠: ٩١.

[5]). سورة طه الآية ١١٤.

[6]). تفسير الفخر الرازي: ٢٢: ١٢٣ قال الضحاك ان اهل المكة واسقف نجران قالوا يا محمد اخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك اجلاً ثلاثة ايام فابطأ الوحي عليه وفشت المقالة بان اليهود قد غلبوا محمدا فانزل اللّه هذه الآية.

[7]). الدر المنثور ٤: ٣٠٩ ـ اخرج ابن ابي حاتم عن السدي قال كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله:... وقال: لا تحرك به لسانك لتعجل به، اقول راجع تفسير الآية في الجزء ٢٩ من الفرقان تجد تفصيلاً لائقا بالبحث هناك.

حفظه للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله قضاء وحيه! ولا ينافي حفظه مزيد علمه، بل هو تثبيت لما اوحي اليه!.
إنه استعجال بتحريك لسانه به قبل قضاء وحيه تماما او بعضا حيث كان أليفا بمحكم القرآن قبل تفصيله، انيسا بمعانيه قبل الفاظه، فكان احيانا يسبق جبريل في قراءة الوحي ولمّا يقرءه، او لمّا يتم، شغفا بالغا الى منشور ولايته وسناد رسالته.
والآية متايدة في هذا التفسير الاخير بآية القيامة: «لا تحرك به لسانك لتعجل به* ان علينا جمعه وقرآنه* ثم ان علينا بيانه»[1] كما وتؤيَّد بتعقيبها في نفسها:
«وقل ربي زدني علما» فلا يكفيك العلم بمحكم القرآن النازل ليلة القدر، إذ لا يحمل التفصيلَ وليس إلا بالوحي، ولا يحمل تلك العبارات الفائقة التصور في اعلى قمم الاعجاز، وليس إلا بالوحي.
إذا فقضاء وحي القرآن هو اتمامه بعد شيء منه فقضاه بمعنى اتمه، والقرآن المفصل بلفظه ومعناه، هو إتمام للقرآن المحكم: «كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير».
هذا إتمام لمحكمه بمفصله، واتمامٌ ثانٍ هو في مفصله وكما يروى «كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله اذا نزل عليه القرآن بادر بقراءته قبل نزول الآية فانزل اللّه «ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضي اليك وحيه» أي يفرغ من قرائته «وقل رب زدني علما».[2]
ولا يؤنَّب الحبيب اذا عجل بكلام حبيبه شغفا بالغا فيه، اللهم إلاّ ان ينهى استكمالاً له وكما أمره: «وقل رب زدني علما».
وذلك التعقيب التلحيق العميق ينبهنا ان ليس الرسول محيطا بكل شيء علما، لا! وحتى العلم الرسالي بالفعل، فانما يتدرج في علمه ايا كان، شخصيا كالمعرفة ام رساليا كاحكامها.

القرآن
ذكرٌ ميسَّر للمتقين

«فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْما لُدّا وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزا».[3]
«يسرناه بلسانك» لا فقط بلغتك، فمن العربية ما هي صعب التفهم ومن غيرها سهلة، ولكن القرآن العربي اليسر في نفسه بلسان محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله بيانا له وبيانا لسائر المكلفين، فيه مثلث بارع من التيسير، وهذه سنة دائبة للرسل ان

[1]). سورة القيامة الآيات ١٧ ـ ١٩.

[2]). نور الثقلين ٣: ٣٩٦ في تفسير القمي في الآية قال كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله...

[3]). سورة مريم ١٩: ٩٧ ـ ٩٨.

يرسلوا بلسان قومهم، لا فقط بلغتهم: «وما ارسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم»[1] «فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون».[2]
فالتبيين بالقرآن والتبشير والإنذار والتذكار، كل ذلك على ضوء مثلث التيسير تاخذ مسيرها في العالمين كأوضح ما يمكن بيانا للقرآن العظيم، الذي «فيه تبيان كل شيءٍ» حاويا كافة المعارف الممكن التعرف اليها وحيا الى البشير النذير، تبشيرا للمتقين وانذارا لقوم لدٍّ لا يؤثر فيهم التبشير «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر».
«يسرناه بلسانك» بعد ان كان عسيرا في ام الكتاب: «إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون* وإنه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم»[3] تيسيرا للمحكم بتفصيل، وتيسير ثان تفصيله باللغة العربية، وثالث تفسيره ببيان الرسول صلى الله عليه وآله تبينا للقرآن بنفسه إذ يفسر بعضه بعضا، وتبيينا ثانيا بسنته.
«وكم اهلكنا قبلهم من قرن» جماعات في قرون مضت قَرن بعض وِتلوه «هل تحس منهم من أحدٍ» أثرا «او تسمع لهم رِكزا» صوتا، فلا صيت لهم ولا صوت، وانما موتٌ دون فوت.

القرآن
بيان قاطع لا مردَّ له
وكتمانه لعنة

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الكتاب أولئك يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ».[4]
الكتمان هو الستر على ما يجب إفشاءه أم هو فاش، سئل عنه أم لم يسأل، فانما هو هنا الأمر المنزل لكافة المكلفين، فانه لغويا: ستر الحديث، وهو يعم الحديث الفاشي المستور بعد الظهور، او الذي لا يُظهرَ، وهو بصيغة أخرى: ترك إظهار الشيء مع الحاجة إليه وحصول الداعي إلى اظهاره، وهذا أخف مراحل الكتمان، ثم «ما أنزلنا» يعم نازل الوحي من كتاب وسنة على ضوء وحي الكتاب، و«البينات» هي الحجج الباهرة، سواءٌ أكانت بينات التوحيد او الرسالة والمعاد، ام بينات لمادة الرسالة، فهي على أية حال بينات للهدى فانها مادة الرسالة، حيث الشرعة مركبة ـ ككل ـ من بينات وهدىً، والثانية ناتجة عن الأولى، فقد تُكتم البينات كإخفاء لآيات الهدى تكوينية أو تشريعية، أم تُكتم الهدى الناتجة عن تلكم البينات كتمانا لدلالتها على هداها، تأويلاً لها إلى غير معناها.
ثم «من بعدما بيناه للناس» لها مرحلتان، من بينات وهدى بينت لناسٍ أم لكل الناس ثم تُكتم بتدجيل وتجديف، وتلك هي الدركة السفلى من الكتمان.

---

[1]). سورة ابراهيم ١٤: ٤.

[2]). سورة النساء ٤: ٥٨.

[3]). سورة الزخرف ٤٣: ٤.

[4]). سورة البقرة ٢: ١٥٩.

ومن بينات وهدىً بينت لغرض أن تبيَّن للناس، فانها ليست ـ ككل ـ مبيَّنةً دون وسيط لكل الناس، لأنَّ منهم أميين لا يعلمون الكتاب إلا أماني فكيف بيِّنت لهم؟ ومنهم دارسون لا يقرؤن الكتاب فكيف بينت لهم؟ ومنهم من يتلون الكتاب ولا يعرفون كل بيناته وهداه، وهم كلهم من ضمن الناس الذين يقول الله عنهم «من بعد ما بيناه للناس»، فسواءٌ بينٌ لناسٍ دون وسيط، أم بيِّن بوسيط يحمَّل تبيينَه لسائر الناس، وكما تُقسَّم الأرزاق قسمين ثانيهما ان يُرزق المرزوق بما يُنفِق عليه المنفقون بإذن الله تكوينا وتشريعا، فانه أيضا من رزق الله، فقد تشمل الآية الكتمانين، كما تشمل الكاتمين كتابيا ومسلما، كتمانا لأصول من الدين أم فروع منه.[1]

فالله يبين ما أنزل من البينات والهدى للرسول بيانا للناس، والرسول يبينه لمن يأهل تعلما لكلِّ ما أنزل وهم أئمة أهل البيت عليهم‌السلام، وهم يعلِّمون العلماء على مراتبهم، ثم هم يعلمون سائر الناس، لأن النازل من الله ليس ـ فقط ـ للرسول او الائمة أو العلماء، إنما «من بعد ما بيناه للناس»: «وأنزلنا إليك الكتاب لتبين للناس ما نزل إليهم» و«هـذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين».[2]

ف «شر خلق الله العلماء إذا فسدوا وهم المظهرون للأباطيل، الكاتمون للحقائق وفيهم قال الله «اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون».[3]

وكما يحرم على علماء الكتاب كتمان ما أنزل الله، كذلك يحرم على الجهال كتمان انفسهم عن تعلُّم ما أنزل الله، والحق الأوّل هو على العلماء، فان من الجهال من يجهل انه يجهل، أم يعلم جهله ولكنه لا يجد سبيلاً الى التعلم، فعلم الدين كالماء يجب إرساله الى كل مكان لينتج نتاجه أيّا كان وفي أيِّ كان.

وليس يجب تعليم الدين ـ فقط ـ لمن يسأل، بل ومن لا يسأل أم لا يعرف كيف يسأل، بل هما أحرى ممن يسأل، والكتمان يشمل موارد السؤال وسواها، ف «من سئل من علم عنده فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»،[4] «من كتم علما مما ينفع الله به الناس في أمر الدين ألجمه الله بلجام من نار»،[5] و«مثل الذي يتعلم العلم ثم لا

---

[1]). نور الثقلين ١: ١٤٩ في احتجاج الطبرسي عن ابي محمد العسكري عليهما‌السلام حديث طويل وفيه: قيل لأمير المؤمنين عليه‌السلام من خير خلق اللّه بعد ائمة الهدى ومصابيح الدجى؟ قال: العلماء إذا صلحوا، قيل: فمن شر خلق اللّه بعد ابليس وفرعون وثمود وبعد المسمَّين بأسمائكم وبعد المتلقبين بألقابكم والآخذين لأمكنتكم والمتأمرين في ممالككم؟ قال: العلماء اذا فسدوا، هم المظهرون للأباطيل...

[2]). سورة آل عمران ٣: ١٣٨.

[3]). الدر المنثور ١: ١٦٢ عن ابي هريرة ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال:...

[4]). وفي تفسير البرهان ١: ١٧٠ العياشي عن زيد الشحام قال: سئل ابو عبد اللّه عليه‌السلام عن عذاب القبر قال: ان ابا جعفر حدثنا ان رجلاً اتى سلمان الفارسي فقال: حدثني فسكت عنه ثم عاد فسكت فأدبر الرجل وهو يقول ويتلو هذه الآية «إن الذين يكتمون...» فقال له: أقبل إنا لو وجدنا أمينا لحدثناه ولكن أعد لمنكر ونكير إذا أتياك في القبر فسألاك عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فإن شككت او التويت ضرباك على رأسك بمطرقة معهما تصير منه رمادا، فقلت له: ثم مه؟ قال: تعود ثم تعذب، قلت: وما منكر ونكير؟ قال: هما قعيدا القبر، قلت: أملكان يعذبان الناس في قبورهم؟ قال: نعم.

[5]). المصدر عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله:... وفيه أخرج ابن ماجة عن جابر قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله إذا لعن آخر هذه الامة أولها فمن كتم حديثا فقد كتم ما انزل اللّه.

يحدِّث به كمثل الذي يكنز الكنز فلا ينفق منه».[1]
وقد تعني «ما أنزلنا» ـ فيما عنت ـ فطرتَ الله التي فطر الناس عليها، والعقلَ، فانهما مما أنزل الله من البينات والهدى، مشمولة ل «الذي أعطى كل شيءٍ خلقه ثم هدى».
فمن الناس من يكتم فطرته وعقيلته، صدا على نفسه منافذ الهدى، وآخرون يصدون على الآخرين، وثالثة تجمع في الكتمان بين بينات نفسه وهداها، وما للآخرين فطريا وعقليا، ثم يكتم البينات الأخرى وهداها، فهو في ثالوث اللعنة العصيان!.
إذا ف «ما أنزلنا» تشمل المنزل تكوينا وتشريعا، انفسيا كالفطرة والعقلية الإنسانية وآفاقيا ككل البينات الكونية والشرعية، والفرق بين البينات ـ وهي الآيات الربانية الباهرة والهدى ـ ان الثانية هي نتيجة الأولى، فالآيات البينات هي دالات على الهدى في كل حقول الدلالات، فمن يكتم البينات عن دلالاتها، أو الهدى بعد واقعها بتلك البينات «اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون» فكلّ ذلك كتمان مهما اختلفت دركاته حسب مختلف درجات البينات والهدى، ومختلف دركات الكتمان قبل البيان وبعد البيان وصدا عن التبيان. ف «اولئك» الكاتمون «يلعنهم الله» إبعادا عن رحمته يوم الدنيا ويوم الدين «ويلعنهم الّلاعنون» استبعادا لهم من الله عن رحمتيه، وقد يشمل «الّلاعنون» ـ إلى جنب الملائكة والجنة والناس ـ الدوابَّ.[2]
وطبعا هم «الّلاعنون» بحق، فان هناك لاعنين بغير حق، وغيرُ لاعنين الكاتمين، ف «الّلاعنون» هنا هم الذين يلعنون مع الله وبحكم الله وكما يلعن الله، فلأن اللعنة الناتجة عن كتمان ما أنزل الله تشمل المحرومين عنه، وتخلق جوَّ البعد عن رحمة الله، فكأن الكاتمين تحولوا بذلك الكتمان الى ملعنة ينصبُّ عليها اللعن من مصادره، ويتوجه إليها بعد الله من كل لاعن!.
ثم «ويلعنهم» ليس ـ فقط ـ إخبارا عن واسع اللعن، بل وهو انشاءٌ أمرا لمن يأتمر أن يلعن الكاتمين، في مثلث الجنان والقال والفعال، خلقا لجوِّ اللعنة عليهم حتى يحيدوا عن غيهم أم يذبلو بعيِّهم، فانهم ألعن الناس وأظلم الناس، قلوبهم آثمة وفي بطونهم نار، فما أنزل الله للناس هو شهادة لله عند العالمين به: «ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله»[3] وهو من إثم القلب الذي هو قلب الإثم: «ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه»[4] وقد أخذ الله ميثاق العلماء على التبيين «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيِّننَّه للناس ولا تكتمونه»[5] «ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلاً اولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار»[6] «الذين يبخلون ويأمرون الناس

---

[1]). المصدر أخرج الطبراني في الاوسط عن ابي هريرة ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال:...

[2]). الدر المنثور ١: ١٦٢ ـ أخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن ابي حاتم عن البراء بن عازب قال: كنا في جنازة مع النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال: ان الكافر يضرب ضربتين بين عينيه فيسمعه كل دابة غير الثقلين فتلعن كل دابة سمعت صوته فذلك قول اللّه «ويلعنهم اللاعنون».

[3]). سورة آل عمران ٣: ١٤٠.

[4]). سورة البقرة ٢: ٢٨٣.

[5]). سورة آل عمران٣: ١٨٧.

[6]). سورة البقرة ٢: ١٧٤.

بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا».[1]
وبيان ما أنزل الله واجب كفائي ليس على أعيان العلماء ككلٍّ، ويكفيه برهانا أن ليس بعد بيان من فيه الكفاية أيّ خفاء فلا كتمان، ولكنما الكفاية قلّما تتفق أم لا تكون إمّا لعدم قيام مَن فيهم الكفاية، أم عدم الكفاية في العلماء الحضور، فيجب التعلم قدر الكفاية ـ حتى يمكن التعليم ـ ممن فيه الكفاية، فما دام في العالم جهّال فالعلماء الساكتون ـ غير المعذرين ـ لا يُعذرون، وكذا الذين بإمكانهم التعلُّم حتى يعلِّموا ولا يتعلمون.
ثم البيان في كل عصر ومصر يتطور حسب الحاجة والإمكان، دون جمود على سنَّة خاصة متعوَّدة، فلكل حالٍ مقالٌ، ولكل مجالٍ حالٌ، كما الأدواء تختلف حسب مختلف الحال.
فمن المجاهيل مَن هم بحاجة إلى كلتي البينات والهدى، ومنهم من تنقصه البينات وهو منجذب إلى الهدى، ومنهم من تنقصه الهدى دون البينات، ف «أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل بمن سبيله وهو أعلم بالمهتدين».[2]
«إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأولئكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».[3]
هنا استثنا عن اللعنة الناتجة عن الكتمان بتوبة عنه، ولا فقط قلبيةٍ بينه وبين ربه، بل «وأصلحوا» ما افسدوا بكتمانهم «وبيَّنوا» ما كتموا، ومنه كتمانُهم كتمانَهم، إذ كانوا كاتمين أنهم كانوا كاتمين، فكل من فسد وأفسد بكتمانهم لابد وأن يصلحوه معرفيا وعمليا، فمن كان حيا فأصلحه وبين له فله، ومن مات على فساد الكتمان فعليه، وتوبة الله عليه تختص بما أصلح وبين دون سواه، قاصرا عنهما بموته أم مقصرا بتكاسله، فانه على أية حال مقصر في كتمانه ولا عفو كليا إلاّ إصلاحه.
فحين يتوب ويستطيع الإصلاح عما كتم والبيان لحدٍّ يرجع المضلَّل عن ضلاله أم موته، فهو عوان بينهما، فالتوبة درجات كما الكتمان دركات و«كل امرءٍ بما كسب رهين»، ولأن قبول التوبة رحمة من الله وحنان، فهي غير مفروضة على الله إلا كما كتب على نفسه، فهنا يسقط السؤال انه حين لا يقدر على اصلاح ما افسد ولا البيان فما هو ذنبه في قصور، حيث الجواب انه معاقب على ما قصَّر اللهم إلا فيما جُبر ، فهو بالنسبة لما لم يجبر من كتمانه مستحق اللعنة قصُر ام قصَّر مهما بان البون بينهما.
وإذا لم يستطع هو على الإصلاح بنفسه والبيان فليحاول فيهما بعلماء ربانيين بامكانهم ما هو عنه قاصر، حيث إن واجب الإصلاح لا يختص بنفسه دون وسيط.
فهؤلاء المصلحون الذين بيّنوا بعد ما أفسدوا بما كتموا، يفتح لهم القرآن هذه المنافذ المضيئَة الثلاث، ذريعةَ الخلاص، يفتحها لهم فتنسم لهم نسمة الأمل على ضوء جادِّ العمل، في إعلان صارخ لكل التائبين المصلحين: «وأنا التواب الرحيم».
فأما المصرون على كتمانهم فلا يزدادون إلاّ لعنات على لعنات:
«إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أولئكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَة وَالنَّاسِ أجْمَعِينَ».[4]

---

[1]). سورة النساء ٤: ٣٧.

[2]). سورة النحل ١٦: ١٢٥.

[3]). سورة البقرة الآية ١٦٠.

[4]). سورة البقرة الآية ١٦١.

«الذين كفروا» ايّا كان كفرهم، ولا سيما كفر الحجود بالله أم برسالات الله، أم وكفر الكتمان لما أنزل الله من البينات والهدى «وماتوا وهم كفار» دون توبة وإصلاح «اولئك عليهم لعنة الله» إبعادا عن رحمته «والملائكة» إمساكا عن إنزالها باذن الله، واستمساكا بالله في ذلك الإبعاد «والناس أجمعين» قد تعني جمع الناس الى الملائكة، ثم جمعهم في لعنتهم الى الله استدعاءً منه، مهما خرج ناس عن كونهم لاعنين كالملعونين انفسهم وأضرابهم، أم وهم أنفسهم يلعنون أنفسهم بما حرموها عن رحمة الله، كلعنة تكوينية الى تشريعية لمكلفي المؤمنين «من الجنة والناس أجمعين»، وهل «الذين كفروا» هنا تعم المرتدين عن إيمان؟ طبعا نعم، مهما كان منهم الذين لم يؤمنوا وأمامهم دلائل صدق الإيمان، وكذلك الذين كفروا لا عن إيمان ولا عن دلائل الإيمان الحاضر، وإنما لم يفتشوا عن صالح الإيمان، فقد تشمل «الذين كفروا» ثالوثه مهما كانوا دركات كما الإيمان درجات، وهل إن الموت هنا ـ فقط ـ هو حتف الأنف، فإن جن على كفره ثم مات بعد ردح لم يمت كافرا حيث المجنون لا مؤمن ولا كافر؟.

القصد من الموت هو إنقطاع التكليف دونه، أن لم يكن يفيق في حياة التكليف عن جِنَّة كفره، وليس النجاة عن وصمة الكفر إلاّ بالتوبة الصالحة وهذا لم يتب حتى جن ومات على جِنته، فقد مات وهو كافر، ام مات عن حياة التكليف على حاله، ام ولأقل تقدير لم يتب، والمستثنى من اللعنة هو التائب المصلح المبيِّن!.

صحيح ان المجنون لا هو مؤمن ولا كافر، ولكن الذي كفر ثم جن ومات على جنونه لم يمت وهو مؤمن فما هو السبب لتكفير عن كفره، بل مات وهو كافر حيث استمر كفره الى جنونه وهو مرحلة من موته، مهما لم يكن مكلفا حال جنونه.

وهل إن أضرابهم من الكفار ـ أيضا ـ يلعنونهم كما المؤمنون؟ وهم يستحسنون كفرهم! إنهم يلعنونهم هنا إبعادا زائدا عن رحمة الله بما يستحسنون: «ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا»[1] كما وكل كافر يلعن الكفار والظالمين زعما منه أنه مؤمن جهلاً مقصرا.

وقد تلمح آياتنا أن التوبة عن الكفر قبل الموت ـ أيّا كان ـ مقبولة بشروطها، والقول الفصل حول أحكام الكفر والإرتداد والتوبة راجع الى محله الأليق كآل عمران: «كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين* اولئك جزاءهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين* خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون* إلاّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم* إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم واولئك هم الظالمون* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهبا ولو افتدى به اولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين».[2]

«خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ».[3]

والخلود ـ كما لمَّحنا له في مختلف المجالات ـ هو البقاء مدة طويلة، و«لا يخفف عنهم» وما أشبه لا تدل على لا نهائية العذاب، بل هو دليل عدم تخفيفه ما داموا ودام العذاب قدر الإستحقاق، وأما إذا فنوا بفناء النار فليس ذلك تخفيفا في أيٍّ من الأعراف إلاّ إذا فنت النار قبل ذوقهم ما يستحقون من العذاب، أم خرجوا عن النار قبل كمال العذاب عِدَّة لا مدَّة، ام خفف فيها، فكل ذلك تخفيف، وأما إذا ذاق مستحق العذاب كمّا وكيفا ثم فنى بفناء النار، أم أخرج قبل فناءِها باستحقاق، فما ذلك بتخفيف في العذاب.

فأسطورة اللّانهائية في العذاب كشريطة تدار بين من لا يحسبون لحق الله وخلقه حسابا ولا يرجون لله وقارا أم هم

---

[1]). سورة العنكبوت ٢٩: ٢٥.

[2]). سورة آل عمران الآيات ٨٦ ـ ٩١.

[3]). سورة البقرة الآية ١٦٢.

غافلون، إنه ظلم عظيم أن يقابَل العصيان المحدود بأثر محدود من عاص محدود، بعذاب غير محدود ف «هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون»؟!.
وضمير التأنيث في «فيها» راجع إلى اللعنة، فهم ـ إذا ـ خالدون ـ ما هم أحياءٌ في النار في لعنة مثلثة الزوايا، فهي تجنح إليهم وهم في النار بما خلَّفوا من سنة الكفر والكتمان، كما ويعذَّبون بهذه اللعنات في أمد الخلود أبديا وسواه.
ثم «ولا هم يُنظرون» في خلود العذاب غير المخفَّف عنهم، حين يستنظرون، بل يقال لهم «إخسئوا فيها ولا تكلمون».
ذلك لأنهم أغلقوا على أنفسهم كل منافذ الرحمة يوم الدين، فقد حملوا معهم لعنة مطبقة من كل لاعن لا ملجأ منها ولا صدر حنون، وتلك اللعنة هي أم العذاب وأساسه، والنار هي موئله ومساسه، لعنة مسيطرة ما دام في حياة التكليف جِنة أو ناس، حيث إن كفر الكتمان خلّف لعنة طولَ خط الحياة، على المؤمنين خلقا لجوٍّ الّلاإيمان، مما شكَّل عليهم مصائب لتطبيق الإيمان، فأشكل عليهم حياةَ الإيمان، وعلى سواهم من قاصرين إذ ابتعدوا عن الإيمان، وعلى المقصرين إذ أوثق رباط كفرهم ضد كتلة الإيمان.
«وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلاّ هو الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ* إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ والنَّهارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».[1]
هنا وحدة الألوهية مزودة بآيات سبع «لقوم يعقلون» حقَّ العقل، وهي: «١ ـ خلق السماوات والأرض ـ عبارة أخرى عن خالقيته ـ ككل ـ لكل كائن ٢ ـ واختلاف الليل والنهار ٣ ـ والفلك... ٤ ـ وما أنزل اللّه ٥ ـ وبث فيها... ٦ ـ وتصريف الرياح ٧ ـ والسحاب المسخر».
و«إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول ونصر النبيين بالبيان ودلهم على ربوبيته بالأدلة فقال: وإلهكم اله واحد...».[2]
فإن «وجود الأفاعيل دلت على أن صانعا صنعها»[3] وهذه الأفاعيل السبعة دالة بإتقان على خالق ومدبر واحد «لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم» حيث الرحمة الرحمانية العامة والرحيمية الخاصة هنا وهناك نجدها بانتظام دون تفاوت واصطدام: «ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هلترى من فطور..»؟!.
آيتنا تلك هي من أوسع الآيات التوحيدية دلالة على توحيده تعالى من جوانب شتى، وفي أسباب النزول أنها نزلت بديلة عما أقترحته قريش عليه صلى‌الله‌عليه‌وآله «ان يجعل لنا الصفا ذهبا...».[4]

---

[1]). سورة البقرة (٢): الآية ١٦٣ و ١٦٤.

[2]). نور الثقلين ١: ١٤٩ في اصول الكافي بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال قال لي ابو الحسن موسى بن جعفر عليهما‌السلام يا هشام...

[3]). المصدر عن كتاب التوحيد قال هشام فكان من سئوال الزنديق أن قال: فما الدليل عليه؟ قال ابو عبد اللّه عليه‌السلام: وجود الافاعيل.. ألا ترى أنك إذا نظرت الى بناء مشيد مبني علمت أن له بانيا وان كنت لم تر الباني ولم تشاهده.

[4]). الدر المنثور ١: ١٦٣ ـ أخرج ابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال قالت قريش للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله أدع اللّه ان يجعل لنا الصفا ذهبا نتقوى به على عدونا فأوحى اللّه إليه إني معطيهم فاجعل لهم الصفا ذهبا ولكن ان كفروا بعد ذلك عذبتهم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين فقال رب دعني وقومي فأدعوهم يوما بيوم فأنزل اللّه هذه الآية.

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمنا قَلِيلاً أولئكَ ما يأكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إلاّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ».[1]

قدمنا شطرا من الكلام حول الكتمان في آيته الأولى، ثم «ويشترون به ثمنا قليلاً» هو تطلُّب ثمن عما يكتمون، وكل ثمن بديلَ ذلك الكتمان قليلٌ مهما كان مِلءَ الأرض ذهبا، فكما أن كل شيء أمام الله ضئيل، كذلك كل ثمن قبال ما أنزل الله قليل.

«اولئك» البعيدون عن كل هدىً، المتورطون في كل ردى «ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار» حيث الأكُل المحرم هو يوم الدنيا نار ولكنها اليوم خامدة، ثم يوم القيامة تضطرم: «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءَك فبصرك اليوم حديد» ـ «الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا» ولماذا «في بطونهم» وليس الأكل إلاّ بالأفواه الى البطون؟ علّه لأن فاعلية البطون للمأكول هي أصل الأكل وغايته، فقد يأكل بفمه ثم يرجع دون ان ينتقل الى بطنه، او ينتقل ولكنه يرجع كما أكل من فمه ام سواه، إذا ف «في بطونهم» تحديد للأكل والمأكول استقرارا في بطونهم، مع انه أفظع سماعا واشد ايقاعا!.

«ولا يكلمهم اللّه يوم القيامة» حين يكلم المؤمنين، والمعني هنا هو تكليم الرأفة والعناية: «ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم»[2] دون تكليم التنديد والنكاية كما «قال اخسأوا فيها ولا تكلمون».

وأما «ما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء»[3] فخاصة بيوم الدنيا، فقد يكلِّم عباده المؤمنين دون وسيط يوم القيامة نظرا اليهم، ويكلم غيرهم تنديدا بهم دون سماح لهم أن يكلموه.

ثم «ولا يزكيهم» قد تعم النشأتين، وهي في الأخرى تزكية الشفاعة الغفران، وفي الأولى تزكية العقائد والأعمال «ولهم عذاب أليم» في الأخرى، وقد حملوه معهم من الأولى.

«أولئكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدىَ وَالْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ».[4]

وهل كانت لهم هدى ومغفرة حتى يشتروا بهما الضلالة والعذاب؟ أجل وهي هدى الفطرة والعقلية الإنسانية، ثم وهدى الرسالات الإلهية الحاضرة لديهم، وبالنتيجة كانت لهم اسباب المغفرة حاضرة، ولكنهم «اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة» تجاهلاً وتغاليا عن الهدى والمغفرة «فما أصبرهم على النار» هنا وهي أرواحهم النارية، وبأحرى يوم القرار.

وَيْكأنما هي صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة، ويؤدون المغفرة ويأخذون بديلها العذاب، فما أخسرها من صفقة وأغباها، فقد كانت الهدى لهم مبذولة في الآفاق وفي أنفسهم فتركوها واعتاضوا بها الضلالة، وكانت المغفرة لهم متاحة فتركوها إلى النار «فما أصبرهم على النار»: ما أصبرهم على فعل ما يعلمون أنه يصيِّرهم إلى النار.

«ذلِك بأنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابِ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ».[1]

---

[1]). سورة البقرة الآية ١٧٤.

[2]). سورة آل عمران ٣: ٧٧.

[3]). سورة الشورى ٤٢: ٥١.

[4]). سورة البقرة الآية ١٧٥.

«ذلك» العظيم العظيم من اللعنة والعذاب على هؤلاء «بأن اللّه نزل الكتاب بالحق»: بسبب الحق وغايته ومصاحبا للحق الناصع الدال على وحيه دون أية ريبة، وحاملاً لكل حق يحق نزوله للعالمين، وب «ان الذين اختلفوا في» ذلك «الكتاب لفي شقاق» مع اللّه «بعيد» في الأعماق، وبعيد عن كل آفاق الشقاق، فإنه شقاق مع اللّه الذي نزل الكتاب، وشقاق مع الرسول الذي أنزل عليه الكتاب، وشقاق ـ ككل ـ مع الحق الذي لا يشتهونه، فهم ـ إذا ـ في ثالوث الشقاق، بعيدا بهذه الأبعاد.

وقد يعني «الكتاب» هنا بجنب القرآن سائر كتابات السماء، وقد اختلف الكاتمون ما أنزل اللّه في كل كتاب، لا سيما في البشارات الخاصة بالرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله كما اختلف فيه المشركون و«ان الذين اختلفوا..» تشملها جميعا.

هنا صلة بين هذا البيان وبين تحويل القبلة وما أثاروا حوله من جدل، بيانا للحقيقة الكبرى، دون شكليات الشعائر من تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب، كشعارات فاضية عن شعورات، وإنما فائضة بشعورات وواقعيات ايمانية.

فالإيمان الصالح هو نقطة التحول في حياة الإنسان أيا كان وإلى أية قبلة اتجه، إنه ـ فقط ـ هو نقطة التحول من الفوضى إلى النظام، ومن التيه الى البلد الأمين، ومن التفكك الى وحدة الإتجاه.

القرآن
وشهادته على ربانية آياته
(١)

«لَكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدا».[2]

دور «لكن» هنا إضراب عما يتقولون في نكران وحي القرآن كقولتهم نزِّل علينا كتابا من السماء، أن القرآن بنفسه دليل وحيه الصارم من سماء الرحمة الربانية دونما حاجة إلى شهادة أخرى غير نفسه.

وانه لا شهيد أشهد من اللّه ولا شهادة للّه أشهد من كتاب اللّه، إذا فاللّه هو الشهيد بين الرسول والمرسل إليهم فهل ترى من باقية؟:

«قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لاِنُذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...»[3] ـ «قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ».[4]

أجل «أنزله بعلمه» فالقرآن شهيد على وحيه لما يحوى من علمه، حال «والملائكة يشهدون» بما أنزل حيث الرسالة

---

[1]). سورة البقرة الآية ١٧٦.

[2]). سورة النساء ٤: ١٦٦.

[3]). سورة الأنعام ٦: ١٩.

[4]). سورة الرعد ١٣: ٤٣.

الملائكية مشهودة فيه ولكن «كفى بالله شهيدا» في كتابه الحكيم.
ثم و«بعلمه» تشمل كل علمه لولا «أنزله» فقد تتحدد «بعلمه» ب «انزله» بالممكن إنزاله إلى خلقه مما يلمح بإن الله أنزل من علمه في القرآن ما يمكن إنزاله إلى خلقه، فهو ـ إذا ـ ما سوى العلم المختص بساحة قدسه تعالى.
وهنا اضافة «علم» إلى نفسه المقدسة دليل أنه يعني علمه الفعلي دون الذاتي الذي هو هو، فالخلق محرومون عن علمه الذاتي، وكذلك علمه الرباني الذي به خلق ما خلق ودبر ما دبر، إذا ف «علمه» قد يشمل كل ما سوى علمه الذاتي وعلمه الفعلي الرباني الذي يتميز به عن خلقه.[1]
وهنا «أنزله بعلمه» اشارة الى موضع شهادته في كتابه انه علمه الصارم الطليق وكما تحدى به «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»[2] «وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين وإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وَقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين».[3]
«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاَلاً بَعِيدا».[4]
الكفر اللازم دون تعد بصدٍّ عن سبيل الله ضلال قريب، وهو قريب إلى الهدى، ولكنه المتعدي «وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيدا» وهو غريب عن الهدى، حيث تعرق الكفر وتعمق فلا طريق لصاحبه إلا طريق جهنم:
«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقا».[5]

---

[1]). نور الثقلين ١: ٥٧٤ في كتاب التوحيد عن علي عليه‌السلام كلام طويل وفيه: كلم موسى..

وفيه عن التوحيد بإسناده إلى محمد بن الجهم عن أبي الحسن عليه‌السلام حديث طويل وفيه يقول حاكيا عن موسى في قومه: يخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل وصعد موسى إلى الطور وسأل اللّه تبارك وتعالى أن يكلمه ويسمعهم كلامه فكلمه اللّه تعالى ذكره وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام لأن اللّه عزوجل أحدثه في الشجرة ثم جعله منبعثا منها حتى سمعوه من جميع الوجوه.

وفيه عن علي عليه‌السلام حديث طويل يقول فيه وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات: وكلام اللّه ليس بنحو واحد، منه ما كلم اللّه به الرسل ومنه ما قذفه في قلوبهم ومنه رؤيا يريها الرسل ومنه وحي وتنزيل يتلى ويقرأ فهو كلام اللّه فاكتف بما وصفت لك من كلام اللّه فإن معنى كلام اللّه ليس بنحو واحد فإن منه ما تبلغ رسل السماء رسل الأرض.

وفيه عن كتاب الإحتجاج روى عن صفوان بن يحيى قال سألني أبو قرة المحدث صاحب شبرمة أن أدخله إلى أبي الحسن الرضا عليه‌السلام فاستأذنته فأذن له فدخل فقال أخبرني جعلني اللّه فداك عن كلام اللّه لموسى عليه‌السلام فقال: اللّه اعلم ورسوله بأي لسان كلمه بالسريانية أم بالعبرانية؟ فأخذ أبو قرة بلسانه فقط فقال: إنما أسألك عن هذا اللسان فقال أبو الحسن عليه‌السلام سبحان اللّه مما تقول ومعاذ اللّه لموسى عليه‌السلام فقال: اللّه أعلم ورسوله بأي لسان كلمه بالسريانية أم بالعبرانية؟ فأخذ أبو قرة قائل فاعل، قال: كيف ذلك؟ قال: كلام الخالق للمخلوق ليس ككلام المخلوق لمخلوق ولا يلفظ بشق فم ولسان ولكن يقول له كن فكان بمشيئته ما خاطب به موسى من الامر والنهي من غير تردد في نفس.

[2]). سورة الإسراء ١٧: ٨٨.

[3]). سورة البقرة ٢: ٢٤.

[4]). سورة البقرة الآية ١٦٧.

[5]). سورة البقرة ١٦٨.

حيث أضافوا إلى ظلمهم أنفسهم بكفرهم ظلَمهم إلى مَن سواهم حيث صدوهم عن سبيل الله، فقد سدّت عليهم طريق الهدى كما سدوها على الحائرين.

شهادة القرآن على ربانية آياته
(٢)

«تنزِيل الكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالِمِينَ».[١]
علّ «الكتاب» هنا هو النازل على الرسول ليلة القدر بإحكام، ثم نزل عليه ثانيا بتفصيل: «كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير».[٢]
أم وهو الكتاب المفصل المنزل عليه وقد تشملهما «الكتاب» أم وثالث هو الأول كوكنا وكيانا: «أم الكتاب»: «إنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم».[٣]
«لا ريب فيه» في أصله ولا في تنزيله «من رب العالمين» ـ «تنزيل من رب العالمين ـ لا ريب فيه من رب العالمين» مهما شك فيه وفي تنزيله المتجاهلون، فان الريب شك مسنود إلى برهان ولا برهان يسند إليه ايا كان يشكك الإنسان في وحي القرآن، بل البراهين كلها مجندة لا ثبات وحيه، لا مرد لها ولا ريب فيها.
و«تنزيل» مصدرا مبالغة بالغة أن ليس الكتاب المفصل إلاّ نفس المحكم بصورة أخرى، فلم يحصل في ذلك التفصيل إلاّ تنزيل تقريبا الى أفهام العالمين بعد غموضه في أحكامه.
وفي «رب العالمين» تلميحة لامعة أن هذا الكتاب يحمل ربوبيته العالمية، عرضا لبعديها التكوينية والتشريعية دون ابقاء.
«أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْما مَا أتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».[٤]
ايصدقون ـ بعدُ ـ بوحي القرآن «أم يقولون افتراه» على الله، فهو كتاب من عنده ام اكتتاب من كتب اخرى، ام تعلُّم من ذي علم؟ «بل» إن قولة الافتراء لا تملك برهانا إلاّ عليها، فانه دون ريب «هو الحق» كلّه «من ربك» الذي رباك، فكما انك كرسول لست صنيع نفسك أو الآخرين، كذلك ذلك الكتاب ليس صنيع أحدٍ إلاّ رب العالمين، صنيعان اثنان هما صنوان يبرهن كلٌّ لزميله، ويستدل به ككامل دليله، فالسمة الربانية بارزة في القرآن ورسول القرآن، لا يحتملان ولا يتحملان سمة خلقية ايا كان.

---

[١]). سورة السجدة ٣٢: ٢.

[٢]). سورة هود ١١: ١.

[٣]). سورة الزخرف ٤٣: ٤.

[٤]). سورة السجدة الآية ٣.

«هو الحق من ربك» دون إبقاءٍ لحق إلاّ وهو فيه «لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك» حيث هم وآباءهم عائشون زمن الفترة الرسالية: «لتنذر قوما ما انذر آباءهم فهم غافلون»[1] «فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا».[2]

انهم قوم لدٌّ في اصلهم العربي وفصلهم عن المنذرين، فاذا استطاع رسول القرآن ان ينذر به هؤلاء الألداء الأشقياء فهو بإنذار مَن دونهم أحرى وأقوى.

إذا فليس هو ـ فقط ـ من الحق، بل هو الحق كلُّه اذ بامكانه إنذار الألداء الذين لم يسبق لهم إنذار رسالي ولا رسولي، حيث عاشوا تيه الضلالة والمتاهة في ردح بعيد من الزمن ماله مثيل طول الزمن الرسالي في بُعد الفترة بَعد الشقاوة الأصلية.

وفي الحق إن الحق كيانه الهدى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد، كلما ازداد الحق توسعا وعمقاازدادت الهدى على ضوءه، ولأن القرآن هو كتاب الخلود في هديه فليكن مستغرقا الحق كله:

حقا في طبيعته ومعناه ومغزاه ومرماه، تَطابقةً حقةً بين أجزاءه دونما اختلاف، واخرى بينه كله وقضية الفطرة والعقلية الإنسانية وحاجات العالمين اجمعين.

حقا بكونه ترجمانا بالغا لكل نواميس الكون، ترجمة قيمة مستقيمة كانها هي الصورة الواقعية عن واقع الوجود.

حقا بما يحققه ويطبقه من صلات أصيلات بين العالمين وما بينهم وما حولهم من قوى، ما ظهر منها وما بطن، دون اي تنافر وتفاوت وتهافت.

حقا يرسم منهاج الحياة لأعلى قممها المقصودة المرموقة، ملائما مواتيا كل طاقاتها وإمكاناتها، كل نزعاتها وحاجاتها، معالجا كل ما يعتورها من آفات وعاهات وابتلاءات.

وحقا لا يزداد على تقدم العقل والعلم إلاّ بهورا وظهورا «بل هو الحق من ربِّك لتنذر..» وتراهم في هذه الفترة الخالية عن الإنذار، كانوا مكلفين دون شرعة تحكمهم، فيتساءلون إذا ناكرين موقفهم من فصيلة الرسالة: «... ربنا لولا ارسلت الينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى»[3] «رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما»؟.[4]

انهم مهما لم يعيشوا الإنذار الرسولي في هذه الفترة لم يكونوا ليخلوا عن الانذار الرسالي، ام ولأقل تقدير الإنذار الفطري والعقلي وهما قد يكفيان حجة للتوحيد الحق، ولأن الانذار الرسولي اقوى من الرسالي، وهو ايضا اقوى من العقلي والفطري، فلا يهلكون بعذاب الفترة الرسولية والرسالية، حيث الحجة ليست صارمة يستحقون بها العذاب حين يتخلفون: «وقالوا لو لا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى. ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى».[5]

---

[1]). سورة يس ٣٦: ٦.

[2]). سورة التوبة ٩: ٩٧.

[3]). سورة طه ٢٠: ١٣٤.

[4]). سورة النساء ٤: ١٦٥.

[5]). سورة طه ٢٠: ١٣٤.

القرآن
شاهد بنفسه على ربانية آياته
(٣)

«وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ».[١]

«ما كان» هنا ـ وأيا كان ـ تضرب السلب المؤكد إلى أعماق الماضي وغيره من مثلث الزمان، ف «ما كان» سلب لإمكانية هذه الكينونة للقرآن إذ يستحيل هكذا كلام منضد من الحق الطليق من غير الله، لأن مَن سوى الله أيا كانوا وأيان هم لا يحيطون علما بكل شيء، والقرآن يحمل هذه الحيطة المطلقة المطبَقة دون أي نقص أو إمكانية نقص في أدب اللفظ أو حَدَب المعنى.

فكما أنه ما كان الله ليصبح مألوها، كذلك ما كان كلام الله: القرآن، ليصبح كلام مألوه، وهذا من القضايا التي قياساتها معها، فالقرآن هو بنفسه برهان لا مرد له على ربانية مصدره وصدوره دون حاجة إلى برهان سواه، ف «قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب»[٢] حيث «أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا».[٣] فالله نفسه هو الذي يشهد بكتابه على رسالته الربانية، فإن علمه البارع وحكمته البالغة باهرة في آياته، ظاهرة في بيناته، فلا بينة أبين ولا برهان أمتن على الله ورسالاته من هذا القرآن العظيم والتبيان الحكيم، وكأن الله جاء بنفسه إلى المكلفين بهذا القرآن وكما «لقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون»[٤] إذ تعني جئنا إليهم بكتاب، فمجيء الكتاب كأنه مجيء الله، فلو أمكن مجيء الله إليهم بنفسه سبحانه لما زادهم حجة على حجة الكتاب إذ جمع فيه كافة الحجج البالغة الدالة على الحقائق المعنية في حقول المكلفين.

ف «ما كان» هنا بالنسبة للقرآن تنفي شأنية فريته من دون الله وإمكانيتها، دون فعليته فقط، فليس بالإمكان في مثلث الزمان أن يفترى هذا القرآن من دون الله لميِّزته الربانية المتميزة عن الميزات الخَلقية، «ولكن تصديق الذي بين يديه» من كتاب لوحدة المصدر وتشابه الصادر قرآنا بغير قرآن مهما يربوا القرآن على سواه في ربانية المصدر والصدور.

ولماذا «بين يديه» وهو بعد كل كتاب وخلفه، حيث القرآن ناظر إليها نظرة الهيمنة «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق

[١]). سورة يونس ١٠: ٣٧.

[٢]). سورة الرعد ١٣: ٤٣.

[٣]). سورة النساء ٤: ١٦٦.

[٤]). سورة الأعراف ٧: ٥٢.

مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله..».[1]
فليس القرآن كسائر الكتب الخَلقية مدبرا عما سلفه من كتاب ناقضا له، بل هو مصدق للوحي كله قبله، ومكمل له ومهيمن حفيظ عليه عمَّا حرف ودُسَّ فيه بأيدٍ أثمية لئيمة.
ثم «وتفضيل الكتاب» الحكيم عند الله، والحكيم الذي أنزله على محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ليلة القدر، فإنه «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»[2] فكما الكتاب الحكيم هو عنده ومنه كذلك «تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين»: الكتاب من رب العالمين، وتفصيل الكتاب من رب العالمين، وتصديق الذي بين يديه من رب العالمين.
وقد يعني «الكتاب» بما عنى، طليق الكتاب النازل على رسل الله ومنه النازل على محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله ليلة القدر، فالقرآن المهيمن عليها يحمل تفصيلاً لها، تفصيلاً لمحكم القرآن عن إحكامه، وتفصيلاً لما أبهم من الوحي قبله، وتفصيلاً لحقه عن الباطل المدمج فيه، وتفصيلاً لثابته عن منسوخه، إذا فالقرآن يحمل حصيلاً من ذلك التفصيل التحصيل، ليس بعده تفصيل ولا تحصيل، اللّهم إلاّ ما تشرحه السنة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله دونما أي نسخ أو تبديل.
ذلك، وكيف «ما كان أن يفترى» وقد افتري عليه أنه من دون الله وليس من اللّه: «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات»؟.[3]
«ما كان» هنا مثل «لا ريب فيه» لا تنفي فرية الإفتراء، وإنما تنفي أهلية الفرية فيه، فالذين يفترون عليه أنه مفترى هم خارجون عن حقل العقل والفطرة الإنسانية والمعرفة الكتابية، فليس الإفتراء هو المنفي، بل المنفي هو جوازه وإمكانيته عقليا، طالما يتقول مجاهيل أنه مفترى:
«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».[4]
«أم يقولون إفترى على الله كذبا فإن يشاء اللّه يختم على قلبك ويمحُ اللّه الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور»[5] وهذه هي قضية الحفاظ على صالح الوحي والذود عن ساحته، الطالحُ المدعى، حيث السكوت أمام الفرية إما جهالة أو عجز خيانةً تعالى اللّه عنها علوا كبيرا: «ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين»[6] فمن هذا الذي يحجز عن أخذي باليمين وقطعي بالوتين؟ وإجرام الإفتراء ليس إلاّ علي وها أنا بريءٌ منه كما ترونني: «أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريءٌ مما تجرمون»[7] «أم يقولون إفتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تُفيضون فيه كفى به شهيدا

---

[1]). سورة المائدة ٥: ٤٨.

[2]). سورة هود ١١: ١.

[3]). سورة هود ١١: ١٣.

[4]). سورة يونس الآية ٣٨.

[5]). سورة الشورى ٤٢: ٢٤.

[6]). سورة الحاقة ٦٩: ٤٤ ـ ٤٧.

[7]). سورة هود ١١: ٣٥.

بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم»[1] «أم يقولون إفتراه بل هو الحق من ربك..»!.[2]
فما الفرية على القرآن أنه فرية على الله إلا فرية على الله أنه جاهل أو عاجز أو بخيل أن يذود عن ساحة وحيه، ومفترىً عليه، وحتى المشرك بالله ليس ليقوله على الله فأنى تؤفكون؟.
وهنا حجة تعجيزية على قولة الفرية «قل فأتوا بسورة مثله» وكما في البقرة «فأتوا بسورة من مثله» لا فحسب أنتم العرب العرباء بل «وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين» أنه مفترى على الله.
ذلك، فتراه، ـ بعدُ ـ تفصيلاً للكتاب المقدس ـ على حد تعبير الحداد الشداد في تقولاته[3] ويكأن «الكتاب» في عرف القرآن يختص بذلك الكتاب دون القرآن نفسه بمراتبه السابقة، في علم الله، وفي نزوله ليلة القدر بصورة محكمة وما أشبه؟!.
وهنا النقطة الرئيسية في إنحراف الحداد وانهرافه هي اعتباره لفظة: «الكتاب» أنه الكتاب المقدس، وإنما مَثَله في هذه الدعوى مَثَل من أنس بكتاب خاص بكل مراس واكتراس، فكلما يسمع لفظة «الكتاب» من أي كتاب، يحسبه كتابه الخاص، مشية عشواء حمقاء عمياء: «أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم».[4]
وهل يستسيغ الحداد تفسير لفظة «الكتاب» في التوراة أنها تعني صحف إبراهيم، لأنه كتاب سبقه؟.
و«الكتاب» المذكور في القرآن في عشرات من آياته تعني ـ كأصل ـ القرآن ولا سيما فيما يصرح بنزوله على رسول القرآن، ثم وتعني سائر الكتاب بقرائن تعينه وتعنيه.
فقد تعني كل كتاب «وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه».[5]
وأخرى كتابا خاصا ك «إذ آتينا موسى الكتاب..».[6]
وثالثة ما فرضه الله في القرآن: «والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتابَ الله عليكم».[7]
ورابعة كتاب العدة الرجعية: «ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله»[8] فهل «الكتاب» هنا أيضا ـ كما

---

[1]). سورة الأحقاف ٤٦: ٨.

[2]). سورة السجدة ٣٢: ٣.

[3]). يقول في كتابه «القرآن والكتاب» (٦٦٢) «مهما يكن من شيء فلا شك أن القرآن تفصيل للكتاب المقدس للقول المكرر بانه تفصيل الكتاب وتصديقه فهل يفصل النبي كتابا لا يعرفه».

[4]). سورة المُلك ٦٧: ٢٢.

[5]). سورة البقرة ٢: ٢١٢.

[6]). سورة البقرة ٢: ٥٣.

[7]). سورة النساء ٤: ٢٤.

[8]). سورة البقرة ٢: ٢٣٥.

يهواه الحداد ـ هو التوراة، فلا يجوز نكاح المعتدات حتى يبلغ التوراة أجله؟!.
ولو كان القرآن تفصيلاً ل «الكتاب» التوراة دون وحي فذٍ، إذا فدعوى وحيه الفذّ فرية على الله «وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه...»؟!.
«فأتوا بسورة مثله» وترى كيف تكون سورة مثله؟ وليس القرآن سورة، بل هو مجموعة سور!.
«سورة» كأصل من سور البلد، وهو الجدار المحيط به الذي يفصله عما سواه، فهي في القرآن مجموعة آيات مفصولة عما سواها من آيات، فصلاً بالبسملة كما في السورة المصطلحة، ومما تعنيها «سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات».[1]
أم فصلاً في عناية خاصة من مجموعة آيات غير مفصولة بالبسملة كما هنا «فأتوا بسورة مثله» إذ تعني مجموعة آيات مثل القرآن كله، فالقرآن إذا سورة واحدة، وكما في «قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات»[2] حيث القرآن كله سورة من الوحي كسائر سور الوحي، إذ لكل وحي سور يخصه، ولا سيما لسور القرآن في حقل الفصاحة والبلاغة لفظيا وفي كافة الحقول المعنوية.
أم مجموعة هي قسم من القرآن غير مفصولة بالبسملة كما تعنيها «وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم»[3] و«يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم».[4]
وقد يحتملهما سائر السور المذكورة في القرآن ك «فأتوا بسورة من مثله»[5]«وإذا أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا»[6] «وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد»[7] «ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال..».[8]
إذا فالسورة مصطلحة في القرآن لمجموعات ثلاث: القرآن كله، المجموعات المفصولة بالبسملات، المجموعات غيرهما وهي الآيات المرتبطات ببعضها البعض في عناية خاصة.
ولأن أقل سورة مفصولة بالبسملة هي آيات أربع كالكوثر، فهي أقل المتحدى به في «فأتوا بسورة من مثله ـ أو ـ

---

[1]). سورة النور ٢٤: ١.

[2]). سورة هود ١١: ١٣.

[3]). سورة التوبة ٩: ٨٦.

[4]). سورة التوبة ٩: ٦٤.

[5]). سورة البقرة ٢: ٢٣.

[6]). سورة التوبة ٩: ١٢٤.

[7]). سورة التوبة ٩: ١٢٧.

[8]). سورة محمد ٤٧: ٢٠.

مثله» ثم كل آية مستقلة المعني هي من المتحدى بها لكونها آية وعلامة لربانية صدورها ومصدرها.
والقرآن يتحدى بسورة، وهي أية مجموعة منه ومنها نفسه كله، أم عشر مجموعات مفصولات بالبسملات وسواها، أم مجموعة واحدة أقلها آيتان، بل وآية واحدة لمكان كونها آية، ما تعني معنى مستقلاً كالبسملة وما أشبه.
«بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ».[1]
إنهم يصدقون صامدين ما ليس لهم به من سلطان، ثم لا يصدقون ما يصدقه كل سلطان، «ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون. هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون».[2]
إنهم «لم يحيطوا بعلمه» أنه من علم الله، إذ لم يتدبروا فيه حقه حتى يعرفوا معناه ومغزاه، ثم «ولمّا يأتهم تأويله» مأخذا ومرجعا، فقد كذبوا جهلاً بما يكذبون، وليس للجاهل تكذيب ما يجهله ولا تصديقه، وكان عليهم أن يصدقوه لو كانوا يتدبرون وأحاطوا بعلمه فيعرفوا أنه ليس من عند غير الله: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيرا»[3] ولو كان أتاهم تأويله مأخذا قضية صالح التدبر فيه، لكانوا يصدقون، وحين يأتي تأويله مرجعا منذ يوم الموت وإلى القيامة الكبرى فلات حين مناص وقد فات يوم خلاص و«يقول الذين نسوه من قبل» حيث لم يتدبروا فيه «قد جاءت رسل ربنا بالحق..» «فانظر كيف كان عاقبة الظالمين».
ذلك، فلا يصح ويصلح تصديق شيء أو تكذيبه إلاّ بعد معرفته والحيطة به قدر ما يسمح للحكم له أو عليه، وهؤلاء الحماقي المجاهيل ـ الذين لا يسمحون لأنفسهم أن يسمعوا لهذا القرآن ـ يبتدرون بتكذيبه وأنه فرية على الله، كإخوانهم الماديين الذين يحصرون الكون في المادة ثم يحكمون أن ليس الله كائنا لأنه ليس من المادة، أم لأننا ما وجدناه في عالمنا، وهذا تكذيب بما لم يحيطوا بعلمه.
وهكذا كل مصدَّق أو مكذَّب لا بد فيه من حيطة علمية قدر ما يصلح للحكم، كما وأن كل علم أو ظن أو شك أو وهم بحاجة إلى برهان يقرره.
ذلك ول «لم يحيطوا بعلمه» معنيان هما معا هنا معنيّان ثانيهما التكذيب بما لا يعلم ولمّا يُعلم، وقد سئل أبو عبدالله عليه‌السلام عن الأمور العظام التي تكون مما لم تكن فقال: لم يأن أوان كشفها بعدُ وذلك قوله: «بل كذلوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله».[4]
ولقد «خص الله عباده بآيتين من كتابه أن لا يقولوا حتى يعلموا ولا يردوا ما لم يعلموا..»[5] «وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ

---

[1]). سورة يونس الآية ٣٩.

[2]). سورة الأعراف ٧: ٥٣.

[3]). سورة النساء ٤: ٨٢.

[4]). نور الثقلين ٢: ٣٠٤ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عنه عليه‌السلام وفيه عن حمران قال سألت أبا جعفر عليه‌السلام عن الأمور العظام من الرجعة وغيرها فقال: إن الذي تسألوني عنه لم يأت أوانه قال الله:..

[5]). المصدر عن أصول الكافي عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال:... قال عزّوجلّ: «ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على إلا الحق» وقال: بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله.

مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ».[1]

مجد القرآن وعظمته

«بسم الله الرحمن الرحيم ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ»[2]

ان المجد هو سعة الكرم والجلال، فهو لذي الجلال والإكرام سعة لا تحد وكرم لا يعد: «ذو العرش المجيد»[3] فكذلك قرآنه المبين وتبيانه المتين: «بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ»[4][5] فلا أمجد في الأقوال من قول الله، بل ولا مساماة ومساواة، فالبون بين قول الله وسواه كالبون بين الله وسواه، فلذلك يحق الحلف بقول الله كما بالله: «والقرآن المجيد» حلفا بأدل دليل، وانه خالق المدلول والدليل، لا حلفا عند فقدان الدليل أو نقصانه، فكما القرآن بحكمته دليلٌ لنبوة ورسالة من جاء به: «يس والقرآن الحكيم*انك لمن المرسلين»[6] كذلك وبأحرى هو دليل على ما يحمله ويدل عليه من سائر الغيب كالقيامة، ولعل (ق) هنا توحي لها كما توحي للقرآن نفسه، فليحلف بمجد القرآن: بكرم ادلته وجلال براهينه، على صحة ما يدل عليه من غيوب لا يكشف عنها إلا بالوحي!.

وبما ان اشمل الأسماء لليوم الآخر «القيامة» وان جواب القسم ـ وهو طبعا إقرار القيامة ـ لم يأت بعد، وهو المصبُّ الأصيل في آي السورة، نستوحي ان «ق» تشير ـ فيما تشير ـ إلى القيامة كمدلول، كما وإلى القرآن كدليل، ثم يصرح بالقرآن في صيغة قسم، ومن ثم بالقيامة طوال السورة، وكأنه يقول: قسما بالقرآن المجيد أن القيامة لا ريب فيها، ف «ق» إذا إشارة إلى كلا الدليل والمدلول، ولأن القيامة ـ كالقرآن ـ باهرة لحد كأن لا حاجة في التدليل عليه حتى وبالتسمية، فليكتف بحرفها الأول «ق» ممدودة تمدنا إلى كامل اسمها كما هي الأول من القرآن، وتمدنا لاثبات القيامة بمختلف صنوف البراهين.

فلا حاجة إذا إلى الأقاويل المحتارة غير المختارة في: ما هو جواب القسم هنا، فذلك ينافي كون القرآن بيانا، أترى

---

[1]). سورة يونس الآية ٤٠.

[2]). سورة ق ٥٠: ١ ـ ٢.

[3]). سورة البروج ٨٥: ١٥.

[4]). سورة البروج ٨٥: ٢١.

[5]). راجع سورة البروج ٣٠ ص ٢٧٠ من تفسير الفرقان.

[6]). سورة يس ٣٦: ٢.

البيان بحاجة إلى من يختلقون لتوجيهه وجوها هم فيها مختلفون؟!
كما ولا صلة بما يروى في «ق» انه جبل، فما هي المناسبة القريبة أو البعيدة بين جبل قاف وبين ما هو مصب السورة من اثبات القيامة، والتنديد بناكريها، ثم وهذا الجبل جبل من خرافات![1]
فهنا القرآن المجيد برهان لا مرد له لإثبات القيامة الساعة، وكما هو برهان في «يس» لإثبات رسالة نبي الساعة، كما وهو قبل الساعة ونبيها برهان لرب الساعة بما فيه من ذكر: «ص* والقرآن ذي الذكر* بل الذين كفروا في عزة وشقاق* وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب* اجعل الآلهة إلها واحدا ان هذا لشيء عجاب»[2].
فإذا القرآن المجيد برهان لا مرد له في هذا المثلث المجيد، افلا يكون برهانا لما دونه، بلى وربي على ذلك لشهيد!:
«ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ»: - «بل هم منها في شك بل هم منها عمون»[3] إعراضا عن الواضح اللائح وضْح الشمس ولوح النهار، فلا هم يتدبرون القرآن المجيد، ولا في قيامة القرآن المجيد، فمن ثم «عجبوا ان جاءهم منذر منهم» وترى لم يعجبون؟ ألمجيء المنذر؟ وهو رحمة للمنذَرين! أو لأنه منهم؟ فكذلك الأمر! فلو جاءهم من غيرهم، من جن أو ملائكة لا يرونهم، فكيف الإنذار؟ أم ولو رأوهم - وليست إلا بصورة إنسان: «ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون»[4] أم لو رأوهم بأصل الصورة، فماذا يفيدهم انذارهم بمَن هم من غير جنسهم، ولم العذر الحجة: اننا - أو - علنا لا نطيق ما يطيقون، فما نحن إذا بهم مقتدين، إذا فقولتهم هذه شيء عجيب، لا أن جاءهم منذر منهم! وعلَّهم ازدادهم عجبا ان أنذرهم برجع بعيد!:
«أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ»؟ وترى إن رجعنا بعدما كنا ترابا لماذا هو بعيد وعماذا؟.. عن عدله تعالى؟ وهو قضية عدله وفضله! أو عن قدرته؟ وهو أهون عليه من بدئه! أو عن العقل لأنه مستحيل؟ فما هو الدليل؟ أم عن علمه إذ تنتشر الأجزاء وتضل بعد ما تندثر، ضلالاً في واقع الآكل والمأكول، أم في أكناف الأرض: «وقالوا أإذا ضللنا في

---

[1]). الدر المنثور: اخرج ابن ابي الدنيا في العقوبات وابو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال: خلق اللّه جبلا يقال له ق، محيط بالعالم، وعروقه الى الصخرة التي عليها الأرض، فاذا أراد اللّه ان يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها فمن ثم تحرك القرية دون قرية!.

وفيه باسناد عن عبداللّه بن بريدة قال: جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء!.

وفيه عن ابن عباس قال: خلق اللّه من وراء هذه الارض بحرا محيطا بها ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له: ق - السماء الدنيا مترفرفة عليه، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له ق السماء الثانية مترفرفة عليه حتى عد سبع ارضين وسبعة ابحر وسبعة اجبل وسبع سماوات قال: وذلك قوله: «والبحر يمده من بعده سبح ابحر»!.

وروى القمي مثل ما مضى عن عبداللّه بن بريدة: ق - زمرد، وروى ما في معناه: جبل محيط بالدنيا وراء يأجوج ومأجوج!

اقول: ويا له من جبل متهافت المكان والمكانة، تتناقله ألسنة الرواة من سنة وشيعة من حيث لا يعلمون أنها خرافات اسرائيليات تدخلت في أحاديثنا لتشويه سمعة الاسلام أمام العقل والعلم والحس.

[2]). سورة ص ٣٨: ١ - ٥.

[3]). سورة النمل ٢٧: ٦٦.

[4]). سورة الانعام ٦: ٩.

الأرض أإنا لفي خلق جديد»؟[1] والخالق عليم حفيظ!:

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ»: صحيح ان الارض تنقص منهم من أجزاءهم: ما تأكله الحيات والديدان، وما تمتصه عروق الأشجار من قوَّات الأبدان، وما تتآكله الحيوان، وما تبدله الأرض ترابا أو أيا كان، ومن اشخاصهم أم ماذا؟ ولكنها كلها بعلم الله.

لو انزلنا هذا القرآن على جبل!

«وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ»:[2]

«نسوا اللهّ» نسيان الفطرة بما حُجبت ودرنت، فألحدوا في اللهّ، أو أشركوا به، أو نسيانا في عقولهم وفِكرَهم فشكّوا فيه رغم يقظة الفطرة، أو نسيانا لعهده ألا يعبدوا الشيطان ولا يطيعوه ويغتروا به: «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما»[3] أو نسيانا للقائه: «فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا»[4] أو نسيانا لذكره: «ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا»[5] عصيانات بنسيانات تجمعها نسيان اللهّ عقائديا وفكريا وعمليا، ثالوث منحوس يخلف الفسق والبوار، مهما كانت دركات عدة: من خلاف الاولى والفسق والكفر والإلحاد، كما أن ذكر اللهّ درجات، من الإسلام والإيمان والعصمة الإلهية.

ومن عقبات وعقوبات نسيان اللهّ أن يُنسيهم أنفسهم، ف «مَن عرف نفسه فقد عرف ربه» كما أن مَن ذكر نفسه كما هي، ذكر ربه، بما في النفس من آيات ربوبيته وملزمات عبوديته، فمن ينسى ربه يُنسيه ربُّه نفسَه «فأنساهم أنفسهم» فلما نسي نفسه فسق عما يحق له وعليه، وخرج عن طوره: «اولئك هم الفاسقون» ينسيهم أنفسهم بما نسوه فنسيهم: «نسوا اللهّ فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون».[6]

وليس نسيان اللهّ لمن ينساه أن يجهلهم أو يغفل عنهم، وإنما أن يعاملهم معاملة الناسي لرعيته فيذرهم في طغيانهم

---

[1]). سورة السجدة ٣٢: ١٠.

[2]). سورة الحشر ٥٩: ١٩.

[3]). سورة طه ٢٠: ١١٥.

[4]). سورة الأعراف ٧: ٥١.

[5]). سورة الفرقان ٢٥: ١٨.

[6]). سورة التوبة ٩: ٦٧.

يعمهون وفي غيِّهم يترددون، ويكلهم إلى أنفسهم، فهم إلى بوار يتردّون، وإلى شر دار ينهارون، وهذا هو أسّ البلاء الذي يخافه حتى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌قائلاً: «ربنا لا تكِلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبدا».

إن البليَّة كلها، والرزيَّة كلها أن يجهل الانسان نفسه وينساها، فيحسب فقره غنىً، وجهله علما، وتعلقه بالله استقلالاً بجنب الله، إذ نسي أنه فقير الذات والصفات والأفعال إلى الله، فهو يطغى أن رآه استغنى! وهذا هو الفسق المطلق: الخروج عن الطاعة، لما أخطأ نفسه فخرج عن طوره.

«لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ»:

أصحاب النار هم الناسون الله فالناسون أنفسهم، وأصحاب الجنة هم الذاكرون الله فالذاكرون أنفسهم، نار النسيان وجنة الذكر، فهل تستويان، وإنما الفائزون: الظافرون بالخير مع حصول السلامة، هم الذاكرون، فذكر الله جُنَّة عن النار، فجَنَّةٌ ونعم القرار: «فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز»[1] ونسيانه نار وبئس القرار.

ليس بين الفريقين المتفارقين مفرق طريق ولا أنصاف حلول، لا يلتقيان في أي مفرق ولا أية سمة أو خُطة أو سياسة، في أي من عوالم الوجود!

«لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعا مُتَصَدِّعا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»:

«لو» توحي باستحالة مدخوله حيث الجبل ما دام جبلاً ليس ليعي القرآن، فلو كان يعي القرآن ويعرف البيان لخشع في سماعه قلبا وقالبا، ولتصدّع من عظم شأنه على غِلظ أجرامه وخشونة أكنانه،[2] فالإنسان الواعي أحق بذلك وأحرى، إذ كان واعيا لقوارعه، عارفا ببوارعه، عالما بصوادعه، فيا للانسان غير الخاشع ولا المتصدع من قلب قاس دون حراس ولا اكتراس: «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقّق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون»[3] فما أعجب وأخزى حال أهل المشاقة والعناد، وما أكثرهم من عتاد، لا تلين قلوبهم لذكر الله، فلا يخشون ولا يخشعون!

«فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اولئك في ضلال مبين. الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله»[4]

فالذين يحسون ويلمسون شئيا من مس القرآن في كيانهم، هؤلاء يتذوقون تلك الحقيقة المشعة التي لا يعبر عنها إلا هذا النص القرآني المجيد، فإن لهذا القرآن سلطانا على القلوب غير المقلوبة، لا تثبت له إلا أن تتفتت وتهتز هزات وتحوّلات لا قِبَل لها، يحوِّلها عن قلب التراب إلى مجلى أسماء وصفات رب الأرباب، تخلية لها عما سواه، فتجلبة بالله، «وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون»فيتذكرون بها لما يتوجب عليهم أن يكونوا وجاه هذا القرآن.

إن هذا القرآن شفاء للقلوب وللقوالب أيضا وكما يروى عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «إن جبرئيل لما نزل بها قال لي ضع يدك

---

[1]). سورة آل عمران ٣: ١٨٥.

[2]). فالفرق بين الخشوع والخشية أن الأول للقوالب والثاني للقلوب، فلو كانت للجبال قلوب كما للانسان لخشعت وخشيت.

[3]). سورة البقرة ٢: ٧٤.

[4]). سورة الزمر ٣٩: ٢٣.

على رأسك فإنها شفاء من كل داءٍ إلا السأم والسأم الموت»[1] ومن أشفى الشفاء لما في الصدور الآيات التي تحمل التعريف بالله وتوصيفه وتعديد أسماءه الحسنى:

«هوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»:

فإنها والآيتين بعدها تسبيحات مديدات بصفات مجيدة عديدة تمثل صفاته العليا كلها، وكما يختمها بايحاء عام لها: «له الأسماء الحسنى».

«هو اللّه» هو: الذات الغائبة من كافة الجهات، محجوبة لأبعد أغوار الحجب، لا يرجى ظهورها لا للبصائر ولا الأبصار في أيٍّ من عوالم الوجود، ف «هو» هو الاسم الأعظم المحجوب، كما «اللّه» هو الاسم الأعظم الظاهر.[2]

ف «لا إله إلا هو» في أيٍّ من ذات الالوهية وصفاتها ومتطلباتها أجمع، تذكر منها هنا ثلاث: «عالم الغيب والشهادة»: كل غيب لنا وشهادة عندنا، يعلمه علما يُعتبر الكل بالنسبة له شهادة، فإنما الغيب والشهادة، بالنسبة لمن يجهل بعضا ويعلم بعضا، وأما الذي لا يعزب عن علمه شيء فلا غيب عن علمه، فالكل له شهادة، يشهد الغيب الكائن، والذي لم يكن بعد فإنه من أغيب الغيب لحدّ كأنه الغيب فقط.[3] وعلّه لأن الغيب الكائن هو في مظان الشهود بعضا للبعض من أهل الشهود، ولكنما الغيب الغيب: غير الكائن، مختص باللّه.

رسالة قرآنية الى الجن

.. جولة جديدة فيها استماع الجن للقرآن فرسالتهم إلى سائر الجن، تجدُّ بالانسان السير نحو التصديق بالقرآن الذي جاء له كاصل وللجن فرعا، فمشهد الفرع المصدق للقرآن يدفعنا للايمان أكثر مما كان.

«وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرا مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ».

الصرف هو رد الشيء من حالة إلى أخرى أو من مكان إلى آخر، مما يصرفنا عن القول: إنه كان وحيا للجن أن ينصرفوا إلى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله لاستماع القرآن، وانما هو إلهام لهم إلهي: أن ينصرفوا من حالتهم السابقة، البعيدة عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى قربه، وأن يحضروا محضر قرآنه المبين ليتبينوا، وإذ ليس الوحي لأم موسى: «أن أرضعيه فإذا

[1]). الدر المنثور ٦: ٢٠١ ـ أخرج الخطيب البغدادي في تاريخه قال أنبأنا أبو نعيم الحافظ أنبأنا أبو الطيب محمد بن احمد بن يوسف أنبأنا ادريس بن عبد الكريم الحداد بإسناد عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: وفي كتاب طب الأئمة بإسناده إلى عبداللّه بن سنان عن أبي عبداللّه عليه‌السلام قال: يا ابن سنان! لا بأس بالرقية والعوذة والنشرة إذا كانت من القرآن ومن لم يشفه القرآن فلا شفاه اللّه وهل شيء أبلغ في هذه الأشياء من القرآن! أليس اللّه تعالى يقول جل ذكره: «لو أنزلنا هذا القرآن..». وبإسناده إلى جابر عن أبي جعفر عليه‌السلام ان رجلاً شكا إليه صمما فقال: امسح يدك عليها واقرأ عليها: «لو أنزلنا هذا القرآن.. هو اللّه الذي لا إله إلا هو.. إلى آخر الحشر». وبإسناده إلى جابر بن يزيد الجعفي عنه عليه‌السلام قال لي يا جابر! اقرأ على كل ورم آخر سوة الحشر نور الثقلين ٥: ٢٩٤.

[2]). راجع تفسير سورة التوحيد في ج ٣٠ ص ٥١٣ ـ ٥١٤ من تفسير الفرقان.

[3]). مجمع البيان عن أبي جعفر الباقر عليه‌السلام قال: الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان.

خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين»ليس هذا وحيا رساليا يحمل رسالة إلهية يحملها المرسلون، فبأحرى ألاَّ يكون صَرف الجن وحيا رساليا وإن كانوا قبل الإسلام أنبياء مرسلين إلى قومهم، حيث الوحي بحذافيره انقطع عن غير محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله منذ بزوغه له وحتى القيامة الكبرى، اللهم إلا إلهامات تخص المؤمنين حسب الدرجات ومنهم رسل الجن، إذ بعثهم الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى قومهم منذرين، وقد كانوا يلمسون السماء لاستماع الوحي ومحادثات الملأ الأعلى قبل هذه الرسالة ثم منعوا: «وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا. وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا».[1][2]

ومن لطيف التعبير هنا وفي غيره «صرفنا» ام ما يؤدي معناه، دون (أوحينا) وإن كان كوحي الأرض أو النحل او أم موسى أم ماذا ومَن ذا؟ تأكيدا لختم الوحي بخاتم المرسلين، فلا يؤتى حتى بلفظه، الشامل للوحي الرسالي والإلهام، ولكي يسد كل ثغرة من فكرة الوحي بعد الإسلام! فلا تجد صيغة الوحي لما ألهم إلى ايٍّ من الملهمين بعد الإسلام على جلالة أقدارهم، رغم ما تجدها لما قبل الإسلام، وحتى بالنسبة للنحل والأرض! اللهم إلا وحي الشر ـ من اهله إلى اهله «وان الشياطين ليوحون إلى أولياءهم ليجادلوكم»[3] تأشيرا ان كل وحي يدّعى رسالي بعد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فإنما هو من شيطان إلى شيطان وليس من اللّٰه في شيء!.

ثم النفر من الجن هنا هم النفر الذين فصِّلت نفرهم سورة الجن: انزعاجا من الجو الطائش الفوضى إلى أمان وحي القرآن، فلم يكن مصادفة عابرة، وانما صَرفا من اللّٰه لهم مقصودا، ولأنهم كانوا من أصفى الأصفياء بين الجن، وإلا لم يصرفوا لحمل رسالة القرآن من الرسول إلى قومهم، دون سواهم.

لقد صُرفوا إليه صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو يقرأ القرآن في (حجون) بمكة وكما يروى عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله: «بتُّ الليلة أقرأ على الجن رفقا بالحجون»[4] دون أن ينصرف هو صلى‌الله‌عليه‌وآله إليهم رغم ما قد يروى[5] حيث (إذ صرفنا) دون (صُرفت)!.

وترى كم عدد المصروفين من نفر الجن ـ علما بأن النفر لا يقل عن ثلاثة ولا يزيد عن تسعة ـ؟ انهم جماعة من رجال الجن يمكنهم النفر لتلقِّي هذه الرسالة السامية، وليرجعوا إلى قومهم منذرين، وبما أن النفر يضمِّن معنى الجهاد، فليكن في صرفهم إلى الرسول جهاد، مصروفين إليه ومنصرفين عنه، وهل تكفي ثلاثة واضرابها لذلك النفر

---

[1]). سورة الجن ٧٢: ٨.

[2]). التفصيل الى سورة الجن ج ٢٩ من الفرقان.

[3]). سورة الأنعام ٦: ١٢١.

[4]). الدر المنثور ٦: ٤٤ ـ اخرجه عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود رضى‌الله‌عنه قال سمعت رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول:.. وأخرج ابن مردويه في الدلائل والبيهقي عنه انه سئل اين قرء رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله على الجن فقال: «قرأ عليهم بشعب يقال له الحجون».

أقول: وأنا افسر هذه الآيات في شعب الحجون بمكة المكرمة حيث الآن بيتي، بمقربة مسجد الجن، وقد يروى عن علي عليه‌السلام وابن مسعود وابن عباس انه بطن نخلة، وعن كعب الأحبار انهم انصرفوا من بطن نخلة الى قومهم منذرين فخرجوا بعد وافدين الى رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله فانتهوا الى الحجون، مما يدل على انهما شعب واحد باسمين اشهرهما الحجون كما هو الآن «شعب الحجون».

[5]). الدر المنثور ٦: ٤٤ ـ اخرج عبد بن حميد واحمد ومسلم والترمذي عن علقمة في حديث عن ابن مسعود رضى‌الله‌عنه انه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: اتاني داعي الجن فأتيتهم فقرآت عليهم القرآن..

الجهاد، وضد الجن الكافرين؟ لعله وبنصر الله! ولكنما الحال تقتضي أن يكونوا أكثر عدد تحملهم لغة «النفر» وهم تسعة أنفار، كما ويصدقه صحيح السنة وقد سماهم الإمام علي عليه‌السلام[1] وإن كان العدد هنا ليس غرضا يقصد ولو كان لبان، وإن كان قد تؤيده آية اللِّبَد[2] إذ تجمعوا على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله يستمعون القرآن بعضهم لِصق بعض كلِبَد الأسد، كناية عن كثرتهم، لكنها ليست أكثر من تسعة لمكان النفر خلاف ما قد يروى.[3]

«صرفنا.. يستمعون القرآن» فلم يكن الصرف إليه صلى‌الله‌عليه‌وآله إلا لاستماع القرآن، ولا الإنصراف إلا للإنذار بالقرآن، ولأنه الحجة الوافية لإثبات وحيه، ورسالة نبي القرآن.

«فلما حضروه»: القرآنَ ونبيَ القرآن، فهما هنا معا محتملان، إذ صرفوا إليه هو، يستمعون القرآن «فلما حضروه قالوا انصتوا»: لاستماعه، إنصاتا بألسنتهم فلا يتكلموا، وبقلوبهم فلا ينشغلوا، لكي يستمعوا القرآن بأسماع آذانهم، ومنها إلى قلوبهم، حتى يعوه ويحفظوه إستعدادا للإنذار «فلما قضي» القدر الذي قضي لهم باستماعه «ولوا إلى قومهم منذرين»:

فليكن القرآن الذي سمعوه قرآنا جامعا لما يتطلبونه: حجةَ الرسالة، وهكذا كل القرآن! مخاطبا إياهم في خطاباته وإيحاآته، فليكن منه سورة الرحمان[4] ولذلك تراهم ـ لما قضي ـ ولوا إلى قومهم منذرين، تحمل قلوبهم ومشاعرهم ما لا تطيق إلا تصديقه والإسراع في إبلاغه، وإنها لهي حالة امتلاء الضمير بما يملي عليه املاءَه للآخرين، فيا له من قول غلاّب قاهر بليغ، تدخل حشاشة القلوب، فتقلبّها إلى مقلب القلوب!.

وما هي صيغة الانذار، الغلابة الخلابة، المحركة لقلوب المنذَرين، دونما آية اخرى، إلا هي نفسها؟ إنها:!

«قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ»...:

«فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا».[5]

كيف ـ والقرآن أنزل من بعد عيسى ـ قالوا: «انزل من بعد موسى»؟ ألأنهم كانوا هودا ناكرين إنجيل عيسى؟ وهذا

---

[1]). الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عن امير المؤمنين عليه‌السلام في حديث.. فأقبل اليه من الجن التسعة من اشرافهم واحد من جن نصيبين والثمان من بني عمرو بن عامر من الأحجة منهم شضاة ومضاة والهملكان والمرزبان والمازمان ونضاة وهاصب وهاضب وعمرو، وهم الذين يقول اللّه تبارك اسمه فيهم: «وإذ صرفنا اليك نفرا» وفي الدر المنثور ٦: ٤٤ ـ اخرج ابن ابي شيبة وابن منيع والحاكم وصححه وابن مردويه ابو نعيم والبيهقي معا في الدلائل عن ابن مسعود في حديث قال: وكانوا تسعة، واخرج مثله الطبراني والحاكم وابن مردويه عن صفوان بن المعطل. ومثله ـ اخرج الواقدي وابو نعيم عن كعب الاحبار.

[2]). هي قوله تعالى: «وأنه لما قام عبد اللّه كادوا يكونون عليه لبدا» ان رسل الجن هم كانوا من لبد الخير في سائر اللبد (راجع تفسير سورة الجن) وقد اخرجه في الدر المنثور عن عدة طرق عن الزبير.

[3]). كما اخرجه ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضى‌الله‌عنه قال: كانوا تسعة عشر، وما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال: هم اثنا عشر ألفا من جزيرة الموصل.

[4]). في مجمع البيان روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبداللّه قال: فلما قرأ رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله الرحمان على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئا فقال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: الجن كانوا أحسن جوابا منكم، فلما قرأت عليهم: «فبأي آلاء ربكما تكذبان» قالوا: «لا ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب».

[5]). راجع تفسير سوة الجن (الفرقان ج ٢٩ ص ١٣٢).

مسٌّ من كرامة مرسلي الجن أن يكونوا كفارا، والمرسون هم المصطفون! فليكونوا ممن آمن بنبوات تترى، فإيمانا بعيسى عليه‌السلام بعد موسى، ثم انصرافا إلى خاتم الأنبياء!

أم لأن القرآن يشابه كتاب موسى عليه‌السلام إذ يحمل شريعة الناموس كأساس، وكتاب عيسى لا يحملها، وإنما يدعوا إلى كتاب موسى دون زيادة إلا دعوات أخلاقية، وتحليلات لبعض ما حرم إبتلاءً في كتاب موسى،[1] فلأن الإنجيل لا يحمل شريعة جديدة تنسخ شريعة التورات وإنما تكملها أخلاقيا، إعتبره رسل الجن هنا إستمرارا لشريعة موسى، إذا فالقرآن كتابٌ أُنزل من بعد موسى، وهذا هو حق المعنى في انتقالهم إلى القرآن بعد كتاب موسى، تلميحا مليحا أنه الشريعة المفصلة المستقلة بعد التورات «مصدقا لما بين يديه» من الإنجيل والتورات «يهدي إلى الحق»: الشرع الثابت الذي لا حِوَل عنه ولا تحويل «وإلى طريق مستقيم» على طول الخط بيننا وبين القيامة الكبرى، لا عوج فيه «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»!.

ولا يعني تصديق القرآن لما بين يديه، تصديق الموجود من كتب الأنبياء، المحرفة عن جهات إشراعها، وإنما «بين يديه» مما أوحي إليهم، تصديقا لوحيها، لا تثبيتا للعمل بها، اللهم إلا الأحكام التي لم تنسخ منها.

وترى كيف عرفوا أن القرآن نزل ككتاب موسى؟ لأنهم آمنوا من قبل بكتاب موسى، بالآيات الكبرى التي أتى بها موسى، ثم قايسوا ما سمعوه من القرآن إلى كتاب موسى، فأدركوا صلة عريقة بينهما في أصول الدعوة وجماع من فروعها، وأنها من تلك النبعة التي نبع منها كتاب موسى، بل وأحرى، فإذا كان كتاب موسى وحيا وليس فيه آيات النبوة إلا قليلاً، فليكن القرآن وحيا وهو كله آيات للنبوة: «وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءَكم من دون الله إن كنتم صادقين..»قياس ناجح بين القرآن وكتاب موسى، دون حاجة في القرآن إلى بينة سواه، مهما احتاجت التوراة إلى بينات سواها!.

فالإيمان بالقرآن، فيمن أنزله ومن أنزل عليه، إنه استجابة طبيعية مستقيمة لسماع القرآن، وعيا في النفس لمن استقامت فطرته، دون حاجة إلى حجة سواه، بل هو حجة الحجج تدل لوحيها بنفسها كالشمس في رابعة النهار!.

«يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ»:

«داعي الله» هو رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بكتاب الله، فهما ـ إذا ـ هما داعيا الله:

وأما رسول الله ف «قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة..»[2] «قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحدا»[3] «إليه أدعو وإليه مآب»[4] «وانك لتدعوهم إلى صراطٍ مستقيم»[5] فهو يدعوا الناس بكتاب الله إلى الله: «يُدعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون»[6] دعوة بإذن الله: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله

---

[1]). وكما يقول تعالى حكاية عن عيسى عليه‌السلام: «ولا حل لكم بعض الذي حرم عليكم» وهو الذي حرَّم عليهم ابتلاء لا أصلا يبقى: «وعلى الذين هادوا حرمنا».

[2]). سورة يوسف ١٢: ١٠٨.

[3]). سورة الجن ٧٢: ٢٠.

[4]). سورة الرعد ١٣: ٣٦.

[5]). سورة المؤمنون ٢٣: ٧٣.

[6]). سورة آل عمران ٣: ٢٣.

بإذنه وسراجا منيرا»[1]
وأما كتاب اللهّ، فهو هو الأصل في مادة الدعوة، لولاه لم تكن رسالة ولا دعوة، فإنه بينة الداعية وحجة الدعوة: «وأُمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلو القرآن»[2] «فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد»[3]
وإن دعوة اللهّ لا سواه، بينة في رسول اللهّ وفي كتاب اللهّ، داعيتان تحملان بينات من الله مع بعض، كما يشهد بعضها لبعض، فرسول الله هو هو كتاب الله، كما كتاب الله هو رسول الله ف «يا قومنا أجيبوا داعي اللهّ»: داعيا الى اللهّ!.
«أجيبوا داعي اللهّ وآمنوا به» إجابة الدعوة إسلاما باقرار، وإيمانا بها تصديقا بالجوانح والجوارح، فلا فحسب اسلام الإقرار، ولا إيمان التصديق، بل وإيمان العمل أيضا: مثلث الإجابة: لسانا وقلبا وأركانا بدرجاتها:
«يغفر لكم من ذنوبكم» وإنما «من ذنوبكم»: بعضا ـ لا (ذنوبكم): كلاً ـ لأن الذنوب تشمل ما تقدم قبل الإستجابة وما تأخر بعدها، وليس اللهّ ليغفرها كلها بمجرد الإستجابة للداعية والايمان ايا كان! وإنما يُغفر ما تقدم أصلَ الايمان الإستجابة: «قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف» ويغفر بعض ما تأخر لذلك الأصل، ولأنه من أكبر الحسنات «إن الحسنات يذهبن السيئات» ثم يغفر سيئات بمكفرات أخرى بعد الايمان الاستجابة: «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريما» أم ماذا!.
«... ويجركم من عذاب أليم» على ضوء الاستجابة الايمان وهي درجات، فغفران بعض الذنوب وإجارة العذاب أيضا درجات بدرجات دونما فوضى اللاّ حساب، وإنما بحساب عدل ثم فضل (يا قومنا أجيبوا):
«وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِي اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ»!
(ومن لا يجب)، وهو يعرف أنه داعي اللهّ، فقد ترك إجابة اللهّ، والتارك إجابة اللهّ (ليس بمعجز في الأض): لا يعجز اللهّ في أرضه ولا دعوة اللهّ ولا داعي اللهّ: لا رسولاً ولا كتابا لا في أرضه، فكيف إذا في سماءِه؟: «وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون اللهّ من ولي ولا نصير»[4]
وإنما يعجز ويظلم نفسه أن ترك الداعية، وعرض نفسه لشفا جرف هار فانهار به في نار جهنم «وليس له من دونه أولياء»: يشفعون له، أو يحولون بينه وبين بأس اللهّ (اولئك) الحماقى البُله عائشون حياتهم (في ضلال مبين) ف (في) إيحاء لطيف لغرقهم بضلال، مهما مشوا في دَلال وكأنهم على هدى، يحسبون المجيبين لداعي اللهّ في ضلال!.
«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».
إن حماقى الطغيان قد يرون ترك اللهّ لهم يوم الدنيا إعجازا في الأرض فعجزا له عن عذابهم، ثم ولا يقدر أن يحيي الموتى للجزاء رغم وعده، ولكنهم «أوَ لم يروا» مع ما يرون من آثار قدرته وسلطانه «أن اللهّ الذي خلق السماوات والأرض» كما هم معترفون: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن اللهّ»[5]: ثم «ولم يعي بخلقهن» «افعيينا

---

[1]). سورة الأحزاب ٣٣: ٤٦.

[2]). سورة النمل ٢٧: ٩٢.

[3]). سورة ق ٥٠: ٤٥.

[4]). سورة العنكبوت ٢٩: ٢٢.

[5]). سورة لقمان ٣١: ٢٥.

بالخلق الأول»[1] فالخلق الأول هو في الاولى، والثاني هو الإعادة خلقا في الأخرى، والعي بالأمر هو العجز بسببه بعد وقوعه أو مصاحبا عجزا معرفيا أو في القدرة، فالذي لم يعيَ بخلق السماوات والأرض، فهل يعيى أن يحيي الموتى وقد أحياكم ولم تكونوا شيئا مذكورا!

أو لم يروا أنه «بقادر على أن يحيى الموتى» وهو أهون عليه وأدنى: «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس»[2] (بلى) إنهم رأوا وهم ناكرون (بلى إنه على كل شيء) من هذا وذاك (قدير).

إن نفي العيِّ بالخلق هنا تعريض بنكران المشركين: كيف وانه خالق الكون، عاجز عن إحياء الموتى؟ وكذلك بما تسرَّب في التورات من هذه الأساطير الواهية: أنه تعالى «استراح في اليوم السابع من خلقه» كانه عيي بخلقه ولغب: «ولقد خلقنا السماوات والأرض في ستة أيام وما مسنا من لغوب».[3]

عمومية الدعوة القرآنية

«وَكذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآنا عَرَبِيّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ».[4]

«وكذلك» البين المبين من آيات كما هنا وفي سائر القرآن «أوحينا اليك قرآنا عربيا»: يعرب بفصيح آياته وبليغها لأعلى القمم عن أعلى القيم التي تقوِّم وتقيِّم المكلفين على صراط مستقيم، واضحا لا تعقيد فيه ولا ريب يعتريه «لتنذر أم القرى ومن حولها»:

ترى ما هي أم القرى ومَن هم مَن حولها؟

أم القرى هي مكة المكرمة[5] وهل إن مَن حولها هي القرى العربية من شبه الجزيرة، حيث الحول هو القرب الدائر مدار الأصل؟ أم وسائر القرى العربية من الجزيرة وسواها المتصلة بها، المجاورة لها؟ وعربية القرآن بمعنى اللغة

---

[1]). سورة ق ٥٠: ١٥.

[2]). سورة غافر ٤٠: ٥٧.

[3]). سورة ق ٥٠: ٣٨.

[4]). سورة الشورى ٤٢: ٧.

[5]). الدر المنثور ٣: ٢٩ ـ اخرج ابن مردوية قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌و‌آله: ام القرى مكة. اقول وتمر عليك احاديث بهذا المعنى تحت الأرقام ١ ـ ٢ و٤ ـ في الصفحة الآتية.

تشمل العرب العامة مَن حول أم القرى أم البعيدة المنفصلة عنها! أم ان حولها تشمل كل القرى في هذه المعمورة؟ وكيف تشمل غير العربية منها ووحي القرآن عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها لا يحمل إنذار غير العربي، وإن حمل وشمل فلا اختصاص لإنذاره بقرى هذه المعمورة!

أم لا ذا ولا ذاك ولا.. فعربية القرآن لا تعني خصوص اللغة حتى تختص باصحابها، وإنما تعني وضوحها بين اللغات وعلى حدّ تعبير باقر العلوم في تفسير «عربي مبين»: يبين الألسن ولا تبينه الألسن ـ حيث يعرب دون تعقيد وقصور عن أعمق المعاني وأعضلها: علم الله النازل إلى المكلفين أجمعين بأوضح بيان وأجمله.

هنا لسان عربي مبين، وهناك لغة «وهذا لسان عربي مبين».[١]

«نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين»[٢] «فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا»[٣]«فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون»[٤] فاللسان هو لغة البيان، واللغة أعم من البيان واللاّ بيان: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم»[٥] ولسان قومه، غير لغة قومه، وإنما ما يعرب عن الحق دون أي خفاء، لحد يفهمه كل مكلف حيث التعبير عربي مبين واضح لا تعقيد فيه.

ولأن اللغة العربية أعرب اللغات وأوضحها، لذلك سميت عربية، ثم اللّه أنزل هذا القرآن بأفصحها وأبلغها كما يفهمه كل متفهم ليكون الإنذار والتبشير به شاملاً لا تبقي حجة ولا تذر.

فكما القرآن حكم عربي لا يختص بالعرب: «وكذلك أنزلناه حكما عربيا..»:[٦] حكما واضحا لا تعقيد فيه تفهما وتعقلاً وتوافقا للعقل والفطرة والحياة ككل، ثم وتطبيقا على طول التاريخي والعرض الجغرافي..

كذلك هو قرآن عربي لعلكم تعقلون وتعلمون: «إنا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون»[٧] «كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون»[٨] «قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون»[٩] حيث لا عوج فيه تعبيرا وإعرابا عن الحق، ولا معنويا

---

[١]). سورة النحل ١٦: ١٠٣.

[٢]). سورة الشعراء ٢٦: ١٩٥.

[٣]). سورة مريم ١٩: ٩٧.

[٤]). سورة الدخان ٤٤: ٥٨.

[٥]). سورة ابراهيم ١٤: ٤.

[٦]). سورة الرعد ١٣: ٣٧.

[٧]). سورة يوسف ١٢: ٢.

[٨]). سورة فصلت ٤١: ٣.

[٩]). سورة الزمر ٣٩: ٢٨.

ولا في أية ناحية من نواحي البلاغ.

كما وأن الإعراب إظهار الحالة الأدبية للكلمة، والأعراب هم أهل البدو الظاهرون المتكشفون حيث لا تظلهم إلا السمآء أم ماذا؟ غير البنيان في المدن ـ ف «الأعراب أشد كفرا ونفاقا»[1] لا تعني من يتكلم بهذه اللغة، وإنما من يعيش في البوادي، حيث البعد عن مراكز التمدن الإسلامي يجعلهم بعيدين عن الإسلام فهم أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ثم «القرى» هي كافة المجتمعات من سائر المكلفين من الجنة والناس أجمعين أم من ذا؟ في كافة المدن الأرضية[2] والسماوية دون استثناء، وأمها هي مكة المكرمة زادها الله شرفا.

ان الكعبة المشرفة هي اوّل بيت وضع للناس: «إنَّ اوّل بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين»[3][4] والله تعالى بكّ الأرض ومكَّها من مكة حيث حركها من حيث هي كنقطة أولى لحراكها:[5] «والارض بعد ذلك دحاها»[6] «والأرض وما طحاها».[21]

---

[1]). سورة التوبة ٩: ٩٧.

[2]). في تفسير البرهان ٤: ١١٥ القمي قال قال: ام القرى مكة لأنه اوّل بقعة خلقها اللّه من الأرض لقوله: ان أوّل بيت وضع للناس..

اقول: ان امية الرسول من جهات عدة منها انه من ام القرى، ومنها انه لم يقرأ ولم يكتب قبل النبوة، وان كان أقرأ القراء واكتب الكتاب بعدها «ما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون» والروايات التي تكذب النسبة الاخيرة انما تعني بعد النبوة لا قبلها كما في تفسير البرهان ١: ٥٤١ باسناده عن علي بن حسان عن ابي جعفر عليه‌السلام قال: قلت له ان الناس يزعمون ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لم يكتب ولا يقرأ؟ فقال: كذبوا لعنهم اللّه أنّى يكون ذلك وقد قال اللّه عز وجل: هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته... فكيف يعلمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن ان يقرأ ويكتب؟ قال: قلت فلم سمي الامي! قال: نسب الى مكة وذلك قوله: لتنذر ام القرى ومن حولها ـ فام القرى مكة فقيل: امي لذلك.

[3]). سورة آل عمران ٣: ٩٦.

[4]). نور الثقلين ٤: ٥٥٧ عن تفسير عي بن ابراهيم القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر عليه‌السلام في قوله عز وجل: لتنذر ام القرى ـ مكة ـ ومن حولها: سائر الأرض! اقول: وهذا بيان لأوسط المصاديق ل «من حولها» كما فسرت باقربها «الطائف» في رواية أخرى رواها العياشي عن علي بن اسباط قال: قلت لأبي جعفر عليه‌السلام لم سمي النبي الأمي؟ قال: نسب الى مكة وذلك من قول اللّه: لتنذر ام القرى ومن حولها، وام القرى مكة ومن حولها الطائف (تفسير البرهان ٤: ٥٤٠) وفي الدر المنثور ٣: ٢٩ اخرج جماعة عن ابن عباس في تفسير «من حولها» قال: يعني ما حولها من القرى الى المشرق والمغرب.

[5]). في عيون الاخبار والارشاد للديلمي ان شاميا سأل عليا عليه‌السلام عن مكة المكرمة لم سميت مكة؟ فقال عليه‌السلام: لأنه مكَّ الأرض من تحتها اي دحاها. وفي رواية اخرى عنه عليه‌السلام: فلما خلق اللّه الأرض دحاها من تحت الكعبة ثم بسطها علي الماء.

[6]). سورة النازعات ٧٩: ٣١.

ثم الأرض هي ايضا امٌّ لسائر الكرات لسبقها في خلقها عليها بمرحلتين: «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحي في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم».[٣]

فمكة المكرمة من الناحية التكوينية هي أم القرى، ثم وكذلك من الناحية التشريعية حيث الشرعة الإسلامية هي أم الشرائع وتلك أطفالها المتطفلة عنها وإن كانت قبلها، فهي هي المركز الرئيسي للرسالات الإلهية أولاً وأخيرا، وهي الركيزة القويمة المتينة الدائبة للرسالة الإسلامية طول الزمان وعرض المكان، ومن أمِّية الرسول أنه من أم القرى[٤] وأن رسالته أمُّ الرسالات كلِّها ولكل القرى.

ولان «القرى» جمع محلّى بلام الإستغراق، فهي تستغرق القرى المكلفة بهذه الشريعة العالمية في كافة أنحاء العالم بأرضه وسماءه، «ومن حولها» لا تعني الحول القريب، وإنما الحول من حيث التبعية الشرعية، وهذا يتبع في حده ما تُقرره الشريعة من حدود، ف «القرى» بجمعيتها الإستغراقية من ناحية، والحول بكونه حول الأمِّ من ناحية أخرى تدلان على هذه السعة العالمية في «من حولها».

ومن المعروف والطبيعي أن مَن حول العاصمة في كل منطقة هم أتباع العاصمة وإن بعدوا عنها، والأولاد هم حول الأم أيا كانوا، فلا تعني الحول هنا وهناك المكان القريب من الأم والعاصمة، وإنما التبعية للأصل مهما كان المكان قريبا أو بعيدا، والرسالات الإلهية في القرى ليست إلاّ في أُمها: «وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا».[٥]

فأم القرى هي العاصمة الوحيدة للرسالة الإسلامية العالمية ـ رسالة إلى الناس كافة: «وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيرا ونذيرا».[٦] «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له مُلك السماوات والأرض..»[٧] وليس الناس فحسب

---

[١]). سورة الشمس ٩١: ٦.

[٢]). القمي عن الباقر عليه‌السلام قال: ام القرى مكة، سميت ام القرى لأنها اوّل بقعة خلقها اللّه عزوجل من الأرض لقوله عز وجل: ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا..

[٣]). سورة فصلت ٤١: ١٢.

[٤]). في تفسير البرهان ٤: ١١٥ محمد بن الحسن الصفار عن احمد بن محمد عن البرقي عن جعفر بن محمد الصيرفي قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الرضا عليه‌السلام قلت له: لم سمي النبي الأمي ـ الى ان قال: وانما سمي الامي لأنه من اهل مكة ومكة من امهات القرى وذلك قول اللّه في كتابه: لتنذر ام القرى ومن حولها، وفيه عن القمي قال قال: أم القرى مكة.

[٥]). سورة القصص ٢٨: ٥٩.

[٦]). سورة سبأ ٣٤: ٢٨.

[٧]). سورة الأعراف ٧: ١٥٨.

بل والجِنَّة أيضا: حيث تذكر مع الإنس أم وحدها في نطاق الرسالات الإلهية في عشرات من الآيات[1] ثم ولا الجنة والناس فحسب بل والعالمين أجمعين: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا»[2] «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»[3] «إن هو إلا ذكر للعالمين. لمن شاء منكم أن يستقيم»[4] فوحي القرآن ضارب إلى الأعماق في طول العالم وعرضه، من حضر ومن بلغته دعوته أيا كان وأيان: «وأوحي اليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ»[5] وأم القرى هي المركز الرئيسي والعاصمة الوحيدة الوطيدة الخالدة لهذه الرسالة والدعوة الاخيرة، فالجِنة والناس أجمعون، والعالمون أجمعون أيا كانوا وأيَّان تشملهم هذه الدعوة العالمية دونما استثناء، وهم كلهم مِن «مَن حولها».

إذا فآية أم القرى ـ وهي الآية الأم في التعريف بسعة هذه الرسالة ـ إنها تعتبر مكة المكرمة المركز الرئيسي للرسالة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث صدرت وانتشرت عنها هذه الدعوة المباركة وعلى طول الزمن، والقرى هي المجتمعات العالمية والمكلفة في شتى أرجاء الكون، في هذه المعمورة أم سائر المعمورات في الأنجم، وهي كلها «مَن حولها» حيث الحول تعني هنا ما يناسب عمومية القرى المستفادة من مستغرق الجمع فيها، ولو أن «من حولها» يخص القريب منها دون الجمع، لكانت القرى هي هذا البعض فقط لا الجمع، فالمعنى لتنذر أم بعض القرى!..

إذا فدعوة الام ورسالتها تشمل القرى كلها وإلا لم تكن من قراها، والقرى هم العالمون أجمعون حيث الله ربهم أجمعين: «الحمد لله رب العالمين»[6] إذا فالخارجون عن هذه الدعوة إدعاءً وتعنتا هم خارجون عن الناس إلى النسناس، وهم خارجون عن العالمين الأحياء، المتخلفين عن ربوبية الله! وكما أن مكة أم القرى تكوينا وتشريعا، كذلك الرسول الأقدس وأحرى، حيث القلوب قرى وأمها ومركزها الأصيل عبر الرسالات وإلى يوم القيامة هو القلب المحمدي صلى‌الله‌عليه‌وآله وهنا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله يبدأ بإنذار نفسه واصطناعه بالقرآن، ثم سائر القلوب من سائر المكلفين، خوضا في أغوار البحار المتلاطمة من كافة المكلفين لينجي الغرقى: «يا أيها المزمل. قم الليل.. ان لك في النهار سبحا طويلاً»: فبقيام الليل والترتيل يعد نفسه نهارا للسبح الطويل!..

ثم وهنالك شهادات كتابية تصدق ما شهدنا في آية «أم القرى» ففي الأصل الانقلوسي من نِبوْئتْ هَيِّلِدْ «مُحَمَّدْ.. كَلِيلِيا»: محمد هو الكل في كله: ـ في رسالته ودعوته، كما في صفاته أم ماذا من محمدياته؟.

---

[1]). ونماذج من هذه الآيات البينات كالتالية: «يا معشر الجن والانس الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي..» (٦: ١٣٠) «ولقد ذرأنا لجهنم كثيرامن الجن والانس..» (٧: ١٧٩) «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله..» (١٧: ٨٨) «وحق عليهم القول في امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين» (٤١: ٢٥) «واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين» (٤٦: ٢٩) «قل اوحي الي انه استمع نفر منا لجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به..» (٧٢: ١).

[2]). سورة الفرقان ٢٥: ١.

[3]). سورة الأنبياء ٢١: ١٠٧.

[4]). سورة التكوير ٨١: ٢٨.

[5]). سورة الأعراف ٧: ١٩.

[6]). سورة الفاتحة ١: ٣.

وفي الأصل العبراني من فرع توراتي: حِجّي النبي «وَهِرْ عِستي اِتْ هَغُويِمْ وُبـائُوا حَمِّدتْ كـالْ هَغُـويِم وُمِلُـؤتي اِتْ هَبَّيِتْ هَزِّه كابودْ آمَرْ يِهُواهْ صبائوتْ»:
أهيِّج كل الأمم ويأتي محمد كلِّ الأمم ومرغوبهم وأملأ هذا البيت من الجلال هذا أمر رب الجنود».
وفي انجيل برنابا الحواري:[1] أجاب يسوع: لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي إني لست مَسِيًّا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً: بنسلك أبارك كل قبائل الأرض.
وبركة هذا النسل المبارك مصرحة في الأصل العبراني من التورات: تكوين[2] «وُليشْمَعيل شِمَعْتِيخَا هِينِّه بِرَخْتي أوتـو وَهِيفرتِي أوتو وهِيْرِبْتي أوتو بِمْئُدْ مِئُدْ شِنِيم عَاسارْ نِسيئيمْ إمْ يُولِدْ وِنتَيِّوُ لِغُويَ غادُل»:
«ولإسماعيل سمعته: (إبراهيم)ها أنا أُباركه كثيرا وأُنميه كثيرا وأُثمره كثيرا وأرفع مقامه كثيرا بمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله واثنـى عشر إماما يلدهم إسماعيل وأجعله أمة كبيرة.. أبارك العالم بهم».[3]
«لتنذر أم القرى ومَن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير»[4] عطف الإنذار الثاني إلى الأول يوحي بأنه غيره، فما هو الإنذار بغير يوم الجمع؟ إن هنا نذارة ليوم الفَرْق: الدنيا وأخرى ليوم الجمع: الأخرى وكما البشارة تعمهما، إذ ليس الدين ـ فقط ـ ينحوا نحو الإصلاح للأخرى حتى يختص انذاره وتبشيره بها، بل ويبتدء بالأولى وينتهي إلى الأخرى، حيث الأولى مزرعة الأخرى، وانتفاع الزارع أو خسرانه يعمهما،.. وقد يعني الإنذار الأول ـ فيما يعني ـ إنذار المبدء قبل المعاد، أو أن الإنذار الأول يعمهما كليهما، فلأن الثاني أهمهما يختص هو بالذكر دون الاوّل، حيث النكبات الدنيوية تتحمل بِطِيَّات شهواتها الحاضرة، ولكنما الأخروية صارمة لا تحمل بطياتها شهوات، فالإنذار لها هي هي الأصل وللأولى الفرع.
ثم الجمع «يوم الجمع» يحوي جموعا عدة: جمعا لأجزاء كل إنسان وعظامه: «أيحسب الإنسان ألَّن نجمع عظامه»[5] وجمعا للخلائق المكلفين: «هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين»[6] وجمعا بين الرسل الأشهاد والمرسل إلـيهم المشـهود عليهم: «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم»[7] ولكي يفتح ويحكم بينهم: «قل يجمع بيننا ربنـا ثـم يفـتح بيننـا بالحق وهو الفتاح العليم»[8] ثم وجمعا لأصحاب الجحيم في الجحيم: «إن الله جامع المنـافقين والكـافرين في جهـنم

[1]). ٩٦: ٨.

[2]). ١٧: ٢٠.

[3]). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد تفاصيل هذه البشارات.

[4]). سورة الشورى الآية ٧.

[5]). سورة القيامة ٧٥: ٣.

[6]). سورة المرسلات ٧٧: ٣٨.

[7]). سورة المائدة ٥: ١٠٩.

[8]). سورة سبأ ٣٤: ٢٦.

جميعا»[1] وكما يجمع أصحاب الجنة فيها: «ان اللّه يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار».[2]
وبالجمع بين العمال وأعمالهم، بينهم وبين كتبهم وشهودهم، حتى يحقق الجمع بين كل عمل وجزاءه..: «لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير».
ثم الإنذار كتحقيق وإن كان مرحليا من حيث التطبيق منذ العشيرة الأقربين: «وأنذر عشيرتك الأقربين»[3] إلى قوم لُدًّ وهم الألداء من العرب: «لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لُدّا»[4] وإلى من بلغ: «لأنذركم به من بلغ»[5] ثم الى العالمين أجمعين: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا».[6]
ولكنما الإنذار بالقرآن ككل ليس مرحليا، بل «وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم»[7] «لتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به».[8] والمؤمن بالآخرة لا يُحصر في أم القرى والقريبة منها، بل ويعم كل مَن سبيلُه الإيمان أيّا كان وأيان.
ثم في المرحلية أيضا إنما يترحَّل الإنذار من عشيرته إلى قومه اللّد أيا كانوا، لا في القرى المجاورة لأم القرى، فلا العشيرة الأقربيون محصورون فيها، ولا القوم اللد مخصوص بها، فالأقرب الأحرى في الأنذار هم الأقربون قرابة لا مكانا، ثم الألداء الأشداء تعنُّتا ومكانة لا مكانا، ولا تصريحة أو إشارة في القرآن أن الأقرب مكانا أحرى وأقرب في الدعوة.
ثم وللإنذار مرحليا وسواه ـ كما سبق ـ موضع في الأولى وآخر في الأخرى كما في طيات آياته[9] ثم وكذلك التبشير، ولكن الإنذار يحتل الموقع الأعلى والركيزة الاولى في الدعوات الرسالية، فإن حمله على التقوى أقوى من التبشير، فكثير هؤلاء الذين لا يهمهم ما يبشَّرون به من نفع ويهمهم ما ينذَرون به من ضرٍّ، ودفع الضرر أولى من جلب النفع، والجمع أحرى!

---

[1]). سورة النساء ٤: ١٤.

[2]). سورة الأحزاب ٣٣: ٢٣.

[3]). سورة الأنعام ٦: ٢١٤.

[4]). سورة مريم ١٩: ٩٧.

[5]). سورة الأنعام ٦: ١٩.

[6]). سورة الفرقان ٢٥: ١.

[7]). سورة الانعام ٦: ٥١.

[8]). سورة الانعام ٦: ٩٢.

[9]). والاكثرية الساحقة من آياته تنحوا منحى الأخرى لأنها أحرى واكثر تأثيرا، وقليل منها تخص الأولى وثالثة تعمها.

«وَلَوْ شاءَ اللّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدةً وَلكِنْ يُدْخِلَ مَنْ يَشاءُ في رَحْمَتِهِ وَالظّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ».[1]
ماذا تعني وحدة الامة المستحيلة بما توحيه «لو»؟ أوَحدة تشريعية في شرعة وهي الشرعة الكاملة الأخيرة أن يكلف المكلفين عامة بهذه الشرعة منذ آدم إلى الخاتم؟ ف «لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء اللّه لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى اللّه مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون».[2]
أم وحدة في ضلالة كما هم قبل البعثة: «كان الناس أمة واحدة فبعث اللّه النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه فهدى اللّه الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق واللّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[3] أم وحدة في هداهم تكوينيا «ولو شاء اللّه لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين»[4] جمعا لهم على الهدى والعصمة[5] دون اختيار؟ فهو انتقاص حيث الإختيار في الإهتداء إكتمال وليس كذلك الإضطرار.
أم يجمع من لا يهتدي بسوء الإختيار إلى من يهتدي بحسن الإختيار، أن يجبر الاولين على الهدى؟ وهذه تسوية بين المتقين والفجار!: «أم نجعل المتقين كالفجار»[6] ثم ولا اكراه على الهدى «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا فأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين*وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن اللّه ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون»[7] «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين*إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين»[8] «وعلى اللّه قصد السبيل ومنها جائِر ولو شاء لهداكم اجمعين».[9]
«أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم».[10]

---

[1]). سورة الشورى الآية ٨.

[2]). سورة المائدة ٥: ٤٨.

[3]). سورة البقرة ٢: ٢١٣.

[4]). سورة الانعام ٦: ٣٥.

[5]). نور الثقلين ٤: ٥٥٩ في تفسير علي بن ابراهيم في الآية قال: لو شاء ان يجعلهم كلهم معصومين مثل الملائكة بلا طباع لقدر عليه ولكن يدخل من يشاء في رحته..

[6]). سورة ص٣٨: ٢٨.

[7]). سورة يونس ١٠: ١٠٠.

[8]). سورة هود ١١: ١١٨.

[9]). سورة النحل ١٦: ٩.

[10]). سورة الجاثية ٤٥: ٢١.

وحدة في الثواب أو العقاب في الأخرى على اختلاف في الهدى والضلال في أولاهم! ام يُجبر الكلُّ على الضلال حتى من يَختَار الهُدى لولا الإجبار، فهذا إدخال من النور إلى الظلمات لمن يهتدي لولا الإجبار، ثم تسوية ظالمة بين المهتدي والضال، وكذلك أيَّة تسوية بين الناس تكوينا أو تشريعا في ضلال أو في هدى في الأولى او الأخرى، كل ذلك بين انتقاص وظلم تعالى اللّٰه عن ذلك علوا كبيرا، وقد تعني آيتنا إحالة كافة هذه الوحدات.
ولماذا قوبلت «والظالمون» ب «من يشاء» دون «العادلون»؟.. لأن «من يشاء» يعم العادلين والقاصرين غير المكلفين أو يسامح عنهم من الأطفال والجانين والمستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، «فأولئك عسى اللّٰه أن يعفو عنهم وكان اللّٰه عفوا غفورا» فالعذاب يخص الظالمين، والرحمة تعم العادلين وغير المكلفين والذين يحق العفو عنهم منهم وقد سبقت رحمته غضبه، فالغضب قضية العدل وهو محدد بحدود الظلم ما لم يصلح العفو، والرحمة قضية اللطف، فهي واسعة ما لم تناف العدل.

القرآن نذارة عالمية

«تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا».[1]
إنها «سورة الفرقان» حيث هي بازغة بتنزيل الفرقان، وكل سور القرآن فرقان مهما اختلفت اسماؤها، فانها يجمعها أنها كلها فرقان ومن الفرقان «فبأي آلاء ربكما تكذبان».
وان في «الفرقان» لهذا العبد الفقير ذكريات حملتني على تسمية هذا التفسير بالفرقان، وان اقيم ردحا من الزمن في منزل وحي الفرقان «ليكون للعالمين نذيرا».[2]
والفرقان ـ على ما يروى ـ كأنها نزلت سورتها كصورتها الآن وقد نتلمح من قراءة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله لها كما هي. الا تكفي سورة بعد الفاتحة إلاّ بتمامها، وإن كان نسيان آية منها للرسول خلاف النص: «سنقرئك فلا تنسى» فذلك النسيان ـ اذا ـ نذره في بوتقة النسيان.[3]

---

[1]). سورة الفرقان ٢٥: ١.

[2]). اخذت خيرة بالقرآن لهذه التسمية المباركة فطلعت «تبارك الذي نزل الفرقان» واخذت خِيرَة اخرى للمقام في مكة المكرمة في هجرتي الى اللّه من بأس الطاغوت الايراني «شاه» عليه لنعنة اللّه، فطلعت ثانية «تبارك الذي نزل الفرقان» ويا له وفقا لهذا التوفيق ما اوفقه، والحمد للّه اولاً واخيرا، ذلك وقد وفقت لتكميله في قم المشرفة بعد الانقلاب الاسلامي السامي.

[3]). الدر المنثور ٥: ٦٤ ـ اخرج ابن الانباري في المصاحف عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله صلى الصبح فقرأ سورة الفرقان فاسقط آية فلما سلم قال هل في القوم ابي فقال أبيها أنا يا رسول اللّه، فقال: الم اسقط آية؟ قال: بلى، قال: فلم لم تفتحها علي؟ قال: حسبتها آية نسخت، قال: لا ولكني اسقطتها أقول ما لهذا الرسول يحتاج فيما ينساه ـ ولا سمح اللّه ـ الى ابي، وكأنه احفظ منه، رغم انه صلى‌الله‌عليه‌وآله كان احفظ الحفاظ على الإطلاق بما أقرأه اللّه.

ولا تنافي مكية «الفرقان» بتمامها آية تحريم الزنا فيها، فانها من اوّليات المحرمات في التشريع الاسلامي كما الخمر واضرابهما.

وهل الفرقان هو القرآن المفصل كله كما تلمح له «نزل» المؤشرة للتدريج؟ ولم ينزل بعدُ القرآن المدني وقسم من المكي! وتقول الروايات انه المحكم الواجب العمل به دون المتشابه!.[1]

«نزل» الماضي تشمل المنزّل من المفصل في المستقبل كما مضى، حقيقة فيما نزل، وتحقيقا فيما سوف ينزّل، حيث المستقبل المتحقق الوقوع يعبر عنه بالماضي، وهكذا الامر في سائر التعبير عن تنزله في سائر القرآن.[2]

ثم القرآن كله فرقان محكما ومتشابها، وعلّ اختصاصه في الحديث بالمحكم اختصاص بغير الراسخين في العلم، الذين لا يفهمون متشابهه في نفسه، وبارجاعه الى محكمه، واما الراسخون فالقرآن كله لهم فرقان، على درجاتهم في تفهم الفرقان.

ولان الفرقان فعلان من الفَرق، اسم مصدر مبالغ في الفرق، فهو القرآن البالغ في فرقه بين الحق والباطل.

ولذلك يعبر عنه ككل بالفرقان: «هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان»[3] «وانزل التوراة والانجيل من قبل هدىً للناس وانزل الفرقان».[4]

كما وهو البالغ في فرقان التنزيل نجوما طائلة: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً».[5]

إذا فالقرآن فرقان كله في البعدين، واولاهما حيث يفرق فرقا واضحا لا ريب فيه بين كل حق وباطل، طول الزمان وعرض المكان، ومن فرقه فارق التعبير فصاحة وبلاغة وحتى في موسيقاه عن سائر التعبير، وانه الفرقان المعجزة الوافية بنفسه دون سائر الوحي، والفارق بين حق المروي من السنة وباطله فرقان في منهجه ومبلجه فلا يشبه اي منهج إلهيا وسواه، حيث يمثل عهدا جديدا منقطع النظير عن كل بشير ونذير. جديدا في المشاعر، ينتهي به عهد الطفولة، ويبدأ به عهد الرشد بأشده، وينتهي به عهد الخوارق المتعوَّدة ويبدأ به عهد المعجزة العقلية والعلمية اما هيه، وينتهي به عهود الرسالات الموقوتة.

ولأنه هكذا فرقان ف «ليكون للعالمين نذيرا» فرقان الرسول ورسول الفرقان، فرقانان متجاوبان في كل زمان ومكان..

«نزل الفرقان على عبده» دون رسوله، لانه بعبوديته القمة أستأهل ذلك التنزيل، ثم وأُرسِل للعالمين نذيرا بذلك التنزيل، وما احلاها صيغة العبودية وصبغتها، بسابقتها للرسالة وسابغتها، فلا تصوغ الرسالة إلاّ بعد صبغها كاملة متكاملة، كافلة متكافلة، فمن ثم هي آهلة سائغة للرسالة بالفرقان «ليكون للعالمين نذيرا»، هذا، وكما هو عبده في

---

[1]). تفسير البرهان ٣: ١٥٥ محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن ابيه عن ابن سنان عمن ذكره قال سألت ابا عبدالله عليه‌السلام عن القرآن والفرقان هما شيئان او شيء واحد؟ فقال: القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به.

[2]). المصدر ابن بابويه باسناده عن يزيد بن سلام انه سئل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال لم سمي الفرقان فرقانا؟ قال: لانه متفرق الآيات والسور نزلت في غير الالواح وغيره من الصحف والتورية والانجيل والزبور انزلت كلها جملة في الالواح والورق، أقول: وهذا وجه آخر في كون الفرقان هو القرآن كله.

[3]). سورة البقرة ٢: ١٨٥.

[4]). سورة آل عمران ٣: ٤.

[5]). سورة الإسراء ١٧: ١٠٦.

اسرائه «سبحان الذي اسرى بعبده» وفي دعائه «وانه لما قام عبد الله يدعوه» مثلث من قمة التكريم، في اهم ادواره الرسالية دعاءً وهي مخ العبادة، وعروجا لمقام التدلي، وتنزيلاً للفرقان!

«ليكون للعالمين نذيرا» دون قومه ـ فقط ـ ام والعرب فحسب، ام عالمي زمنه، ام لردح من الزمن، وانما «للعالمين» من الجنة والناس أمّن هم اجمعين، في كل زمان ومكان، ولان العالمين جمع لعالم ذوي العقول، فلأقل تقدير هناك عالم ثالث لا نعرفهم، وقد تشير اليهم آيات العالمين، وآية الشورى «ومن آياته خلق السماوات والارض وما بث فيهما من آية وهو على جمعهم اذا يشاء قدير».

و«للعالمين» حيث تشمل الطول التاريخي والعرض الجغرافي لذوي العقول دونما استثناء، يصبح دليلاً بجنب سائر الادلة لكون هذه الرسالة السامية هي الشاملة الخاتمة للرسالات الإلهية أجمع، والجمع المحلى باللاّم يستغرق كافة مصاديقه دونما استثناء.

فالعالمين اجمعين سواء أكانوا في السماوات ام في الارضين تشملهم هذه النذارة الاخيرة، وكما تلمح له «الذي له ملك السماوات والارض..» اذا فسعة هذه النذارة هي ملك السماوات والأرض!. وكما «تبارك الله احسن الخالقين» في خلق الانسان في احسن تقويم، كذلك «تبارك الذي نزل الفرقان» حيث الفرقان في احسن تقويم، احسن تقوم في التدوين لأحسن تقويم في التكوين.

وترى «للعالمين نذيرا» بشخصه وجها بوجه في سنِّي دعوته الثلاث والعشرين؟ وذلك غير واقع ولا ميسور! فانما الهدف في تبني هذه الرسالة القرآنية هو النذارة هو النذارة لكل العالمين بمن معه من حملة رسالته وبلاغها الى يوم الدين.

ولقد ادى هو واجبه الرسالي في عهديه المكي والمدني، وصنع ـ بأذن الله ـ على ضوئها حملة لها على طول الخط، والمحور الركين الامين على مرّ الزمن هو الفرقان والفرقان فقط.

ولماذا ـ فقط ـ «نذيرا» لا «نذيرا وبشيرا» او «بشيرا»؟ لان البشارة ليست إلاّ لمن يتقبل الدعوة، فخاصة بالمؤمنين، والنذارة تعم العالمين اجمعين، ناكرين ومصدقين، ولا تجد البشارة في سائر القرآن إلاّ خاصة دون النذارة.

«الذي نزل الفرقان...».

«الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا».[1]

إذا فلتشمل دعوة القرآن ملك السماوات والأرض، ولتملك السماوات والأرض، كما سوف تتحقق وتطبَّق على العالمين اجمعين زمن القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

«ولم يتخذ ولدا» منذ الأزل، قبل الزمان وبعد الزمان ـ اذا ـ فلن يتخذ ولدا حتى الابد طول الزمان وبعده، حيث اتخاذ الولد ليس إلاّ لحاجة، فاذ لم تكن قبل فلن تكون بعد.

«ولم يكن له شريك في الملك» لا ذاتا ولا اتخاذا، فلن يكون ـ اذا ـ له شريك في الملك.

وكيف يتخذ ولدا ام له شريك في الملك «وخلق كل شيء» ما زعمتموه ولدا وسواه، شريكا وسواه، ولن يكون المخلوق الفقير الذات الى خالقه ولدا له او شريكا، لا في الخلق اذ هو مخلوق، ولا في تقدير الخلق فانه هو الذي «قدره تقديرا» فهل المخلوق المقدّر يناحر الخالق المقدِّر!

«له ملك السماوات والارض» تختص به وتحصر حقيقة ملك الكون ككل دونما استثناء، حصرا وملكا حقيقيين، فلا ينتقل عنه الى ولد يتخذه او شريك يُدعى له...

والمُلك الحقيقي يلازم المِلك الحقيقي وهما لزام المَلِك الحق دون زوال ولا انتقال.

وترى «كل شيء» تشمل افعال العباد بجوانح ام جوارح؟ وهذا جبرٌ رافع للتكليف! قد يقال: لا، حيث الافعال غير الاشياء، فانها مواد الخلقة، والافعال صادرة عنها كمصادر تسييرا او تخييرا وقد يؤيده «خلق».

---

[1]). سورة الفرقان الآية ٢.

القرآن يصدّق كل وحي رباني

«وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقا لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنا قَلِيلاً وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ».[1]
أمران يتوسطهما نهيان، أمرٌ بالايمان بما انزل اللّٰه أولاً وبتقواه اخيرا، ونهي عن ان يكونوا اوّل كافر بما أنزل، وأن يشتروا بآياته ثمنا قليلاً: سياج رباعي لا قِبَل له، ولا سيما لمن ذكر نعمة اللّٰه ووفى بعهد اللّٰه، ورهب اللّٰه! فالنهيان سياجان لتحكيم الامر الأوّل، والأمر الأخير سياج للثلاثة: تقوى اللّٰه في الايمان به وترك ما نهاه.
وهل إن «ما انزلت» يخص القرآن، فانه النازل من سماء الوحي، أم هو الرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله فانه ايضا نازل برسالته: «قد انزل اللّٰه اليكم ذكرا. رسولاً يتلوا عليكم آيات اللّٰه بينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور»[2] حيث النزول هنا وهناك ليس من السماء، فان اللّٰه ليس ساكن السماء وماكنها، وانما من مقام علٍ، فكما القرآن نازل الى أراضي القلوب من سموا الربوبية وسمائها، كذلك الرسول نازل برسالته ووحيه ـ سواء، حيث هما من علٍ الى دانٍ.
وقد تتحمل الآية كلا النازلين، قرآن محمد ومحمد القرآن، مهما كان القرآن الوحي أصلاً، ومحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله حامله فرعا، حيث الدليل الأصل على رسالته هو القرآن، كما هو وحيه الأصيل.
فالقرآن يصدق ما معهم من كتب الوحي وانبياءه، ومحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله يصدق ما معهم من أنبياءه وكتب الوحي، فمحمد هو القرآن كما القرآن هو محمد مهما اختلفا في مظهرين!.[3]
هنا «ما انزلت» وفي اخرى «ما انزل اللّٰه»[4] يعمان الرسول والقرآن، وأما «آمنوا بما نزلنا..»[5] فانها خاصة بالقرآن لمكان التنزيل: التدريج، ولا تدرُّج لأصل الرسالة، ولكنما القرآن مُنْزَلٌ: لنزوله جملة واحدة ليلة القدر، ومنزَّل ايضا لنزوله متدرجا نجوما طوال الرسالة.
وترى ماذا يعني «مصدقا لما معكم»؟ ومعهم خليط من وحي الأرض والسماء! فهل القرآن يصدقه كلّه: «لما

---

[1]). سورة البقرة ٢: ٤١.

[2]). سورة الطلاق ٦٥: ١١.

[3]). «وما علمنا الشعر وما ينبغي له إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين» هذه الآية من يس كما تأتي تجعل الرسول ذكرا وقرآنا مبينا اذ لا مرجع ل «هو» الا هو ولم يسبق ذكر من القرآن.

[4]). سورة البقرة ٢: ٩١.

[5]). سورة النساء ٤: ٤٧.

معكم»؟ ام بعضه: الذي لم يحرّف بعد ف «لبعض ما معكم» والنص «ما» لا «بعض ما»؟!

هناك آيات تصرح ان اليهود والنصارى حرفوا أقساما من آيات الوحي:«فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله فويلٌ لهم مما كتبت ايديهم وويلٌ لهم مما يكسبون»[1] فكيف يصدق القرآن ما يكذبه من آيات توراتية او انجيلية دخيلة؟.

إذا فليس القصد كلَّ ما معهم، فهل هو ـ اذا ـ ما معهم من آيات الوحي لا سواها: «وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه»[2] فالمصدَّق هو كتاب الله، لا كل كتاب ولا كل ما معهم؟ وانما بعض ما معهم؟.

وليس في تصديق البعض لما معهم تحريضٌ على الايمان به، فان كلَّ لاحق ـ لا محالة ـ يصدق البعض من سابقه، إذ لا يمكن تكذيبه ككلٍّ وإن كان كلُّه من وحي الأرض!. بل ولا يستطيع اي كاذب محتال ان يجمع أكاذيب لا صدق فيها، فانما يخلط كذبا بصدق، ويظهر كلاً بمظهر الآخر بغيةَ الإضلال: «فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا فهناك استحوذ الشيطان على أولياءه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى» بل وحتى إذا حاولوا أن يجمعوا كذبا خالصا لا يستطيعون!.

فترى إذا لا يقصد من «ما معهم» لاكله لمكان التحريف، ولا بعضه إذ لا يفيد، فما هو المصدَّق إذا؟.

اقول: إنه البشارات الموجودة في التوراة كما في آيات: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين»[3] فقد كانوا من قبل أن يأتي محمد بالقرآن يستفتحون على المشركين انه يأتي بأقوى شريعة إليه تقضي عليكم «فلما جاءَهم ما عرفوا كفروا به...».

ف «ما معكم» هنا وفي«يكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم»[4] وفي «يا ايها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم»[5] إنها ـ فقط ـ البشارات المودوعة في كتب السماء، ثم وفيما يعني الأعم منها وسائر آيات الوحي لا نجد «ما معهم» او «معكم» بل «ما بين يديه»[6] و«ما بين يديه من الكتاب»[7] ولا يعني بين يدي الرسول كرسول إلا ما انزل قبله على من سبقه من الرسل وقد يشير الى ما معهم: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم

---

[1]). سورة البقرة ٢: ٧٩.

[2]). سورة المائدة ٥: ٤٨.

[3]). سورة البقرة ٢: ٨٩.

[4]). سورة البقرة ٢: ٩١.

[5]). سورة النساء ٤: ٤٧.

[6]). سورة البقرة ٢: ٩٧ وسورة آل عمران ٣: ٣.

[7]). سورة المائدة ٥: ٤٨.

وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون»[1] ـ«الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل..».[2]

وقد جمعنا في مؤلف خاص ما معهم من بشارات بحق الرسول الاعظم محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله[3] نستعرضها في مجالاتها حيث تشير اليها الآيات، وهنا مجالٌ لاستعراض موصفات القرآن في كتب السماء.

ف «ما نزلنا مصدقا لما معكم» له وجهتان: عامة تشمل عموم القرآن، وخاصة تخص ببشارات للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فالقرآن ونبيه مبشر بهما على سواء في كتب السماء.

فمن العامة: «ذلك ـ الكتاب ـ لا ريب فيه»: ذلك القرآن هو الكتاب الذي بشر به من قبل: «نزل به الروح الامين*على قلبك لتكون من المنذرين*بلسان عربي مبين*وإنه لفي زبر الاولين*اولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل».[4]

واليكم نموذجا من هذه التي كانت في التورات ولعبت بها ايدي التحريف و التجديف مواصفات للقرآن كما في الأصل العبراني من كتاب اشعياء.[5]

«اِتْ مِيْ يُورِهْ دِعاهْ وِاِتْ مِيْ يا بِينْ شِمُوعاهْ غِكْمُولِيْ مِحالابْ عِتِيقِّى مِشَّادايِمْ كِي صَوَلا صاوْ صَوْلا صَاوْ قَوْلا قَاوْ زِعِير شَامْ زِعِير شَامْ* كِي بِلَعَجِي شَافاهْ وِبِلاشُونْ أحِرِتْ يدَّبِرْ إلْ هاعامْ هَذِّهْ* آشِرْ آمَرْ إليهِمْ زِئُتْ هَمْنُوحاهْ هانِيحُو لِعايِف وِزِئُت هَمِّرْجَعاهْ وِلا آبُو شِمُوعْ* وِهاياهْ لاهِمْ دِبَرْ يهُواهْ صَوْلا صاوْ صَولا صاوْ قَوْلا قاوْ قَولا قَاوْ زِعِيرْ شامْ زِعِيرْ شامْ لِمِعَنْ يِلْخُوا وِخاشْلُوا آحُورْ وِنِشْبارو وِنُوقِشُوا وِنِلْكادُوا* لاخِنْ شِمعُوا دِبَرْ يهُواهْ أنِشيْ لاصُون مِشْلِيْ هَاعامْ هَذِّهْ أشِرْ بِيروشالامْ»:

«لمن تُرى يعلم العلم ولمن يفقِّه في الخطاب أللمفطومين عن اللبن للمفصولين عن الثدي* لأنه امرٌ على امر، امرٌ على امر، فرضٌ على فرض فرض على فرض هنا قليل وهناك قليل* لأنه بلهجة لكناءَ وبلسان غير لسانهم يكلم هذا الشعب* الذين قال لهم هذه هي الراحة فاريحوا الرازح وهذه هي الرفاهية فأبوا ان يسمعوا* لذلك سيكون كلام الرب لهم امرا على أمرٍ، امرا على أمرٍ، فرضا على فرض فرضا على فرض هنا قليلاً وهناك قليلاً لكي يذهبوا ويسقطوا الى الوراء فيحطَّموا ويصطادوا فيؤخذوا* لذلك اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء! ولاة الشعب الذي في اورشليم*».

إنها بشارات لطيفة للقرآن ونبيه، تصريحا بلغته «بلسان غير لسانهم» ان نبيا غير عبراني يكلمهم بغير لغتهم، بقرآن نازل عليه نجوما: «امرا على امر فرضا فرض هنا قليلاً وهناك قليلاً» قائلاً لشعب اسرائيل: «هذه الراحة اريحوا الرازح: التعبان، وهذا هو السكون» ولكن..

فمن يصدِّق ـ إذا ـ بهذا النبي وبقرآنه، فقد صدق بسائر كتب السماء المبشرة بهما، ومن يكذب فقد كذب بها أجمع، فالمسلم مسلم وموسوي ومسيحي حيث صدقهما في إسلامه، والكافر بالقرآن كافر بموسى والمسيح ومَن

---

[1]). سورة البقرة ٢: ١٤٦ وسورة الانعام ٦: ٢٠.

[2]). سورة الأعراف ٧: ١٥٧.

[3]). رسول الاسلام في الكتب السماوية وفيه ٦٠ من بشارات الوحي فراجع.

[4]). سورة الشعراء ٢٦: ١٩٧.

[5]). الفصل ٢٨: الآية ٩ ـ ١٤.

بينهما، الذين بشروا به!
ف «آمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا اوّل كافر به...»!
وترى النهي يخص اوّلية الكفر به فلو كفروا به آخرا أو بعد آخرين فلا نهي؟!
أجل ـ انه نهي عن مطلق الكفر به أولاً وآخرا، وذكر الاوّل هنا إيماءُ تنديد، أنهم رغم ما كان عليهم الإيمان به قبل الآخرين، لأنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم دون آخرين» «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به» فكانوا أوّل كافر به ـ هنا يُنهون عما كفروا خلاف المترقب منهم، نهيا عن واقع هو أفضح منكر فعلوه، كالنهي عن اكل الربا أضعافا مضاعفة: «لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة» اذ كانوا كذلك يفعلون، فلا تكونوا اوّل كافر بمحمد والقرآن، وبأن وصفه وكتابه في كتبكم مذكورة!.
فيا لهذا الكفر الاوّل من ضلال ذاتي وإضلال للآخرين، فإنهم يستدلون بكفر الاوّلين فلا يؤمنون، أن لو كان خيرا فليكونوا هم اوّل المؤمنين إذ كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم! واهل البيت أدرى بما في البيت.
فقد منعوا هنا أن يكونوا قدوة في الكفر فحجة للنفوس الضعيفة، رغم ما عليهم أن يكونوا أوّل المؤمنين، فقدوة للآخرين.
ثم الاوّلية المنهية هنا تعم الزمنية والرتبية، وقد جمعوا بينهما فكانوا اوّل كافر به منذ اوّل المواجهة من العهد المدني، قبل أن يكفر به غيرهم من مشركين وكتابيين هناك، وكانوا كذلك اوّل كافر به في ألدّه وأشده، مهما كانت الاوّلية الزمية في العهد المكي للمشركين حيث لم يكن هناك كتابيون، فهم أولاء كانوا الاوّلين والآخرين في الكفر المكي، وبنوا إسرائيل هم الاوّلون زمنا في العهد المدني، ورتبة في المكي ايضا وفي كل العهود، حيث لم يُعهد كفر أكفر من كفرهم وحتى الآن!.
ف «اول كافر به» عليه وزره ووزر من كفر به إلى يوم القيامة ولا ينقص اولئك من أوزارهم، كما ان اوّل من آمن به له اجره وأجر من آمن به الى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أجورهم، وكما ثبت عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «من سن سنةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أجورهم شيء ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيء».
...«وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ»[1]
.. إنها آيات بيِّنات في كتابات الرسل الإسرائيلين تحمل بشارات بالقرآن ونبيِّه، اشتروا بها ثمنا قليلاً أن حرفوها بزيادة أو نقصان أو تحوير وتغيير، في التوارة والإنجيل وما بينهما من كتاب، كيلا يبقى أثر من محمد وقرآنه فيها، مغبة ثمن قليل وكلُّ ثمنٍ بجنب آيات الله قليل!: من أثمان مادية يأخذونها من الأثرياء المستغلين، ومن معنوية! يكتسبونها: بقاءً ومزيدا على مناصبهم الروحية الإسرائيلية، ومكانة عند الفراعنة والقياصرة، هؤلاء الذين يرون شريعة القرآن خطرا على كيانهم، ومكانتهم فيما بينهم من الربانيين والأحبار ـ ام ماذا!.
فهذه الأثمان كلها قليلة وجاه آيات الله، دون أن يعني «قليلاً» هنا مقابل الكثرة، إذ لا كثرة في ايِّ الأثمان في هذه التجارة البائرة الخاسرة، حيث تبوء خواءً في الدنيا والآخرة!
هنا المثمن المباعُ هي آيات الله، والثمن ما يكسبونه بتحريف آيات الله، والثمن لا يشترى وإنما المثمن هو المباع والمشترى، فما هو التوجيه لكون الثمن هنا هو المشترى؟.
علّه أن الثمن هو المرغوب فيه دائما مهما كان نقدا ام سواه، فالذي يُقدم ببيع ما عنده بما ليس عنده، ليس الاّ لرغبته فيما ليس عنده، مهما كان ما عنده مرغوبا فيه أو مرغوبا عنه.
فهؤلاء المحرفون آيات البشارات كانوا راغبين عنها إذ يرون فيها انقضاء النبوة الإسرائيلية، وهم يزعمونهم: شعب الله المختار! فاذ يجدون ثمنا عما لا يحبون فهم إلى هذه التجارة يجنحون، فاشتراء ثمن ببيع آيات الله يوحي بأنهم

[1]). سورة البقرة الآية ٤١.

عنها إليه راغبون.
فليس الثمن والمثمن إلاّ بمقياس الرغبة، حيث المرغوب فيه ثمن والمرغوب عنه او المفضل عليه مثمن، ففي تبادل سلعتين تعتبر كل واحدة ثمنا ومثمنا باعتبارين، دون فرق بين المتاع والنقد، فقد يكون النقد ايضا مثمنا كما يكون ثمنا.
وهنا ـ إذ كانت الرغبة ـ كل الرغبة ـ فيما يعتاضون به آيات الله المرغوب عنها ـ أصبح العرض ثمنا يشترى والآيات مثمنا يُشرى.
ولأن ما رغبوا فيه قليلٌ بجنب آيات الله ـ ايًّا كان ـ فالنهي يستأصل هذه التجارة بكل أثمانها أنها قليلة!.
وقد يكون المثمن مرغوبا عنه ولا يكون الثمن مرغوبا فيه ولكنه أفضل من الثمن عنده، فهنا يشرى المثمن ولا يشتري الثمن وكما في يوسف عند إخوته: «وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين»[1] دون واشتروا به ثمنا بخسا.
إنهم اشتروا بآيات البشارات ـ وهي عهد الله ـ ثمنا قليلاً: «ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلاً»[2] خشية من الناس وتقاة: «ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلاً واياي فاتقون»ـ «فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلاً ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون»[3] خلافا للميثاق الذي اخذ عليهم «.. فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلاً فبئس ما يشترون».[4]
تجارة خاسرة إسرائيلية أن اشتروا بآيات البشارات ثمنا قليلاً، رهبة من السلطات الزمنية، وخشيةً من الناس وتقاة وحفاظا على كياناتهم أحبارا ورهبانا، واستدرارا لما يُدرُّ عليهم من أموال[5] فاشتروا هذه الأثمان القليلة بعهد الله وميثاقه الذي واثقهم به والنبيين.
فآيات البشارات كانت تباع حفاظا على السلطات الإسرائيلية، وآيات العقوبات على الأغنياء والكبراء تباع حتى يأخذوا هم رواتبهم ولا تقع العقوبات على الأغنياء، وآيات الجزاء على الظلامات الفرعنات تباع حتى لا تمس بكرامة الفراعنة والقياصرة.. وهكذا كانت شنشنة الإسرائيليين القديمة وحتى الآن ـ وإنهم كما يصرحون يرون «إن الغاية تبرر الوسيلة» فيبررون التحريفات بغية الغايات.
«وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».[6]

---

[1]). سورة يوسف ١٢: ٢٠.

[2]). سورة النحل ١٦: ٩٥.

[3]). سورة المائدة ٥: ٤٤.

[4]). سورة آل عمران ٣: ١٨٧.

[5]). نور الثقلين ١: ٧٣ مجمع البيان: روي عن ابي جعفر عليه‌السلام في هذه الآية قال: كان حي بن اخطب وكعب بن الأشرف وآخرون من اليهود لهم مأكلة على اليهود في كل سنة فكرهوا بطلانها بأمر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فحرفوا لذلك آيات من التوراة فيها صفته وذكره، فذلك الثمن الذي اريد في الآية.

[6]). سورة البقرة الآية ٤٢.

نهيان في استفهام إنكار وتنديد: عن لبس الحق بالباطل، وعن كتمان الحق: «لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون»[1] فالحق المكتوم بغير لباس أو لبس الباطل لا يُلبس بالباطل، وانما هو الحق الظاهر غير المكتوم يلبس بالباطل.[2]
فمكا ان لبس الحق الظاهر بالباطل محرم، كذلك كتمان الحق، فلا بد للحق أن يظهر بصورته وصيغته حتى يتبعه أهلوه، وللباطل أن يظهر كذلك حتى يجتنبه مخالفوه، فلا تخلطوا الحق بالباطل فتعمى مسائله وتشكل معارفه.
وهم في هذا المجال من التحريف والتجديف كانوا ولا يزالون يزاولون كتمان الحق إن استطاعوا أو تلبيسه بالباطل وتخليطه إذا ظهر، فقد حذفوا بشارات عن كتابات النبيين، وكتموا أخرى عن بُسطائهم، أو حرفوها بتلبيسها بالباطل، فيما كانت ظاهرة، أم علّها إذا ظهرت لا تدل على ما تدل، والقرآن يفضحهم في مواضيع شتى نتحدث عنها في طياتها.
و«لا تلبسوا» قد تكون من اللُبس: التغطئة والتعمية، خلاف الإيضاح، او من اللَّبس الستر، الذي هو ايضا من اللُّبس، فقد كانوا يلبسون الحق بالباطل: «ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم».[3]
تغطئة للبشائر الواضحة بما يُعمي عليها من باطل التحوير والتغيير، أو ما يسترها عن الدلالة بتأويل: تغيير اللفظ او تأويل المعنى، وهما باطلان يُلبس بهما الحق، ولكنما الحق وهو: الثابت عند الفحص له دولة، طالما الباطل ـ وهو الزائل عند الفحص ـ له جولة.
تعال معنا إلى بشارات العهدين: عتيق التوراة وجديد الانجيل، ترى عجبا من ذلك اللُّبس واللَّبس والكتمان الشامل، تجد تجديفاتهم وتحريفاتهم، بعد الفحص عن الآيات التي تحمل بشارات، وقد أفردنا بحثا عنها في «رسول الاسلام في الكتب السماوية» وفي التالي عرض لبعض نماذجها:
عمدوا الى «محمد» في التوراة فحرفوه الى غير محمد كما في: (هوشع ٩: ٥ ـ ٩) من قوله تعالى حسب النص العبراني: «كي هِنِّيه هالِخُو ميشود ميصرَييم تِقَبصِم موفْ تِقَبرِم «محمّد» لِكَسَفام قيموش ييراشِم حُوحَ باهاليهم* بائوا يِمّي هَفِقوداه بائوا يِمِّي هَشِّلُوم يِدعو ييسرائل إويل هنابِيء مَشوكاع إيِشْ هارُوحَ عَلْ رَبْ عَوُنحا وِرَبّاه مسطماه*».
«ها إنهم يرتحلون لأجل الخراب، فمصر تجمعهم وموف تدفنهم و«محمد» لفضتهم والقرّاظ يرثهم والعوسج يستولي على أخبيتهم* تأتي ايام التمييز. تأتي أيام الجزاء سيعلم اسرائيل ان النبي السفيه ورجل الروح مجنون لكثرة اثمك وشدة الحنق».
ف «محمد لفضتهم» تصريحة بينة باسمة المبارك، وانه سوف يأخذ من فضتهم: اموالهم ـ جزية، وأن اسرائيل سيعلم أن هذا النبي ـ لكثرة اثمك وشدة الحنق ـ سوف يسفَّه ويجنّن وهو رجل الروح القدسي الرسالي...
ولكنهم حنقا عليه وحمقا منهم وإنما به دخلوا في مربع من التحريف: «والقراص يرث فضتهم اللشهية» ـ ٢ «يرث القريص نفائس فضتهم» ـ ٣ «الامكنة المرغوبة لفضتهم» ٤ «بيت الامل لفضتهم»! ترجمة للإسم العَلَم: «محمد» بوصف: (الشهية): نفائس ـ الامكنة المرغوبة ـ بيت الامل، ترجمات متضادة مع بعض، متضادة للأصل معنويا وادبيا.
فالاصل العبراني يقول: «موف تَقَبْرِم = موف تَقْبِرهم ـ محمد لكسفام = محمد لفضتهم = قيموش ييراشم = القريص يرثهم! ـ حوح باهاليهم = يكون العوسج في منازلهم»!

---

[1]). سورة آل عمران ٣: ٧١.

[2]). ف «وتكتموا الحق» هنا مجزوم بالعطف على «لا تلبسوا..» فتكرر لاء النهي والمعنى: ولا تكتموا الحق، لا ان تكون الواو حالية وتكتموا منصوبا ب «ان» المقدرة، حيث الحق المكتوم لا يلبس بالباطل الا بعد ظهوره او اظهاره.

[3]). سورة الانعام ٦: ١٣٧.

وهذه الترجمات الاربع حذفت حروفا أو أضافت أخرى، وقدمت كلمات وأخرت أخرى حتى لبست حق البشارة بباطل لا يمت بصلة لبشارة.
فالترجمة الثانية جعلت «محمد» المفرد ـ جمعا «محمديم» مضافا ـ بحذف اللاّم ـ الى كسفام: «محمد يم كسفام»: نفائس فضتهم والاصل «محمد لكسفام» واسقطت ميم الجمع عن «ييراشيم» فاصبحت الجملة: «قيموش ييراش محمد يم كسفام» فترجمت ب: يرث القريص نفائس فضتهم، وهم في عجالة التحريف نسوا ان يضيفوا ياء الجمع الى محمد ويحذفوا اللام من «لكسفام» وميم الجمع من «ييراشم» فاصبحت الترجمة غلطة على غلطات!
وكذلك بقية الترجمات المفصلة بأخطاءِها في كتابنا: «رسول الاسلام في الكتب السماوية».
فاذ قد نرى أنهم يعمدون الى «محمد الرسول» في هذا النص ليحيدوه إلى غيره، فماذا ـ اذا بالنسبة لما لا يحمل اسمه الخاص!.
فويلهم إذ يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون حقه من باطله!

القرآن قول رسول كريم من الله

«إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»[1]
قول رسول لا يقوله إلّا عن مرسِله دون أن يتقول عليه الأقاويل، وهو كريم ليس على غيب الوحي بضنين، هو واسع صدره متفتحٌ قلبه، لا يخون أمانة الوحي كالسماء ذات الرجع لا تخون «والسماء ذات الرجع. إنه لقول فصل. وما هو بالهزل»[2] إنه أمين كريم ليس كيانه في حياته إلا الرسالة الإلهية وبلاغها.
«وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ» «وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين»[3] يبين بذاته أنه ذكر وليس شعرا وخيالاً موزونا، رغم ما يتقولون عليه دون برهان انه شاعر «بل قالوا أضغات أحلام بل افتراه بل هو شاعر»[4] «ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون»[5] «أم يقولون شاعر نتربص به ريب منون»[6] هل هو شاعر؟

---

[1]). سورة الحاقة ٦٩: ٤٠.

[2]). سورة الطارق ٨٦: ١٢.

[3]). سورة يس ٣٦: ٦٩.

[4]). سورة الأنبياء ٢١: ٥.

[5]). سورة الصافات ٣٧: ٣٦.

[6]). سورة الطور ٥٢: ٣٠.

«والشعراء يتبعهم الغاوون... إلا الذين آمنوا»[1] فقد ينشد الشاعر عن الإيمان والصدق، وأحيانا كثيرة عن الخيال واللا إيمان، وهما مشتركان في زخرفة المعنى بموسيقى القول، ما يزيد المعنى لمعانا لو كان صادقا، وما يريه حقا لو كان باطلاً، وحاشى الرسول الكريم أن يزخرف الوحي بما ليس منه! ولماذا؟ فهل ليزيد في نضارة القرآن، وهو فوق القمم في فصاحة التعبير وبلاغة التنسيق!..

ثم لا نجد أيا من أوزان الشعر وأوهامه وأساطيره في هذا الذكر المبين، فكيف يتقول على قائله: انه شاعر، أو: انه شعر، أهكذا كذب واضح وفرية فاضحة؟

إن هذا القرآن ليس شعرا ولا نثرا نتعوده، إنما هو بدع في التعبير، عديم النظير، لم يصدر ولن يصدر من أي مصدر إلا الله، ولأنه خاتمة الوحي، فريد في موسيقاه، فريد في معناه، يوحي من كل زواياه، انه ليس بقول بشر، ولا أي مصدر غير الوحي، منهج منقطع النظير، تفرد به اللطيف الخبير، وبين كتابات الوحي أيضا، فضلاً عما سواها ممن سواه!.

إن المذاهب الأدبية أجمع، والمذاهب الفكرية أجمع، والمقاييس الموسيقية أجمع، إنها كلها ومعها كافة المذاهب طوال التاريخ، هي فاشلة أمام المذاهب التي سلكها القرآن، منهزمة في صراعها العنيد الشديد، يعرف بذلك أهلوها شاءوا أم أبوا، وإنما يلقون دعايات يلغون فيها ويزخرفونها، علّهم يضلوا جهالاً كأمثالهم، ولكنما العلماء العقلاء لا يضلون.

فليست القولة الجاهلة: إنه قول شاعر، إلا نتيجة عدم الإيمان، لا أن لهم برهانا على ما يتقولون «قليلاً ما يؤمنون»!

«وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ» يؤخذ عن الجن والشياطين «قليلاً ما تذكرون» فلو كان قول كاهن لم يرد فيه شتم الشياطين الذين يؤخذ منهم في الكهانة، ثم اناقة القول وعمق المعنى يحيده من أن يكون من غير الله، بل قليلاً ما تذكرون حقائق تعرفونها من أصولها.

«تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ»: تنادي بهذه الحقيقة الناصعة آياته البينات، فربوبيته العالمية باهرة فيها، ظاهرة لمن يتدبرها ويتذكرها وأراد الإيمان.

«وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ»: الأكاذيب... «لاخذنا منه باليمين...».

لا هو فحسب، بل هذه السنة الإلهية ثابتة في رسله: ان لو تقولوا لفضحهم وأخزاهم ـ ولن يتقولوا ـ يخزي المتقول لكيلا يخزي الوحي والرسالة الإلهية، ويضل الناس فتكون حجة لهم على الله، كما لو لم يبعث رسولاً بل وأقوى: فالعقل هنا يستقل بما يوحيه النقل من ضرورة الأخذ بيمين القدرة الإلهية. من يتخلف من الرسل عن الرسالة الإلهية.

بشارة توراتية بحق الرسالة المحمدية:

تصرح التوراة ـ فيما تصرح ـ من عشرات البشارات بحق الرسول الأقدس محمد صلى الله عليه وآله بوجه عام ـ بعد تخصيصه بالذكر ـ أن المتقول على الله يؤخذ بأخذة قوية الهية تفضحه كما في الأصل العبراني التالي:

«نابِيء آقِيم لاهِمْ مِقِرِبْ إحِيْحِمْ كمُوشِهْ وِنَاتَتِّي دِباري بِفِيُو وِيدِبِرْ اِلَوهِيْم إتْ كالْ أشِرْ أصَّونُو (١٧):

نبيٌّ أقيم لهم: (بني اسرائيل) من أقرباء أخيهم، كموسى وأضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به (١٧).

«وِهَاياه هَا إيش أشِر لوء ييشْمَع إلْ دَباري إلي أشِرْ يدَبِرْ بِشْمي آنوحي إدْرُ وشْ معي مو» (١٩):

وأي انسان لم يطع كلامي الذي يتكلم به باسمي فإني أحاسبه عليه (١٩).

«أخ هنابِيء أشِر ياذِيد لِدَبِرْ دابار بش مِي إت أشِر لُوء صوييبو لِدَبِر وأشِر يدَبِر بِشمِ إلوهِيم اجريم ووميت هنابِيء

---

[1]). سورة الشعراء ٢٦: ٢٢٤.

هَهَيُو» (٢٠).
وأي نبي تجبر فقال باسمي قولاً لم آمره أن يقوله أو تنبأ باسم آلهة أخرى فليمت (٢٠).
«وِخِي تومر بيل بابخا إخاه ندع إت هدابار أشر لوء ديبرو ادوناي أشِر يدبر هنابِيء بشم ادوناي ولؤيهيه هدابار ولوء يابوء هوء هدابار أشر لوء ديبرؤ ادوناي بدادون ديبرو هنابِيء لوء تاغُور ميمِنو» (٢١ ـ ٢٢):
فان قلت في نفسك كيف يعرف القول الذي لم يقله الرب (٢١) فإن تكلم النبي باسم الرب ولم يتم كلامه ولم يقع فذاك الكلام لم يتكلم به الرب بل لتجبره تكلم به النبي فلا تخافوه (٢٢).
هذه الآيات البينات تبشر أن الله تعالى وعد العالم أن يقيم نبيا كموسى من أقرباء أخوة بني اسرائيل، فاخوتهم بنو عيص كما تقول التورات (تثنيه ٢٨: ٨) فأقربائهم هم بنو اسماعيل. فهو الرسول الأقدس محمد الاسماعيلي الذي هو كموسى في استقلال شرعته، لا المسيح الذي هو تبع لموسى في شرعته.
ثم تتهدد الآية (١٩) هؤلاء الذين يتخلفون عن هذا الرسول العظيم، ثم تعزيزا وتثبيتا لموقفه الرسالي ـ ومعه سائر المرسلين ـ يحكم بالموت: الموت الروحاني وموت الدعوة، على المتجبرين المتقولين على الله الأقاويل (٢٠). ثم الآية (٢٢) تأتي بميزان لصدق مدعي النبوة انه وقوع كلامه كما يخبر.[1]
والقرآن يصدق هذه الآيات أن:
«وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ»[2] أخذنا منه الرسالة والوحي واسترجعناه منه بيمين القدرة «ثم لقطعنا منه الوتين»: قطعا لوتين الوحي حيث لا رجعة فيه، وقطعا لوتين العقل إذ يقول ما يفضحه مما يطارده العقل، موتا مزدوجا يفضحه أمام العقلاء النابهين، فليس يعني به وتين الجسم، وهو عرق رئيسي في القلب يمد شبكة العروق في الجسم، وإنما وتين قلب الروح الممدود به شبكات الروح.
كما الموت المهدد به حسب التورات ليس موت الجسم فانه لا يخص الكاذبين، وكثير منهم يعيشون حياة الكذب طويلاً، وإنما هو موت الروح الرسالية بأن يتبين كذبه في فلتات لسانه وصفحات وجهه وسقطات تصرفاته، وفي تناقض أقواله وتهافت أحواله ودحض حججه في محكمة العقل والفطرة.
فكما ان يمين القدرة الإلهية هي التي وفقته للرسالة وعصمته عن الضلالة، كذلك هي التي تسترجعها لو تخلفت عن جهات اشراعها! ولكن حرف: «لو» تحيل على الرسول الاقدس صلى‌الله‌عليه‌وآله تقوُّل الأقاويل، كماالعقل يحيله إحالة مزدوجا: أن الله اصطفاه وهو يعلم مستقبله كما علم ماضيه، وانه يعصمه عصمة لأمانة الوحي وكرامة الرسالة، وما استرجاع المناصب إلا نتيجة جهل الناصب وضعفه «والله غالب علىأمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون».
«فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ»: لا يحجزه أحد عما يريد، وهو الحاجز عما نريد.
«وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ»: الذين يتقون الجهل والتجاهل والعناد، فهم المتذكرون بهذه الذكرى، وأما الذين كفروا معاندين فهي عليهم عمى!. وهم في ضلالهم يعمهون.
«وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ»: لهذه الرسالة السامية «وانه لحسرة على الكافرين»: ان تكذيبها حسرة عليهم يوم الدنيا ويوم الدين، لأنها تملك من براهين الصدق ما لا يملكه سواها:
«وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ»: ان القرآن ونبي القرآن، إنه لحق اليقين، لا علم اليقين فحسب أو عين اليقين، فحق الوحي القرآني حق اليقين، ذاته اليقين: لا ريب فيه هدى للمتقين، فبامكان من يعيش قلبه القرآن، ويسري في وتين قلبه روح الإيمان وفي نياطه القرآن، فيعيش القرآن قلبه، بامكانه أن يعرج إلى أعلى معارج اليقين: حق اليقين، فعلم القرآن كما يحق هو علم اليقين، وعينه عين اليقين، وحقه حق اليقين! عميق في الحق وعميق في اليقين كاعمق ما يمكن.

---

[1]). تجد تفصيل البحث حول الآيات في كتابنا (رسول الاسلام في الكتب السماوية).

[2]). ٦٩: ٤٤.

«فسبح باسم ربك العظيم»: سبحه باسمه الحق عما لا يليق به «فللّه الأسماء الحسنى فادعوه بها» وسبح كتابه باسمه عن أن يكون شعرا أو كهانة أو أي تقوّل، فربوبيته العظيمة لائحة في طياته، بارزة في آياته، والسلام على من اتبع الهدى، وجانب الردى.

القرآن بصائر ربانية

«قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ».[1]

«بصائر» جمع بصيرة، وعلّها هنا فاعلة مبصِرة ومفعولة، حيث الآيات القرآنية آيات ربانية مبصَرة ربانيتها بنفسها، مبصِرة كل الحقائق التي يتوجب على المكلفين معرفتها، وقد تعني «بصائر» كافة البصائر مهما كانت القرآنية منها أعلاها.

تلك البصائر الجائية كل المكلفين إلى يوم الدين: «... قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي هذا بصائر من ربكم ورحمة لقوم يؤمنون»[2] وهي شريعة من الأمر: «ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها.. هذا بصائر للناس وهدىً ورحمة لقوم يوقنون».[3]

«هذا» هنا إشارة ـ فيما تشير ـ إلى القرآن ككل، وحدة جامعة لآياته، و«بصائر» خبر للقرآن إعتبارا بآياته البصائر، والرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والذين معه حملاً للمسؤولية الرسالية الإسلامية يدعوا ويدعون على بصيرة هي بصيرة وحي القرآن: «قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين».[4]

وكما «الإنسان على نفسه بصيرة»[5] كذلك آيات الله بصائر، فكلٌّ من الداعية والمدعو بصيرة، دون أية عمىً إلاَّ ما يختلقه الإنسان من غشاوة وغباوة.

فالقرآن ليس بحاجة للشهادة على وحيه إلى بصيرة أخرى دونه، بل هو الشهيد بين الله وبين الناس لرسالة المرسل به: «قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ..».[6]

---

[1]). سورة الأنعام ٦: ١٠٤.

[2]). سورة الأعراف ٧: ٢٠٣.

[3]). سورة الجاثية ٤٥: ٢٠.

[4]). سورة يوسف ١٢: ١٠٨.

[5]). سورة القيامة ٧٥: ١٤.

[6]). سورة الأنعام ٦: ١٩.

اجل، فالبصائر ليست جمع الباصرة الخاصة بالعين الظاهرة، بل هي جمع البصيرة، فطرية وعقلية وعلمية وحسية، بالوحي أماهيه، فلا عمى فيها اللهم إلاّ بتعمية عليها وتجديل، أو تنحية عنها وتحويل.

فالفطرة الإنسانية بصيرة، وعقليته بصيرة، وقلبه بصيرة، وحواسه بصيرة، والقرآن بصيرة، ونبي القرآن بصيرة، ودعوته بصيرة، ومصيرته ومسيرته بصيرة، أبواب ثمان من البصائر الربانية عدد ابواب الجنة فتحت علينا ونحن بعد عمون تعمية لهذه البصائر وتجاهلاً عنها.

ومما يشهد لعناية البصائر كل بصيرة تكوينية وتشريعية «من ربكم» حيث الربوبية للمكلفين تشمل جانبي التكوين والتشريع.

ذلك، مهما كانت البصائر الأنفسية وسائل صالحة للحصول على بصائر الوحي، حيث البصائر الوسائل ليست معصومة يكتفى بها فيما يتوجب على المكلفين من أصول وفروع، فإنما هي حجج للحصول على تصديق الأصول، ومن ثم الفروع التي تتبنى الأصول.

فالحجة البالغة الربانية هي بصائر الوحي رسوليا ورساليا، والحجج الباطنة هي ذرائع بالغة للبلوغ إلى تلك الحجج البالغة.

ومن غريب الوفق التوافق العددي بين البصر والبصيرة، فان كلاً متكررة بمختلف الصيغ (١٤٨) مرة في القرآن.

ذلك، ومن بصائر الوحي حامله المرسل به صلى‌الله‌عليه‌وآله فإن حياته ولا سيما الرسالية منها بصائر تشرق بأنوار الهدى ابتعادا عن الردى، فإنه المنذر المبشر بالقرآن، بصيرة معصومة بما عصم الله، ينذر ويبشر بهذه البصائر «نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء».

فحين تفتح أبصار القلوب إلى بصائر القرآن فهنالك الإبصار التام «فمن أبصر» بالبصائر القرآنية، فاتحا بصيرته «فلنفسه» «ومن عمي» عنها «فعليها» حيث أعمى على نفسه تلكم البصائر «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور»[1] فليس ليظل ضالاً مع هذه البصائر إلاّ معطل الحواس، مغلق المشاعر، مطموس الضمير، المتغافل المتجاهل كالحمير، بل هو أضل سبيلاً.

ذلك «وما أنا عليكم بوكيل» من ربي لأحملكم على بصائره فتهتدون، إنما أنا نذير بها «فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها».

أجل، فالقرآن بصائر هو مادة الهدى، ورسول القرآن هو الداعية بها، دون حَوْل له ولا طَوْل في الحمل على الهدى «وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين».[2]

«وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»:[3]

«وكذلك» المبصِر المبصَر بالحجة البالغة الدامغة «نُصرِّف الآيات» بوحي القرآن، وآفاقية وأنفسية، تصريفا في تكرير البيان، ردا من حالة إلى أخرى، تحليقا على كل الأحوال المبصرة للعقول والقلوب، إخراجا لها عن الأهوال في كل الأحوال.

ولأن التصريف هو تكثير الصرف: الرد من حال إلى حال، فتصريف الآيات البصائر هو تكثير ردها إلى مختلف

---

[1]). سورة الحج ٢٢: ٤٦.

[2]). سورة النحل ١٦: ٩.

[3]). سورة الأنعام الآية ١٠٥.

الأحوال المبصِرة دون إبقاءٍ لبصيرة على أية حال.
ذلك «وليقولوا درست» هذه الآيات عن كتابات السماء عند علماءها، أم أية تقوُّلة ليست لتصارع بصائر القرآن، فلا دور في معرض الفِطَر والعقول لفرية إختلاق القرآن من دون وحي، حيث القرآن هو نفسه حجة بالغة لإثبات وحيه لأعلى قممه المرموقة «ولا ينبئك مثل خبير»!.
«ولنبينه»: القرآن، بتصريف الآيات «لقوم يعلمون» الحقَّ عن الباطل، «وليقولوا» لهذا الرسول حول قرآنه «درست» قولة ذاهبة في الأثير هباءً لا سناد لها، فليقولوا إذا أين درس ذلك الدرس الذي يفوق كافة دروس الوحي فضلاً عن سائرها؟ هل درسه عند علماء الكتاب، والقرآن مهيمن على وحي الكتاب، نقضا للمدسوس فيه، وتكميلاً لما نقص، وترميما لما تقلَّص، فكيف يكون القرآن ـ إذا ـ درسا عن سائر الكتاب بعلماءه أو سواهم، لأنه أعلى من كل كتب السماء محتدا؟ فليكن كل تلميذ أعلم ممن تلمذ عليه! إذا فلتكن التورات درسا عن أساطير الأولين إكتتبها موسى فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً!.
وليكن ـ كذلك ـ كل كتاب نابغٍ نابعا عما دونه من كتاب، وهكذا الأمر في كل ناصع واصب من العلوم والأفكار، نابعة من منابع خليطة بكل غثٍّ وسمين وكل خائن وأمين!.
وكيف يقولون «درست»؟ «وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون»[1] «فقد لبثتُ فيكم عُمُرا من قبله أفلا تعقلون».[2]
«ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين»[3] ـ «وقالوا أساطير الأولين إكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً. قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما».[4][5]
أجل إنه صلى الله عليه وآله درس القرآن ولكن أين؟ في مدرسة الوحي القمة، عند اللّٰه الذي يعلم السر في السماوات والأرض، كما نعلم ذلك العلم السِّر في القرآن.
فكل تَلميذ يُعرف محتده الدراسي من درسه نفسه، فيُعرف من هو الذي علَّمه، ودرْس القرآن لا يناسب إلاَّ ساحة الربوبية في أعلى قمم الوحي الرباني.
وهكذا كان المرسلون يستدلون لرسالتهم الربانية بربانية أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم كما نسمع رسل المسيح من اللّٰه قائلين أمام الناكرين: «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»[6] حيث يوجِّهون في ذلك البرهان العطيف اللطيف أنظار الناكرين إلى حالاتهم ومقالاتهم، برهنةً بها على محتد من أرسلهم.
وترى ما هو المعطوف عليه ل «وليقولوا...» وما هي المناسبة للمعطوفين المتناحرين؟ هنا معطوف عليه معروف

---

[1]). سورة العنكبوت ٢٩: ٤٨.

[2]). سورة يونس ١٠: ١٦.

[3]). سورة النحل ١٦: ١٠٣.

[4]). سورة الفرقان ٢٥: ٦.

[5]). راجع الفرقان في تفسير هذه الآيات لزيادة الإطلاع على فرية الاكتتاب والدراسة المحمدية والرد عليها.

[6]). سورة يس ٣٦: ١٦.

من صوغ الكلام ك «اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وعشيا» و«إنه سحر يؤثر» أو شعر أو كهانة أم به جنة، ولكي تكمل حجة اللّه البالغة على الذين يعلمون أو لا يعلمون، ثم لا ضير إذا أن يقول المجاهيل: «درست» فاللّام في «وليقولوا...» تعني ـ فيما تعنيه ـ غايةً للمجاهيل في واجهة القرآن، فإن كل محاولاتهم في إسقاط حجة القرآن البالغة داحضة فليقولوا درست أم أية قولة أو احتيالة ضده «ولنبينه لقوم يعلمون» فقالة «درست» هي قالة الذين لا يعلمون تقصيرا منهم حسيرا وتحسيرا قصيرا لا يبلغون فيه إلى غايتهم المضللة، وقد تكون اللام للغاية، غاية للذين كفروا امتحانا لهم فامتهانا، كما هي غاية للذين آمنوا، غاية شاردة أو واردة.

ذلك، وقد تصلح «درست» غاية ربانية إلى غايتهم حيث «ننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا»[1] ـ «يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلاّ الفاسقين»[2] «وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون»[3] «وما جعلنا اصحاب النار إلاّ ملائكة وما جعلنا عدتهم إلاّ فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد اللّه بهذا مثلاً كذلك يضل اللّه من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلاّ هو وما هي إلاّ ذكرى للبشر».[4]

وقد تعني «اللام» في «ليقولوا» الأمر، فهو أمر تعجيز، أم بيان حال لهم تقتضي هذه القولة، فلا عطف إذا مع أمر الأمر، وقد تعني الواو كلا العطف والإستئناف جمعا بين الغاية والأمر، والحاصل هو مثلث المحتملات.

اجل «وكذلك» العميق الهدى العريق المدى «نصرف الآيات» حجة بالغة لا تبقى معه حجة لمن يقول «درست» وتكون حجة «لقوم يعلمون».

وهكذا تكون حجة اللّه البالغة قاطعة للأعذار حيث لا يتبقى معها أية عاذرة إلاّ ماردة شارة غادرة.

ذلك، وكيف تعقل فرية درس القرآن بما ليس نابعا من بيئتهم ولا بيئة أهل الكتاب، فلا عهد للبشر طول زمن الرسالات ـ فضلاً عن سواها ـ أن يجدوا ذلك المستوى السامق الشاهق الرفيع في صيغة التعبير وصبغة المعنى المعبر عنه، فقد ينتهي ذلك التصريف الظريف في مختلف التحرِّي عن الحق والتجري عليه، إلى نتيجتين متقابلتين: «درست» و«لنبينه..» فأما الذين لا يريدون الهدى، العائشون الردى، فهؤلاء هم يحاولون أن يجدوا تعليلاً لهذا القرآن، وغايتها «درست» المنكرة في كافة الأعراف كتابية وسواها، إذ ما كان أحد من علماء الكتاب يعرف ذلك المستوى، حيث المسافة شاسعة بينه وبين سائر الكتب السماوية فضلاً عما سواها.

فالعلم ـ فطريا وعقليا وفكريا وتجريبيا ـ فضلاً عن علم الكتاب ـ يصدق وحي القرآن: «ولنبينه لقوم يعلمون» أية مرحلة من مراحله هذه.

وأما الذين يقولون «درست» فقد دَرَست عنهم معالم الهدى حيث تجاهلوا عن كل بنود العلم والمعرفة، واثّاقلوا وأخلدوا إلى أرض الجهالة والغباوة.

وحين ينقسم المرسل إليهم بهذا القرآن فريقين إثنين، يصدر أمر اللّه العلي العِلوي أن يتبع ما أوحي إليه، وكفاه حجة

---

[1]). سورة الإسراء ١٧: ٨٢.

[2]). سورة البقرة ٢: ٢٦.

[3]). سورة التوبة ٩: ١٢٥.

[4]). سورة المدثر ٧٤: ٣١.

بالغة في كل الحقول، صوغا لحياته ـ ككل ـ بصياغته، وصبغا لها بصبغته، إذ لا حجة لـه أبلـغ مـن حجتـه طمأنـة لخاطره الشريف بذلك الوحي الظريف الطريف دون فشل ولا فتور من تقولهم «درست» وما أشبه فانه هبـاء في العراء ونقش في الماء والهواء.
ف «كذلك نصرف الآيات وليقولوا درست» «فاما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكـث في الأرض» ومـا تلكم القيلات الغائلات على القرآن مما تغتاله.
«اتَّبِعْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ»:[1]
«اتبع» رسوليا ورساليا «ما أوحي إليك من ربك» من كتابه «لا إله إلاَّ هو» يوحي إليك غيرَه «وأعرض عن المشركين» بعد كامل الإنذار بحجج الله، إعراضا عن الإشتغال بهم بعد الإياس، وعن أن تأسف لهـم أو عـن أذاهـم إذ «سـواءٌ عليهم ءآنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون».
و«من ربك» هنا دون «الله» أو «رب العالمين» تعبيرة قاصدة، أن الذي رباك بتلك التربية الغالية هو الذي يرعاك في تلك الدعاية الرسالية، دونما فشل، فجدَّ في مصيرك بمسيرك دونمـا أيـة وقفـة فربـك يرعـاك «ولـن تجـد مـن دونـه ملتحدا».
وقد تعني «لا إله إلاَّ هو» بعد أمر الإتباع ـ فيما عنت وقبل امر الإعراض ـ أن عليك أن تحـور حـور ذلـك المحـور الوحيد من التوحيد، فلا يزعزعك الطوارىء القواصف، ولا تحركك العواصف، فلا يعني الإعراض عنهم ـ فيما عنى ـ الرضا بإشراكهم حين لا تؤثر فيه دعوتك، فعلى الداعية أن يعلِّق أمره وعمله بالذين يسمعون الدعوة.

القرآن
موعظة ربانية وشفاء ورحمة وهدى للمؤمنين

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ».[2]
مواصفات أربع للقرآن، إثنتان منها لكل الناس هما «موعظة وشفاء» وأخريان للمؤمنين هما «هدىً ورحمة» إذ لا دور لهما تماما إلا بعد تأثير الموعظة وفاعلية الشفاء سلبا للعوائق، حتى تحل الهدى والرحمة محلهما السليم عن الشقاء بسلم وشفاء، والموعظة هي زجر لطيف مقترن بتخويف.
ذلك وقد يسبقهما «شفاءٌ» للمؤمنين، حيث المتحري عن الشفاء لما في صدره من مرض، القرآنُ يكون له شفاءً، بعلمه عن الجهل وبكل أدواءه عن كل داءٍ: «وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا»[3]

[1]). سورة الانعام الآية ١٠٦.

[2]). سورة يونس ١٠: ٥٧.

[3]). سورة الإسراء ١٧: ٨٢.

أم وتتأخر الشفاء عن الهدى: «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاءٌ»[١] فالشفاء هي الناحية السلبية التي تسلب كل رين وشين و«هدىً» هي الناحية الإيجابية، فهو مَثَل مفصَّل لسلب كلمة الإخلاص وإيجابها: «لا إله إلاَّ اللّٰه».
فالقرآن شفاءٌ من كل داءٍ في الصدور شرحا لها بإيمان، كما العسل «فيه شفاءٌ للناس»[٢] فلأن العسل هو خلاصة صالحة عن كافة الزهورات النافعة اليافعة هو شفاء لكافة الأوجاع، كذلك القرآن هو خلاصة صالحة عن كافة زهورات الوحي دون إبقاء فهو ـ إذا ـ شفاءٌ لما في الصدور المتضيقة بمختلف المضايق، شارحا لها كلّ شرح صالح قدر ما يدخله كما يحق، فالفِطَر المحجوبة، والعقول المعقولة، والصدور المضيقة المدخولة، والقلوب المقلوبة، والألباب والأفئدة الدخيلة، يكون القرآن لها شفاء «والصدور» هي الوسطى بينها، فشفاءها هو شفاءٌ لما قبلها وما بعدها من مجالات الأرواح، وجلوات ذوي الأرواح.
فالقرآن هو للكل معدن الموعظة للصَّلِتين الصَّلبين عن تحري الحق وتقبله، فإذا وجدت موعظته مجالاً في الأنفس تليينا لها من صلابتها فهنا دور شفاءِه لما في الصدور دواءً لأدواءها، ومن ثم «هدىً ورحمة للمؤمنين» به، فقد «أنزل عليكم كتابا فيه شفاء لما في الصدور من أمراض الخواطر ومشتبهات الأمور»[٣] و«من نفث الشيطان»[٤] ف «تعلموا القرآن فإنه ربيع القلوب واستشفوا بنوره فإنه شفاء لما في الصدور»[٥] وحين يكون القرآن شفاءً لما في صدور الأرواح فهكذا صدور الأجساد، بل وسائر أجزاءها.[٦]
ذلك، ف «موعظة وشفاءٌ» هما خطوتان قرآنيتان للتخلية، ثم «هدى ورحمة» هما خطوتان قرآنيتان للتحلية، ولا دور للتحلية إلاّ بعد صالح التخلية، كما لا دور ل «إلا اللّٰه» إلا بعد «لا إله».
وإنما اختص الشفاء بما في الصدور، لأنها وسيطة بين الفِطَر والعقول والألباب وبين القلوب والأفئدة، بل والقلوب هي في الصدور: «وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور»[٧] فحين يشفى ما في الصدور فقد شفي ما في الألباب والقلوب والأفئدة وشفي قبلها الفطر والعقول، فلا يمكن شفاءٌ لما في الصدور إلاَّ بعد شفاء لما في الفطر

---

[١]). سورة فصلت ٤١: ٤٤.

[٢]). سورة النحل ١٦: ٦٩.

[٣]). نور الثقلين ٢: ٣٠٧ عن كتاب الأهليلجة قال الصادق عليه‌السلام:..

[٤]). وفيه عن روضة الكافي بسند متصل عن علي بن عيسى رفعه قال: إن موسى عليه‌السلام ناجاه اللّه تبارك وتعالى فقال له في مناجاته: يا موسى لا يطول في الدنيا أَمَلك ـ وذكر حديثا قدسيا طويلاً يقول فيه ـ عز من قائل ـ: وقد ذكر محمدا صلى‌الله‌عليه‌وآله ولأنزل عليه قرآنا فرقانا شفاءً لما في الصدور من نفث الشيطان.

[٥]). المصدر عن نهج البلاغة.

[٦]). الدر المنثور ٣: ٣٠٨ ـ أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال: إني اشتكي صدري فقال: اقرء القرآن يقول اللّه تعالى: شفاء لما في الصدور، وفيه أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن وائلة بن الأسقع أن رجلاً شكى إلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وجع حلقه فقال: عليك بقراءة القرآن.

[٧]). سورة الحج ٢٢: ٤٦.

والعقول والألباب، فقد يجمع «شفاءٌ لما في الصدور» كل شفاءٍ عن كل داءٍ للأرواح بكل مراحلها، ومن ثم الأعضاء، فيسلم حامل القرآن كما يُرام سليما عن كل داءٍ علمي ومعرفي وعقيدي وخُلقي وعملي وما أشبه، فثم إذا ما وقع الشفاء فهنالك الهدى والرحمة قدَر الشفاء، بقدر التعامل مع القرآن.

وبصيغة أخرى «شفاء لما في الصدور» هو «راحة لما في السرائر، لبعضهم شفاء المعرفة والصفاء، ولبعضهم شفاء التسليم والرضا، ولبعضهم شفاء التوبة والوفاء، ولبعضهم شفاء المشاهدة واللقاء».[1]

ففي الحياة الدنيا أمران إثنان لا ثالث لهما: ١ ـ «فضل اللّه ورحمته» و٢ ـ ما سواهما من المحاصيل، ففضل الله ورحمته هما الصراط المستقيم إلى الله لمن أراد السلوك إلى اللّه، وهما القرآن وعلى هامشه رسول القرآن صلى‌الله‌عليه‌وآله وعترته عليهم‌السلام تحليقا لكل دعواتهم ودعاياتهم على بثِّ معارف القرآن بمعاريف البيان وتصاريف التبيان.

وهنا «هو خير مما يجمعون» تجعل كل ما يجمعونه سوى القرآن شرا، أم ولأقل تقدير مفضلاً عليه القرآن، والثاني هو السنة والأول هو كل ما وراءَ الكتاب والسنة.

«قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ».[2]

ف «فضل اللّه ورحمته» هنا هما القرآن بمربع فاعلياته فيمن هو عشيره وحشيره «هو» القرآن الحاوي لفضل الله ورحمته «خير مما يجمعون» سوى القرآن من أموال وبنين، أم وعلوم مهما سموها إسلامية وهي لا تتبنى القرآن، مثل كثير من العلوم الحوزوية التي عليها مدارها وقرارها وكما فيما يروى عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «وما عدل أحد عن القرآن إلاَّ النار».[3]

و«إنه انتباه من غفلة، أو إنقطاع عن ذلة، والمباينة من دواعي الشهوات».[4]

أجل وكما يقول رسول القرآن في قول ثان: «إن هذا القرآن هو النور المبين، والحبل المتين والعروة الوثقى، والدرجة العليا، والشفاء الأشفى، والفضيلة الكبرى، والسعادة العظمى، من استضاء به نوره، ومن عقد به أموره عصمه اللّه، ومن تمسك به أنقذه اللّه، ومن لم يفارق أحكامه رفعه الله، ومن استشفى به شفاه الله، ومن آثره على سواه هداه اللّه، ومن طلب الهدى في غيره أضله الله، ومن جعله شعاره ودثاره أسعده اللّه، ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ومعوَّله الذي ينتهي إليه أداه اللّه إلى جنات النعيم والعيش السليم».[5]

وعن وصيه وخليفته علي أمير المؤمنين عليه‌السلام بشأن القرآن: «نورٌ لا تطفأ مصابيحه، وسراج لا يخبؤ توقُّده، وبحر لا يُدرَك قعره، ومنهاج لا يَضل نَهْجه، وشعاع لا يُظلم ضوءُه، وفرقان لا يخمد برهانه، وتبيان لا تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه، وعز لا تهزم أنصاره، وحق لا تُخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره،

---

[1]). مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٩١ عن الإمام الصادق عليه‌السلام.

[2]). سورة يونس الآية ٥٨.

[3]). أصول الكافي قال أبو عبداللّه عليه‌السلام قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله في وصف القرآن: إنه هدى من الضلالة وتبيان من العمى واستقالة من العثرة ونور من الظلمة وضياء من الأحداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من الفتن وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة وفيه كما دينكم وما عدل...

[4]). مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٩١ عن الإمام الصادق عليه‌السلام في تفسير الآية.

[5]). التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه‌السلام عن أبيه عن آباءه عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله:..

ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون، وعيـون لا ينضـبها الماتحون، ومناهل لا يفيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكـام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريّا لعطْش العلماء وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاجًّا لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعد دواءٌ، ونورٌ ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقا عروته، ومعقِلاً منيعا ذروته، وعزا لمن تولاه، وسلما لمن دخله، وهدى لمن إئتم به، وعذرا لمن إنتحله، وبرهانا لمن تكلم به، وشاهدا لمن خاصم به، وفلْجا لمن حاج به، ومطَّية لمن أعمله، وآية لمن توسَّم، وجُنة لمن إستلأم، وعلما لمن وعى، وحديثا لمن روى، وحكما لمن قضى».[1]

«إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضُلّالاً، ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تُلي حق تلاوتـه، ولا سلعة أنفق بيعا ولا أغلى ثمنا من الكتاب إذا حرف عن مواضعه».[2]

«.. فقد نبذ الكتاب حملتُه، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذٍ وأهله طريدان منفيان، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد، لا يؤويهما مؤوٍ، فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسـا معهـم، لأن الضـلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا، فاجتمع القوم على الفرقة وافترقوا عن الجماعة كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق منه إلاَّ إسمه، ولا يعرفون إلاَّ خطه وزَبره» (الخطبة ١٤٨).

«وإعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يَغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلاَّ قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدىً، أو نقصان من عمىً، وإعلموا أنه لـيس عـلى أحـد بعـد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنىً.. فإنه ينادي منادٍ يوم القيامة: ألا إن كـل حـارث مبـتلىً في حرثـه وأتباعه إلاّ حرثة القرآن واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسـكم، واتهمـوا عليـه آراءُكـم، واستغشـوا فيـه أهواءَكم» (الخطبة ١٧٦).

«لله فيكم عهد قدَّمه إليكم وبقية إستخلفها عليكم: كتاب الله، بينة بصائرها وآي منكشفة سرائرها، وبرهان متجلية ظواهره، مديم للبرية استماعه، وقائد إلى الرضوان إتباعه، ومؤَديا إلى النجاة أشياعه، فيه تبيـان حجـج الله المنـيرة، ومحارمه المحرمة، وفضائله المدونة، وجمله الكافية، ورخصه الموهوبة، وشرائطها المكتوبة، وبيناته الجالية».[3]

و«ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟ لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة».[4]

«فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحل مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل على يدل على خير سبيل، وهو كتاب تفصـيل وبيـان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكمة وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميـق، لـه نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنازل الحكمة ودليل على المعروف

---

[1]). نهج البلاغة الخطبة ١٩٨ ص ٢٢ عبده.

[2]). المصدر الخطبة ١٧ / ٦١.

[3]). بحار الأنوار ٨٩: ١٣ في خطبة فاطمة عليهاالسلام في أمر فدك.

[4]). البحار ٨٩: ١٥ عن الرضا عليه‌السلام عن أبيه عليه‌السلام أن رجلاً سأل أبا عبدالله عليه‌السلام: ما بال القرآن..

لمن عرفه».[١]

و«فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، والقرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده ـ والقرآن مأدبة الله فتعلموا مأدبته ما استطعتم، إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحسرة، والظل يوم الحرور، والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان».[٢]

«فالقرآن آمر زاجر، وصامت ناطق، حجة الله على خلقه، أخذ عليهم ميثاقه وارتهن عليهم أنفسهم، أتم نوره وأكرم به دينه، وقبض نبيه صلى‌الله‌عليه‌وآله وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى، فعظِّموا منه سبحانه ما عظم من نفسه، فإنه لم يُخف عنكم شيئا من دينه ولم يترك شيئا رضيه أو كرهه إلاَّ وجعل له علما باديا وآية محكمة تزجر عنه أو تدعو إليه، فرضاه فيما بقي واحد وسخطه فيما بقي واحد»[٣]

«كتاب الله تبصرون به وتسمعون، ينطق بعضه على بعض ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله».[٤]

و«عدد درج الجنة عدد آي القرآن فإذا دخل صاحب القرآن الجنة قيل له: إرقأ واقرأ لكل آية درجة فلا تكون فوق حائط القرآن درجة».[٥]

وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: «أتاني جبرئيل فقال: يا محمد سيكون في أمتك فتنة، قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله، فيه بيان ما قبلكم من خير وخبر ما بعدكم وهو الفصل ليس بالهزل، من وليه من جبار فعمل بغيره قصمه الله، ومن التمس الهدى في غيره أضله الله..».[٦]

ذلك و«إن أهل القرآن في أعلا درجة من الآدميين ما خلا النبيين والمرسلين، فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم فإن لهم من الله مكانا»[٧] و«من أعطاه الله القرآن فرأى أن أحدا أعطي أفضل مما أعطي فقد صغَّر عظيما، وعظَّم

---

[١]). البحار ٩٨: ١٧ بأسانيد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم‌السلام قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: أيها الناس إنكم في زمان هدنة وأنتم على ظهر السفر والسير بكم سريع فقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود فأعدوا المجاز لبعد المفاز، فقال المقداد فقال يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ما دار الهدنة؟ قال: دار بلاء وانقطاع فإذا التبست..

[٢]). البحار ٨٩: ١٩ عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله:..

[٣]). المصدر عن نهج البلاغة عن علي عليه‌السلام.

[٤]). المصدر.

[٥]). كتاب الامامة والتبصرة بسند عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[٦]). المصدر ١٨ عن الحارث الأعور قال: دخلت على أمير المؤمنين عليه‌السلام فقلت إنا إذا كنا عندك سمعنا الذي نسد به ديننا وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة مغموسة لا ندري ما هي؟ قال: أوَ قد فعلتموها؟ قلت: نعم قال سمعت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: أتاني جبرئيل...

[٧]). بحار الأنوار ٨٩: ١٨٠ عن الصادق عن أبيه عليهما‌السلام قال قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله:..

صغيرا».[١]
ذلك و«فضل الله» هو القرآن و«رحمته» أن جعلهم من أهله[٢] «بذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» من غير القرآن من حظوظ مادية أو روحية، وقد يعنى فضل الله القرآن ورسوله، ورحمته الممثل له صلى‌الله‌عليه‌وآله بالقرآن وهو علي عليه‌السلام[٣] وولده المعصومون عليهم‌السلام، والجمع أنهما يعنيان القرآن أصالة، والرسولَ صلى‌الله‌عليه‌وآله رسالة به، وخلفاءه المعصومين بسالة في تفسيره وتطبيقه.
فالقرآن هو معدن الفضل وبحبوحة الرحمة، ذلك هو الذي يستحق الفرح دون ما سواه، فذلك هو الفرح العِلوي الذي يُطلق النفس من عقال الشهوات والحيونات، ويجعلها عالية مرفرفة على الكائنات إتصالاً بمعدن العظمة ومخزن الرحمة.
فكل القِيَم هي زائلة عن بكرتها، مائلة عن الحق المرام إلاَّ التي يرسمها ويحققها القرآن، فالقيمة القيِّمة العليا التي ترفع من قيمة الإنسان هي ـ فقط ـ المتمثلة في هدي القرآن الذي هو موعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.
«قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاما وَحَلاَلاً قُلْ أَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ».[٤]
أنتم تقتسمون رزق الله إلى حرام وحلال وكأنكم آلهة مشرِّعون من دون الله «قل أالله أذن لكم» أن تجعلوا منه حراما وحلالاً كرسل من الله تحملون هكذا رسالة الله «أم على الله تفترون» أنه هو الذي حرم هكذا وأحل؟.
فلأنه «إن الحكم إلاّ لله»[٥] فجعلُ رزق منه حراما أو حلالاً لا بد وأن يستند إلى وحي بوسيط أم دون وسيط، أم فرية على الله أنه حرم أو أحل، وأما أن تحرِّموا أو تُحللوا مصلحيا محادِّين الله فهو خارج عن دور التشريع، ولم يكن المشركون يدعون أنهم هم المشرعون.
فلأن العباد هم عباد الله، ورزقهم كذلك هو رزق الله، فليكن الرزق من السماء أو من الأرض، فإن الله ليس له مكان علٍ حتى ينزل رزقه منه، ولا أن الأرزاق كلها من السماء حيث الأرض هي متعاملة مع عوامل السماء من في إعداد الرزق بأعداد منه.
ولا يدل «ءالله أذن لكم» على إمكانية إذنه أحيانا في تشريع، حيث القرآن فيه برهان لا مرد له على إختصاص التشريع بالله، إذا فهو بين تنازل أنه إذن للتشريع، أم أنه أرسلكم لبيان شرعته، «أم على الله تفترون» وكل ذلك الثالوث منفي بحكم الله فأنتم ـ إذا ـ مبطِلون.
ذلك، لأن التشريع هو من اختصاصات الربوبية لا يحمله مَن سوى الله لا استقلالاً دون إذن ولا إستغلالاً بإذن منه، اللَّهم إلاّ إفتراء على الله، وحين لا يأذن الله لرسله في تشريع، فكيف يأذن لغيرهم أن يشرِّعوا، ف«ءالله أذن لكم»

---

[١]). المصدر عن عدة الداعي عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: . .

[٢]). الدر المنثور ٣: ٣٠٨ ـ أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: . .

[٣]). المصدر ـ أخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس «قل بفضل الله» قال قال: النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله«وبرحمته» قال: علي بن أبي طالب عليه‌السلام.

[٤]). سورة يونس الآية ٥٩.

[٥]). سورة يوسف ١٢: ٤٠.

إستغراب أوّل أنه أذن لكم في تشريع ولا يأذن لرسله، ثم «أم على اللّٰه تفترون» استغراب ثان، وأما الثالث وهو الرسالة فسلبيتها عنهم مفروغة، ثم وهم غير مأذونين في تشريع.

وهكذا يقضى على كافة التشريعات غير الربانية مهما تسمت بأسماء مغرية كالإجتهاد وما أشبه، إتكالاً على قياسات وإستحسانات وإستصلاحات، لحد تقرَّر بما تُغرِّر هيئة لمعرفة المصالح الوقتية سماحا لغيار أحكام شرعية ثابتة روعي فيها كافة المصالح الصالحة للخلود!.

«وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّٰه الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّٰه لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ».[1]

فافتراء الكذب على اللّٰه من أيّ كان وأيان إنه محظور محظور، فما ظنهم ـ إذا ـ يوم القيامة، أن اللّٰه سيعاملهم، وإفتراء الكذب على اللّٰه هو من أكفر الكفر باللّٰه و«إن اللّٰه لذو فضل على الناس» بفاضل رحماته المتواترة عليهم وسعة عنايته بهم «ولكن أكثر الناس لا يشكرون» اللّٰه وهم يكفرون كفرا وكفرانا، وتراهم يستخفون من اللّٰه ما هو أعلم بهم من أنفسهم أم لا يخافونه؟.

«وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ».[2]

«وما تكون» يا حامل الرسالة القرآنية «في شأن» من شؤونك الرسولية والرسالية، وهكذا كافة المكلفين بشؤونهم الصالحة والطالحة «وما تتلوا منه ـ من شأنك ـ من قرآن» تلاوة المتابعة رسوليا ورساليا، دعائيا وتطبيقيا، أنت يا حامل الرسالة، وهكذا كافة المكلفين به في شأنهم الرسالي وأصله القرآن، ثم «ولا تعملون» أنتم كلكم رسولاً ومرسلاً إليهم «من عمل» قلبي أو قالبي «إلا كنا عليكم شهودا» شهادة الحق الذي لا ريب فيه ولا خفية تعتريه «إذ تُفيضون فيه» من عمل، والإفاضة هي الإسالة في خيرٍ، أو الخوض في شر، حين تستفرغون لعمل مما تعملون.

وهنا «كنا عليكم شهودا» تعني جمعية الصفات، وليست جمعية الذات، أم الذات مع غيرها من الذوات التي هي شهود فرعية بإذنه تعالى كالملائكة والنبيين والأعضاء العاملة والأرض، فإن اللّٰه لا يردف نفسه بخلقه فضلاً عن أن يأتي بصيغة تجمعه إلى خلقه.

إذا ف «كنا» هنا ك «أعطيناك الكوثر» و«إنا نحن نزلنا الذكر» وما أشبه، أترى بعدُ أن مع اللّٰه معطين آخرين للكوثر، ومنزلين سواه للذكر؟ حتى يجمعهم إلى نفسه في هذه الجموع؟!.

فقد يعني الجمع فيها وفي أضرابها عناية جمعية الصفات الربانية في تلك الشهادة على الأعمال كلها، شهادة قيومية وعلمية واستنساخية: «إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون»[3] وإيحاءً للأرض تسجيلاً لما يحدث عليها «يومئذٍ تحدث أخبارها*بأن ربك أوحى لها»[4] وإعلاما لسائر الشهود أن يشهدوا ما يعملون.

ذلك «وما يعزب ـ (ويبعد) ـ عن ربك» الذي رباك بهذه التربية القمة غير العازبة عنه «من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء» أرضا وسماءً وما بينهما وما فيهما من أحياء وأموات، «ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاَّ في كتاب مبين» في علم اللّٰه قبل الخلق وبعده.

وهنا أصغر من مثقال ذرة، هو الذي لا يُرى ببصر أو بصيرة، فهو في الماديات هي المادة الفردة ذات بعدين، التي لا

---

[1]). سورة يونس الآية ٦٠.

[2]). سورة يونس الآية ٦١.

[3]). سورة الجاثية ٤٥: ٢٩.

[4]). سورة الزلزلة ٩٩: ٥.

تنقسم إلاَّ إلى الفناء إنقساما هو انفصام عن كونها، فهي المادة الأولية، وهو في الطاقات هي الطامّة الفردة، فهي الطاقة الأولية في حقل الخلق.

«كذلك ربنا لا يعزب عنه شيءٌ وكيف يكون من خلق الأشياء لا يعلم ما خلق وهو الخلاق العليم».[1]

ذلك، وفي نظرة إلى الآية بشأنها أدبيا ترى ما هو المجمع لضمير «منه»؟ إنه الشأن حيث يعني الشأن الرسالي، وهو القرآن لأنه أصل شأنه الرسالي وعلى هامشه السنة، وقد أفرد القرآن بالذكر بعد تعميم «شأن» ليدل على أنه هو معظم الشأن رسوليا ورساليا، ثم سائره ليس إلاّ على هامشه، فقد «أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله..»[2] تقديما للكتاب الذي هو المحور الأصيل بتنزيله وتأويله «لتحكم بين الناس» ثم «بما أراك الله» تعميما بعد تخصيص ليدل على أن له إراءَة إلهية على هامش القرآن ليست هي في القرآن نصا أو ظاهرا.

وهنا يتقدم الأرض على السماء حيث الأرض أقرب إلى حاضر مخاطبيها من السماء، وأن المقام هو الشهادة على أعمال المكلفين والأصل منهم هنا ساكنوا الأرض.

ويعكس الأمر في سباء: «لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاَّ في كتاب مبين»[3] لأن غيب السماء أغيب في حسابنا من غيب الأرض.

وترى «وما يعزب» أي يبعد «إلاّ في كتاب مبين» هلاَّ تبعد كل علم هنا عن «كتاب مبين»؟ كلاّ حيث الإستثناء إستغراق لعلم كل شيء في كتاب مبين، أي «إلاَّ هو في كتاب مبين» في سلبية العزب، فكل شيء من الكائنات هو مسلوب العزب عن ربك عنده.

وقد يكون هذا الإستثناء منقطعا يقطع كل عزب عن ساحة علمه تعالى، فيعني أن كل المذكورات هي في كتاب مبين.

القرآن يخرج من الظلمات الى النور

«كتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».[4]

هذا، وهي في ختاماتها كبداياتها تذكر القرآن او نبي القرآن[1] مما يربط هذه السور الخمس بعضها ببعض، وكما هي

---

[1]). نور الثقلين ٢: ٣٠٨ في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي عليه‌السلام يقول فيه وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات وأما قوله: وما يغرب عن ربك.. كذلك...

[2]). سورة النساء ٤: ١٠٥.

[3]). سورة سبأ الآية ٣.

[4]). سورة ابراهيم الآية ١.

متقاربة في مواضعها ومواضيعها، واربعة اخماسها تتسمى باسم الأنبياء الخصوص، وهم مطويون بداية ونهاية وفيما بينهما في الرسالة القدسية المحمدية عليه افضل سلام وتحية.

والهدف الاسمى من انزال هذا الكتاب «لتخرج الناس من الظلمات الى النور...»وفي «لتخرج» انت الرسول دون «ليخرج» لمحة صارخة صارخة ان ليس الكتاب بمفرده مخرجا من الظلمات الى النور إلاّ بالرسول كمعلم الوحي والمربي بالوحي «يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين»[2] كما الرسول ليس ليُخرج إلاّ بالكتاب، فالثقلان هما المخرجان من الظلمات الى النور، والرسول وعترته المعصومون هم مجامع الثقلين، فالرسول كرسول مع القرآن هو افضل من القرآن دونه دون القرآن بلا رسول أو الرسول دون القرآن، فهو مصداق تام للقرآن اضافة الى تفسيره وتطبيقه.

وفي ذلك الاخراج سواءٌ ناس العرب وسواهم في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، محلقا على كافة اللغات والقوميات والاقليميات ما تشملهم لغة «الناس» وكما يبرز ذلك الشمول والجمعية الكافلة في آيات امثالها: «قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا»[3] وكالتي تختم بها السورة «هذا بلاغ للناس ولينذروا به».

ثم ولا فحسب الناس، فانهم ليسوا إلا الأفضل بين المرسل اليهم في هذه الرسالة السامية، فالدعوة القرآنية تشملهم وكل البشر «نذيرا للبشر»[4] وهو اعم من الجنة والناس وسواهم من المكلفين، حيث النذارة القرآنية تشمل كل من بلغ: «وأوحي اليَّ هذا لقرآن لأنذركم به ومن بلغ»[5] بلوغ المنذِر والمنذَر، فالقرآن بلاغ لايٍّ كان من بالغ حد التكليف من العالمين: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا»[6] ولأن اقل الجمع الظاهر ثلاثة فاقل النذارة في هذا القرآن مثلث الانس والجن أمن هو ممن لا نعرفه من سكنة هذه الكرة وسائر الكرات فانهم ممن حول ام القرى «لتنذر ام القرى ومن حولها»[7] فالمركز الرئيسي لهذه الدعوة الاخيرة هو ام القرى ثم «مَن حولها» يعم العالمين اجمع حين يشمل «حولها» في العالم اجمع دون اختصاص بهذه البسيطة.

اذا ف «لتخرج الناس» لا تختص دعوته بالكتاب بخصوص الناس حيث الهدف الشامل، «لتخرج الناس» وما الناس في الميدان إلاّ كمحور في هذه الرسالة السامية مرسلاً اليهم، كما الناس محور في الرسالة.

---

[1]). ففي يونس: «واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم اللّه وهو خير الحاكمين» (١٠٩) وفي هود: «... فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون» (١٢٣) وفي يوسف «.. ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيءٍ وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون»وفي الحجر: «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين». (٩٩).

[2]). سورة الملك ٦٧: ٢.

[3]). سورة الأعراف ٧: ١٥٨.

[4]). سورة المدثر ٧٤: ٣٦.

[5]). سورة الأنعام ٦: ١٩.

[6]). سورة الفرقان ٢٥: ١.

[7]). ٤٢: ٧.

ثم «باذن ربهم» تذكرة مكرورة في ذلك الاخراج انه ليس ـ فقط ـ من خلفيات هذه الدعوة ف «إنك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم»[1] وانما «باذن ربهم» تشريعا وتكوينا «الى صراط العزيز»: القادر الغالب «الحميد»: في عزته دون الأعزة المذمومين، فان صراطهم زور وغرور.

فالنور واحد هو صراط العزيز الحميد، والظلمات عِدة هي السبل المتفرقة عن صراطه، فالايمان على ضوء القرآن بدلالة نبي القرآن نور تشرق به النفس وتشفُّ، فترى الصراط واضحا لا يشوبها غش ولا غبش ولا ضباب، حيث خرجت من الظلمات كل الظلمات على قدر شفافية الايمان وجلائه.

فالنور هو صراط العزيز الحميد، والظلمات هي السبل المتفرقة عن النور وهي صراط الذليل اللعين، وصاحب الصراط النور هو:

«اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».[2]

فمن له الكون كله مِلكا ومُلكا وقدرة فهو العزيز الحميد، وهو صراطه النور «وويل للكافرين» بذلك الإله «من عذاب شديد» هنا معيشة ضنكا وفي الاخرى اشد وانكى، والكافرون هم:

«الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجا أولئكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ».[3]

قد تُحتسب الحياة الدنيا ذريعة ومتاعا للحياة الآخرة فهو سبيل المؤمنين، وقد تبغض وتُكره زعم أنها دنيئة على اطلاقها حتى وان كانت ذريعة الآخرة وهذا تقشُّف ورهبانية مبتدعة، واهلها عوانٌ بين اهل الدنيا والآخرة، وثالثة تُحتسب الحياة الدنيا على الآخرة إيثارا لها عليها وركونا واخلادا اليها، فذلك كفر بالحياة الاخرى، وظلمات بعضها فوق بعض، بعيد عن النور كل البعد.

انه لا تعطيل ولا تبطيل في الاسلام للحياة الدنيا نَظِرَة الآخرة حيث الدنيا مزرعة الآخرة، تعميرا لها واستعمارا بالحق والفضيلة ابتغاء رضوان الله: «وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ متاع» ولكنها متاع الغرور واشتراء الأخرى كليهما، وعلى حد المروى عن الامام علي عليه‌السلام (من ابصر بها بصّرته ومن أبصر اليها أعمته)!.

وهم اذا استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة في انفسهم دون تعدٍ في طورهم وكورهم على مَن سواهم في ضلال قريب، ولكنهم «ويصدون عن سبيل الله» من آمن او كاد «ويبغونها عوجا اولئك في ضلال بعيد» فسبيل الله وهي القرآن وهي نبي القرآن بالقرآن هم يصدون عنها: «رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا»[4] «لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا»[5] صدا عن الايمان قبله او بعده في محاولة كافرة ماكرة.

واما «يبغونها عوجا» فهل تعني يبغون فيها عوجا تغييرا أو تحويرا لكي تحرَّف عن جهات اشراعها؟ وصيغته الصحيحة «يبغون فيها»! ولا تنحصر المحاولات الكافرة في الصد عن سبيل في تحريفها عما هي عليه بل وتزييفها على ما هي عليه، ف «يبغونها عوجا» هي ان يطلبوها معوجة بتحريف ان قدروا عليه، ام تزييف ان لم يقدروا على

---

[1]). سورة القصص ٢٨: ٥٦.

[2]). سورة ابراهيم الآية ٢.

[3]). سورة ابراهيم الآية ٣.

[4]). سورة النساء ٤: ٦١.

[5]). سورة آل عمران ٣: ٩٩.

تحريف، استغلالاً لضعاف العقول، واستحمارا لهم على استكبار: (فلو ان الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو ان الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيآن معا فهنالك استحوذ الشيطان على اوليائه ونجى الذين سبقت لهم من اللّٰه الحسنى).
ف «عوجا» حال عن هؤلاء وبغيهم وعن سبيل اللّٰه، اذ يبغونها حال اعوجاجهم عن الفطرة، فبطبيعة الحال يعوجون عن السبيل ـ فان اقامة الوجه الى الفطرة من الشروط الاصلية لابتغاء السبيل «فاقم وجهك للدين حنيفا فطرت اللّٰه التي فطر الناس عليها».
ثم ويبغونها على بغيهم هذا عوجا في تحريف او تزييف «وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا» فحقا «اولئك في ضلال بعيد» فانه إضلال بعد ضلال «ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل اللّٰه له نورا فما له من نور».
ذلك الضلال البعيد، ولكن الرسالات الالهية مكافحة لكل ضلال قريب ام بعيد اذ تملك بيانا للحق الصارم، ناصحا ناصعا لا يشوبه ريب ولا عيب:
«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».[1]
اترى ما هو «لسان قومه»؟ هل هو لغتهم التي بها يتكلمون؟[2] واولوا العزم من الرسل ارسلوا الى العالمين بمختلف لغاتهم، مهما كان الموارد الأولى لدعواتهم قومٌ واحدهم عائشوهم، ولكنهم كبداية الدعوة، ثم منطلقها إلى سائر المكلفين، وهم جميعا قومهم المرسل اليهم!
ام «قومه» هم قوم هذا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فما ارسل من رسول إلا بلسانهم العربي وهم كانوا يترجمونها الى لغات أقوامهم؟[3] ولم يسبق للرسول ذكر حتى يرجع اليه ضمير «قومه»! وحتى لو ذكر فلماذا «بلسان قومه» دون «لسان» وهو اعرب العرب! ثم ولا تمتُّ «ليبين لهم» بصلة الى اللغة العربية حيث البيان لا ينحصر فيها.
ام «قومه» هم قوم كلِّ رسول، في رسالة خاصة كالرسل الفروع، أم عامة كاولي العزم من الرسل ولكن «قومه» في هؤلاء هم الذين نشأ فيهم دون سائر العالمين مهما كانوا قومه في البُعد الرسالي!
فموسى يُرسَل بلغة قومه الإسرائيليين: العبرانية، ثم ويدعو مَن سواهم من قبط الفرعونية وسائر المكلفين بمختلف لغاتهم، ومحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله يرسل بلغة قومه العرب وهو يدعوا قومه الرسالي وهم كافة المكلفين.
ولوط يرسل بلسان قومه من كلدة وهم سريانيون، ثم ويرسل الى المؤتفكات العبرانيين.
ذلك، ولكن «ليبين لهم» لا تناسب لغة القوم الاول لكل رسولٍ، حيث البيان الرسالي لا تخص من نشأ فيهم الرسول، فكل المرسل اليهم أيا كانت لغتهم وفي اي زمان او مكان، يستحقون ذلك البيان، فهم كلهم قومه، مهما قام عن خصوص لهم لغتهم وعاداتهم!.
ثم و«لتخرج الناس من الظلمات الى النور» بالقرآن، ليست لتعني الا اخراجا ببيان القرآن، وهو عربيا ليس الا بيانا للعرب دون سائر العالمين!.

---

[1]). سورة ابراهيم الآية ٤.

[2]). الدر المنثور ٤ : ٧٠ واخرج احمد عن ابي ذر قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لم يبعث اللّه نبيا الا بلغة قومه.

[3]). نور الثقلين ٢: ٥٢٥ ح ٤ عن الباقر عليه‌السلام قال: ما انزل اللّه تبارك وتعالى كتابا ولا وحيا الا بالعربية فكان يقع في مسامع الانبياء عليهم‌السلام بالسنة قومهم وكان يقع في مسامع نبينا بالعربية فاذا كلم به قومه كلمهم بالعربية فيقع في مسامعهم بلسانهم وكان احد لا يخاطب رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله باي لسان خاطبه الا وقع في مسامعه بالعربية كل ذلك يترجم جبرئيل عليه‌السلام عنه تشريعا من اللّه عز وجل له صلى‌الله‌عليه‌وآله.

القرآن
بلاغ للناس

«هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ»[١].
«هذا» المذكور في هذه السورة، و«هذا» القرآن ككلّ «بلاغ للناس» كل الناس، اعلام جاهر في اعلان باهر، عالي الصدى، بعيد المدى، بلاغا للناس طول الزمان وعرض المكان «بلاغ فهل يهلك إلاّ القوم الفاسقون»[٢].
نظائرهم في الإجرام «في الأصفاد» وهي الأغلال الجامعة بين الايدي والاعناق، ام هي مطلق السلاسل الجامعة، فهم مقرَّنون الى بعض، وبالاصفاد: «وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا»[٣].
ذلك هناك وكما كانوا هنا مقرنين إلى بعض في اصفاد الإجرامات والشهوات، قد احتنكهم الشيطان، لا يتحلّلون عن أسرهم له بأسرهم وهم في حيوَناتهم دائبون.
«سرابيلهم من قطران» أقمصة سوداء مُنتنة تطلى بموادها الآبال، يلبسونها لباس المنتن المحرق فإنّها مادّة شديدة القابلية للإحتراق، وهي في نفس الوقت قذرة منتنة سوداء. «وتغشى وجوهَهم» كلّ وجوههم «النار» فالوجوه الظاهرة تغشاها النار القاهرة، وكما الوجوه الباطنة وهي احرى وانكى: «نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة* إنّها عليهم مؤصدة في عمدة ممدة»[٤] فلا يبقى لهم وجه على اي وجه إلاّ وتغشاه النار، وكما كانت وجوههم يوم الدنيا بكلّ اتجاهاتهم إلى النار، فقد «البسهم سرابيل القطران ومقطّعات النيران في عذاب قد اشتدّ حرّه، وباب قد اطبق على اهله»[٥].
ويا له من مشهد متلظٍّ مذِلٍّ مخزٍ جزاءَ الماكر الظالم المستكبر:
«لِيَجْزِىَ اللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»[٦].

---

[١]). سورة ابراهيم ١٤:٥٢.

[٢]). سورة الاحقاف ٤٦:٣٥.

[٣]). سورة الفرقان ٢٥:١٣.

[٤]). سورة الهمزة ١٠٤:٧.

[٥]). نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين عليه‌السلام.

[٦]). سورة ابراهيم الآية ٥١.

«ما كسبت» هنا في موقف المفعولية لـ «ليجزى الله» ممّا يدل على أنّ العمل هو الجزاء بملكوته الظاهرة يوم الجزاء، فليس الجزاء انتقام التشفي لله وسبحانه، بل هو العمل بعينه، وفي مظهر الحقّ بأثره فالقرآن «بلاغ»» و«حجة بالغة»[1] ورسول القرآن بلاغ «وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين»[2] كما وهو حجّة بالغة، فالدعوة القرآنية بلاغ في بعدي المدعو به والداعية.
وترى «بلاغ» فقط في الحقل العلمي والمعرفي؟ كلا! بل «ولينذَروا به» نذارة نفسية وعملية، تذرعا لبلاغ العلم إلى بلاغ العقيدة والعمل، كقاعدة اساسية هي رأس الزاوية لهذا البلاغ. فـ «لينذَروا به» هي من اهداف البلاغ، والواو هنا تعطف إلى محذوف معروف من نفس البلاغ، فـ «هذا بلاغ للناس» ليعلموه وليصدقوه ثم «ولينذروا به وليعلموا.. وليذكر اولوا الالباب».
وهذه الزوايا الثلاث نذارةً وعلما وتذكرا هي الغاية القصوى من «بلاغ للناس» علميا وتصديقا وتطبيقيا.
ثم «وليعلموا إنّما هو إله واحد» قياما لعمودي العلم والعمل على قاعدة توحيدية عريقة تتبنى الحياة كلّها في كلّ حقولها هي «لا إله إلاّ الله» فإنّها ليست مجرّد عقيدة مستكنة في الضمائر، فإنّما البلاغ الصالح للدعوة القرآنية المحمدية، هو دمج التوحيد في كلّ شؤون الحياة، آفاقية وانفسية أماهيه، كروح تعمل بين الجوارح والجوانح، في الارواح والأشباح.
ثمّ وفي قمّة التأثير لهذا البلاغ «وليذكر اولوا الالباب» فبعد ما اخذ ناس من هذا البلاغ ـ بتصديقه عقيديا وعمليّا ـ لُبّا، فهذا البلاغ يزيدهم لبا على البابهم فيذكروا لباب الذكر.
وكما نرى هذه الآية الختامية لهذه السورة تنعطف إلى آيتها الاولى، محلّقة معها على أجواء السورة كلها، ومختصرة لها والقرآن كلّه في النذارة والعلم والتذكار، على محور التوحيد، والله على ما نقول شهيد.

القرآن
قيّم لا عوج فيه

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجَا قَيِّما لِيُنذِرَ بَأْسا شَدِيدا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرا حَسَنا»[3]
«الحمد لله» تستغرق كلّ حمد من كلّ حامد ولكلّ محمود فتحصره في الله، لأنّه الله، وتحسره عمن سوى الله لأنّه سوى الله، ثمّ لأنّه «ربّ العالمين» كما في فاتحة الكتاب، ربوبيّة تكوينيّة وتشريعية للعالمين ككلّ، وهنا لأنّه «أنزل

---

[1]). سورة الأنعام ٦:١٤٩.

[2]). سورة النور ٢٤:٥٤.

[3]). سورة الكهف ١٨: ١ ـ ٢.

على عبده الكتاب» فإنّه كأنّه هو ربوبيته كلّها، فانّه الغاية القصوى من خلق الكون بمن فيه العالمون، فالحمد لله لأنّه «أنزل على عبده الكتاب» كالحمد للّه لأنّه «ربّ العالمين»!

و«أنزل» اللاّمحة الى نزول دفعي كما التنزيل هو التدريجي، لا يعني هنا نزوله في ليلة القدر حيث الغاية المعنية هنا «لينذر... ويبشّر» لا تناسب إلاّ عن طول الزمان وعديد النزول، بل «الكتاب» ككل.

ولماذا «على عبده» لا محمدٍ ولا الرسول؟ علّه للتدليل على الشرط الأصيل في ذلك الإنـزال التنزيـل وهـو العبوديّـة القمة، فبانزال الكتاب على عبده تحصل الرسالة!

ثمّ و«عبده» مفردا كأنّه هو عبده لا سواه، دون عبد من عباده؟ تلميحا لأنّه في قمهالعبودية، لا يساوى ولا يسامى «قل إن كان للرحمن ولد فانا اوّل العابدين».

فمحمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله «عبده» كأنّه فقط لا سواه، فلا نجد «عبده» في اشرف المواقف إلاّ إياه «انزل الفرقان على عبـده» «فاوحى إلى عبده» «هو الذي ينزل على عبده» «اليس الله بكاف عبده» اللّهم إلاّ «ذكر رحمة ربك عبده زكريا، إذ نادى ربّه نداءً خفيّا»[1] ولكن «زكريا» هنا تبيّن إنّه لولاه لما عرف بـ «عبده».

وكذلك القرآن كتابه «الكتاب» كلّ الكتاب كأنّ لا كتاب سواه، كتاب في القمة ينزل على عبد في القمّة ولأنّه يحوي كلّ كتابات الوحي وزيادة!

ثمّ «ولم يجعل له عوجا قيما» حالان وصفيتان، أولاهما سالبة تسلب عنه كلّ نقـص وانحـراف، واخـرهما ايجابيـة تثبت له كلّ كمال، وهذه طريقة مثلى في كلّ تعريف كامل وكما في اسس الاسلام «لا إله إلاّ الله» تخلية ثمّ تجلية.

والعوج فتحا هو ما يدرك بالبصر سهلاً، وكسرا ما يدرك بالبصيرة، فلا يرى ارباب البصيرة في القـرآن ونبيـه انحرافـا واعوجاجا وفطورا: «فارجع البصر هلترى من فطـور* ثـمّ ارجـع البصرـ كـرتين ينقلـب اليـك البصرـ خاسـئا وهـو حسير»[2] «قرآنا عربيا غير ذي عوج»[3] وحقيقته ان يكون فيما يصح عليه ان ينتصب، ويميل ويضطرب ويستقيم، فقـد يجعل الله ما يتوارد عليه الحالتان فهو غير معصوم، أم لا يتـوارد لـه إلاّ حالـة واحـدة كـما القـرآن ونبـي القـرآن، فالعصمة لزامهما دون نكوب عن المنهاج ولا هوة الاعوجاج، ومن العوج ظنية الدلالة وما اشبه!

والقيم هو مؤكّد القيام والقوام، تعنيهما «قيّما» ايا كان، قواما في نفسه إذ يهدي للتي هي اقوم، وقياما في دعوته إذ يقوّم القاعدين ويوقظ النائمين،

في سائر القرآن لا نجد قيوما إلاّ الله ولا قيما إلاّ القرآن وقد يقرنان:

«الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق»[4] فمن قيموميته نزل ذلك الكتاب القيّم، فهو قيّم كـما الله منزله قيوم، باق يدوم ما بقي الدهر دون تحرّف او نسخ.

فالقرآن قيّم كما نبي القرآن، والدين منهما وبينهما قيّم «فاقم وجهك للدين القيِّم من قبل ان يأتي يوم لا مردّ له من الله»[5] «رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة* فيها كتب قيِّمة»[1] «وذلك دين القيّمة»[2] وأقوم القيّم في هذا الدين والكتاب

---

[1]). على الترتيب الفرقان ٢٥: ١ ـ الطور ٥٢: ١ ـ الحديد ٥٧: ٩ ـ العنكبوت ٢٩: ٢٦ و مريم ٢:١٩.

[2]). سورة الملك ٦٧:٤.

[3]). سورة الزمر ٣٩:٢٨.

[4]). سورة آل عمران٣:٢.

[5]). سورة الروم ٣٠:٤٣.

قِمة التوحيد القيمة، وكما ينبوا من الفطرة التي فطر الناس عليها: «ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون»[3].
ثمّ «له» في الحال الاولى تعني «عبده» و«الكتاب» على البدل، كما الجملة حال عن الإنـزال، فتعنـي: «انـزل... ولم يجعل له عوجا»: إنزالاً دون عوج، كما ومُنزَل دون عوج: الكتاب، ومَنزِل دون عوج «عبده» حال مثلثة عن ثـلاث: إنزالاً ومُنَزلاً ومَنزِلاً!

و«قيما» حال مربعة: هذه، والله، فإنّه قيّم وإنزاله قيّم وكتابه قيّم وعبده قيم!

ومن العوج في إنزال الكتاب الوحي ان يشتبه بوحي الشيطان او ينسى، ومن العوج في «عبده» نقصـان في مثلـث العصمة: تلقيا وإلقاءً وتطبيقا لوحي الكتاب، ومن العوج في الكتاب، تعرضه لتحريف او نسخ، او عوج له في دلالة او مدلول أما ذا «قرآنا عربيا غير ذي عوج».

وكما اللهّ قيم، فانزاله «الكتاب» قيم وكتابه قيم ورسوله قيم بقمة العبودية وقوامتها أمّـا ذا مـن لزامـات الرسـالة بالوحي.

فكلّ عوج من العوج عن الثلاث منفية، وكلّ قوامة وقيام للاربع مثبتة.

ولماذا «لم يجعل» والعبد دون اتصال بالوحي اعوج دون ان يُجعل له عوج، وهو متّصلاً بالوحي ليس له عوج؟

وهكذا الأمر في الكتاب، وأمّا الإنزال فطالما العبد متّصلاً بالوحي ليس له عوج؟

علّ جعل العوج في «عبده» أن ينقص من كماله الرسالي كما في الكتاب من كماله في الوحي، فلان الوحي والرسـالة يقتضيان كمالاً دون عوج، فلا يتصوّر لهما عوج إلاّ ان يجعل لهما عوجا.

وما هو الهدف في ذلك الإرسال مختصرا لا محتصرا؟ : «لينذر باسا شديدا من لدنه ويبشّر المؤمنين الـذين يعملـون الصالحات أنّ لهم اجرا حسنا* ماكثين فيه ابدا».

وترى ما هو البأس الشديد؟ ومن لدن مَن هو؟ إنّه بأسٌ شديد من اللهّ عذابا في الدنيا واشدّ منه في الأُخرى، وبأس شديد من رسول اللهّ صلى‌الله‌عليه‌وآله حربا منه ومحاربا هو من لدنه كعلي عليه‌السلام فإنّه من رسول اللهّ وحربه منه فمن لدنه: اللهّ، يعم عذابات الله، ومن لدن رسول اللهّ: يعم لدنه متصلاً حربه، ومنفصلاً محاربه الذي هو من لدنه[4].

القرآن

لا مبدل لكلماته ولا ملتحد من دونه

(١)

---

[1]). سورة البينة ٩٨:٣.

[2]). سورة البينة ٩٨:٥.

[3]). سورة الروم ٣٠:٣٠.

[4]). فضمير الغائب راجع إلى اللّه اصالة، وإلى الرسول رسالة، رجوعا بدليا إلى كل.

هنا صرفٌ للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله عن القيل والقال والإصغاء إلى أصحاب المقال في آرائهم واقتراحاتهم الناكبة عن الصراط، والإلتحاد إلى الرّب وكلماته، وأن يصبر نفسه مع الذين يدعونه، ماشيا على صراط الحق، متمسكا بصُراح الحقّ فتعم الثواب ونعم المرتفق!

«وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدا»[1].

اصل التلاوة هي المتابعة: «والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها» فلا شأن لك ولا واجب عليك إلاّ متابعة كتاب ربّك قراءة وتفهما وتفهيما وابلاغا وتطبيقا، «واتل ما أوحي اليك...» لا ما أوحاه عقلك أمَّن سواك، وإنّما «من كتاب ربّك» القرآن العظيم، دون أن تبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا، أو أن تستعجل وحي ربّك فتعدهم الجواب ناسيا «إن شاء اللّه» ودون الإلتحاد إلى اي وحي او استفتاء او استيحاء، وإنّما «ما اوحي إليك من كتاب ربك» فحسبك ربك وكتاب ربك إذ «لا مبدل لكلماته»: ربك ولا كتابه «ولن تجد من دونه»: ربّك ولا كتابه «ملتحدا».

فهما وصفان متلاحمان لـ «ربّك» ولـ «كتاب ربّك»: «ولا مبدل لكلماته» والقرآن أفضل كلماته، «ولن تجد من دونه ملتحدا». وملتحَده الموحى إليك هو قرآنه كما هو تعالى ملتحدك في كلما تحتاجه، ملتحد تكوينا وملتحد تشريعا لا مبدل لهما!

فكلماته التشريعية التدوينية ككل لا مبدل لها من غيره تعالى نسخا إلاّ تحريفا في غير القرآن: «يمحو اللّه ما يشاء ويثبّت وعنده‌ام الكتاب» وكلماته الأخيرة القرآن، لا مبدل لها اطلاقا إذ تمت «وتمت كلمة ربّك صدقا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم»[2] لا مبدلاً من غير اللّه تحريفا وتجديفا، مهما كان لغير القرآن تحريف وتجديف، ولا مبدلاً إلهيا نسخا وتبديلاً كشرعة تنسخ وتتبدل، فالقرآن كما كان وكما هو الآن قائم مرّ الدهور والأعوام إلى يوم القيام لا نسخ فيه ولا تحريف يعتريه دون سواه من كلمات اللّه وكتاباته.

و«ملتحَدا»: متمايَلاً يجير إليه، أولاً هو اللّه لأي ملتحد وعلى أية حال إجارة وجوارا: «قل إني لن يجيرني من اللّه أحد ولن أجد من دونه ملتحدا* إلاّ بلاغا من اللّه ورسالاته..»[3] ومن ثمّ لن أجد ملتحدا من وحيه إلاّ كلماته الأخيرة: القرآن المبين، فهنالك اللّه وهنا كتاب اللّه ثمّ لا سواه ولا سواه.

هنا «لا مبدل لكلماته» في استغراق نفي التبديل يجعل من القرآن كتابا لا نسخ له ولا تحريف، إذا فهو كتاب الزمن وخاتمة الوحي لا كتاب بعده ما طلعت شمس وغربت!

ومن ثمّ «ولن تجد من دونه ملتحدا» تُحيل ملتحدا من دون القرآن كما تُحيله من دون اللّه، ضربا إلى أعماق الزمن ما بقي الدهر، فمهما غاب شخص الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله لا تغيب رسالته القرآنية وإذا الرسول وهو اوّل العابدين «لن تجد..» فغيره أحرى أن «لن يجد» فـ «لن تجد» وإن كان خطابا لشخص الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ولكنّه بإحالة «لن» وأوّل العابدين في «لن تجد» يطوي كل زمان ومكان وكلّ إنس وجان حتى القيامة الكبرى، فتحيل أي ملتحَد طول الزمان وعرض المكان سوى القرآن كما آله القرآن!

الهاء، في «دونه» ادبيا راجع إلى «كتاب» ـ لفظيا ومعنويا ـ حيث هو المضاف، وراجع إلى «ربّ» في «ربك» معنويا، ولأنّ «ربك» تعني ربوبية الوحى وهو يختص بالقرآن، فعلى اي الحالين القرآن هو الملتحد الوحيد الرسولى فقط،

---

[1]). سورة الكهف ١٨:٢٧.

[2]). سورة الأنعام ٦:١١٥.

[3]). سورة الجن ٧٢:٢٢.

فالاحكام المستفاده في السنة إن لم يدل عليه القرآن لفظيا فهو مدلوله رمزيا من حروف رمزية.
فالقرآن هو الدليل المشرع الوحيد بين ساير الادلة الشيعية والسنيّة التسعة.[1]

القرآن
لا تبديل لكلماته
(٢)

«وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»[2].
«آياتنا بيّنات» في أنها منّا حيث الكلام بوزنه ووزانه يدل على كيان صاحبه، وقد سميت الجملات القرآنية آيات الله لأنّها دالات على ربانية صدورها وكما تدل على الله، دلالة ذات بعدين اثنين، قاطعة لا محيد عنها ولا حِوَل عنها، ولكن: «قال الذين لا يرجون لقاءنا» لما يسمعون منها كلّ تحذير وتنذير بعاقبة السوء يوم الأخرى «إئت بقرآن غير هذا أو بدله» غيره عن بكرته أو بدله إلى ما نهواه ألاّ يحدِّد شهواتنا ولا يهددنا بعقوباتها.
«قل ما يكون لي أن أبدله» أي تبديل «من تلقاء نفسي» رغم محتدي الرسالي، حيث القضية الرسالية على طول خطّها هي «إن اتبع إلاّ ما يوحي إلي» فليس لي دون وحي أن أبدله ولو شطر كلمة أو حرف أو إعراب أو نقطة او غيار مكانة او مكان في القرآن، فمثلي مثلكم في أنّ الله يعذبني إن عصيته: «إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم».
هنا «قرآن غير هذا» دليل أن هناك قرائن الوحي وهي كتابات الرسل، ومثلها: «إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم»[3][4].

---

[1]). رواية واجماعا وشهرةً وعقلاً وسيرة وخبرا واحد، او قياسا واستحسانا استصلاحا مختصة، باخواننا السنة، الا ما وافق القرآن ولم يخالفه، ولكن السنة المتواترة غير الموافقة ولا المخالفة للقرآن مقبولة لانها تفسر الحروف الرمزية، واطيعوا الرسول بعد اطيعوا اللّه في آيته، آمرة باتباع هذه السنة، اذا فالقرآن هو الملتحد الوحيد دلالة ورمزا.

[2]). سورة يونس ١٠:١٥.

[3]). سورة الاسراء ١٧:٩.

[4]). للتفصيل حول القرآن بعديد ذكره السبعين إلاّ «قرآن الفجر» و«قرآنه» وعديد أسماءه الأربعين، وعديد معانيه السبعة: طهارة ـ تطهير ـ قراءة ـ إبلاغ ـ رؤية ـ جمع ـ اقتراب، راجع الفرقان (١٥: ٧٨ ـ ٨٣).

فـ «هذا القرآن» كما هنا وفي آيات أُخرى، تدل على أن هناك قرائين أُخرى، مهما عني بـ «القرآن» طليقا هذا القرآن كَعَلم له[١] كما «الكتاب» حيث يجمع كافة كتب الوحي وقرائينه، فطالما التوراة والإنجيل هما قرآنان ولكنهما أمـام القرآن كأنّهما ليسا به: «وعدا عليه حقا في التوراة والأنجيل والقرآن»[٢] كما أن سائر الوحي أمام وحي القـرآن كأنّهـا ليست بوحي: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»[٣] وكما أن سائر الرسل أمام هذا الرسول كأنّهم ليسوا برسل، فلذلك لم يـأت النبـي ولا الرسول طليقا مفردا إلاّ لهذا الرسول النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله.

ذلك ولا يعني هؤلاء الأنكاد من «قرآن غير هذا أو بدله» إلاّ ما يوافق شهواتهم وغاياتهم دون أية مضادة، جمعـا بينها وبين شرعة الوحي، أن يتبع الحقّ أهواءَهم: «ولو إتبع الحقّ أهواءهم لفسدت السماوات والأرض»[٤].

أجل «إئت بقرآن غير هذا» الذي يوحد اللّه وينذر بلقاء يوم اللّه ويكلفنا خلاف أهوائنا، وكما تطلّـب جماعـة مـن مشركي الطائف منه صلى‌الله‌عليه‌وآله ألاّ يكسر صنمهم «اللات» ويضع عنهم فرض الصلاة حتى يؤمنـوا، فأجـابهم أن أهـم أصول هذا الدين هو التوحيد الذي ينافي اللاّت وغير اللاّت، وأهم فروعه هي الصلاة، فكيف أجيـبكم إلى تطلّـبكم هذا!؟.

وقولتهم هذه «ائت بقرآن غير هذا أو بدله» هي بين شيطنة الجد والهزل، والفرق بين هذين الإقتراحـين أن «غـير هذا» هو المغاير تماما إياه إلى ما تهواه أنفسهم، ثم «أو بدله» يعني تبديله إلى ما هو أسهل منه تقبلاً، تنازلاً عـن «غير هذا».

ولو أنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله تقبل ذلك أو حاول أن يفعل لكان فيه تكذيب لنفسه فيما تلى عليهم من آيات التحدي والآيـات التي تدل على خلود القرآن: «وتمّت كلمة ربّك صدقا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم»[٥].

ذلك، ولكنها ليست لعبة لاعب ولغبة لاغب أو مهارة شاعر في مباريات الشعر وسواه في أسواق الجاهليات، إنّما هو الدستور الجدي الجاد من ربّ هو لنا بالمرصاد، عليما بما يصلحنا ويفسدنا، وليس تبديله كلّـه أو بعضـه يعنـي إلاّ خطأه سبحانه فيما أنزل! أو إتباعه لأهواء هؤلاء الأغباش فيما ينزل!

ومن بديع الأدب الرسالي لهذا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه لم يرد عليهم ما هو باهر له من الرد حتى أمره اللّه بالرّد عليهم: «قل ما يكون لي» إذ ليس من شأني كرسول فعلُ الرب: «أن أبدله من تلقاء نفسي» وإنّما كياني الرسالي ككل «إن اتبع إلاّ ما يوحي إلي» وكياني في المسؤولية امام اللّه «إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم».

فمن لا يخاف عذاب يوم عظيم هو الذي لا يخاف أي عصيان مهما وحد اللّه واعترف به.

ذلك، وكما ليس له الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله، كذلك ليس له أن يتخلّف قيد شعرة عن سنته الموحاة إليه في

---

[١]). كما في الأكثرية المطلقة في الآيات التي تحمل لفظ القرآن وهي (٦٨) آية.

[٢]). سورة التوبة ٩:١١١.

[٣]). سورة الشورى ٤٢:١٣.

[٤]). سورة المؤمنون ٢٣:١٧.

[٥]). سورة الأنعام ٦:١١٥.

تقرير مصير أو إقرار خلافة بعده أماهيه[1].

وهكذا إستمرت منه «إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم» بعد الفتح كما قبله خلافا لما يروى[2] إذ لا يعني «ذنبك» عصيانا حتى لا يخاف عذابا عليه بعد الفتح بما ضمنته آية الفتح! وليس مصدر أشباه هذه المختلفات الزور إلاّ الجهل بمغازي القرآن، أو العناد.

وهنا «قرآن» تشمل إليه السنة لأنّها واجبة الإتباع بنصّ القرآن، فقاطع السنة كقاطع الكتاب هما واحد في حق الوحي قد يعبّر عنها بـ «قرآن» مهما كان قرآن الوحي الأصيل هو هذا القرآن وعلى هامشه قرآن الوحي السنة، مستفادا من حروف رمزية له صلى‌الله‌عليه‌وآله.

والرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله غير مخول إليه أي تبديل لأي وحي، و«أن أبدله من تلقاء نفسي» لا يعني ـ فقط ـ تبديلاً دون تخويل، بل وتبديل التخويل فإنّه أيضا من تلقاء نفسه، لأنّ تبديل القرآن ـ على أية حال ـ هو من الإختصاصات الربانية.

وقولة القائل: إن الله فوض إلى رسوله تبديلاً في أحكامه، سنادا إلى روايات مختلقات، ليس لتعارض نص القرآن حيث يجتث عن موقف الرسالة أي تبديل ولو كان بإذن الله! اللّهم إلاّ أن يبدل الله بما يوحي إليه، فليس ـ إذا من تلقاء نفسه، وأمّا إذا بدل الرسول من تلقاء نفسه مأذونا وسواه، فقد تشمله «من تلقاء نفسي».

أجل، فكما أن الربوبية الإلهية مختصة في الأصل بربّنا ولا تتعدد أبدا، كذلك هي ليست لتقبل التفويض، فإنه تقويض لساحة الربوبية، وتبعيض لها بينه وبين خلقه.

ولو أمكن أن يخلق الله إلها ثانيا، لكان بالإمكان أن يأذن في ربوبية ثانية!

والولاية الطليقة تكوينية وتشريعية هي من ميزات الربوبية الوحيدة غير الوهيدة، فإنّها لا تقبل وكالة أو نيابة أو خلافة أو تفويضا.

ذلك، وكل التنديدات بالمشركين في آياتها هي تأكيدات على عدم إمكانية ـ فضلاً عن وقوع ـ لانتقال الربوبية إلى خلق أيا كان وأيان.

وليست الرسالة من شؤون الربوبية حتى يتنقض بها هذه الضابطة السلبية، إذ ليس الله رسولاً، فإنّما الرسالة كما العبودية هي من اختصاصات الخلق بما قرّر الله أو قدر، فالعبودية حاصلة دون حدّ، والرسالة تحصل بما يحدّد الله.

فانتقال الربانية في أي حقل من حقولها مستحيل، كما ولا يُنتقل من الله شيء فيما يخلق، إذ لم يلد ولم يولد.

ولو أن الربانية تنتقل إلى غير الرب فهي ـ إذا ـ حادثة، إذ كلّما في الخلق بحذافيره هو حادث ليس إلاّ، فترى أن ولاية التكوين والتشريع التي هي من شؤون الربوبية الأصيلة، كيف تنتقل بوكالة أم نيابة أم خلافة إلى رسل، ليسوا إلاّ حملة أحكام الله، فليس من تلقاء أنفسهم شيءٌ في حقل الرسالة ولا نقير.

ذلك، فليس انتقال الربانية مستحيلاً ـ فقط ـ في حقل التجافي عنها، بل وخلق مثلها في الخلق، إذ كما أن الربانية الإلهية غير مخلوقة، لا بدَّ وأن تكون مخلوقة وذلك تناقض بيِّن، والمخلوقة منها ليست ربانية، بل هي مربوبية لا تعمل عمل الرب، سبحانه وتعالى عما يشركون.

---

[1]). نور الثقلين ٢:٢٩٦ عن تفسير القمي حدثني الحسن بن علي عن أبيه عن حماد بن عيسى عن أبي السفاح عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام في قوله اللّه عزّ وجلّ: «ائت بقرآن غير هذا أوّ بدله» يعني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام وعن تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه‌السلام في الآية: قالوا لو بدل مكان علي أبو بكر أو عمر اتبعناه، وعن أصول الكافي عن مفضل بن عمر قال: سألت أبا عبد اللّه عليه‌السلام عن هذه الآية قال: قالوا: أو بدل عليا.

[2]). وهي ما رواه العياشي عن منصور بن حازم عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال: ما ترك رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: «إني أخاف...» حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام.

إذا فالولاية التكوينية والتشريعية، هما كسائر الربوبيات الإلهية خاصّة باللّٰه تعالى لا تعدوه إلى سواه، إذ لا إلـه إلاّ هو ولا ربّ سواه وليس كمثله شيءٌ.

فلو أن خلقا من خلقه خول إليه شأن من شؤون الربوبية خلقا لذلك الشأن لكان لربوبيته مثيل!

ذلك، والأفعال بين أطوار ثلاثة:

١ ـ خاصة باللّٰه قضية خاصة ربوبية اللّٰه، كالخلق الأوّل لا من شيءٍ وسائر الخلق دون أسباب خلقية متعوَّدة، سواء أكان ـ فقط ـ بسبب الإرادة الخالقية، أم بطي الأسباب طيا ودرجها في سرعة زمانية أو مكانية أما هيه، ليست في حول الخلق وقوتهم أبدا.

ومن ذلك التشريع حيث يحتاج إلى طليق العلم بكلّ الكائنات دون إبقاء، والعلم بصالح المكلّفين دون اي خطاءٍ قصورا أو تقصيرا، فكما العلم الطليق والقدرة الطليقة لا يقبلان التنقل من اللّٰه إلى سـواه تجافيـا أم خلقـا لهـما في الخلق فكذلك التشريع.

كما وأن الخلق لا من شيءٍ أو خلق شيء من شيءٍ ـ كحق الخلق ـ يحتاج إلى طليقهما، ولذلك لا ينتقل إلى من سوى اللّٰه.

٢ ـ ثم خاصة برسل اللّٰه رسالة ربانية من اللّٰه، وحيا يوحى إليهم، أم آيات تظهر بإذن اللّٰه على ألسنتهم أو أيديهم أمّا أشبه من مظاهر أفعالهم قرينة بفعل اللّٰه الآية.

٣ ـ ومن ثمّ عامة مهما اختلفت مراتبها من حيث الذرايع المحتاجة إلى مختلف المسـاعي والقـدرات في الخلائـق، فالمخترعون والمكتشفون لهم حظوة أكثر ممّن سواهم، وهكذا الأمر بينهم أنفسهم وبين من سواهم أنفسهم.

فرسل اللّٰه لايملكون من اللّٰه مثيلاً من الأوّل الخاصّ باللّٰه، فإنّه شركة مع اللّٰه تخويلاً وتوكيلاً وتفويضا، تجافيا أم خلقا فيهم مماثلاً لما عنده، وهم ليسوا إلاّ حملة وحي اللّٰه بلاغا إلى عباد اللّٰه، كما ولا يملكون وحي اللّٰه إجتلابـا واجتـذابا من اللّٰه، فإن رسالاتهم ليست إلاّ من اللّٰه، فكذلك مادة الرسالة وهي الوحي، وآيتها وهي آيات رسالاتهم.

لذلك ترى عشرات من الآيات المستعرضة لرسالاتهم وآياتها، تفصل بينهم وبين العلم والقدرة في حقل رسالاتهم وحيا بآيات رسالاتهم إثباتا لها.

وعلى آية حال ليس الرسل آلهة آخرين غير اللّٰه، مستقلين أمام اللّٰه، أو مستغلين تفويض اللّٰه لكي يفعلوا ما يفعله اللّٰه، إنّما هم رسل يحملون أحكام اللّٰه إلى عباده دون شطر كلمة أماهيه من تلقاء أنفسهم.

فسواء أكان التلقاء مستقِلاً، أو مأذونا مستغَلاً، فإنّه على أي الحالين تلقاء، و«قل ما يكون لي أن أبدلـه مـن تلقـاء نفسي» تعم أي تلقاءٍ، مالم يكن بوحي خاص ناصّ من اللّٰه في كل جليل أو قليل: «إن اتبع إلاّ ما يوحى إليّ» فاتباعه نفسه في تشريع أم تبديل لحكم وسواه من الوحي خارج عن الحصر.

ثم الرسول الذي لا يُسمح له أن يحرك لسانه بتفصيل القرآن بعد معرفة إجماله: «لا تحرك له لسانك لتعجـل بـه»[1] «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه»[2] أنَّى لهذا الرسول أن يـأتي بغـير هـذا القـرآن أو يبدلـه بصـياغته اللفظية والمعنوية، المتحدى بهما على العالمين؟!

ذلك، وكيف يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي وأنتم تشكون مفترين علي فيما يبدله اللّٰه من آية: «وإذا بـدلنا آيـة مكان آية واللّٰه أعلم بما ينزل قالوا إنّما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون»[3] فـ «ما ننسخ من آية أو ننسها نـأت بخـير

---

[1]). سورة القيامة ٧٥:١٦.

[2]). سورة طه ٢٠:١١٤.

[3]). سورة النحل ١٦:١٠١.

منها أو مثلها...»[١].

«قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ»[٢].

إجابات أخرى عن شطحاتهم المقترحات «قل لو شاء اللّه ما تلوته عليكم..» فـ «لو» تحيل إيجابية المشيئة الإلهية في عدم تلاوته عليهم، تأشيرا عشيرا بواجب هذه التلاوة الرسالية، فإن طبيعة وحي القرآن هي الجماهيرية الشاملة كلّ المكلّفين، كيف وهذه التلاوة هي أصل الرسالة وأثافيُّها بعد التوحيد: «إنّما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة التي حرمها وله كلّ شيءٍ وأمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فقل إنّما أنا من المنذرين»[٣].

ثم «ولا أدراكم» اللّه «به» أنّه منه بآياته الدالة عليه وأنّه ما هو رضاه منكم[٤] فقد أدراكم به كأصل بما تلوته عليكم، وكفرع بما علمتكم إياه بوحيه الخاص، فمشية اللّه في تلاوته عليكم وأنّه أدراكم به هما دليلان باهران على أنّه هو الهدى دون سواه، غيارا به أو تبديلاً له ولا كلمة واحدة او حرف او نقطة او اعراب واحد، او غيار مكانة او مكان.

ومن ثمّ يجتث جذور افترائه إيّاه على اللّه بعد شهادة آياته أن «فقد لبثت فيكم عُمُرا من قبله» أمينا لا أخونكم أفأخون بعد ذلك امرَ ربي؟ و«عمرا من قبله» لا أدري منه شيئا ولا تعلمت من أحدا علما فكيف جئت بهذا القرآن العظيم من تلقاء نفسي؟

فإن كان القرآن من عند اللّه كما تشهد آياته فكيف آتي بقرآن غير هذا أو أبدله «قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي..» ولو كان من تلقاء نفسي فلن آتي بغيره كما أتيت به أو أبدله، وان افتريه على ربي «فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون».

فقد استأصلت هذه البراهين الباهرة الساطعة كلّ جذور التشكيكات حول كيان القرآن، أنّه من تلقاء نفسه صلى‌الله‌عليه‌وآله فليغيره أو يبدله، أم من عند اللّه فليجبنا في اقتراحنا إن كان أنزله لصالحنا، وكلاهما افتراءٌ على اللّه أن يتلوا عليهم قرآنا من تلقاء نفسه ويفتريه على اللّه، أم من اللّه ثمّ يفترى على اللّه أنّه قد يغيره أو يبدله بهذه التطلبات، ويكأن اللّه يشرع شرعته حسب مرضاتهم أولئك الحمقاني الأنكاد.

وهنا «عمرا من قبله» وهو أربعون سنة، ممّا يدل على أنّه متوسط العمر وكماله وأن الذي يعيش ذلك العمر على وتيرة خاصّة، ليس ليبدلها إلى ما يضادها، ولا سيّما الأمين الذي لم يخن الناس قبل دعوى الرسالة، فمحال أن يخون ربّه بعد دعواها، ولو كان ممّن يخون اللّه لكان يدعي الألوهية حيث القرآن آية ألألوهية الصادرة عنه، دون أن يتنازل عمّا يمكنه إلى رسالة لا يملك إلاّ بلاغها من اللّه إلى العالمين!

أجل «عمرا من قبله» وما أدراك ما ذلك العُمر المعمَّر من قبل اللّه، المدمّر من قبل جوّه الذي ولد فيه وعاشه في ظاهر الأمر، وعين اللّه ترعاه طيلة طفولته حتى شبابه وحتى آخر عمره...

محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله يتيم مكة الجدباء، حيث لا ماء فيها ولا كلاء، الفقيرة ماديا ومعنويا، اللاهية الرمضاء، الصعبة المعاش، المعتمدة على بلاد أُخرى في بلغة العيش.

---

[١]). سورة البقرة ٢:١٠٦.

[٢]). سورة يونس: ١٦.

[٣]). سورة النمل ٢٧:٩٢.

[٤]). المفعول الثاني لـ «ادراكم» محذوف معروف من سوق الكلام أنّه تعالى أدراكم كيان القرآن وأدراكم شرعة الحقّ فيه، أدراكم به، فإنّه برهان البراهين كما وانّه برهان على رسالة من جاء به «يس*. والقرآن الحكيم * إنّكَ لمن المرسلين».

نشأ لا كما ينشأ سائر الطفولة، فقد فقد أباه وهو جنين، أرهق الحزن أمه آمنة إثر وفاة زوجها، فهي ـ إذا ـ غير آمنة على أريحية حياتها وحياة طفلها، وقد جف ثديها فارتضع من حليمة السعدية.... وماتت آمنة ولما يبلغ محمد الثامنة، فكفله جده عبد المطلب، وبعد أن مات كفله عمه أبو طالب....

وحين يترعرع ببالغ الصباوة وحالق الشباب يرى المجتمع المكي متصدعا يعيش في تناقض وتباغض طبقي، يرى حفنة من الناس أغنياء أثرياء يسكنون الراقيات ويأكلون بصحاف ذهبية وفضية، ويملكون الألوف ومشيدة القصور ومكثفة الحور، ويملكهم كل غُرور الغَرور.

ويرى بجنبهم «الأذلة» وهم السواد الأعظم من أهل مكّة، الذي مزقهم الإستبداد، ومحقهم، فمنهم الصعاليك وذؤبان العرب ولصوص البادية وعصابات سوءٍ ومنهم... طعامهم الجوع، او من ورق الأشجار ولحاءها.

فالصورة مخيفة مثيرة لمعدن الغيرة المحمدية، فهو ـ إذا ـ مستعدّ لتصفية الجو، مستمدا من وحي الرحيم الرحمان «فبأي آلاء ربّكما تكذبان»؟

ذلك عمرٌ من قبل الرسالة، حارسا على هذه الأحوال الأهوال، غير دارس في المدرسة المكية ولا قارىء، حيث لا دراسة ولا قرائة، اللّهم إلاّ تكلبات وهمجيات، وتصلبات على جاهليات، ثمّ طلع طلوع شمس الرسالة الأخيرة من مشرق أم القرى، مشرقة على كافة العقول والقلوب ما لم يأت له مثيل.

«فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ»[1].

فالمفتري على اللّه كذبا أنّه أوحي إلي ولم يوح إليه بشيء: «ومن أظلم ممن أفترى على اللّه كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه بشيء»[2]ـ إنه من رؤوس زوايا الظلم.

وكذلك الذي «كذب بآياته» رسولاً بغير وحي اللّه، يغيره أو يبدله من تلقاء نفسه، أم غيره من هؤلاء الذين يكذبون بآيات اللّه، أم يفترون على اللّه أن لم يوح بشيء: «وما قدروا اللّه حقّ قدره إذ قالوا ما أنزل اللّه على بشر من شيء»[3] ـ «إنّه لا يفلح المجرمون» وقد أفلحتُ أنا حيث قمت بأمر هذه الرسالة القمة الشاملة لوحدي وأخذت تنموا وتربوا، فلو كنت مجرما في دعوى هذه الرسالة، أو كنت أجرمت في رسالتي على اللّه لكان اللّه يأخذني باليمين قضيةَ ضرورة الحكمة الربانية، وصدا عن الإغراء بالجهل: «فلا أقسم بما تبصرون* وما لا تبصرون* إنّه لقول رسول كريم* وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون* ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون* تنزيل من رب العالمين* ولو تقول علينا بعض الأقاويل* لأخذنا منه باليمين* ثم لقطعنا منه الوتين* فما منكم من أحد عنه حاجزين»[4].

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»[5].

اترى ما هو «لسان قومه»؟ هل هو لغتهم التي بها يتكلّمون[6]؟ واولوا العزم من الرسل ارسلوا إلى العالمين بختلف

[1]). سورة يونس: ١٧.

[2]). سورة الأنعام ٦:٩٣.

[3]). سورة الانعام ٦:٩١.

[4]). سورة الحاقة ٦٩: ٣٨ ـ ٤٧.

[5]). سورة ابراهيم ١٤:٤.

[6]). الدر المنثور ٤:٧٠ واخرج احمد عن ابي ذر قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لم يبعث اللّه نبيا الاّ بلغة قومه.

لغاتهم، مهما كان الموارد الأولى لدعواتهم قومٌ واحدٌ هم عائشوهم، ولكنّهم كبداية الدعوة، ثمّ منطلقها إلى سائر المكلفين، وهم جميعا قومهم المرسل اليهم!

ام «قومه» هم قوم هذا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فما ارسل من رسول إلاّ بلسانهم العربي وهم كانوا يترجمونها إلى لغات اقوامهم؟[1] ولم يسبق للرسول ذكر حتى يرجع إليه ضمير «قومه»! وحتى لو ذكر فلماذا «بلسان قومه» دون وهو اعرب العرب! ثمّ ولا تمت «ليبين لهم» بصلة إلى اللغة العربية حيث البيان لا ينحصر فيها.

ام «قومه» هم قوم كلِّ رسول، في رسالة خاصة كالرسل الفروع، أم عامة كاولي العزم من الرسل ولكن «قومه» في هؤلاء هم الذين نشأ فيهم دون سائر العالمين مهما كانوا قومه في البُعد الرسالي!

فموسى يُرسَل بلغة قومه الإسرائيليين: العبرانية، ثمّ ويدعوا مَن سواهم من قبط الفرعونية وسآئر المكلّفين بمختلف لغاتهم، ومحمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله يرسل بلغة قومه العرب وهو يدعوا قومه الرسالي وهم كافّة المكلّفين.

ولوط يرسل بلسان قومه من كلدة وهم سريانيون، ثمّ ويرسل إلى المؤتفكات العبرانيين.

ذلك، ولكن «ليبين لهم» لا تناسب لغة القوم الاول لكل رسولٍ، حيث البيان الرسالي لا تخص من نشأ فيهم الرسول، فكل المرسل اليهم أيا كانت لغتهم وفي اي زمان او مكان، يستحقون ذلك البيان، فهم كلهم قومه، مهما قام من قوم خصوص لهم لغتهم وعاداتهم!

ثم و«لتخرج الناس من الظلمات إلى النور» بالقرآن، ليست لتعني الاّ اخراجا ببيان القرآن، وهو عربيا ليس إلاّ بيانا للعرب دون سائر العالمين!

«لسان قومه» قد لا تعني لغة قومه مهما شملت لغتهم، وإنّما هو البيان الذي يفهمون، سواءً اكان بلغتهم ام ترجمة لها إليها، فإنّما المعنى المستفاد منها هو الواضح المبين، الساذج الناضج المناسب لافهامهم.

فقد تكون الرسالة بلغتهم ولكنها مغلقة غير مفهومة، تعبيرا ام معبّرا عنه، حيث لا توافق حاجياتهم مهما فهموها، ام توافق ولكنّهم ليسوا ليفهموها، فهذه الرسالة هي بلغتهم وليست بلسانهم.

وامّا الرسالة بلسانهم، فهي المفهومة لديهم وان بوسيط الترجمان، المقبولة لديهم حيث يناسب حاجاتهم، وكما نرى في هذه الرسالة السامية «فانّما يسّرناه بلسانك لتبشر به المتّقين وتنذر به قوما لدا»[2] «فإنّما يسّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون»[3] فالتبشير والانذار والتذكار ليست على اساس اللغة في متهافت حالاتها ودلالاتها، وإنّما هو «لسانك»: لسان القرآن: عربي مبين، بلسان نبي القرآن، لسان ميسّر تذكارا وتبشيرا وانذارا لمن يتحرى عن الهدى، ولا يتردى في الهوى.

فقد نزل القرآن بلسان قوم الرسول الخاتم، وهم مختلف الاقوام بختلف اللغات والافهام في طول الزمان وعرض المكان، فكلّ من يبلغه القرآن ببيان نبي القرآن يتذكر به ويُنذر ويبشّر، إلاّ من استحبّ الحياة الدنيا على الآخرة فاستحبّ الكفر على الايمان واتبع هواه وكان أمره فرطا «الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا».

فليس لسان هذه الرسالة ان يخاطب كلّ قوم بلغتهم، وإنّما بلسانهم الذي يفهمون، ان عربيا فبنفسه، وان اعجميا

---

[1]). نور الثقلين ٢:٥٢٥ ح٤ عن الباقر عليه‌السلام قال: ما أنزل اللّه تبارك وتعالى كتابا ولا وحيا الاّ بالعربية فكان يقع في ما مع الانبياء عليهم‌السلام بالسنة قومهم وكان يقع في مسامع نبينا بالعربية فإذا كلم به قومه كلمهم بالعربية فيقع في مسامعهم بلسانهم وكان احد لا يخاطب رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله باي لسان خاطبه الاّ وقع في مسامعه بالعربية كلّ ذلك يترجم جبرئيل عليه‌السلام عنه تشريعا من اللّه عز وجلّ له صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[2]). سورة مريم ١٩: ٩٧.

[3]). سورة الدخان ٤٤:٥٨.

فبترجمته او ترجمانه، ثمّ وعلى كافة المرسل إليهم ان يتعلموا لغة القرآن، لكيلا يحيدوا عمّا يحويه، في ترجمة زائفة ام ترجمان زائغ، مهما كان التقليد للأورع الأعلم فيه الكفاية لمن لم يتعلم، ام تعلم اللغة ولم يمعن في معانيها ومطاويها.

ولأن «قومه» اخص من «امته» فقد يعني المحطّة الأولى لدعوة كل رسول، وهو بطبيعة الحال قومه الذين نشأ منهم ونما فيهم، «بلسان قومه ليبين لهم» ثمّ هم يحملون ما بُيِّن لهم لسواهم بنفس اللغة لاهلها، وترجمة لها لسواهم، فالبيان ـ اذا ـ عام موقفه الاوّل قوم كل رسول.

ثمّ وليس من المفروض أن يدعوا الرسول كلّ المرسل اليهم بنفسه، فانها دعوة مستحيلة، ولا سيما بعد ارتحاله إلى رحمة ربّه[1].

ومن ثمّ فعلى حملة رسالته من خلفائه المعصومين وسائر الفقهاء في الدين أن يحملوها على ضوء القرآن والسنة وإلى كافة الأرجاء والأصقاع، إذا فلا تعارض بين رسالته للعالمين، ورسالته بلسان قومه في تقدير الله وواقع الحياة الرسالية.

«فيضل الله من يشاء» عن أية رسالة في زمنها «ويهدي من يشاء» فمن شاء ضلاله شاءه الله ومن شاء هداه شاءه الله، فـ «من يشاء» تعم المشيئتين حيث الخلقية منها تتبنى الخالقية «وان ليس للانسان الاّ ما سعى» و«من يشاء» هنا تعم المشيئتين البشرية والإلهية، فمن يشاء الضلال شاءه الله، ومن يشاء الهدى شاءها الله، والمشيئة البادية الإلهية هي الهادية، حيث أرسل رسله لها، وقدم مقدمات صالحة للسالكين فيها.

ثمّ هو يتبع مشيئات المكلّفين تخييرا دون تسيير «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».

«من العزيز الحكيم» في ارساله رسله ومشيئته لإضلال من ضل وهدى من اهتدى، فإنّها ليس بعزة دون حكمة، ان يرسل دون حكمة، او يضلّ ويهدي دون حكمة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[2].

اترى ما هي ايام الله؟ والايام كلّها لله! إنّها الايام التي يبرز فيها حكم الله إذ لا حكم فيها إلاّ لله، سواء فيها ايام الفرح والترح، وهما قبل الموت ام بعده، فمما بعده يوم البرزخ ويوم القيامة وكما تعنيهما فيما تعنيه آية الجاثية: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون ايام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون﴾[3]

---

[1]). نور الثقلين ٢:٥٢٥ ح٥ عن عبد اللّه بن بكير الرجائي قال: قال الصادق جعفر بن محمد عليه‌السلام اخبرني عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله كان عاما للناس اليس قد قال اللّه في محكم كتابه «وما ارسلناك الاّ كافة للناس» لاهل الشرق والغرب واهل السماء والارض من الجنّ والانس هل بلغ رسالته اليهم كلّهم؟ قلت: لا ادري، قال عليه‌السلام: يا ابن بكير ان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله لم يخرج من المدينة فكيف بلغ اهل الشرق والغرب؟ قلت: لا ادري، قال عليه‌السلام: ان اللّه تبارك وتعالى امر جبرئيل فاقتلع الارض بريشة من جناحه ونصبها لمحمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله وكانت بين يديه مثل راحته في كفه ينظر الى اهل المشرق والمغرب ويخاطب كلّ قوم بالسنتهم ويدعوهم إلى اللّه وإلى نبوّته بنفسه فما بقيت قرية ولا مدينة إلاّ دعاهم النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بنفسه» اقول: وهذا بيان لواقع الدعوة الواسعة في هذه الرسالة لا أنّ الرسول بالفعل دعى المرسل إليهم كلّهم، اللهم إلاّ بما يحمله حملته إلى الناس كافة.

[2]). سورة ابراهيم: ٥.

[3]). سورة ابراهيم: ١٤.

وممّا قبله يوم الرجعة وهذه الثلاثة[1] هي الايام الرئيسية من ايام اللّه، ومن ثمّ ايام الرحمة والعذاب التي يبرزان فيها إنّهما من اللّه دون سواه، فهما نعماءه وبلائه ببلائه سبحانه»[2].

فمن ايام العذاب يوم عاد وثمود وقوم نوح واصحاب الرس ويوم فرعون والمؤتفكات والذين من بعدهم، كما ومن ايام الرحمة يوم نوح بسفينته ويوم ابراهيم بناره ويوم موسى بتابوته في يمه، ويوم عيسى إذ شبه به عدوه، ويوم محمّد في ليلة المبيت والغار وايام اخرى تترى تلو بعض للصالحين من عباد اللّه الظاهرة فيها رحمة اللّه كما ظهرت هنالك نقمته للطالحين.

فهنالك التذكير بايام نقم اللّه التي اوقعها بالماضين، والايام التي انعم اللّه عليهم فيها وعلى الماضين بوقم الاعداء وكشف اللأواء، واسباغ النعماء، فالايام اذا تذكر لمن أراد ان يتذكروا وظن نشورا.

ولخاصة بني اسرائيل ايام النعم والنقم من بأسهم بفرعون وسوء عمله، وبأس فرعون في غرقه بسوء عمله، المسرودة كاملة في الذكر الحكيم.

فذلك التذكير لقوم موسى يعم الانذار والتبشير وكما لكلّ قوم يعيشون افراحا واتراحا ملموسا لهم ام في التاريخ.

«ان في ذلك لآيات لكلّ صبار شكور» صبرا على نعمته فلا يزهوا وعلى نقمته فلا يشكوا!

حول النسخ

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[3].

التسوية بين قبيلي الكفر في «ما يودُّ» تنديدة شديدة بكفار أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بهذه الرسالة السامية، فـ «ما يودُّ» فيهم، لها صبغة عنصرية إسرائيلية و«ما يود» في المشركين، لها صبغة الجهالة القاحلة، المستبعدة في الأصل أن ينزل الوحي على بشر، «واللّه يختصّ برحمته من يشاء» دون حبس لها وقصر على أهواء أولاء وهؤلاء، «واللّه ذو الفضل العظيم» دون ما يزعمونه من فضل محدَّدٍ محدود، أم فضل عميم لا يختصّ بأحد، وجوابا عن نسخ آية رسالية أو إنساءِها:

[1]). نور الثقلين ٢:٥٢٦ عن الخصال عن مثنى الحناط قال سمعت ابا جعفر عليه‌السلام يقول: ايام اللّه يوم يقوم القائم ويوم الكرة ويوم القيامة، وروى القمي في تفسيره قال: ايام اللّه ثلاثة: يوم القائم ويوم الموت ويوم القيامة.

[2]). المصدر عن امالي الطوسي باسناده إلى ابي جعفر عليه‌السلام قال حدثني عبد اللّه بن عباس وجابر بن عبد اللّه الأنصاري ان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال في قوله عزّ وجلّ «وذكرهم بايام اللّه...» ايام اللّه. وعن العياشي بسنده عن ابي عبد اللّه عليه‌السلام في الآية قال: بآلاء اللّه يعني بنعمته.

[3]). سورة البقرة ٢:١٠٥.

«مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[1].
وهذه ـ في وجه ـ نظيرة آية النحل «وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنّما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون»[2].
وقد تعني آية البقرة من «آية» ما هي اعم من آية النحل، من آية تحمل حكما أو أحكاما، إلى آية الرسالة في أصلها، وآية الرسول، فهي ـ إذاـ مثلث الآية دون اختصاص ببعضها، والأنسب للمقام هما الأخيران، إلاّ أن يُعنى من آية الحكم كلّ كتاب الوحي: القرآن، الناسخ لما بين يديه في أحكام.
وعلى أية حال فلا تعني «أو ننسها» ـ فيما تعني ـ إنساءَ آية عن خاطر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله مهما كانت منسوخة الحكم[3]، إذ سبقتها مكية كافلة لعدم نسيانه أيّة آية: «سنقرئك فلا تنسى» إقراءٌ رباني يضمنُ ألاّ ينسى ما أُقرِءَ، و«إلاّ ما شاء الله» راجع إلى «سنقرئك» دون «تنسى»، كما فصلناه في محله.
هنا يخرّ سقف المختلقات الزور من آيات يدعى أنّها كانت من القرآن ثمّ نسخت أو أُنسيت عنه وعن خاطر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ يخر سقفهم من فوقهم وينهد صرحهم[4].
«آية» هنا هي آية الرسالة والآية الرسول، ام وآية تحمل حكما، ونسخ الآية الأولى وإنساءِها هو نسخ الآيات المعجزات البصرية، حيث نسخت بآية القرآن بصيرةً خالدة تمشي مع الزمن، والقرآن الآية خير من كلِّ آيات الرسالات صورة ومادةً ومدةً، نسخت تلكم الآيات وأنْسَتْها، وكما نجد القرآن في عشرات من آياته يتحدى الناكرين بنفسه، ويجعله كافية عن سائر الآيات الرسالية: «أو لم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم..»!
كما وأن الآية الرسولية محمدا صلى‌الله‌عليه‌وآله نسخت الرسل السابقين أو أنستهم، لأنّه جمع كلَّ فضائل الرسل والرسالات وزيادات، لحدٍّ هم يُعتبرون تَقدِمات لمجيء هذا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، كما يُعتبر وحيهم الرسالي بجنب وحيه وصيةً.

---

[1]). سورة البقرة: ١٠٦.

[2]). سورة بقره: ١٠١.

[3]). ومن الاسرائيليات المختلفة الزور هنا ما في الدر المنثور ١:١٠٤ ـ اخرج جماعة عن ابن عباس قال: كان ممّا ينزل على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله الوحي بالليل وينساه بالنهار فانزل اللّه: «ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها» وفيه عن قتادة قال: كانت الآية تنسخ الآية وكان نبي اللّه يقرأ الآية والسورة وما شاء اللّه من السورة ثمّ ترفع فينسها اللّه نبيه فقال اللّه يقص على نبيه: ما ننسخ..

[4]). كما في الدر المنثور ١:١٠٥ ـ اخرج جماعة عن ابي موسى الاشعري قال: كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدّة ببراءة فانسيتها غير اني حفظت منها «لو كان لابن آدم واديان من مال لابغى واديا ثالثا ولا يملأُ جوفه الاّ التراب، وكنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات اولها: سبح للّه ما في السماوات، فأنسيناها غير اني حفظت منها: «يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة» وفي نقل آخر عن ابي موسى نفسه: قال: نزلت سورة شديدة نحو براءة في الشدة ثمّ رفعت وحفظت منها: إنّ اللّه سيؤيد هذا الدين باقوام لا خلاق لهم، وفيه عن ابي واقد الليثي قال: كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله إذا اوحى اليه أتيناه فعلمنا ما اوحي إليه، قال: فجئته ذات يوم فقال: إنّ اللّه يقول: إنّا انزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكوة ولو أنّ لابن آدم واديا لأحب أن يكون له الثاني ولو كان له الثاني لاحب إن يكون إليهما ثالث ولا يملأُ جوف ابن آدم إلاّ التراب ويتوب اللّه على من تاب. ولقد نسب إليه فيما يروي عن بريدة أنّه قرء هذه الجملات في صلاته كأنّها آيات؟!
اقول: وحتى الطفولة في معرفة القرآن تضحك على هذه العبارات، فاين هي في الفاظها ومعانيها من القرآن. إنّ هي الاّ اسرائيليات تعني للقرآن ما عُني لكتاباتهم المحرفة!

ثمّ الآيات الأحكامية الناسخة في القرآن ـ وهي قلة قليلة ـ قد اتى الله بها خيرا من المنسوخة او مثلها في الأثر الصالح للامة الأخيرة، وقد يجري ذلك في آيات الإمامة إلاّ في الإنساء فانهم معروفون على مدار الزمن، وقد يصدّق «بخير منها» في صاحب الأمر، كـ «مثلها» في سائر الائمّة خلفا لسلف[1].

ثمّ الآيات الرسالية قبل القرآن، هي كذلك، لا تأتي آيةٌ لاحقة منها إلاّ ناسخةً للسابقة او مَنسِيَةً، وهي خير منها او مثلها، والقصد من الآية الرسالية تثبيت الرسالة، كلٌّ حسب المقتضيات والمصالح التي قد لا يعلمها إلاّ الله، فليست الآية الرسالية ـ وكما الرسولية ـ لتُحصرَ في واحدة، وتُحسر عن سواها، بل هي محلِّقة على كلّ ما هو الأصلح للرسل والمرسل إليهم، دلالة قاطعة على رسالاتهم.

وهنا مقابلة «ننسخ» بـ «ننسها» تجعل النسخ إزالة الحكم مهما بقى في العلم، وتجعل الإنساء إزالة عن العلم كما أزيل حكمه، ومهما عمت «من آية» مثلث الآيات، فلا تعمها «او نُنسها» فقد تُنسى آية رسالية أم رسولية بين أمة لاحقة، ولكن لا تُنسى آية حكمية عن خاطر رسول، حكما له او لمن قبله، ولا سيما محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث «سنقرئك فلا تنسى».

إن مشكلة النسخ كانت مشكلة كتابية اسرائيلية، إحالة له أحيانا، ونكرانا له أُخرى، سواء أكان نسخا لآية رسالية «وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته...»[2].

ام آية رسولية كالرسالة الإسماعيلية الناسخة للرسالات الإسرائيلية، فرغم البشارات المحمدية في كتبهم أنكروه لمّا جاءهم لانّه ليس إسرائيليا.

ام آية او آيات أحكامية، كما القرآن بالنسبة لما بين يديه، والإنجيل بالنسبة للتوراة في أحكام، ولا يعني النسخ الأحكامي ـ وكما النسخ الرسالي والرسولي ـ تجهيلاً لساحة الرب أنّه عَلِم بعد جَهلٍ، إنّما الناسخ بيان لأمد المنسوخ، كما الآيات المنسوخة القرآنية تلمح بنفسها أنّها لأمد سوف يبيَّن[3] فالحكم المنسوخ ان كان محددا بحد معلوم أم غير معلوم، كان الناسخ بيانا للمجهول في غير المعلوم حدّه، وتوضيحا للمعلوم والحكم الآتي بعده.

وإن لم يكن محدَّدا بحدٍّ فهو مطلق فيه، كان الناسخ كتقييد لإطلاقه وقتيا، إذا فلا نسخ في الشرعة ـ في نفسها او لشرعة اخرى ـ بمعنى التعارض، بل هو ـ ككلٍّ ـ بيان لإنتهاء حكم سابق وابتداء حكم لاحق.

وفي «نأت بخير منها او مثلها» برهان قاطع لا مرد له أن الآية الثانية ـ أيا كانت ـ لا تقل عن الأولى ـ بل وقد تزيد، آية رسولية ام رسالية ام أحكامية، فلا يصح القول بتقديم الاقدم من أولى العزم وتفضيله على لاحقة، فإمّا هما على سواء، ام اللاحق خير من سابقه كما يصدق تماما في خاتم النبيين صلى‌الله‌عليه‌وآله.

و«الله اعلم حيث يجعل رسالته» تعم مثلث الرسالة وحيثها وحيثيتها مادة ومدة، عِدَّة وعُدَّة.

«الم تعلم أنّ الله على كلِّ شيءٍ قدير» ومنه مثلث الآيات رسالية ورسولية وأحكامية:

---

[1]). نور الثقلين ١١٥:١ عن اصول الكافي علي بن محمد عن اسحق بن محمّد عن شاهديه بن عبداللّه الجلاب قال: كتب إلي ابو الحسن عليه‌السلام في كتاب: اردت ان تسأل عن خلف بعد ابي جعفر وقلقت لذلك فلا تغتم فإنّ اللّه عزّ وجلّ لا يضلّ قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتّقون، وصاحبكم بعدي ابو محمّد ابني وعنده ما تحتاجون إليه يقدّم ما يشاء اللّه ويؤخّر ما يشاء «ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها. قد كتبت بما فيه بيان وقناع لذي عقل يقظان.

[2]). سورة الأنعام ٦:١٢٤.

[3]). فمثل قوله تعالى: «واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل اللّه لهن سبيلاً» والسبيل هنا هي التي تحملها آية النور: «الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة».

«أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ»[١].
«الم تعلم» فيهما لا تختص بخطاب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله اللهم إلاّ من باب إياك أعنى واسمعي يا جاره، بل هو كلُّ من يأهل لذلك الخطاب العتاب، المعترض على نسخ آية أو إنساءها، او المتلبّك فيه.
«أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ»[٢].
هذه تؤيد أن «من آية» في آية النسخ تعني ـ كأصل ـ آيتي الرسالية والرسولية، إذ كانوا يستبعدون نسخها إلى شاكلة أُخرى غير السابقة المتعوّد عليها في الرسالات، كما و«أم» اضراب عمّا سبق من تساءُلٍ جوابُه آية النسخ، إذ تعنتوا متثاقلين متسائلين في هذه الآية الرسالية والرسولية.
و«كما سئل موسى من قبل» هو مثل سؤال الرؤية: «يسئلك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا ارنا اللّٰه جهرة...»[٣]: «وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى اللّٰه جهرة..» وكما برزت هذه الإرادة السيئة في أسؤلة جاهلة قاحلة من المشركين.

«واذا بدلنا آية مكان آية واللّٰه اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر بل اكثرهم لا يعلمون»
فـ «آية مكان آية» هنا تعني في الاصل الآية الرسولية، الخارقة للعادة، كما تلمح له «قل نزله..» دون «نزلها» حيث يعني القرآن كلّه كآية واحدة رسولية، ولمحة ثانية في ثانيتها: «ولقد نعلم انّهم يقولون إنّما يعلمه بشر..».
فهي ـ إذا كآية البقرة: «ما ننسخ من آية او ننسها نأتِ بخير منها او مثلها»[٤] فقد بدل اللّٰه في هذه الرسالة الاخيرة آية القرآن معجزة عقلية خالدة على مرّ الزمن، مكان آيات الرسالات السابقة كلّها وهي الآيات البصرية العابرة الغابرة دونما استمرار، فلانّهم كانوا معوَّدين على تلكم الآيات ففاجئتهم آية القرآن الخالدة زعموا أنّه ليس آية معجزة: «وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنّما اتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربّكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»[٥] «وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إنّ اللّٰه قادر على أن ينزل آية ولكن اكثرهم لا يعلمون»[٦] «وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل اللّٰه اللّٰه أعلم حيث يجعل رسالته...»[٧] «ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربّه إنّما أنت منذر ولكلّ قوم هاد»[٨].

---

[١]). سورة البقرة: ١٠٧.

[٢]). سورة البقرة: ١٠٨.

[٣]). سورة النساء ٤:١٥٣.

[٤]). سورة البقرة ٢:١٠٦.

[٥]). سورة الاعراف ٧:٢٠٣.

[٦]). سورة الانعام ٦:٣٧.

[٧]). سورة الانعام ٦:١٢٤.

[٨]). سورة الرعد ١٣:٧.

اجل «لكلّ قوم هادٍ» رسولي بمعجزة إلهية تناسبهم، ولا تناسب قوم الرسول محمد ـ وهم العالمون اجمعون منذ رسالته إلى يوم الدين ـ إلاّ آية خالدة مستمرة مع الزمن واهله تكون حجّة لهم وعليهم ما طلعت الشمس وغربت، وهي القرآن العظيم.

إذا فقولتهم الفاتكة «إنّما انت مفترٍ» ليست لنسخ في آيات احكامية لا تعدوا اربعا وليست هي مكية، ولا ان المشركين يعرفونها، فان معرفتها بحاجة إلى سبر في اغوار القرآن، وعيشة دائبة في جو الوحي، بل هي بذلك الحصر والتأكيد الشامل لكامل الرسالة بأسرها، لأنهم لم يعتبروا آية القرآن آية رسولية، ومدعي الرسالة دون أية آية هو بطبيعة الحال مفتر في كلّ ما يحمله زعم الرسالة، ولو كانت هي فقط الآية الناسخة لخصّتها الفرية وانحصرت فيها دون حصر شامل لكلّ ما يفعل او يقول الاّ ناسخة الآيات.

«بل اكثرهم لا يعلمون» ان تبديل آية القرآن مكان سائر آيات الرسالات، إنّه لزام خاتمية الرسالة، واقلهم يعلمون، فهذه القلّة العالمة الناكرة معاندة وهم رؤوس الضلالة، ثمّ وتلك الثلة الجاهلة تقصيرا بتقليدهم اياهم دون قصور، هم أتباع وهوامش الضلالة.

ان المشركين لا يدركون مسؤولية هذه الشرعة الاخيرة والكتاب الاخير لآخر بشير ونذير، لا يدركون انه جاء لإنشاء مجتمع عالمي على مدار الزمن، الرسالة الاخيرة التي ختمت بها الرسالات كلّها، فاذا بدل آية رسولية مكان آية أُخرى انتهى اجلها واستنفدت اغراضها، آية اخيرة هي الصالحة للحالة الجديدة، وكافة الأنسال المتجددة إلى يوم القيامة، إذا بدلت هكذا حكيمة صالحة مصلحة «قالوا إنّما أنت مفتر بل اكثرهم لا يعلمون».

والآية في تفسير شمولي على هامش الآية القرآن، تشمل الآيات الناسخة[1] التي تدفع الناكرين لوحي القرآن على اعتراض: ما ذلك التناقض بين احكامه ان كان من الله؟ «إنّما انت مفترٍ» على الله فإنّه لا يناقض كلامه بكلامه!

ثمّ «قل نزله» يعني تنزيل القرآن كله، ناسخه ومنسوخه قضيةَ المصلحة الوقتية، وسائر القرآن هو أكثريته المطلقة حيث الناسخ ليس إلاّ في آيات اربع ام تزيد.

«قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»[2].

الضمير المذكر في «نزله» راجع إلى «آية» لأنّها القرآن، ولو كان القصد إلى آية ناسخة لكان حقّ التعبير «نزلها»! ثمّ «ليثبت..» لا تمّت بصلة لآية ناسخة فانّها تزعزع ضعفاء الايمان، ويُحيِّر اقوياءه، فضلاً عن المسلمين الذين هم دون المؤمنين.

وترى كيف تكون آية ناسخة مزعزعة لفريق من المؤمنين بشرى للمسلمين، اللهم إلاّ آية القرآن الخالدة، فإنّها تثبيت لايمان المؤمنين على طول خط الزمن الرسالي لخلودها على مرّ الزمن بمُرّ الحق، وبشرى سارة متلاحقة للمسلمين الذين أسلموا ولما يدخل الايمان في قلوبهم: فان مزيد التفكّر فيها والمراس لتدبّر آياتها بُشرَيات تلوَ بعض لكونها آية إلهية منقطعة النظير عن كلّ بشير ونذير.

ثمّ الصيغة الصالحة للنسخ: (وإذا بدلنا حكما مكان حكم) حيث النسبة بين الآية والحكم عموم من وجه لا يجتمعان إلاّ في وجه تحمل كلٌّ من الناسخة والمنسوخة حكما، فقد لا تحمل آية حكما ام تحمل ازيد من حكم.

و«روح القدس» المذكور هنا لا يذكر في سواه إلاّ للمسيح عليه‌السلام في آيات ثلاث «وايدناه بروح القدس»[3] «اذ ايدتك

---

[1]). نور الثقلين عن تفسير القمي في الآية قال: إذا نسخت آية قالوا لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله انت مفترٍ فرد الله عليهم فقال قل لهم يا محمد: نزله... يعني جبرئيل.

[2]). سورة النحل: ١٠٢.

[3]). سورة البقرة ٢:٨٧ و٢٥٣.

بروح القدس»[1].

وهذه الاربع تقول ان «روح القدس» منفصل عن الرسول في الكون، مهما اتصل به في الكيان لإبلاغ الوحي المفصل، فهو ملك الوحي المعبر عنه في سائر القرآن بالروح الامين: «نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين»[2] وروح الله «فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا»[3] وجبريل: «من كان عدوا لجبريل فإنّه نزله على قلبك باذن الله»[4].

و«روح القدس» اضافيا دون «الروح القدس» وصفيا، يبرهن ان جبريل ليس قدسا ملائكيا كسائر الملائكة، بل هو روحهم وسيدهم مهما كان منهم[5]، فكما ان روح محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله هو روح الارواح، وقرآنه روح الارواح، فليكن الملك الحامل لوحيه روح الارواح، ارواح ثلاث في اعلى القمم الروحية تجتمع في الكيان القدسي المحمدي صلى‌الله‌عليه‌وآله، فروحه ـ إذا ـ اقدس الارواح الملائكية والبشرية أما هيه.

ولأن القدس هي الطهارة القادسة، فروح القدس هي روح الطهارة ولها مصاديق ثلاثة: روح القدس الملائكي وهو جبريل، وروح القدس الوحي وهو القرآن، وروح القدس الرسالي وهو صلى‌الله‌عليه‌وآله روح الأرواح الرسالية.

و«نزله» قد تعم ارواح القدس الثلاث إلاّ روح القدس فإنّها منزَّلة لا منزِّلة، ثم هو«القرآن المفصل في «نزله» بين تنزيل فاعلي «من ربك بالحق» وهو جبريل، وتنزيل قابلي هو قلب الرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله.

فكما أنّه لولا تنزيل جبريل من ربّك لم يكن للرسول وحي القرآن المفصَّل كذلك لولا قابلية وجاذبية قلب الرسول لذلك الوحي لم ينزله جبريل من ربك بالحق.

فقد نزل روحَ القدس القرآن، روحُ القدس جبريل فاعليا على روح القدس الرسول قابليا، فاجتمعت ـ إذا ـ ارواح القدس الثلاث في وحي القرآن نازلاً ومُنزِلاً ومَنزِلاً!

«روح القدس من ربك» حيث خلقه وبعثه إليك لحمل الوحي وبلاغه، فـ «روح القدس من ربك» «نزله من ربك» كما «نزله بالحق من ربك بالحق».

وتراه يقول كما امر «نزله روح القدس من ربك بالحق» ام «من ربي بالحق»؟

إنّه بطبيعة الحال لا يقول إلاّ مقالة الرب دون تحويل حتى في قوله «قل» فضلاً عما سواه، و«من ربك» بديل «من الله» للتدليل على بالغ الرحمة والعناية في حقه، وان القرآن يحمل التربية القمة المحمدية، ثمّ الخطاب هنا يعم في توسعةٍ على الأبدال، كافة المخاطَبين بالقرآن، اجل وانّه مسرح القمة التربوية، صاعدة إلى الرسول، ونازلة إلى اقل العالمين تفهما، وبينهما عوان، فانّه رحمة للعالمين كما الرسول: «وما ارسلناك إلاّ رحمة للعالمين».

و«من ربك بالحق» لا منه، ولا هو من عند الرسول نفسه، ثمّ ولا تعنُّتا على الرب ان ينزله، وإنّما «من ربك بالحق»

---

[1]). سورة المائدة ٥:١١٠.

[2]). سورة الشعراء ٢٦:١٩٣.

[3]). سورة مريم ١٩:١٧.

[4]). سورة البقرة ٢:٩٧.

[5]). المصدر في تفسير العياشي عن محمد بن عرامة، الصيرفي عمن اخبره عن ابي عبد اللّه عليه‌السلام قال: إنّ اللّه تبارك وتعالى خلق روح القدس فلم يخلق خلقا اقرب إليه منها وليست باكرم خلقه عليه...

فهو الحق مصدرا وصادرا ومحطة دون أية ريبة.
ولماذا «نزله روح القدس»؟ ألحاجة الرسول إلى وسيط في ذلك التنزيل؟ وهو أعلى محتدا واوسع صدرا من جبريل ومَن فوقه! وقد اوحي إليه ليلة المعراج دون اي وسيط ملائكي وسواه!
كلا! وإنّما ذلك «ليثبت الذين آمنوا» على الإيمان بانّه بشر رسول كما يثبتهم على أنّه آية إلهية، فلو أوحي دون وسيط لخيِّل إلى بسطاء الإيمان أمّن فوقهم معهم أنّه إله، كما قالوا في المسيح عليه‌السلام إذ ولد دون أب، ومعجزة القرآن أغلى بكثير وأقوى من هذه الولادة بسائر الآيات لوليدها وسائر رجالات الوحي.
صحيح ان المؤمنين لم يكونوا ليروا روح القدس، ولكن إخبار الصادق الأمين انّه نزله روح القدس يكفيهم تصديقا لهذا الواقع المكرور طيلة الرسالة، وكما صدقوا رسالته من ذي قبل.
و«الذين آمنوا» هنا تعم من كان يفتش عن ذلك الإيمان قبل وصوله إليه، متثبّتا عنه حتى وصل إليه فثبته على ذلك الإيمان، لأنّ آية إلهية تمس القلوب والعقول، ومن آمن به حيث يزداده ذلك التنزل تدريجيا ايمانا على ايمان، وانّه ليس وحيا لفترة قصيرة قاصرة، وإنّما هو أجزاء متلاحقة لِصقَ بعض نورا على نور، ثمّ والذين يؤمنون بعد ارتحال الرسول، حيث الآية الباقية بعد الرسول تثبيتٌ على الايمان، دون الآية الماضية مع الرسول حيث المؤمن الآتي بعده لا يجد سبيلاً لتثبيت الايمان فضلاً عن بدايته.
ومن ثمّ «وهدى بشرى للمسلمين» الذين اسلموا ولما يؤمنوا، فانّهم يهتدون على نجومه المتواترة المتقاطرة، فلو انزل دفعة واحدة كان عبئا عليهم بل وعلى المؤمنين ايضا.
كما وهم يستبشرون بنجومه العِدَّة تلوَ بعض ولِصق بعض، حيث تزيدهم إسلاما على إسلام ومن ثمّ ايمانا، ثمّ «هدى وبشرى للمسلمين» المتكاملين في الايمان، تسليما لله خالصا دونما أية شائبة.
فـ «المسلمين» هنا تعم مثلث الإسلام، الإيمان وقبل الإيمان وبعد الإيمان في تكامله، ففي أصل نزول القرآن آية معجزة أخيرة، وفي تنزله نجوما هدى متواصلة وبشرى للمسلمين ايا كانوا وايان «فبأي آلاء ربّكما تكذبان»!
ففي تنزيل روح القدس هذه الآية الأخيرة جنبات عدة من المصلحة، لصالح المؤمنين والمسلمين، ذودا عن التبنِّي لله او الإشراك به في سواه، وعن خمول الايمان أم زواله بخمول الآية المعجزة ام زوالها بزوال الرسول.
«وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»[1].
فرية قاحلة خاوية اخرى على رسول الهدى «انّما يعلمه بشر» ومَن هذا الذي يعلمه القرآن ولا يدعيه هو لنفسه؟ واي بشر او غير بشر ممن سوى الله يقدر على ان يأتي بسورة ام آية من نفسه؟ واي بشر او غير بشر ممن سوى الله يقدر على ان يأتي بسورة ام آية من مثله؟ والقرآن بنفسه آية كونه من عند الله: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا»!
ثمّ و«لسان الذي يلحدون إليه» ـ ايا كان سلمان وسواه[2] ـ «اعجمي» فارسي ام رومي، وهو لم يتقن بعدُ اللسان

[1]). سورة النحل ١٦: ١٠٣.

[2]). قيل إنّه سلمان الفارسي كما في الدرّ المنثور اخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عن الضحاك في الآية قال: كانوا يقولون إنّما يعلمه سلمان الفارسي وانزل وقيل كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يعلم قينا بمكة اسمه بلعام وكان اعجمي اللسان فكان المشركون يرون رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا إنّما يعلمه بلعام فانزل اللّه... ـ اخرجه ابن جرير وابن ابي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس.
وقيل هو عبدة بن الحضرمي اسمه عداس وهو صاحب الكتب وقد كان لسانه روميا اخرجه الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس.
وقيل هو مقيس كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يقرءه وهو غلام لبني المغيرة اعجمي ـ اخرجه ابن جرير عن عكرمة، وقيل هو عبد لبني عامر بن لؤي يقال له يعيش وكان يقرء الكتب، وقيل عداس عتبة بن ربيعة، وقيل جبرا إنّه كان يعلم خديجة وهي تعلم محمدا!!!

العربي، فكيف يعلّم محمدا العربي هذا العربيَّ المبين الذي يعجز عن الإيتان بمثله العالمون على أنه آمن في المدينة! والأعجمي مهما اتقن العربي فلا يصل إلى مدرجة التعليم لعربي قاصع متضلع قاطع كمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله مهما ساواه ام ساماه، وحتى إذا تفوقه كمعلم فكيف يؤمن بتلميذه ولا يدعيه هو لنفسه، ام كيف يعلّم هذا العربي المبين؟

هنا القرآن يترك هذه المشاكل واضرابها في هذه الفرية، صارحا في ذلك المسرح اللعين بأوضح المشاكل: «لسان الذي يلحدون إليه اعجمي» فلو كان عربيا ام ذا لسانين عربيا واعجميا لما صح تخصيص لسانه بانّه اعجمي، إلاّ ألا يعرف العربي، ام لم يتقنه بعدُ وهو في طريق تعلُّمه، حيث بالامكان ان يصبح اي اعجمي بارع عربيَّ اللسان، متضلعا متفوقا عربيا أُميا وسواه، كما ان الكثير من ادباء العربية هم من الأعاجم! ولكن الذي لسانه اعجمي ليس بامكانه ان يعلّم ذلك العربي المبين، وهو القمة العليا من الفصاحة والبلاغة، فالفاقد لشيء كيف يعطيه؟!

ثمّ «وهذا لسان عربي» لا كسائر العربية حتى يتمكّن الاعجمي المتضلّع من تعليمه، ام العربي الضالع من تدوينه بل هو «مبين» لمن يتبيّن، أنّه ليس إلاّ من الله، فاين ـ إذا ـ الاعجمي وهذا اللسان العربي المبين؟

ومن اعجب العُجاب ان هؤلاء السبعة المتردد بينهم الذي يلحدون اليه، كلهم عبيد اعجميون، كانوا يتعلمون عند الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ام سواه، ثمّ حماقي طغيان الإشراك ألحدوا إليه هذا العربي المبين، فاين الثرى والثريا، واين الأعجمي القُحُّ من عربي مبين؟

ولماذا هذه الدركة النازلة من حماقة الفرية على رسول القرآن، وهم عارفون لغة القرآن، وهم اخبر ممن سواهم بقيمة هذه القيِّمة في قمّة الفصاحة والبلاغة، فلماذا لم ينسبوه إلى متضلع في العربية، وهم على نخوتهم القومية لا يرتضون تقديم اعجمي على عربي في اللغة؟

هكذا يريد الله ان يفضحهم فيما بينهم وعلى مرّ الزمن، انّهم يلحدون القرآن إلى عبد اعجمي، وهم على نخوتهم وضخامة الفصاحة فيهم عاجزون عن ان يأتوا بسورة من مثله.

فاليوم وبعد ما تقدمت البشرية في فنون الفصحاحة واذواق البلاغة لم تأت بما يسامي القرآن في آية منه وان في لفظه فضلاً عن معناه، وحتى الماديين الملحدين الذين لا يؤمنون بالله، في روسيّا الشيوعية، عندما أرادوا ان يطعنوا في هذا القرآن في مؤتمر المستشرقين عام ١٩٥٤ كانت دعواهم انه لا يمكن ان يكون من عمل شخص واحد ـ ايا كان ـ وهو محمد، بل هو من عمل جموع كبيرة، صرفوا طاقات كثيرة في نضده ونظمه، وانّه لا يمكن تأليفه في الجزيرة العربية القاحلة الجاهلة!

فيا لحماقي الطغيان العرب، والناكرين لهذه الرسالة السامية، من حمق في عمقهم، وخنق وحنق في حلوقهم، ان يخرج منها تلك الفرية الفاضحة «يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره المشركون»!

ولئن قلت: علّهم كانوا يلحدون المعاني القرآنية إلى اعجمي والالفاظ لمحمد نفسه، كما قد تلمح له «انّما يعلمه» حيث التعليم هو للمعاني دون الالفاظ.

فالجواب ان «ه» في «يعلمه» راجع إلى القرآن ككل بالفاظه ومعانيه، والتعليم يعمهما حيث يُتعلم اللسان كما يُتعلم معاني اللسان.

ثمّ الأعجمية راجعة إلى الإلفاظ دون المعاني، فإنّه لسان اعجمي ولغة اعجمية دون معان اعجمية، فما لم تلفظ المعاني فليست هي لا اعجمية ولا عربية، بل هي معان مدلولة بأية لغة كانت.

إذا فعكس الصورة احرى بالشبهة ان التعليم كان في الألفاظ دون المعاني، فالمعاني ـ إذا ـ من محمد والألفاظ من غلام أعجمي، وهنا الجواب أوقع «لسان الذي يلحدون إليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين» اضافة إلى ما طوي عن ذكره في هذه الصورة، ان المعاني القرآنية هي ارقى من ألفاظه، فالعارف بها هو أعرف بالفاظه وهو عربي وذاك اعجمي!

ولكن «إنّما» تحصر تعليم القرآن ككل بـ «يعلمه بشر» فجاء الجواب حسما لمادة الكل!

فهم ـ إذا ـ في أضل الضلال في فريتهم العقيمة الحمقاء، وهذه سنة الله الدائبة:

«إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لاَ يَهْدِيهِمْ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»[١].
«لا يهديهم» إلى آياته إذ زاغوا عنها فأزاغ اللّه قلوبهم، و«لا يهديهم» بأحرى لنقضها، بل ويضلّهم عن شبهات مريبة غامضة فيها، عن ترهات واهيات تفضحهم «ولهم عذاب اليم» في الدنيا ومنه فضحُهُم بما يتقولون، وفي الآخرة بما كانوا يكسبون.
«إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ»[٢].
اترى المفتري الكذب على اللّه هو الرسول المؤمن بآيات اللّه، المتمثلة فيه رسالة اللّه؟ «ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين. ثمّ لقطعنا منه الوتين. فما منكم من احد عنه بحاجزين»[٣]!
ام هم المشركون باللّه، الناكرون لآيات اللّه «واولئك هم الكاذبون».
فهل الحبيب يفتري الكذب على حبيبه ثمّ العدو يصدَّق فيه ويصدِّقه؟ «تلك إذا قسمة ضيزى»!
فإضافةً إلى دلالة القرآن الذاتية على أنّه آية اللّه، فالرسول المؤمن باللّه وآياته، الذي عُرِف منه الصدق مع الخلق قبل رسالته لحد سمي الصادق الأمين، انه هو أصدق مع الخالق بعد رسالته، وبينات صدقه واضحة، وكيف يفتري على اللّه في كتاب يستحيل كونه من عند غير اللّه، ولماذا يفتري على اللّه وهو المؤمن بآيات اللّه، فهل الكافرون بآياته صادقون، والمؤمن بها كاذب مفترٍ على اللّه! «تلك إذا قسمة ضيزى»!
او يعجز اللّه ان يحجز المفتري عليه وحيا رساليا، وذلك الحجز ضرورة تصفوية للرسالات الإلهية؟ وكيف بامكان المفتري ان يأتي بآية الهية قاطعة الدلالة فهو يسامي اللّه في إتيان آية؟
وكيف بالامكان ان هكذا مفترٍ ينسب ما اتى به إلى اللّه إن كان يريد مسًّا بكرامة اللّه، ولا يدَّعيه لنفسه حتى يظهر مساماته للّه؟!
«مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»[٤].
وذلك الكفر الماحق هو اكفر الكفر واسفل دركاته، وهو المضلِّل للبسطاء: أن لو كان الايمان حقا لما ارتد هؤلاء، وهذه المواصفة الثانية للمفتري على اللّه قد تلمح ان منهم من كفر باللّه من بعد إيمانه لكي تظلّل قولته «إنّما انت مفتر» أكثر وأكثر.
واحتمال آخر في «من كفر» انه شرطٌ جزاءه «فعليهم غضب» وعلى الوجهين فله مصداق كافر هو الذي يقول: «إنّما انت مفتر» واخر مدّع وهو رسول الهدى، انّه آمن اولاً باللّه ثمّ كفر وافترى على اللّه، فمتى روئي منه اختلاف الحالة الرسالية حتى يقال: كفر باللّه بعد ايمانه؟ وهو منذ الفطام صادق امين مستسلم لرب العالمين، فهل إذا وصل إلى القمّة الرسالية يفتري على اللّه الذي ارسله؟ والمؤمن الساذج ليس ليكذب على اللّه.

---

[١]). سورة النحل: ١٠٤.

[٢]). سورة النحل: ١٠٥.

[٣]). سورة الحاقة ٦٩:٤٧.

[٤]). سورة النحل ١٦: ١٠٦.

«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ»[1].

آية فريدة في القرآن تقسِّم آياته إلى محكمات ومتشابهات، تنديدا بالذين يتبعون ما تشابه منه، وتمجيدا بمبتغي محكماته، والمستفسر لمتشابهاته بها، وتجهيلاً لتأويله ككلٍّ وعلّه للكلِّ إلا المعصومين المحمديين عليهم‌السلام، فيحق لنا ان نسبر أغوارها لنحصل على صراط مستقيم في تفسير اي الذكر الحكيم.

هنا اثنا عشر سؤالاً تطرح حول آية التقسيم هذه، للإطاحة بكلّ تقوُّلة عليها على ضوء اجويتها الصالحة.

١. هل هذه الآية محكمة يصح التمسك بها في ذلك التقسيم ومعرفة كل قسيم، أم متشابهة؟

٢. ثمّ ذلك التقسيم الثنائي حاصر، أم هناك قسم أو اقسام أخر من الآيات؟ كالمجملات!

٣. كيف التوفيق بين آية التقسيم، وثانيةٍ تدل على أن القرآن كلّه محكم: «كتاب أحكمت آياته»[2] وثالثة تدل على انه كله متشابه: «الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني...»[3].

٤. كيف جمع فيها بين «هن»: ضمير الجمع، وبين «ام الكتاب»: منفردة، فجعل الواحد صفة للجمع؟ وهذا فتٌّ في عضد البلاغة وثلَّم جانب الفصاحة!

٥. ما هو المحكم والمتشابه والفرق بينهما بصورة محكمة غير متشابهة؟

٦. كيف تكون المحكمات أمّا للكتاب؟

٧. ما هو اتباع المحكمات أمّا للكتاب؟

٨. بماذا تفسَّر المتشابهات وكيف تفسَّر؟

٩. ما هو الوجه في اشتمال الكتاب على المتشابهات وهي مسرب الشبهات؟

١٠. من هم الراسخون في العلم؟ وهل هم يعلمون تأويله أم لا يعلمون؟

١١. هل التأويل يخصّ المتشابهات ام يعم المحكمات؟

١٢. ما هو الفرق بين التأويل وتفسير المتشابه؟

١. قضية الوحدة في هذه الآية من حيث التقسيم ـ إذ لا ثانية لها، والتأمّل فيها حقها ـ أنّها محكمة، وإلاّ لفسد التقسيم، فهي قطعا في مقام بيان التقسيم، فلو كانت متشابهة ـ ولا محكمة غيرها تفسير هي بها ـ لعاد القرآن كله متشابها. وبطل علاج التشابه المدلول عليه لها، ولم يصدق: «كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون»[4] وسقط

---

[1]). سورة البقرة ٢:٧.

[2]). سورة هود ١١:٢.

[3]). سورة الزمر ٣٩:٢٣.

[4]). سورة السجدة ٣٢:٤.

الاحتجاج بواجب التدبر فيه: «افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا»[1] وليست الحاجة إلى التدبر مما تجعل الآية متشابهة وإلاّ أصبح كل النظريات متشابهة.
هذا وواقع الاختلاف في آي القرآن إحكاما في بعض وتشابها في أخرى، مما يصدِّق حقّ التقسيم وانّه بيان لواقع مملوس.

٢. «منه» قسيم أول «وأخر» قسيمٌ منه ثانٍ، فهما ـ إذا ـ قسيمان اثنان، ولو كان فيه ثالث لكان حق التقسيم في هذه اليتيمة أن يذكر كما ذُكرا، فان في تركه اجمالاً في التقسيم وابهاما لكل قسيم.
ثم التقسيم إلى قسمي السلب والايجاب هو حاصر على أية حال، والتشابه والإحكام راجعان إلى وصفي المدلول باللائح والخفي ولا ثالث بينهما أيا كان.
وقيلة القائل ان المجمل ثالث لا هو محكم ولا متشابه ـ لانهما المقصود دلالتهما على معنى، ولا يقصد من المجمل مجمل المعنى ـ إنّها غيلة وحيلة على الذكر الحكيم، إذ لا مجمل في القرآن بهذا المعنى، فكل لفظة فيه تعني ما يصح أدبيا من المعنى المراد، إن عاما فعام وان مطلقا فمطلق او نصا او ظاهرا فهما لا سواهما، محكمة او متشابهة.
فقد يعني المجمل ما أجمل فيه المعنى دون بيان رغم كونه معنيا، فهذا فتٌّ في عضد الفصاحة وثلمٌ في صرح البلاغة، تُنخَّى عنه ساحة الذكر الحكيم لأنّه أبلغ بليغ وافصح فصيح، فكيف يليق به هكذا تعبير فضيح!
او يعني ما لم يُعن منه اي معنى؟ وذلك لغو في الذكر الحكيم! او عني منه معنى ولم يَعن معنى آخر، فغير المعني ـ إذا ـ خارج عن مقسم التقسيم وهو الدلالة، ومن ثمّ فان كان لائح المعنى ـ وإن بتأمل وتعمُّل ـ فهو من المحكم، وان كان عميق المدلول على وضوح الدلالة فهو من المتشابه الذي يفسره المحكم، وان لم يُعن منه ما تعنيه فهو خارج عن المقسم، وقد تجمع الاقسام الثلاثة «ولقد خلقنا السماوات والأرض في ستة ايام وما مسنا من لغوب» فهي محكمة من حيث عدد الأيام والمخلوق فيها، ومتشابهة من حيث معنى الأيام، ومجملة من حيث عدد السماوات.

٣. إحكام الآيات كلها يعني الحكمة العالية الربانية المعمقة فيها دلالة ومدلولاً وتوفيقا مع الفطرة والعقلية والواقعية الصالحة، وتطبيقا لها محلِّقا على كلّ متطلبات الحياة الإنسانية والإيمانية، فلا مدخل فيها لباطل، وهذا إحكام للقرآن في كل مراحله.
ولكنه محكمة الآيات وجاه تفصيلها كما في الآية نفسها وهو إحكامٌ قبل تفصيل، أنها احكمت في نزولها الأول على قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله في ليلة القدر، فالمحكمات والمتشابهات في مرحلة التفصيل كلّها محكمات في مرحلة الإحكام.
واما «كتابا متشابها» فقد يعني تشابها لا يقابل هذا الإحكام، فهو تشابه آياته كلها للمعني من المحكم النازل ليلة القدر، ـ في تفصيلها ـ وتشابهها مع بعض البعض في قوامة التعبير لأعلى قمم الفصاحة والبلاغة، وتشابهها بتلائمها مع بعض البعض حيث يفسر بعضه بعضا وينطق بعضه على بعض، ورابع هو تشابهها مع بعض في التدليل على وحيها آيات بينات من عند الله العزيز الحكيم، وخامس تتشابه فيه مع قضية الفطرة والعقلية والواقعية الصالحة على مدار الزمن، وكذلك كلّ تشابه هو قضية كونها من عند الله ذا نسق واحد في جزالة النظم واتقان الاسلوب في كلّ حقول الهداية إلى الصراط المستقيم: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا».
فهذه وتلك تقرّر ان إحكاما وتشابها يحلِّقان على القرآن كله، وآية التقسيم تقسم تفصيل الكتاب المتشابه إلى محكم ومتشابه، عنايةً منهما غير ما يُعنى فيهما، ومنها إحكام المدلول حيث يتضح لبساطته، ثم تشابهه ـ على وضوح الدلالة ـ لعلوِّ المعنى وتشابه اللفظ مع ما يُعنى منه غير ذلك المعنى، لا قصورا في الدلالة، إنّما لعلو المعنى.

٤. لو قال «هن امهات الكتاب» لذهب البال والخيال إلى ان كل واحدة منها هي ام لكلّ الكتاب، رغم ان كلاً ام لمتشابهها الخاص، أُمٌّ جملة منها لجملة أخرى، دون ان تكون كلّ واحدة أما للكتاب، فلا أن كلّ محكمة ام لكلّ

---

[1]). سورة النساء ٤:٨٢ .

المتشابهات، ولا لأي متشابهة لا تناسبها، وإنّما لكل متشابهة امٌّ، واحدة ام زائدة في كلّ من المحكمة والمتشابهة، فصالح العبارة عن القبيلين في مختصر التعبير ومحتصرة: «هن أم الكتاب» توحيدا للأم المحكمات وسائر الكتاب المتشابهات، فقد قوبل جمع المتشابهات بجمع المحكمات فعبر عن كلٍّ بصيغة الإفراد «أم الكتاب» فكما الأم واحدة كذلك الكتاب المعني منه كلّ المتشابهات.

إذا فمجموعة الأمهات هي كأم واحدة لمجموعة المتشابهات، فهي اصل للمتشابهات تقدح بها فيظهر مكنونها ويستثار دفينها، وبذلك سميت أمُّ الانسان اما لانّها اصله الذي منه طلع وعنه تفرع وهي ـ بعدُ ـ المرجعُ في كل سؤل وحاجة.

وقد تشابه هذه الآية آية ابن مريم وأمّه: «وجعلنا ابن مريم وامه آية» فإن المعجز فيهما آية واحدة على عديد ظرفها، فانّها وَلدت من غير بعل وهو وُلد دون أب ولا فصال بينهما في تكوُّن هذه الآية، اذ ليس كل واحد دون هذه الصلة الولادية آية خارقة.

كذلك «هن أم الكتاب» فإنّها ككلٍّ ام للكتاب كله، فليست كلّ واحدة منها أما للكل، ولا أن كلّ واحدة من المتشابهات وليدة لكلّ من المحكمات فانّما ذلك من تقابل الجمع بالجمع.

ولأنّ الكتاب يعم محكمه إلى متشابهه، فهن ـ إذا ـ أمٌّ لأضرابها المحكمات كما هي ام للمتشابهات حيث المحكمات تفسر بعضها بعضا كما تفسر المتشابهات.

وانّما عبّر عن المحكمات بضمير جمع العاقل «هن» لأنّها بتفسيرها المتشابهات كأنّها عاقلة حكيمة، وهي حقا هيه لانّها صادرة من خالق العقل والحكمة لتعقلنا فنعقلها، ورغم ان المتشابهات كما المحكمات حكيمة عاقلة، ولكن علوّ المعنى وقصور العاني في مداليلها تجعلها بحاجة إلى محكماتها، فكانّها ليست بذلك العقل الحكيم، وهي من خالق العقل الحكيم، وليس السلب إلاّ من القاصرين في تفهمها، دون قصور من دلالاتها، فآي الذكر الحكيم كلّها حكيمة ولا يعني التقسيم إلاّ مختلف الأفهام في تفهمها.

وهل المحكمات هي الدالات على معانيها المقصودة دونما تكلُّف او تخلف عن نصوصها او ظواهرها؟ فالمتشابهات هي غير الدالات نصا او ظاهرا، حيث يشتبه المرادات فيها بغيرها فيتحيّر الناظر إليها حتى يستفسرها بمحكماتها؟ وهذا قصور في دلالة المتشابهات، فهو ـ إذا ـ فت في عضد الفصاحة، وثلم في جانب البلاغة، وتخلُّف عن واضح البيان وناصح البرهان، والقرآن هو أبين بيان واوضح برهان!

في الحقّ إن التشابه هنا ليس تشابها دلاليا بل هو تشابه مدلولي يخلِّفه علوّ المعنى عقليا او عمليا أو معرفيا رغم واضح الدلالة لغويا وادبيا، وآخر هو من مخلَّفات لفظية التشابه لغويا والمعنى مختلف كما تتشابه صفات إلهية ـ في الفاضها ـ بصفات خلقية باختلاف المعاني خلقيا وخالقيّا، فلا تشابه إلا قضية قصور المستدل الخاوي عن قمة معرفية، دون الدال البالغ أعلى القمم الدلالية، فلا تجد في القرآن، ولا مرة يتيمة، يراد من نص خلاف نصه، او من ظاهر مستقرّ خلاف ظاهره، فإنّما هو تشابه في ألفاظ هي حكيمة المعاني ومحكمتها لأهليها، وعلوٌّ في المعاني لا بدَّ لتفهمها من علوٍّ يناسبه في المعرفة.

وحين نقتسم محتملات الأقسام للتشابه ـ ايا كان ـ في القرآن، نجد تسعة وأربعين محتملاً بضرب سبع في سبع.

فقد يتشابه المعني من آية بغير المعني منها لقصور في التعبير، اجمالاً او ابهاما ام قصدا لخلاف النص او الظاهر، وهذا خارج عن المعني من «آخر متشابهات» فتسقط سبع من المحتملات.

أم ان الدلالة واضحة نصا أم ظهورا مستقرا ولكن اللفظ يتشابه مع مثله خلقيا وخالقيا، وهذا تشابه مدلولي لفظيا وليس دلاليا لغويا.

وفي ذلك التشابه قد يكون تشابه معنوي في المعني من الآية، عقليا او علميا او معرفيا او حسيا او واقعيا، وهي مضافة إلى الأوّل ست تضرب في ست فالمحتملات الصحيحة ـ اذا ـ ست وثلاثون، تترك مكرراتها والبقية الباقية صالحة.

ومن التشابه الواقعي ان المحكمة المنسوخة تتشابه المحكمة غير المنسوخة، فيزول تشابهها بالناسخة، كما التشابه علميا وعقليا ومعرفيا وحسيا يزول سنادا الى المحكم في هذه الأربع دلالة من نفس الآية وسائر المحكمات التي هي

في مغزاها ومرماها.
فالمحور الأصيل في «أخر متشابهات» هي المتشابهات لفظيا اذ ترجع إلى محكمات فيزول بذلك تشابهاتها، واما سائر التشابه فهو زائل بنفس الآية الصريحة او الظاهرة في خلافها علميا او عقليا او حسيا، اللهم إلاّ تشابه النسخ فلا يزول إلاّ بالرجوع إلى الآيات التي بالامكان نسخها اياها فتيأكد انّها محكمة او منسوخة.
فهنا صفات وافعال تختص بالله فلا تشابه فيها على اية حال، وهناك أخرى تختص بمن سوى الله فكذلك الأمر.
ثمّ هنالك ثالثة هي مشتركة لفظيا بين الله وخلقه، متباينة معنويا وواقعيا، كالشيئية والوجود والعلم والقدرة والسمع والبصر واليد والقدم والمجيء وما أشبه، ففيها وفي اضرابها يشتبه المعنى على الجاهل به، استجرارا لمعانيها في المخلوقين إلى الخالق سبحانه، او استجرارا لمعانيها في الخالق إلى المخلوقين.
ومن أسهل السبل في تفسيرها إرجاعها إلى محكمات قرآنية كـ «ليس كمثله شيء» و«هو بكل شيء محيط» و«لا تدركه الأبصار وهو يدرك الابصار» واضرابها من محكمات... أو محكمات عقلية او علمية ام معرفية متزودة من محكمات قرآنية أماهيه، يزول بها ذلك التشابه العارم الناتج عن قصور العقلية الإيمانية او العلمية دون اي قصور دلالي في لغة القرآن[1].
فالمتشابهات القرآنية في الأكثرية الساحقة هي في أسماء الله وصفاته وأفعاله حيث يؤتى بها في لغات مشتركة الاستعمال بينه وبين خلقه، فلا بدَّ من تجريدها عن المعاني الخلقية عن بكرتها، والإبقاء على المعاني الخالقية، وذلك هو المعني من تسبيحه سبحانه بحمده، ان ننزهه فيما نحمده بألفاظ متشابهة عما لا يليق بساحته، ولا سبيل للتعريف بصفاته سبحانه ـ المشتركة لفظيا بصفات خلقه ـ إلاّ استعمال نفس الالفاظ المشتركة، ثم علينا تجريدها عن معانيها في الخلق.
ومهما كان القرآن كله فرقانا لأهله، ولكن المحكمات البينات في أنفسها هي فرقان للمتشابهات[2] تفرق المعنيّات الإلهية بمشتركات الألفاظ، عن المعنيات الخلقية ام أية تشابهات في سائر الحقول العقلية والعلمية أما هيه، ومما لا ريب فيه ان الآيات الأحكامية ـ كقدر معلوم من القرآن ـ هي من الفرقان المحكم[3].
ولا يعني إحكامها عدم الحاجة إلى التدبّر فيها وتفسير بعضها ببعض، بل يعني عدم التشابه مدلوليّا إذ لا تشابه فيها لفظيا، مهما كانت عميقة المعاني، غالية المعالي.

---

[1]). مثالاً على التشابه العلمي آيات حركات الأرض كآيات الكفات والراجفة والذلول والجبال الأوتاد وأضرابها، حيث الالفاظ لا تشابه فيها، وإنّما العلم غير البالغ زمن نزولها يعمل في تشابه بين حقّ المعنى وباطله، فالعلم يرجه باطله وهو سكون الأرض، والنصّ يرجه حقّه وهو حركات الأرض، فيُحمل النص ـ قضية العلم أو الحس الخاطىء ـ على غير النص، وهكذا العقل غير الناضج، حيث يعقل العقل أمرا بقصوره فيعتقده ثمّ الآية الصريحة أو الظاهرة في خلافه يُظن أنّها متشابهة قد يرجح حكم العقل عليها فتؤول على خلافها.

[2]). في الكافي عن ابن سنان عمن ذكره قال سألت أبا عبد اللّه عليه‌السلام عن القرآن والفرقان أهما شيئان أو شيءٌ واحد؟ قال: القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به، وفيه عن القمي بسند متصل عن ابي عبد اللّه عليه‌السلام: الفرقان كل امر محكم، وروى العياشي عن عبد اللّه بن سنان قال سألت أبا عبد اللّه عليه‌السلام عن القرآن والفرقان؟ قال: القرآن جملة الكتاب وأخبار ما يكون والفرقان المحكم الذي يعمل به وكلّ محكم فهو الفرقان.

[3]). الدر المنثور ٢:٦ ـ أخرج البخاري في تاريخ بغداد بسند أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال في خطبته: أيها الناس قد بيّن اللّه لكم في محكم كتابه ما أحلّ لكم وما حرّم عليكم فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وآمنوا بمتشابهه واعملوا بمحكمه واعتبروا بأمثاله.

إذا فـ «المحكم ما يعمل به والمتشابه الذي يشبه بعضه بعضا»[1].
فـ «المتشابه ما اشتبه على جاهله»[2] وكون المنسوخات من المتشابهات كما في مستفيضة تعميم للمتشابه المدلولي إلى التشابه تكليفيا، حيث الجاهل بالمنسوخ يحسبه ـ على الدلالة المحكمة ـ أنّه حكم ثابت لا حِوَل عنه.
وحق القول في المتشابه ـ هو ككل ـ تشابه غير المراد بالمراد، تشابها عقليا او علميا او معنويا او واقعيا، والأخير هو تشابه المنسوخ، وقبله تشابه الاسماء والصفات الإلهية، والأولان هما في حقول القصور في العلوم والعقول وكما يروى «إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن»[3] مهما فسرها محكماتها، او هي محكمات مدلوليا، إلاّ ان قاصر العقل والعلم قد يهمّ تأويلها إلى ما يوافقهما كالآيات الصريحة في حركات الأرض ودورانها أمّا شابهها من آيات تحمل معارف غامضة عقليا او علميا.
فالمحكمات ـ إذا ـ هي غير المنسوخات، ولا المتشابهات معنويا ولا علميا ولا عقليا ولا معرفيا ولا حسيا، فهما تختلفان حسب الاستعدادات والقُدُرات العقلية والإيمانية والعقيدية، دون ان تكون آيات محكمات في مخمسة الجهات للكل، وما سواها متشابهات لهم.
فكم من آية هي محكمة لمستفسر عنها متشابهة لآخر، أم هي محكمة في بعض ألفاظها متشابهة في الأخرى، كما ومنها ما هي محكمة واقعيا اذ لم تنسخ، ولكنها متشابهة لفظيا، أو محكمة لفظيا ومتشابهة عقليا أو علميا أو معرفيا، وهكذا الأمر في اضرابها من إحكاماتٍ وتشابهات في مربعة الجهات.
ذلك ما تهدي له آية التقسيم وروايات تفسرها كما هيه، فسائر التعاريف ـ إذا ـ بين قاصرة ومقصرة، مفْرِطة او مفرِّطة، أو آنهامن التفاسير الجانبية غير المحلقة على مربعة الجهات في المحكمات والمتشابهات.
ومن أغربها ان المحكمات هي الحروف المقطعة وغيرها متشابهات! معاكسة صريحة لمدلول آية التقسيم، فإنّها احقّ ان تكون من المتشابهات، بل هي من أعضلها، وهي اوفق الظروف الملتوية للتأويلات: «فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله».
وإذا كانت غير الحروف المقطعة متشابهات ككل، والمقطعة هي من اغمض المتشابهات، إذا فاين القرآن البيان، وكيف واجب التدبر في القرآن؟!
هذا! وقد يصح القول ان الحروف المقطعة لا هي من المحكمات ولا المتشابهات، فانّها لا تدل وضعيا على معنى، فلا مداليل لها فضلاً عن كونها محكمات.
ولئن أدخلناها في المتشابهات فهي من أوغلها في التشابه حيث لا تفسير لها بمحكمات في القرآن إلا بمحكم الرسالة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله ومحمد هو القرآن المحكم كما القرآن هو محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله، وقد يصبح القرآن محكما كله ـ كما عند أهله الذين يعيشونه معرفيا علميّا وعمليا حياتهم ـ يصبح محكما في حقل التفسير ـ ككل ـ مهما بقي متشابها في ساحة التأويل، ولكن الحروف المقطعة لا تفسير لها ولا تأويل إلاّ لأهله الخصوص وهم الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وذووه المعصومون عليهم‌السلام فالمتدبرون في القرآن حقَّه، الراجعون في تفسير متشابهاته إلى محكماته سليما ناصعا، وفوقهم الرافعون ستار التشابه بالقمّة العقلية والعلمية والإيمانية، هم لا متشابه لهم في آي القرآن في ساحة التفسير، مهما تعاضل عليهم أمر التأويل، فإن أهله الخصوص ايضا لا تحليق لهم في تأؤيله كله، فضلاً عمن دونهم!

---

[1]). العياشي عن أبي محمد الهمداني عن رجل عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام.

[2]). العياشي عن مسعدة بن صدقة عنه عليه‌السلام وفي الدرّ المنثور ٢:٦ ـ أخرج ابن سعد وابن الضريس في فضائله وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنّ رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال ـ إلى أن قال ـ : فما عرفتم فاعملوا به وما تشابه عليكم فآمنوا به.

[3]). كما في الدر المنثور عن أبي عباس رحمه اللّه.

٦. وكيف تكون المحكمات ام الكتاب دون أمهات الكتاب؟
حيث الأم هنا هي الأصل الذي يرجع إليه ويُعتمد عليه في حاجيات الطفولة، فالمتشابهات بحاجة إليها في تبيين معضلاتها وازاحة التشابهات عنها وليست كل واحدة من المحكمات بانفرادها أمّا لكلّ المتشابهات، بل هي باجمعها أمٌّ لها بأجمعها، جمعا أمام جمع، فهي ـ إذا ـ أم واحدة للمتشابهات مهما كانت كلٌّ من المحكمات امّا لما تناسبها من متشابهات تقدح بها فيظهر مكنونها وتستثير دفينها، كما وهي ام لمحكمات من اضرابها حيث الكتاب تعمه كلّه ما يحتاج المستفسر في تبيانه إلى بيان يفسر.
وهكذا تكون الفاتحة ام الكتاب ككل، لأنّها إجمالة بجملتها عن تفصيل الكتاب، مهما كانت كلّ من سبعها المثاني امّا لفصيل من التفصيل.
كما وان «ابن مريم وامة آية» دون آيتين، لأن آية كلٍّ لزام آية الأخرى خارقة في الولادة، فابن مريم آية ولادةً عنها دون والد، ومريم آية توليدا له دون والد، فهما ـ إذا ـ آية واحدة وهكذا: «جعلنا ابن مريم وامة آية..» تتلاقى منهما في فاقد الصلب المتعوّد في الولادة، وهما فيه مشتركان.
٧. إتباع المتشابه ـ المذموم الضائق ـ هو اتباعه على تشابهه دون ارجاع صالح إلى محكمه تحميلاً، وإنّما لمتهوسات الآراء على المتشابه دون رجوع إلى ركن وثيق، ولا لجوءٍ إلى برهان رفيق دقيق، فان اتباعه على تشابه دون تفسير صالح ولا طالح غير ممكن، وإنّما يتبع المعنى الثابت صالحا وغير صالح، وهذا هو الذي يثير الفتنة علميا وعمليا وعقيديا، واما اتباع المشابه بعد إرجاعه إلى محكمه فليس اتباعا للمتشابه حتى يُحظر عليه، ثمّ وفي اتباع المتشابه هكذا واقعٌ رائغ زائف في بعدين اثنين هما:
١. ابتغاء الفتنة و٢. ابتغاء تأويله، هما ظاهرتان من زيغ القلب وتقلبه عن ناصع الحقّ وناصحه إلى ناعق الباطل وفاضحه، وفي ثالوث: الزيغ وابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل، يبرز في المسرح كلّ ادغال وتدجيل، استدلالاً بالكتاب ضده لصالح الأهواء والأباطيل.
ففي اتباع المتشابه على تشابهه فتنة في كلّ الحقول، وفي ابتغاء تأويله إلى ما تهواه الأنفس فتنة على فتنة، فان ذلك التأويل عليل حيث الأصل الذي يتبناه ـ وهو اتباع المتشابه ـ عليل، فلا يروي الغليل ولا يبصر الكليل، رغم ان القرآن شفاءٌ لما في الصدور ورحمة لذات الصدور: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا» ومنهم ـ كأنحسهم ـ هم الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.
ذلك هو الإتّباع المرفوض لما تشابه منه، دون تفسيره بمحكمه ام ايا كان من صالح التفسير استنطاقا للآيات بنظائرها، ودخولاً في حقولها وحظائرها من ابوابها دون ظهورها.
اجل و«من رد متشابه القرآن إلى محكمه فقد هدي إلى صراط مستقيم.. وإن في اخبارنا متشابها كمتشابه القرآن فردوا متشابهها إلى محكمها ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلوا»[١]، ودون ان يؤمن بها على تشابهها لمن لا يستطيع على رجعها إلى محكمها.
و«ما تشابه منه» قد يعم المتشابه في نفسه، إلى ما جعل متشابها رغم إحكامه، ثم تحميل ما لا يتحمل عليه، وهو من انحس الإتباع لما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأيله. وليس ضربُ القرآن بعضه ببعض ـ المندَّد به في المأثور ـ إلاّ ضرب التضارب، دون ذلك التفسير التقارب، فكلّ تفسير ينتج تضاربا بين الآيات هو من ضرب القرآن بعضه ببعض ضرب الدَّقِل، وكل ما ينتج تقاربا بينها دون تحميل عليها إلاّ ما تتحمله، فهو من صالح التفسير، وهو تفسير القرآن بعضه ببعض «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا».
فهنا تفسير لفظي للقرآن متشابها وغير متشابه، ثمّ تفسير باطني لهما، ومن ثمّ تأويل، ولا بدّ لكلٍّ من دليل، فمفسر المتشابه لفظيا دون دليل، ثمّ تأويليا دون دليل، انه جامع زيغا على زيغ وفتنة على فتنة، حيث التأويل كلّه في

---

[١]). عيون الأخبار حدثني أبي قال حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن أبي حيون مولى الرضا عليه‌السلام عنه عليه‌السلام قال: ..

نفسه متشابه لانّه غير مسنود إلى لفظ متشابه أو محكم، بل هو الأول معنويا إلى مبدءٍ او نتيجة، فهو مخصوص بمن يحيط علما بمبادىء القرآن ونتائجه.

فكل اتباع للمتشابه ـ على تشابهه ـ هو من زيغ القلب، ثم اتباع الحكم ذاتيا ام بعد الرجوع إلى المحكم هو من استقامة القلب، شرط عدم تحميل الآراء الجارفة عليها على إحكامها.

فقد يُجعل المحكم متشابها ثم يُحمل عليه رأي مزيف، وذلك من اتِّباع المتشابه رغم إحكامه، او يُجعل المتشابه متَّبعا على تشابهه بنفس التحميل، فكذلك الأمر.

وأما ان يُتبع المحكم على إحكامه، او يتبع المتشابه بعد قلبه محكما، إتباعا في مثلث العلم والعقيدة والعمل، أم يتبع المتشابه إيمانا دون تفسير: «آمنا به كل من عند ربّنا» فذلك هو الرسوخ في العلم على درجاته.

إن تأويل المتشابه ـ إيضاحا لمعناه ـ يختص باللّه، حيث المحكمات تفسر المتشابهات، كما ان تأويل القرآن ـ ككل ـ مختص باللّه فانّه الذي يعلم مِن التأويل مَن هو اهله كالراسخين في العلم بمختلف درجاتهم.

وعلى أية حال فكل تأويل ـ لأنّه خارج عن مدلول اللفظ وراجع إلى غامض المعنى ـ إنه يحتاج إلى دليل من صاحب المعنى، قد يبينه في سائر كلامه كالمحكمات بالنسبة للمتشابهات، فهو عام لأهل القرآن الخصوص ككل.

أم يبيّنه بإلهام أو وحي وهما يختصّان بأصحابهما الخصوص، أم لا يبيّنه إلاَّ يوم القيامة، ام ليس ليبيّنه اطلاقا وهو التأويل المخصوص بعلم اللّه تعالى شأنه.

ففي مربع التأويل نجده واقعا غيبيا مرتبطا بالمعنى المفهوم من القرآن، لا يعلمه إلاّ اللّه، ام والراسخون في العلم بتعليم اللّه.

وبالنظر الدقيق إلى آيات التأويل نعرف مدى صدق هذا البيان، فلا تجد فيها ولا أية إشارة إلى تأويل الألفاظ الى خلاف معانيها كما يهرفون بما لا يعرفون، بل هو مثلث التأويل في النشآت الثلاث الاولى: والبرزخ والوسطى، تأويلاً علميا او واقعيا.

فتأويل كل ما فعله خضر لم يكن تأويلاً لكلام إذ لم يكن منه فيما اختلفا إلاَّ العمل، إرجاعا له إلى مأخذ او نتيجة لا يظهران في مظهر الأعمال.

وتأويل الرؤيا ليوسف هو ارجاعها إلى واقعات لا تظهر من هذه الرؤيِّ إلاّ لمن علِّم علم التأويل.

وتأويل القرآن، بروزا له في حقوله يوم القيامة ليس إلاّ للحاضر يوم القيامة «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله»[1] ـ «هل ينظرون إلاّ تأويله يوم يأت تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربّنا بالحق...»[2].

إذا فعلم التأويل ككل هو من علم الغيب المخصوص تعليمه باللّه، وليس ليُعلم من نص الدلالة اللفظية او ظاهرها، وإنّما يتبنى المعنى تدليلاً من اللّه وهو يهدي السبيل.

والتأويل ـ في قول فصل ـ من الأول، فهو الإرجاع، ارجاع معنى الآية إلى واقع مجهول ايا كان، تخطيا عن المعلوم، وليس تفسير النص او الظاهر إلى خلافهما تأويلاً إلاَّ في اصطلاح مستحدث لا أصل له لغويا ولا قرآنيا.

وللتأويل مآلات ثلاث لا يعول ـ فيما يؤل اليها ـ إلاّ بدليل قاطع، فانّه من اوصاف المعنى ـ الخفية ـ دون اللفظ، فلا يُرجع اللفظ إلاَّ إلى معناه المنصوص او الظاهر، ثمّ ليس لتأويل المعنى إلى واحدة من الثلاثة أي دليل من اللفظ او المعنى.

إذا فكل متشابه له تأويلان اثنان، تأويل للمعنى إلى واقع المراد، وتأويل له إلى واحدة من الثلاثة، فالأول ميسور لأهله ارجاعا للمتشابه إلى محكمه ام تدبرا في نفس المتشابه ليزول عنه تشابهه، والثاني غير ميسور إلاَّ لمن علمه اللّه.

---

[1]). سورة يونس ١٠:٢٩.

[2]). سورة الاعراف ٧:٥٢.

وللمحكم تأويل واحد هو الثاني، «وما يعلم تأويله» راجعٌ إلى الثاني لكلّ محكم او متشابه.
ومن اقرب التأويلات لمحكمات او متشابهات هو واقع الأثر لمثلث العلم والعقيدة والعمل بالقرآن في حياة التكليف، وقد كشفت عنه النقاب آيات انعكاس الأعمال علميا وللمتقين عينيا.
ثمّ التأويل المأخذ ربانيا، والمآل في الأخرى ربانيا، هما مجهولان إلا لمن عرَّفه اللهّٰ وعلَّمه.
فمما يعلِّمه اللهّٰ صالحَ عباده المرسلين تأويلُ الأحكام، قدر ما يُقْدرهم على استنباط جزئيات الأحكام من مصادرها الربانية.
ومما لا يعلِّمه تأويلُ الحقائق المحكية عنها بالقرآن، قدر ما عند اللهّٰ، فانّه مخصوص باللهّٰ، ولا يخص تأويل القرآن بمتشابه بل ويعم محكمه، مهما كان الأول أعضل.
وزيغ القلب هنا لا يعني زيغه في كل الحقول لمكان «زيغ» منكرا، الشاملة لكلّ زيغ، فقد يزيغ علما دون زيغ في ايمان، ام يزيغ ايمانا وليس له علم حتى يزيغ، او يزيغ علما وايمانا فواويلاه، وثالث هذا الثالوث هو رأس الزاوية في الزيغ الذي يسبب كل فتنة في اتباع المتشابه والتأويل.
٩ ـ وجه اشتمال الكتاب على متشابهات بجنب المحكمات موجَّه في معنى التشابه والإحكام كما بيناه، فليس التشابه امرا قاصدا في قصور دلالي واجمال متعمّد حتى ينافي بيان القرآن، بل هو كأصل ممّا لا بدّ منه في عرض المعارف الإلهية ذاتا وصفات وافعالاً، وفي عرض المنسوخ كما الناسخ، وهو كهامش على ذلك الأصل طبيعةُ الحال في مختلف الإدراكات والإستعدادات لحدّ تصبح آيةٌ محكمةٌ عند جماعة متشابهةً عند آخرين، حيث المتشابه ـ في أوضح تعريف به، ما اشتبه علمه على جاهله، والتشابه في كل حقوله هو لزام الكتب العلمية على الإطلاق، فضلاً عن القرآن الذي يحمل كل ما تحتاجه البشرية إلى يوم القيامة، إلاّ ما بالامكان ان يحصل عليه، ففي حقل التشريع الكافل لكافة الحاجات يستحيل عدم التشابه لكافة المكلفين قضيةَ اختلاف الفاعليات والقابليات والاستعدادات في تفهُّم الكلام.
والمشكلة العويصة إنّما هي المتشابهات التي لا تفسير لها حكيما صالحا ولا نجد هكذا التشابه في القرآن عن بكرته، فان لكلّ متشابهة من آياته محكما قد تكون هي نفس المتشابهات بامعان النظر وإجالة الفِكَر، اللهم إلاّ المتشابهات التأويلية التي ليس على اهل القرآن تأويلها، لانّه راجع إلى الراسخين في العلم، أم لا يعلمه إلاّ اللهّٰ حيث يختص علمه باللهّٰ.
١٠. وأما الراسخون في العلم وموقفهم من علم التأويل ايجابيا وسلبيا، فلأن الرسوخ في شيءٍ هو التمكن فيه بلا تزعزع تشبيها برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوَّانة، فالراسخون في العلم ـ إذا ـ هم المتمكنون فيه الذين لا يختلفون في علمهم ولا يتخلفون.
والعلم يعم علم المعرفة وعلم العقيدة وعلم الايمان والأخير أثبت مهما كان الأولان من أثافيِّه وأسه وأساسه، فقد يثبت الراسخ في علم المعرفة والعقيدة ولا ثبوت له في علم الايمان والثابت في علم الايمان ثابت ـ لا محالة ـ في علم المعرفة العقيدة على أية حال.
ومن الأولين ـ وهم الأدنون في صنفي الراسخين ـ علماء اهل الكتاب دون المعصومين: «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك»[1] من الذين هادوا، هودا ورجوعا إلى الايمان باللهّٰ علما وعملاً صالحا بعد سؤال الرؤية جهلاً وعملاً طالحا، وساحة العصمة القدسية براءٌ من الجهل والجهالة على أية حال، فهم من دون المعصومين عليهم‌السلام.
والراسخون في العلم في آية التقسيم قد يشمل الأولين على هامش الآخرين، فرسول اللهّٰ صلى‌الله‌عليه‌وآله وأهل بيته المعصومون عليهم‌السلام هم أفضل الآخرين، كما ان الأولياء دون المعصومين هم أفضل الأولين، فليس «الراسخون في

[1]). سورة النساء ٤:١٦١ .

العلم» هنا ليختص بالآخرين فضلاً عن أفضلهم[1].

والتفسير بهم ليس إلاّ من جري التأويل لأصدق مصاديقهم في العلم والايمان، و«العلم» هنا بمناسبة المورد هو العلم بالقرآن، وهو بصورة طليقة لأئقة طليقُ العلم به في مثلّثه: معرفة وعقيدة وايمانا قلبيا، وكلٌّ منها قد تكفي للخروج عن «زيغ» الذي يدفع إلى اتباع المتشابه، مهما كان الزيغ في العلم قد يدفع إلى اتباع المتشابه كزيغ العقيدة والايمان، فلا بدّ إذا من رسوخ في الايمان كأصلٍ، ومن ثَمَّ رسوخ في العقيدة التي هي لزام الإيمان، ورسوخ في علم المعرفة.

وأفضل الراسخين في العلم هو افضلهم في هذه الثلاث، ثمّ الراسخون في علم الإيمان ـ على مراتبه ـ ومن ثَمَّ الراسخ في المعرفة ـ على مراتبها[2].

ومما يشعرنا أنَ أصل العلم هنا هو الإيمان «إنّما يخشى اللّه من عباده العلماءُ» حيث الخشية هي من مخلفات الإيمان قدَرَه، فقد يكون عالما عقليا ومعرفيا وليس له ذلك العلم الإيمان الذي يُخشى به اللّه، فهو ـ إذا ـ العلم الخاشي.

ثم الواو في «إلاّ اللّه والراسخون في العلم» كما تتحمل العطف، انهم يعلمون تأويله كما اللّه مهما اختلفت الدرجات، كذلك الاستئناف، أنهم لا يعلمون تأويله كله، فما علموا منه فهو، وما جهلوا منه اعترفوا بجهلهم والايمان به كما علموا منه كما في العلوي عليه‌السلامحيث سأله رجل هل تصف لنا ربك نزد له حبا ومعرفة فغضب عليه‌السلاموخطب الناس فقال فيما قال: عليك يا عبد اللّه بما دلّك عليه القرآن من صفته وتقدمك فيه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله من معرفته فأتمَّ به واستضىء بنور هدايته فإنّما هي نعمة وحكمة اوتيتها فخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين وما كلفك الشيطان عليه مما ليس عليك في الكتاب فرضه ولا في سنة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والائمة الهداة أثره فكل علمه إلى اللّه ولا تقدر عظمة اللّه على قدر عقلك فتكون من الهالكين وإعلم يا عبد اللّه ان الراسخين في العلم هم الذين أغناهم اللّه عن الإقتحام في السُّدد المضروبة دون الغيوب فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فقالوا آمنا به كلٌّ من عند ربنا فمدح اللّه اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما وسمّى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه (عن كهنه) منهم رسوخا[3].

ففصل القول هنا في الراسخين في العلم من علم التأويل هي ألاّ يخرجوا من علم التأويل جملة، ولا يدخلوا فيه جملة، بل هم عوان بينهما، يعلمون منه ما علمهم اللّه من واجب المعرفة الواجبة لائمّة الأمة، ولا يعلمون ما اختصّ اللّه بعلمه.

والمستفيضة في حصر الراسخين في العلم في المعصومين تعني أفضلهم وأعلمهم، كالتي تحلّق لهم علم التأويل حيث

---

[1]). الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أنس وأبي أمامة وواثلة بن الأسقع وأبي الدرداء أن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله سئل عن الراسخين في العلم فقال: «من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم».

[2]). نهج البلاغة عن الإمام علي عليه‌السلام، وفي النبوي صلى‌الله‌عليه‌وآله أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به وتفسير العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابه لا يعلمه إلاّ اللّه ومن ادعى علمه سوى اللّه فهو كاذب (الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: ...).

[3]). في النهج والإحتجاج في كلام لعلي صلى‌الله‌عليه‌وآله في ذم القضاء السوء ـ إلى أن قال ـ : إلى أن قال ـ : وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا وأنّه لا إختلاف فيه ـ فذكر الآية ثم قال: ـ وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تحصى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلاّ به.

تعني غير ما اختصّ الله بعلمه منه[1] والأفعال الربانية وعلم الساعة وما أشبه خاصة بالله.
كما انه «وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم» بفارق انّهم لا يعلمون كلّ التأويل و«يقولون آمنا به كل من عند ربنا» هو من الدليل على جهلهم بقسم من التأويل، بل ما علمهم الله فانهم لم يعلموا ما علموا من التأويل إلاّ بما علمهم الله القدر الصالح لقيادة العصمة وعصمة القيادة[2].
وقد يوسع نطاق «الراسخون في العلم» تقابلهم بـ «الذين في قلوبهم زيغ» فكما الزيغ دركات كذلك الرسوخ في العلم درجات.
وكما ان افضل الراسخين هو الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وأهل بيته المعصومين عليهم‌السلام كذلك أرذل الزائغين هم الذين جعلوا القرآن عضين، يعطفون القرآن على الرأي حين يعطف هؤلاء الرأي على القرآن، ويعطفون الهدى على الهوى حين تُعطف الهدى على الهوى.
فكلّ تفسير او تأويل للقرآن بعيد عن جادة الصواب هو من زيغ القلب، كما ان صالح التفسير والسكوت عما لا يعلم من تفسير او تأويل، ذلك من الرسوخ في العلم.
ولا يخصّ التأويل هنا تأويل ما تشابه منه بل والمحكمات، حيث التأويل يعني المأخذ بدائيا والمآل نهائيا.
اجل «منه آيات محكمات هن ام الكتاب» اما للمتشابهات ـ لا لأنفسها ايضا مهما كان من الكتاب ـ فالاضافة إذا ليست لامية بل هي بتقدير «من» أمٌ من الكتاب كما ان المتشابهات وُلدٌ من الكتاب والكتاب يجمعهما، حيث يستثار بها دفائن مدلولاتها، وأما لمبتغي المعرفة عن اصل الشرعة والشرعة الأصيلة في حقلي الأصول والفروع.
ذلك ـ فأما الذين في قلوهم زيغ عن الحقّ الناصح الناصح، وضلال عن سوي الصراط فطريا وعقليا وواقعيا، هم أولاء الأنكاد يتركون الأصول الواضحة التي تقوم عليها العقيدة والشرعة والمنهاج العملي والعقيدي والعلمي للحياة، ويجرّون وراء المتشابه الذي لا يفهم بظاهره البدائي، يتبعونه على تشابهه، تأويلاً عليلاً كليلاً دونما اي دليل، حيث يختلفون فيه مجالاً للفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة والاختلافات التي تنشأ عن بلبلة الأفكار، نتيجةَ الاقتحام فيما لا مجال لتأويله اللهم إلاّ لأهله‌ام عن سبيله الواضح «وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم».
ولأن التأويل من الأول: الرجوع، فهو الباطن مأخذا ومرجعا للمحكمات كما للمتشابهات، فمن التأويل ما يعلمه من لطف فهمه وهم الأولياء، ومنه ما يعلمه المعصومون فمنه تأويل الأحكام فانّهم سنادا إلى مأخذها ونتائجها يستنبطون فروعا أخرى لا تدل عليها الفاظها.
ومنه ما لا يعلمه إلاّ الله كالحقايق الاصيلة ـ مآخذ ونتائج ـ للقرآن، فإنّ مصدره غيب عمن سوى الله فلا يعلمه إلاّ الله، فذلك مثلث من التأويل ولكلٍّ أهله.
ويقابلهم في تلك المواجهة المضللة «الراسخون في العلم» حيث يعتمدون على المحكمات كأصول، ثمّ يقولون آمنا به كلّ من عند ربّنا في السدد المضروبة عليهم من تأويله، واما ارجاع المتشابه إلى محكمه استيضاحا لمعناه، ام ازاحة للتشابه بالتدبر اللائق فيه، فهما ليسا من اتباع المتشابه حتى يدخلا في زيغ التنديد، بل هما ممّا امر به اهل القرآن ليدَّبروا آياته فيتذكّر اولوا الألباب: «كتاب انزلناه اليك مباركا ليدبروا آياته وليتذكّر اولوا الألباب».
«وما يذكر» ناتجةَ الرسوخ في العلم «إلاّ اولوا الألباب» دون السطحيين القشريين الذين تخدعهم قشور من العلم، فيخيَّل إليهم أنّهم يعلمون كلّ شيء، وان لهم الاقتحام في خِضِمٍّ السدد المضروبة المتشابه من علوم القرآن العظيم،

---

[1]). في نهج البلاغة عن الامام علي عليه‌السلام: اين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذبا وبغيا علينا أن رفعنا اللّه ووضعهم وأعطانا وحرمهم وأدخلنا وأخرجهم.

[2]). الدر المنثور ٢:٦ ـ أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابه لا يعلمه إلاّ اللّه ومن ادعى علمه سوى اللّه فهو كاذب.

فيقابلون كلام اللهّ ـ المطلق المحلق على كلّ العقليات والفطريات والواقعيات العلمية ـ يقابلونه بما صاغتها لهم عقولهم وعلومهم المحدودة، سامحين لأنفسهم كلّ تأويل فيما تشابه منه دون اي دليل على أنّهم الجديرون بادراك كلّ غامض.

واما اولوا الألباب فهم يذكرون انهم مطلق الجهل امام علم اللهّ المطلق، يعتقدون كلّ وامض اتضح لهم بتدبّر وتفكير فيعملون به، ويؤمنون بما تشابه منه ولم يتضح لهم قائلين: «آمنا به» محكما ومتشابها ـ متشابها ومحكما «كل» منهما دون فارق «من عند ربنا» «وما يذكر إلاّ اولوا الألباب» ـ «ربّنا لا تزغ...»:

نظرة ثالثة إلى آية التقسيم

فيها نتيجة البحث عنها بصورة مجملة:

المستفاد من آية التقسيم امور تالية:

١. تقسيم القرآن إلى محكمات ومتشابهات، حاصر فيما تعنى دلالته من آيات، دون الحروف المقطعة التي هي برقيات رمزية تخصّ الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وذويه المعصومين، ثمّ لا اجمال ولا ابهام فيما يراد دلالته محكمة ام متشابهة.

٢. ليس التشابه في المتشابهات من الناحية الدلالية فإنّه خلاف الفصاحة والبلاغة الساذجة فضلاً عن القمة العليا لأعلى درجات الاعجاز في القرآن، وإنّما التشابه الذي يزول بالتأمّل في المتشابهة او بالرجوع إلى محكمها هو التشابه اللفظي كالاسماء والصفات المشتركة الإستعمال بين اللهّ وخلقه، ثمّ الواقعي كالمحكمات الأحكامية المنسوخة حيث تتشابه الثابتة غير المنسوخة.

واما التشابه المعرفي والعلمي والعقلي والحسي، فيما يختلف النص او الظاهر المستقر مع هذه الأربع، فليس مقصودا في «أخر متشابهات» فانّه من المحكمات لفظيا وواقعيا ولا بدّ من الرجوع إلى نفس الآية واتباع دلالتها الظاهرة رفضا لخلافها في هذه الحقول الأربعة.

والآيات المتشابهات بصورة عامة هي(٣٦) قسما بضرب التشابهات الست في نفسها، تخرج منها المكررات والباقية بين ما تضمنه الآية وما هي متشابهة من جهات أخرى.

٣. التشابه والإحكام أمران نسبيان في القرآن حسب مختلف الاستعدادات والتأملات، فلا متشابهة اطلاقا لأهل بيت الرسالة صلوات اللهّ عليهم اجمعين، وكلّها متشابهة لمن لا يعرف اللغة العربية وبينهما عوان.

٤. زيغ القلوب الذي يخلّف إتباع ما تشابه منه يعم الزيغ العلمي والعقلي والعقيدي لمكان «زيغ» دون «الزيغ» واتباع ما تشابه منه بين مستحيل ومحظور ومحبور، فالأول هو اتباعه على تشابهه دون تأويل صالحا او طالحا، والثاني تأويله دون سناد إلى دليل، والثالث هو التأويل بصالح الدليل، والاتباع يعم العلمي والعقيدي، والعملي فيما فيه عمل، فليس البقاء على التشابه دونما تفسير اتباعا له، ولا اتباع ما تشابه بعد تفسيره الصحيح اتباعا محظورا، وانمّا المحظور هو اتباعه بتفسير وتأويل عليل دخيل.

٥. لا يعني التأويل تفسير النص او الظاهر إلى خلافه رغم اشتهاره فانّه تأويل عليل للتأويل، إنّما هو الارجاع، تأويلاً للمتشابه إلى المحكم ليزول التشابه، ثمّ تأويلاً للمحكم إلى مبدءِه ونتيجة هنا أم بعد الموت، ومن التأويل ما يختصّ باللهّ ككل غيب مختص به، ومنه ما يختص بالمعصومين كتأويل الأحكام فانّهم يعرفون مناطات الأحكام بما علمهم اللهّ بالرسول: «إنّا انزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما اراك اللهّ ولا تكن للخائنين خصيما» فهو صلى‌الله‌عليه‌وآله يحكم بين الناس في كافة الحقول بما اراه اللهّ، اراءة خاصة له بعد عامة القرآن، ومنها اراءة تأويلات الأحكام حتى يأهل للإفتاء في كلّ صغيرة وكبيرة بتلك الآراء.

ومن التأويل ما يعم اهل القرآن على درجاتهم، تأويلاً للمتشابه بنفسه ام بالرجوع إلى محكمه، ام تأويلاً لبعض الأحكام إلى مآخذها المنصوصة بالخصوص كتابا او سنة، ام متلقاة منهما بصورة قاطعة، كمأخذ الإسكار للخمر حيث يعمّ التحريم إلى كلّ مسكر وان لم يكن خمرا بالفعل، كمن يشرب العصير الكثير ثمّ ينام وِجاه الشمس ثم يسكر.

٦. الراسخون في العلم يعم كافة المؤمنين غير الزائغة قلوبهم مهما كانوا جهالاً لا يعلمون من القرآن حرفا، مهما كان افضل الراسخين في العلم هم الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله والائمّة المعصومون من عترته عليهم‌السلام، وبينهما متوسطون.

والواو في «والراسخون» في العلم تعني كلا العطف والإستئناف، عطفا للتدليل على ان منهم من يعلم جانبا من التأويل، واستئنافا للتدليل على اختصاص عامّة التأويل بالله والله هو الهادي إلى سواء السبيل.
«رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيْهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ المِيْعَادَ»[1].
فاعترافة اولى لأولى الالباب: «آمنا به كل من عند ربنا» جامعة لمثلث الإيمان بالتوحيد والنبوّة وكتاب الشرعة ككل، وهنا ثانية هي تالية التوحيد في هندسة الايمان ايا كان: «ربنا انك...».
فـ «يوم لا ريب فيه» فطريا وعقليا وعلميا وحسيا، هو هنا يوم الجمع، حيث يجمع فيه الناس نشرا وحشرا وحسابا وجزاءً وفاقا ولا يظلمون فتيلاً.
وانه جمع يجمع في خضمِّه كلَّ متطلبات الجزاء الوفاق لكلّ عامل صالحا او طالحا، ناسا وغير ناس، وما ذكر الناس هنا وفي كثير مثله إلاّ لأنّهم المحور الأساس في شرعة الله.
ومما يؤكّد ذلك الجمع «ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد» أفيخلفه عجزا أم جهلاً أم تجاهلاً أم بخلا أو ظلما، وساحة الربوبية براءٌ عن كل نقص لأنّه «الله» و«ان الله لا يخلف الميعاد».
«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنْ اللهِ شَيْئا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ»[2]
«إنّ الذين كفروا» بهذه الأصول الإيمانية وماتوا وهم كفار ـ كما تعينه «كدأب آل فرعون» في التالية ـ «لن تغني عنهم» يوم الجمع «أموالهم ولا أولادهم شيئا» بعد ما أغنت عنهم في حياة الإبتلاء «وأولئك هم» لا سواهم «وقود النار» حيث الكفار دركات أنزلها وأنذلها رؤوس الكفر ودعاة الضلالة الذين هم وقود نيران الإضلال هنا، إذا ـ وقود النار هناك، يتَّقِد بهم في النار هوامش الكفر المستحقين النار.
فلا وقود ـ إذا ـ للنار إلاّ رؤوس الكفر والضلال، كما لا نار هناك إلاّ بروزا لملكوت الأعمال.
فهم الناس في آية الوقود ـ الأخرى ـ : «فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين»[3] وهم المخاطبون في آية الحصب: «إنّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون»[4] وهم المعنيون بآيات الصلي: «لا يصلاها إلاّ الاشقى* الذي كذب وتولى»[5].
فلأن مثلث الآيات في الوقود والحصب والصلي تعني المشركين والمكذبين بآيات الله فهم ـ فقط ـ المعنيون من «الذين كفروا» هنا ومن سائر الحصب والصلي هناك وهنالك، ثمّ من سواهم من الكفار يحرقون بوقودهم اللهم إلاّ «الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنّما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا»[6] إذا فسائر ما يستحق به النار هي من فروع الشرك والتكذيب بايات الله، أعني رؤوس الزاوية في الإشراك والتكذيب.

---

[1]). سورة آل عمران: ٩.

[2]). سورة آل عمران: ١٠.

[3]). سورة آل عمران ٣:٢٤.

[4]). سورة الأنبياء ٢١:٩٨.

[5]). سورة الليل ٩٢:١٥.

[6]). سورة النساء ٤:١٠.

ولأن تلك النار ـ ككل ـ تطلع على اهليها من ذواتهم بأعمالهم فليس لهم الفرار عنها إلاّ أن يفروا من انفسهم الشريرة ولات حين فرار، وقد كان لهم أن يفروا منها يوم الدنيا مخالفة لأهوائهم واتباعا لهدى الله، ولكنّهم ماتوا بنيرانهم الجهنمية فليحرقوا بها، وذلك:

«كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ»[1].

الدأب هو السير المستمر، وهو هنا يعم النشأتين، فآل فرعون والذين من قبلهم في دأبهم كانوا دائبين في الكفر والتكذيب بآيات الله وماتوا وهم كفار، فكذلك «هم وقود النار» في دار القرار كما كانوا وقود النار في دار الفرار «فأخذهم الله بذنوبهم» طبقا عن طبق جزاءً وفاقا «والله شديد العقاب» عدلاً، كما هو ارحم الراحمين ثوابا.

وقد تحتمل «كدأب آل فرعون» وجوها عدة علّها كلّها معنية حيث يسعها ادب اللفظ وعناية المعنى.

فـ «آل فرعون» مفعول فاعله محذوف معروف هو الله، كسنته الجارية على هؤلاء وهؤلاء أخذا لهم بذنوبهم في الأولى والأخرى «مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا»[2] «ويوم تقوم الساعة ادخلوا آلَ فرعون أشدّ العذاب»[3].

أو أنّه فاعل: كدأبهم في التكذيب برسل الله ورسالاته وآياته وكأنّهم تواصوا به على طول خطّ الرسالات الإلهية.

او كدأب العذاب في آل فرعون دأبه في هؤلاء الأنكاد الذين هم فراعنة في هذه الرسالة القدسية السامية.

او ان الاضافة هنا لامية: كالدأب الذي لآل فرعون ـ منهم في تكذيبهم ومن الله في تعذيبهم ـ يكون الدأب في الذين كفروا من رؤوس الضلالة.

او كدأبهم في أنّه لم ينفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا عن عذاب الأولى فضلاً عن الأخرى.

فـ «دأب آل فرعون» على أية حال تحلق على كلّ دأب منهم وفيهم وعليهم ومن الله في الاولى والأخرى طبقا عن طبق ولا يظلمون نقيرا.

تأويل القرآن

«هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ»[4].

«هل ينظرون» هؤلاء الكفار وينتظرون بعد كتاب مفصل على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون، ينتظرون حجة أخرى بعده وهو الحجة البالغة الربانية بنوره وهداه ورحمته، وفيه الكفاءة لمن يتحرى عن الهدى، فاتحا منافذ ادراكه لتلقى الحقّ المُرام.

---

[1]). سورة آل عمران: ١١.

[2]). سورة نوح ٧١:٤٦.

[3]). سورة غافر ٤٠:٤٦.

[4]). سورة الأعراف ٧:٥٣.

«هل ينظرون إلاّ تأويله» إذ لم يبق انتظار بعد كامل حجته وشاملها إلاّ تأويله، وليس العلم بتأويل القرآن شرطا لبالغ حجته، فإنّ فيه الكفاءة التامّة الطامة: «أو لم يكفهم إنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون* قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون»[1].

ذلك، والتأويل في الأصل هو الإرجاع إلى مبدء أو منتهىً خارجَين عن نص المأوَّل وظاهره، وللقرآن تأويلان اثنان، تأويل المبدء وتأويل المعاد، وهو بين المبدء والمعاد حجة بظاهره وباطنه في إشارات ولطائف وحقائق يمكن الحصول عليها بحجته الظاهرة فتأويل المبدء هو المأخذ في أصل القرآن وفصله أحكاما وإنباآت أخرى، وتأويل المعاد هو واقع الأنباء المسرودة فيه، والتأويل المنتظر هنا هو الآتي في البرزخ برزخا وفي المعاد واقعا مفصلاً دون إبقاء، أم وتأويل علمي مبدءً حيث يظهر بعد الموت ما يمكن أن يظهر، وكذلك تأويل الأعمال ظهورا بحقائقها، ثمّ تأوّلاً إلى جزاءها الوفاق.

وفي رجعة أخرى إلى الآيتين «هل ينظرون» تجتث كافة الإنتظارات من كافة المنتظرات في حقل الحجج الربانية بعد نزول الحجة البالغة القرآنية، اللّهم إلاّ إنتظار المستحيل بحقهم وهو «تأويله» حيث ينقسم إلى مستحيل بحق الكلّ كالتأويل الخاص بالله، والمستحيل بحقّ غير الراسخين في العلم كمبادىء الأحكام، فإنّ العلم بها يخصهم، وهم المستنبطون منها السنة على هامش الكتاب.

ذلك، فكما من المنتظَرات المستحيلة الذاتية «أن يأتيهم الله في ظلّ من الغمام»[2] ـ والمستحيلة بحقهم «أن تأتيهم الملائكة»[3] قبل أجلهم.

كذلك «هل ينظرون إلاّ تأويله» حيث المنتظر لهم بين مستحيل ذاتي كالتأويل الخاص بالله حيث يحرم عن علمه الأقربون فضلاً عنهم، ومستحيل نسبي وقتي كالتأويل الخاص بأقرب المقربين في دور التكليف.

فانتظار معرفة التأويل مبدءً ومعادا كواقع الحجة الطليقة، بعد حجة القرآن البالغة، هو انتظار قاحل جاهل، فواقع التأويل للقرآن وعلمه قبل الموت، ليس واقعا لهم أولاء إذ تمت الحجة البالغة الدامغة بالقرآن «فهل ينظرون إلاّ تأويله...»؟

ولم يأت التأويل في القرآن إلاّ بمعنى الأوّل الرجوع لمتوسط الحقّ قرآنا وسواه، إلى مبدءه ومنتهاه، وكيف ينظرون تأويله وهم ـ بعد ـ لم يبلغوا إلى متوسط من تفهم ذلك الوسيط بين تأويله؟!

ثمّ للتأويل إجمال وتفصيل، فإجماله معروف من ظاهره الحاضر لمن ألقي السمع وهو شهيد، فقد يعرف من القرآن نفسه مبدءه وهو الله، ومعاده وهو يوم الله، وكما يعرف منه كافة الحقائق المقصودة في نشأة التكليف. وتفصيله غير معروف إلاّ لمن يحيط به علما ومعرفة يقينية بعين اليقين وحقه، اللهم إلاّ ما اختص به الله من معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وسائر العلم المخصوص بساحته القدسية المتعالية، وحجته البالغة الكافية هي وراء تأويله علميا وعينيا، فإنّ دورهما آت بعد الموت، اللهم إلاّ للمعصومين قدر ما قدره الله.

وقد يكفي للتصديق بأمرٍ، علم به، دون حيطة شاملة كما نعرف الله ولا نحيط به علما «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأؤيله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين»[4].

---

[1]). سورة الروم ٣٠:٥٢.

[2]). سورة البقرة ٢:٢١٠.

[3]). سورة الانعام ٦:١٥٨.

[4]). سورة يونس ١٠:٣٩.

فـ «هل ينظرون إلاّ تأويله» تنديد بهم شديد أنّهم ناظرون واقع نباء القرآن حتى يؤمنوا به وهو نبأ عظيم يدل على صدقه نفسه بكلّ بيناته الصادقة للذين يؤمنون.
و«هل ينظرون» هنا لمن ينتظر التأويل هو نظرة الإنتظار، ثم لا ينتظر بشأنه أي شيء لا حاضرا ولا تأويلاً هو واقع الإنتظار، حيث ينتظرهم تأويله مهما كانوا هم غير ناظريه، وذلك كالذي كان لآل فرعون «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا»[1] فنظر الإنتظار لهم «قرة عين لي ولك عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» وواقعه الذي ينتظرهم وهم غير ناظرين له «ليكون لهم عدوا وحزنا».
ذلك، وتنديد آخر بتهديد «يوم يأتي تأويله يقول الذي نسوه من قبل» نسيان التناسي لأصله المفصل وتأويله المجمل حيث تعني «نسوه» كليهما، أم هو يوم التأويل لكافة المكلّفين، ويوم القرآن بتأويله لأهله الخصوص، ومن الشاهد على طليق التأويل «قد جاءت رسل ربّنا بالحق» فقد نسوا من ذي قبل لقاء يومهم هذا، سواء أكانوا في زمن الشرعة القرآنية أم سواه من زمن الرسالات.
إذا فـ «نسوه من قبل» تعني نسيان يومهم هذا المدلول عليه بكافة البراهين الآفاقية والأنفسية، تكوينية وتشريعية، ولا سيما المدلول عليه بالقرآن العظيم الذي هو مهيمن على كتابات الوحي ورسالاته كلها.
يقولون هذه القولة الخاسرة الحاسرة ثم يتساءلون عما قد ينجيهم من عذاب يومئذٍ: «فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا» كما كنا نظن من ذي قبل أن «هؤلاء شفعاءنا عند الله ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى».
«أو نرد» إلى حياة التكليف «فنعمل غير الذي كنا نعمل» عمل العقيدة الصالحة والعمل الصالح، فإن طليق العمل يشمل كل عمل بجانحة أم جارحة، والأُولى أولى بكونها عملاً لأنها منشأ سائر العمل، ثمّ ولايفيدهم عمل دون إيمان فكيف يترجونه في رجوعهم المستدعى؟!
أجل فـ «نعمل غير الذي كنا نعمل» تعني غيارا كاملاً فيها، كافلاً للفلاح يوم التأويل: «وهم يصطرخُون فيها ربّنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكّرُ فيه من تذكّر وجاءَكم النذير فذوقوا فما للظّالمين من نصير»[2] «حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون»[3]، «ربّنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنّا موقنون»[4].
ولكنهم «قد خسروا أنفسهم» بما نسوا لقاء يومهم هذا «وضل عنهم ما كانوا يفترون» على الله من شركاء وشفعاء وما أشبه من فرية على الله أو على رسل الله ورسالته.
ذلك، وقد تدل هذه الآية بعشرات من أمثالها على واقع الإختيار للمكلفين، وإلاّ فلماذا يتطلبون الرجوع إلى الحياة الدنيا، وإلى عدم التكليف يوم الذين، وإلاّ لكانوا يجبرون ما فاتهم فيعملون غير الذي كانوا يعملون في الأخرى، دون تكلُّف للإرتجاع إلى الحياة الأولى.

---

[1]). سورة القصص ٢٨:٨.

[2]). سورة فاطر ٣٥:٣٧.

[3]). سورة المؤمنون ٢٣:٩٩.

[4]). سورة السجدة ٣٢:١٢.

ذلك، ومن تأويل المبدء: «ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا»[1] ومن المرجع: «قال لا يأتيكما طعام إلاّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما»[2] ثم لم يأت التأويل لذلك المعنى الشهير العليل، أنّه تفسير لنص أو ظاهر مستقرّ بخلافه نقيضا أو ضدا، لا في القرآن ولا في اللغة حيث هو من الأول الرجوع، ولا يرجع أي كائن في مثلث الزمان إلاّ إلى مبدءه أو منتهاه حتى يتبين أصله وفصله دون خفاءٍ.

ذلك هو التأويل، وأما التفصيل في «فصلناه» وهو «على علم هدىً ورحمة لقوم مؤمنون» فإنّما هو التفصيل البيان التبيان دون أي خفاء ذاتي دلالي للقرآن في أبعاد العبارة والإشارة واللطائف، ولكلٍّ نصيب مما كسبوا في ميادين المعرفة القرآنية «وما ربك بظلام للعبيد».

أجل إنّه تفصيل فيه تحصيل لكلّ المحاصيل المعنية بالقرآن دون أي خفاء مهما كان فيه من العناء، دون عزل ولا عضل لطائر الفكر الإنساني، الجائل في مجالات الذكر الحكيم.

ذلك، فليس فيه شك ولا ريب ولا عضال وصُدود «ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين»[3] ـ «ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيءٍ وهدىً ورحمةٌ لقوم يؤمنون»[4] «وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً..»[5].

فكما أن سائر الآيات المعجزات هي مفصلات غير مبهمات كـ «الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات»[6].

كذلك وبأحرى القرآن هو آيات مفصلات، مهما بانت مفصلات عن مفصلات بين الأرض والسماء، حيث المفصلات القرآنية خالدات تعيش مع الزمن دونما فتور أو قصور، وسائر الآيات فاترات عمن يعيشون بعدها، قاصرات الوصول إليهم، مستحيلات الوصول إليها بعد تقضِّيها.

ذلك! و«يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل» وهو نسيان القرآن، دراسة ومراسة وحراسة، ثمّ نسيان تأويل القرآن إيمانا أن له تأويلاً ـ ككل ـ ثمّ نسيان تأويله الخاص بيوم القيامة، والكلّ معني بعناية الإطلاق.

وترى. «نسوه» لا تشمل هؤلاء الذين «اتّخذوا هذا القرآن مهجورا» فهل نسيت «نسوه» قسما ممن نسوه لأنّهم مسلمون؟ ومحور التنديد ليس إلاّ «نسوه»!

فكما يندَّد بالذين نسوا الله قدر ما نسوه، كذلك التنديد بالذين نسوا القرآن قدر ما نسوه، بل التنديد بهم أشد، والإستنكار عليهم آكد! حيث لا يُرجى ممن آمن بالقرآن ذلك النسيان!

فالناسون القرآن ككل، هم «استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان

---

[1]). سورة الكهف ١٨:٧٨.

[2]). سورة يوسف ١٢:٣٧.

[3]). سورة يونس ١٠:٣٧.

[4]). سورة يوسف ١٢:١١١.

[5]). سورة الانعام ٦:١١٤.

[6]). سورة الاعراف ٧:١٣٣.

هم الخاسرون»[1] «ولكن متَّعتهم وآباءَهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا»[2].

القرآن
نور وكتاب مبين

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[3].

«يا أهل الكتاب» والكتاب مفردا يلمح أولاً أن التوراة والإنجيل يحملان شرعة واحدة فلا مزيد في الإنجيل إلاّ أنظمة خلقية عالية تحتاجها اليهود القساة العصات، ونزرا من تحليل ما حرم عليهم عقوبة وابتلاءً.

وثانيا أن كتب السماء كرسالات السماء هي سلسلة واحدة بين اللّه والمرسل إليهم، وحدة في العمق والإتجاه مهما اختلفت فيها طقوس عملية قضيةَ الإبتلاء والإكتمال، ومن ثمّ فالكتاب جنس يشمل كل كتاب.

«قد جاءكم رسولنا» جاءكم أولاً لأنكم أهل الكتاب، عارفون لغة الكتاب وطبيعته، فأنتم أحرى بتصديقه من الأميين الذين لا يعرفون وحي الكتاب.

وهنا «رسولنا» دون «رسولي» أو «الرسول» أو «محمد» تعبير قاصد إلى أمرين هامين يتبنيان كيان هذه الرسالة الأخيرة، ولذلك لم تأت هذه الصيغة إلاّ لرسولنا صلى‌الله‌عليه‌وآله[4].

فجميعه الصيغة تعني جمعية الصفات، فهذه الرسالة الأخيرة هي حصيلة الجمعية الربانية في صفاته الحسنى، فهي تحمل بلاغا جامعا لجمعية الربانية الإلهية المنبثة في سائر الرسالات وزيادة هي قضية خلودها.

ثمّ إفراد الرسول في هذه الجمعية يلمح بأنّه هو الرسول فقط، فسائر الرسل هم يعبِّدون الطريق لهذه الرسالة السامية، كما و«رسوله» أيضا تختصه دون سواه، ووحيه أمام سائر النبيين كأنّه الوحي لا سواه حين يقرن بسائر الوحي، حيث أتت بصيغة الوصية وِجاه وحيه صلى‌الله‌عليه‌وآله: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه..»[5].

---

[1]). سورة المجادلة ١٩:٥٨.

[2]). سورة الفرقان ١٨:٢٥.

[3]). سورة المائدة ٥: ١٥ ـ ١٦.

[4]). لقد جاء «رسولنا» هنا وفي (٥: ١٩ و٩٢ و٦٤ و: ١٢) ثمّ لم تأت لغيره.

[5]). سورة الشورى ١٣:٤٢.

إذا فـ «قد جاءكم رسولنا» قد تعني: قد جاءتكم كل الرسالات الربانية بمجيء هذا الرسول.

«يبيِّن لكم كثيرا مما تخفون من الكتاب» بيانا سلبيا لما حرَّفتم من كتابات الوحي، حيث السلب مقدم على الإيجاب في سلك الهداية وسائر التطهير. و«ما تخفون» يعم إخفاء أصل من الكتاب ام معنى منه، فقد أخفى النصارى توحيد الحق وحق التوحيد بسائر الكرامات الربانية والرسالية والأحكامية، وأخفي اليهود ـ كمزيد ـ شطرا من أحكام التوراة مصلحيةَ الخفاظ على مصالحهم المادية أو الروحية!، وكما أخفوا جميعا يدا واحدة البشارات المحمدية في التوراة والإنجيل، تحريفا لفظيا أو معنويا إخفاءً لهذه الرسالة السامية.

فهو بقرآنه المبين وبرهانه المتين يبين كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب، ويعف عن كثير مما كنتم تخفون من الكتاب، أو ومِن ذنوبكم إذا آمنتم بهذه الرسالة، فإن الإيمان الصالح كفارة عمّا سلف قبل الإيمان.

فالعفو هنا يعم العفو عن ذنوب إن آمنوا إلى جانب عدم البيان لقسم من إخفاءهم من الكتاب.

فالبشارات المخفية غير المبينة في هذه الرسالة نصا تتبين بمثل «الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل»[1] و«يعرفونه كما يعرفون أبناءهم»[2] فهما وأمثالهما كصورة عامة.

ومن الخاصة «ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره»[3].

ومما أخفوه غير البشارات في شؤون التوحيد والنبوة والمعاد والأحكام، نجد في القرآن بيانا له تصريحا أو تلويحا، فالقرآن مهيمن على ما بين يديه من كتاب، يبين تحريفه ويبين واجب الشرعة والديانة الربانية بأصولها وشطر شطير من فروعها[4].

ذلك «ويعف عن كثير» عفوا بيانا صراحا، لا عفوا عن ذنب الإخفاء فإنّه ليس له أي عفو من هذا القبيل لا جليل ولا قليل، فبدلاً من أن يبين كل ما أخفوه يبين كثيرا منه صراحا وكثيرا بسائر التلميح ككل الآيات التي تبين حقائق لا تتبدل فطريا وكثيرا واقعيا أو علميا حفاظا على بيانه الرسالي عن تطويل دون طائل، ومن فضْح أهل الكتاب بل ما أخفوه، فقد تكفيهم حجةً بيانُ كثير مما أخفوه، ثمّ تبيان غيره بتلميح ليعرفوا تصرفاتهم الخيانية في كتب الوحي فيرجعوا ـ ضروريا ـ عن غيهم إلى هذا النور المبين.

أترى تضادا بين «كثيرا» هنا و«أكثر» في أخرى «إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون»[5].

---

[1]). سورة الأعراف ٧:١٥٧.

[2]). سورة البقرة ٢:١٤٦.

[3]). سورة الفتح ٤٨:٢٩.

[4]). الدر المنثور ٢:٢٦٨ ـ أخرج ابن المنذر عن ابن جريح قال لما أخبر الأعور سمويل بن صوريا الذي صدق النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله على الرجم أنّه في كتابهم وقال: لكنا كنا نخفيه فنزلت «يا اهل الكتاب...» وفيه أخرج ابن جرير عن عكرمة قال ان نبي اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله أتاه اليهود يسألونه عن الرجم فقال: أيكم اعلم؟ فأشاروا إلى ابن صوريا فناشده بالذي أنزل التوراة على موسى والذي رفع الطور بالمؤمنين التي أخذت عليهم هل تجدون الرجم في كتابكم؟ فقال: انّه لما كثر فينا جلدنا مائة وحلقنا الرؤوس فحكم عليهم بالرجم فأنزل اللّه «يا أهل الكتاب...».

[5]). سورة النمل ٢٧:٧٦.

كلاّ لأمور شتى، منها التبيين هنا والقصُّ هناك وهذا أعم من ذاك، ومنها أن الذي هم فيه مختلفون كثيران إثنان والمبين منهما أكثر مما عفي عنه تبيينا.

أم وترى تضادا بين بيان الكثير والأكثر وطليق التبيين لما اختلفوا فيه في ثالثة: «وما أنزلنا عليكالكتاب إلاّ لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»[1]؟

كلا ثمّ كلاّ! حيث الذي اختلفوا فيه هنا غير ما هناك، فهنا المختلف فيه بين المشركين وهو مادة الإشراك مهما شمل موادا لأهل الكتاب، وهناك مختلقات أهل الكتاب، وقد بين القرآن أكثر الذي هم فيه يختلفون صراحا، ثمّ الكثير معروف من تبيين حقائق ناصعة مسرودة في الذكر الحكيم، فالمبيَّن الأول يتبنّى أهم المختلفات المختلقات من إخفاء الكتاب في مثلث التحريف لفظيا بزيادة أو نقصان، والتحريف معنويا بتفسير خلاف المقصود، والثاني يتبنى سائر ما أخفوه.

«قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين» وقضية العطف هنا أن المعني من «نور» غير المعني من «الكتاب» فهو «رسولنا» النور، كما وتدل عليه «سراجا منيرا»[2] مهما كان القرآن معه نورا «وأنزلنا إليكم نورا مبينا»[3] ولكنه مع القرآن نور كما القرآن معه نور «نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء» فهما كالظرف والمجرور إذا إجتمعا إفترقا وإذا إفترقا إجتمعا.

فلا أصدق تعبيرا عن قرآن محمد ومحمَّد القرآن من «نور» نور تشرق به كينونته فتشفُّ وتخفُّ وترفُّ ويشرق به كل شيءٍ أمامه، وهكذا نجد وفقا بين عديد ذكر النور والقرآن في القرآن وهو (٦٨) مرة!

ثمّ إن «رسولنا» هو «نور» كما أن «كتاب مبين» نور، نور في عقليته، نور في حاله ومقاله وفعاله، نور في إتجاهاته وتوجيهاته، فلذلك مثِّل به في آية النور: «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنّها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء» فأين هو مثل نوره؟: «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها إسمه يسبّح له فيها بالغدوِّ والآصال* رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله...»[4].

ذلك، وقد تعني «نور» هنا كلا النورين، كما «كتاب مبين» قد تعني كلا الكتابين وهكذا «وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين»[5] فالرسول هنا قرآن مبين، مما يؤكد كون القرآن الرسول مع القرآن الكتاب، وكون النور القرآن مع الرسول، فرقدان لا يتفارقان فيما يحويه القرآن إلاّ في خلود القرآن حاضرا في حياة التكليف دون الرسول.

«نور وكتاب مبين» ومما يبينه ذلك الكتاب النور أن ما جاء به هو نور رسالي من خالق النور وباعثها، كما ويبين كلّ

---

[1]). سورة النحل ١٦:٦٤.

[2]). سورة الأحزاب ٣٣:٤٦.

[3]). سورة النساء ٤:١٧٤.

[4]). سورة النور ٢٤:٣٧.

[5]). سورة يس ٣٦:٦٩.

شرائع الدين دون إبقاء.
ومن مواصفات «كتاب مبين»:
«يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام...» وهي سبل الإسلام الذي قضيته السلام، وكما أن «نور» تشمل الرسول النور والكتاب النور وكذلك الكتاب، «به» تعني بالرسول وبالكتاب، فالرسول يهدي بالكتاب والكتاب بالرسول، وكلاهما «بإذنه».
وهنا «من اتبع رضوانه» تحلّق على كل من يتحرى عن الحقّ وإن كان لمّا يصل إليه، فأولى مراحل إتباع رضوان الله التتبع عنه معرفيا ثم عقيديا وعمليا، فهي عبارة أخرى عن «هدىً للمتقين».
ثمّ «سبل السلام» هي السبل إلى الله في عديدها ومديدها في مختلف شؤون الحياة، ولأنّها لا تخلوا عن ظلمات آفاقية وأنفسية، قصورا أو تقصيرا تتحمل الإنحراف أو الوقفة على حدٍّ مّا، لذلك «ويخرجهم من الظلمات إلى النور» نور واحد ليست فيها ظلمات هذه السبل، ثم «ويهديهم إلى صراط مستقيم» هو آخر المطاف للسالكين إلى الله، فإنّه نور مطلق مطبق لا ظلام فيه مهما كان هو أيضا درجات، كما هدي القرآن هنا في درجات «يهدي به الله... ويخرجهم... ويهديهم إلى صراط مستقيم» زوايا ثلاث من هدي النور القرآن بإذن الرحيم الرحمن «فبأي آلاء ربكما تكذبان».
ثم هدي القرآن درجات، أولاها طبيعة الهدى الدلالية «هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان» وثانيتها واقع الهدى تحريا عنها فوصولاً إلى القرآن فـ «هدى للمتقين» وثالثتها واقعها المتكامل لمن اهتدى بالقرآن فهو هنا «يهدي به الله من اتبع رضوانه» المسرود فيه، مبينا لسنة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله «يهدي... سبل السلام» ثم وهذه الأخيرة أيضا مثلثة الدرجات متتابعة تتلو بعض ولِصق بعض:
«يهدي.. ١. سبل السلام و٢. يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ٣. ويهديهم إلى صراط مستقيم» وهنا في هذا المثلث «بإذنه» هي سيدة الموقف صلة لها، فلولا إذنه تكوينا استحالت الهدى، ولولاه تشريعا لم تصلح الدلالة إليها، فكما الرسول يهدي بالقرآن بإذن الله، كذلك ـ وبأحرى ـ غيره، فلا يسمح لأيٍّ كان أن يهدي بالقرآن إلاّ على ضوء العلم والعمل بالقرآن، أن يصبح هو بنفسه كأنه القرآن ثم يهدي به.
فسبل السلام أولاً هي سبل الله: «السلام» سلام من الله مسكوب في هذه السبل، سلام يحلّق على الحيوية الإيمانية كلها في سلام في حياة فردية وأخرى جمعية، سلام في القال والحال والفعال، وسلام في كل شيءٍ يبدء من هدي القرآن علما وعملاً صالحا فالهدي إلى سبل السلام بحاجة إلى اتباع رضوان الله وهو الجهاد المعني من: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين»[1].
ومن السلام الآتي ذكره في القرآن «دار السلام»[2] «وتحتيهم فيها سلام»[3] و«ادخلوها بسلام آمنين»[4] والحياة السلام في الأولى هي حياة السلام في الأخرى، والجامع للسلام ككل هو «الإسلام» إسلام الوجه لله بكلّ الوجوه.
ومن المؤسف جدا أن القرآن البيان التبيين الهادي إلى سبل السلام أصبح متروكا بين الأمة الاسلامية، فقد تركه أهل السنة إذ تركوا قرينه المبّين لرموزه وتأويلاته: الثقل الأصغر، فآل إلى تركه نفسه، وتركه الشيعة مهما خيِّل إليهم أنهم

---

[1]). سورة العنكبوت ٢٩:٦٩.

[2]). سورة الأنعام ٦:١٢٧.

[3]). سورة يونس ١٠:١٠.

[4]). سورة الحجر ١٥:٤٦.

تمسكوا بأهل البيت إذ تركوا الثقل الأكبر الذي هو مصدرهم فآل إلى ترك القرآن، ويكأنهم أجمعوا على رفض القرآن، والنتيجة أن العلوم الإسلامية انقطعت عن القرآن، فقد نظمت بأيدي اثيمة وأخرى جاهلة تنظيما بحيث كأنـه لا حاجة لها إلى القرآن، فبإمكان المتعلم علوم الدين أن يتعلمها جميعا ويتضلع فيها وهو لم يرجع إلى القرآن في أصل ولا فرع، فلم يبق للقرآن إلاّ التلاوة والإستخارة والإهداء إلى أرواح الأمـوات، وأرواحُ الأحيـاء منهـا خاليـة: «وقـال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا».

٢. ثم «ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه» إذن تشريعي حيث يهتدي بهدي الرسول فـ «ذكـر بـالقرآن مـن يخاف وعيد» وإذن تكويني في ذلك الإهتداء وصولاً إلى حقّ النور، ففي سبل السلام ظلـمات تُظِلـم عـلى السـالك سلوكه المسبَّل، وهنا اليد الرحيمة تأخذ بأيدي هؤلاء السالكين سبلَ السلام فتصبح السبل كلها نورا موصلاً إلى سليم السلام.

٣. ومرحلة ثالثة «ويهديهم إلى صراط مستقيم» والصراط مما يبتلع السالك أو يبتلعه السالك فلا ينحرف عنه قيدَ شعرة أو ينجرف وهو الصراط الذي نستدعي هديه في صلواتنا ليل نهار.

القرآن لا اختلاف فيه

«أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختِلَـفاً كَثِيراً»[1].

تنديدة شديدة موجهة إلى هؤلاء المتخلفين في مثلثه، بعد أمر الرسول صلى الله عليه وآله بالإعراض عنهم، فقد يُعـرض علـيهم الإحتكام إلى القرآن نفسه بعد ما عارضوا الرسول صلى الله عليه وآله وليعرفوا الطاعة الصالحة غير المفرّقة، وذلك من البراهين الواضحة على أصالة القرآن وفرعية السنة أولاً، وعلى إمكانية تفهُّم القرآن حتى لهؤلاء الثلاث فضـلاً عـن المـؤمنين الواقعيين.

ذلك! فحكم التدبر في القرآن عام يشمل كافة المكلفين به شريطة معرفة لغته وإمعان النظر في معانيه ومغازيه.

ومما ينتجه التدبر في القرآن هو ربانية آياته البينات بأسرها لمكان التلائم التام بينها دون تفاوت لفظيا ولا معنويا ولا واقعيا ولا في أي حقل من حقول الحق المُرام.

أجل والتناسق الطليق الرفيق الرقيق والعميق هو الظاهرة الباهرة التي لا يخطئها من يتدبر القرآن كقران، مهـما اختلفت العقول في إدراك مداها، ولكنها ككلٍّ تدرك تماما أنها في تناسق وتوافق تام «ولـو كـان مـن عنـد غـير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيرا».

ولا إختلاف في القرآن لا قليلاً ولا كثيرا، وطبيعة الحال في مَن سوى اللّٰه أيا كان هـي التضـاد، او التـدرُّج في الكـمال وعدم الحيطة المطلقة على الحقائق على أية حال.

فالقرآن النازل طيلة الحياة الرسولية في مختلف الحالات الحرجة والمجالات المرجة، في العهد المكي المتضيق والعهد المدني الرفيق، ثم منذ الفتح، ولا يوجد في آيِه أي إختلاف في قمة الفصاحة والبلاغة، ولا في المعاني المرادة، ولا بينها وبين الحق الواقع، ولا الفطرة ولا العقلية الصالحة غير المزيجة ولا المريجة.

---

[1]). سورة النساء ٤:٨٢.

ذلك الكتاب لا ريب فيه أنه من رب العالمين، فكما الشمس هي دالة بنفسها على نفسها بإشراقها، كذلك شموس الآيات القرآنية هي بأنفسها براهين ساطعة على أنّها ربانية المصدر والصدور، دون أي تدخل لأية عقلية خَلقية[1].

وهنالك آيات مع هذه تأمرنا بالتدبر في القرآن حقه، فتاركه مقفل القلب مغفّل: «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»[2] ـ «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبَّروا اياته وليتذكر أولوا الألباب»[3].

فالقلب المتدبر واللب المتذكر هما اللذان يتدبران القرآن، وإن القلوب أوعية فخيرها أوعاها، ولا يتحدد القرآن بمعارفه الجمة بساذجة الأفكار، فإنّما لكل قلب قدرُ وعيه.

والتدبر تفعُّل من الدّبر، وهو في القرآن جعلُ كلِّ آية دَبر نظيرتها ودبرَ ما حوتها، كما هي دبر التفكر الصالح فيها، ليحصل من هذه الثلاث حق المعنى وواقع المغزى من كل آية آية، حيث «الكتاب يصدق بعضه بعضا وأنّه لا إختلاف فيه»[4].

وتدبُّر ثان هو تواتر التفكر في القرآن بعد هذه التدبرات الثلاث، تحللاً عن إصر كل أسر من أفكار سابقة حاصلة من غير القرآن، بنظرة تجردية تعني استناط مرادات اللهّ تعالى دونما تحميل لعالقة الآراء.

و«إختلافا» بصيغة طليقة دون متعلّق خاص مما يستغرق السلب في أصل الإختلاف، فهو «إختلافا» «من وإلى»: بداية ونهاية في الكمال، أن يأتي كل كمال منه بعد نقص وكل أكمل منه بعد كامل، فلا تجد فيه سنة التكامل بأسره.

و«إختلافا» (في) آياته مع بعضها البعض في بلاغة العبارة وفصاحة التعبير، أن يبدوا فيها القمم والسفوح والتوفيق والتعثُّر والتحليق والهبوط والرفرقة والثقلة، والإشراف والإنطفاء.

و«إختلافا» (عن) حاق الحق الثابت الذي لا حِوَل عنه، وعن الواقع والصالح لحيوية المكلفين كأكملها، وعن قضية الفطرة السليمة والعقلية غير الدخيلة، وعن متطلَّبات كل زمن إلى آخر زمن التكليف.

و«إختلافا» فيها (بين) السنن المسرودة فيه بتضاد أو تناقض، بل هو الإلتيام والإلتحام التام بكل وفق ووئام.

فمادة الإختلاف ـ بأي معنىً كان وفي أي حقل من حقوله ـ مسلوب عن القرآن بصورة مستغرقة طليقة.

وسلبية واحدة من هذه الإختلافات هي مستحيلة بالنسبة لما كان من عند غير اللهّ مهما كان من أعلم العباقرة في أي حقل من حقول العلم والمعرفة، فضلاً عن السلبية الطليقة.

ومهما كانت الأنظار والأفكار في تفهُّم معاني القرآن درجات، ولكنها تلتقي في أظهر المظاهر القرآنية وهي ظاهرة عدم الإختلاف فيه لو أعطوا التدبر فيه حقه.

وكل ما يخيَّل إلى القاصرين أو المقصرين بحق القرآن من تهافت وإختلاف، إنّه يذبل ويزول بالنظر السليم إلى القرآن نفسه دون حاجة إلى توجيهات خارجية وتكلفات.

ذلك مع أن القرآن ناظر إلى كافة الحقائق جلية وخفية ـ وعلى ضوء تقدم العلم ـ نراه لا إختلاف فيه بين هذه الحقائق ولا قيد شعرة، مما لا يستطيع على طرف منها أي عبقري!

و«إختلافا كثيرا» هو لزام كلام غير اللهّ، فالقيد توضيحي وليس إحترازيا يعني أن في القرآن إختلافا قليلاً، كلا لا قليلاً

---

[1]). راجع تفصيل ظاهرة عدم الإختلاف تحت عنوان «عدم الإختلاف فيه» في ج ١ ص ٢٣٦ من الفرقان.

[2]). سورة محمد ٤٧:٢٤.

[3]). سورة ص ٣٨:٢٩.

[4]). نور الثقلين ١:٥٢٢ في نهج البلاغة قال: وذكر أن الكتاب... فقال سبحانه «ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه ا ءختلافا كثيرا».

ولا جليلاً، مما يوكّد ربانيته، دون أي إحتمال لتدخُّل العلم غير الرباني في إصداره.

وكما الفرق بين صنع الله من سواه بيِّن كالشمس في رابعة النهار، كذلك الفرق بين كلامه المتحدّى به وكلام الخلق، والقرآن متحدٍّ بكل أبعاده لفظيا ومعنويا كلَّ كتابات الأرض من عباقرة الكتاب النوابغ، ولم يأت حتى الآن ولن، من يسامي كلامُه كلامَه، أو يستطيع إنتقاضه أو إنتقاصه في أدب اللفظ أو حدب المعنى.

وحقا إنه لا نجد مظهرا من مظاهر التكوين والتدوين يفي الكائنات كلها، يظهر فيه ساطع الربوبية الإلهية كمثل المظهر القرآني العظيم، فلا يساوى ولا يسامى في أية ظاهرة من آيات الله على مدار الكون بأسره ـ لا تكوينيا ولا تشريعيا ـ فلا دليل على ربانيته الوحيدة غير الوهيدة كمثل القرآن، وقد عرَّف نفسه بأنّه شهادة قمة تدل على الله لأنه أنزل بعلم الله:

«قل أي شيءٍ أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله إلها آخر قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريءٌ مما تشركون. الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون»[1] «أنزله بعمله والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا»[2]: «قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب»[3] «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا»[4].

وهكذا نسمع ربنا يجعل القرآن شهادة على ربانيته كأفضل شهيد، وكأنه هو تعالى يشهد بنفسه المقدسة عند خلقه، وفي الحق لو أن الله ظهر بذاته لخلقه ما كان أظهر مما أظهر ربانيته بقرآنه المجيد وفرقانه الحميد.

ذلك، وعلى ضوء الدلالة القرآنية على الربوبية، هو دليل قاطع على الرسالة المحمدية كأفضل وأدوم الآيات القاصعة الناصعة على هذه الرسالة السامية، وكما يقسم بحكمة القرآن الحكيمة عليها: «يس* والقرآن الحكيم* إنك لمن المرسلين* على صراط مستقيم».

إذا فالقرآن هو نور الأنوار، وكفى به شاهدا ودليلاً على كل ما أراد الله أن يقوله للمكلفين من عباده، دون حاجة إلى شاهد آخر يشهد معه، بل فيه الكفاية الوافية: «أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون* قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون»[5].

ذلك! فهل ترى بعدُ أن القرآن غير مفهوم إلاّ أن يفهِّمه المعصوم نبيا أو إماما؟ ولا تُفهم النبوة وسائر العصمة إلا به! فالمدلولات اللفظية القرآنية لائحة لكل من عرف اللغة، وان كانت الإشارات واللطائف والحقائق ومنها التأويلات بحاجة الى مُعدات أخرى ليست هي لكل من اتقن اللغة.

«وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ

---

[1]). سورة الانعام ٦: ١٩.

[2]). سورة الأنعام ٦:٢٠.

[3]). سورة الرعد ١٣:٤٣.

[4]). سورة الفتح ٤٨:٢٨.

[5]). سورة العنكبوت ٢٩:٥٢.

مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً»[1].
تنديدة أخرى بالمجاهيل من المسلمين وجاه التكتيكات الحربية أنهم إذاعة فاضاعة بالنسبة لأمر من الأمن أو الخوف، من الأسرار التي لا تذاع إلاّ بأمر من الرسول كقيادة عليا، وأولي الأمر منهم كقيادات جزئية مقررة من القائد الأعلى.
ذلك وبصورة عامة إذاعة الأسرار فردية وجماعية محظورة في شرعة الله[2] اللهم إلاّ بإستنباط الصالح أو الأصلح في أية إذاعة، هما راجعان إلى أولي أمرها المخصوصين بها.
صحيح أن مورد الآية هو إذاعة أمرٍ من الأمن أو الخوف، ولكنها بصورة عامة تحذيرة عن أية إذاعة، وإرجاع في الأمور المشتبه فيها إلى الرسول والى أولي الأمر الذين افترض الله طاعتهم، وهم ـ ككل ـ الذين وُلوا الأمر أو أمرا من أمور الشرعة من ناحية الرسول وأفضلهم المعصومون من خلفاءه صلى‌الله‌عليه‌وآله[3].

القرآن
في ام الكتاب علي حكيم

---

[1]). سورة النساء: ٨٣.

[2]). نور الثقلين ١:٥٢٢ في أصول الكفاي عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام يقول: إنّ اللّه عزّ وجلّ عيّر أقواما بالإذاعة في قوله «وإذا جاءهم..» فإياكم والإذاعة.

[3]). نور الثقلين ١:٥٢٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما‌السلام حديث طويل يقول فيه: ومن وضع ولاية اللّه وأهل الإستنباط علم اللّه في غير أهل الصفوة من بيوتات الأنبياء فقد خالف أمر اللّه عز وجل وجعل الجهال ولاة أمر اللّه والمتكلفين بغير هدىً وزعموا أنهم أهل الإستنباط علم اللّه فقد فضلوا وأضلوا أتباعهم فلا يكون لهم يوم القيامة حجة، وقال أيضا ـ بعد ان قرء: فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين «فإن يكفر بها أمتك فقد وكّلنا أهل بيتك بالإيمان الذي أرسلتك به فلا يكفرون بها أبدا ولا أضيغ الإيمان الذي ارسلتك به وجعلت أهل بيتك بعدك علما على أمتك وولاة من بعدك وإستنباط علمي الذي ليس فيه كذب ولا إثم ولا زور ولا بطر ولا رياء.
وفيه من تفسير العياشي عن عبد اللّه بن جندب أنه كتب إليه أبو الحسن الرضا عليه‌السلام كتابا يذكر فيه: اقرأ ما سنح لهم الشيطان اغترهم بالشبهة ولبس عليهم أمر دينهم، وفيه: بل كان الفرض عليهم والواجب لهم من ذلك الوقوف عند التحير ورد ما جهلوه من ذلك إلى عالمه ومستنبطه لأنّ اللّه يقول في محكم كتابه «ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» يعني آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وهم الذين يستنبطون منهم القرآن ويعرفون الحلال والحرام وهم الحجة للّه على خلقه.
وفي ملحقات أحقاق الحق ٣:٥٤٢ في الآية عن الشعبي عن ابن عباس في تفسير مجاهد إن الآية نزلت في علي حين استخلفه في مدينة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، وفي ابانة الفلكي انّها نزلت حين شكا أبو بردة من علي كما في غاية المرام٤٣٣.

«حم» رابعة الحواميم السبع، تبدأ بالكتاب المبين وكما في الدخان، إلاّ أن هنا يجعل قرآنا عربيا، وهناك ينزل في ليلة مباركة، ثم لا ءنزال للكتاب في سائر السبع إلاّ تنزيلاً كما يسبقها أيضا تنزيل الزمر دون «حم» إذا ففي مفتتحات الحواميم تنزيلات ست للكتاب، منها ما هنا: «إنا جعلناه قرآنا عربيا»... تعني تفصيل الكتاب، وإنزال واحد في الدخان يعني محكم الكتاب النازل ليلة القدر جملة واحدة.

أترى ما هو الكتاب المبين؟ إن له حسب القرآن مصاديق ثلاثة: أعلاها أمُّ الكتاب لدى الله «وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم» كما هنا و«إنا أنزلناه في ليلة مباركة»[1] كما في الدخان أم ماذا.. وأدناها القرآن المفصل: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين»[2]«إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين»[3] وأوسطها القرآن المحكم النازل في ليلة مباركة على قلب الرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله «حم والكتاب المبين * انا انزلناه في ليلة مباركة»[4]«إنا انزلناه في ليلة القدر»[5].

فقد يعني الكتاب المبين هنا أم الكتاب فجعله قرآنا عربيا جعل ثان بعد إنزاله في ليلة القدر، أو يعني النازل فيها فجعله جعلٌ أول، وقد يلوح من «وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم» أنه الكتاب المبين الأوسط، وهنا يلوح «حم» خطابا لـ (أحمد ـ محمد) قَسَما بالكتاب المبين الذي أنزلناه عليك في ليلة مباركة «إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» إذ لم يكن قبله بمحكمه النازل فيها لا قرآنا: يُقرأ بألفاظ، ولا عربيا: لائحا لغير الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، ولقد كان النزول الأول: المحكم «في ام الكتاب لدينا لعلي» من أن تناله الأفهام حتى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله و«حكيم» لا يُتخلل حتى للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله! إذ لم يكن له سبيل إلى علم الله قبل وحيه اللهم إلاّ بوحيه بما أنزل عليه من علمه تعالى.

فقد أنزله الله مرة أوْلى في ليلة مباركة حتى وعاه الرسول محكما، ثم جعله قرآنا عربيا إنزالاً ثانيا تفصيلاً: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»[6].

وترى ما هو الكتاب المبين الأم؟ وما هو الفرق بين الكتب الثلاث؟

---

[1]). فان ضمير الغائب المفرد في «انزلناه» راجع إلى القرآن قبل الانزال لا بعده حيث الجمع بين حالتي النزول وقبله محال، فـ «ه» يعني ام الكتاب والله تعالى انزله من عَلِ الربوبية إلى دنو العبودية حتى تلقّاه الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بصورة محكمة، ومن ثم نزل هذا المنزَل آيات مفصلات لعلهم يعقلون.

وقد يحتمل ان الضمير راجع إلى الحالة الحاضرة لدى الجميع وهو القرآن المفصل وان كان أنزل وأدنى من المنزل ليلة القدر، فهناك حالة قبل الانزال في ام الكتاب، وحالة الانزال في ليلة القدر وحالة التنزيل في الكتاب المفصل والحقيقة واحدة،إلاّ ان للكتاب الام فضله حيث الآخران من ولده، فانه علم الله المحيط بكل شيء، وللكتاب المحكم فضله على المفصل بإحكامه وانّه يشمل ما يختص بالرسول نفسه، وهذا المختصّ بارز في الحروف المقطعة التي هي مفاتيح كنوز القرآن، اضافة إلى علم التأويل الخارج عن دلالة التنزيل، فهنا اختصاصان للرسول من القرآن.

[2]). سورة المائدة ٥:١٥.

[3]). سورة يس ٣٦:٦٩.

[4]). سورة الدخان ٤٤:٢.

[5]). سورة القدر ٩٧:١.

[6]). سورة هود ١١:١.

للكتاب الأم مواصفات عدة في سائر القرآن تميِّزه عن الآخرَين على وحدة في الثلاثة.
إنه العلم المطلق بكل شيء: «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين»[1] ومفاتح الغيب تشمل ا لعلمين الإلهيين الذاتي والفعلي، ثم يستعرض الثاني «ويعلم ما في البر والبحر» والكتاب المبين الثاني: القرآن المحكم، ولا الثالث: القرآن المفصل، لا يشملان العلم الفعلي كله فضلاً عن الذاتي الذي هو عين ذاته تعالى فلا يحدث وينفصل عنه، والفعلي حادث منفصل: «وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين»[2] هنا الآية تختص باستعراض العلم الفعلي الإلهي ككلٍ، وتختصها بالكتاب الأم: «وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين»[3] «وما من غائبة في السماء والأرض إلاّ في كتاب مبين»[4] «.. عالم الغيب لا يعزب عنه مثال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين»[5] «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»[6].
وذلك الكتاب الأم المبين هو الإمام المبين: «وكل شيء أحصيناه في إمام مبين»[7] وهو من لوح محفوظ «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ»[8] ولوح محفوظ هو الكتاب الأم، لائح لدى الله، محفوظ عند الله، والنازل منه ليلة القدر على لوح قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله المحفوظ بالعصمة الإلهية، ثم المنزَل طول البعثة لائح في صدور الحفاظ، محفوظ عن التحريف، وأخيرا في ألواح الأوراق أم ماذا، لائح للقارئين محفوظ عن التحريف، وكتاب مكنون: «إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون»[9].
والكتاب النازل بمحكمه ومفصله كانا في الكتاب الأم، فتولد المحكم من محكم الأم، والمفصل من هذا المحكم، كولد

---

[1]). سورة الانعام ٦:٥٩.

[2]). سورة يونس ١٠:٦١.

[3]). سورة هود ١١:٦.

[4]). سورة النمل ٢٧:٧٥.

[5]). سورة سبأ ٣٤:٣.

[6]). سورة يوسف ١٢:٣٩.

[7]). سورة يس ٣٦:١٢.

[8]). سورة البروج ٨٥:٣٣.

[9]). سورة الواقعة ٥٦:٧٨.

ثان لهذه الأم.
فأم الكتاب يعم ويطم كل علم، فما من غائبة في السماء والأرض ولا رطب ولا يابس، وما من قرآن ولا عمل ولا من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا اكبر إلا في كتاب مبين، لا يعزب عنه علم شيء ولا أي شيء، فهو العلم المطلق بكل شيء.
إذا ـ بطبيعة الحال ـ ليس الكتاب المبين الثاني: النازل ليلة القدر على قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ليس هو النسخة الثانية عن الكتاب الأم ككل، وإنّما هو منه كما هو فيه، وليس الشيء في نفسه وإنما هو فيما يحويه، كما نطق به آياته.
ثم الكتاب المبين الثاني أم الثالث: القرآن المفصل، فإنه آياته وليس الأم بتمامها، اللهم إلاّ ما هو للناس والعالمين أجمعين، اللهم إلاّ ما تعنيه رموز القرآن ومفاتيح غيبه الخاص بمن أوحي إليه وأهليه وتأويله، إذا فالقرآن المفصل هو هو الأم الثاني برموزه المنحصرة بالرسول المنحسرة عمن سوى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.
ثم المبين الثالث: هذا القرآن ليس إلاّ آيات الكتاب المبين: «آلر تلك آيات الكتاب المبين»[1] «آلر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين»[2] «طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين»[3].
فهذا الكتاب القرآن والقرآن الكتاب ليس إلاّ آيات للكتاب، والقرآن الأم، النازل في ليلة القدر، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، إلاّ بيان ما يختص بالرسول من حروفه الرمزية وتأويله، ثم هما: الأم الثاني بولدها، ليسا هما الكتاب المبين الأول بتمامه، حيث يجري علم الغيب كله دون عزوب أو غروب.
«والكتاب المبين. إنا جعلناه..» دليل أن القرآن المحكم والمفصل واحد لا يختلفان إلاّ في الإحكام والتفصيل: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»[4].
ثم «وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم» دليل على أن أم الكتاب الأولى ظرف للثانية بولدها، فهي تحويهما وتحيط بهما، دون تساوٍ، وإنّما أنزل منه ونزِّل ما يحتاجه النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله والعالمون أجمعون إلى يوم الدين، فهو من العلم الرباني وليس العلمَ كله، فهو من الغيب وليس الغيبَ كله.
والكتاب المبين الأوّل هو أولاً مبين لرب العالمين لا عن جهل، ومبين للنبي والعالمين على حدِّهم، ومبين كل شيء علما واقعا.
والمبين الثاني يخص النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله حيث لا سبيل لمن سواه إلى ما أوحي إليه ليلة القدر إلاّ ما بينه أو بينه القرآن المبين.
والمبين الثالث من طبعه أنه يبين دون خفاء في قصور دلالي، وعلى من يستبين دقيق النظر وحديد البصر ليبلغ مدى بيانه فـ «هذا بيان الناس».
«إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»[5].

---

[1]). سورة يوسف ١٢:١.

[2]). سورة الحجر ١٥:١.

[3]). سورة النمل ٢٧:١.

[4]). سورة هود ١١:١.

[5]). سورة الزخرف: ٣.

الكتاب المبين الأم الثاني فضلاً عن الأولى، لم يكن قرآنا: يُقرأ في آيات، ولا عربيا: بيِّنا يعرب عن حقيقته «للعالمين» «إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» ولا يعني «عربيا» إلاّ واضحا لاخفاء فيه، لا أنه باللغة العربية وان كان بها. إنه عربي في بعدين: باللغة العربية فإنّها أعرب اللغات وأظهرها، بلسان عربي في هذه اللغة حيث لا تعقيد فيه ولا ريب يعتريه، وجملة القول في عربيته أنه يعرب عن حقائقه كأوضح ما يمكن في فصاحة وخفاء فيما يعرب حيث لا يعزب عن دلالة، ولا يغرب عن لمحة إلاّ وهو بيان له، يعرب كأعرب بيان وأعذب تبيان.

فـ «كم» في لعلكم ليسوا هم العرب فحسب، حيث القرآن شرعة للعالمين وبيان للناس أجمعين، بل هم العالمون أجمع شرطَ أن يعرفوا هذه اللغة، أو يترجم لهم إلى لغتهم: «كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون»[1] فرب عربي لا يعلمه ورب اعجمي يعلمه، إن بلغته أم مفهومه أم ماذا.

إنه لسان عربي يعرب، لا لغة عربية قد تعرب وقد تَغرب «وهذا لسان عربي مبين»[2] «نزل به الروح الأمين على قلبك* لتكون من المنذرين* بلسان عربي مبين»[3].

إنه لسان عربي كما أنه حكم عربي «وكذلك أنزلناه حكما عربيا»[4] دون أن يختص لسانه وحكمه بالإنسان العربي، وإنّما هو عبارة تعرب وحكم يعرب دون عوج في حكمه او خفاء في تعبيره: «قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون»[5].

أترى لو نزل القرآن بغير هذه اللغة ما كان يُعقل أو يُتقى، فإنما يتقى ما يُعقل، ويُعقل ويُقبل الظاهر دلالةً، الموافق للعقل والفطرة والمصلحة مدلولاً.

فكم من عبارة عربية لا تُعقل فلا تُقبل، وكم من أعجمية تُعقل فتُقبل، ولكنما القرآن جمع بين عربية اللغة وعربية اللسان وعربية البيان وعربية الحقائق التي يتقبلها العقل والفطرة، ويصدقها الواقع، فهو حكم عربي في كافة المجالات. و«لعلَّ» هنا في موقف ترجِّي العقل عن القرآن، لا أن الله يترجى، وإنّما العالمون المكلّفون بشرعة القرآن، فمنهم من يعقله ومنهم من لا يعقله، فالقرآن في نفسه بيان لا عوج فيه، فيه رجاء عقلكم أن تأخذوا حقائقه، لا إثبات في عقله مطلق ولا سلب عن عقله مطلق، وإنما هو عوان، يُعقل لمن يعقله ويعقل عنه، ولا يُعقل لمن لا يعقله ولا يعقل عنه «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا».

«وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ»[6].

الكتاب هنا كتاب العلم المحيط من تشريع وتكوين، يحوي كل كتابات التشريع ومطلق التكوين، والقرآن موقفه في أم الكتاب، «علي حكيم». و«لدينا» هنا تعني: أنه لدينا، في أم الكتاب لدينا، إنّه في ميزان اللّه، في أم الكتاب لدى الله «علي حكيم»، «علي» على سائر الكتب السماوية وهي دونه، كما هو علي عن أن تناله الأفهام قبل نزوله وحتى

[1]). سورة فصلت ٤١:٣.

[2]). سورة النحل ١٦:١٠٣.

[3]). سورة الشعراء ٢٦:١٩٥.

[4]). سورة الرعد ١٣:٣٧.

[5]). سورة الزمر ٣٩:٢٨.

[6]). سورة الزخرف: آيه ٤.

للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فكيف بمن دونه!

«حكيم» من أن يتدخل فيه الأوهام، حكيم من النسخ والتحريف، فكما الله علي لا يُنال في علوه، وحكيم لا يُغتال، كذلك قرآنه المبين، فعلوُّه وحكمته لِزام له لايزول، وإن كان كلٌّ درجات في مثلثة الحالات «لدى الله» «لـدى رسـول الله» «لدى خلق الله» ولكنما الأمر الثابت أنه عليٌّ يعلو كلّ عال، حكيم لا يتطرق إليه أي إدغال، ولا ينفذ إليه غيره في أي مجال على أية حال!

القرآن هنا «علي» والله تعالى «علي» في آيات سبع، وأين علي من علي! حيث القرآن قبس من أم الكتاب لـدى الله «علي حكيم».

ثم القرآن هنا «حكيم» وفي آيات عدة: «ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم»[1][2] والله حكيم في(٩٣) آية، وأين حكيم من حكيم!

ولا يعني «علي» هنا عليا عليه‌السلام حيث الضمير في «إنه» راجع إلى «الكتاب المبين» فالكتاب المبين في أم الكتاب لدى الله علي حكيم، وإذا أوَّلته إلى ضمير شأن ـ حيث يتطلب مبتدءً وخبرا ـ لا تجد إلاّ خبرا موصوفا «لعلي حكيم» بـلا مبتدءٍ! حيث المبتدء لا يبتدء بلام التأكيد، ولا يعني رواية «على حكيم» إلاّ تطرفا جـاهلاً بعيـدا عـن أدب اللفـظ والمعنى[3] اللهم إلا تأويلاً يعني النسخة الثانية من الحكمة المحمدية تمثلاً في الإمام علي عليه‌السلام وتداوما في الأئمّة من أهل بيته الطاهرين كما يلوح من الرواية نفسها.

«أَفَنَضْرِبُ عَنكُمْ الذِّكْرَ صَفْحا أَنْ كُنتُمْ قَوْما مُسْرِفِينَ»[4].

هذا ذكر مبارك أنزل قرانا عربيا لعلكم تعقلون، رحمة عالية غالية لعلكم ترشدون، فإن عقلتم فأنتم مهتدون، وإن غفلتم وأسرفتم في الجهالة والتجاهل فحقٌّ عليكم عذاب الله أن يضرب عنكم الذكر صفحا، إعراضا عـنكم بنعمتـه واستعراضا لكم بنقمته، وإنه لتهديد مخيف أن يلوح لهم بعد ذلك بالإهمال من حسابه ورعايتـه جـزاءَ إسرافهـم القبيح.

إن ربكم يحدثكم في هذا الذكر بلسانكم كما يتفهمه كل إنسان، لسان الناس دون تكلف فـ «هذا بيان للناس» فهل إذا تحولتم من الناس إلى النساس «أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين»؟

فلو أن ضرب الذكر صفحا كان عنكم المسرفين برفعه أو محوه فما ذنب غير المسرفين؟ أو أن ضربه عنكم فقـط أن يجعل بينه وبينكم حجابا مستورا، فانقطاع لحجة دائبة عليكم من رب العالمين، فليكن الذكر أمامكم وبين ايديكم تعيشونه بأسماعكم وأبصاركم «لعلكم تعقلون» فتتقون شفاءً ورحمة للمؤمنين، أم نكالاً وخسارا للظالمين:

«وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا».

«وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِـنْهُمْ بَطْشـا وَمَضَىـ مَثَـلُ

---

[1]). سورة آل عمران ٣:٥٨.

[2]). كما في «تلك آيات الكتا ب الحكيم» (١٠:١) (٣١:٢) «يس والقرآن الحكيم» (٣٦:٢).

[3]). نور الثقلين ٤:٥٩٢ في كتاب معاني الأخبار باسناد متصل عن حماد بن عيسى عن ابي عبد الله عليه‌السلام في قوله الله عز وجلّ «اهدنا الصراط المستقيم» قال: هو امير المؤمنين ومعرفته والدليل على أنّه امير المؤمنين قوله عز وجل: وانّه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم» وهو امير المؤمنين عليه‌السلام في ام الكتاب في قوله «اهدنا الصراط المستقيم»؟

[4]). سورة الزخرف: ٥.

الْأَوَّلِينَ».[1]

«الأولين» هنا تعني مَن قبل الآخرين المسلمين كما «ولقد أرسلنا من قبلك في شِيَع الأولين»[2] «ثلة من الأولين وقليل من الآخرين قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات»[3] «ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين»[4]، وإن كانت تعني أحيانا من قبلكم وقبل الأوسطين: «قال ربكم وربّ آباءكم الأولين»[5] فحين تعني الأولين أولية الرسالة والمرسل إليهم فالآخرون هم المسلمون، لمحة لطيفة إلى أن الرسالات كلها تقدِمات وتهيئآت لهذه الرسالة الأخيرة السامية، لا شأن لها إلا أوليتها وأنها تُعبِّد طريق هذه الأخيرة.

«وكم أرسلنا من نبي» رسالة تترى دونما انقطاع «في الأولين»: «ثمّ أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون»[6] سنة دائبة في تواتر الرسالات رغم تواتر التكذيبات دون أن نضرب عنهم الذكر صفحا أن كانوا مسرفين!

«ما يأتيهم» هؤلاء المناكيد الأوغاد «من نبي إلاّ كانوا به يستهزؤن» وهم أولاء المترفون: «وما أرسلنا في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون»[7] ومن ثم المستضعفون، والرسالات الإلهية تُحارب المستكبرين وتؤوي المستضعفين:

«فأهلكنا أشد منهم بطشا» أشد منهم بينهم[8] وأشد منكم «ومضى مثل الأولين» مضيا في واقعه حيث الهلاك الواقع، ومضيا في إنباءه حيث الإنباءات الماضية منذ بزوغ وحي القرآن، ومضيا في إمضاءه ككل إنباءً لكم، حيث الإنباءات تترى طول نزول القرآن، ومضيا في تحقيقه بينكم: «لتركبن طبقا عن طبق»[9]سنن من كان قبلكم حذوَا النعل بالنعل والقذة بالقذة.

---

[1]). سورة الزخرف: ٦ ـ ٨.

[2]). سورة الحجر ١٠:١٥.

[3]). سورة الواقعة ٥٦:١٣ ـ ٣٩ ـ ٤٩ .

[4]). سورة الصافات ٣٧:٧١.

[5]). سورة الشعراء ٢٦:٢٦.

[6]). سورة المؤمنون ٢٣:٤٤.

[7]). سورة سبأ ٣٤:٣٤.

[8]). فـ «هم» يعنيهما، اشد منهم بينهم واشد من هؤلاء الموجودين زمن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[9]). سورة الانشقاق ٨٤:١٩.

القرآن

في ولايته الشاملة

«بسم الله الرحمن الرحيم المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ».[1]

لقد سميت «الأعراف» بها، لأنها سيدة الموقف البارز لرجال الأعراف، حيث هم شؤونهم بارزة بالموقف الأعلى يوم القيامة على الأعراف، تعريفا بفريقي الجنة والنار، وتقريرا لمصير كلٍّ بأمر اللهّ، ولأنها برجالها لم تُذكر في سائر الذكر الحكيم، كما هم القمة العليا بين الرساليين المعصومين، فهم منقطعوا النظير، ذكرا في القرآن ومحتدا عند الرحيم الرحمان بمن يرأسهم من هذا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله.

ذلك، إضافة إلى سائر الأعراف في مختلف حقول المعرفة الأعرافية المتميزة في هذه السورة عما سواها، وكما هي طبيعة الحال في كل سورة أنها تختص بميِّزات ومواقف خاصة ليست فيما سواها كما هي فيها.

ندرس على أعراف الأعراف موضوع العقيدة بمختلف حقولها، ومختلف العقليات المأمور بها، ومختلف القابليات والفاعليات والواقعيات في مسارحها.

وهنا من مواضيع العقيدة ـ البارزة ـ عرضها عبر التأريخ اللإنساني ككل، في مجال الرحلة الإنسانية إبتداءً بالجنة الإبتلائية الدنيوية، وانتهاءً إليها الأخروية لمن عمل لها، عرضا لموكب الإيمان الوضيء من لدن آدم إلى محمد عليهما‌السلام.

رحلة طويلة للغاية، تقطعها السورة مرحليا في مقاطع عدة، واقفة عند المواقف الرئيسية، البارزة المعالم منها، درسا عابرا لِمعتبر، تذكرا لمدِّكر.

ومن مواقفها الرئيسية المعرفية تبيان واقع أحكام الفطرة بصيغة الحوار: «ألست بربكم قالوا بلى...» عبارة أخرى من آية الفطرة في الروم.

أعراف وأعراف ندرسها على ضوء الأعراف عقيدية وأحكامية، آفاقية وأنفسية، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وملامح السورة تؤيد نزولها كما هيه، أم ولأقل تقدير أنها مؤلفة كسائر التأليف القرآني زمن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وقد كان يقرأها في صلواته[2].

المص[3]

---

[1]). سورة الاعراف ٧: ١ ـ ٣.

[2]). الدر المنثور ٣:٦٧ ـ أخرج سمويه في فوائده عن زيد بن ثابت قال: كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقرأ في المغرب بطولي الطولين «المص»، وعنه انه صلى‌الله‌عليه‌وآله قرأ في المغرب بالأعراف في الركعتين جميعا، وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قرأ سورة الأعراف في صلاة المغرب فرقها في ركعتين.

[3]). الاعراف: ٢.

مقطع من الحروف المقطَّعة القرآنية، التي هي برقيات رمزية خاصة بمهبط الوحي و«هي مفاتيح كنوز القرآن» لا نعرف منها معنى إلاّ ما عرفه الله لنا أو أهلوها المعصومون عليهم‌السلام، إبتداءً برأس الزاوية الرسولية، وإنتهاءً إلى الزاوية الأخيرة الرسالية.

لقد قيلت في «المص» أقوال ـ كما في غيرها ـ وغيلت أغوال، لا تستند إلى ركن وثيق، وإذا عنت فيما تعنيه معاني بحساب حروف الأعداد[1] فليست فوضى جزاف أن يحسبها كلٌّ كما يحب ويهوى، إنّما هي حسابات خاصة بين الله ورسول الوحي ورسالته.

وهنا «كتاب أنزل إليك» بعد «المص» مما تلمح أن المخاطب بها خصوص الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، ثم «فلا يكن في صدرك حرج منه» تلميحة أخرى أن «آلمص» تحمل ـ فيما تحمل ـ طمأنة لخاطره الشريف أنه ماض في سبيله، مجتازا عقباتها وعقوباتها، بفضل من الله روحمته.

«كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»[2].

«المص» هو «كتاب أنزل إليك» وهذا القرآن «كتاب أنزل إليك» وقد يعني ماضي النزول في «هذا القرآن» نازلَ محكمه ليلة القدر، إلى نازل تفصيله في مثلث الزمان، تلحيقا لمستقبله بماضيه لتحقق وقوعه كماضيه، فنازل الثلاث من مراحل النزول يزيل عنه كل حرج، وفي «المص» طمأنة رمزية بهذه البشارة السارة، أم ـ فقط ـ نازل ماضيه حتى الآن حيث لا يكلف إنذارا وذكرى إلاّ بما نزل بالفعل.

«فلا يكن في صدرك حرج منه» وترى بالإمكان كائن الضيق من نازل القرآن في صدره المنشرح بما شرحه الله قبل نزول القرآن ليأهل له، ومنذ بزوغ نزول القرآن؟ : «أَلم نشرح لك صدرك»!، ولقد شرح الله صدره صلى‌الله‌عليه‌وآله قبل نزول القرآن لينزل عليه منشرحا، وشرحه بهذا القرآن ما لم يكن يشرح بغيره، فكيف «فلا يكن في صدرك حرج منه» تعني

---

[1]). نور الثقلين ٢:١ في معاني الأخبار بسند أتى رجل من بني أمية ـ وكان زنديقا ـ جعفر بن محمد عليه‌السلام فقال له: قول اللّه: «آلمص» أي شيء أراد بهذا وأي شيء فيه من الحلال والحرام، وأي شيء مما ينتفع به الناس؟ قال: فاغتاط من ذلك جعفر بن محمد عليهما‌السلام فقال: أمسك ويحك! الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون كم معك؟ فقال الرجل: مأة وإحدى وستون، فقال له جعفر بن محمد عليه‌السلام فإذا انقظت سنة إحدى وستين ومأة ينقضي ملك أصحابك، قال: «نظر فلما انقضت إحدى وستون ومأة عاشورا دخل المسودة الكوفة وذهب ملكهم» أقول: هذا طرف من الطرف «المص» بحساب خاص وليس فوضى جزاف.

وعن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه‌السلام قال: إن حي بن أخطب وأبا ياسر بن أخطب ونقرأ من اليهود من أهل نجران أتوا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقالوا له: أليس تذكر أن فيما أنزل إليك «الم»؟ قال: بلى، قالوا: أتاك بها جبرئيل من عند اللّه؟ قال: نعم، قالوا لقد بعث اللّه أنبياء قبلك ما نعلم نبيا منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك! قال: فأقبل حي بن أخطب على أصحابه فقال له: الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة فعجب ممن يدخل في دين مدة ملكه وأكل أمته إحدى وسبعون سنة، قال: ثمّ أقبل على رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال له يا محمد هل مع هذا غيرهأ نعم، قال: هات، قال: «آلمص» قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذا مأة وإحدى وستون سنة، ثم قال لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هات قال: «الر» قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحد واللام ثلاثون والراء مأتان فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هات قال «المر» قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والراي مأتان، قال: فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم قال: قد التبس علينا أمرك فما ندري ما أعطيت ثم قاموا عنه ثم قال أبو ياسر لحي أخيه وما يدريك لعل محمّدا قد جمع هذا كله وأكثر منه فقال أبو جعفر عليه‌السلام: «إن هذه الآيات أنزلت منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات وهي تجري في وجوه أخر على غير ما تأول به حي وأبو ياسر وأصحابه.

[2]). سورة الاعراف: ٢.

واضع ذلك الحرج!

هنا في مثلث الحرج المحتمل نفسيا، وبلاغيا كأصل، وبلاغيا أمام ردود الفعل من المنذَرين، لا موقع للحرج المنهي إلاّ الثالث فان «أنزل إليك» من ربك يُطمئنه أنه وحي الرحمن وليس من وحي الشيطان أم خليط منهما ودَخَـل مـن دَجَل حتى يتحرج في نفسه، فغير النازل من الله يحرِّج في نفسه لمكان الخطاء، فـ : «حرج منه لتنذر به» مهما كان «ذكرى للمؤمنين» دون أي حَرَج أو مَرَج.

فـ «لتنذر به» هي ذات تعلقين ثانيهما «حرج منه» مهما كانت «وذكرى للمؤمنين» ذات تعلق واحد وهـو «أنـزل إليك... ذكرى للمؤمنين».

وقد تحتمل «ذكرى للمؤمنين» كـ «لتنذر» أنها ذات تعلق ثان، حيث الصعوبات فيسبيل «ذكرى للمؤمنين» واقعة مهما كانت أقل من «لتنذر به».

إذا فـ «أنزل» ـ «لتنذر به وذكرى للمؤمنين» ـ «فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين».

وترى ما هو دور «ذكرى للمؤمنين» وغيرهم أحوج منهم إلى ذكرى، ثم وهـو ذكـرى للعـالمين؟: «إن هـو إلاّ ذكـرى للعالمين»[1].

«ذكرى» هنا هي كما «هدىً للمتقين» تعني حاصلها، فمن يتذكر بالذكرى، أو يزداد ذكرى عـلى ذكـرى، فهـو مـن المؤمنين، مهما اختلف إيمان أول عن إيمان ثان، فالأول حالة الإيمان حيث يفتش عنه، والثاني هالته بعد حالته حيث يزداد به ذكرى: «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين»[2].

فطالما الإنذار شامل يحلِّق على كافة المكلفين، ولكن لا دور للذكرى إلاّ لمن ألقى السمع وهو شهيد فـ : «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»[3] فهو «هدىً وذكرى لأولي الألباب»[4].

فالذين كانت فيهم أجهزة الإستقبال للذكرى مفتوحة، كان القرآن لهم ذكرى معروفة، ثم الذين أغلقوا على أنفسهم هذه الأجهزة هو عليهم عمىً: «وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا»[5].

فقد اختص الحرج المنهي عنه رفعا أو دفعا بما هو من قضايا الدعوة بملابساته أمام الناكرين، ولا سيما القوم اللـدُّ الذين كان يعيشهم منذ بزوغها.

وصحيح أنه «ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له»[6] إلاَّ أن ملابسات هذه الدعوة ـ المليئة بالأشواك والأشلاء والعقبات ـ هي التي قد تُحرج الداعية فتُحوجه إلى إنشراح أكثر وإنفتاح أوفر في استقبال هذه الدعوة.

ذلك، لأن هذا الكتاب بتلك الدعوة الصارمة الصامدة، صدعا بما فيه مـن الحـق، ومواجهـةً للمرسـل إلـيهم بمـا لا

---

[1]). سورة الأنعام ٦:٩٠.

[2]). سورة الذاريات ٥١:٥٥.

[3]). سورة ق ٥٠:٣٧.

[4]). سورة غافر ٤٠:٥٤.

[5]). سورة الإسراء ١٧:٨٢.

[6]). سورة الأحزاب ٣٣:٣٨.

يحبون، ومجابهة لعقائد وتقاليد ورباطات جاهلية، ومعارضةً لنُظُم وأوضاع، لذلك كلّه وما أشبه من ملابسات الدعوة، ليست طبيعة حال الداعية فيها إلاّ حرجا واقعا ليس ليزول إلاّ بتصبُّر زائد، وصمود حائد، وتوفيق خاص من الله، و«إن الله تعالى لما أنزل القرآن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إني أخشى أن يكذبني الناس ويلثفوا ـ يكسروا ـ رأسي ويتركوه كالخبزة فأزال الله الخوف عنه بهذه الآية»[1].

أم وحرج مستقبل في مستقبلات الدعوة عليه أن يطارده بتصبر وصمود بما وعده الله النصر: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد»[2].

لذلك «فلا يكن في صدرك حرج منه» لأنه «كتاب أنزل إليك» من ربك، فالذي أنزله إليك هو حاسب كل حساباته، فخذ يا صاحب الدعوة الأخيرة مسيرك إلى مصيرك، ولا تتحرج في مواقفك، ولا تتخرَّج إلا موفقا محبورا، فسر وعين الله ترعاك.

وهنا «لا يكن» نهي عن أن يكون، وليس نهيا عما هو كائن، فقد تعني كما تعنيه «فلا يَصدنَّك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى»[3]. في موسى، وفي أضرابها لأضرابه من الدعاة الرساليين، وبأحرى في هذا الرسول، فـ «ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له»[4].

و«لان أشركت ليحبطن عملك..» وما أشبه، إعلانا جاهرا في هذه الإذاعة القرآنية ألا خمود ولا رُكود ولا إرتجاع لهذه الداعية عن الدعوة، فليحسب الأعداء والمأجورون كل حساباتهم، وليبأسوا عن القضاء عليه بمختلف المكائد والمصائد.

ثم ولو كان هنا واقع لذلك الحرج ـ لو خلي الرسول وطبعه ـ فهو كما كان لموسى أمام الدعوة الفرعونية حيث «قال رب إشرح لي صدري.. قال قد أوتيت سؤلك يا موسى»[5] والنهي عن هذا الحرج يعني الأمر بإزالته بما هو يسعى، وما يرجوه من الله، أم يعنيهما رفعا ودفعا، رفعا لما كان، ودفعا عما قد يكون من حرج في هذه السبيل الطويلة الملتوية الصعبة، فلقد نازلوه بضربات هدَّامة وواصلوا الدعايات المحتالة المتواصلة في تكذيبة لحد كان ينوى أن يترك بعض ما أوحى الله فنزلت: «فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضايقٌ به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك»[6] «ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون* فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين»[7] «ولا تحزن عليهم ولا تكن

---

[1]). نور الثقلين ٢:٤ في مجمع البيان وقد روي في الخبر أن الله..

[2]). سورة غافر ٤٠:٥١.

[3]). سورة طه ٢٠:١٦.

[4]). سورة الأحزاب ٣٣:٣٨.

[5]). سورة طه ٢٠:٣٦.

[6]). سورة هود ١١:١٢.

[7]). سورة الحجر ١٥:٩٨.

في ضيق مما يمكرون»[1].
وفي الحق إن ذلك الحرج هو حجر عثرة لكل داعية إلاّ من عصمه الله وهداه، وقد أمر هذا الرسول العظيم بالصبر: «فاصبر وما صبرك إلاّ بالله ولا تكن في ضيق مما يمكرون»[2] والإستقامة «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك»[3].
فهذا «كتاب أنزل إليك.. لتنذر به وذكرى للمؤمنين» «فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين» فاشدد شمرك، وتغاضَّ عن إمرك في أمرك، فلا يمنعك عنه أي مانع، ولا يفت عضدك في صراعه أي رادع، سِر فعين الله يرعاك.
ذلك كما و«المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج» مما يلمح أن «المص» تحمل ـ فيما تحمل ـ طمأنةً لخاطر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله أن دعوته ماشية ماضية مهما كثرت العراقيل أمامها.
إذا فـ «المص» وهذا القرآن «كتاب أنزل إليك من ربك» الذي رباك بالقمة الرسالية، فلم يكن ليدعك وحدك تتواتر عليك الرزايا التي ترضُّك، فالله ربك هو الذي ينصرك ويرضيك ويوهن منا وئيك.
«كتاب أنزل إليك.. لتنذر به وذكرى ـ فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى» فإنما هو الإنذار بالقرآن دون سواه، حقا لرسول القرآن، إنذارا بثابت الوحي الرباني.
فلا تجوز الدعوة الربانية إلاّ بعلم الوحي دون سائر العلم، وذلك طليق للرسل وسائر المعصومين، وهو قدر المستطاع لمن سواهم.
ذلك، فليس الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وحده هو صاحب المسؤولية في هذا الميدان، وإنما هو المسؤول الأول ما كان حيا، ثم الذين يحملون رسالته إلى يوم الدين، طولَ الزمان وعرضَ المكان، فإن الإسلام ليس حدثا تأريخيا حصل مرة ثم مضى، بل هو قضيةُ خلوده على مدار الزمن مواجهةً دائبة للمكلفين أيا كانوا وأيان إلى يوم الدين، وعلى حَمَلة هذه الرسالة ـ معصومين وسواهم ـ مواصلة الدعوة الصابرة الصامدة أمام كافة الجاهليات، غابرة متأخرة، وحاضرة متحضرة، حركة متواصلة وسبحا طويلاً لاستنقاذ البشرية من مستنقعات الجاهلية الجهلاء: «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك» «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم..»[4].
ولقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء ذلك الدين المتين، وانتكست البشرية إلى جاهلية هي أعرق وأحمق من الجاهلية الأولى، حيث شملت كل جوانب الحياة دون إبقاء، فإنها جاهلية علمية علمانية متحضرة تخيِّل إلى المجاهيل أنها تقدّمية بيضاء، رغم أنها رجعية سوداء، ضاربة أطنابها في كل أرجاء الأرض بكل جنبات الحياة، فلا بدّ من كفاح صارم قدر المستطاع، وبقدر ما اتسعت هذه الجاهلية في وجه الشرعة القرآنية بين أغارب وأقارب.
ولقد تكفي الدعوة القرآنية صدا لكل الهجمات الجاهلية بكل معداتها المتحضرة فانّه كتاب الخلود: «أو لم يكفهم أنا انزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم..»؟
ذلك، وهنا حرج آخر داخل في النهي هو الحرج عما أنزل إليه إذا كان باطلاً أم خليطا من الحق والباطل، ولأنه «كتاب أنزل إليك» من ربك، تأكيدا جاهرا أمام العالمين لكي يعلموا ـ على علمه صلى‌الله‌عليه‌وآله ـ أنه كتاب لا يحرِّج الداعية في الدعوة.

---

[1]). سورة النمل ٧٠:٢٧.

[2]). سورة النحل ١٢٧:١٦.

[3]). سورة هود ١١٢:١١.

[4]). سورة الفتح ٤٨: ٢٩.

فعصمة الداعية إلى عصمة مادة الدعوة هما يعصمانه عن أي خطأٍ قصورا أو تقصيرا، ثم عصمة الداعية ـ غير المعصومة ـ عن أي تقصير، على عدم عصمته عن قصور غير مقصر، تعصمه عن كثير من الأخطاء.
فأما إذا كانت مادة الدعوة غير معصومة، أم هي معصومة والداعية مقصر أو قاصر بتقصير، فهنالك الطامة الكبرى، ولذلك نرى تأكيد الأمر بالشورى من الرعيل الأعلى لربانيّ الأمة: «وأمرهم شورى بينهم» حتى يُجبِروا عدم العصمة للدعات غير المعصومين، وهنا «للمصيب أجران وللمخطىء أجروا حد» إذا كان خطأ قضيةَ عدم العصمة فقط، دون الخطإ القاصر عن تقصير.
ففي مثلث الحرج لا يُعنى منه حرج صدره من الوحي، بل هو حرج في الدعوة تأثيرا، ولها مادة، فإن مادة الدعوة معصومة، والداعية في دعوته على عين الله ورعايته.
ثمّ المسؤولية في حقل الدعوة القرآنية نذارة وذكرى، ليست ـ فحسب ـ على عواتق الدعاة، والمدعوون عليهم مسؤولية الإقبال والتقبل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ـ إذا فـ :
﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾[1]..
هناك «كتاب أنزل إليك»: أنت كداعية، بعد ما يصنعك الكتاب كأفضل صنع في محط الدعوة، وهنا «ما أنزل إليكم من ربكم» كمدعوين، ونازل الكتاب بنفسه في أيٍّ من منازله، هو بنفسه حجة لربانيته مصدرا وصدورا، للداعية والمدعوين به، حجة بالغة بنفسه دون حاجة إلى إثباتات أخرى وتأييدات، فانه رأس زوايا الحجج الربانية على مُدَراء الرسالات بأسرها.
فقضية إتباع الله ـ الأول ـ هي إتباع ما أنزل إليكم من ربكم، توحيدا عمليا بعد العقيدي منه.
وهنا «من دونه» قد تعني مع من دون الكتاب مِن دونِ الله. لمكان «أولياء» فاتبعوا الرب فيما أنزله ولا تتبعوا من دون الرب ربا، ولا من دون ما أنزله نازلاً، من أولياء غير الله وغير كتاب الله.
إذا فاتباع مَن دونه بكتابه من أولياء عمليا يصطدم وعقيدة التوحيد، فإنها ليست ـ فقط ـ تصورا قاحلاً عن مظاهر، إنما هي حقيقة تحلّق على كل جنبات الحياة ظاهرة وباطنة.
فولاية الطاغوت وعبادته بكتاباته لا تعني ـ فقط ـ تأليهها، بل واتباع أحكامها مهماخيل إليه أنه موحد لله لا يشرك به شيئا «قليلاً ما تذكرون» حق الإتباع في حقله حيث يخيل إلى مجاهيل أن العقيدة الصالحة هي الكافية مهما تخلفت طقوس وأعمال عما يرسمه المعبود الحق.
ذلك «ففي إتباع ما جاءكم من الله الفوز العظيم وفي تركه الخطأ المبين»[2].
وهنا «اتبعوا» يحلق على كافة الإتباعات بأسرها للشرعة القرآنية، علمية وعقيدية وعملية ودعائية، قفوا على آثارها دون إبقاء ولا إستثناء.
فالولاية التوحيدية لله هي ولاية إتباعه في شرعته ككل أصولاً وفروعا، دون تشطير البلد شطرين وأخذ العصا من جانبين، إكتفاءً في ولاية الله بمتخيَّل العقيدة، ثم الأعمال تابعة لسائر الأولياء «قليلاً ما تذكرون»!
«قليلاً» تذكركم «و«قليلاً» الذي تذكرونه من الحق، اعتبارا بعنايتي الموصول والموصوف في «ما» ومن قلة التذكر إتباع سائر الحجج اللجج، غامرة في التيه، بعيدة عن هدي القرآن بما فيه، فكل مستند غير «ما أنزل إليكم من ربكم» خارجة عما أنزل الله، داخلة في «من دونه من أولياء» من روايات وإجماعات وشهرات وسِيَر وعقلانيات وقياسات وإستحسانات وإستصلاحات، أمّا هو آت من غير «ما أنزل الله»، كما وكل إله من دون الله طاغوت.

---

[1]). سورة الاعراف: ٣.

[2]). نور الثقلين ٢:٤ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال: قال أمير المؤمنين في خطبته: قال الله: «واتبعوا..» ففي اتباع...

فهؤلآء الذين يفتون بغير ما أنزل اللّه أم ضده هم أولياء من دون اللّه، فاتباعهم خروج عن توحيد اللّه إلى الإشراك باللّه أو الإلحاد في اللّه.
ولئن قيل: إذا فاتباع السنة فيما لا توافق القرآن ولا تخالفه، هو أيضا خروج عن التوحيد الحق؟ ولا يستغنى عن السنة فيما لا نص له من الكتاب!
قيل: السنة القطعية هي أيضا مما أنزل اللّه مهما كان على هامش الوحي القرآني، فمما أنزل اللّه هو فرض طاعة رسول اللّه: «أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم..»ولا تعني طاعة الرسول بعد طاعة اللّه إلاّ طاعته في سنته الجامعة غير المفرَّقة، فللّه الولاية الطليقة في كل حقولها، ولكتابه والرسول ولاية شرعية طليقة لأنهما من اللّه، ثم لا ولاية طليقة بعد اللّه وكتابه ورسوله والرساليين المعصومين بعده.
إذا فـ «ما أنزل إليكم من ربكم» تعم إلى نازل القرآن دلاليا نازل السنة القطعية، رمزيا في وحي قرآني ثان، وإلاّ لكان صالح التعبير «اتبعوا الكتاب» فالنازل من ربكم هو واجب الإتباع من أصل الكتاب وفرع السنة، دون شتات الروايات المخالفة للقرآن، أم غير ثابتة الصدور.
ذلك، فهذا السلب «ولا تتبعوا من دونه أولياء» بعد ذلك الإثبات «إتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم» يحصران الإتباع المسموح في شرعة اللّه بما أنزل اللّه، المحصور في الكتاب والسنة القطعية، تمثيلاً لكلمة «لا إله إلاّ اللّه».
ثم «لا تتبعوا من دونه»: اللّه وكتاب اللّه، «أولياء» تنفي أية ولاية ربانية عن سائر الأرباب وسائر الكتابات، فكما أنه ولي المؤمنين، كذلك ـ وبأمره ـ كتابه وليهم الوحيد بين الكتابات.
فها هي قضية دين اللّه ـ الأساسية ـ إنّه إما إتباع خالص لما أنزل اللّه إسلاما ـ فقط ـ للّه، إفرادا له بالحاكمية الطليقة، وإما إتباع الأولياء من دونه إلحادا فيه، أو إشراكا به، أم جعلاً للبلد شطرين: عوانا بين التوحيد والإشراك، وهذا الثالوث خارج عن إتباع ما أنزل اللّه، داخل في إتباع مَن دونه مِن أولياء.
ولأن المحاولة ضخمة فخمة، فقد يمضي السياق يهزُّ الضمائر، ويوقظ السرائر، ويرجُّ جِبلاَّت الأجيال الشاردة عن دين اللّه، السادرة في الجاهلية رجّا عنيفا، عرضا لمصارع الغابرين من المكذبين:
وهنا في خطبة لعلي عليه‌السلام معتبَر لمعتبرٍ، تحذيرا عن ترك الإتباع لما أنزل اللّه:
«أما بعد فإن اللّه لم يقصم جباري دهرٍ قط إلاّ بعد تمهيل ورَخاءٍ، ولم يجبُر عزم أحدٍ من الأمم إلاّ بعد أزلٍ وبلاءٍ، وفي دونِ ما استقبلتم من عتبٍ، وما استدبرتم من خطب معتبَر، وما كل ذي قلب بلبيب، ولا كل ذي سمع بسميع، ولا كلُّ ذي ناظر ببصير ـ
فيا عجبا ومالي لا أعجب مِن خطاءِ هذه الفرق على إختلاف حججها في دينها، لا يقتفون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفُّون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المبهمات على آراءهم، كأن كل إمرىءٍ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يَرى بعُرىً ثقات، وأسباب محكمات»[١].
وقد «قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: أنا أوّل وافد على العزيز الجبار يوم القيامة، وكتابه وأهل بيتي ثم أمتي، ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب اللّه وبأهل بيتي»[٢].
والأمة الإسلامية برمتها شيعة وسنة تاركة للثقلين، فإن حديث العترة دون سناد إلى الكتاب لا ثقل له، وذلك سند أنه غير صادر عنهم.
و«القرآن غني لا غنى دونه ولا فقر بعده» و«القرآن أفضل شيءٍ دون اللّه، فمن وقر القرآن فقد وقر اللّه، ومن لم

---

[١]). الخطبة ٨٧.

[٢]). جامع أحاديث الشيعة ١٥:٦ عن الكافي عن الباقر عليه‌السلام قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله:

يوقر القرآن فقد إستخف بحرمة الله[1]، و«حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده»[2].
وفي كتاب للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى بعض عماله على اليمن:
«فإن هذا القرآن حبل الله المتين، فيه إقامة العدل وينابيع العلم وربيع القلوب»[3] أجل إنه حبل بين الله وخلقه، متين لا ينفصم ولا يفصم، عصمة لمستعصمهم، ومسكة لمستمسكهم، وهو ينابيع العلم، الينابيع المعرفية المتفجرة، من عيونه الجارية، ريا لكل غليل، وشفاءً لكل عليل، وهو ربيع القلوب الواعية الراعية، حيث تنفع بتدبر آياته، وتأمل بيناته.
فـ «تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم»[4].
و«عدد درج الجنة عدد أي القرآن فإذا دخل صاحب القرآن الجنة قيل له: إقرأ وارقأ، لكل آية درجة فلا تكون فوق حافظ القرآن درجة»[5].
و«من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلاَّ أنه لا يوحى إليه»[6].
و«تعلموا القرآن واقرؤه وإعلموا أنه كائن ذكرا وذخرا، وكائن عليكم وزرا، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم، فإنه من تبع القرآن تهجم به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن زُجَّ في قفاه حتى يقذفه في جهنم»[7].
وعنه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: «من قرأ ثلث القرآن أوتي ثلث النبوة، ومن قرأ نصف القرآن أوتي نصف النبوة، ومن قرأ القرآن كله أوتي النبوة كلها ثم يقال له يوم القيامة: إقرأ وارقأ، بكل آية درجة حتى بختم ما معه من القرآن، ثم يقال له: إقبض فيقبض فيقال له: هل تدري ما في يديك؟ وإذا في يده اليمنى الخلد وفي الأخرى النعيم[8].
ولا تعني هذه القراءة فاضية عن المعرفة والتطبيق، بل هي الفائضة بمعرفة وتطبيق، «ولكل درجات مما عملوا وما ربك بظلام للعبيد».

---

[1]). المصدر ٧ عن المجمع ١: ١٥ ـ أنس بن مالك عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله.

[2]). المصدر ٧ جامع الأخبار عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ورواه الشيخ أبو الفتوح في تفسيره عن أبي الدرداء عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله مثله.

[3]). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضى ١٤١.
وفيه عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول اللّه عزّ وجلّ: يا حملة القرآن تحببوا إلى اللّه تعالى بتوقير كتابه يزدكم حبا ويحببكم إلى خلقه.

[4]). المصدر (٨) عن نهج البلاغة (٣٣٠) في خطبة له عليه‌السلام.

[5]). المصدر ١٦ ـ البحار ٩٢:٢٢ كتاب الإمامة والتبصرة مفصل عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: ...

[6]). المصدر ١٧ ـ مجمع البيان ١:١٦ عن علي عليه‌السلام انه قال: ...

[7]). المصدر ١٠ ـ ابن أبي الجمهور في در اللئالي عن أبي موسى قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله : ...

[8]). تفسير الكشف والبيان للثعلبي رواه عن أبي أمامة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله: ...

و«إن هذا القرآن مأدُبة الله فتعلموا مأدُبته ما استطعتم، وإن اَصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب الله تعالى»[1].
فالمأدُبة ـ ضما ـ هي الطعام[2] وهي فتحا مفعلَة من الأدب[3] فقد أنزل الله القرآن طعاما للأرواح، وأدبا لها ربانيا، لا طعام لها أطعم، ولا أدب لها أءدب من هذا القرآن، والتاء في الوجهين هي للمبالغة، حيث تعني بالغ الطعام والأدب في القرآن للأرواح.
لذلك «وإن أصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب الله تعالى» و«أصفر» هي افعل الصِفر وهو الأخلى.
إذا فأخلى البيوت وأجوفها من الأثاث هو الجوف الأصفر من كتاب الله من الأساس، مهما امتلأ مما سواه من علوم هي بجنب القرآن خاطئة الحلوم.
والهرطقة الغافلة، القائلة: إن القرآن لا يفهم إلاّ بالرواية، معروضة عرض الحائط لمخالفتها بيان القرآن التبيان، إضافة إلى كرور الآيات أنه «بيان للناس».
فليس باب تفهم القرآن مقفلة على الناس، وإنما هي مغفلة مغفَّلة فمقفلة لمن لا يتدبرون القرآن: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[4] بأغفالها، تحريجا على الذين يحاولون تفهم القرآن، فتخريجا له عن حوزته.
وما بيان المعصومين عليهم‌السلام لآيات مسؤول عنها، إلاَّ للقاصرين عما يسألون إفهاما، أو المقصرين إفحاما، دون أهل القرآن العائشين إياه حياتَهم.
وليس تفسيرهم إلاَّ سنادا إلى لفظية الدلالات المسؤول عنها قصورا أو تقصيرا.
إذا فنكران أن القرآن في الأصل بيان وتبيان، نكران لمعجزة الفصاحة والبلاغة القرآنية، بل ونكران لهما عاديا من الناس العاديين!
ولا يعني الحظر عن تفسير القرآن بالرأي في «من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار» حظره عن كل مناهج التفسير، تعطيلاً له عن صالح التدبر والتفكر فيه، إنّما هو تفسير خاص «بالرأي» أن تعتقد في رأي أنه صالح، تقليدا أو اجتهادا، ثم تستند إلى القرآن لتثبيت رأيك، الذي يخالف نصه أو ظاهره، أم لا يوافق نصا منه أو ظاهرا، فانهما تفسير له بالرأي.
وأما تفسيره بنفسه وبالروايات والنظرات التي توافقه، وبالفطرة السليمة والعقلية الصالحة، والحس السليم، فكل ذلك محبور في حقل التفسير دون أي محظور.
وما تفسير «من فسر القرآن برأيه» بتعطيل القرآن عن التفكير فيه، إلاّ تفسيرا لهذا الحديث نفسه بالرأي، فليتبوء مقعد مفسره هكذا من النار.
وهل يقبل أي تفسير للقرآن إلاَّ بالعقلية السليمة، أم هل يقبل الحديث إلاّ بالعقل الذي يقبله تفسيرا للقرآن؟!

---

[1]). أمالي الصدوق المرتضى (١:٣٥٤) عن نافع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد اللّه بن مسعود عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: إن هذا القرآن...

[2]). فالمأدُبة في كلام العرب هي الطعام يصنعه الرجل ويدعو الناس إليه، فشبه النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ما يكسبه الإنسان من خير القرآن ونفعه وعائدته عليه إذا قرأه ودرس ما فيه، يناله المدعو من طعام الداعي وانتفاعه به، يقال: أدَب الرجل يأدِب فهو أدِب، إذا دعى الناس إلى طعامه، ويقال للمأدبة المدّعاة.

[3]). المأدبة من الأدب فقد أنزل اللّه القرآن تأديبا للمكلفين بآداب اللّه، وتاء المأدبة على الوجهين للمبالغة.

[4]). سورة محمد ٤٧:٢٤.

وليس العقل بالفطرة السليمة إلاّ ذريعة للحصول على مرادات الله من كلامه، دون تحميل عليه وتوجيه، إلاَّ توجيه نفسه بصورة صالحة صادقة للكشف عن معاني القرآن بذريعة اللغة الصالحة والأدب الأديب الأريب، وتفكير صالح في هذه السبيل.
وكما اللغة لا تحمَّل على القرآن، كذلك العقل، وإنّما هما كاشفان عما يراد من آيات الله البينات.
وكما أن خالص التوحيد هو طليق السلب: «لا إله» ومن ثم صالح الإثبات هو: «إلاّ الله» براحلة العقل والفطرة، كذلك خالص التفسير ليس إلاّ سلب كافة التقديرات والمحتملات المسبقة، ومن ثم الإثبات براحلة الفطرة والعقلية السليمتين واللغة والأدب السليمين، وصالح التدبر في القرآن.
هؤلاء الخارفون الهارفون يقصدون من وراء ذلك التفسير لحديث الرأي نفي روح القرآن عنه أمته، واختصاص تفسير القرآن بآرائهم، كما عملته الكنائس في القرون الوسطى فحظروا عن تفسير الإنجيل على الأمة المسيحية حتى يفسح لهم مجالات التحريف والتجديف في تفسيره بآرائهم وشهواتهم.
وهنا المانعون عن تفسير القرآن فريقان اثنان، فريق يمنع عنه نفيا له من أمته عن بكرته تحت نقاب تقديسه، وآخرون هم مانعون لكي يفسح لهم مجال ـ دون منازع ـ لتفسيره بآرائهم فقهيا أو فلسفيا أو علميا وما أشبه.
وهكذا أصبحت الأمة الإسلامية بعيدة عن روح القرآن، ناحية منحى تفاسير مختلقة مختلفة بآراء خاطئة.
ذلك، وهذا القرآن مصون عن كل تحريف وتجديف بعصمة ربانية مضمونة طول الزمان وعرض المكان، فآياته الـ/٦٦٦٠/ وكلماته الـ/٦٦٦٠٠، هما نفس العدد طول التاريخ الإسلامي دون زيادة أو نقصان وان في حرف أو نقطة أو إعراب أو نقصان، وهذه الكلمات لها سير تصاعدي سنوي منذ البعثة حتى ارتحال الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وذلك السير منظم منضد نجده في تصاعد/٥٠٠ كلمة سنويا، فمثله مثل الشمس في اشراقته التصاعدية، فقد أشرقت آياته البينات بهذه الصورة على قلوب المكلفين.

القرآن
ذكر رباني كامل شامل

«وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى»[1].
«ذكري» هنا هو «هداي» هناك، وكما الذكر درجات كذلك الاعراض عن الذكر دركات تجمعها «فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى» و«ذكري» بين آفاقي وأنفسي، ومن افضل الأول القرآن ورسول القرآن ويتلوه من يتلوه[2] والثاني فطري وعقلي، وكل ذلك من مصاديق «ذكري» على اختلاف درجاتها.
وكيف «من اعرض عن ذكري» وجاه «من اتبع هداي» والصيغة الصالحة «من لم يتبع هداي»؟ علَّه لان هناك من لا

---

[1]). سورة طه ١٢٤:٢٠.

[2]). كفاية الخصام ٤٩٦ ـ ابو صالح عن ابن عباس في الآية قال تعني الذي ترك ولاية علي عليه‌السلام اعماه اللّه وأصمه، اقول. وفيه روايات مستفيضة من طرق اصحابنا عن أئمتنا عليهم‌السلام.

يتبع هداه ولا يعرض عنها، كالمستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، في قصور مطلق ام طرف من التقصير لا يؤخذ بعين الاعتبار.

وكذلك العصات الذين هم مصيرهم إلى الجنة، اذ لم يعصوا الله اعراضا عن ذكره وهداه، وإنّما غلبت عليهم شهوتهم وشقوتهم وأركسوا فيها دون اعراض، فالصيغة الصالحة ـ إذا ـ كما هيه: «من اعرض عن ذكري...» والآيتان تتحدّثان عن كتلة الايمان الصائب والكفر الثاقب، واما العوان بينهما فلا ذكر عنهم في آية الذكر والهدى.

والمعيشة فعيلة من العيش وهو بالنسبة للمعرضين عن ذكر الله عيش الحياة الحيوانية التي يُظن انهم منها في رياحة دائمة، واما الروحية فهي خاوية عنهم وهم خاوون عنها، ولان الروح يتطلب ـ فطريا ـ اللا محدود من الكمال، وهم إثّاقلوا إلى الحياة الدنيا واطمأنوا بها، فلا يجدون بغيتهم فيها، وهم في نفس الوقت في تزعزع وتلكُّع دائب اذ لا ينالون منه غاية ما يحبون فيها.

فالمعيشة الضنك المخلَّفة من الاعراض عن ذكر الله هي الضلال المبين والشقاء الاشقى «ونحشره يوم القيامة اعمى» هي ابرز مصاديق المعيشة الضنك، ثم البرزخ ثم الدنيا»[1].

والقلب الهاوي المضطرب المرتكن الى الدنيا ولذاتها لا يعيش صاحبه الا معيشة ضنكا مهما كان في سعة ومتاع، حيث المقطوع الصلة عن الله والاطمئنان الى حماه هو في ضيق وضنك الحيرة، حرصا على حاضره، وحزنا على غابره، وطمعا في مستقبله بكل محاظيره، فهو دائبا يعيش ضنك الجري وراء بوارق المطامع والحسرات على ما لا يناله، وقد يروى عن رسول الهدى قوله «عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر في الشدة وأن لا يتوصل إلى قوْته إلاّ بمعصية الله تعالى»[2].

وهذه هي الدنيا التي لا جزاء فيها، فكيف بالآخرة؟ «ونحشره يوم القيامة اعمى» كما كان يوم الدنيا اعمى واين عمىً من عمىً؟

وتراها عمىً عن البصر فلا يبصرون هناك شيئا؟ فكيف يقال لهم «اقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا»[3] «إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا ابصرنا وسمعنا»[4]. ام عمى عن البصيرة؟ ولم تكن لهم بصيرة في الاولى حتى يعموا عنها في الاخرى!

الأصل في العمى هي التي عن البصيرة: «ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلاً»[5] فهي ـ إذا ـ الضلال عن السبيل، مهما كان بصيرا بالبصر الحيواني وأرقى «فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور»[6] و«اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم»[1] «صُمٌّ بكم عمي فهم لا يرجعون»[2].

---

[1]). الدر المنثور ٤:٣١١ عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في الآية قال: عذاب القبر.

[2]). التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٢:١٣١ روي عن علي عليه‌السلام عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله انّه قال:...

[3]). سورة الإسراء ١٧:١٤.

[4]). سورة السجدة ٣٢:١٢.

[5]). سورة الإسراء ١٧:٧٢.

[6]). سورة الحج ٢٢:٤٦.

ام انها تجمع لهم عمى البصر إلى عمى البصيرة حين يحشرون، ثم يرجعون الى ابصارهم ليروا بها ما يوحشهم عذابا فوق العذاب، ومن ذلك مسرح الاعمال التي يرونها، ومختلف الوان العذاب ومظاهر التجديف والتخويف التي يرونها، دون ان يروا او ينتظروا خيرا ينالونها «فبصرك اليوم حديد» تحد البصر إلى ما يزعجك، ولكنه اعمى من النظر إلى ما يبهجك[3].

«قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرا»[4].

كنت بصيرا بصر البصر، وبصيرا بصر البصيرة الحذق والسياسة الحيوية، وعلَّ «كنت بصيرا» هي باعتبار الاكثرية المطلقة، ام ان الأعمى لا يعرض عن ذكر الله، او انه حكاية حال البصير منهم حيث الاعمى لا يسأل هكذا، والاعمى المؤمن البصير يحشر بصيرا لبصارته الإيمانية، والمعرض عن ذكر الله البصير يحشر اعمى فسنادا الى الضابطة العادلة: (كما تعيشون تبعثون) يقول «لم حشرتني اعمى...»؟ والجواب الحاسم:

«قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى»[5].

«كذلك» الذي عشت قد حشرت، إذ كنت اعمى عن إبصار الحق وسماعه والتفكر فيه على التماعه حيث «اتتك آياتنا» مبصرة ومسموعة ومعقولة «فسنيتها» انها آياتي، واعرضت عنها وقد كانت ذكرى، وهكذا تحشر اعمى كما كنت اعمى «وكذلك اليوم تنسى» حرمانا عن البصيرة مدى حياتك في الاخرى، وعن البصر حيث ضيعته فيما لا يعنى، ابطالاً له عما يُعنى!

وذلك ظهور الحالات الدنيوية في الملكوت، ان تظهر عمى البصيرة على البصر، فالهول الشامل حين الحشر من ناحية، والعمى الحائلة عن إبصار المسرح المفجع من اخرى، انه عذاب فوق العذاب، مهما يرجع بصيرا بعد ردح ام في فترات لكي يرى العذاب، عذابا من نوع آخر فوق العذاب، فعماه حشرا عذاب، وإبصاره بعده عذاب جزاءً بما كانوا يعملون ولا يظلمون نقيرا.

---

[1]). سورة محمد ٤٧:٢٣.

[2]). سورة البقرة ٢:١٨.

[3]). في الكافي باسناده عن ابي بصير قال سمعت ابا عبد اللّه عليه‌السلام يقول: من مات وهو صحيح موسر لم يحج فهو ممن قال اللّه عز وجل: ونحشره يوم القيامة اعمى ـ قال: قلت سبحان اللّه اعمى؟ قال: نعم اعماه اللّه عن طريق الحق».

[4]). سورة طه: ١٢٥.

[5]). سورة طه: ١٢٦.

«وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورا وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلْ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»[1].

هنا «ما قدروا الله حق قدره» في ربوبيته برحيميته المقتضية لزاما بعثَ رسله، وفي الحج (٧٤) والزمر (٦٧) «ما قدروا الله حق قدره» في توحيده وألاَّ شريك له في ألوهيته، وهذه الآية بما بعدها مربوطة النياط بما قبلها من آيات الحجاج على المشركين الناكرين لرسالة البشر، وأهل الكتاب الناكرين لهذه الرسالة الأخيرة، وينكر ثالث أن النبوة وحي من الله على بشر سواء أكان النازل به مَلَكا أو بشرا!

إذا فـ «ما أنزل الله على بشر من شيء» تحمل ثالوثا من النكران.

فمن الناس ـ وهم ثالث ثلاثة ـ من يخيل إليهم أن الوحي إرتقاء عقلي للإنسان، دون إيحاء رباني خاص، فالنابغ من الإنسان نابع من عقليته البارعة ما يتسمى وحيا، فما هو إلاَّ وحي العقل بنضوجه وارتقائه إلى مرقى الكمال الطليق لحد المعرفة الطليقة حيث لا يبقى له حاجب وستار عن الحقائق.

ولكنهم غفلوا عن أن ذلك خاص بنطاق الكليات العقلية، فليس للعقل ـ مهما نضج وعرج معارج الكمال ـ أن يعرف كافة جزئيات الموضوعات والأحكام الموحيات إلى الرسل، ثم الأحكام لا تتبع كلها المصالح الواقعية فان قسما منها إبتلائية، إضافة إلى سائر البراهين القاطعة إلى واقع الوحي الرسالي إلى الرسل.

وكما أن قدر الله حق قدره درجات، كذلك عدم قدره حق قدره دركات، تعم كافة التقصيرات بجنب الله عقيديا وعمليا وفي لفظ القول.

فقدر الشيء أو الشخص هو منزلته المتميز بها عن غيره، والمنزلة الربوبية قضيتها ألا يسوى به سواه في أيٍّ من الأقدار، فليوحَّد في ألوهيته وكافة شؤون ربوبيته المقتضية إرسال رسله وابتعاث خلقه يوم الحساب لتحقيق كامل عدله بينهم.

فحق قدره ليس إلاَّ كما عرَّف نفسه وبيّن في شرعته، دون أن يوصف بقدر «فلا يوصف بقدر إلاَّ كان أعظم من ذلك»[2].

إذا فـ «إن الله عزّ وجلّ لا يقدر أحدٌ قدره»[3] في ذاته وصفاته وأفعاله، والواجب على عباده أن يقدروا قدره فيما عرف به نفسه وفيما فرضه أو حرمه.

فحق قدره هو حق وصفه بما حققه تعالى من أوصافه دون انتقاص منها ولا مساس من كرامته، وصفا معرفيا ووصفا لفظيا ووصفا عمليا، وفي هذا المثلث يُقدر الله حق قدره أم لا يُقدر، فلا نكلف بمعرفته كما هو، ولا وصفه كما هو، بل وعبادته كما يستحقه ونستطيعه، وذلك حق قدره بكماله وتمامه وما دونه عوان بين «قدروا» و«ما قدروا» ومن حق قدره فيما أنزل أن يحتل الموقع الأعلى من الدراسة فيه دون أن يجعل درسا جانبيا كما فعلته الحوزات الاسلامية، فقد مركزوا كل كتاب إلا القرآن وما قدروا الله حتَّى هامشيا فيه، فلا يفكر فيه ولا يتدبّر.

فهم «إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء» مسّوا من كرامة ربانيته كأنه يجهل حاجة المكلفين إلى وحيه، أو يبخل

---

[1]). سورة الأنعام ٦:٩١.

[2]). نور الثقلين ١:٧٤٤ عن اصول الكافي عن الفضيل بن يسار قال سمعت ابا عبد اللّه عليه‌السلام يقول: ان اللّه لا يوصف وكيف يوصف وقد قال في كتابه «وما قدروا اللّه حق قدره» فلا يوصف... وفيه عن أبي جعفر عليهما‌السلام مثله.

[3]). المصدر عن اسحاق بن عمار قال قال ابو عبد اللّه عليه‌السلام ان اللّه...

على علمه، أو يعجز على علمه وسماحته، أو يظلم على قدرته وسماحته وعلمه، والقائلون «ما أنزل اللّٰه على بشرٍ من شيء» التاركون له، هم أتباع لهم بل هم أضل منهم وأنكى.

هنا «ما قدروا اللّٰه» تعم كل القائلين «ما أنزل اللّٰه» ثم برهان ثان يخص أهل الكتاب منهم «قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدىً للناس...»[1] وغير بعيد عن هؤلاء الأنكاد أن يتقولوا هذه القولة تعصبا ضد الإسلام وهم المفضِّلون المشركين على المسلمين بنفس العصبية: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً»[2]، وهذه هي طبيعة الحال المتخلفة الشرسة العصبية الجهلاء الحمقاء على حاضر الحال، قومية أو طائفية أو إقليمية أمَّاهيه، أنها إذا أصبحت حجة على أصحابها، ذريعة لتقبل أشباهها، أنكروها عن بكرتها نكرانا للزاماتها.

فقد ينكر الكتابي كتابه إذا كان حجة لتصديق كتاب آخر، كما قد ينكر حسه أو فطرته أو عقليته أو علمه إذا كانت ذريعة لما يتنكره من جديد.

ذلك وقد يدعون ـ كما اليهود ـ أن الرسول السابق على رسولهم كان منهم في شرعتهم، ردا على النصارى وتثبيتا لأصالتهم طول التاريخ الرسالي، حتى نزل التنديد الشديد بهم: «يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلاَّ من بعده أفلا تعقلون... ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين»[3].

ذلك، فغير بعيد عن هؤلاء الأنكاد ـ في سلبياتهم وإيجابياتهم الحمقاء ـ أن ينكروا نزول الوحي على بشر بأسره ذريعة إلى نكران أفضل الوحي على محمد صلى الله عليه وآله، فهنا تبرز الحجة البالغة الإلهية تكذيبا لقولتهم: «قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى...»؟!

ومكية الآية لا تنافي التعرض لأهل الكتاب إذ انتشرت دعوة الإسلام في الجزيرة وفيها أهل الكتاب، كما وكانوا يبثون دعايات ويدسون بين المشركين المختلطين بهم سفرا وحضرا، ثم الدعوة القرآنية عالمية تقتضي عامة الخطابات إنْ في مكة أو في المدينة.

لقد قال الأولون «ما أنتم إلاَّ بشر مثلنا وما أنزل الرحمان من شيء»[4] استبعادا لرسالة البشر، وأنكر الآخرون نزول كتاب بعد موسى وعيسى عليهما السلام كأن اللّٰه عاجز عنه بعدهما فـ «قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدىً»[5] وقد تركتم نوره وهداه وراء ظهوركم «تجعلونه قراطيس» فاضية عن الوحي وهي فائضة بالوحي

---

[1]). المصدر عن تفسير القمي في الآية قال: لم يبلغوا من عظمة اللّه ان يصفوه بصفة «إذ قالوا...».

[2]). سورة النساء ٤:٥١.

[3]). سورة آل عمران ٣:٦٧.

[4]). سورة يس ٣٦:١٥.

[5]). الدر المنثور٣:٢٩ ـ اخرج ابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عن سعيد بن جبير قال جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبي صلى الله عليه وآله فقال له النبي صلى الله عليه وآله انشدك بالذي انزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة ان اللّه يبغض الحبر السمين وكان حبرا سمينا لغضب وقال: ما أنزل اللّه على بشر من شيء فقال له اصحابه ويحك ولا على موسى؟ قال: ما انزل اللّه على بشر من شيء فأنزل اللّه «وما قدروا اللّه حق قدره...».

وفيه اخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناس من يهود الى النبي صلى الله عليه وآله وهو محتسب فقالوا يا ابا القاسم ألا تأتينا

«قراطيس تبدونها» حيث لا يظهر فيها وحي إذ حرفتموه «وتخفـون كثيرا» منهـا، الـذي لم تقـدروا عـلى إمحـاءه وتحريفه، «وعُلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم» في ذلك الوحي النور والهدى، وسائر الوحي قبل التورات.
وهنا الخطاب في «تجعلونه» هو قضية الخطاب في «قل» فـ «تجعلونه قراطيس» غيابا لا تناسب الخطاب ولا سيما العتاب الذي هو قضية الخطاب!
فـ «علمتم...» برهان قاطع آخر على إنزال كتاب الوحي، فإن من العلم ما ليس يكتسب بأية وسيلة متعوَّدة وقـد علِّمتموه، وهو الفاصل بينكم وبين المشركين الذين لا يعلمون ما عُلِّمتم، فالصيغة الحاكية عن المشركين في القـرآن هي: «الذين لا يعلمون» والحاكية عمن سواهم «أهل الكتاب» فلا سبيل لهؤلاء إلى نكران الوحي، بحجة أولى «من أنزل...» ولا ثانية «وعلمتم»، فـ : من أنزل ومن علم؟:
«قل اللّٰه ثم ذرهم في خوضهم يلعبون»، «قل اللّٰه» عنهم إذ يعتقدون ولا يلفظون به ذريعة لنكران ما ينكرون.
«قل اللّٰه» ثم لا تحفل جدالهم ولجاجهم ومراءهم واهتراءهم، «ثم ذرهم» إلى نقمة اللّٰه «في خوضهم يلعبون».
وهكذا يواجَه من يعاند الحق في حجاجه اللجاج أن يُترك في خوضه الغامر دون أن يؤسف عليه ويؤسى له، حيث «جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا»، وذلك لا يقتضي ترك محاربتهم، فإن «ثم ذرهم» هي فقط امرٌ بتركهم في حقل الحجاج.
ذلك، وكل جملة من هذه مستقلة في حقولها، فـ «قل اللّٰه» تستقل في كافة الحقول، توحيدية وشركية وإلحادية، وفي حقل التوحيد توكلاً على اللّٰه لا سواه، واستعانة باللّٰه لا سواه، أن يعيش الموحد «قل اللّٰه» قولاً بالقال والحال والأعمال «ثم ذرهم» تركا لما سوى اللّٰه.
وفي حق الإلحاد والإشراك «قل اللّٰه ثم ذرهم في خوضهم يلعبون».
فحين لا ينفع قول الحق لا تترك أنت قول الحق بل «قل اللّٰه ثم ذرهم في خوضهم يلعبـون»، وعـلى أيـة حـال أثَّـر القول الحقّ أمّا أثر فـ «قل اللّٰه» قولاً في نفسك وقولاً في حقل الدعاية، فعلى الداعية أن يعـيش «قـل اللّٰه» دون أن يتركه على أية حال.
ذلك، فقد نرى أن لـ «ما أنزل اللّٰه» أعداء جاهرين ظاهرين وآخرين يتقبلونه ولا يُقبلون إليه.
فالقائل «ما أنزل اللّٰه من شيء» ينكره أولاً، ويتقلَّص ليتخلص منه عى طول الخط، ثمّ يوجه نكرانه بأن اللّٰه جلَّ قدره هو فوق أن ينزل شيئا لهذا الخلق الضئيل.
ثم القائل «أنزل اللّٰه» قد يحرفه كما يحب واقعيا أم دعائيا كما فعله المحرفون الكلم عن مواضعه في كتاب مـوسى والمسيح عليهماالسلام، وفعل معهم القائلون أن القرآن محرَّف!
ثم القائل «أنزل اللّٰه» دون تحريف، القائل بأن القرآن هو الدليل الأوَّل يتركه قائلاً: أين نحن وتفهُّم كلام اللّٰه، إن له أهلاً خصوصا لا يحل تفسيره إلاّ لهم.
ثم القائل «أنزل اللّٰه» مع التصديق أنه «بيان الناس» يحمل عليه الآراء تقديسا للأجلاء المفتين بخلافه، فلـيعنِ مـا عنوه منه!
وهكذا نرى «ما أنزل اللّٰه» ظليما أسيرا بأيدي الناس النسناس على مدار الزمن الرسالي، فلو أن «ما أنزل اللّٰه» كان هو المحور الأصيل لمُدَراء شرعة اللّٰه والمتشرعين بها، دونما حِوَلٍ عنـه، لم تحصـل هـذه الخلافـات العارمـة والإختلاقـات المتشتتة.
«وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِـهِ

بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحا؟ فأنزل اللّه تعالى: «يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء..» فجثا رجل من اليهود فقال: ما أنزل اللّه عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على احد شيئا فأنزل اللّه «وما قدروا اللّه...».

وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ»[1]:

«وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أُم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير»[2][3].

.. تلك كتب للماضين، ماضين على مناهجها وغير ماضين «وهذا» القرآن العظيم «كتاب أنزلناه مبارك» وكل كتب الله مباركة ولكن أين مبارك من مبارك؟

فهذا المبارك تتم بركته، وتطُم كافة المكلفين في كل حقول العلم والمعرفة والعمل الصالح إلى يوم الدين، ثم وليس بدعا من الكتب بل هو «مصدق الذي بين يديه» من كتب الوحي، تصديقا لصادق وحيها وتكذيبا للكاذب من تحريف أو تجديف.

وقد تلمح «بين يديه» إضافة إلى وحدة السلسلة الكتابية للرسل، أن هذا الكتاب ناظر إليها مهيمن عليها، تصديقا لصادقها وتكميلاً، وتكذيبا لكاذبها «مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه»[4]، ثم:

«ولتنذر أم القرى ومن حولها» فمكة المكرمة هي أم القرى في أصل التكوين إعتبارا بالكعبة المباركة حيث دُحيت الأرض من تحتها ومُكّت، فكل القرى طارئة عليها وهي أمها ومُخها، فقد اشتقت «مكة» من تمككت العظم أخرجت مخه، فهي مخ الأرض وأصلها ومنشاءُها. كما وأنّها أوَّل بيت وضع للناس: «إن أوَّل بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين».

ذلك وكما أن الأرض هي أم الكرات كلها بمعنى سبقها عليها في خلقها فصبغها بسابغ المكان والمكانة لأصول المكلفين بين العالمين، كما فصلت هذه السابقة السابغة في سورة فصلت.

فهي أم القرى الرسالية في الكون كله، أعم مما هي أم القرى الأرضية، تحليقا لواجهتها الروحية الرسالية على مكانات الرسالات كلها أرضية وسماوية.

فلأن «القرى» في حقل الانذار في القرى الرسالية، وانها جمع محلي باللام وهو يفيد الاستغراق، إذا فمستغرق القرى الرسالية ارضية وسماوية كلها تظل في ظل هذه الرسالة العالمية الكبرى دون إبقاءٍ.

فلئن كان النص «مكة ومن حولها» لكان ظاهرا في الجزيرة العربية، ولكنه «أم القرى ومن حولها» فـ «القرى» الشاملة لكافة المجتمعات المكلفة بالرسالات في الكون كله، تفسِّر «من حولها» بمن حول هذه العاصمة الرسالية العالمية.

فسعة «القرى» هي فسحة هذه الدعوة، ولأن «القرى» لا تختص بما حول مكة حيث تشمل ما تسمى قرية في أرض أو في سماء، فـ «حولها» تعني نفس «القرى» ومكة امها كلها، دون مثل الطائف[5] بل ان ما حولها طائف على

---

[1]). سورة الانعام: ٩٢.

[2]). سورة الشورى ٤٢:٧.

[3]). راجع الفرقان ٢٥:١١٥ تجد تفصيل البحث حول امية الدعوة القرآنية.

[4]). سورة المائدة ٥:٤٨.

[5]). في تفسير العياشي عن علي بن أسباط قال قلت لأبي جعفر عليهماالسلام لم سمي النبي الأمي؟ قال: نسب إلى مكة وذلك من قول الله «لتنذر ام القرى ومن حولها» وام القرى مكة ومن حولها الطائف» أقول: هذا تفسير باقرب المصاديق فلا تضيق به الآية الطليقة الشاملة لكل القرى في الكون كله.

العالمين اجمعين، دون طائف خاص ولا طائفة خاصة من العالمين.
فكما يعنى مما حول عاصمة الجمهورية الاسلامية كافة البلاد فيها، ويعني مما حول عاصمة الدولة المهدوية كافة من في الأرض وسائر المكلفين في أرجاء الكون، كذلك ـ وبأحرى ـ «أم القرى وما حولها» في هذه الرسالة السامية، فإن «القرى» التي هي حول «الأم»: العاصمة، هي مستغرق المجتمعات من كافة المكلفين من كل العالمين من أهل السماوات والأرضين.
هنا وفي الشورى (٧) «لتنذر ام القرى ومن حولها» وفي أخرى «لأنذركم به ومن بلغ» تشملان في ذلك الإنذار كافة البالغين من القرى المكلفة بشرائع الله، وليس الإنذار إلاَّ بالقرآن كما التذكير «فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» فلا تختص الدعوة القرآنية بالعرب، أم عرب الجزيرة، ام القرى المجاورة لأم القرى في الجزيرة، بل هي للناس كافة: «وما أرسلناك إلاَّ كافة للناس بشيرا ونذيرا»[١] «قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا»[٢] بل ولكل العالمين: «وما أرسلناك إلاَّ رحمة للعالمين»[٣].
فقد تصيَّد أعداءٌ للإسلام من المستشرقين أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها، مقتطعين آية أم القرى من القرآن كله ليخيِّلوا إلى البسطاء أن هذه الدعوة كانت في بدايتها محصورة بهؤلاء الأميين ومجاوريهم، ثم توسعت في الجزيرة كلها ثم همَّ محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله أن تتخطاها إلى الناس كافة وذلك بعد هجرته إلى المدينة وقيام دولته بها.
ولكنهم تغافلوا عن المعني من القرى في أم القرى، كما تغافلوا ان آيات الأنبياء وسبأٍ والأعراف من أولياء المكيات بداية الدعوة.
وحين تكون الدعوة الإسلامية للناس وللعالمين كافة، فالمتخلف عنها زغم اختصاصها بغيره خارج عن الناس وعن العالمين اجمعين، فهو ـ إذا ـ في زمرة النسناس.
وهنا نقول لمثل «الحداد» يا حداد قف على حدك وخفف عن جزرك ومدك فما كان كتاب الله لعبد تلعب بها أنت وأمثالك[٤].
فالقرآن هو وسيلة الدعوة الخالدة إلى يوم الدين، دعوة بأهله الرساليين، رسولاً وأئمة معصومين، ومن ثم علماء ربانيين دارسين في مدرسة القرآن العظيم، محصورة الدعوة والدعاية في هذا المثلث، إضافة إلى السنة الشارحة، وكل ذلك لمكان «ولتنذر» دون «لينذر» هنا و«ذكر بالقرآن» وما أشبه في غيرهما، فكامل الإنذار هو أن يكون بكتاب معصوم بمنذر معصوم أمن يتلوا تلوه ويحذوا محذاه ويرمي مرماه.
ذلك! فلا تعني «ما حولها» الحول المجاور لها، ولا ـ فقط ـ مشارق الأرض ومغاربها، لأن أم القرى هي العاصمة الكبرى للمملكة الرسالية، فـ «ماحولها» تعم كل قراها في الكون كله.

---

[١]). سورة سبأ ٣٤:٢٨.

[٢]). سورة الأعراف ٧:١٥٨.

[٣]). سورة الأنبياء ٢١:١٠٧.

[٤]). الاستاذ الحداد البيروتي رئيس مطارنة بيروت هو الذي ألف على إشرافه أربعة عشر كتابا ردا ـ بزعمه ـ على القرآن ومنها «الكتاب والقرآن» حيث ذكر فيه شطحات مثل أن القرآن دعوة عربية وليست عالمية وفي كتبنا الثلاث: المقارنات، عقائدنا و رسول الاسلام اجابات عن ردوده.

وهنا براهين اربعة تثبت وحي القرآن، أولاها «مبارك» حيث يحمل كافة البركات المرجوة من عند الله تعالى، فلا تجد بركة ربانية صالحة صادقة إلاَّ ويحويها ذلك الكتاب المبين والبرهان المتين.

فهو مبارك في صيغة التعبير بلاغة وفصاحة في القمة العليا، مبارك في الدلالة والتدليل، مبارك في وَفق الفطرة والعقلية السلمية وقضية الواقع المُعاش السليم دون أي دغَل أو دَخلٍ أو دَجَلٍ، فلا مزرءة فيه في أي حقل من الحقول، ولا ممسك عليه علميا أو عقليا أو واقعيا أم في أي سؤل أو سؤال للمكلفَين، وفي جملة واحدة «ولو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا».

وثانيهما: «مصدق الذي بين يديه» فالكتاب غير الإلهي ليس ليصدق الوحي ـ كما لا يصدقه الوحي ـ ولا يصادقه لاختلاف الصادر والمصدر، فلا يصدِّق الوحي إلاّ الوحي لتطابق المغزى، وتوافق المعنى.

فسلسلة الوحي الرباني مرتبطة بحلقات متماثلة مهما تفاصلت في طقوس أو تفاضلت، فانها تتفاضل حسب المصالح ولا تتعاضل، وسائر السلسلة غير متماثلة وهي متفاصلة متعاضلة، قضية وحدة المصدر وطليق العلم هناك، وعديد المصدر وحّد العلم هنا.

ذلك، كما وأن تصديق الذي بين يديه حجة على أهل الكتاب تحرضهم على الإيمان به، ولا سيما في الزمن القاحل الجاهل الذي سيطر فيه الجهل، وحرفت كتب الوحي عن جهات أشراعها.

لا سيما وأن القرآن يذكّرهم بما في تلك الكتابات من بشارات في تصريحات وإشارات إلى هذه الرسالة الأخيرة.

كما وأن بلاغة التعبير وتلائم المعبر عنه دون تصادم ـ حال ان كتبهم أدنى تعبيرا وهي محرفة ـ يدلهم على أنه بأحرى منها في صبغة الوحي وصيغته وصياغته.

وثالثتها «لتنذر أم القرى» حيث إن مسؤولية إنذار أم القرى وفيها ألدّ الأقوام في التأريخ الرسالي، هذه بواقعية تأثيره كما حصلت، مما يبرهن على بارع وحيه وقارع وقعته.

ورابعتها «ومن حولها» حيث الرسالة العالمية تتطلب معدات أقوى مما سواها، والنظر الصائب الثاقب يفيدنا أن قابلية هذه الرسالة وفاعليتها تناسب الإنذار الطليق في العالمين أجمعين[1].

ذلك، «والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به» حيث الايمان بالآخرة ايمان بالحساب، فالثواب والعقاب، ولزامه الرسالة الإلهية الحاملة لتكاليف الشرعة الحافلة لسؤل المتشرعين، فلولاها لكانت الآخرة عاطلة، إذا فالإيمان بذلك البعث يوم الاخرى إيمان بالبعث يوم الأولى، ومن ثمّ إنه هو الداعي إلى أمن شامل في الآخرة بما يبين من شروطات الأمن الواجب تحقيقها يوم الدنيا.

فالمؤمن بالآخرة حسابا وثوابا وعقابا يفتش عن أصلح المعدات لحياة سعيدة فيها، وقضية ذلك التحري الصالح هي الوصول إلى كامل الإيمان بالقرآن ورسوله، وكلما كان الإيمان بالآخرة أقوى فذلك التحري أكثر وأقوى، وكلما كان أضعف كان صاحبه أفشل وأغوى.

صحيح أن من قضايا الإيمان بالآخرة هو الإيمان بشرعة سماوية تعم كل كتب السماء، إلاَّ أن صالح الإيمان بعد تحرُّف الكتب السالفة ونزول كتاب جديد مهيمن عليها، غير محرف عن جهات أشراعها، إن ذلك يقتضي ـ فقط ـ الإيمان بالقرآن تطبيقا له في كافة ميادين الحياة، مهما كان التصديق بكل كتب السماء أيضا من قضاياه، تصديقا لأصل الوحي فيها، وتصديقا لانقضاء دورها، فتصديقا بهذا القرآن كآخر منشور من ولاية الله.

---

[1]). لتكملة البحث حول «أم القرى ومن حولها» راجع تفسير آيتها الثانية ٢٥: ١١٥ ـ ١٢٥.

القرآن
تذكرة لمن يخشى

طه

ملامح السورة ومصارحها برهان قاطع لا مرد له انها كلها مكية، وفيها من ذكريات التسليات من تاريخ الرسالات ولا سيما الموسوية، ما تُطمئِن خاطر الرسول الأقدس محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وكما تبدء به «طه» وتختم به: «فاصبر على ما يقولون... ولا تمدن عينيك... وامر اهلك بالصلاة.. قل كل متربص فتربصوا فستعلمون مَنْ اصحاب الصراط السوي ومن اهتدى»[1] وبينهما قصص موسى وهارون، ثم آدم وزوجه وهما اهم القصص الرسالية ومعارضيها طول التاريخ الرسالي، واكثرها ذكرا في الذكر الحكيم.

ويا لها من ظل ظليل يغمر غالبية جوها، علوي جليل تخشع له القلوب وتحار دونه الألباب وتخضع النفوس: تجلي الرب بالوحي بالوادي المقدس على عبده موسى كما تجلى بربوات المقدسين على «فاران»: حرى! تلك المناجاة الطويلة في بزوغ وحي التورات، والليل ساكن وموسى وحيد، وكما ناجى محمدا صلى‌الله‌عليه‌وآله في ساكن الليل والرسول وحيد بفاران، وبين الرسولين والوحيين والكتابين تشابهات منقطعة النظير عن كل بشير ونذير، مما تربط السورة كلها بهذا البشير النذير.

«بسم الله الرحمن الرحيم طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى»[2]

«طه» اسم من اسماء النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله نداءً، كـ «يس» «ن»[3] في القرآن او سواه[4] وهنا «عليك... لتشقى» دليلان اثنان على ذلك النداء، وثانيتهما تبرهن على مدى شقاءه في مرضات الله، هيمانا في الله، وشغفا في ذات الله، ابتغاء مرضات الله، اصطناعا لنفسه اكثر مما هي،واصطناعا للمرسل اليهم اكثر مما هم، وكما أمر بالأمرين في المزمل «قم الليل إلا قليلاً... ان لك في النهار سبحا طويلاً» فقدم الإمر من الأمرين فقام الليل طويلا طويلاً حتى تورّمت قدماه فجعل

---

[1]). سورة طه: ٢٠ الآية ١٣٥.

[2]). سورة طه ٢٠: ١ ـ ٣.

[3]). ففي القرآن ما فيتفسيرالبرهان ٣: ٢٩ عن التوحيد للصدوق سعيد بن عبد اللّه عن ابراهيم بن هاشم عن غثم بن عيسى عن حماد الطنافسي عن الكلبي عن ابي عبداللّه عليه‌السلام قال قال يا كلبي كم لمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله من اسم في القرآن، فقلت: اسمان او ثلاثة فقال يا كلبي له عشرهاسماء: وما محمد الا رسول ـ ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه احمد ـ ولما قال عبداللّه ـ طه ـ يس ـ ن ـ يا ايها المدثر ـ يا ايها المزمل ـ قد انزل اللّه اليكم ذكرا رسولاً ـ قال: الذكر اسم من اسماء محمد ونحن اهل الذكر..

اقول: وقيل «طه» من اسماء القرآن او السورة او اسم اللّه او مفتاح الاسم الطاهر والهادي، والمصدق منها اضافة الى انه من اسماء رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله مفتاحا لصفات من الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله واسما للسورة.

[4]). الدر المنثور ٤: ٢٨٩ ـ اخرج ابن مردويه عن ابي الطفيل قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله: لي عشرة اسماء عند ربي قال ابو الطفيل: حفظت منها ثمانية: محمد واحمد وابو القاسم والفاتح والخاتم والماحي والمعاقب والحاشر وزعم سيف ان ابا جعفر قال: الاسمان الباقيان طه ويس.

يرفع رجلاً ويضع رجلاً،[١] وكان يربط نفسه بحبل كيلا ينام[٢] ويضع إحدى رجليه على الأخرى[٣] وقد يروى عن اخيه علي عليه‌السلام: لقد قام رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه واصفَّر وجهه يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال الله عزّ وجلّ: «طه * ما انزلنا عليك القرآن لتشقى»بل لتسعد،[٤] ويؤوّل «الليل» هنا بما يناسب آية المزمل كما أمر «قم الليل الا قليلاً»حيث قلَّل قليل النوم لحد كثير حتى صح القول «يقوم الليل اجمع» فلم يكن مخالفا لأمر ربه، بل مرجحا إمر الأمر المخير بين مربعه، ثم «لتسعد» بفتح التاء هي سعادته نفسه بالقرآن، بشقاء العبادة والذكر عن الخشية، وبضِمنها هي إسعاده الآخرين، والمعنيان علهما معنيَّان، فتحلّق «لتشقى*إلا تذكرة» على شؤون النزول كلها.

وهي بطبيعة الحال عتاب حنون يدل على شغفه البالغ لحدٍّ رجح الأكثر مما عليه.

وكما يدل على الجهل البالغ في آباء الجهالات حيث نسبوه الى الشقاء بنزول القرآن، تركا لما هم فيه وآباءهم من الجاهليات الساقطة فـ«بل لتسعد» تفسيرا لمقابل «تشقى» ناظرة الى شأني النزول، فلا هو شقي بنزول القرآن خلاف ما افتري عليه، ولا عليه ان يتعب نفسه به في نفسه وفي دعوته، فقد وضع عنه إصر مثلث الشقاء عناءً، ورسول الهدى من غير السعادة في الشقاء براء.

ففي ذلك الخطاب العتاب الحنون رد على الذين قالوا «لقد شقى هذا الرجل بربه فأنزل الله طه»[٥] وعلّه مثلث الشقاء، وقد يروى عن طه صلى‌الله‌عليه‌وآله «ان الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل ان يخلق السماوات والأرض بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لأمة ينزل عليها هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا».[٦]

ولأن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله كان دائب العبودية في أصعبها ليطهِّر اكثر واكثر، وكان دائب الدعوة الصارمة حرصا على هداهم، ضائق الصدر عن رداهم، كما «لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى» لمحة إجمالية عنهما، وفي القرآن المفصل

---

[١]). المصدر اخرج ابن مردويه عن علي عليه‌السلام قال: لما نزل على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يا ايها المزمل قم الليل الا قليلا قام الليل كله حتى تورمت قدماه فجعل يرفع رجلا ويضع رجلاً فهبط جبريل فقال: طه...

[٢]). المصدر اخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله اذا قام من الليل يربط نفسه بحبل كيلا ينام فانزل اللّه عليه طه.

[٣]). المصدر اخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يربط نفسه ويضع احدى رجليه على الاخرى فنزله طه..

[٤]). نور الثقلين ٣: ٣٦٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي روي عن موسى بن جعفر عن ابيه عن آبائه عليهم‌السلام عن الحسين بن علي عليه‌السلام قال قال أمير المؤمنين عليه‌السلام ولقد قام رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله...

[٥]). الدر المنثور اخرج ابن مردويه ابن جرير عن ابن عباس وفي تفسير الرازي ٢٢: ٣ قال مقاتل. ان ابا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدي والنضر بن الحارث قالوا لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله انك لتشقى حيث تركت دين آباءك فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله بل بعثت رحمة للعالمين قالوا بل انت تشقى فانزل اللّه تعالى هذه الآية ردا عليهم وتعريفا لمحمد بان دين الاسلام هو السلام.

[٦]). المصدر اخرج الدارمي وابن خزيمة في التوحيد والعقيلي في الضعفاء والطبراني في الأوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابي هريرة قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ان اللّه...

تفصيلهما، فعلَّه لذلك خوطب هنا بطه، انه الطاهر لقمتها دون شقاء في العبادة، والهادي لقمتها دون شقاءٍ في الدعوة، فهو الطاهر الهادي فلماذا يشقى.

انه صلى‌الله‌عليه‌وآله الطهارة القمة فهو «ط»[١] وهو الهداية القمة فهو «ه» وذلك بعصمة إلهية بما اصطنعه ربه واصطنع هو نفسه، فتكفيه ما فرض عليه ربه في بعدي العبودية والدعوة دون زيادة وعبءٍ فيه شقوةٌ، فيا له من مكرمة ربانية شغفا بالغا في تحقيق عُدَّة العبودية وتطبيق المسؤولية في الدعوة، لحدٍّ يقول له ربه قف يا «طه* ما انزلنا عليك القرآن لتشقى*إلا تذكرة لمن يخشى» وانت اوّل العابدين وسيد المرسلين وإمام الأولين والآخرين.

أم انه «طالب الحق الهادي إليه»[٢] فكذلك الأمر، حيث الطلب بالعبودية لاصطناع نفسه والهداية لاصطناع غيره.

وأما ان «طه» كلمة معربة عن لغة «عك» او النبطية او الحبشية او السريانية[٣] فغير وجيه ولا صحيح، ومعناها فيها «يا رجل» فكيف يخاطب اوّل العابدين وسيد المرسلين ب «يا رجل» وهو رسول ونبي في ساير القرآن؟ ومع الغض عن ذلك الغض في مكانتِه فلماذا لم يأت «يا رجل» في صيغته العربية، انتقالاً الى لغة اجنبية غير بهية؟!.

ولا أنه بمعنى «طأ» قلبا لهمزته هاءً، قلبا لرجله الى الأرض بعد رفعها ما رفع، مهما وردت به رواية، فانها مردودة الى راويها حيث تنافي القرآن البيان.

كلا! انه الطاهر الهادي، او طالب الحق الهادي اليه، كما يروى في اخرى تناسب موقف القرآن لفظيا، والخطاب معنويا «ما انزلنا عليك القرآن لتشقى».

ومن الموافقات هنا في منزلة ذلك البدر الساطع المنير أن «طه» حسب حروف الجمل: (١٤).

وهي ليلة البدر، أتراه بعدُ مختلفا عن أمر ربه في «تشقى» حتى يُنهى هنا؟ كلاّ! فان ذلك كان طبيعة الحال في عبد شكورٍ مثله حتى تأتيه الرخصة تخفيفا بعد أمره في المزمل وبعد «انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً» وكما أجاب سائله «يا رسول اللّه لم تتعب نفسك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبدا شكورا!»[٤] مما يدل على دؤبته في صعوبة العبودية على تخفيفه منها بعد طه، وقد عده الامام السجاد عليه‌السلام في مجلس يزيد من مفاخره قائلاً: انا ابن من هو «طه* ما انزلنا عليك القرآن لتشقى».

والشقاء منها العناء في طلب الخير تعباً فوق الميسور كما هنا، ومنها العناء من جراء الشر وهي الضلالة في الأولى والأخرى، وساحة الرسولالأقدس براءٌ عنها، و«ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» تلمح لمحة لامعة بمناسبة الحكم والموضوع أن نزول القرآن كل له شخصياً ورسالياً منزل الشقاء والعماء ولأنه قول ثقيل: «إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً»فالقول الثقيل يقتضي للمقول العبء الثقيل، والتعبد الثقيل، دون أن يكتفي بالميسور القليل، ولذلك أخذ يتكبد فيما يتعبد حتى جاء أمر الجليل بالتقليل: «طه* ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى»:

---

[١]). البرهان تفسير الثعلبي في «طه» قال جعفر بن محمد الصادق عليه‌السلام طهارة اهل بيت محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌ثم قرأ آية التطهير.

[٢]). نور الثقلين ٣: ٣٦٧ في كتاب معاني الاخبار باسناده الى سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق عليه‌السلام حديث طويل يقول فيه واما طه فاسم من اسماء النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ومعناه يا طالب الحق الهادي اليه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد» اقول: علَّ التاء هنا مفتوحة ومضمومة حملاً على بعدي السعادة لنفسه والاسعاد لغيره.

[٣]). وهي مروية على الترتيب عن الكلبي وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة كما في الدر المنثور.

[٤]). المصدر في أصول الكافي بسند عن ابي بصير عن أبي جعفر عليه‌السلام قال كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله عند عائشة ليلتها فقالت يا رسول اللّه... قال: وكان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقوم على اطراف اصابع رجليه فانزل اللّه سبحانه «طه...».

أجل، ليس القرآن مجالاً للشقاء على آية حالٍ، حيث المحور الأصيل فيه في كافة مجالاته وجلواته يُسر دون عُسرٍ، فإنه ميسَّر للذكر لكل مدّكر فضلاً عن مَنْزِل وحيه ومهبط رسالته: «ولقد يسرنا القرآن فهل من مـدكر» فـلا تتجـاوز تكاليفه طاقة الإنسان أياً كان، إذ لا يفرض إلاَّ في الطوق والسعة، نِعمة دون شقوة ونَعمة.

كما أننا ما أنزلنا عليك القرآن لتقشى في حمل الناس على الهدى، فتغيظاً وتضيُّقاً حـين لا يؤمنـون، واسـتزادة حـين يؤمنون، إذ ليس عليك هداهم، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ولاتك في ضيق مما يمكرون، فإنما الغاية القصوى منه محصورة في:

«إلا تذكرة لمن يخشى» تذكرة للمدكر، وتبصرة للمتبصر، فـ«إنما تنذر من أتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيـب فبشره بمغفرة وأجر كريم»[1] والاستثناء هنا من أوصل المتصلات دونما انقطاع، فـ«ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» في الأولى أو الأخرى، ولا لأمور أخرى «إلا تذكرة لمن يخشى» ومما يشهد لذلك الحصر أن الذكر هو من أسماء القرآن الأصيلة، ذكراً لكافة الآيات آفاقية وانفسية جملة وتفصيلاً.

وقد تتوسع «لتشقى» وما أولاها، إلى أنك تشقى وتتعب في نفسك ودعوتك تذكرة لمن يخشى، حيث تنذر بـه قومـاً لدا، فما شقاءك وعناءك كرسول إلاَّ للذكرى، وأما أنت يا رسول الهدى فقد يكفيك ما أنـت دون نَصَـب في تعبـدك لكونك «أوَّل العابدين».

فالمعنى إذاً ـ ضمن ما يُعنى ـ «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» هكذا «إلا»شقاءً وعناءً «تذكرة» بهذا القرآن «لمن يخشى»! فلو لا تعب المذكر في اصطناع نفسه ثم المحاولة في اصطناع غيره، لم تكن التذكرة تلك الكافية البالغة لمن يخشى.

والخشية هي الضراعة في الجوانح كما الخشوع للجوارح، وهي خوف يشوبه تعظيم عن علم بما يخشى منه فـ«إنما يخشى اللهّ من عباده العلماء»[2] وعلى ضوءها الخشية من الحياة الأخرى: «إنمـا أنـت منـذر مـن يخشـاها»[3]، «الـذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون»[4].

فحين لا تكون خشية فحَمل القرآن حِملٌ وشقاء، وإذا جاءت الخشية فحَمله نعماء مهما كانت فيه من عناء، وأنت يا أول العابدين في شغف بالغ من خشية اللهّ، يسهل عليك كل عناء في سبيل الله، ولكن لا عليك أن تشقى بالقرآن فوق ما عليك.

ولأن التذكرة ليست إلا عن غفلة، فلتكن مادتها موجودة لمن يخشى، وهي كذلك لمن يخشى ومن لا يخشى، حيـث الفِطَر مفطورة على معرفة أصول المعارف الدينية، والعقول الصافية الضافية تتبناها في نضدها ونضجها، اسـتيحاءً من وحي اللهّ حيث يكملها ويفصلها، فالعقول تأخذ من الفطر بشمائلها الميمونة، ومن الـوحي بأيمانهـا الميمونـة، وذلك المثلث البارع ينتج ديناً بارعاً لا عوج فيه ولا ريب يعتريه.

وهكذا يكون القرآن تذكرة بالفعل لمن لم تحجب فطرته، ولم تُكسف عقليته، فهو خاش للحق، متحرٍ عـن الحـق، متربص تشريفه ليتذكر ما استغفل، ويكتمل على غراره ما هو قاصر، فمن يخشى وهو يسـعى فـالقرآن لـه ذكـرى، ومن لا يخشى وهو يتلهى لم يكن له ذكرى، باقياً في غفلته، باغياً في غفوته وشقوته.

وترى لماذا التعبير عن عبء التعب بـ«لتشقى» دون صيغته الأصلية السائغة للكتاب البيان؟ لأنه لا يعني ـ فقـط ـ

---

[1]). سورة يس ٣٦: ١١.

[2]). سورة فاطر ٣٥: ٢٨.

[3]). سورة النازعات ٧٩: ٤٥.

[4]). سورة الانبياء ٢١: ٤٩.

منعه صلى‌الله‌عليه‌وآله عن التعب البالغ في بعدي الرسولية والرسالية، بل وجواباً عما أفتري عليه: (أنك لتشقى حيث تركت دين آباؤك) اذاً «لتشقى» بيان مجمل جميل عن هذا المثلث، سلباً للشقاء عناءً وغير عناء، وتثبيتاً لشقاءه وعناءه بعض الشيء تذكرة لمن يخشى.

إذاً فشقاءه صلى‌الله‌عليه‌وآله في «لتشقى» بين موجبة وسالبة، موجبة دون الحرج تذكرة لمن يخشى، وسالبة حدَّ الحرج إذ تورمت قدماه، وسالبة ثانية هي فرية المفترين عليه أن في نزول القرآن شقاءه إذ خرج عن دين الآباء!.

وطبعاً ليست لتتعب لتعني ما عنته «لتشقى» من مثلث المعنى المعني حسب شؤون النزول هنا.

«تَنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلا».

ذلك القرآن المنزل عليك ذكراً وتذكرة لمن يخشى، حقاً فيه الكفاية لكل تذكرة، دونما حاجة إلى نسخ او تكملة، لأنه «تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى»فكما أن خلقه التكوين يعم الكون كله، كذلك كتابه التشريع التدوين يشمل الخلق كله «تذكرة لمن يخشى» في كل ذكرى تتطلبها الحياة الإنسانية العليا على مدار الحياة ومرّ الزمان.

وكما «الرحمن على العرش استوى. له ما في السماوات وما في الأرض وما تحت الثرى» سيطرة ملكية ومالكية على الكون كله، كذلك كتابه العظيم مسيطر في ذكراه على العالمين أجمعين.

وهنا في «تنزيلاً» وجوه عدة وجمعها أوجه: نصباً على المفعولية لـ«يخشى»حيث يخشى ـ «تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى».

ونصباً، بدلياً عن «القرآن»: ما أنزلنا عليك القرآن... تنزيلاً، وثالثاً على المدح والاختصاص: نخص تنزيلاً... وذلك الاختصاص هو الذي يؤهله للتذكرة العامة الدائبة، ورابعاً على الحالية للقرآن المُنْزَل، ومربع المحتملات محتملات تحتملها الآية لفظياً ومعنوياً.

وهنا تقابل الأرض للسماوات العلى يلمح جنس الأرض الشامل للأرضين السبع السبع، كما تلمح له ثانيةً «ما تحت الثرى» فهما ـ إذاً ـ تعبيران عن الكون كله ككل كتاب التكوين، تأشيراً عشيراً أن القرآن هو كل كتاب التدوين.

وإشارة أخرى، الأرض هي اراضي خاشية وغاشية، والسماوات العلي هي القرآن حيث تضم كل سماوات الوحي، يحمله الرسول الخاتم صلى‌الله‌عليه‌وآله، فلا شقاء للسماوات العلى أن تمطر غزيرة الوحي الهاطل على أراضي القلوب، ثم لا شقاء للقلوب في تقبلها تلك الأمطار، لا شقاء العناء ولا غير عناء، مهما شقيت قلوب مقلوبة خاوية عن الهدى، مليئة بالردى.

ثم «العلى» في مواصفة «السماوات» دليل علوها على الأرض كلها حول أكنافها، محيطة بها، حائطة لها، منزلة عليها من ماءها وسائر رحماتها، إذاً فالأرض محاطة بالسماوات فمدورة كما السماوات سائرة، حائرة في خِصمِّها، غير مائرة في حراكها حيث «اللهّ يمسك السماوات والأرض ان تزولا»[1].

فكما الأمطار تنزل على الأرض من عليا السماوات مكاناً، كذلك القرآن منزل من عليا سماوات الوحي مكانة، إذ ليس للهّ مكان ينزل منه.

---

[1]). سورة فاطر ٣٥: ٤١.

العلم
يؤيد وحي القرآن

«لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ»[1].

ترى ولماذا «بلى وربي لتأتينكم» «ليجزي...» فالعدل ـ فقط ـ لا يكفي لضرورة الجزاء لو لا العلم بالصالحين والطالحين، والعلم ـ فقط لا يكفي لو لا العدل، إذاً فـ«ليجزي...» هي حصيلة العلم المطلق والعدل المطبق على كل الكائنات، فلو لا الجزاء فإمّا ظلم أم جهل، أم هما معاً فأسوء وأنكى!

ولئن شك الجاهلون المتجاهلون في ذلك الذكر الحكيم ونبيه الرسول الكريم، فهنالك العالمون يصدقون ويوقنون: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».

أترى «الذين أوتوا العلم» هم ـ فقط ـ علماء أهل الكتاب كما يقال؟

فغيرهم حين لا يرون «الذي أنزل إليك من ربك الحق...» ليس إلا قصوراً في العلم إذ لم يؤتوه، فهم ـ إذاً ـ لا حجة عليهم حين يكفرون، كما لا حجة لهم حين يؤمنون، فلا قيمة لإيمانهم دون علم ولا سؤال عن كفرهم دون علم!

«أوتوا العلم» ليست إلا وسيلة للتفتح إلى ذلك الكتاب الخالد المفتوح بمصارعه للأجيال طول الزمان وعرض المكان، وللعلم درجات عدة يرى صاحبه «الذي أنزل إليك من ربك هو الحق» حسب درجاته ومحاولاته، فقد يكون من علماء الكتاب عارفاً بالبشارات المودعة في كتابات الوحي بحق القرآن ونبيه ثم يجحد متجاهلاً قاحلاً!

وقد يكون من جهال المشركين، فلانه يحاول الحصول على الحق المرام يتحراه فيجد بغيته في ذلك الكتاب لانه مسرح فصيح بليغ فسيح عن تجوال آيات الله البينات، والله يشهد بكلامه لحقه!

فـ «الذين أوتوا العلم» هو بوجه عام كافة المكلفين غير القُصَّر والمجانين، مهما كان أهل الكتاب وعلمهائهم وسائر أهل العلم أقوى حجة من غيرهم تدليلاً على حق القرآن، ولكنه لا يمانع أصل التكليف بحجة العلم، واقله علم الفطرة ـ مهما كان أصله ـ ثم العقل ثم علم الكتاب تقليدياً ثم باجتهاد وكذا سائر العلوم البشرية، والجامع بينها كلها معرفة الله، فالعارف ربه يعرف كلامه قدر ما عرفه.

فما من عاقل يفتح عينه إلى هذه الآيات البينات، أم أذنه وسمعه لسماعها، متدبراً فيها، إلاّ وسوف يحصل على علم: «إن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق» فإنه أفضل الآيات وأخلد المعجزات «أو لم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم...»مهما كان الأوفر علماً هو أوقر ثقلاً حيث الحجة عنده أكثر، فنكرانه لحق القرآن أنكى وأنكر.

هنا لابد من علم ما يعرف به الحق من الباطل، ثم وإعماله كما يصح حتى يحصل على الحق المرام، والعلم المبدئي حاصل لكافة المكلفين، ثم عليهم حسب درجاتهم أن يدَّبروا القول ويتفكروا: «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» فلا حجة ـ اذاً ـ للأغفال الكفار ما دامت لهم عقول تعقل، ثم لا حجة على القصَّر والمجانين.

فالذين أوتوا العلم من أهل الكتاب عندهم علم الوحي الكتابي بحق هذا القرآن إضافة إلى سائر العلم فطرياً وعقلياً...[2].

والذين أوتوا العلم من سواهم، بدراسات علمية لمختلف معلومات الكون، عندهم علم دون الوحي بحق هذا القرآن.

---

[1]). سورة سبأ ٣٤: ٥.

[2]). راجع كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية: تجد فيه زهاء ستين بشارة بحق القرآن ورسوله.

والذين أوتوا العلمين، عندهم علم مضاعف، حيث العلم أياً كان هو مفتاح للتفتح على حظيرة العلم وخزانته وإنما يعرف أهل الفضل ذووه.

والذين حرموا العلمين عندهم علم العقل على ضوء الفطرة، فعندهم وحي الفطرة ومن ثم العقل، بهما يعقلون حق القرآن، فاين ـ إذاً ـ اختصاص الحجة بعلماء أهل الكتاب أم أي العلماء؟

ثم «هو الحق» هنا يخص الحق في القرآن كانه لا حق سواه، أفلا تكون كتابات الوحي بين يديه حقاً يسندون إليها أهلوها بحق القرآن؟

أجل! ولكن الحق درجات من أدناها إلى أعلاها، فالقرآن أعلاها، كما ولثباته درجات والقرآن أثبتها خلوداً وأعلاها! ومن ثم هو بين تحرُّف من المحرفين، وسليم عن أيدي الدس والتحريف والقرآن سليم في أعلاه.

القرآن
يقص خلافات إسرائيلية

«إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».[1]

«وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون».[2]

«إن هذا القرآن» دون سواه من قرائن الوحي السابقة عليه «يقص» قصاً من الأنباء المذكورة في كتب الوحي الإسرائيلية «على بني إسرائيل» وهم المحور الأصيل في شرعتهم مهما كانت تعم كافة المكلفين «أكثر الذي هم فيه يختلفون»وذلك الأكثر هو بطبيعة الحال يحمل أهم الخلافات في أصول الشرعة وفروعها وما تحمل كتاباتها من قصص النبيين وسواهم، ثم الأقل الذي هم فيه يختلفون قد يلوح من طيات الأكثر.

و«الذي هم فيه يختلفون» يشمل كافة الاختلافات الإسرائيلية التي تخلفها اختلاقاتهم وتحريفاتهم كتابات الوحي التوراتي عن جهات أشراعها طول الزمن ما داموا هم موجودين لمكان «يختلفون» الدالة على الاستمرارية في بشارات بحق هذا الرسول الإسماعيلي ـ لأنه ليس من ـ إسرائيل، وقصص رسالية، وأحكام كتابية أمّا هيه، كما هي بينة في سرد القصص القرآنية عن افتعالاتهم في مختلف حقولها.

وذلك القص الساحق هو قضية الهيمنة القرآنية على كتابات الوحي السالفة، وليدل أهل الكتاب على مدى ضلالهم، دفعاً لهم إلى الهدى القرآنية الصادقة، كما:

«وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ».

منهم ومن سواهم ممن يقرع آذانهم صارم الوحي القرآني السامي، «هدى»تقيهم عن خلافاتهم العارمة، توحيداً للنهج وتوصيلاً إلى المبلج، وذلك الاهتداء بهدي القرآن هو قضية الإيمان بقضيته، والمنهج القرآني هو الوحيد المنقطع النظير في استعادة النفوس عن ورطاتها، وتركيبها وفق الفطرة الساذجة والعقلية الناضجة دون تكلُّف ولا تخلُّف عن السنن الكونية، تجاوباً رائعاً بين كتابي التكوين والتدوين.

---

[1]). سورة النمل ٣٧: ٧٦.

[2]). سورة النحل ١٦: ٦٤.

والمصدران يشيان لمحتد القرآن أنه مصدر الهداية والرحمة، فإنه خالصهما دون شوب، وكأنه فقط هو الهدى والرحمة!.
«إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ»
«إن ربك» الذي رباك بهذه التربية القمة القرآنية «يقضي بينهم بحكمه» هنا في القرآن قضاءً صارماً يفصل بينهم بالحق، وهناك يوم الحزاء قضاءً عملياً جزاءً وفاقاً «وهو العزيز» تغلباً على المتخلفين المختلفين «الحكيم» في عزته بقضاءه وحكمه.

القرآن
عند أهل الكتاب

«وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ»[1].
«وكذلك» الأسلوب الذي أنزلنا إلى مَن قبلك من الكتاب «أنزلنا إليك الكتاب»فالمصدر واحد والصادر وحي واحد مهما اختلفت شرعة من الدين عن شرعة في البعض من الطقوس الظاهرية، حلقات متصلة من الوحي، موصولة الهدى إلى الله، والله أعلم حيث يجعل رسالته.
«وكذلك» البعيدة المدى، الشاملة الهدى، الرادة على الردى «أنزلنا إليك الكتاب»يا رسول الهدى، الكتاب الذي يحلّق وحيه على كل كتاب وزيادة، مشابهاً وحيُه وحيها وزيادة «فالذين آتيناهم الكتاب» هم بطبيعة الحال، ونتيجة الإطلاع على وحي الكتاب والبشارات المودعة فيه بحق هذا الكتاب ونبيِّه «يؤمنون به»حيث الملامح نفس الملامح والمسارح والمصارح نفس المسارح والمصارح، مهما تعنت عنه جماعة متعندة! وبإشراقة أقوى وإناقة أندى وأبدى، ثم «ومن هؤلاء»المشركين البعيدين عن وحي الكتاب «من يؤمن به» حيث الكتاب بنفسه برهان لا مرد له أنه من الله، مهما كانت الخبرة السابقة بوحي الكتاب تزيد برهاناً مشياً على برهانه الأصيل «وما يجحد بآياتنا»كتاباً ورسولاً وحجة أخرى للرسالة غير الكتاب «إلاّ الكافرون» الذين عميت بصائرهم وأغلقت أبواب قلوبهم، فتجاهلوا عن آيات الله البينات التي هي كالنار على المنار وكالشمس في رابعة النهار.
ومما يقرِّب الفريقين إلى الإيمان به، شاهداً ممن أرسل به إضافة إلى آية الكتاب:
«وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ».[2]
هنا «من كتاب» تستأصل كل كتاب سماوي أو أرضي «وما كنت» تستأصل كيانه كرسول القرآن أن يتلوا من قبله من كتاب، لا أنه ما تلاه وهو قادر على تلاوته تقيةً مصلحيةَ الحفاظ على وحي القرآن، فإن «ما كنت» تُحيل عليه كل

[1]). سورة العنكبوت ٢٩: ٤٧.

[2]). سورة العنكبوت ٢٩: آية ٤٨.

تلاوة وكتابة لأي كتاب قبل القرآن إحالة تكوينية وتشريعية، فلم يكن يستطيع أية تلاوة قبله، ولا كانت مسموحة له لو استطاعها.

ثم و«تتلوا» تنفي كل ائتمام بأي كتاب قبل القرآن، قراءة وإقراءً وتعلّماً وتفهماً، وعلى الجملة سلبية التلاوة له مطلقة محلِّقة على كل تلاوة قالبية او قلبية، والأولى تعم تلاوة السمع والبصر ـ واللسان، وتلاوته بيمينه وهي الكتابة، وقد افردت بالذكر بعد التعميم لأنها من المصاديق الخفية للتلاوة.

والثانية تعم التلاوة العقلية والقلبية، ونم ثم التلاوة التطبيقية.

إذاً فسلبية التلاوة كما تحلِّق على كل كتاب قبل القرآن، كذلك تحلِّق على كل ائتمام واتباع لكتاب قبله، فقد كان منفصلاً عن كل كتاب تلاوة له وخطاً بيمنه «إذاً» لو كان يتلوا ويخط من قبله من كتاب «لارتاب المبطلون» لحجة القرآن علّه مما تلاه من كتاب فجمعه خطاً بيمينه كتاباً سماوياً كما يهرفه الخارفون أنه جمعه من كتابات السماء، أم كتاباً أرضياً، كما يتقوله آخرون «وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً»[1]، ولماذا «بيمينك» والكتابة بطبيعة الحال تكون «بيمينك»؟ علّها تعني ـ إضافة إلى يمين الجارحة وهي المتعودة للكتابة ـ تعني يمين القدرة، فلم يكن بمستطاعه أي كتْبٍ لأي كتاب سواءً في سجلات القراطيس وأشباهها، أم في سجلات خاطراته المقدسة لو سمع شيئاً من كتاب، وهكذا كان محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله منذ أن كان فطيماً حتى أنزل عليه القرآن لم تُعرف منه أية تلاوة في كتاب أم عن ظهر الغيب، ولا مراجعة إلى أيٍّ من أهل الكتاب ولا مدارسة لوحي الكتاب وسواه، ومن هنا نتلمح كصراح أنه ما كان يتَّبع شرعة تقليدية من ذي قبل، حيث السلبية المطلقة لتلاوة أي كتاب من قبل تنفي كل ائتمام وإتباع لأي كتاب، فاتباع كتاب الشرعة يتطلب قراءته ـ أو قراءةً لمن لا يقرءه ـ حتى يتطلع إلى فرائضه ومحاظره، «وما كنت تتلوا» تستأصل أي قراءة واتباع، أن لم يأتم بأي كتاب ولا أي صاحب كتاب، فما قلد محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله قبل القرآن أية شرعة تقليدية! إذاً فما كانت شرعته ـ وهو أفضل المصطفين ـ قبل شرعته وبعده؟ حين نتأكد أنه ما كان يتلوا من قبله من كتاب من ناحية، وأنه كان أعرف أهل زمانه وأعبدهم لربه قضية الإصطفاء للرسالة الأخيرة من أخرى، إذا فأمره محصور بين أمرين: ١ ـ أنه كان يوحى إليه بنبوءة شخصية، معرفة متصلة، متواصلة. ٢ ـ وعملية منفصلة عن الوحي، وكما يشهد له قول الإمام أمير المؤمنين على عليه‌السلام: «ولقد قرن الله به منذ أن كان فطيماً أفضل ملكٍ من ملائكته يسلك به سبيل المكارم ويرشده إلى أفضل أخلاق العالم ليله ونهاره...»[2].

ومما يؤكد تلك السلبية الجامعة آية الشورى «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان»[3].

ثم ومن في «من قبله» هنا تحدد تلك السلبية إلى حد نزول القرآن، حيث أصبح بعده أقرءَ القرآن وأتلى التالين للكتاب والخاطين له بيمينه خطاً في أية سجلة من السجلات، فهل توجد تلاوة لكتاب بكل حواياه وزواياه مثل تلاوته القرآن لنفسه وعلى الناس كافة؟ كما وكتاباته صلى‌الله‌عليه‌وآله وتوقيعاته إلى الملوك والرؤساء والشيوخ معروفة، ومنها ما هي مسجلة في كتاب فذٍّ[4].

فهذه الآية تستأصل جذور الإرتياب في ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين، إجابة عن شطحات القيلات الجاهلة القاحلة: «وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً*قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض

---

[1]). سورة الفرقان ٢٥: ٥.

[2]). لاطلاع أكثر على الموضوع راجع ج٣٠:٣٤٧ من الفرقان وتفسير الآية «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان»(٤٢:٥٢).

[3]). سورة الشورى الآية ٥٢.

[4]). مثل مكاتيب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله الشاهرودي، وسواه.

إنه كان غفوراً رحيماً»[1]، ولقد ذكرت أمية محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله في كتابات السماء بصيغ مختلفة كما في كتاب أشعياء[3] في أصله العبراني:

«إتْ مِي يوُرِهْ دِعاهْ وِإتْ مِيْ يا بِيْنْ شِمُوعا غِگمولِيْ مِحالاَبْ عِتْيِمِّي مِشَّادايِم»(٩): لمن ترى يعلم العلم ولمن يفقه في الخطاب اللمفطومين عن اللبن للمفصولين عن الثدي»(٩)... ثم يستسمر في مواصفات وحي القرآن[4].

وفي نص عبراني آخر من التوراة: (يدعو ييسرائل إوايل حنبيا مشوكاع إيشْ هارُوحَ عَلْ رُوب عَوُنِخا وِربَاه مشَطماه): بنو إسرائيل يعلمون ويعرفون أن النبي الأمي المصروع صاحب روحٍ إلهامي وصاحب الوحي، وهنا يقول «ربي حييم ويطال» في كتاب «عصحييم» أن القصد من النبي الأميّ هنا إنما هو محمد بن عبد الله الذي بعث في عهد عبد الله بن سلام.

«بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ»[5].

«بل» هنا إضراب عن كل قيلة عليلة حول القرآن «هو» القرآن «آيات» تدلنا بنفسها على أنها إلهيات «بينات» الدلالات على ذلك: «في صدور الذين أوتوا العلم»: ما به يميز الآية عن سواها، سواء في ذلك علم الكتاب كما لأهل الكتاب، أم علم لغة الكتاب كما لسواهم كالمشركين وسواهم، العارفين لغة الكتاب، وحتى غير العارفين حين يترجم لهم الكتاب، فالفطرة والعقلية السليمة تكفيان للإتقان أنها آيات الله، مهما اختلفت درجاته حسب درجات «الذين أوتوا العلم» وأعلاهم هو الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وأئمة أهل بيته عليهم‌السلام، فكما آياته لهم بينات الدلالة على إلهيتها، كذلك هـي بينـات الدلالة على مداليلها فإنهم هم الراسخون في العلم في بعدي الدلالة والتدليل للقرآن العظيم ثم «بينات» تحلِّق على كل بينة في كافة الحقول المعرفية، بينات الدلالة وبينات التدليل لأعلى القمم العالية الكافية لمن يتحرى عن هدىً. فلا يختص «الذين أوتوا العلم» بالرعيل الأعلى من أهل بيت الرسالة المحمدية عليهم‌السلام، حيث القصد هو العلم الذي يكون ذريعة للحصول على بيِّنات الكتاب وهو درجات بين العبارة والإشارة واللطائف والحقايق، فقد تكفي العبارة وهي المعاني المطابقية الترجمانية الساذجة، دليلاً على بينات آياته.

و«أوتوا العلم» يعم العلم الفطري والعقلي المؤتيان لكل مكلَّف، والعلم التعقلي المؤتى لمن يطلبه بتفكير أو دراسة، وعلم الإلهام ثم علم الوحي المؤتيان للآهلين لهما على درجاتهم، فالعلم أياً كان طبيعته الكشف عن الحق، فبقدر العلم المستخدم لتفهُّم الكتاب «هو آيات بينات» درجات حسب الدرجات، أن استعمل العلم في صالحه كشفاً عن الحق المُرام.

---

[1]). سورة الفرقان ٢٥: ٦.

[2]). نور الثقلين ٤:١٦٤ في عيون أخبار في باب مجلس الرضا عليه‌السلام مع أهل الأديان والمقالات في التوحيد قال الرضا عليه‌السلام في أثناء المحاورات: وكذلك أمر محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله وما جاء به وأمر كل نبي بعثه اللّه ومن آياته أن كان يتيماً فقيراً راعياً أجيراً لم يتعلم كتاباً ولم يختلف إلى معلم ثم جاء بالقرآن الذي فيه قصص الأنبياء عليهم‌السلام وأخبارهم حرفاً حرفاً وأخبار من مضى ومن بقي إلى يوم القيامة.

[3]). ٢٨: ٩ ـ ١٤.

[4]). راجع كتابانا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ١٠٨ ـ ١٠٩.

[5]). سورة العنكبوت ٢٩: الآية ٤٩.

«بل هو آيات بينات وفي صدور الذين أوتوا العلم» وهم منـازل وحـي القـرآن، دون وسـيط كالرسـول صلى‌الله‌عليه‌وآله أم بوسيط كما الأئمة المعصومون عليهم‌السلام، كما «هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم» ككل، فمهما لم تكن آياته في صدورهم، فهي بينات في صدورهم لمّا تتلى عليهم أم يتلونها.

إذاً فـ«هو آيات بينات...» ـ «آيات في صدور» و«بينات في صدور»بينات الدلالة والتدليل، «في صدور الذين أوتوا العلم» كلَّه بالكتاب وهم الرعيل الأعلى[1].

ثم في صدور الحفاظ لها لفظيا ومعنوياً كالعلماء الربانيين في علوم القرآن، في الدلالة والتدليل على أقدراهم، ثم في صدور حفاظها معنوياً مهما لم يحفظوها لفظياً في الدلالة على أقدارهم.

وأخيراً في صدور المستدلين بها على كونها إلهيات، مهما اختلفـت صـدور عـن صـدور، وبينـات بـين الأدنى والأعـلى وبينهما متوسطات.

فهنا مثلث: الحفظ لفظياً، والدلالة على كل حقائقها، والتدليل بها على إلهيتها، هي الخاصة بالمعصومين عليهم‌السلام[2].

ثم التدليل بها ـ فقط ـ على إلهيتها، يعم كل من بإمكانه التعرُّف إلى حالـة المعنـى وهالـة المعنـي منهـا، وبيـنـهما متوسطات في أبعاد الحفظ لفظياً ومعنوياً، والدلالة والتدليل.

«وما يجحد بآياتنا» أيّاً كانت: آفاقية وأنفسية، رسولياً ورسالياً وكتابياً «إلاَّ الظالمون» أنفسهم والظالمون الحقَّ الناصع، تغافلاً عن فِطَرهم وعقولهم وفكَرهم، وتجاهلاً عن العلم الذي أوتوه من ربهم، فكل بصيرة ـ مهما كانـت كليلـة ـ تبصر ربوبية الوحي الرسالية في القرآن ونبيه، فما أظلمهم وأجهلهم هؤلاء الأوغاد المناكيد الجاحدين لآيـة القـرآن وسواه من آيات الله البينات!

وهنا «الظالمون» قبال «الذين أوتوا العلم» بدلاً عن «الذين لم يؤتوه» أو «الجاهلون» للتدليل على أن الجاحدين بآيات اللّه ليسوا يفقدون العلم الذي به تُعلم آياتها البيِّنات، بل هم ظلموا الذي أوتوه من العلم، تنـازلاً عنـه وتجـاهلاً وتغافلاً عامداً أم متساهلاً، فقد ظلموا بذلك ما أوتوه من العلم فـ«جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً» أم لم يدَّبروا القرآن لكي يستيقنوا فيؤمنوا.

فليس الجاحد بآيات اللّه إلا ظالماً، عالماً أو جاحداً، ما دام أنه مقصر في ذلك الجحود، حيث لم يستعمل العلم المؤتى له في صالحه.

ولماذا «في صدور...»؟ لأنها أولى مقامات الإيمان الإتقان، حيث يغربل العلم فطرياً وعقلياً وعلمياً وحسياً إلى الصدور ومنها إلى القلوب، فما لم يصل إلى الصدور لم تحصل بينة على ضوءِه، فكثير هؤلاء الذين يعلمونها دون صـدورهم وليست لهم بينات!

«وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الأيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ».[3]

«من ربه» هنا دون «الله ـ أو ـ رب العالمين» تعريضة عليه ساخرة، أنه لو كان ربَّه فكيف أهمله إذ أرسـله دون آيـة تدل على رسالته، فهل ضَنَّ به أم غفل عنه، أم هو كاذب في دعوى الرسالة؟!

هنا الآيات المقترحة عليه هي الملموسة المحسوسة المتعود عليها طيلة الرسالات السالفة جهلاً منهم أو تجاهلاً أن

---

[1]). حسب هذا الاحتمال فالقرآن آيات بينات في صدورهم بكل مراحله دون ابقاء، آيات في صدورهم، هي بينات في صدورهم، ثم يتلوهم من هي بينات في صدورهم مهما كانت آيات ـ في صدورهم كالحفاظ أم ليست في صدورهم إلا بينات، وكما الصدور درجات فالبينات أيضاً درجات.

[2]). نور الثقلين ٤:١٦٤ ـ روى باسانيد عدة عن الصادقين عليهما‌السلام أنهم الأئمة عليهم‌السلام.

[3]). سورة العنكبوت ٢٩: ٥٠.

ليس على الله إلا الآية التي تثبت الرسالة، وأما كون الآية الرسالية على نسق واحد فلا، بل المفروض في كل رسالة أن تلائمها الآية الرسالية، فالرسالة المحدودة تكفيها الآيات الوقتية المحدودة ككل الرسالات قبل الأخيرة، والرسالة المحلِّقة على كل عصر ومصر لا تكفيها الآيات المحدودة، بل الآية الخالدة التي هي أقوى من كل الآيات الرسالية مادةً مدةً، مادة تجذب كل العقلاء على مرابتهم وفي كل حقولهم العقلية والعلمية، ومدة تستمر إلى آخر زمن التكليف.

فالآيات الرسالية المادية التي صاحبت أصحاب الرسالات من قبل في غضون البشرية وعنفوانات الوحي ما كانت حجة إلا زمن كل رسول حين تظهر على يديه، وهذه الرسالة الأخيرة البالغة لأعلى القمم الرسالية، من الضروري لها الحجة الحاضرة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، محلقة على كل المجالات في كل الحالات، دون أية غيبوبة لشمسها، بل ولتزداد إشراقة فوق إشراقة على غرر تقدم العقول والعلوم، متفتحة كنوزها لكافة الأجيال.

فآيتها الرسالية «القرآن» دائبة الدلالة في كل زمان ومكان، دون اختصاص بالحياة الرسولية كما في سائر الآيات الرسالية لسائر المرسلين، بل وتحيى في الحياة الرسالية كما الرسولية بل وأقوى وأندى حيث تظهر منها حقائق ورقائق وتبهر، ما لم يكن الجيل الحضور زمن الرسول ليدركوها، فإن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن.

وهؤلاء المجاهيل حين يقترحون على هذا الرسول آيات مادية وقتية كالسالفة، قد يسخرون منه بقولتهم المتحدية «لو لا أنزل عليه آيات من ربه» إن كان ربه، فكيف تركه ربه وهو يدعي خاتمة الرسالية وأقواها؟!

والجواب القاطع القاصع يتشكل من سلب وإيجاب، فالسلب يعني أنه لا يملك من الله آيات حتى يبرزها أو يستزلها: «قل إنما الآيات عند الله»: كل الآيات الرسالية مادية ومعنوية هي عند الله لا سواه، عند الله علماً وقدرة وحكمة لإنزالها «ويقولون لو لا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين»[1] ـ فالآيات الرسالية هي من الغيب المخصوص بالله بكل أبعاده: «وإنما أنا نذير مبين»: رسالتي أنا محصورة في «نذير» عن بأس الله «مبين» في نذارتي دون إبهام، وأما سند الرسالة، فهو كاصلها، فليس إلا عند الله، فكما الله هو الذي أرسلني وأوحى إلي، كذلك هو الذي ينزل علي آية الرسالة المثبتة لها، ثم الجواب الإيجابي هو آية القرآن الكافية عن كل آية: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».[2]

والواو هنا تعطف إلى محذوف هو بطبيعة الحال آية كما القرآن آية، وليست إلاّ الرسول نفسه، ألم تكفهم أنت بما تحمل أعلى قمم التربية الرسالية «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك...» وكما المرسلون دونه يستدلون لرسالتهم الإلهية بالتربية الرسالية اللامعة فيهم: «قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»[3].

فقد يكفي محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله بنفسه، بحاله وأفعاله وأقواله، وإن لم يأت بالقرآن، يكفي آية بينة رسالية برسوليته، فهو هو القرآن، متجسداً في كل أحواله «وما علمناه الشعر وما ينبغي له إلاَّ هو إلاَّ ذكر وقرآن مبين...» فهو القرآن نفسه كما كتابه المنزل عليه قرآن تدوينياً! وقد تلى عليكم كتاب حياته رسالية قبلها! وإذا لم تكفهم أنت آية لرسالتك لكلِّ البصر وقَصْر النظر «أو لم يكفم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم..»تلاوةً هي على الأسماع أسهل، وعمرها أطول، فهي علي هذه الرسالة أدلّ وأنبل، فقرآن محمد ومحمد القرآن آيتان بارعتان كلٌّ تؤيد الاخرى، أم هما آية واحدة والثانية القرآن هي استمرارية للأولى: رسول القرآن، حيث يعيش في كل الحياة ويعيِّش بآيتها البارعة كل متحرٍ عن حق الرسالة وحاقها.

---

[1]). سورة يونس ١٠: ٢٠.

[2]). سورة العنكبوت ٢٩: ٥١.

[3]). سورة يس ٣٦: ١٦.

«أو لم يكفهم» عن كل آية رسالية أن يحلِّق الوحي الآيةُ الزمنَ الرسولي بنجومه ليل نهار، ودونما انطقاع نزولاً على الرسول، ثم ويحلِّق الزمن الرسالي بما بين دفتيه مؤلَّفا بوحي كما نزل بوحي، شمساً مشرقة على قلوب وأفكار المكلفين إلى يوم الدين.

إن القرآن آية كافية، آيةً خالدة وكتاب شرعة خالدة على حد قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله: و «كفى بقوم حمقاً أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم الى ما جاء به غيره إلى غيرهم...»[1] وقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم»[2].

ويقول لعمر بن الخطاب حين قال له صلى‌الله‌عليه‌وآله: يا رسول الله إن أهل الكتاب يحدثونا بأحاديث قد أخذت بقلوبنا وقد هممنا أن نكتبها! يا ابن الخطاب؟ أمتهوِّكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بها بيضاءَ نقية ولكني أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الحديث اختصاراً»[3].

أجل وفي هذا القرآن كفاية عن كلما دق وجل، المذكورة في كل كتابات السماء والأرض، وهو المحور الأصيل رداً لكل شارد وايراداً لكل وارد، لا يُقبل إلاّ ما وافقه، ويُنكل بكل ما فارقه، و«إن في ذلك» الوحي الآية، البالغ في بعدي وحي الرسالة وبرهانها النهاية «لرحمة» رحيمية ربانية خالدة على مدار الزمن «وذكرى» تذكِّر كل منسي ومجهول «لقوم يؤمنون» بآيات الله، حيث القرآن خير آية رسولية ورسالية قاصعة قاطعة لا ريب فيها، فـ«قوم يؤمنون» زمن الرسول وبعده إلى يوم الدين، لهم في آية القرآن الكفاية التامة الطامة، دون حاجة إلى آية أخرى بصرية أو بصيرية، فإنها الشهادة الكاملة الكافلة الإلهية بين الرسول وكافة العالمين:

---

[1]). الدر المنثور ٥: ١٤٨ عن يحيى بن جعدة قال جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله..... فنزلت هذه الآية وفهى عن أبي هريرة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله مثله.

[2]). المصدر أخرج عبد الرزاق وأبن سعد وابن الضريس والحاكم في الكنى والبيهقي فى شعب الإيمان عن عبد اللّه بن ثابت الأنصاري قال دخل عمر بن الخطاب على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك فتغير وجه رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله تغيراً شديداً لم أر مثله قط فقال عبد اللّه بن الحارث لعمر أما ترى وجه رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال عمر رضينا باللّه رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فسرى عن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله وقال: لو نزل موسى... وفيه عن الزهري أن حفصة جاءت إلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بكتاب من قصص يوسف في كتف فجعلت تقرءه عليه والنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يتلون وجهه فقال: والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا نبيكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتم، وفيه أخرج عبد الرزاق والبيهقي عن أبي قلابة ان عمر بن الخطاب مرّ برجل يقرء كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل أكتب لي من هذا الكتاب قال نعم فاشترى أديماً فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره وبطنه ثم أتى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فجعل يقرءه عليه وجعل وجه رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يتلون فضرب رجل من الأنصار بيده الكتاب وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أما ترى وجه رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله منذ اليوم وأنت تقرء عليه هذا الكتاب فقال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله عند ذلك إنما بعثت فاتحاً وخاتماً وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه واختصر لي الحديث اختصاراً فلا يهلكنكم المتهوكون، وفيه عن عمر بن الخطاب قالت سألت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله عن تعلم التوراة فقال: لا تتعلمها وآمن بها وتعلموا ما أنزل إليكم وآمنوا به» و٤٤ الثانية في نفس المصدر.

أقول: هذه النواهي لا تشمل ما إذا قورنت آيات من الكتب السماوية بآيات قرآنية لوحي القرآن وصدقه وأنه أفضل وأكمل من سائر الوحي، وقد الفنا في المقارنات كتبنا الثلاثة «المقارنات ـ رسول الإسلام ـ عقائدنا» والقرآن يأمرنا في آيات بتلك المقارنت التي فيها أثباتات وتأييدات لموقف القرآن.

[3]). المصدر ١٤٨.

«قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ»[1].

وليس هذا كلاماً خطابياً ودعوى فاضية عن برهان، بل هو أتقن برهان لوحي القرآن أنه شهادة إلهية كافية بين الرسول وكافة العالمين، فطالما لله شهادات لسائر الرسل في سائر الآيات الرسالية، ولكنها ما كانت لتكفي إلا وقتية محدودة بحدودها المقررة لها، وأما القرآن ـ كما ورسول القرآن ـ فهو شهادة ذاتية كافية ما أكفاها لحق الرسالة بحقها، لا تختص بأهل زمان دون آخرين، بل هي حجة رب العالمين إلى يوم الدين، فكما الله «يعلم ما في السموات والأرض» كذلك كتابه الشهيد يحوي من علم الله ما في السماوات والأرض، علماً يختص بالله، فالقرآن الحاوي لذلك العلم ليس إلا من الله: «لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً»[2] والرسول بقرآنه هما بينة من ربه: «أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى أماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون»[3] فهو شاهد «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً...»[4] كما القرآن شاهد: «قل أي شيءٍ أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ...»[5] فكلٌّ من القرآن والرسول شاهد رباني على هذه الرسالة السامية، وهما متعاضدان، فـ«هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً»[6].

«والذين آمنوا بالباطل» وهو هنا وِجاه الله كل ما سوى الله، اللهم إلاّ إيماناً برسل الله وهو إيمان بالله «... آمنوا بالباطل وكفروا بالله» وبرسل الله الحاملين شرعة الله... «أولئك هم» ولا سواهم «الخاسرون» نشأتي الحياة مهما اختلف خسران عن خسران في الآخرة والأولى.

فالإيمان بالله كسبٌ في ذاته، وكسب في اتجاهاته وانتاجاته، فإنه طمأنينة في الحياة ككل، واستقامة في مكاسب الحياة، وثقة على أحداثها ومتراس في أكراثها، ويقين بالعاقبة الحسنى، وكل ذلك يخسره الكافرون. ومن خسارهم: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمْ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ»[7]

---

[1]). سورة العنكبوت الآية ٥٢.

[2]). سورة النساء ٤: ١٦٦.

[3]). سورة هود ١١: ١٧.

[4]). سورة الأحزاب ٣٣: ٤٥.

[5]). سورة الأنعام ٦: ١٩.

[6]). سورة الفتح ٤٨: ٢٨.

[7]). سورة العنكبوت ٢٩: ٥٣ و ٥٤.

قائلين: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أتنا بعذاب أليم»[1]: هم يتحدُّونك إبطالاً لرسالتك.

وعد رباني للرجوع إلى معاد الدعوة

«إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»[2].

«فرض عليك القرآن» هو الفرض الرسالي تلقياً لوحيه وتفهماً له وتطبيقاً بنفسه وتبليغاً للمرسل اليهم، وقد ذكر من فرضه عليه تلاوته «وأن أتلو القرآن...»[3] «وأتل ما أوحي إليك من كتاب ربك»[4] «يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين».

ولأن القرآن هو الوحي الأخير الشامل كافة المكلفين إلى يوم الدين، ففرضه الرسالي البلاغي هو البلوغ اليهم أجمعين، وبأحرى منزل وحيه الأول أم القرى فإنها عاصمة الدعوة القرآنية.

ثم «لرادك إلى معادٍ» وهذه آية منقطعة النظير في صيغة الفرض والرد إلى معاد، مما يضخِّم أبعاد رده صلى‌الله‌عليه‌وآله الموعود إلى معاد، فما هو «معاد»؟

أتراه معاد الآخرة إلى الجنة[5]؟ ولم يكن فيها حتى يرد إليها! والصيغة الصالحة له «الجنة» دون «معادٍ» منكراً، ولا حتى «المعاد» معرفاً، لأنها اليتيمة التي تحمل لفظ «معاد» دون سواها من كل آيات المعاد!

أم هو الموت[6]؟ ولم يك ميتاً حتى يرد إلى الموت! ولا يخصه ذلك الرد الممنون فهى عليه! ثم ولا منة في الموت ما دامت الحياة الدنيا مدرسة الآخرة!.

---

[1]). سورة الأنفال ٨: ٣٢.

[2]). سورة القصص ٢٨: ٨٥.

[3]). سورة النمل ٢٧: ٩٢.

[4]). سورة الكهف ١٨: ٢٧.

[5]). الدر المنثور ٥: ١٤٠ ـ أخرج الحاكم في التاريخ والديلمي عن علي عليه‌السلام عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: لرادك إلى معاد قال: الجنة.

[6]). المصدر ـ أخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن أبي سعيد الخدرى «لرادك إلى معاد» قال: الموت.

أم هو الرجعة أيام المهدي القائم (عجل اللّه تعالى فرجه)[1]؟ ولا يناسب خصوصها المقام ولا الطمأنة الحاضرة لخاطره الخطير عن بأس المشركين!

أم هو الرجوع إلى مكة المكرمة[2]، رداً إليها بعد هجرته؟ والسورة مكية ولا يهاجر النبى صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى المدينة!.

«معاد» هنا كأصل في الموعود ردُّه إليه هو في الحق مكة المكرمة، وقد نزلت الآية في غضون هجرته عنها إلى المدينة، بالغ الجُحفة أو دونها أم ولما يخرج من الغار، إذ تكفي في نزولها حالة الهجرة، ثم وجو السورة المستعرضة قصص موسى ومن أهمها رجوعه إلى «معاد» الدعوة الرسالية «مصر» يناسب وعد هذا الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله برده إلى معاد الدعوة الرسالية وهو مكة المكرمة، فكما خرج موسى من مصر هارباً مطارداً يترقب، كذلك الرسول محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله، وكما وعد موسى أن يرد إلى معاد الدعوة كذلك الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله فإمض يا رسول الهدى في مهجرك، ودع أمر الحكم فيما بينك وبين قومك للّه الذي فرض عليك القرآن، وإنما سمي مكة معاداً لأنه مكان العود، وعدٌ محتوم في ذلك الرد لحدّ يسمى مكانه «معاد» كما ومكة معاد لكل مسلم على مدار الزمن، أخذاً من رسالته المحمدية وعوداً إليها.

فـ«كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن كثيراً من المؤمنين لكارهون»[3] كذلك «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» ذلك تفسير رده إلى معاد، ومن تأويله رده بعد موته إلى معاد الرجعة، فكما «معاد» إلى مكة المكرمة كان له فتحا مبيناً، كذلك معاد الرجعة حيث الدولة الأخيرة الإسلامية العالمية، وقد يرُدُّ إليه معه صلى‌الله‌عليه‌وآله عترته المعصومون وسائر النبيين وكل من محض الإيمان محضاً، كما يرد إليه كل من محض الكفر محضاً، وقد يعود في معاد رجعته إلى معاد هجرته، فهما معاً ـ إذاً ـ مكان عوده قبل مماته وبعده، وقد يعني تنكير «معاد» جنسه الشامل لمعاد الدعوة والرجعة ومعاد القيامة، والرد إلى الأخير اعتباراً إلى لقاء اللّه فـ«إنا للّه وإنا إليه راجعون» فلو عنى واحدة من هذه لعرَّف: «المعاد».

بالقرآن يحلف
تثبيتا للرسالة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله

---

[1]). نور الثقلين ٤: ١٤٤ عن تفسير القمي حدثني أبي عن حماد بن حريز عن أبي جعفر عليهما‌السلام قال: إنه سئل عن جابر فقال: رحم اللّه جابراً بلغ من فقهه أنه كان يعرف تأويل هذه الآية يعني الرجعة، وفيه عنه حدثني أبي عن النضر بن سويد بن يحيى الحلبي عن عبد الحمد الطائي عن أبي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليهما‌السلام في الآية قال: يرجع نبيكم صلى‌الله‌عليه‌وآله وأمير المؤمنين عليه‌السلام والأئمة عليهم‌السلام.

[2]). الدر المنثور ٥: ١٣٩ ـ أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال لما خرج النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله من مكة فبلغ الحجفة اشتاق إلى مكة فأنزل اللّه: أن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد إلى مكة، وفيه أخرج ابن مردويه عن علي بن الحسين عليهما‌السلام بن وائد قال: كل القرآن مكي أو مدني غير قوله: إن الذي فرض... فإنها أنزلت على رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قبل الهجرة فهي مكية نزلت بمكة أو بغيرها من البلدان، ولكل آية نزلت بالمدينة بعد الهجرة فإنها مدنية نزلت بالمدينة أو بغيرها من البلدان.
أقول: وقد أخرج إلى مكة في تفسير إلى معاد عن ابن عباس ومجاهد.

[3]). سورة الأنفال ٨: ٥.

«يس»[1] هي من الحروف المقطعة ـ وعلى حدٍّ تعبير الأمير عليه‌السلام: «من مفاتيح كنوز القرآن» المغيَّبة عن غير أهل بيت القرآن، ولكنها من بينها قد تلمح إلى معناها، وتلمع فيها مغزاها، ف «إنك لمن المرسلين» تلمح لذكر سابق عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ولم يسبق إلاَّ «يس» إذا فهي نداءٌ للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بيائها، وتسمية له صلى‌الله‌عليه‌وآله بحرفٍ من لفظة الرسالة، السابقة عليها، المعبدِّة الطريق إليها، ك «السامع الوحي»[2] «والقرآن الحكيم» واقع موقع البرهان على سماع الوحي النبوءَة وبث الوحي الرسالة، وإن كانت في صيغة الحلف.

فكما أن «ن» اسم من اسمائه وعلها اختصار عن نبوته، كذلك «س» عن سماعه الوحي[3] وقد تفترقان ان الاولى مقسم بها والثانية منادى، مهما تشتركان في اشارة النبوءَة وسماع الوحي! فهو بكيانه ككل ـ بقلبه وسمعه ـ سماعٌ واستذاعة للوحي ومن ثم إذاعة له، وهما في افضل مراتبهما وأكملهما.

«وَالْقُرآنِ الْحَكِيمِ»[4] هي في صورة الحلْف وسيرة البرهان، وكما هي السنة الدائمة في أحلاف القرآن، فالقرآن بحكمته البارعة أدبيا بأعلى قمم الفصاحة والبلاغة، ومعنويا بأرقى درجات اللباقة، يكفي شاهد صدق على رسالة من جاء به: «أولم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم».[5]

دليل واحد حكيم بين مدلولين اثنين، بين سين رمزا إلى سماع الوحي النبوءة و«إنك لمن المرسلين» في تصريحة الرسالة على صراطٍ مستقيم، فحكمة القرآن في بيانه وتبيانه، قد سدّت دونه ثغرات وإحتمالات أنه من عند غير اللهّ، فمهما بلغ الكلام من غير اللهّ إلى مطلق الحكمة، ليس ليبلغ إلى حكمة مطلقة دون أية هفوة وثغرة، حيث الكمال القمة اللاَّ نهائية هي التي تقتضي الحكمة القمة، فكل درجة من حكمة الكلام دليل على نفس الدرجة من حكمة المتكلم حتى تبلغ إلى الدرجة القمة التي لا تدانيها حكمة، فهي ـ إذا ـ من حكمة اللهّ لا سواه، حكمة ملأت قلب الرسول نبوءَة: «يس» ثم تخطَّته إلى العالمين رسالةً في أعلى درجاتها: «إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم».

فالقران حكيم لا مدخل فيه بأية شعرة في مثلث الزمان من أي إنس وجان، وفي أي حقل من حقوله المتمازجة على مختلف أبعادها، حيث تحلَّق على كل العلوم في كل أبعاد الزمان، لا عِوَج فيه ولا ريب يعتريه، فلا انفصام لعروته «نورٌ لا تطفأ مصابحيه وسراج لا يُخبوء توقُّده، وبحر لا يُدرك قعره، ومنهاج لا يضلُّ نَهْجُه، وشعاع لا يُظلم ضوءُه،

---

[1]). سورة يس الآية ١.

[2]). البرهان ٤: ٣ ـ ابن بابويه بسند متصل عن سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق عليه‌السلام قال له يا ابن رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ما معنى قول اللّه عز وجل: يس؟ قال: اسم من اسماء النبي ومعناه ايها السامع الوحي، اقول واحتمال أنه «يا إنسان» عن ابن عباس، ام «يا رجل» عن الحسن وابى العالية، ام «يا محمد» عن سعيد بن جبير ومحمد بن ضغنة أم «يا سيد» لا دليل عليه ولا سيما الذي ليس فيه «سين» حتى تكون إشارة إليه.

[3]). نور الثقلين ٤: ٣٧٤ ج ١٠ في كتاب الخصال عن ابي جعفر عليه‌السلام قال: إن لرسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله عشرة اسماء خمسة في القرآن وخمسة ليست في القرآن فاما التي في القرآن فمحمد واحمد وعبداللّه ويس، أقول ومنها في القرآن، «طه» كأنها ساقطة من قلم الناسخ.

[4]). سورة يس الآية ٢.

[5]). سورة العنكبوت ٢٩: ٥١.

وفرقان لا يُخمد برهانه، وتبيانٌ لا تُهدم أركانه... حبلاً وثيقا عروته، ومعقلاً منيعا ذروته...[1]
وما أحسنه برهانا حكمة القرآن، توجيها إليها بصورة الحلف، ولكي يعيش الناس تدبرا فيه وإمعانا في ألفاظه ومعانيه، دون أن يوضِّح جنباتِ حكمته فلا تتحرك العقول، فتبوء إلى عُطالة دون حِراك!
«إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * على صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»[2] رسالة عليا، على صراط مستقيم أعلى، حيث الحكمة القرآنية أعلى الحِكَم فلا أعلى منه ولا تدانيها حكمة، فالصراط المستقيم الذي لا عوج له هو طبيعته وماهيته.
إنه «على صراط مستقيم» في «الصورة الإنسانية»[3] والعبودية: «إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم»[4] والإيمان والإعتصام بالله «فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمته وفضل ويهديهم صراطا مستقيما»[5] «ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم»[6] «قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين»[7]
ولأنه مليءٌ من الصراط المستقيم ف «إنك لتهدي إلى صراط مستقيم»[8] هداية أصيلة بالكتاب: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويهديهم إلى صراط مستقيم»[9] وأخرى هامشية بسنته القاطعة: «من يطع الرسول فقد أطاع الله» «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول».
فهو «على صراط مستقيم» في شخصه ورسالته، في الصورة الإنسانية، وصراط العبودية والإيمان، والإعتصام بالله، وفي هدى كتاب الله، وفي رسالته، وإسلامه، وتحميده لله، سبعة كاملة بافضل درجاتها، منقطعة النظير بين كل بشير ونذير في ملإ العالمين من الملائكة والجنة والناس اجمعين.[10]

---

[1]). من خطب الامام امير المؤمنين في النهج ١٩٣ ص ٣٠٢.

[2]). سورة يس الآية ٣ و ٤.

[3]). تفسير الصافي عن الامام الصادق عليه‌السلام.

[4]). سورة آل عمران ٣: ٥١.

[5]). سورة النساء ٤: ١٧٤.

[6]). سورة آل عمران ٣: ١٠١.

[7]). سورة الأنعام ٦: ١٦١.

[8]). سورة الشورى ٤٢: ٥٢.

[9]). سورة المائدة ٥: ١١٦.

[10]). راجع تفسير الآية «اهدنا الصراط المستقيم» ج ١ الفرقان.

«إنَّك لمن المرسلين.. عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» في بعدين فما لم يستقم البعد الاوّل من الصراط لم يستقم الثاني: «افمن يهدي إلى الحق احق ان يُتَّبع أمَّن لا يَهِدِّي إلاّ أنْ يُهدى فما لكم كيف تحكمون».
فقد كان الرسول على صراط الإنسانية المستقيم، وصراط العبودية حتى اصطفاه اللهّ على صراط مستقيم من الوحي والرسالة والنبوة باكمل درجاتها.
وقد يعني «القرآن الحكيم» إلى جانب قرآن محمد محمدَ القرآن، لأنه تجسيد لحكمة القرآن وأحكامه ومعارفه، وقد «كان خُلُقه القرآن»[1] فهو الثقلان مهما كان القرآن أكبر الثقلين، فهو عقله وقلبه القرآن الحكيم بما فيها من تفاصيل المعارف الإلهية، ما يحتاجه العالمون أجمعون إلى يوم الدين.
وقد يتأيّد بما يأتي من إجابة المرسلين: «قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»حيث استندوا لإثبات رسالتهم بظاهرة التربية الخاصة الرسالية فيهم.
وأوضح من ذلك آية ثانية في يس: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين» فالرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله هو القرآن المبين كما القرآن مبين، بل هو أبين لأنه يجسِّده بكل مظاهره، ويفسره بسنته.
فالقرآن دون الرسول افضل من الرسول دون القرآن ولكن الجمع بينهما افضل من أحدهما.
«تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ»[2] ولأنه تنزيل العزيز فهو عزيز: «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[3] عزيز لا يُغلب بنسخ أو تحريف، أو تحوير وتجديف، وفي «تنزيل» مصدرا منصوبا إشارتان إلى عُظم موقف القرآن، فلا يوصف بالتنزيل إذ هو فوق الوصف الذي ليس لزاما لموصوفه،[4] والتنزيل لزام القرآن وكيانه، ليس له وراءَ «تنزيل العزيز الرحيم»موقفٌ حتى يوصف به، إذا فالوصف هنا هو الموصوف، والموصوف هو الوصف دون فارق!
ثم المصدر دليل ثان على ذلك الكيان المجيد للقرآن، أنه من عزة اللهّ ورحمته المنزلة على خلقه، فلا يحمل كيانا إلاّ ربوبيا في أعلى مظاهره.
وقد يعني «تنزيل» نبي القرآن مع القرآن فإنه مُنْزَل «قد أنزل اللهّ إليكم ذكرا. رسولاً»[5] ومُنزَّل حيث الدرجات منزلَّة عليه من العزيز الحكيم منذ كان فطيما حتى بلوغه وحتى رسالته وإلى قضاء نحبه.
فمحمد القرآن وقرآن محمد هما تنزيل العزيز الرحيم، كما هما على صراط مستقيم، وكما يحملان مع بعض، هذه الرسالة القمة دون فكاك.
ولأنه تنزيل الرحيم فهو كتاب رحيم يعم برحمته وكما رسوله «وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين».[6]

---

[1]). وكما سئل ابن عباس ما كان خلق النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: كان خلقه القرآن.

[2]). سورة يس الآية ٥.

[3]). سورة فصلت ٤١: ٤١.

[4]). فان تنزيل منصوب اما على الاختصاص او على المدح او انه مفعول اعني.

[5]). سورة الطلاق ٦٥: ١٠.

[6]). سورة الأنبياء ٢١: ١٠٧.

كتابٌ عزيزٌ رحيم، تنزيل العزيز الرحيم، على رسول عزيز رحيم، عزة في التنذير ورحمة في كلما يتطلب عزة ورحمة.
«لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباءُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ»[1] علةً غائية للإرسال والتنزيل.

صحيح أن القرآن لإنذار الناس أجمعين، من أنذر آباءهم وأنفسهم أم لم ينذروا: «قل يا ايها الناس إنما أنا لكم نذير مبين»[2] ولا الناس فقط بل العالمين: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نـذيرا»[3] ولكـن المحـور الاوَّل لإنذاره «قوما ما أنذر آباءهم فهم غافلون» فانهم أصلد وأصلب، فغيرهم أقوى تأثرا وأعبد و«ولقد يسرناه بلسـانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا»[4] لُدّا في عروبتهم، ولُدا إذ لم ينذروا من قبل ولا آباءهم أم لم ينذروا مهما أنـذر آباءهم «لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون»[5] «.. لعلهم يتذكرون»[6]«وما أرسلنا إليهم قبلـك مـن نذير».[7]

فالذين أنذروا، هم وآباءهم، ثم الذين أنذر آباءهم دونهم، ثم من انذروا هم دون آبائهم، ثم مَن لم يُنذروا هم ولا آباءهم، هم كلهم من العالمين تشملهم آية الفرقان، ولكنما العرب الذين لم يُنذروا، هم ولا آباءهم، فـيهم عراقيـل ثلاث وِجاه إنذار القرآن، وإذا كانت عزة القرآن ورحمته لحد تؤثر في هؤلاء بعراقيلهم الثلاث، فبأحرى تأثيرها فيمن دونهم عرقلةً، فالتحلل عن القوميات يعبِّد، وإنذار الآباء يعبِّد، وإنذارهم أنفسـهم يعبِّـد، تعبيـدات ثـلاث لتقبُّـل الإنذار على سهولة ويسر.

ولأن هذه الغفلة ليست لحد يسقط معها التكليف، فواجب الإنذار يوجَّه إليهم على صعوباته وعراقيله.

فثالوث الغفلة التامة، الطامة أنفسهم، الناتجة عن هذه الثلاث، تجعل منهم معاندين متعنتين لحدٍّ:

«وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ».[8]

من حروب الدعاية التي شنُّوها على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله معتمدين فيها على النسق القرآني المنقطع النظير، قولتُهم إن البشير النذير «شاعر نتربص به ريب المنون»[9] «بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسـل

---

[1]). سورة يس الآية ٦.

[2]). سورة هود ١١: ٢٥.

[3]). سورة الفرقان ٢٥: ١.

[4]). سورة مريم ١٩: ٩٧.

[5]). سورة السجدة ٣٢: ٣.

[6]). سورة القصص ٢٨: ٤٦.

[7]). سورة سبأ ٣٤: ٤٤.

[8]). سورة يس الآية ٦٩.

[9]). سورة الطور ٥٢: ٢٠.

الأولون».[1]

وما قولهم إنه شاعر إلاّ كقولهم هو ساحر، حيث الشعر يسخر العقول ويسحرها، ويأتي بالكذب المزخرف بـأوزان ساحرة، فيُخيِّل إلى الناس صدقه، أو يقضي على الصدق فيُظن كذبه، والشعر يفـدي جـمال المعنـى وحقَّـه لجـمال اللفظ والوزن، ويفدي جمال الحقيقة بتجميل الوزن، عامدا مختارا، أو مضطرا محتارا.

ومجمل القول عن قول الشارع والشاعر، أن الشارع يُؤصِّل المعنى على جمال اللفظ دونما نفـاق فـيهما فـانهما في تعبيره العبير على حدٍّ سواء وحتى في الإعجاز، والشاعر يعاكسه بتأصيل الوزن والمعنى تبعٌ، وأحيانا ليس له معنى صالح او يهدم صرح الحقيقة.

ولقد كانوا على معرفة بما للشعر من زور وغرور على حبه الهَيَمان، فردفوه في عسـاكر الـتُّهم الـزور ضـد الرسـالة القرآنية، ويرد عليهم القرآن بواقعه النثر وإن كان لا يشبه شعرا ولا نثرا، وبما ينفي عن رسوله.

«وما علمناه الشعر» وإذا لم نعلِّمه شعرا فما هو بشاعر، لأنه أمِّي لم يتعلم من غير الله شعرا وغير شعر، ولم يعلِّمه الله الشعر، فليس ـ إذا ـ ليعلم شعرا لا إنشادا له[2] ولا نقلاً أم ومطلق النقل.

أترى الجهل بشيءٍ يعد من عداد مكارمه الرسالية، شعرا وغير شعر؟ أجل وفي العلم المشوب الذي يجهِّـل ويريـب الناس بالنسبة للرسالة الإلهية، وكما وأن تلاوته وخطه بيمينه يريب المبطلين: «وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينه إذا لارتاب المبطلون»[3] والشعر ينهج غير منهج النبوة فإنه انفعال يُستغل وهي فعل يَسـتغل، هنـاك انفعال يتقلب من حال الى حال في مختلف الأحوال، وهنا منهج ثابت من الله لا يتبدل مع الأهواء المتجددة التي لا تَثبت على حال، وهناك أشواق إنسانية واقعية أم متخيلة إلى ظاهر الجمال، وهنا حِكَم وأحكام إلهية مرسـومة في كتاب التدوين تُجاوب كتاب التكوين، فهما مختلفان من الأساس، لا نجد لكلٍّ في صاحبه اي مساس.

لذلك لم يُعهد عن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله نقل أي شعر عن أي شاعر إلاليّا[4] فضلاً عن إنشاده في سنته، وأحرى منها براعة يراعة قرآنه.

---

[1]). سورة الأنبياء ٢١: ٥.

[2]). الدر المنثور ٥: ٣٦٩ ـ اخرج ابو داود والطبراني والبيهقي عن ابن عمر وسمعت رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: ما ابالي ما اتيت ان انا شربت ترياقا او تعلقت نميمة او قلت الشعر من قبل نفسي، أقول وهذا لا ينافي عدم تعليمه مطلق الشعر حتى نقله وانما ذكر انشاده كاظهر مصاديقه.

[3]). سورة العنكبوت ٢٩: ٤٨.

[4]). ولقد كان يقلب الشعر حين ينقله كما في الدر المنثور ٥: ٣٦٩ ـ اخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عن قتادة قال بلغني انه قيل لعايشة هل كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث اليه غير انه كان يتمثل ببيت اخي بن قيس يجعل آخره اوله وآخره اوله ويقول: يأتيك من لم تزود بالاخبار فقال له ابو بكر ليس هكذا فقال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله اني واللّه ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي أقول، وأصل المصراع: ويأتيك بالاخبار من لم تزود، وفيه اخرج ابن سعد وابن ابي حاتم والمرزباني في معجم الشعراء عن الحسن ان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله كان يتمثل بهذا البيت: كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا ـ فقال ابو بكر اشهد انك رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ما علمك الشعر وما ينبغي لك.
اقول واصله: كفى بالشيب والإسلام للمرء ناهيا ـ وما الطفه تقديمه صلى‌الله‌عليه‌وآله الاسلام معنويا، ولفظيا حيث ما علّم الشعر.

وأما إنشاء الشعر ونقله بين الأئمة المعصومين فقد ينبغي إذ ليسوا في موقف الرسالة، ثم وما كان لهم في الشعر مراس، وكانوا يستحسنون أحسنه دعاية للإيمان بعد دعوة السنة والقرآن، وقد مدح اللّٰه الشعراء الذين آمنوا وهم قلة، بعد ما ذم سواهم وهم كثرة: «والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلاّ الذين آمنوا وعملو الصالحات».

ولكن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله لو قال شعرا إنشادا أو نقلاً، قرآنا وغير قرآن، لدخل في أقواله تهمة الشعر التخيُّل، ولم يكن الشعر ليُجَمِّله أكثر مما هو فصاحةً وبلاغةً، ولكنما الشعر يزيد المعنى جلاءً في تخيُّل، وهو نفاق وتخبُّل وشرعة اللّٰه واللّٰه منه براء.

والقول: إن الشعر ـ هنا ـ يعنيالتخيلات المزخرفة موزونةً وغير موزونة، فالحقائق الناصعة في أوزان ليست شعرا، والتخيلات في غير أوزان شعر، وإذا كانت في اوزان فهي شعر على شعر.

ذلك هنا مردود، بأن المفهوم من الشعر ما له وزن في تخيل وسواه، وهو لجمال وزنه يورث التهمة، والإستثناء في آية الشعراء ب «إلاَّ الذين آمنوا..» عن «الشعراء يتبعهم الغاوون..» وإضافةً إلى مثلث التعريف بالشعراء دليل واضح لا مرد له أنه ليس مجرد التخيلات.

فليس ينبغي للرسول علم ما يريب الناس في رسالته «وما ينبغي له» وليس الشعر ذكرا إلا نفاقا وزورا وغرورا، ولا مبينا لهدى إذ ليس صراطه مستقيما، والرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله«إن هو إلاَّ ذكر وقرآن مبين»: إن الرسول إلاَّ ذكرا وإن علمه إلاَّ ذكرا، حيث «هو» يحتملهما، والأحرى أدبيا هو الرسول.

اترى الرسول «قرآن مبين» إلى كونه ذكرا؟ أجل إنه ذكر بكله، وقرآن مبين بكله، وقد كان خلقه القرآن[1] قلبه القرآن وقالبه القرآن، ظاهره قرآن وباطنه قرآن، ومهما كان في القرآن التدوين متشابهات تحتاج إلى بيان من القرآن، فالرسول القرآن هو بنفسه مبين وبيان، فإنه قرآن متجسد، مبين في كافة أحواله وأقواله.

إنه ذكر كما القرآن ذكر: «ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم»[2]«قد أنزل اللّٰه اليكم ذكرا رسولاً..»[3] صنوان من أصل واحد هو خاتمة رسالات السماء، وإنه مبين كما القرآن مبين: «أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلاَّ نذير مبين»[4] «الر. تلك آيات الكتاب المبين».[5]

أنا القرآن والسبع المثانيوروح الروح لا روح الأواني

فهو قرآن كما القرآن قرآن، كما القرآن يُقرأ تدوينا فهو يقرأ كتاب حياته تكوينا، وهما متجاوبان كأنهما واحد حال أنهما اثنان، فقرآن محمد ومحمد القرآن آيتان بارعتان إلهيتان كأنهما آية واحدة، يستدل بالقرآن على رسالته ويستدل به على رسالة القرآن! وللرسول فضل على القرآن لأنه تفسيره بيانا وعملاً وتطبيقا!

هذا التعبير عن الرسول وإن كان منقطع النظير، فإنه يبين كيان ذلك البشر النذير، دمجا في القرآن كما القرآن

---

[1]). يُسأل ابن عباس ما كان خلق الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله؟ قال: كان خلقه القرآن.

[2]). سورة آل عمران ٣: ٥٨.

[3]). سورة الطلاق ٦٥: ١٠.

[4]). سورة الأعراف ٧: ١٨٤.

[5]). سورة يوسف ١٢: ١.

مُدمج فيه، فأيَّة فرية على الرسول فرية على القرآن كما العكس كذلك، فكونه شاعرا يعني أن القرآن شعر، وكونه شعرا يعني أن رسوله شاعر.

ثم «إنْ هو» الثاني: علم الرسول «إلاَّ ذكر وقرآن مبين» يخص علمه بهما، فالقرآن المبين هو الأصل المتين في علمه بالوحي، ثم السنة ذكرٌ يبين القرآن، ولو كان «هو» ـ فقط ـ القرآن لكان توصيفه ب «قرآن مبين» توضيحا للواضح لدى الكل، وأما كون الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ببيانه قرآنا مبينا إلى كونه ذكرا، فمجهول لدى الأكثرية إذا ف «إنْ» الرسول وعلمه «إلاّ ذكر وقرآن مبين» حاملاً مثلثا من التبيين: ذكر، قرآن! مبين:

«لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ».[1]

مقابلة «من كان حيا» ب «الكافرين» توحي بحياة الإيمان، أترى أنه واقع الإيمان وهو واقع بعد كمال الإنذار والتبشير؟

قد تعني قبول الإيمان بأية مرتبة كان فهو من كان عاقلاً[2] يستعمل عقله في صالحه: «إن هو إلاَّ ذكر للعالمين*لمن شاء منكم أن يستقيم».[3]

فالذي لا يعقل رغم عقله فلا يشاء أن يستقيم فهو ميت من الكافرين، لا يؤثر فيه الإنذار، فقد تعني ما تعنيه «هدىً للمتقين» و«إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة واجر كريم».

ف «من كان حيا» يشمل من كان كافرا يتبع الذكر ويتقي إذا وقي، إذ كان كفره عن قصور او تقصير جانبي وقد بقي فيه نور لنجاة: «أو من كان ميْتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مَثَلُه في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون»[4] ف «من كان ميتا» هنا تعني مطلق الموت الذي يشي إلى حياة، وفي الروم الموت المطلق الذي لا يشي إلى حياة: «فإنك لا تُسمع الموتى ولا تُسمع الصمَّ الدعاءَ إذا ولَّوا مدبرين. وما أنت بهاد العُمي عن ضلالتهم إن تُسمع إلاَّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون».[5]

«لينذر.. ويحق القول»: كلمةَ العذاب «على الكافرين» الذين «سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» ولكن إذا لم تنذرهم لم يحق القول عليهم، حيث لهم حجة أننا ما أنذرنا حتى نهتدي: «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً».

أترى «لينذر» هو الرسول؟ فقد انقطع إنذاره بعد انقطاعه! أم هو القرآن؟ ومحور الكلام كان هو الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وإنذار القرآن لا يتم إلاّ بالرسول! المنذر هو الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بالقرآن والقرآن بالرسول، وإذا انقطع الرسول عن الأمة فلا تنقطع سننه عنهم، والقرآن هو محور الإنذار، بالرسول ما دام فيهم، وبسنته وخلفائه بعده، وبالعلماء بعدهم؛ «فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا»[6] «لتنذر به وذكرى للمؤمنين»[1] «وهذا كتاب أنزلناه مبارك

---

[1]). سورة يس الآية ٧٠.

[2]). المجمع روي ذلك عن علي عليه‌السلام.

[3]). سورة التكوير ٨١: ٢٨.

[4]). سورة الأنعام ٦: ١٢٢.

[5]). سورة الروم ٣٠: ٥٣.

[6]). سورة مريم ١٩: ٩٧.

مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها...»[2] «وأوحي اليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ»[3] «قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصمَّ الدعاء إذا ما ينذرون»[4]

ثم «من كان حيا» دون الأحياء قد تعني الجمع بين من يؤثر فيهم الإنذار أجمع، ف«الأحياء» بالفعل هم المؤمنون بالفعل، والأحياء شأنا هم الكافرون بالفعل من مشركين وكتابين أمَّن هم؟، و«كان» تشملهم أجمع[5] ثم لا يبقى إلاّ من ليس في حياته حياة العقل والقبول، ليُرجى به إيمانه بالقرآن، الغافل الذي لا يستيقظ إذا أوقظ ولا يتعظ إذا وُعظ فهو ميتٌ مطلق لا ترجى حياته.

إذا فسابق الحياة السابغة شرط أصيل لتقبُّل الإنذار بالقرآن، ومهما كان القرآن حجة بالغة على كافة العقلاء ولكنه ليس ليؤثر إلاّ فيمن له قابلية القبول، وهو من له بقية من حياة العقل والتحري عن الحق، دون من ليس ليستعمل عقله: «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل».[6]

والمكلفون أمام إنذار القرآن أضلاع ثلاثة، فضلع متضلع بالإيمان، فهو يكمل إنذاره، وهو من أحي الأحياء، وضلع ضليع عن الإيمان ميت عن كيانه كإنسان، فهو الميت المطلق الذي ليس له نصيب من الحياة: «إنك لا تُسمع الموتى وما أنت بمسمع مَن في القبور»[7] ف«سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» وضلع عوان هو في مطلق الكفر غير المستقصي كيانه ولا المستعصي عن إيمانه، فهو ضال قاصر يتحرى عن الهدى، أم ـ لاقل تقدير ـ لا يفر عنها مبتغيا سبيل الردى، فهو ميت حي، فإن مآله إلى الحياة المطلق وهو الآن في مطلق الحياة، فيشمله «من كان حيا» كما يشمل المتضلع في الإيمان، فإنذار القرآن يعم كل من فيه تجاوب قليلاً أو كثيرا، بحياة عقلية قليلة أو كثيرة! فحياة الفطرة والعقل هما الظرفان الظريفان الطريفان لقبول الإيمان، دون الفطرة المحجوبة والعقل المكسوف بطوع الهدى، الذين يعيشون كفرا مطلقا قاصدين معاندين فـ«ويحق القول على الكافرين»!.

---

[1]). سورة الأعراف ٧: ٢.

[2]). سورة الأنعام ٦: ٩٢.

[3]). سورة الأنعام ٦: ١٩.

[4]). سورة الأنبياء ٢١: ٤٥.

[5]). نور الثقلين ٤: ٣٩٣ ح ٨٠ في أصول الكافي بسند عن ابي عبداللّه عليه‌السلام حديث طويل يقول فيه: وقال اللّه عز وجل «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي» فاخي المؤمن الذي تخرج طينته من طينة كافر والميت الذي يخرج من الحي هو الكافر الذي يخرج من طينة المؤمن، فالحي المؤمن والميت الكافر وذلك قوله «او من كان ميتا فأحييناه» فكان موته اختلاط طينته مع طينة الكافر وكان حياته حين فرق اللّه عز وجل بينهما بكلمته كذلك يخرج اللّه عز وجل المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله الى النور وذلك قوله عز وجل «لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين».

[6]). سورة الأعراف ٧: ١٧٩.

[7]). سورة فاطر ٣٥: ٢٢.

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاما فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ».[1]

ترى ما هو موقف الواو في «أوَ لم يروا» ولا معطوف عليه مذكورا قبله؟ إنها سائر الآيات آفاقية وأنفسيةً، مشهودةً لهم مرئية، لا غائبة ولا بعيدة، ولا غامضة غير مفهومة، فإذا لم يروها، ألاّ مساس لهم بها حتى يفكروا فيها، أم رأوها ولم يعتبروا بها، «أو لم يروا» ما ينتفعون بها في حياتهم الحيوانية «أنا خلقنا» بجمعية الصفات حيث هناك جمعية الواجهات في نعمات «لهم» في اختصاص فانتفاع «مما عملت أيدينا» من ماءٍ وتراب أمّـاذا مـن مخلوقـات حيـث عملتها أيدينا، قُدُرات حسب مختلف النعمات «خلقنا لهم... أنعاما»: جمع النَعَم وهي الدابة المحلَّل أكلها ثمانية أزواج: «... وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج...»[2] ومع أنها من خلق الله وملكه حقا «فهم لها مالكون» ملكا مجازيا مستخلفون فيه، وهذه من آيات الملكية الخاصة وطبعا بشرائطها العادلة منحة ربانيـة وهبـة إلهيـة مـما عملتـه الأيدي الربانية، فأصبحت أيادي لهم مملوكة، هم مستخلَفون فيها ابتلاءً، والتفريعة في «فهم» تفريعة لرحمة الله، وتقريعة عليهم كيف هم يكفرون بنعمة الله «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها».

ثم وليس مجرد ملكهم إياها، حيث المستعصي على مالكه نقمة بدل كونه نعمة، ولكنـا «وذللناهـا لهـم» ذِلاً دون شماس، وذُلاً بكل احتراس «فمنها ركوبهم»: «ومن الأنعام حَملة وفرشا»[3]

القرآن

حكم عربي واضح يعرب

عن مرادات الله علما وعملاً

«وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْما عَرَبِيّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ».[4]

إن القرآن حكم في كافة الحقول، عربي واضح لا تعقيد فيه لدى كل العقول، فهو دون توجيه وتحميل يوافق وحي الفطرة كإجمال، ويوافق وحي الرسالة في كتاباتها كتفصيل، دون حاجة الى لزق التوجيهات غير المتحملة، او لصـق البراهين الخارجية، فإنه في نفسه حجة عربية لا ريب فيه، ولا شبهة تعتريه.

فالقرآن كله حكم منزل، يعم الأحكام الفطرية والعقلية والفرعية الشرعية، لا تجد فيـه آيـة إلا وتحمـل حكـما او احكاما عربية: واضحة لائحة لدى العقول الصافية، لا تعقيد فيها لا في التعبير لمكان الفصاحة القمة وبلاغتها، ولا في

---

[1]). سورة يس ٣٦: ٧١ - ٧٣.

[2]). سورة الزمر ٣٩: ٦.

[3]). سورة الأنعام ٦: ١٤٢.

[4]). سورة الرعد ١٣: ٣٧.

المعبَّر عنه لمكان التجاوب والملائمة التامة مع الفطر والعقول والواقعيات والمتطلبات.

فلا يعني من «حكما» فقط الأحكام الفرعية، ولا من «عربيا» عربية اللغة، حتى ينبري المبشر الانجيلي قلائلاً انه يختص بالعرب دون سواهم، فالحكم هو كل حكم، والعربية هي كل واضحة لائحة، فقد يكون الحكم عربي اللفظ في اللغة، والمعنى معقد، ام عربي الدلالة والمعنى مبهم لدى العقل والفطرة، ام عربيّ المعنى دلالة ومدلولاً ولكنه معقد في التصديق او التطبيق، فالحكم الذي لا تعقيد فيه دلالة ومدلولاً وتصديقا وتطبيقا هو العربي المطلق المطبق، وكذلك القرآن «فبأي آلاء ربكما تكذبان»!

أجل ولا تجد آية طيلة الرسالات الإلهية، عبر آياتها الرسالية، أعرب من آية القرآن وأحكم، لحدٍّ تعتبر الآية الوطيدة، غير الوهيدة، آية كافية وافية لمتطلبات الآيات وزيادة هي رمز الخلود لمن يستقبلونها طول الزمان حتى القيامة الكبرى، كما كانت لمن مضى.

كما وانه الحكم كلُّه وكلُّ الحكم، حكم الآية التكوينية كآية الرسالة الختمية، على كونه حكم الآية التشريعية كمادة الرسالة في الأصول الأحكامية وفروعها، وفي كافة الاقضية على مختلف الحقول الفردية والجماعية، السياسية والاقتصادية، الثقافية والحربية اما هيه من أحكام تربط فصالات المجتمعات أو الأفراد، وهو ـ ككل ـ حكم قيادي يقود كافة المكلفين في دولة مباركة واحدة بزغت منذ الدولة الاسلامية في المدينة المنورة رغم العراقيل التي حالت دون شمولها، وسوف تشمل العالم كله ارغاما للعراقيل كلها زمن القائم المهدي من آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله. «فالحكم لله العلي الكبير».[1]

أفبعد ذلك الحكم العربي الكامل الشامل يبقى مجالٌ لاتباع الأهواء من الذين أوتوا الكتاب أمن سواهم، مسايرة معهم لكي يوافقوا على القرآن ويصادقوه؟

ويا لذلك التهديد الظاهر الصارم «ولئن اتبعت اهوائهم بعدما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق» من تحديد لموقف القرآن العظيم ورسوله النبي الكريم، انهما خالدان عبر الأعصار والامصار دونما غيار بأي عيار، فلا تسامح «بعد ما جاءك من العلم» في أي تحوير وتغيير، وحتى لو كان من الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ولن! حيث الولاية الكافية والوقاية الوافية لا توجدان إلاّ في ذلك الحكم العربي لا سواه.

ففي حكم القرآن العربي تجد الولاية المطلقة، والوقاية المطلقة، النازلة من مُنزِل الوحي الى مَنزله «ولن تجد من دونه ملتحدا».

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ».[2]

«ولقد» تُحقق في تأكيد السنة الدائبة الرسالية للرسل كافة انهم بشر مثلنا فلا يملكون شيئا من غيب اللّه وحيا وآية رسالية إلا ما أذن اللّه، فلييأس الناس المتعنّتين على الرسول أن يأتي بآية كما يشتهون، حيث الآية الرسالية غيب كما الوحي غيب: «ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين».[3]

«وأقسموا باللّه جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند اللّه وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون»[4] وليست الآيات تتشابه الا في مدلولاتها دون صورها وأبعادها، فلا ينزلها اللّه الا في آجالها المكتوبة لها كما

---

[1]). سورة غافر ٤٠: ١٢.

[2]). سورة الرعد ١٣: ٣٨.

[3]). سورة يونس ١٠: ٢٠.

[4]). سورة الأنعام ٦: ١٠٩.

تقتضيه الحكمة الرسالية، فـ «لكل امة اجل» من آجال الرسالات وسواها «كتاب» مرقوم رقمه الله، وحيا وآية لرسالته، كما ان «لكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».[1]
فكل امة رسالية لها أجل طال ام قصر كما حدده الله، وأجل الامة الإسلامية اجل الكون كله وهو القيامة الكبرى، ولكل اجل كتاب يرسم شرعته وحيا هو الشرعة، وآية رسالية تثبت الشرعة، وكما ليس الشرائع شرعة واحدة إلا في جذورها وهي الدين الواحد، كذلك آياتها ليست واحدة إلا في مدلولاتها وهي اثبات وحي الشرعة.
فكتاب كل امة وحيا وآية الوحي يناسب اجله طوله التاريخي وعرضه الجغرافي، وكتاب الامة الإسلامية يجاوب في خلوده اجلها حتى القيامة الكبرى عبر الامصار والاعصار، فلا كتاب يحق له إلا كتابه الذي جمع وحيه وآية وحيه.
كتابا منقطع النظير عن كل بشير ونذير، مهيمنا على ما بين يديه من كتاب، ومتقدما على تقدم الزمن بكل عقلية وعلمية بارعة، بل هو أمام العلم وإمامه، «ولن تجد من دونه ملتحدا»!
فلا يملك آجال الامم وكتبهم إلا الله دون رسل الله، «وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا باذن الله» دون تخويل له ان يأتي بها كما يشاء، ولا تعطيل ألا يأتي بأيَّة آية. فان فيه تعطيل الرسالة، بل هو عوان بين ذلك دون إفراط التخويل ولا تفريط التعطيل، بل هو إذن الله قرينا بفعل الرسول ام دون فعله، وانما التدليل على أن الآية للرسول حتى يصدق في وحيه الرسالي بالآية الإلهية.
«يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ».[2]
آية وحيدة منقطعة النظير لا ثانية لهما في سائر القرآن إلا ام الكتاب: «وإنه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم»[3] ولان المحو ليس إلا اذهاب الكائن برسمه او اثره، والإثبات هو استمراره، فمقسم المحو الإثبات هو الثابت قبلهما بثبات المحو والإثبات.

هل نسي الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله
شيئا من القرآن
!؟!

«سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى».[4]
أقرأه: جعله قارئا بعد أن لم يكن، وبما أن الرسول كان قارئا القرآن منذ نزوله آية الإقراء، فليكن الإقراء ـ هذا ـ غير

[1]). سورة الاعراف ٧: ٣٤.

[2]). سورة الرعد ١٣: ٣٩.

[3]). سورة الزخرف ٤٣: ٤.

[4]). سورة الأعلى ٨٧: ٦ ـ ٧.

الذي كان، والنص هنا: «فلا تنسى» يميزه بعدم النسيان، المتفرع على هذا الإقراء الخاص، فلقد كان حتى الآن يقرأ، وكان يكرر الآيات لكي لا ينسى،[1] محاولة بشرية لحفظها، ولكنها ليست بالتي تُطمئن الإنسان، فقد ينسى رغم كافة المحاولات، وقد ينسى أنه ناس.

والعصمة ـ ولا سيما في الرسالة الأخيرة الخالدة ـ إنها لزام الرسالة: في تلقي الوحي وإلقائه وتطبيقه، وإلقاء الوحي كما أوحي، بحاجة ملمة إلى الحفظ الدائب، ودون تكلُّف زائد، وليكن كل محاولاته في تبليغ الوحي وتطبيقه.

فهذه بشارة له صلى‌الله‌عليه‌وآله برفع عناء الحفظ، تريحه وتطمئنه على القرآن، بحفظه في قلبه وعلى لسانه، وكما وعد بالحفاظ عليه في أمته وإلى يوم الدين عن تحريف المبطلين، وادغال الدجالين، وقد عرفناه مسبقا، وكما وعده بجمعه وقرآنه كتابا مفصلاً، بعد نثره في نزوله نجوما حسب الحاجات: حفظا مركزا لا تتخلله أية ريبة وشائبة.

ولقد كان القرآن ينزل على قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله من قبل «نزل به الروح الأمين على قلبك» ثم أخذ يمزج قلبه المنير، ويدخل شغافة لحدٍّ أصبح قلبه قرآنا لم يبق مجال لنسيانه.

فالنازل على السمع قريب إلى النسيان، ثم بعيد عنه إذا نزل إلى القلب، ثم مستحيل إذا ضمن الله تعالى عدم النسيان، وهكذا استمر وحي القرآن على قلب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله دون أن ينسى ولا حرفا منه أو نقطة أو حركة، أو مكان أو مكانة!.

«إلا ما شاء اللّه»: سنقرئك من القرآن ما يحمل كل شيء، إلا ما شاء الله اختصاصه بذاته المقدسة من علوم الغيب،[2] فقد استقصى اللّه في القرآن ما كان وما يكون وما هو كائن، وقصّه للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ولم يستثن إلا ما شاء اللّه اختصاصه بنفسه المقدسة، فآية الإنساء ـ إذا ـ من آيات أن محمدا لم ينس ما أقرأه ربُّه!.

«فلا تنسى إلا ما شاء اللّه»: واحتمال ثان أن يكون الاستثناء بالمشيئة عن «لا تنسى»: لا تستطيع دوافع النسيان وعوامله أن تنسيك شيئا من القرآن على وجه الإطلاق، فإن اللّه غالب على أمره، ولئن كان هناك عامل ـ ولن يكون ـ فلتكن مشيئة اللّه، ولا يعني هذا الاستثناء أن اللّه يُنسيه شيئا مما أقرأه، فإنه أسوءُ العسرى بعد إذ وعده باليسرى: «فلا تنسى»!... وإذا كان هنا موقع للنسيان، فما هو موقع التعليل؟:

«إنه يعلم الجهر وما يخفى» فهل هو إلا تأكيدا لعدم النسيان، فما النسيان إلا من ضعف الإنسان، وقد جُبِرَ بالإرادة الإلهية: «فلا تنسى» أو من الجهل بعوامل النسيان ظاهرة وخافية، فـ«إنه يعلم الجهر وما يخفى» أو بدافع الضغط على النبي في نسيان القرآن، فلماذا ـ إذن ـ بشّره: «فلا تنسى»؟ ولما وعده دون فصل.

«وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى»[3]

ولماذا ينسيه ما يأمره بتذكيره؟

«فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى»[1]

---

[1]). الدر المنثور ٦: ٣٣٩، أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: «كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من الوحي حتى يزمل من ثقل الوحي حتى يتكلم النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بأوله مخافة أن يغشى عليه فينسى، فقال له جبريل: لم تفعل ذلك؟ قال: مخافة أن أنسى، فأنزل اللّه «سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء اللّه» وفيه عنه أيضا: كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يستذكر القرآن مخافة أن ينساه، فقيل له كفيناك ذلك ونزلت «سنقرئك فلا تنسى».

[2]). هذا إذا كان المستثنى منه هو الاقراء، ولأنه اصل الكلام، وحينئذ لا مجال لشطحات المبشرين، مزمرين ومطبلين أنه صلى‌الله‌عليه‌وآله نسي شيئا من القرآن.

[3]). سورة الأعلى ٨٧: ٨.

ليس الجواب إلا أن الإستثناء هنا من الإقراء، وإذا كان من «فلا تنسى» فلما يأتي:
١ ـ إن الإستثناء بالمشيئة هنا قد يكون كما في شعيب عليه‌السلام: «قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أوَ لو كنا كارهين*قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملـتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا ان يشاء الله ربنا...»[٢] فهل بالإمكان ـ واقعيا أم عقليا ـ أن يشاء الله عود رسوله والمؤمنين في ملة الشرك، فليمكن ـ إذن ـ أن يشاء نسيان محمد قرآنه العظيم!
٢ ـ وقد يكون الاستثناء هنا لكي يعلن ربُّنا أنه ليس مسيّرا في استبقاء وحي القرآن في قلب الرسول، وألاّ ينسى، وكما في القرآن كله: «ولئن شئنا لنذهبنَّ بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا نصيرا* إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا.»[٣] وكما ترك الوحي عليه ردما من الأيام لحد ظن صلى‌الله‌عليه‌وآله أنه تعالى ودّعه أو قلاه، حتى نفاه تعالى: «ما ودعك ربك وما قلى». كل ذلك لكي يعلم النبي ونعلم معه، أنه لا يستقل في وحي القرآن.
ومهما يكن من شيء فلا دلالة هنا على ما يهواه المبشرون من أن محمدا نسي من القرآن وهذا يتنافى وعصـمته في البلاغ.[٤]

الفهرس

المدخل... ٥
القرآن نازل في شهر رمضان... ٤٩
القرآن نازل في ليلة مباركة... ٥٦
القرآن نازل في ليلة القدر... ٦٧
القرآن احكمت آياته ثم فصلت... ٨٧
القرآن المفصل آيات للقرآن المحكم الحكيم... ٩٢
القرآن وحكمة نزوله تدريجيا بلسان عربي و هو في زُبُر الأولين... ١٠١

---

[١]). سورة الأعلى ٨٧: ٩.

[٢]). سورة الاعراف ٧: ٨٩.

[٣]). سورة الاسراء ١٧: ٨٦.

[٤]). من هؤلاء الاستاذ الحداد اللبناني، إذ يقول فيما يقول: الظاهرة الأولى نسيان النبي بعض ما يوحى إليه «سنقرئك فلا تنسى ما شاء اللّه إنه يعلم الجهر وما يخفى ونيسرك لليسرى»فالاستثناء «إلا ما شاء اللّه» يفيد بأن اللّه قد يشاء أن ينسى النبي بعض ما يوحى إليه، فهل يصح أن يوحي اللّه شيئا ثم يأمر بنسيانه، هل كان النسيان مقصودا؟ آية التبديل (النحل ١٠١) وآية المحو (الرعد ٤١) توحيان بأن النسيان قد يكون مقصودا من اللّه ومن النبي، فكيف تنسجم العصمة في البلاغ والتبليغ مع مبدأ النسيان وواقعه» (من كتابه الكتاب والقرآن) وقد أجبنا عنه في كتابنا «المقارنات» ص ١٩٤ ـ ٢٠٥ وسوف نبحث عن آيتي التبديل والمحو في محالها.

عربية القرآن تعرب انه الأفصح الابلغ... ١١٧
عربية القرآن... ١٢٠
قرآئة القرآن على مكث... ١٢٣
صيانة القرآن عن التحريف (١)... ١٢٦
صيانة القرآن عن التحريف (٢)... ١٣٨
القرآن كريم لا يمسه إلا المطهرون... ١٤٥
تعليم القرآن غاية قصوى لخلق الإنسان... ١٥٧
السبع المثاني و القرآن العظيم لكنهم جعلوا القرآن عضين... ١٦١
القرآن لا ريب فيه (١)... ١٧٣
القرآن لا ريب فيه (٢)... ١٩٠
القرآن آيةٌ بينة رسالية (٣)... ١٩٤
القرآن يهدي للتي هي أقوم... ٢١٩
القرآن فرقان ونذير للعالمين... ٢٣٤
القرآن الفرقان في آل عمران... ٢٤٠
القرآن مهجور بين قومه صلى‌الله‌عليه‌وآله... ٢٤٧
وهم ينهون وينأون عنه!!!... ٢٤٩
القرآن قول ثقيل... ٢٥٥
فهل القرآن سحر يؤثر... ٢٦٤
القرآن مجموع من عند اللهّ... ٢٧٦
لا تعجل بالقرآن... ٢٨٢
القرآن ذكرٌ ميسَّر للمتقين... ٢٨٦
القرآن بيان قاطع لا مردًّ له وكتمانه لعنة (١)... ٢٨٨
القرآن وشهادته على ربانية آياته (٢)... ٣٠٢
شهادة القرآن على ربانية آياته (٣)... ٣٠٥
القرآن شاهد بنفسه على ربانية آياته (٤)... ٣٠٩
مجد القرآن وعظمته... ٣١٨
لو انزلنا هذا القرآن على جبل!... ٣٢٢
رسالة قرآنية الى الجن... ٣٢٧
عمومية الدعوة القرآنية... ٣٣٦
القرآن نذارة عالمية... ٣٤٩
القرآن يصدّق كل وحي رباني... ٣٥٥
القرآن قول رسول كريم من اللهّ... ٣٦٧
القرآن بصائر ربانية... ٣٧٣
القرآن موعظة ربانية وشفاء ورحمة وهدى للمؤمنين... ٣٨١
القرآن يخرج من الظلمات الى النور... ٣٩٤
القرآن بلاغ للناس... ٤٠١
القرآن قيِّم لا عوج فيه... ٤٠٤
القرآن لا مبدل لكلماته ولا ملتحد من دونه (١)... ٤٠٨
القرآن لا تبديل لكلماته (٢)... ٤١١

حول النسخ... ۴۲۷
محكمات القرآن ومتشابهاته... ۴۴۴
تأويل القرآن... ۴۷۱
القرآن نور وكتاب مبين... ۴۷۸
القرآن لا اختلاف فيه... ۴۸۶
القرآن في ام الكتاب علي حكيم... ۴۹۳
القرآن في ولايته الشاملة... ۵۰۴
القرآن ذكر رباني كامل شامل... ۵۲۲
القرآن قَدر رباني إلى يوم الدين... ۵۲۶
القرآن تذكرة لمن يخشى... ۵۳۸
العلم يؤيد وحي القرآن... ۵۴۸
القرآن يقص خلافات إسرائيلية... ۵۵۱
القرآن عند أهل الكتاب... ۵۵۳
وعد رباني للرجوع إلى معاد الدعوة... ۵۶۷
بالقرآن يحلف تثبيتا للرسالة المحمدية صلى‌الله‌عليه‌وآله... ۵۷۰
القرآن حكم عربي واضح يعرب عن مرادات الله علما وعملاً... ۵۸۵
هل نسي الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله شيئا من القرآن... ۵۸۹
الفهرس... ۵۹۳